كتاب الهلال

أسرار الثورة المصرية

بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية

تقديم

الرئيس جمال عبد الناصر

بقلم

أنور السادات

سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٧٦ ـ ذو الحجة ١٣٧٦ ـ يوليه ١٩٥٧

No. 76 — July 1957

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

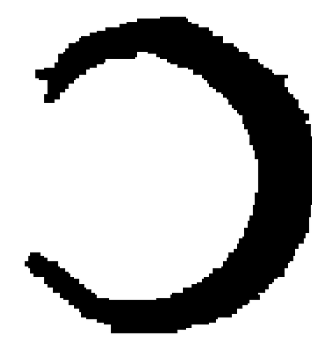
كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ـ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا ـ الامريكتين ٥٫٥ دولارات ـ سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

أسرار الثورة المصرية

بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية

تقديم

الرئيس جمال عبد الناصر

بقلم

أنور السادات

دار الهلال

هذا الكتاب ولاشك
خلاصة البواعث الخفية والأسباب
السيكولوجية لثورتنا السلمية

جمال عبد الناصر



الرئيس جمال عبد الناصر

مقدمة

للرئيس جمال عبد الناصر

فرغت من تصفح كتاب القائمقام أنور السادات ، وساءلت نفسى عما دفعنى لهذا الاعجاب به ، فجاءنى الرد المنطقى فورا، انه مضمونه المتحلى بسلامة الاسلوب ، وقوة التعبير ، وطابع البساطة فى سرد الحوادث ، وعرض المواقف ، فى الوقت الذى أرى فيه الكاتب قد تجنب الحديث عن نفسه • فنجده لم يعمد لكتابة قصة حياته ، ولم يقم بتحقيقات صحفية كبرى ، بل قدم لنا سلسلة رائعة متصلة من المشاهدات التى مرت تحت بصره وسمعه ، فجاء كتابه مجموعة لصور حية ، جمعتها ريشة رسام ماهر ، وصورتها فى صورة واحدة ، أبرزت من مجموعها حقائق وأسانيد ، تتيح لنا دراسة أحوال مصر المعاصرة عن كثب •

لقد استخدم أنور السادات هذه السجايا فى جميع أدوار حياته ، كما أحسن استخدامها فى خدمة القضية الوطنية ، فنجده قد سجن فى شهر نوفمبر عام ١٩٤٢ بأمر العدو المستعمر ، ثم أعيد اعتقاله عام ١٩٤٤ لنشاطه الوطنى ، ولكم تحمل من ألوان الحرمان والتعذيب ، فلم تهن عزيمته ، ولم تتزعزع عقيدته،ولا ولم يفت ذلك فى عضده ، بل ازداد رسوخا وايمانا ، ولا غرو ، فعلى قدر أهل العزم تؤتى العزائم ، فكان له من سنوات سجنه الطويلة فرصة للتفكير ، والتفكير مليا ،

حتى رجع بتمعنه وتأملاته الى آلاف السنين الخوالى ، وطالع ما صدر خلالها من مطامع العالم التى شخصت وتجمعت حول هذا البلد الطاهر ، فظل الشعب المصرى الابى الكريم رازحا تحت نير الاستعباد ردحا طويلا من الزمان ، متخلفا بذلك عن تقدم سائر البلدان ، فما كاد يفر من معتقله ، حتى صار رمزا حيا للمطالبة بالحرية ، ومعبرا صادقا للشعور الجامح الذى سرى فى شعب وادى النيل أجمع ، من البحر الابيض المتوسط حتى أعالى خط الاستواء ، مطالبا بالتحرر من الظلم والاستعباد والطغيان

هاهو ذا يكافح بهمة لاتعرف الكلل فى سبيل المثل العيا ، فى الوقت الذى نرى فيه الجموع العالمية ، تطالب أيضا بتحقيق العدالة الاجتماعية ، ولا جدوى فى انكار مطالبها



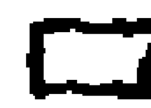
لقد عمل الضباط الاحرار جاهدين ، من أجل اذكاء الحماسة فى القلوب التى ابتأست ، واشعال الجذوة فى النفوس التى اتقدت ، حتى يستطيع الشعب الكريم ، مجابهة أعدائه

كان النظام الملكى الرجعى المنوط بأسرة أجنبية ، حائلا دون تقدم البلاد ، فكان أول لزام على الثورة ، أن تهدمه تماما وتقضى عليه ، لتفسح الطريق أمام نهضة البلاد ، ثم أصبح لزاما عليها بعد ذلك أن تقتلع جذور الفساد والمحسوبية والرشوة والرجعية والحزبية المغرضة البغيضة ، حتى تطهر البلاد من الادران ، وأخيرا وليس آخرا كان لزاما على الثورة أن تعبىء الشعور العام ، وتدرب الجموع المتكتلة الحاقدة على عدوها الغاصب لمجابهة ذلك العدو بكل ثقة واطمئنان ... وقد كان

وكم من مرة تأرجحت سفينة الثورة ، فى ذلك اليم المتلاطم

الامواج ، اذ لم يكن من اليسير مقاومة قوى الانحلال الهدامة، وما اليها من تقاعس وتهاون وخيانة · كان الكفاح طويلا مريرا ، ولكن المثابرة لم تذهب سدى ، فظلت السفينة ثابتة عاتية تتكسر الامواج على دروعها القوية الواحدة تلو الاخرى ، ومضت السفينة تشق طريقها قدما ، فقامت مصر الحديثة ، مصر الجمهورية الفتية

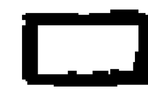
والآن ، وقد استرد الشعب عزته ، واستعاد حريته ، وأصبح يشعر بكرامته ، ويدرك حق الادراك مصالحه العليا ، المؤسسة على التحرر من الاستعمار والمساواة المدنية والسياسية ، نجد أن الفوارق الاجتماعية التي كانت شاسعة البين ، قد انهارت مفسحة الطريق أمام القيم الاخلاقية التي تقدمتها،وقد تضافرت فيها الجهود ، وتوجهت بعزيمةلاتعرف الكلل الى الاعمال الناهضة الانشائية ، فالشعار الصريح الواضح لعهدنا الجديد هو التعاون التام للعمل والانتاج



لقد تسلمت الثورة القيم الوطنية وديعة بين يديها،وستسير بالشعب المصرى قدما ، فى طريق الانشاء والتعمير ، المحاط بجو الهدوء والاستقرار ، وستتقدم بالامة فى سبيل الرقى والازدهار

شاهدت مصر فى خلال السنوات العشرين الاخيرة ،أحداثا بدت لاول وهلة ، متشعبة الاطراف ، متعذرة الفهم والادراك، فاذا ماحققنا النظر فيها عن كثب ، راعنا مافيها من خيوط مرتبطة بعضها ببعض ، تقودنا لنتيجةواضحة ، فروح السخط التى سادت الجيش من جراء فساد الحكم ، والتألم المرير الذى شعر به المصريون اثر احتلال أرض الوطن وعزوف المسئولين عن اجراء اصلاحاتأساسية واجبة،وحربفلسطين، الى غير ذلك ... فاذا ما اقتفينا أثر هذه الخيوط تكشفأمامنا

منطق واضح سليم ، أدى بنا للنتيجة الحتميـة التى حـدثت وجعلت ماكان يبدو غامضا فى بادىء الامر ، واضحا جليا فى نهايته



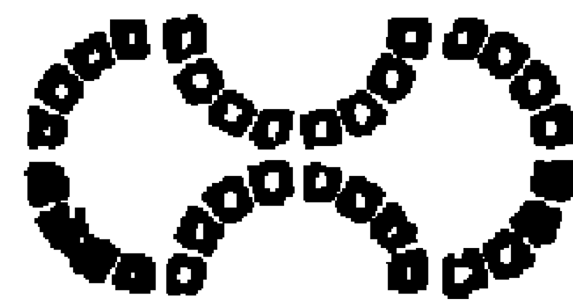
لقد حلل المؤلف فى كتابه الشخصيات والاحـدآث تحليلا دقيقا ، مما جعل الكتاب مرجعا قيما يعتد به ، حاولت جاهدا أن أوضح مضمونه وأن ألخص فصوله المتعددة ، فلم أجد خيرا من هذه الجملة المختصرة :

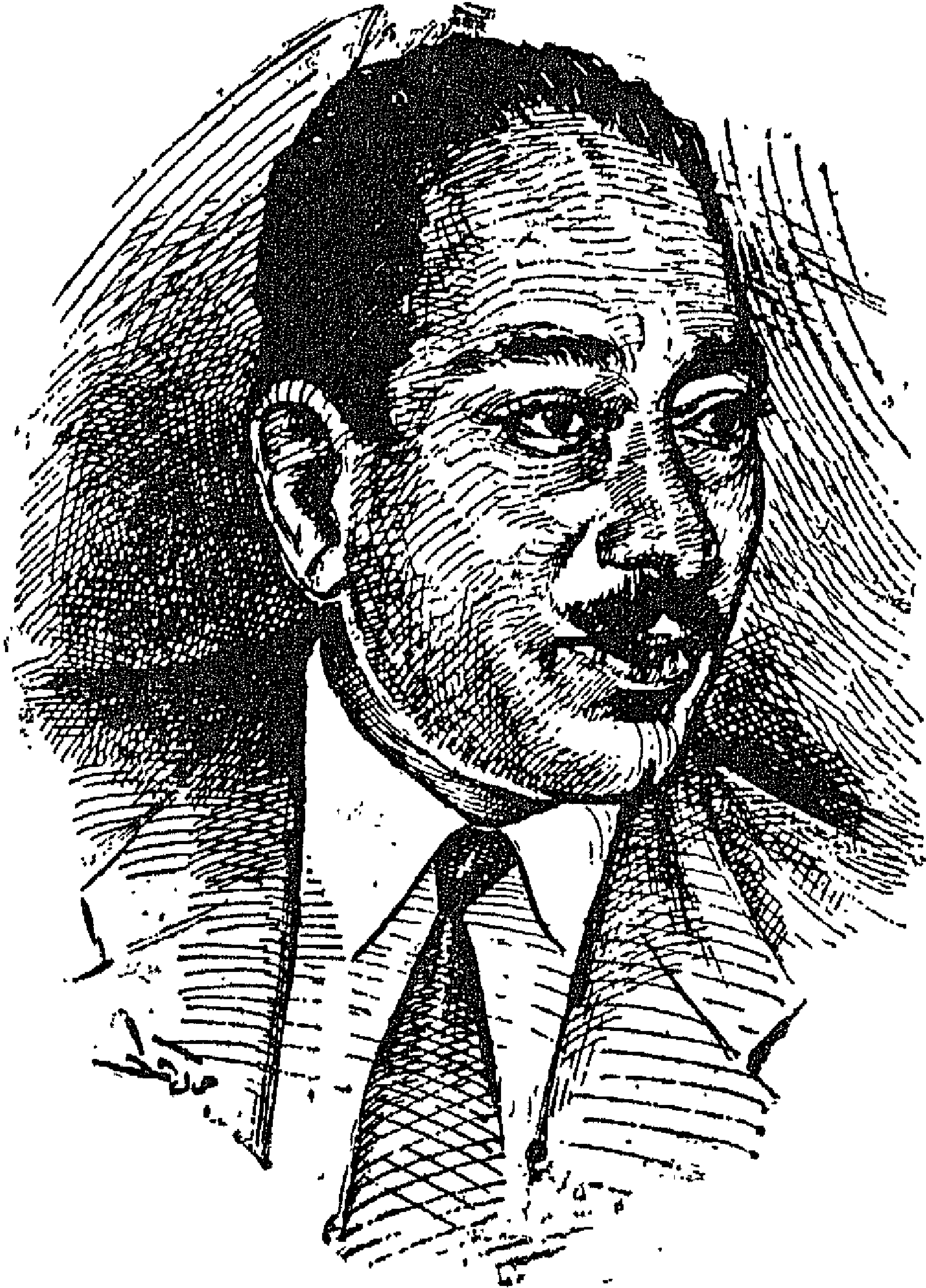
« هذا آلكتاب ولا شك خلاصة البواعث الخفية ، والاسباب السيكولوجية ، لثورتنا السلمية »

وقف الكتاب قرب منتصف عام ١٩٥٢ ، سـنة التحرير والبعث ، التى سجلت أحداثا خطيرة لبلادنا ، اذا ما استعدنا ذكراها ، لرأينا عهدا بائداتغرب شمسه ، وعهدا جديداناهضا تشرق أنوآره ٠

شـكرا للمؤلف فقـد أتاح لنا أن نرى فى الحاضر المزدهر الخصيب ما يبشر بالمستقبل آلباسم الزاهر

جمال عبد الناصر





القائمقام انور السادات

مفاجأة مع الفجر

- ذهب الملك .. تحيا القيادة !
- أسلحة جديدة لتضليل الشعب
- هل هم من جماعة الاخوان ؟
- أثنا عشر ملكا بدلا من فاروق
- الانحناء دائما سياسة سادة الموقف
- الثورة الرشيدة لا تقبل وصاية من احد

ان أحداً لم يكن يتوقع شيئا عنـدما نام ليلتـه فى نهاية اليـوم الثانى والعشرين من شهر يوليـو عام ١٩٥٢ ، فلما أصبح الصباح كان الناس فى شبه ذهول٠فقد توالت الاحداث منذ الفجر على صورة لم يألفها هذا الشعب ولا كانت تستطيع أن تطوف بخياله ، بعد أن تاهت منه أحلامه وآماله ، فى ظلمة الايام وسواد الليالى ، طيلة أشهر ستة ثقيلة مرة

رأى كفاحه المسلح من أجل حريته ، ينتكس فجأة يوم ٢٦ يناير ٠٠٠ ورأى مدينته العزيزة تشتعل بالنار التى انطفأت فى اليوم نفسه من معسكرات أعدائه ٠٠٠ ورأى أبناءه الذين ذهبوا يذودون عن شرفه وحريته ، يعودون الى المدينة مكبلين بالاغلال ، ليقضـوا أيامهم خلف أسـوار المعتقل ٠٠ ثم راى نفسه ، وقد أصبح فى نظر الحاكمين خطرا داهما على أرضه ، ووطنه ومدينته ، فألزموه البيت كلما جاء المساء ، عقابا له على انطلاق آماله ، والزاما له بالتكفير عن خطاياه ٠٠٠

ورأى الاشـاعات والمخاوف تمـلأ الجو من حوله ، حلقات الخيانة والدسائس تحيط بحياته، وخمسا من الوزارات تتتابع على مقاعد حكمه العرفى ، لم يعرف لماذا أتت ، ولا لماذا ذهبت ولكنه لعنها جميعا فى سره وفى علنه ٠٠٠ وما كان يملك غير هذه اللعنات ، وقد سلب القدرة على العمل ، وسدت فى وجهه منافذ الآمال ٠٠٠

وفجـأة ، وبدون أية مقـدمات ، تحـرك الجيش وتوالت الاحداث

وفى صباح ٢٣ يوليو ، كان الناس بين مصدق ومكذب٠٠ كانت الفرحة تشملهم،ولكنها فرحة تشوبها المخاوف،وتنتابها

الظنـون والتكهنات لأن البيـان الذى طلع عليهـم لم يشف نفوسهم ، ولم يضىء أمامهم كل المصابيح

وجاء الاصدقاء الى القيادة ، ونفوسهم تحترق على مصيرنا، اذا نحن لم نجهز على الملك ، واذا نحن حصرنا هذه الضربة فى نطاق الجيش وحده ، كما فهموا من البيان ....

وأخذوا يذكرون الفساد والاستهتار وما آلت اليه البـلاد من فوضى سياسية وخلقية ومعنوية ... ويطالبوننا بالعمل الكبير الحاسم قبل أن تضيع الفرصة ، وتفلت الآمال ...

وكان هؤلاء جميعا أصدقاء ... مجرد اصدقاء ، شباب ، مخلصين .. ولم يكن بينهم واحد فقط من رجال السياسة وقتذاك ..

ومضى يوم ٢٣

ومضى يوم ٢٤

ومضى يوم ٢٥

مرت هذه الايام الثلاثة ، ولم نسمع فيها كلمة من سياسى واحد ، ولم نر فيها وجها لسياسى واحد ...

لقد لزم فيها جميع السياسيين بيوتهم، واعتصموا بالصمت والحذر : فلم يتحرك منهم الا اولئك النفر الذين ظنوا أن الملك باق على عرشـه ، فهرعوا يقيـدون أسـماءهم فى سجـل التشريفات ... يوم ٢٤

وجاء يوم ٢٦

وما أن وافت السـاعة الحادية عشرة والنصف من صباح ذلك اليوم ، وكان قد عرف فى دوائر السياسة أن فاروقا قـد وقع التنازل وانه بسبيل مغادرة البلاد فى الساعة السادسة ، حتى وقعت المعجزة ...

وكانت المعجـزة ، هى خروج السـياسيين من جحورهم ، وتقاطرهم علينا

وفود ، وفود من السياسيين ، من جميع الالوان والمذاهب والاتجاهات ، تطرق أبوابنا فى مقر القيـادة بثكنات مصطفى باشا ، ابتداء من الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح ذلك اليوم ...

جاءوا الينا جميعا ، حتى أولئك الذين قيدوا أسماءهم قبل الامس .. ولاء واخلاصا فى سجل تشريفات الملك ...

دور البطل

ولم يضيع السياسيون وقتا بعد ذلك ...

فمنذ الصباح فى يوم ٢٧ ، بدأت كل هيئة سياسية ، بل بدأ كل سياسى فى هذا البلد ، يعد نفسه لمعركة جديدة يحلم فيها بدور البطل ...

لا شىء قد تغير ، فى نظر السياسيين والهيئات السياسية

لا شىء ، الا اختفاء شخص الملك ، وظهور اشخاص رجال القيادة ...

كان لسانهم الناطق يقول : ذهب الملك تحيا القيادة !!

وهذا التغير الشكلى ، قد يستتبع تغييرا فى الاساليب ، وتجديدا فى أسلحة السياسة ، ولكنه لا يستتبع أبدا ، تغييرا فى الهدف .. الهدف الرئيسى لاحتراف السياسة منذ وجد فى مصر محترفوها ...

ومثلما خاض السياسيون المعارك تحت أقدام فاروق فى سبيل الوصول الى أسلاب الحكم ومغانمه بدأوا منذ اللحظة الاولى لطرده يخوضون معركة جديدة ، يقسمون فيها هـذه الاسلاب والمغانم ...

وكان لا بد أن يختار كل منهم سلاحا جديدا يناسب لون المعركة الجديدة ... وكان لا بد ان يكون السلاح براقا أمام أسلحتهم القديمة ..

وكان هـذا البريق ، هـو المنطق المعقـول الذى يحاولون

الدخول به الى الاذهان . فاذا ما انفتحت عقول الناس لهم ، اكملوا القصة باكاذيب واراجيف تعودوا صياغتها ، لكى يصلوا الى ما يبتغون

وكانت عقول الناس فعلا ، مهيأة لقبول اى منطق معقول..

وقد راى الناس اشياء لم يستطيعوا فهمها ، وسمعوا عن اسماء لا يعرفون عن اكثر اصحابها شيئا ، وترددت فى آذانهم اشاعات لا يستطيعون تكذيبها لان الحقائق لا تزال مستورة عن عيونهم

أين الحقيقة

كان الناس يريدون أن يعرفوا من أمر هذه الثورة ومن أمر الرجال الذين يقودونها كل شيء

كانوا يريدون أن يعرفوا من نحن وأين كنا وكيف اجتمعنا ومتى اجتمعنا وكيف أعددنا خطتنا وما هى تفاصيل هذه الخطة وكيف نفذناها وماذا ننوى ... وهل لدينا مشروعات معدة وماذا يدور فى رءوسنا وماذا سوف نصنع ... وكيف نجحنا ... ؟

هل من ورائنا قوة معينة .. وما هى هذه القوة .. ؟

هل فى صدورنا اتجاه معين .. وما هو هذا الاتجاه .. ؟

أسئلة كثيرة كانت تدور برءوس المصريين جميعا ولم يكونوا يجدون لها جوابا منا .. ولكن .. كانت الاشاعات تجيب « » !

وانطلقت أول اشاعة تقول ان هذه الثورة ، ثورة اخوانية يقودها ويوجهها من وراء الستار الاخوان المسلمون

وكانت هذه الاشاعة تطوف بالناس وبين يديها دليل يؤكد صدقها ..

فقد كان أول اجراء اتخذته الثورة كجزء من برنامجها الضخم فى ازالة آثار الماضى البغيض ، ومحاسبه المسئولين عنه

بالحق والعدل ، هو الامر الذى صدر باعادة التحقيق فى قضية مقتل المرحوم حسن البنا ، مرشد الاخوان المسلمين ...

ولم يقل الناس ان هذا مصرى قد قتل بليل ، وأحاطت بالتحقيق فى مقتله ، ظروف مريبة ، واتخذت فيه اجراءات شاذة ... ثم طوى على سر دفين ، وقاتل مجهول .. لم يقل الناس هذا ولم يقولوا ان من حقهم كمصريين أن يعاد التحقيق فى هذه الجريمة المنكرة وأن يؤخذ جناتها بالقصاص..

ولكن قالوا ، ان خلف الثورة جماعة الاخوان المسلمين ..

وبدأ بعد ذلك تساؤل كثير ...

ان كانت هناك صلة بين هذه الثورة، وبين الاخوان المسلمين ... فمتى بدات !

والى اى مدى وصلت ؟

وماذا كانت أهدافها ؟

وماذا أنتجت ؟

وهل استمرت ، أم انقطعت ؟

وفى جملة واحدة : ما هى قصة الثورة مع الاخوان المسلمين ؟

سؤال واحد ، يعود بالذاكرة الى اثنى عشر عاما قبل ظهور هذه الثورة .. الى عام ١٩٤٠ عندما بدات قصتنا مع الاخوان

وهذه القصة لا يعرفها المصريون ، ولا يعرفها جمهرة الاخوان ولا يعرفها العدد الاكبر من رجال قيادة الاخوان. وكل ما يعرفه المصريون هو ما ذاع من اشاعات بعد ذلك بأيام

ومع ذلك ... فليس هذا هو كل ما لابس هذه الثورة من مظاهر ، ومن اشاعات ... ومن محاولات ...

فقد كان هناك الوفد أيضا ...

وللوفد أيضا قصة مع هذه الثورة قصة لا يعرفها المصريون

... ولا يعرفها أيضا عدد كبير من رجال الوفد أنفسهم

فالناس لا يعرفون ان اتصالنا بالوفد قد بدأ قبل ظهور الثورة بزمن طويل .. ولا يعرفون أننا فى وقت من الاوقات قد وضعنا خطتنا على أساس أن نأتى بالوفد ونفرضه فرضا على فاروق، كشرارة أولى للثورة ، ثم نكمل نحن تنفيذ الخطة

لا يعرف الناس شيئا من كل هذا ، ولا يعرفون كيف تخاذل الوفد عن القيام بدوره فى هذه الخطة ، ولا لماذا ...

ولكن هذا كله يعرفه بعض زعماء الوفد .. الذين حاولوا بعد يوم ٢٧ يوليو أن يفرضوا وصايتهم على الثورة ... وأن يمهدوا لهذه الوصاية بسيل كبير من الاشاعات والروايات ، والمظاهر .. وأن يحاولوا خلق أمر واقع يحيطون به الثورة ويلبسونها ثوبا لم تفكر فيه يوما من الايام !

وقد بدأ هذا بمجرد عودة مصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين من الخارج فى الاسبوع الذى تلا طرد فاروق

عاد الرجلان .. فعاد النشاط الى أقصاه فى صفوف الوفد الاجتماعات المتتالية تعقد ...

ومندوبوا الصحف يسهرون الليالى فى دار الزعامة ...

وأعمـــدة الصحف تمتلىء كل يوم بالاخبـــار والاسرار والتكهنات والقرارات الخطيرة التى يتخذها رجال الوفد .. !

وعاد الشباب الوفدى فورا . يملأ ردهات النادى السعدى، وعاد الهمس وعادت الهتافات وســارت الاشــاعات ، تشكل الوزارة ، وتملأ المناصب الهامة فى الدولة ، وتتكهن بالمستقبل وتحدد تواريخ الاحداث الخطيرة المقبلة

وسمع الناس أيضا هذه الاشاعات .. ثم لم يســأل احد منهم نفسه سؤالا واحدا ، يستطيع أن يقضى عليها ...

لماذا عاد النحاس وسراج الدين من مصيفهما بأوربا عقب الثورة مباشرة ؟!

أيمكن أن يكون الزعيمان الكبيران قد ارتحلا الى أوربا ابان أعنف الازمات السياسية التى وقعت فى تاريخ مصر .. وخلال أحلك الليالي التى مرت بشعب مصر ، منذ احترقت القاهرة، واضطربت كل موازين الحكم فيها ، أيمكن ان يكون الرجلان قد سافرا الى أوربا ليفكرا هناك بهدوء فى امر هـذا الشعب الذى يزعمان زعامته، وهذا البلد الذى حطمه الخراب والطغيان

لماذا يتركان البلاد فى محنتها ، فلا يعـودان اليها الا يوم يترامى الى اسـماعهما حديث الثورة ، فينبه فيهما شـهوة جائعة الى الغنيمة ، وقد ظنا انها أصبحت سهلة بلا حراس ؟!

ولكن سؤالا كهذا لم يطف بخاطر احد ممن سمعوا اشاعات الوفد تنطلق فى كل يوم ...

وبينما كان الناس فى دوامة الاشاعات كان سراج الدين يعد خطة الاستيلاء على الغنيمة ...

خطة الوفد

وكانت خطة الوفد فذة فى نوعها ...

فقد بلغ النشاط الوفدى أقصاه ، وملأت الاشاعات جميع الأذان ، اشاعات ان الوفد قد سيطر على الموقف تماما ، وان قادة الثورة قد أيقنوا انه لا سبيل لهم الى تحقيق أى هدف من اهداف الثورة ، الا اذا احتضن الوفد هذه الاهداف ...

وكانت عودة النحاس وسراج الدين من الخارج عقب الثورة مباشرة والزيارة التى قام بها النحاس الى القيادة فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، من الدعائم القوية التى استندت اليها هذه الاشاعات لتصل الى الناس فى صورة الحقائق الثابتة المقررة ...

ولم يبق أمام الوفد الا ان يقنعنا نحن أيضـا بصحة هذه الاشاعات التى أطلقها ... عنا !

كان الوفد فى هذه المرة يسير وفق خطة على درجة طيبة من الاحكام ...

فكان ما نسمعه من فؤاد سراج الدين هو نفس ما نسمعه من الشباب الوفدي جميعا على اختلاف ثقافتهم والوانهم ..

وكان الهدف من هذا النشاط والهتافات والاشاعات والتحركات ، هو اشعار البلد أولا بأن الوفد يضع خطة المستقبل بوصفه حزب الاغلبية الذى يمثل الشعب وبوصفه القوة الحقيقية التى تستطيع هذه الثورة أن ترتكز عليها ، ولا تستطيع أن تعمل شيئا بدونها ...

كان الوفد يريد أن يجعل من هذه الدعوى امرا واقعا ، لكي يتسلل الينا بعد ذلك ، ويواجهنا بهذا الامر الواقع : ان القاعدة الشعبية الوحيدة فى البلاد ، هى قاعدة الوفد ، واننا لا نستطيع ان نعمل دون الارتكاز عليها ! ..

وفى صباح يوم من أيام اغسطس ١٩٥٢ ، اى بعد الثورة باسبوعين تقريبا ، ايقظونى من نومى فى منزلى لكى اقابل ضيفين يطلبان مقابلتى لأمر خطير ...

فدخلت غرفة الاستقبال ، فوجدت زميلين من زملاء المعتقل ...

وكان طبيعيا ان نتذاكر شيئا عن الماضى الذى جمعنا فى معتقل واحد فى عهود الظلم والارهاب ...

ولكنني أحسست انهما قد أعدا حديثهما ، ورتباه ونمقاه، بحيث يلقى كل منهما حلقة من حلقات الحديث فيتبعها زميله بحلقة أخرى ، تكملها فى نفس الاتجاه وفى صورة الكلام العرضى الذى يجلب بعضه بعضا دون تحضير !

ودخلا فى الموضوع

قال أحدهما :

ـ انت تعلم طبعا تمام العلم ان هذه الثورة ليست ثورة

الجيش ، وانما هى ثورة الشعب ... وكل مصرى حريص أشد الحرص على أن تصل هذه الثورة الى أهدافها كاملة ، فنحن بهذا مسئولون جميعا مسئولية متساوية نحو الثورة..

امنت طبعا على هذا الدخول ... فاستطرد الضيف الوفدى نحو هدفه :

ــ ان الكتلة الشعبية لا تتمثل فى اية هيئة أو حزب فى هذا البلد ، الا فى الوفد ... والوفد هو التنظيم الوحيد الذى يستطيع أن يسند هذه الثورة لانه هو الذى مهد لها بل هو الذى بدأها فعلا ...

وأوشك زميله ان يتم الكلام لولا انى استوقفته لحظة اسأله فيها ، كيف بدأ الوفد هذه الثورة ، وكيف مهد لها ..؟ فقد تكون معلوماتى عن قصة الثورة وقصة الوفد معلومات ناقصة ...

قال الضيف الثانى :

ــ الا تعلم أن هجوم الوفد فى الفترة الاخيرة على فاروق هو الذى شجع الجيش على أن يضرب ضربته .. ؟ والا تعلم أنه كان متصلا بكم فعلا فى الجيش ؟!

وقبل أن أحاول الاجابة ... سألنى ضيفى فى حماس..

ــ كيف تولون على ماهر الحكم ، وهو الرجل الذى لا يستند الى الشعب ولا الى أى حزب من الاحزاب ؟!

وأكمل صديقه قائلا :

ــ ان على ماهر رجل عاش طول حياته يدبر المؤامرات ، وانه فى سبيل أحقاده وكراهيته لبقية الاحزاب سينحرف بالسلطة وسيستغل هذه الثورة لنفسه ، ولن يظفر بايمان الشعب به فى يوم من الايام ...

وكنت ساكتا ، لأعطى الفرصة للضيفين العزيزين ، فأكمل الثانى :

ـ ان هـذه الثـورة لن تستطيع أن تسير او تحقق شيئا ما لم تستند الى أكبر قوة سياسية فى البلد وهى الوفد ... ثم أن سراج الدين على أتم الاستعداد للتعاون معكم فى كل شيء ... وانت تعرف أنه كان ـ وهو وزيرا للداخلية ـ يوعز لنا نحن الشباب الوفدى بالمظـاهرات التى تهتف بسقوط فاروق ، فى نفس الوقت الذى كان فيه يتظاهر بالولاء للملك ... وتعرف أيضا أنه هو الذى كان يقود معركة القنال لولا أن الملك حرق القاهرة ، لانه تبين ما يدبره له سراج الدين ..!

ولم أكن انا اسمع هذا الكلام لاول مرة فقد كان هذا الكلام شـائعا فى البلاد ، وكان بعض الناس قد بدأ يؤمن به فعلا . ولكنى كنت انتظر النتيجة التى يريد الضيفان أن يصلا اليها

مقابلتى لسراج الدين

ولم تطل الجلسـة أكثر من سـاعة ونصف ... ولم تزد طلبات الصديقين عن طلب واحد فقط هو ان تتم مقابلة بينى وبين فؤاد سراج الدين كى نتفاهم

ولم يكن هناك ما يمنع من هذه المقابلة .. وقد تمت فعلا .. فقابلت سراج الدين ، وقابل هو غيرى أيضا من الزملاء ..

وكانت مقـابلات مثيرة ... رأينا فيها أمورا كثيرة على حقيقتها وفهمنا ما أراده الوفد بنا وبالثورة وبالبلاد كلها .. واكملنا بها قصة الوفد ...

ولكن الناس لا يزالون يجهلونها ... بل يجهلها الوفديون انفسهم ..

وكل الذى عرفه الناس فى فجر هذه الثورة ، هو ما اشاعه الوفديون من انهم « أسياد الموقف، شاءتالثورة أم لم تشأ ! » وما دعموا به اشـاعاتهم من قصص كثيرة وروايات محبوكة عن قيام الثورة بالاتفاق مع الوفد .. وعن مستقبل الثـورة الموضوع بين أيدى رجال الوفد !

كانت اسطوانة واحـدة ، يرددها سراج الدين كما يرددها الضيفان اللذان أشرت اليهما ، وكما رددها كل من لهم بالوفد صلة من الصلات ...

وكنا نسمع هذا الحديث فلا نأبه به ، ونكتفي بالابتسام.. فقد كنا نرى أمام أعيننا مأساة خلقية من مآسي العهد الماضي، تريد أن تتخذ لها مسرحا جديدا نشترك نحن في بنائه واخراج مسرحياته ...

وكنا نبتسم ايضا ، لأن هؤلاء الذين كانوا يخاطبون الشعب بوصفهم « أسياد الموقف . شاءت الثورة أم لم تشأ » كانوا يتحدثون الينا بلهجة أخرى، بنفس اللهجة التي كانوا يتحدثون بها الى فاروق ... وكانوا يهدفون من وراء هذه اللهجة الى هدف واحد ، هو نفس هدفهم في أيام فاروق : الحكم ...

الدستور عند الوفد

وكانوا في الوقت نفسه يعتقدون انهم مناورون بارعون ، أمام فئة من العسكريين يجهلون السياسة وفنونها

وبدأ الوفد يفصح عن نفسه أكثر أو بدأ يفضح نواياه بنفسه ... بصورة ظاهرة

بدأ يلوح لنا بسلطات فاروق وأبهته وصولجانه وهي سلطات تكفي اذا وزعت على اثني عشر رجلا ، أن تجعل منهم اثني عشر ملكا لا ينقص أحدهم شيء من مظاهر الملك وسطوته ..

ـ واتركوا لنا بعد ذلك سياسة الحكم ، وكل مسئولية ..

ثم أردف في اغراء واضح :

ـ ونحن على اتم استعداد لتنفيذ كل ما تشيرون به

وظلت هذه الجملة تتردد في أذني وقتا طويلا ...

انها نفس الكلمة التي كانت تقال لفاروق من كل رجل يأتي به ليحكم البلاد باسم الشعب

انها الدستور الفعلي الذي جرى عليه حكم مصر ، منذ

وجد فيها دستور وبرلمان ... فقد كان دستور الشعب صفحات من الورق ، تغطى بها النواحى الشكلية للحكم « الديمقراطى !! » فى البلاد ... أما الدستور القائم المعمول به ، فقد كان دستور « الانحناء » كان الدستور يتلخص فى هذه الجملة الفذة « ونحن على أتم استعداد لتنفيذ كل ما تشيرون به ! »

وهذا هو الدستور الذى اراده الوفد لهذه الثورة أيضا ..!

لماذا ثار الجيش

هل تغير شيء فى نظر السياسيين ؟!

هل ثار الجيش من أجل هذا الشعب ؟!

هل ثار هذا الشعب من أجل حقوقه ورفاهيته ومستقبله ؟!

ابدا .. لم يحدث اى تغيير ... الا ان شخص فاروق قد غاب ، ليظهر فى مكانه اشخاص رجال القيادة .. يقنعون بالمظهر البراق وصولجان الملك وسطوته .. ويتركون مسئولية الحكم لاسياد الموقف ، يسوسونه ، لا بما تشير به مصلحة هذا الشعب ، ولكن بما نشير به نحن ... اصحاب الصولجان الجديد

انها سياسة الوفاق التى بدأها سراج الدين مع فاروق ، اراد ان يضطلع بها معنا نحن أيضا

ان رجال الوفد ، أسياد الموقف ، وأصحاب الاغلبية ، والمسيطرون على القاعدة الشعبية فى البلاد ، هم على اتم استعداد لان يفعلوا باسم الشعب كل ما نطلبه نحن منهم ، على الا نتحمل نحن اية مسئولية مباشرة ، وهم بهذه الصفات كلها كفيلون باقناع الشعب ، وتنفيذ رغباتنا .. نحن اصحاب الصولجان الجدد !!

انها سياسة « ذهب الملك تحيا القيادة ! » التى اعتقد السياسيون انهم قادرون على طينا وفرض وصايتهم علينا ..

والعـودة الى استلاب مغانم الحكم .. الذى لم يكن يعنى فى نظرهم الا الاسلاب والمغانم ...

كانت البلاد فى واد وكان السياسيون الذين تزعموها جيلا كاملا فى واد آخر سحيق ...

كانت البلاد تفكر فى أهدافها التى طال عليها انتظارها ... كانت تفكر فى الوسائل العملية التى تخلصها من آلامها الطويلة وشقائها الكثير .. من الاستعمار الجاثم فوق صدرها . من آثار الملكية البغيضة فى ربوعها وفى نفوس ابنائها من الاقطاع الذى يهـدد كيانها ... ولكن الزعمـاء لم يكونوا يريدون أن يحسوا بشيء من كل هذا كانوا يريدون أن يعـودوا الى كتم أنفاس هـذا الشعب وتكبيله بأغلال العبودية والفقر والمذلة ، ليظلوا مسيطرين على مصيره متحكمين فى ثروته ناهبين ارزاقه وخيرات أرضه ...

تفسـير التخاذل

وكانت هذه الحقائق صدمة مروعة لنا نحن الذين أزدنا فى يوم من الايام أن نفرض الوفد على فـاروق كجـزء من خطة كبيرة درسناها فى وقتها بامعان واحكام .. وعنـدما تخاذل الوفد عن تنفيذ دوره فى الخطة ، لم نحاول تفسير هذا التخاذل بأكثر من انه .. خوف

ولكنه لم يكن خوفا ، وكان شيئا آخر سيظهر جليا عندما يطالع القارئ قصتنا مع الوفد !

ان قصة الثورة ، قد اتصلت فى فصـول منها بالاخـوان المسلمين . واتصلت فى فصول منها بالوفد ...

وقال البعض ان الثورة قد أصبحت فى حضانة الوفد ..

وقلنا انها ثورة مصرية لمصر ...

اما لماذا اتصلت بالوفد ... ولماذا اتصلت بالاخوان ... وكيف كانت هذه الاتصالات ، فهذا ماتتضمنه الفصول القادمة من هذا الكتاب

فكرة العمر

- نار على جبل الشريف
- السلطان عبد الحميد فى منقباد ...
- اسود علينا عبيد للانجليز
- برقية من تشمبرلين
- رفضنا تسليم سلاحنا للانجليز
- انقلاب عسكرى فى مرسى مطروح ...

نار على جبل الشريف

يظن كثير من الناس أن هذه الثورة ، دبر لها تشكيل من الضباط اثر حادث معين جمعهم هدف وتدبير ...

وفى أجواء الظنون ، تجد الاشاعات كثيرا من نقط الارتكاز. تجد النقطة الاولى فى حرب فلسطين .. بين أشلاء الضحايا وخيانات فاروق وعصابته ...

وتجد النقطة الثانية ، فى تحقيقات الاسلحة الفاسدة وتدخل الملك لحفظ الدعوى بالنسبة لحاشيته ...

وتجد النقطة الثالثة ، فى تصرفات قيادة الجيش وكبار ضباطه الذين وضعوا أنفسهم فى احذية فاروق

ولقد كانت كل هذه الاحداث فعلا ، من الاحداث التى شغلت اهتمام الضباط الاحرار ، واستحثت خطاهم ولكن نشأة الثورة والتمهيد لها لم يستمد من حادث من الاحداث..

فقد نشأت هذه الثورة نشأة طبيعية ، ونما التمهيد لها نموا طبيعيا لانها كانت فى كل مراحلها ، تفاعلا طبيعيا قويا بين ضمير جيش مصر ، وضمير شعب مصر ...

متى نشأت اذن ... واين نشأت ؟

لنرجع الى الوراء ...

الى عام ١٩٣٨

ولنذهب الى منقباد ... !

فى هذه البيئة الخالصة ، حيث يشعر المصرى . بعناصره العريقة تملأ كيانه وتسيطر عليه ..؟

وفى الشتاء ... حين يقسو الجو ، وتتمرد العواصف

فتزداد الروابط بين الاصدقاء ، يقاومون بها قسوة الطبيعة وينتصرون بها على عواء الرياح

هناك حول نار فى معسكر المناورات بتبات الشريف ، كنا نقضى طرفا من كل ليلة .. أصدقاء كلهم صغار السن ، صغار المناصب ، كبار الآمال وافروا الشباب ...

ضباط لم تزد رتبة أحدهم عن الملازم ثان .. نتحرق طول النهار فى الجبل ، فكأنما الجبل مرآة تعكس نار القلوب .. !

وكانت فى القلوب نار ، نار لاتنطفىء لان وقودها يتجدد فى كل لحظة من احساساتنا الشابة المرهفة .. ومما يقع أمام اعيننا كل يوم من الصباح الى المساء ...

كانت آمالنا الكبيرة ، وعزة شبابنا تصطدم كل يوم بعدد كبير من الاحداث ...

فقد كنا ضباطا صغارا ...

وكان لنا قواد ...

وكان هناك ايضا ... انجليز .. !

وكان قوادنا المصريون لا عمل لهم الا اذلالنا .. والا الانحناء امام الانجليز ...

وكنا نرى هذا الوضع الكريه ، فنحترق .. ونسخط .. ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم ...

وماذا يستطيع ملازم ثان أن يفعل فى داخل النظام العسكرى وفى تلك الاوضاع الرهيبة الا أن يسكت ، ويكظم الغيظ ، ويدفن النار فى حشاه ..

هكذا كانت أيامنا ...

ولكن ليالينا كانت تختلف اختلافا كبيرا

ففى جو من الصداقة والالفة ، كنا نجلس فنمزح ، ونذيب فى هذا المرح ، شقاء اليوم الطويل ... شقاء الجسد ، وشقاء النفس وشقاء الغربة فى جبل بعيد ...

صديق .. واصدقاء

ولا ندرى لماذا كان يتوسطنا دائما شاب رقيق وديع ، عامر النفس بالصفا لم يكبرنا سنا ، ولا رتبة ... فقد كنا جميعا ابناء « دفعة » !

ولكنه كان الملتقى الذى جمع صداقتنا جميعا ... كنا نمرح ، فنضحك عاليا ، ونسخر من كل شيء .. ولا ترحم السنتنا أحدا .. وأحيانا نغنى .!

وكان يصنع كل ما نصنع ، ولكنه كان مع ذلك أيضا ، يفكر ... يفكر بقلبه ، ويفكر بوعيه ... ولا نكاد ننطلق فى المرح ، حتى نجد موضوعا هادئا ... يثيره بيننا جمال عبد الناصر ...

وربما كان موضوعا شخصيا ، وربما كان موضوعا عاما .. وربما كان ذكريات عابرة تمر به من حياته ، فلا يلبث أن يستنبط منها فكرة أو رأيا ، يثير بيننا مناقشة طويلة ... هادئة ...

وكان جمال يطوى نفسه على كثير من الآلام الشخصية .. آلام يذكرها منذ توفيت والدته وهو صغير ، فأثرت وفاتها فى حياته تأثيرا كبيرا ... لعل من أظهر عناصره شدة الحياء التى طبعت حياته حتى اليوم ...

وكان الى حيائه وهدوئه ، يمثل الشخصية الكاملة لابناء الصعيد .. فهو يكيف الحياة بمثله « الصعيدية » الخاصة ، فتجده وديعا رقيقا ملىء الصدر بالحنين ، اذا لمست نفسه لمسة عاطفية قد لا تحرك أحدا من الناس .. ولكنه ينقلب أسدا هصورا ، فى اللحظة التى يشعر فيها بأن أحدا ، فكر مجرد تفكير فى الاعتداء عليه ...

كان هذا الصديق بيننا ، صورة حلوة للاخاء ، والصداقة والاتزان ، والهدوء والكرامة .. فكان لهذا كله يستأثر

باحترامنا جميعا فكأنه فى سكونه وهدوئه وطابعه الخاص ، معنى مجسم حى ، لكل المعــانى والانفعــالات التى يمــكن استخلاصها ، من تفاعل العواطف الانســانية المتضاربة ، فى انسـان ... قست عليه الحياة ...

وهكذا ... وحول هذا الرجــل ، التامت مجمــوعة من الضباط الصغار الاصدقاء .. لم يكن احد يدرى أنها ستكون نواة لمجموعة أكبر واكبر ، وان اجتماعها فى تلك التباب البعيدة لن يكون مجرد صدفة تمر . ويتشتت من بعــدها شــمل الاصدقاء وانما سيكون البدء الحقيقى لجهــاد عنيف ومحن كثيرة وعمل خطير

السلطان عبد الحميد

وان كنا قد اخــذنا حيــاة قوادنا الكبــار فى ذلك الوقت بالسخرية العنيفة نطلقها فى ساعات المرح فقد جاء اليوم الذى لم تعد فيه السخرية تغنى عن آلامنا شيئاً ...

فقد القى علينا القدر بقائد جديد للمنطقة لم يكد يصل اليها حتى شعرنا بأن الذى وصل غاز من غزاة الترك !

كان يرى نفسه بيننا مثلما يرى السلطان عبد الحميد نفسه بين معالم اسطنبول الآمر الناهى الفظ الذى لا يناقش ...

واصبحت الحياة كريهة منذ اللحظة التى وصل فيها اللواء محمود سيف الى منقباد

كان هذا اسمه .. ولكننا كنا نسميه السلطان عبد الحميد لانه كان يفرض علينا تقاليد السلاطين

وبدأنا نيأس من خدمة الجيش . واعد بعضنا استقالته فعلا من هذا الجيش الذى يضم بين قواده .. السلطان عبد الحميد !

ولكننا نرى صبر جمال فنعجب .. ونرى هدوءه وصموده لهذا الذل الطويل فتسكن نفوسنا ، فقد كان جمال يعيش بأمل لم نحلم نحن به فى تلك الفترة السحيقة من حياتنا فى منقباد ..

واشتدت الصلات بين كل منا ، وبين المجموعة الكاملة .. حتى أصبح كل منا يفكر بعقلية الكل واصبح من حق كل منا أن يتصرف باسم الجماعة واصبحت هذه الجماعة يوما بعد يوم قيدا جديدا لتصرفاتنا ، لان كل عمل يأتيه فرد منها سينسب الى الجماعة شاءت أم لم تشأ .. علمت بالامر ام لم تعلم ..!

واني لاذكر تلك الايام والليالي ، اذكر مرحنا وآلامنا وأيام صداقتنا الجميلة الاولى .. والسلطان عبد الحميد الذى أراد أن يذل رقابنا ، كما ذل رقبته لصغار الانجليز ، وراح يتجول فى صورة شرسة مضحكة مبكية معا فى منقباد

جملة من جمال

اذكر كل هذا ، واذكر أننا فى خلال تلك الفترة الحالمة من حياة الشباب .. بدأنا نفكر ذات ليلة ..

وقال جمال :

انهم الانجليز أصل بلائنا كله ..

وكانت مفتاح تفكير طويل .. لم يلبث أن أصبح خطى عملية متتابعة .. كنا جميعا نعلم أن الانجليز هم أصل بلائنا كله .. وكنا جميعا نكره الانجليز .. ولكن هذه الكلمة قالها جمال ، وكأنه يحدد لنا رسالة كبرى ، لاينبغى أن يتخلى عنها أحد

وشهدت تباب الشريف ، والنار الموقدة عليهاعهدا مقدسا .. ربط مجموعة صغيرة من الشباب الصغار

لم يربطهم بعمل معين ، ولا بزمن محدد ، ولكن ربطهم .. بفكرة الحياة

خلايا ..

وبدأنا نجمع حولنا أنصارا لفكرة الحياة ، كل منا يختبر عددا من الضباط الآخرين .. ويكون فى محيطه خلية صغيرة

يثير فيها هذه الفكرة ، ويرى مدى استعدادها للعمل يوم يأتى وقت العمل ..

وبدأنا نخطو الخطوة الاولى فنحسب لها حسابا ونلقى الكلمة فنفكر قبل القائها مرتين ..

بدأنا ننزع من أعماقنا زهو الشباب ، ونحل فيها الشعور بالمسئولية والاقتصاد فى الامل

لقد قتل جمال فينا المرح ، وكنا فى شرخ الشباب !

وجاء الدرس الاول الذى أفدناه بعد ذلك فأصبح درس حياتنا ..

فقد مرت ايام قليلة .. كنا فيها لانزال فى فترة تكويننا الاولى ..

واذا بالشيء الذى نسيناه جميعا يقع .. وكنا خليقين بتوقيعه

فان ضابط الجيش لايستقر فى مكان واحد طويلا .. وان هى الا لحظة مفاجئة ، حتى كنا قد تفرقنا شعاعا . واحدا فى الاسكندرية ، والثانى فى طنطا ، والثالث فى القاهرة ، والرابع فى مرسى مطروح ..

وكانت الحرب اذ ذاك قد بدأت . والاعصاب توترت ورأينا حلمنا الكبير يذوب ويتساقط كما تتساقط حبات الندى عالقة بزهرة أو تذوب فى شعاع الصباح

وافترقنا ..

ولكن الحلم لم يذب .. والفرقة لم تستطع أن تكون حاجزا بين هذه المجموعة فى أقسى الظروف التى حلت بها

وفهمنا مع الايام هذا الدرس وهو أن الصداقة القوية عند ماتقوم على نقاء وطهر وعندما تتركز أيضا حول فكرة فانها قادرة على الحياة مهما فرقت الحياة بين الاصدقاء . بل هى اكثر من ذلك تستطيع وحدها صنع المعجزات

والذى وقع بعد تلك الايام ، هو الاثر القوى لهذه الصداقة

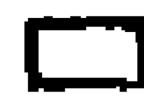
النقية التى ربطتنا .. فقد فرقت بيننا الظروف كثيرا ، وجمعت بيننا بعد ذلك كثيرا ..

وكنا اذ نفترق لاتفارقنا الفكرة ولاعهد الجماعة ، وكل ماهناك أن أحدنا كان يجد الفرصة للعمل ، فيعمل .. يعمل مستقلا بارادته فى ظاهر الامر ، ولكنه فى حقيقته يكون مقيدا بارادة الجماعة المتمثلة فى فكرتها الكبيرة .. وعهدها المقدس

وقد تختفى من بيننا أسماء فى كثير من الاوقات كما اختفى اسم جمال عبد الناصر عامين كاملين ، بين ديسمبر ١٩٣٩ وديسمبر ١٩٤١ . اذ كان فى هذه الفترة قد نقل الى السودان

ولكن الذى كان يبقى فى ميدان العمل .. كان يعمل .. يعمل بارادته ولكن باسم هذه الجماعة وفكرتها الاصلية ويعمل بارادته ولكنه يرجع الى من يستطيع الرجوع اليه من جماعتنا .. فى كل فرصة تواتيه لذلك ..

ولم تعد الايام تمر هينة ولا رفيقة فقد بدات أحداث كثيرة تقع .. بدات بالحادث الاول عام ١٩٤٠ .. وكان ميدانه ميدان القتال فى مرسى مطروح



كنا قد نقلنا جميعا من منقباد . وتفرقت جماعتنا بين وحدات الجيش فى مختلف أنحاء البلاد .. وبين السودان العزيز ..

وقد كان السودان من نصيب جمال عبد الناصر فقد نقل من منقباد الى امبابة .. وبعد شهر واحد نقل الى العلمين ، وقضى هناك اربعة شهور ، ثم نقل مرة أخرى الى أبى زعبل ، ومنها الى السودان ..

وفى فترة تنقلات جمال جمع على الفكرة عددا آخر من الضباط ..

وكنا نحن أيضا نصنع مثل هذا ..

ولم تكن نعرف على وجه التحديد ماذا سوف نعمل . لقد

كان هدفنا أن نقوم بدورنا فى تخليص البلاد من جنود الانجليز ولم تكن الفرصة لذلك تسنح أثناء الحرب ، وقد سيطر الانجليز على كل مرفق من مرافقنا .. واحتلوا جميع قواعدنا وطرق مواصلاتنا .. بل لقد كنا نحارب الى جانبهم أيضا ..

وسنحت أول فرصة لنا فى مرسى مطروح .. ولكنها كانت فرصة مفاجئة لم نستطع أن نحقق منها هدفا كبيرا .. واستطاعت هى أن تكشف للانجليز عن وجود اتجاه عملى ضدهم فى جيش مصر ..

كانت نيران الحرب قد اقتربت كثيرا من أرضنا العزيزة .. فقد بدأت جيوش ايطاليا تغزو منطقة مرسى مطروح ..

وكان الدفاع عن هذه المنطقة منقسما بين ثلاثة قطاعات :

قطاعين بريين ، ، يحتلهما الجيش المصرى . وقطاع بحرى يدافع عنه الانجليز .. كنا نحارب .. رغم أن مصر لم تكن قد أعلنت الحرب

وكانت سياط العذاب التى تلفعنا نحن الجنود والضباط ، تتلاحق علينا مع الليل والنهار ومع الاحداث المتعاقبة التى تمر بها البلاد ..

كان موقف مصر من هذه الحرب موقفا مائعا .. ولم يكن من السهل تحديده فى صورة مفهومة واضحة

وكان من المؤكد أن هذ الموقف أن تحدد ، فلن تكون مصر هى التى تحدده على التأكيد ..

ويلات الحرب

كانت سياسة مصر التى أعلنها رئيس حكومتها عند اعلان الحرب هى سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب»

ولم تكن مصر تستطيع أن ترسم لنفسها سياسة أوضح من هذه أو أكثر حسما وتحديدا .. فقد كانت هناك المعاهدة ..

وكانت جنود الاحتلال تملأ بلادنا ، وطائراتهم تجثم على صدور مطاراتنا وتنطلق منها الى الميادين القريبة الحافلة بالموت .. ودباباتهم تختال فى شوارعنا ومن فوقها جنود حمر الوجوه .. ومخازن ذخيرتهم ترصع ارجاء الوادى بالبارود والقنابل وأسلحة الدمار .. وكانت ارضنا فوق ذلك حقلا كبيرا يشرب حبات العرق من جباه آبائنا واخوتنا ليخرجها قمحا للغاصبين ..

وكان موقفنا نحن ضباط الجيش وجنوده ، هو الموقف الضنك .. فسياسة « تجنيب مصر ويلات الحرب» لم يكن معناها اننا لن نحـــارب فعلا .. وكان الذى يشقينا هو أن نسأل أنفسنا : نحارب من أجل من ؟ !

فهل كانت سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب» تحمل هذا المعنى واضحا وترسم خطته كاملة الى نهايتها !

لقد كانت تشير الى شىء ، أو ترنو الى أمل .. وهذا الشىء وهذا الامل هو الذى فهمته مصر منها .. وفهمه الانجليز أيضا

فهمته مصر ، فحاولت أن تستبشر به وفهمه الانجليز فأبرق وزير خارجيتهم لورد هاليفاكس الى سفير انجلترا « كيلرن » ببرقية قصيرة حاسمة :

أى : يجب أن تستقيل حكومة على ماهر ..

وكانت هذه البرقية كأنها القضاء الذى لايرد .. فاستقالت فعلا حكومة على ماهر ، لانها أشارت بسياستها الى شىء ورنت الى أمل ، وفهم الانجليز الشىء والامل !

لم يكن أمر مصر اذن فى يدها ، بل كان فى أيدى الانجليز .. وكنا ننظر الى المستقبل على هذا الوجه ، فلا يلبث أن يرتد الى الماضى .. الى الحرب العالمية الأولى التى سيقت فيها مواكب آبائنا مسخرين الى ميادين القتال يحفرون الخنادق ليموتوا فى أحشائها ، ويحملون الروث ليدفنوا تحت أكوامه ، ويلعقون العرق ليوفروا كؤوس الشراب للانجليز !

مخاوف وحراب

ويجلب الماضي صور بعضه بعضا ، فلا يشير الى بارقة أمل فى مستقبل البلاد تحت هذه الاوضاع

يجلب صورة الثورة المجيدة التى أشعلها الشعب عام ١٩١٩ فاطفأها زعماؤه يوم وصلوا الى الحكم واصبحوا أحزابا .. مطايا للأنجليز ..

ويجلب صورةالثورة المجيدة التى أشعلها الشباب عام١٩٣٥ ليجمع الاحزاب فى حزب واحد لمصر ، فاجتمعت الاحزاب فى حزب واحد ليوقع معاهدة الصداقة والتحالف مع الانجليز !

ويجلب صور شقاء كثيرة ! فقر ، وعرى ، وانقسامات وتضحيات ودماء .. يتحالف فوق أنقاضها الزعماء والانجليز !

وما تغير الزعماء

ولا خرج الانجليز ..

ولكن قامت الحرب .. وبدأت بوادر شقاء جديد

ماض كله حسرات ، ومستقبل كله مخاوف ، وحرب قائمة لابد أن نصلاها ، حتى فى ظل «سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب»

وفجأة علمنا ان أوامر من قيادتنا ستصدر لنا .. وعلمنا هذه الاوامر أيضا

وكانت هذه الاوامر ، تقضى بأن تنسحب الفرقتان المصريتان اللتان تقومان بالدفاع فى القطاعين البريين لتحتلهما قوات بريطانية حتى تنفرد بريطانيا بالدفاع عن النقطة كلها

والى هنا كانت الاوامر بسيطة يمكن قبولها ، ولكن الشق الاخير فيها كان يقضي بأن نترك سلاحنا ، ونسلمه للقوات البريطانية التى ستحتل القطاعين

وهاج الضباط وماجو ..

وتحرج الامر جدا ..

وصممنا على ألا نترك سلاحنا . ولو اقتضى ذلك أن نموت عن آخرنا . .

وكنت أجد فى هذا الاجراء فرصة مناسبة ، لتجعل من «فكرة الحياة» حقيقة مجسمة ، يشارك فى حمل اعبائها الجيش كله ، والشعب كله أيضا

وكنت أعتقد أن أى احتكاك منا بالانجليز سيقفز بفكرة الحياة مائة عام الى الامام . .

خطة لم تنفذ

وبدأنا نضع خطة كان من زملائنا فيها البكباشى أحمد حسن وجميع الضباط الصغار حتى رتبة يوزباشي بلا استثناء

كانت قوتنا هناك قوة مختلطة ، تسمى «القوة الحقيقية» . . وكانت تتكون من خلاصة الجيش المصرى ، تضم زهرة سلاح المدفعية وبقية الاسلحة الاخرى . .

فوضعنا خطتنا على أساس أن تعود هذه القوات ، فتحتل وهى فى طريقها الى القاهرة كل المرافق العامة ، ثم تفرض حكومة على ماهر مرة اخرى ، بعد استقالته المعروفة المدوية . .

كنا اذ ذاك فى شهر سبتمبر ، وكان على ماهر قد استقال فى شهر يوليو . وكان الشعور القومى ضد الانجليز قد بلغ أقصى مداه فى البلاد

وصدرت الاوامر لنا فعلا بالانسحاب وبترك اسلحتنا . . فرفضنا ترك السلاح وتقدمنا الى القاهرة

ولاكثر من سبب تبين لنا أن تنفيذ هذه الخطة سيكون وبالا علينا . . فقد أدركنا على أساس تقدير الموقف ، أننا لن نستطيع أن ننجح فيها الى نهايتها . .

فاكتفينا بالعودة بأسلحتنا كاملة . . واعتبرنا هذا نصرا كافيا لنا فى مرحلة جهادنا الاولى

وعلى الرغم من كل الاحاديث التى دارت بشأن هذه الخطة والتمهيدات التى كنا قد بدأنا نقوم فعلا بها ، فان الانجليز لم يكتشفوا منها أى شيء.. ولكنهم فى الوقت نفسه أدركوا سيطرة روح العداء لهم على ضباط الجيش الصغار .. وأيقنوا أن هذه الروح قد تلعب دورا أخطر من ذلك الدور فى يوم قريب

وبدأنا نحن نصبح هدفا لعيون الانجليز حيثما كنا .. فى القاهرة أو فى أى سلاح من أسلحة الجيش ننقل اليه ..

والكسب الاكبر الذى كسبناه من هذه الحادثة ، هو عودتنا الى القاهرة فقد جمعتنى القاهرة فورا بجميع أصدقاء منقباد .. ما عدا جمال الذى كان لا يزال فى السودان ..

وفى القاهرة بدأت اجتماعاتنا تتوالى وتتركز .. وأخذنا نفكر فى شيء نقوم به على أساس من الدراسة الكاملة ، وبحيث يكون توقيته الكامل فى أيدينا نحن لا فى أيدى الظروف وحدها

وكان فى خيالنا رجلان.. نريد أن نتصل بهما ، وأن نشركهما معنا فى عملنا الكبير ..

على ماهر .. صاحب البيان المشهور والاستقالة المدوية

وعزيز المصرى رئيس هيئة أركان حرب الجيش،وهوالرجل الذى وقع اختيارنا عليه عندئذ ، لكى يقود ثورتنا

وحاولنا أن نتصل بعلى ماهر ، فلم نستطع ..

وحاولنا أن نتصل بعزيز المصرى ، فاستطعنا .. ولكنا اتصلنا فى طريقنا اليه .. بالاخوان المسلمين ايضا .. !

مصادفة ورجلان

- الرجل ذو العباءة الحمراء ..
- اجازة اجبارية لعزيز المصرى
- لواءات يخونون جيش مصر
- اذهب الى هناك واقطع تذكرة ..
- اتهام عزيز المصرى بمحاولة قتل نازلى ..

الرجل ذو العباءة الحمراء

الزمن : ليلة مولد الرسول من عام ١٩٤٠
والمكان : سلاح الاشارة فى المعادى
وكنت اذ ذاك ضابطا برتبة ملازم فى هذا السلاح ..

ومولد الرسول فى مصر ، موسم من مواسمها ، يعرف الاطفال فيه عرائس الحلوى ، والاحصنة الصغيرة الملونة يركبها فرسان العرب .. وتعرف فيه البيوت والدواوين والمجالس النيابية ودوائر السياسة و قصور الاغنياء الحلوى الحمصية والسمسمية .. ثم .. لا شىء بعد ذلك ..!

وعلى هذا الوجه مرت بمصر هذه الليلة ، كما مرت بها دائما .. ولكنها لم تمر بى كذلك ، فقد كانت ، من حيث لاأدرى ، ليلة البدء لاحداث كثيرة متتابعة سمع المصريون أطرافا منها ، بعضها خافتا كالهمس ، وبعضها مدويا .. كالقنابل والمتفجرات!

كنا جلوسا فى احدى غرف السلاح ، نتناول العشاء ونتكلم..

وكان جنود هذا السلاح ، واغلبهم بطبيعة عملهم فى سلاح الاشارة فنيون متطوعون قد اعتادوا منى كثيرا أن احاضرهم واعتادوا منى دائما ان أتناول طعامى معهم ، وأن أحدثهم بصراحة وأن يحدثونى بمثلها

كنا فى أثناء استراحتنا وطعامنا ، اخوانا مصريين لا ضابطا وجنودا ..

ودخل علينا ونحن جلوس للعشاء فى ليلة مولد النبى جندى من جنود السلاح الفنيين ، لم يكن موجودا بيننا منذ بدء هذه

الجلسة ، وقدم الينا صديقا له يلتحف بعباءة حمراء لاتكادتظهر منه شيئا كثيرا

لم اكن اعرف هذا الرجل الى ذلك اليوم ، ولم يثر دخوله ولا ملبسه اهتمامى ، ولم يلفت نظرى .. وكل ماهنالك انى صافحته ورحبت به ، ودعوته الى تناول العشاء معنا ، فجلس وتناول العشاء ..

وفرغنا من الطعام ، ولم أعرف عن الضيف شيئا الا بشاشة فى وجهه ورقة فى حديثه وتواضعا فى مظهره

ولكنى عرفت بعد ذلك عنه شيئا كثيرا ..

فقد بدأ الرجل بعد العشاء حديثــــا طويلا عن ذكرى مولد الرسول .. كان هو اللقاء الحقيقى الاول بينى وبين هــــذه الذكرى ..

كان فى سمات هذا الرجل ، كثير مما يتسم به رجال الدين عباءته ، ولحيته ، وتناوله شيئا من الدين بالحديث ...

فليس حديثه هو وعظ المتدينين ..

ليس الكلام المرتب ، ولا العبارات المنمقة ، ولا الحشو الكثير ولا الاستشهاد المطروق ، ولا التزمت فى الفكرة ، ولا ادعاء العمق ، ولا ضحالة الهدف ، ولا احالة الى التواريخ والسير والاخبار ..!

كان حديثه شيئا جديدا ...

كان حديث رجل يدخل الى موضـوعه من زوايا بسـيطة ويتجه الى هدفه من طريق واضح .. ويصل اليه بسهولة اخاذة ...

وكان هذا الرجل هو المرحوم الشيخ حسن البنا مرشـد الاخوان المسلمين ...

الموعد الاول

وانتحى الرجل بى ناحية ، وتجاذب معى حـديثا قصـيرا

انهاه بدعوتي الى زيارته في دار جمعية الاخوان المسلمين قبل حديث الثلاثاء ...

وذهبت يوم الثلاثاء ..

ولم اكد أضع قدمي في مدخل الدار ، حتى شعرت بكثير من الرهبة ، وكثير من الغموض ..

دخلت من حجرة كبيرة جدا ، من هذه الحجرات التي عرفت بها الابنية المصرية القديمة ..

وقطعت هذه الحجرة بأكملها لانفذ من باب صغير ..

ونفذت من هذا الباب ، لالقى امامي شيئا كالحجرة ، او شيئا كالممر الطويل بين حجرات ..

وانما كان مكتبة ..

كان صفوفا طويلة من الارفف المتقاربة الملتصقة بالحوائط ، وقد صفت عليها مئات كثيرة من الكتب ملأت جو المكان برائحة الورق المخزون ...

وعلى بعد كبير في آخر هذا الممر .. كانت هناك عينان فقط ترسلان بريقا قويا ، هما كل ما يظهر من الرجل الجالس خلف مكتبه .. مرشد الاخوان ..

وتحدثت مع الرجل طويلا في ذلك اليوم ..

ولكنه لم يفتح لي كل نفسه ..

تحدث معي كثيرا .. ولكنه لم يخرج عن دائرة الدين ابدا

وحصر نفسه في هذه الدائرة ، ولكنه جعل يتسع بمحيطها شيئا فشيئا حتى اصبحت افقا كبيرا مليئا بالمعاني..

ورغم كل المحاولات التي بذلتها فقد فشلت ..

ورغم كل ما تطرق اليه الحديث من شئون الجيش ، فقد ظل الرجل ملتزما ناحية الدين ، واهمال الناس له ورسالة الايمان التي يجب ان يرتكز عليها جهادنا ، ووجوب نشر هذه الرسالة في صفوف الجيش ..

وتكررت زياراتى بعد ذلك للرجل

وبدأنا نتحدث فى كثير من الشئون العامة .. وبدات اوقن ان الرجل يطوى صدره فعلا على مشاريع كبيرة وخطيرة ... لايريد ان يفصح عنها .. كما ايقن الرجل ايضا انى لا انتوى الانضمام الى جمعيته ، ولعله شعر او ادرك أنى أعمل شيئا ، وانى لست اعمله وحدى ...

ولم يرد الرجل ان يعرض على الانضمام الى جمعيته ، كما انه لم يحاول ان يسألنى عن أية صلة لى بآخرين .. ولكنى فهمت انه كان يدرك اشياء كثيرة من الحقيقة فى مناسبة جاءت بعد ذلك بأيام ...

وفى يوم تقابلت معه ، وكنت ثائرا مكتئبا تملأنى المرارة والالم ...

فقد صدرت الاوامر فى ذلك اليوم باعطاء الفريق عزيز المصرى اجازة اجبارية من رياسة اركان حرب الجيش ...

وكان معلوما لنا ان وراء هذه الفعلة ايدى الانجليز ... وكان مجرد العلم بهذا كافيا لاثارة نفوسنا ، ودفعنا الى اى عمل قد يراه الكثيرون — فى مثل ظروفنا — من اعمال الجنون !

لواءات يخونون الجيش

فقد كنا نعرف ما اراد عزيز المصرى لجيش مصر من قوة ومنعة ...

وكنا قد بدأنا ننتعش بالنهضة الفعلية التى بعثها الرجل فى الجيش ...

وكنا نسمع كثيرا من القصص التى تروى عن محاولات عزيز المصرى الاصلاحية ، والمشاكل والعقبات التى توضع امامه ، والاحابيل والشراك التى تنصب له ، والتى عرفت بعد ذلك

للاسف الشديد ان الذى كان ينصبهـا له هم كبار ضـبـاط الجيش المصرى نفسه !

وكنا قد تحققنا من الشرك الاخير ، شرك الخيانة الحقيقية تقع من ضباط كبار ...

فقد جمع الفريق عزيز المصرى لواءات الجيش ليسألهم عن مدى حاجتهم فى اسلحتهم الى جهود البعثة الانجليزية ، ومدى ما حققته هذه البعثة فعلا من الاصلاح ...

وكان الجيش كله ، ما عدا هذه الفئة يتمنى اليوم الذى تزول فيه وصمة البعثة الانجليزية من وحداته واسلحته

وتـكلم عزيز المصرى مع الضـبـاط الـكبـار كلام مصرى لمصريين وكلام قائد لضباطه ...

ولـكنهم خرجوا من هذا الاجتماع لا ليفكروا ولا ليبحثـوا ولا ليسكتوا ... ولـكن لـكى يذهبوا الى السـادة الانجليز ويقصوا عليهم حديث قائدهم ...

وعادوا اليه فرادى ...

عاد كل منهم ، وطلب مقابلته لـكى ينهش فى لحم الآخرين

اجازة اجبارية لعزيز

ولعل كلا منهم كان يرمى من وراء ذلك الى الظهور امام الرجل بمظهر الوطنى ، نفيا للشبهة عن نفسه ، والصاقا بها فى الآخرين ، اذا حـدث ان وقعت الواقعة وعلم الرجل حـديث الخيانة ...

ولـكن عزيز المصرى ، فهم كل شىء ، وادرك انه بين جماعة من اللواءات لايفضل واحد منهم اخاه الا فى خسة النفس وبطلان الضمير ...

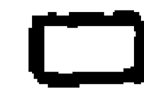
ولم تكن خيانة اللواءات هى كل ما احاط بعزيز المصرى من الشراك ...

فقد كان الانجليز احرص من الا يرصدوا عليه كل حركة من حركاته فاستطاعوا بأساليبهم المختلفة ان يملأوا وظائف مكتبه بجماعة من الضباط الشبان الحاصلين على شهادات دراسية عليا ، والحاصلين على شهادة انجليزية فذة فى نوعها هى شهادة التخصص فى اعمال التجسس للانجليز (١) ...

كل هذا كنا قد بدأنا نسمع عنه ....

وكل هذا قد تحققنا منه بعد ذلك ...

وجاءت الاجازة الاجبارية لعزيز المصرى كناقوس كبير يدوى فى آذاننا لكى نبدأ العمل ...



وطال الحديث عن عزيز المصرى ، ولاح منى شدة اهتمامى بهذا الموضوع ، وابديت رغبة شديدة فى ضرورة لقاء هذا الرجل الذى كان موقفه محور تفكيرنا ...

وهنا شعرت بأن المقابلة قد آذنت على الانتهاء ، حين قدم الى المرحوم حسن البنا وريقة ...

واخذت الوريقة اقرؤها بشغف شديد .. بينما قال لى حسن البنا ، والابتسامة على شفتيه :

ـ واقطع تذكرة عند الدخول كما يفعل الداخلون ..!

وخرجت من دار الاخوان المسلمين .. اخطو خطواتى الاولى الى مستقبل ... مجهول ...

---

(١) نؤكد أن سليمان محمود الذى شغل فى وقت من الاوقات منصب مدير مكتب عزيز المصرى ، لم يكن مطلقا من بين من شملتهم هذه الاشارة

عزيز المصري
يتهم بدس السم لنازلي

- فاروق ينام فى لندن بملابس السهرة
- ماذا ينتظرون من الشيوخ ؟
- احمد حسنين وعمر فتحي تآمرا على فاروق
- لابد من انقلاب على ايدى العسكريين

قال لى المرحوم حسن البنا انى سألتقى فى اليوم التــالى بالفريق عزيز المصرى ..

وحدد لى موعد اللقاء ومكانه ..

وكنت اعلم ان مقابلتى له فى ذلك الوقت قد تثير كثيرا من الشكوك والشبهات ..

فعلى الرغم من الطمأنينة التى كانت تبدو على وجه المرحوم البنا وهو يحدد ذلك الموعد ، فقد كنت انا على يقين من ان مخابرات انجلترا لن تكون نائمة فى ذلك الموعد المضروب ..

وكان على ان ارجع الى تشكيل الاحرار قبل المقابلة وكان على ان اعود اليهم بعد المقابلة ..

فلا بد اذن من الحذر .. ان اى شك يحوم حولى قد يذهب بتشكيل الاحرار كله ..!

كنت اشعر فى كل خطوة اخطوها الى حى السيــدة زينب بأنى اخطو خطواتى الى بدء مستقبل حافل مجهول ، لا بد ان تقع فيه احداث جسام

كنت اعرف انى ذاهب لاضــع قدمى على اول الطريق ، ولكنى لم اكن استطيع ان اتخيل الى اين سوف تقودنى قدماى، او الى اى مكان سوف يمضى بى الطريق ..

ولم اكن كذلك قد فكرت فى شىء من كل هذا . فلم يزد الامر عندى عن انى ذاهب الى لقاء عزيز المصرى ، وان هــذا اللقاء لابد محدث اثرا ..

واتجهت الى العنوان الذى كتبه لى المرحوم حسن البنــا قبل ذلك بيوم .. ونظرت الى فوق فقرات اللافتة الموضــوعة

على عيادة الطبيب « الدكتور ابراهيم حسن »

وصعدت الدرج بخطى ثابتة ، ثم تذكرت انى « مريض » او لابد ان اكون « مريضا » فربما كان البيت مراقبا ، بل من المؤكد انه مراقب ، اذ كانت المخابرات البريطانيـة قد علمت بوجود عزيز المصرى فى داخله ..

ولاول مرة قمت بدور تمثيلى صغير .. فصعدت الدرج فى تثاقل ، ولهثت بأنفاسى مرتين !

وطرقت البـاب وطلبت مقـابلة الطبيب ، واعطيت خادم العيادة اجر الزيارة ، واخذت منه تذكرة !

وبعد قليل دعانى الخادم الى غرفة الطبيب .. ورأيت لاول مرة وكيل جمعية الاخوان المسلمين ..

ولم يكن غريبا ان الدكتور ابراهيم حسن ينتظرنى .. فقد اخذنى من فورى الى مكتب ملحق بحجرة الكشف وادخلنى اليه ..

وفى هذه الغرفة ، كان عزيز المصرى فى انتظارى ..

ماذا تنتظرون ؟!

كنت بحاجة ان اقدم نفسى للفريق الذى آمنت بوطنيته .. وكنت اريد أن اقول له كلاما كثيرا ، وان اكسب ثقته

لكن رغم كل شىء .. رغم الطريقة التى تم بها اللقاء بينى وبينه ، كنت اشعر ان فى قلب الرجل ندوبا عميقة من خيـانة الاصدقاء ، الكبار والشبان على السواء ..

ولكن النفس الصافية ، ابت ان تحملنى هذه المشقة ..

وفى الدقائق الاولى كان عزيز المصرى يحدثنى حديث رفيق الجهاد .. كان يائسا من الحكومات ، يائسا من الاحزاب ، يائسا من الملك ، يائسا من البرلمان ، ولكنه كان مؤمنا بالشباب .. وقال لى :

ـ عيب هذا البلد انه ضعيف ، وانه لا يجد العناصر التى تغذيه بالقوة ..

وسألته :

ـ وكيف نأتى بهذه القوة ؟..

فنظر الى وقال :

ـ انتم شباب الجيش .. ماذا تنتظرون ، ومتى تعرفون مسئوليتكم الحقيقية ، ومتى تبدأون فى الاضطلاع بها ؟

وعدت اسأله :

ـ وهل تظن اننا فى داخل الاوضاع القائمة نستطيع اليوم شيئا ..

فأجاب وقد انتفض :

ـ تستطيعون كل شيء .. وغيركم لايستطيع شيئا .. ماذا تنتظرون ؟.. تنتظرون توجيها منى ، من لواءاتكم من حكام البلاد ؟..

وسكت وهو يتمتم : كلام فارغ !..

ثم نظر الى فى عزيمة شابة ، وقال :

ـ لقد كان نابليون فى السابعة والعشرين من عمره فقط .. كان مثلك هكذا شابا صغيرا .. ولكنه استطاع ان يكون فى تلك السن المبكرة نابليون القائد . واستطاع ان يقود بلاده وجيشه ، ولم يكن يتلقى توجيها من احد ..

وبعد لحظات قال فى عمق :

ـ التوجيه الوحيد الذى كان نابليون يستلهمه فى كل خطواته ، هو الايمان الذى كان ينبعث من نفسه .. فابحثوا عن الايمان ولا تعتمدوا ابدا على احد .. الا على انفسكم ..

الايمان ... والشباب

وكان لكلمة الايمان فى نفسى رنين خاص عميق .. فقد كنت

انا ايضا ابحث عن الايمان ، واومن فى الوقت نفسه بأنه المخرج الوحيد لنا من الحيرة التى كان المصريون جميعا يعيشون فيها فلا يكادون يقدمون حتى يحجموا .. تيئسهم الحسرات ، وترعبهم المخاوف ..

ورغم هذا ، فقد قلت له :

ــ لقد عشت انت مؤمنا بهدفك وعشت لا تعتمد على احد .. وتغلبت عليك مع ذلك هذه القوى .. ونحن نريد أن نعمل ..

فقاطعنى بقوله :

ــ اعملوا وحدكم ، واعتمدوا على شبابكم وايمانكم .. والذى يستطيع ان يقصى عزيز المصرى عن توجيه الملك والذى يستطيع ان يقصيه عن توجيه الجيش ، لا يستطيع ان يقصى شباب الجيش عنه ..

متى بدأ الفساد ؟

وكان كلاما منطقيا حكيما .. وكان مع ذلك اشارة الى سلسلة الدسائس التى تعرض لها عزيز المصرى قبل هذه المرة .. فسألته :

ــ اذن فقد بدأت الدسائس من زمن ..

فقال :

ــ نعم ، منذ كنت فى انجلترا اشرف على تربية فاروق ..

وتنهد بمرارة وهو يقول :

ــ كنت احب ان تحسن تربيته ، لانه شاب ، سواء كنت انا الذى اربيه ام غيرى .. ولكن يد الخيانة والدسائس امتدت اليه .. وكانت اقرب الى قلبه من يدى ..

وسألته :

ــ أتقصد احمد حسنين ؟

فقال :

ــ احمد حسنين ، وعمر فتحى .. هذان الاثنان تآمرا على فاروق .. فتآمرا بذلك على شعب مصر فى شخص ملكه

وبعد قليل عاد ليتكلم :

ــ هل تتصور انى كنت ادخل غرفته صباحا ، فأجده نائما بملابس السهرة .. والخمر تفوح من فمه ؟ !

هذا الشاب الذى كنت اريد له الصلاح والتقوى والوطنية كانا هما يريدان له الفساد والتهتك والاستهتار .. كانا يقودانه الى دور الفساد ، فلا يعود الا فى الرابعة صباحا ، ويعود مخمورا .. فينام .. ويلقى بنفسه لقاء على اقرب مقعد .. او وسادة ..

وكنت احاول ان انهاه عن ذلك فيخجل .. ولكنهما ينفردان به من بعدى ، فيزيلا كل اثر لنصائحى ..

وتمهل قليلا .. ثم اردف :

فاروق يكره أباه !

ــ هل تريد ان تعرف سرا خطيرا ..

ولم ينتظر منى اجابة فقال :

ــ لقد القى هذان الاثنان فى وهم فاروق انى مدسوس عليه من ابيه ..

قلت :

ــ أبيه ؟..

قال :

ــ نعم ... فان فاروقا كان يبغض اباه اشد البغض ... يبغضه من كل قلبه ... وكان يقدس امه تقديسا شديدا ... فألقى هؤلاء فى وهمه انى انا عزيز المصرى اشيع الاقاويل عن امه ، وانى اريد أن ازيلها من الوجود لكى ينفرد أبوه بحبه ..

واني اعمل الآن على دس السم لها ..

وسألته :

ـ وعرفت انت كل ذلك ؟..

فأجاب :

ـ نعم عرفته .. عرفته يوم ارسل فاروق الى أبيه خطابا باكيا يهدده فيه أن لم يسحبني فورا من مهمتي ..

وبعد هنيهة قال :

ـ وقد سحبني ابوه فعلا .. وتركه لهذين المفسدين .. يفسدانه على نفسه ، ويفسدانه ايضا على وطنه ..

ثم تلاحقت الدسائس ، والمؤامرات لتقصيني عن كل مكان استطيع فيه ان اوجه الشباب ، لان فاروقا يعرف كيف أوجه انا الشباب ..

لا بد من انقلاب

كان الرجل يتكلم بانفعال شديد ، حتى كاد يغلبني البكاء .. ولكنه عاد الى طبيعته الواثقة .. وقال لي :

ـ ان كان معك خمسة افراد مؤمنين ، فاني على استعداد اليوم ان احمل طبنجتي ، واتقدمكم لاى عمل لانقاذ البلد ...

وعندما هممت بالانصراف ، شعر عزيز المصرى بالمسئولية التي وضعها فوق كتفي .. فقال مؤكدا :

ـ لن يكون خلاص للبلد الا بانقلاب على ايدى العسكريين..

ونظر فى عينى طويلا ، وانا اصافحه .. ولم يقل بعد ذلك شيئا ..

ولكني عندما خرجت من عنده ، كانت رسالتنا قد تحددت ، كهدف بعيد نستطيع ان نراه بأعيننا ، وان كنا لا نتبين الطريق اليه ..

من هم زملاؤك ؟ !

وفى اليوم التالى التقيت بالمرحوم حسن البنا وسألنى عن اثر زيارتى لعزيز المصرى فى نفسى .. وكأنه كان يعلم ما جرى فيها .. ولاحظت انه يريد ان يزداد علما بالمجموعة التى شعر انى واحد من افرادها ..

فقد سألنى عندئذ :

ـ هل لديك زملاء فى الجيش يشتركون معك فى هـدف معين ؟ !

وكان السؤال فى ظاهره بريئا ولكنه كان يريد ان يعرف من ورائه ان كان هناك تشكيل معين يضمنى ويضم غيرى ..

ولم اخف الحقيقة عنه .. ولكنى لم ابح له بأسماء اخوانى قلت :

ـ انى لست اعمل وحدى .. وان هناك تشكيلا معينـا موجودا ، واننا جميعا نؤمن بالكلام الذى قاله لى عزيز المصرى ونعرف ان البلد لن تخلص من الاستعمار الا بانقلاب عسكرى يقوم به رجال من الجيش ..



حادث ٤ فبراير

- حسن البنا يختزن السلاح ..!
- الانجليز يحاولون عزل الجيش عن الشعب ...
- كوكتيل مولوتوف لابادة الانجليز ..!
- خطتنا وخطة القدر ...
- جاسوسان المانيان يطلبان المساعدة ...
- البنك الاهلى والاوراق المـالية المزيفة !

ـ فهم المرحوم حسن البنا منى اننى لست اعمل وحدى .. وفهم اننا نريد ان نقيم حكومة عسكرية فى البلاد تحارب الانجليز الى جوار المحور ..

وفهم ان الذى ينقصنا فعلا هو جماعة اخرى من الشباب ، تستطيع خوض المعركة باسم الشعب عندما يضرب تشكيلنا ضربته ، كعمل عسكرى ...

وبدأ المرحوم حسن البنا يتحدث الى حديثا طويلا عن تشكيلات الاخوان المسلمين ، واهدافه منها ، وكان واضحا فى حديثه ، انه يريد ان يعرض على الانضمام الى جماعة الاخوان المسلمين ، انا ، واخوانى فى تشكيلنا ، حتى تتوحد جهودنا ، العسكرية والشعبية ، فى هذه المعركة ..

وكنت انا مستعدا للاجابة على هذا الطلب اذا وجهه الى ، فلما رايته يكتفى بالتلميح ، اوضحت له من جانبى ايضا ، انه ليس من وسائلنا ابدا ان تدخل كجماعة ولا كأفراد فى اى تشكيل خارج نطاق الجيش

واطرق المرحوم قليلا ثم قال ، وعلى وجهه ابتسامة تغطى تفكيرا عميقا :

ـ من الخير لنا اذن لنجاحنا ونجاحكم ان نتشاور وان نتكلم معا فى كل شىء .. كما اننا على استعداد لكى نعاونكم عندما تطلبون ذلك الينا ..

تعاون ... واسرار !

وبدا بيننا تعاون كنت انا الصلة فيه .. تعاون بدا فى تحفظ واستمر فى تحفظ ..

وفى خلال هذا التعاون تكشفت لى اشياء كثيرة من الاسرار الداخلية لجماعة الاخوان رغم انه رحمه الله لم يحاول ان يكشف لى شيئا منها ، ولا ان يطلعنى على اى سر من اسرارهم الداخلية . .

المرشد وحده يعلم !

وكان اهم هذه الاسرار ، ان حسن البنا وحده كان الرجل الذى يعد العدة لحركة الاخوان ، ويرسم لها سياستها ثم يحتفظ بها فى نفسه . . وان اقرب المقربين اليه لم يكن يعرف من خططه شيئا ، ولا من اهدافه شيئا . .

حتى لقد كان حسن البنا فى ذلك الوقت المبكر يجمع السلاح ، ويشتريه ويخزنه ، ولكنه لم يكن يطلع اقرب الناس اليه من كبار الاخوان انفسهم على اى شىء من كل هذا . .

وكان على العكس من ذلك يستعين فى هذه العمليات باخوان من الشبان الصغار . . وكان منهم الجندى المتطوع الذى جاءنى به فى سلاح الاشارة اول مرة . .

وكان اعوانه الصغار هؤلاء يعرفون ان ما بينهم وبينه سر على الناس جميعا بما فيهم الاخوان الكبار . .

فقد ادركت هذا فى يوم من الايام ، كنت جالسا معه ، عندما دخل علينا هذا الجندى المتطوع يحمل فى يديه صندوقين مغلقين . .

ورآنى الجندى جالسا ، فأجفل ، ولكن حسن البنا ، قال له افتح الصناديق ، ولا تخف . .

ونظر الجندى الى بابتسامة الاخ فى الجهاد ، ثم فتح صندوقيه ، وكان ما فيهما عينات من انواع المسدسات . .

وتأكدت فى ذلك اليوم من ان الرجل يشترى سلاحا ويخزنه ، ويخفيه حتى عن الاخوان . .

وفرحت فى نفسى بذلك ..

فسيأتى اليوم الذى نضرب فيه ضربتنا كرجال عسكريين..

وسيكون من اهم ما نستعين به ان نجد قوة شعبية تقف فى الصف الثانى ، مسلحة مدربة ..

ولكن ، متى يكون هذا اليوم ؟

ان الامر بحاجة الى اعداد كامل طويل ..

ونحن نستعد .. ونستعد .. ونستعد

ودعوتنا تجد انصارها ببطء ، ولكن فى وثوق

وكل شىء يجرى على وجه نطمئن اليه ..

وفجأة ...

كان يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ ، فقلب خطتنا رأسا على عقب ، وبدأنا السير فى طريق خطير ...

٤ فبراير ...

واحب ان اعرض هنا لبعض الحقائق والملابسات التى اكتنفت حادث ٤ فبراير ..

فعلى كثرة ما كتب عن هذا الحادث فان هناك حقيقة لم تنشر ابدا ، ولم تطف بأذهان الذين تكلموا ، ولا الذين سمعوا ..

فقد اخذ الناس هذا الحادث بالمأخذ السطحى ، فقالوا ان مظاهرات سارت فى البلاد تهتف : « الى الامام يا روميل » فتحركت دبابات الانجليز تفرض النحاس على الملك ، رئيسا لمجلس وزراء البلاد ..

ولو قلت اليوم ان هذه المظاهرات قد رسمت رسما ودبرت تدبيرا ، لما جاوزت الصواب ..

ولو قلت انها رسمت ودبرت لتبرر هذه الجريمة التى ارتكبها الانجليز .. لما جاوزت الصواب ايضا ..

وبقى ان تعرف بعد ذلك اليد التى حركت هذه المظاهرات بليل ..

يد المدبر ، والمحرك ، وناصب الشرك ...

اين التحقيق ؟ ..

لقد كانت البلاد واقعة تحت حكم عرفى ، والذين يقودون مظاهرات كهذه ــ ان كانوا من الوطنيين فعلا ــ لابد ان يقدروا خطورة تظاهرهم ، ودعائهم لروميل فى بلاد يحتلهـا جيش الانجليز ..

ومع ذلك فقد سارت المظاهرات بليـل ... ولم نعرف اشخاص قادتها ، ولا قبض رجال البوليس عليهم ، ولا تحرش بهم جيش الانجليز المقيم فى العاصمة ، والذى لم يجد حرجا فى مهاجمة قصر الملك !

فاذا بحثنا عن الدافع الذى صورته انجلترا لهذه المظاهرات ، لعرفنا كيف تستطيع الدعاية البريطانية واعوانها فى مصر ، ان تلعب فى فترات الحرج ، بعقول العامة من اهل هذه البلاد . فاذا بالاكذوبة تصبح حقيقة تتناولها صحف مصر اثنى عشر عاما كاملا .. ثم ترددها قاعات المجالس النيابية ، وقاعات المحاكم ايضا فى قضايا السياسة الـكبرى !

أحقا ، هذه المظاهرات قد سارت فى شـوارع القـاهرة ، لتلعب دورا فى هزيمة الانجليز ؟ !

انها اذن مظاهرات خطرة ، من ورائها تدبير وطنى فاهم لمـا يعمل ..

فأين المدبرون والمحركون ، واين قصاص الانجليز منهم ، او قصاص الذين حكموا مصر بأمر الانجليز ؟ !

فان لم تكن هـذه المظاهرات بالخطورة الفعلية على كيان الانجليز فى ايام محنتهم ، ففيم اذن هذا الاجراء العنيف ، وقد كان ايسر اجراء فى تلك الايام كفيلا بقمع مظاهرات ، لا هى بالخطيرة ، ولا وراءها تدبير ؟ !

ولـكن هناك هدفا .. وقد تحقق هذا الهدف ..

والهدف هو ايجاد مبرر تستند اليه الدعاية البريطانية ، عندما يتخذ الانجليز هذا الاجراء الاجرامى الشاذ فى نوعه ..

وقد تحقق هذا الهدف ، واستطاعت انجلترا ان تفرض على الملك حكومة النحاس ..

الهدف الكبير

ويبقى السؤال الذى لا يزال ينتظر الجواب ..

لماذا اراد الانجليز هذا ، وما الذى كلفهم كل هذا التدبير ، وكل هذه الجريمة ، وكل هـذه الدعاية التى اضطروا اليهـا اضطرارا لتبرير فعلتهم ؟!

لم تكن المسألة مسألة السخط الذى كان يعم مصر وقتئذ .. ولم تكن مسألة الخوف من فورة الشـعور الشعبى المضـاد للانجليز فى وقت يقف فيه الانجليز فى احرج موقف من مواقف الحرب العالمية الثانية ..

فما كان حادث ٤ فبراير ليستطيع ازالة السـخط ، ولا وقف الشعور الشعبى المضاد للانجليز ، وانما هو جدير بزيادة السخط والكراهية ، وكشف العداء سافرا بين شعب مصر ، وبين حليفه المفروض عليه فرضا .. جند الاحتلال ..

فصحيح كان هناك سخط ، وكان فى البلاد توثب لانتهاز الفرصة وضرب الانجليز من الخلف ، بينما تشتد عليهم نيران روميل من الامام ..

ولـكن هذا ، لم يكن كل شىء .. ولم يكن يستحق الموضع الذى وضعت انجلترا نفسها فيه ، يوم ٤ فبراير المشئوم ..

الجيش ... والشعب

كانت انجلترا ترى ان هناك تقاربا بين الملك وبين الشعب من ناحية وبين الملك وبين الجيش من الناحية الاخرى .. فقد

كان الملك فى نظر الشعب وفى نظر الجيش ايضا .. شـابا وطنيـا ، وكان محبوبا .. ورات انجلترا ان هـذا التقارب سيوجد جبهة متحدة من الجيش والشعب ، فأرادت ان تحطم هذه الجبهة ، وان تعزل الجيش عن الشعب ، وكان يوم ٤ فبراير هو الوسيلة لذلك .. فقد صممت انجلترا فيه على تكليف النحاس ـ زعيم الشعب ـ بتشكيل الوزارة ، فأصبح الشعب بذلك فى ناحية ، والملك والجيش فى الناحية الاخرى .. وبدات انجلترا بعد هذا تقيم سياستها على اساس عزل الجيش عزلا كاملا عن الشعب بتبغيضه اليه ، واشعار الشعب بأن جيشه هو السوط الذى سيلهب ظهره باسم الملك ..

وكان يوم ٤ فبراير .. الذى تحدثت مصر عنه عشرة اعوام كاملة .. ولا تزال تتحدث !..

وكحقيقة نذكرها ، لم يكن تشكيلنا قد توقع هذا الحادث ، بل واكثر من هذا ، لم يشعر تشكيلنا بهذا الحادث عندما وقع

ولكننا احسسنا به بعد ذلك ، وفهمناه من تحليلنا ومن تحرياتنا ، وبينما كانت البلاد فى ذهول من الحادث ، طاش صواب ضباط الجيش وبدأنا نحن فى تشكيلنا .. نفكر ..

اما البلاد فقـد ذهلت لان الاحـداث كانت اغرب من كل ما تصوره خيال هذا الشعب .. واذهلها بعد ذلك عنه او شغلها عنه ، ما تقاذف به السياسيون من سباب واتهامات وما اثير من قصص الاجتماعات التى تمت فى قصر الملك ، والمواقف المثيرة التى راتها قاعاته من الزعماء ..

وطاش صواب ضباط الجيش ، لانهم كعسكريين شعروا بأنها ضربة عسكرية لايردها سواهم .. وفى فورة الحماسـة وعنف الشباب . بدأت الاجتماعات تعقد علنا فى نادى ضباط الجيش لمناقشـة الموقف ، وتقرير الخطة بصـورة مفتوحة ، لايمكن ان تؤدى الى خير

اما نحن فقد انتهينا حينئذ الى قرار اولى ..

استعداد وتاجيل

فمع تصميمنا على وجوب رد هذه الضربة للانجليز ، قررنا تأجيل هذا الرد ، لان ذلك الجو المفتوح الذى نوقشت فيه المسائل بنادي الضباط كان يوجب عدم القيام بأى شيء فى خلاله ..

كنا قد درسنا الامر من كل وجوهه على طريقة العسكريين عندما يقومون بما يسمونه : « تقدير الموقف »

ولم نضع فى حسابنا عندئذ ان نحدد موعد ضربتنا ، فقد اتفقنا على عدم الاهتمام بالتفكير فى الموعد ، بعد ما حدث ، وما فوجئنا به على غير استعداد أو ترقب ..

ولكننا وضعنا فى حسابنا ان ندرس كيف تكون ضربتنا لا متى تكون ، وصممنا على ان نضع خطتنا لكى تأتى ضربتنا للانجليز محكمة ، ودامية فى الوقت نفسه ..

وقررنا كذلك ان تنأى خطتنا فى هذه المرة عن اى صلة بالاخوان المسلمين .. وأن تقوم على توسيع تنظيمنا الداخلى فى الجيش ، وتكتيل قوتنا فى كل الاسلحة ، واعداد انفسنا بما تستلزمه ضربة عسكرية محكمة دامية ..

وقت العمل

ومرت الايام من ٤ فبراير حتى وقع حادث العلمين ، او مأزق العلمين ..

وكانت هذه المدة كفيلة بأن تضاعف قوتنا داخل الجيش اكثر من مائة ضعف ..

فقد كنا ، عندما وقع مأزق العلمين قد وصلنا فىاستعداداتنا الى تجهيز مائة الف زجاجة من الزجاجات المعروفة بكوكتيل مولوتوف ..

وكنا قد استطعنا انشاء ورشة كاملة لصنع المسدسات

وبدات تخرج السلاح فعلا ..

وكنا ايضا قد استوردنا من ريف مصر ، كميات كبيرة من البارود الذى يصنعه الفلاحون من زمن بعيد ، واستطعنا ان نحضره تحضيرا علميا ، بحيث يمكن الاعتماد عليه .

وكان هذا هو الشق الاول من خطتنا بعد ٤ فبراير .. ان نعد انفسنا بما يلزم لعمل كبير

اما الشق الثانى الذى يحدد نوع العمل ، فقد كان مقررا تركه للخطة التى يتقرر فيها العمل نفسه ..

كنا مرة اخرى ننتظر الوقت المناسب .. وجاء هذا الوقت يوم وصل الالمان الى العلمين ..

وبدانا نرقب الاحداث لحظة بلحظة لنتبين نوع العمل الحاسم الذى نستطيع ان نقوم به ..

وقالت الاحداث كلماتها سريعة متلاحقة ..

قالت ان روميل يضرب ضرباته القاضية ..

وقالت ان الانجليز ايقنوا بالهزيمة ..

وقالت انهم فى هلع أفقدهم صوابهم ..

وقالت انهم قرروا الانسحاب فورا ، وبأسرع ما يمكن الى الجنوب ..

هذا كان صوت الاحداث الواقعة التى رايناها بأعيننا ورآها العالم بأسره معنا ..

وكان يجب علينا ان نضع الخطة التى تناسب منطق الاحداث ..

فلم يكن هذا المنطق يحتمل حربا نظاميا ، ولا انقلابا عسكريا ، ولكنه كان يوجب اتجاها اخطر .. يوجب خطة سريعة واحدة توضع لابادة الانجليز افرادا وجماعات عند انسحابهم

خطتنا ... وخطة القدر !

ومكثنا نضع خطتنا كعسكريين ..

وكان جانب منها يحدد تفاصيل العمل العسكرى الداخلى والجانب الآخر يرسم خطة الاتصال بالالمان ..

ولكن خطة اخرى كان القدر يضعها فى الوقت نفسه .. وقد لا نستطيع ان نحكم على فعال القدر عندما تحدث ولكن بعد مرور وقت طويل ، نستطيع دائما ان ننظر الى الماضى ، فنجد ان الايمان دائما هو أقوى من القدر !

وبدأت قصة القدر ..

بدأت بطرقات خفيفة على باب بيت صديقى الصاغ حسن عزت .. دخل فى اثرها رجلان من الالمان ، يصحبهما صديق له ، هو الاستاذ عبد المغنى سعيد .. ثم لم يلبث الصاغ حسن عزت أن اتى بثلاثتهم الى ..

هكذا بدأت قصة القدر بالنسبة الينا ..

ولكنها بالنسبة الى هذين الالمانيين قد بدأت قبل ذلك ..

بدأت على رمال الصحراء الغربية الصفراء .. عندما دعا قلم المخابرات الالمانية رجلين من رجاله .. احدهما يدعى هانز ابلر .. والثانى يدعى ساندى ..

وكان ابلر يعرف مصر من قبل ، كما يعرفها كل ابنائها

فقد كانت أمه الالمانية ، قد تزوجت فى المانيا من المرحوم صالح بك جعفر المستشار ، ثم حضرت معه الى مصر ، وفى يدها ولدها من زوجها الاول ..

وكان ولدها هذا ، هو « هانز ابلر »

وأراد الزوج المصرى ، ان يوفر لابن زوجته حياة مطمئنة فى مصر ، فيسر له كل سبل التعليم والنجاح ، وأعطاه اسما مصريا ، وأعطاه فوق ذلك لقب أسرته ، فأصبح هانز ابلر يعرف فى مصر ، باسم حسين جعفر

وعاش « حسين » فى مصر ، ولكنه لم يكن الولد الصالح الذى ارتجاه زوج أمه ، فقد انحرف عن الطريق الذى رسمه

له الرجل .. وأصبح بعد فترة وجيزة شوكة فى قلبه ، ووصمة فى سمعته ..

وفشل المستشار المصرى ، فى اقناع ربيبه بالعدول عن مخادنة الاوغاد وحياة الليل بين المراقص والحانات ، ونساء الطريق ..

وفشل فى اقناعه بأن يجد لنفسه عملا يعيش منه ، او يشغل به بعض وقته

ولما أيقن بالا سبيل الى اصلاحه ، ولا اتقاء شره فى مصر ، طرده من حياته قبيل الحرب .. فما كاد يعود الى وطنه حتى جندوه هناك .. ثم أصبح من رجال روميل .. ومن رجال مخابراته فى شئون مصر بالذات ...

تجسس

واصدر روميل لرجليه ابلر وساندى أمرا بالتسلل الى مصر ، وكلفهما بعمل معين ، وسلمهما جهازا لاسلكيا دقيقا .. وزودهما بعشرات كثيرة من الآلاف من الجنيهات الانجليزية المزيفة المطبوعة فى اليونان وبسيارة من سيارات الجيش الانجليزى التى استولى عليها روميل اثناء معركة العلمين وفرار الانجليز تاركين خلفهم كل شىء ..

وتحركت السيارة بالرجلين ، وقد ارتديا ملابس ضباط فى الجيش الانجليزى ، وحملا معهما جهازا لاسلكيا ، وثروة طائلة

واخترقا الصحراء الغربية من طريق غير مطروقة تقع الى جنوب سيوه ، ثم انحرفا من سيوه الى الواحات الخارجة .. واستراحا فيها من رمال الطريق ، وتزودا بما يحتاجان اليه ، ثم اتجها صوب أسيوط فى الطريق المرصوفة المؤدية اليها ..

وكانت هذه المرحلة هى أخطر مراحل الرحلة بالنسبة اليهما اذ الطريق طريق عسكرى ، تنتشر على جانبيه المعسكرات

البريطانية ، ونقط التفتيش والحراسة ، وتذرعه دوريات الاستكشاف وقوافل الجنود والعتاد ...

واخذت السيارة تنهب هذا الطريق مارة بالموت فى كل لحظة ، ونفد منها الوقود فى منتصف الطريق واذا بقائدها آبلر ينثنى بكل جراة الى أحد المعسكرات البريطانية ، فتفتح له الابواب ، ويدخل الى محطة البنزين بالمعسكر ، ويقدم أوراقه ، ويعبىء سيارته بالبنزين ، ثم يخرج مودعا بتحية الجنود ...

ووصلا الى أسيوط .. ثم انحرفا فى الطريق الى القاهرة.. ودخلاها ضابطين انجليزيين تقوم لهما دنيا القاهرة وتقعد فى ذلك الزمان

طلبات

وقال لنا الاستاذ عبد المغنى سعيد انه تعرف بهما عن طريق قريب له متزوج من المانية تعرف عائلة ابلر

واخرج الرجلان أوراقهما ، واثبتا بما يقطع كل شك ، حقيقة جنسيتهما الالمانية وحقيقة مهمتيهما

وطلب الالمانيان منا ان نقدمهما الى الفريق عزيز المصرى ، وكانا يطلقان عليه كلمة « الزعيم »

وقال ابلر ان جهاز اللاسلكى الذى جاءا به قد تعطل ، وانه يرجو ان يعتمد فى اصلاحه علينا ...

كما طلبا أن نسهل لهما عند الحاجة الاتصال الشخصى بروميل فى مكانه بالعلمين ...

وقابلهما عزيز المصرى ، وتفاهم معهما على أشياء كثيرة ، ثم اصدر أمره الينا بتسهيل طلبيهما الاخرين

وقمت أنا بالناحية التى تتصل بعملى فى سلاح الاشارة ،

فحددت معهما موعــدا لزيارتهما وفحص الجــهاز اللاسلكى المعطل ...

وكان اول ما فوجئت به من أمرهما ، انهما يقطنان فى عوامة الراقصة المشهورة حكمت فهمى ... ويبدو أن المفاجأة قــد ظهرت على آثارها ، فقد ضحك ابلر ، وقال :

ـ اتريد ان نقيم فى معسكرات الانجليز ؟ !

ومضى يروى لى ما يعرفه من اخلاص حكمت فهمى له منذ كان فى مصر قبل الحرب ، وكان قد مضى عليه أكثر من شهر يقيم فيها ..

البنك الاهلى

وفهمت انهما منذ نزلا ضيفين على هذه الراقصة قد خلعا ثيابهما الرسمية « الانجليزية » وارتديا ثيابا مدنية عادية ، ثم راحا يعيشان كانجليزيين بصورة لا تثير الشبهات حولهما

كانا ينفقان عن سعة .. ويبعدان بنفسيهما عن كل مكان يمكن أن تكون له صلة بالوحدات الحربية أو الجهات العسكرية

ولم تزد حياتهما طول هذه الفترة عن مجرد الســهر ليلا فى الكيت كات ، والعودة مخمورين قرب الصباح الى العوامة التى اتخــذا منها محطة للاذاعة يتصــلان عن طريقها بقيــادة مخابراتهم

وقالا لى وهما يضحكان أن البنك الاهلى قد بدل لهما مايزيد عن اربعين الفــا من الجنيهات الانجليزية المــزيفة بجنيهــات مصرية

ثم قالا :

وكان الوسيط يهوديا ، قبل أن يتحمل المسئولية مقابل ٣٠ ٪ من قيمة ما يبدله من النقود

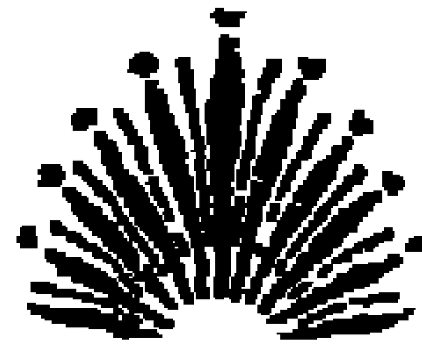
ولم أدهش أنا لليهودي الذى يعرف أنه يؤدى خدمة لجواسيس النازى ، فلا يتردد ما دام كل شىء بثمنه ولكنى مع ذلك أشفقت عليهما من قيام صلة بينهما وبين اليهود

وسألنى ابلر :

ـ متى تجىء ؟

فحددت له موعدا يوم الجمعة ...

وفى يوم الجمعة ، كنت واقفا على شاطىء النيل ، من خلفى مستشفى الجمعية الخيرية الاسلامية ... ومن أمامى عوامة الراقصة حكمت فهمى !



نساء .. وخمر

- محطة اذاعة تحت أقدام الراقصات !
- عندما تظهر الحقيقة عارية ...
- دبلوماسى أجنبى يسرق من مفوضية سويسرا
- أين ذهبت أموال البنك الاهلى ؟
- متاعب فى الطريق ...
- خرافة المخابرات .. !

كنت على موعد مع الجاسوسين الالمانيين ابلر ، وساندى فى عوامة حكمت فهمى ...

وكان هذا الموعد لاصلاح جهاز ارسال لاسلكى ، يملكه الجاسوسان ، ويذيعان منه ، من داخل العوامة ..

ووقفت أمام العوامة أفكر قليلا قبل أن ألمس زر الجرس ... فقد كنت أشعر ، انى أمام مغامرة

ونظرت الى أعلا العوامة ، فوجدت أربع ساريات من ساريات السلك الهوائى الذى يستعمل للارسال اللاسلكى والاستقبال .. فاعترتنى رجفة مفاجئة .. فان وجود سلكين هوائيين فوق سطح عوامة ، قد يثير بعضا من الشكوك

ثم تتابعت على الافكار فى سرعة متلاحقة ، وأصبحت بعد ذلك أسئلة لا أجد جوابا عليها :

هل يعرف اليهودى الذى يبذل لهما الاموال حقيقتهما فعلا .. واذا كان يعرفها ، فهل تكفيه العمولة الكبيرة التى يتقضاها، لكى يسكت ... ولا يخون ؟

وما حقيقة موقف حكمت فهمى من هذه المغامرة ؟

وما مدى استعدادها للسير فيها الى آخر الطريق ؟

وهل هى تستطيع أن تقدر حقيقة هذا الطريق ، والنتائج الخطيرة التى قد ينتهى بها اليها ..

وكان لا بد أن أجد جوابا لهذا .. ولذلك ، كان لا بد أن ادخل ..!

ووضعت يدى على زر الجرس ...

وفتح الباب ، .. وبعد لحظات كان أمامى الالمانيان ابلر ،

وساندي ... برحبان بمقدمي بينما تدور عيناي فى ارجاء العوامة ، أحاول أن أستشف نوع الحياة التى تجرى بداخلها

ولم يكن عسيرا على أن أحدد هذه الحياة فى دقائق قليلة..

فقد كانت جميع المظاهر تدل على ان صاحبة العـوامة قد تركت للالمانيين حرية التصرف فى عوامتها كما يشاءان وانهما تصرفا فى عوامتها فعلا ، فاتخذا منها وكرا للترف والنعـومة وحياة الليل والتهتك ...

وكان واضحا انهما ألقيا عن ظهريهما كل مسئوليات العمل الخطير الذى جاءا لكى يقـوما به ، وانغمسـا الى آذانهما فى الحياة التى تتناسب مع عوامة ، يعيش فيها رجلان فى عمر الورد ، فى جيوبهما عشرات كثيرة من آلاف الجنيهات

اين الجهـاز

وسألتهما عن جهاز اللاسلكى المعطل.. فضحك ابلر ، وهو يقول :

ــ اتستطيع أن تجده لو بحثت عنه ؟ ..

وخيل الى انى أستطيع ، فقمت أطوف غـرفة العـوامة ، واهبط درجاتها ، واصعد الى اعلاها .. فاذا بها لا تحتوى الا على وسـائل الحياة الناعمـة ، وأدوات الترف والزينة ... وكؤوس الشراب ، وصناديق الويسكى ..

وفجاة عاد بى ابلر الى حيث كنا فى بهو العوامة ... ومد يده الى جهاز الراديو الكبير الموضوع فى صدر المكان .. وكنت قد فحصته ، فى دورتى ، فلم أجد فيه أكثر من جهاز راديو « موبيليا » انيق فى اعلاه بيك اب مغطى بغطاء خشبى دقيق الصنع، وفى جوانبه دواليب صغيرة مقسمة لحفظ الاسطوانات

وامسك ابلر بالجزء الخـاص بالبيك اب ، ثم حركه حركة

بسـيطة ، فانفتح الى أعلى .. وقـال لى : انظر .. فنظرت لاجد أمامى تجويفا كبيرا ساقطا فى جـوف الجـهاز العجيب ، يكفى لكى يهبط فيه رجل ، فيجد كرسيا صغيرا يجلس اليه ، ويجد أمامه جهاز اللاسلكى الذى يعملان عليه ...

وقال ابلر وهو يشير بيده داخل التجويف :

ـ تستطيع أن تجلس هنا على هذا الكرسى وأن تضىء النور الداخلى ، ثم اغلق عليـك الجـهاز مـن فوق ، وأديـر أنا اسطوانة للرقص ...

وقال زميله ساندى :

ـ اننا دائما نصنع هذا ، نرقص على الموسيقى مع الضيوف ، بينما يباشر أحدنا عمله داخل الجهاز فى هدوء ..

ووجدتها فكرة جميلة ... فلن يستطيع أحـد مهما أوتى من قوة الملاحظة أن يتصور أن تحت هذا البيك أب ، محطة اذاعة كاملة ، ورجل يذيع !

ونزلت الى الفجوة ، لافحص الجهاز

شكوك

وكان شعورى ساعة جلست أمامه ، وأخذت أدير مفاتيحه ، أن هذا الجهاز لا يمكن أن يتعطل هكذا من تلقاء نفسـه ، فهو كما بدا لى جهاز دقيق متين الصنع ، كمـا أنه بوضعـه الذى كان فيه لم يكن معرضا لاية مؤثرات خارجية يمكن أن تؤدى الى تعطله ..

وفتحته من الداخل ، فوجـدت جميع صماماته سليمة ، وحاولت أن أكتشف مكان العطب فيه ، فلم أستطع ، فقد كان الجهاز جديدا فى كل شىء .. وكان من التعقيد بحيث لا يسهل اكتشاف سبب تعطله ، ان لم يكن فاحصه خبيرا به وبالنظرية التى اسس عليها

وخرجت يائسا .. أو بادى اليأس ، وفى رأسى دوامة من الافكار ، وشكوك كثيرة ...

وصدر منى سؤال مفاجىء لم اكن أحمله اكثر من معناه الظاهرى :

ـ هل هذا الجهاز معطل حقا ؟!

واضطرب ابلر لهذا السؤال بينما أجابساندى بسرعة فائقة ، والكلمات تتزاحم على شفتيه :

ـ انه معطل .. معطل فعلا .. هل تستطيع اصلاحه ؟

وقبل ان اجيبه بالنفى ، كان هو يسألنى سؤالا آخر :

ـ انك بلا شك تسمع عن الهر هوارد ...

جهاز جديد

وكنت أعرف أن هوارد هذا ديبلوماسي فى مفوضية السويد فى مصر ، وأنه كان يقوم برعاية شئون الالمان فى مصر ، بعد اغلاق المفوضية الالمانية عند اعلان الحرب ..

قلت : أعرفه ..

فقال : أننا على اتصال به أيضا ، وهو يعلم أن هذا الجهاز معطل ، وهو الذى قال لنا أن نحاول الاتصال بك

وقاطعته قائلا :

ـ ولكنى آسف جدا ، لانى لا أستطيع اصلاح هذا الجهاز، فلم يسبق لى أن استعملت أجهزة ارسال المانية أبدا ...

وبدأ ابلر الكلام فقال :

ـ ان الهر هوارد طلب منا أن نتصل بك ..

وسكت قليلا ثم عاد يقول :

ـ انه يعرف كل شىء عنا ، ونحن نستعين به دائما عندما نحتاج لاى شىء .. وهو أيضا ، يساعدنا ...

وأكمل ساندى قائلا :

ــ وقد قلنا له ان هذا الجهاز قد تعطل ، فجاءنا بجهاز آخر ... ولكننا لا نعرف كيف يعمل ..

وسألتهما أنا :

ــ وهل الجهاز الآخر هنا الآن ...

فأجاب ساندى :

ــ نعم ، انه فى الطابق الاسفل لقد سرقه لنا هوارد من المفوضية السويسرية ، وأعطاه لنا لنواصل به عملنا ، ولكننا حتى اليوم لم نستطع تشغيله ...

وامسك بى من يدى وقال : هيا معى .. ساريك الجهاز الآخر . .وقد قال لنا هوارد أنك أنت وجميع ضباط سلاح الاشارة فى مصر ، تستعملون مثله ..

ونزلت معه الى الطابق الاسفل وقد أخذت منى الظنون كثيرا ...

لم تعد شكوكا

وفى الطابق الاسفل ، وجدت جهاز ارسال من النوع المعروف بالهاليكرافتر .. وفحصت الجهاز فوجدته جديدا لم يستعمل قط ، ودهشت لقولهما أنهما لا يستطيعان استعماله ، لسهولة استعمال هذا النوع من أجهزة الارسال

وقلت لهما :

ان هذا الجهاز من ابسط الاجهزة استعمالا ، وانى أستطيع ان أدلهما على كيفية استعماله فى لحظات قصيرة

وفجأة خطرت لى فكرة .. وانطلق بها لسانى على التو واللحظة ..

فقد كانت شكوكى فى الرجلين قد بدأت تعلو الى مرتبة اليقين .. كنت قد اقتنعت فى نفسى تماما ، أن جهازهم الالمانى اما أن يكون سليما ، واما أن يكونا هما قد عطلاه

بنفسيهما .. وخطر لى انى لو تركت لهما الجهاز الآخر فسوف يتلفانه ايضا .. ولم أكن اعرف السبب فى هذه الشكوك ، ولكنها كانت قد سيطرت على ..

وقلت لابلر ، وانا آخذ بذراعه على سلم العوامة :

ـ اريد أن آخذ هذا الجهاز الامريكى معى يوما ، لاختبره اختبارا دقيقا ، ثم اعيده اليك ..

وانتظرت من ابلر ان يمانع فى هذا ، ولكنه اسرع يقول :

ـ بكل سرور .. يوم او اكثر كما تشاء .. !

نساء .. وخمر

ورايت الالمانيين وقد استخفتهما النشوة ، والمرح، وعلمت انهما سوف يقصدان الى جروبى لتناول الغداء ، وانهما سيعودان بعد ذلك الى العوامة بصحبة فتاتين ..

وكان لا بد ان انسحب .. فاعتذرت عن قبول دعوتهما الغداء .. لآخذ معى الجهاز !..

وبدات شكوكى تجد أسبابا ترتكز اليها ، ثم تحققت بعد ذلك من أن شكوكى لم تكن عبثا ..

فقد علمت ان الالمانيين قد استطابا الحياة الناعمة ، التى وفرتها لهما آلاف الجنيهات التى بدلوها عن طريق اليهودى من البنك الاهلى ، وتعرفا على عدد من الراقصات ، ومن بائعات الهوى .. وارادا ان يطيلا مكثهما فى القاهرة ، وأن يلقيا عن كاهليهما عبء المسئولية والمخاطرة ... فادعيا أن الجهاز الذى معهما قد تعطل ، واستطاع « هوارد » أن يزودهما بهذا الجهاز الامريكى ، فادعيا انهما لا يستطيعان تشغيله .. واتصلا بنا ..

وبهذه الوسيلة استطاعا ان يغطيا انفسهما فى قضاء الايام

والليالى بين سهر المراقص ليلا ، ولهو مع الغوانى نهارا ... فقد كانت حجتهما أن الجهاز معطل ، وأنهمـا لا يستطيعان العمل بالجهاز الجديد !!

وبدأت المتاعب !

عرفت هذا .. ولكنى عرفته بعد فوات الأوان ..

وفى يوم الاحـد ، ذهبت الى العوامة ، واوقفت التاكسى خارجا ..

وأخذت الجهاز ، وخرجت تاركا خلفى ابلر وسـاندى ،

ومر الاحد ، والاثنين ...

وفى يوم الثلاثاء ، قبض عليهما ..

وفى اليوم نفسه عرفت أنا بنبأ القبض على هذين الرجلين، فبدأت مخاوفى ، فقد كنت حتى ذلك الوقت ، اعتقد فى وجود الخرافة الكبرى التى عرفت فى مصر ، باسم « قلم المخابرات البريطانية » ...

وكنت على يقين حتى ذلك اليوم من أن هذه المخابرات هى التى أمسكت بخيوط المغامرة التى جاءا ليقوما بها ، وانها هى التى قبضت عليهما ، وانه ليس من المسـتبعد ابدا أن تكون عيون المخابرات قد وقعت على فى الزيارتين اللتين قمت بهمـا للعوامة ، وانى بهـذا بت فى خطر انا ومن معى فى تشـكيل الضباط

وبدأت أعد نفسى لكل احتمال وانبأت أصدقائى بالقبض على هذين الرجلين ، وأبلغت الفريق عزيز المصرى ايضا ...

ولم أقف عند هذا ، فقد كان على ان اعرف كيف قبض عليهما ، وهل اكتشفت المخابرات ما كان بينى وبينهمـا من صلة ، وهل هناك مراقبة موضوعة علينا ؟..

وبدأت سلسلة من التحريات على نطاق ضيق ، مأمون .

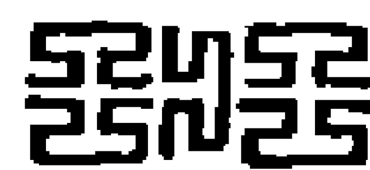
فعلمت أن المخابرات البريطانية قد علمت بوجودهما منـــذ شهر ، وأن الرقابة كانت مفروضة عليهما طوال ذلك الشهر ليلا ونهارا ، وأن هم المراقبة كان معرفة أعوانهما فى القاهرة والعمل الذى يقومان به فعلا ..

خرافات المخابرات

وعرفت بعد ذلك أن هذه المراقبة لم تكتشف صلتى بهما ، ولم تقع اعينها على داخلا الى العوامة ولا خارجا منها ... وانها حتى بعد القبض عليهما ، لم تكن تعرف عنى شيئا ..

وتكشفت لى المخابرات البريطانية على حقيقتها خـرافة كبيرة ، ملآنة الجيوب بالذهب .. فقد عرفت بعد ذلك كيف قبض عليهما ، ويوم عرفت ذلك .. عرفت قصة من القصص التى تلعب فيها المرأة ، ويلعب فيها الذهب ، وتنام فيها عيون المخابرات ..

وعرفت فى ذلك اليوم شيئا آخر ايضا .. عرفت حيـاة جديدة لم تكن لى بها خبرة من قبل ..



دخلت السجن بسبب شهرزاد

- عذارى شهريار ..
- فى عوامة الراقصة
- النحاس وحمدى سيف النصر يسلطان علينا الانجليز
- حسن البنا يهرب معى من وكيل الاخوان المسلمين
- حتى لو كان مصطفى النحاس !..
- هل كان حسن البنا .. معنا ؟

قبض البوليس على ايلر وساندى يوم الاحد ، ومر بى يوم الاثنين وانا أحاول أن أعرف ان كانت صلتى بهما قد اكتشفت ام لا ؟..

فعلى الاجابة على هذا السؤال يتوقف مصيرى كضابط فى الجيش

وكمصرى حر يعيش حياته طليقا كما يعيش المصريون

وقد يذهب الامر الى اكثر من هذا ، فيتوقف على الاجابة على هذا السؤال : حياتى أو موتى

وأكثر من هذا .. ان نتيجة اكتشاف المخابرات البريطانية لصلتى بهذين الرجلين ، كان يمكن أن تكون المفتاح الكبير الذى يفتح أمامها الباب لاكتشاف حقيقة تشكيلنا فى الجيش، هذا الذى ترامت أنباؤه الى انجلترا منذ شهور كثيرة ، فأدت بها الى افتعال حادث ٤ فبراير ، ومجابهة هذا التشكيل بقوة الوفد الشعبية فى ذلك الوقت

ولم أكن أتوقع أن يقبض على سريعا ، فقد كنت أرجح أن المخابرات البريطانية ، وان كانت قد اكتشفت صلتى بالجاسوسين الالمانيين ، فهى لا بد أن تتركنى تحت المراقبة فترة من الوقت ، لتتمكن بهذا من وضع يدها على سر تشكيل الضباط كله ..

وكان هذا ما أعتقده ، ولكنى فوجئت فى يوم الثلاثاء التالى، أى بعد يومين اثنين من القبض على الجاسوسين ، بالقبض على وعلى زميلى حسن عزت

ودهشت لهذه السرعة ، وخيل الى ان المخابرات البريطانية

الساهرة ، لم تكن غافلة عنا ، وانها قد وضعت يدها فعلا على كل اسرارنا

والا لتركتنى طليقا كطعم يوقع لها الصيد الثمين فى الشرك

ولكنى تنفست الصعداء بعد أن عرفت التفاصيل المثيرة التالية اثناء التحقيق

بلاد شهرزاد

كان ساندى، شأن اكثر الالمان، ولوعا بالموسيقى الكلاسيكية الاوربية .. ولم يكن ابلر كذلك ، فقد كان على النقيض منه لايحب الا موسيقى الجاز ، تمتزج طرقاتها بالخمر التى تدور برأسه ، فتحيله كائنا عجيبا ، نصفه انسان ، ونصفه حيوان ..!

وفى احدى الامسيات ، جلس ساندى فى عوامة الراقصة حكمت فهمى ، يستمع الى موسيقى « شهر زاد » للموسيقار الروسى ديمسكى كورساكوف .. وكان ابلر مغيظا محنقا ، يحاول اغراء صديقه للقيام معه الى موعد حافل ضربه مع بعض الغوانى فى ملهى الكيت كات .. وأصر ساندى على سماع الموسيقى الخالدة حتى نهايتها ، فوضع امامه كأسا من الخمر وأخذ يسمع ويحلم ، ويتمثل فى خياله آخر مرة شاهد فيها هذا الباليه على مسرح من مسارح برلين ..

ورويدا رويدا اندمج ابلر معه فى الاستماع الى الموسيقى

ولكنه لم يسلم نفسه لانغام الموسيقى بقدر ما أسلم نفسه لهمسات شيطان اخذ يراوده

وفجأة صاح بصديقه صيحة مخمورة :

ـ ما كان أسعده هذا الملك .. شهر يار ..

وضحك ساندى وهو مسترسل فى أحلامه وقال :

ـ كان يأتى كل ليلة بعذراء طاهرة .. يبيت معها ليلته .. ثم يذبحها فى الصباح

وصاح ابلر ، والخمر فى رأسه :

ـ هكذا الحياة . ماذا ينقصنا نحن ، لنكون مثله .؟! انا شهريار الثانى ، وأنت شهريار الثالث

ألسنا فى بلاد ألف ليلة وليلة ؟!

ـ أكنت تقرأ مثلى قصص ألف ليلة وليلة أيام الشباب ؟

فأجاب ابلر :

ـ لقد كدت اطرد من المدرسة وانا أقرؤها يوما فقد كانت معى الترجمة الحقيقية لها ، بكل ما فيها من كلام لذيذ !

وسأله ساندى بخبث :

ـ وهل تحب أن تذبح النساء ؟..

فأجاب ابلر :

ـ ولماذا أذبحهن .. اعطيهن مالا .. مالا من البنك الاهلى .. كم يكون لذيذا ان تعيش كل ليلة فى أحضان عذراء !

وانتهت الموسيقى وخرج العربيدان الى الكيت كات يقضيان سهرتهما ..

ولكن خيال ألف ليلة وليلة لم يبرح ذهن ابلر وساندى فى تلك الليلة .. فكانا كلما سكتت الموسيقى رفعا عقيرتهمـــا بالحان شهر زاد ، فتضج القــاعة بالضحك على هـــذين « الانجليزين » ـ كما كانت تظن الراقصة ـ اللذين ذهب بعقلهما الشراب

عذراى شهريار

ولم تمر الليلة على خير ..

فقد اسر ابلر بأحلامه الحيوانية الى احدى صديقاته .. فضحكت الصديقة بخبث ، ودخلت معهما فى مفاوضات ، أصبح ابلر بعدها شهريار الثانى ، وأصبح ساندى شهــريار الثالث أيضا ..

وبدأت العوامة تستقبل كل صباح فتـــاتين جديدتين من بائعات الهوى ، فى ثياب كثياب الطالبات .. يدخلان عـــلى استحياء ..

ويخرجان وقد امتلأت حقيبة كل منهما بمائتى جنيه !

اخذتاهما من الرجلين باعتبارهما من العذارى !

واشتهر امر ابلر وساندى بين مجموعة من فتيات اليهود ، اللواتى كن يقمن بهذه التمثيلية العاطفية الفذة ..

حتى كان يوم السبب السابق للقبض عليهما ..

وكانت فى العوامة يهوديتان جاءتا لتمثل كل منهما دور عروس من عذارى شهريار ..

وانتهى التمثيل .. والرجلان فى نشوة بالغة ، من السكر الشديد ، والخيال المنطلق

وتهيأت الفتاتان للخروج . .ثم وقفتا فى انتظار الاربعمائة جنيه ..

ودخل ابلر الى غرفته ، ليأتى بالنقود ، ولكنه لم يجـد سوى سبعين جنيها فقط ، هى كل ماكان لديه من أوراق مالية مصرية

ومد أبلر يده بالنقود الى احداهما فأخذتها ، وعدتهـا ، ثم قذفت بها فى وجهه وهى تصيح :

ـ اتسلبنى أعز ما أملك ، بثلاثين جنيها ؟ أين باقى المبلغ ؟

وصاح فيها أبلر ، وقد أغاظه منها تطاولها عليه ، وقال :

ـ ليس معى غير هذا .. هيا اخرجى قبل أن اذبحك كما كان يفعل شهريار

وارتجفت الفتاتان ، وقد سمعتا كلمة « اذبحك » وخيل اليهما ان هذين « الانجليزيين » قد يصنعان اى شىء دون أن يخشيا عاقبة أو حسابا

وراى الالمانيان هذا الهلع على وجه الفتاتين ، فاستبدت بهما نشوة الخمر والانتصار ..

وانطلق احدهما يغنى نشيد « المانيا فوق الجميع » ثم شاركه الآخر ، فكونا معا ثنائيا فريدا فى نوعه ، ينشد نشيد هتلر !

ولم يكن هذا النشيد مجهولا ، خصوصا فى أوساط اليهود

فهزت احدى الفتاتين راسها ، وجذبت الاخرى ، ومضيتا من العوامة الى قلم المخابرات البريطانى

وبعد ساعات قليلة ! كان ابلر وساندى فى طريقهما الى السجن !..

امام تشرشل !..

عرفت تفاصيل هذه القصة التى تكشف عن خرافة المخابرات البريطانية فتظهرها على حقيقتها : ذهب كثير واعتماد على اغراء هذا الذهب للنفوس الضعيفة التى تخون وطنها فى سبيله .. فليست المخابرات اذن هى التى اكتشفت سر الجاسوسين .. ولكن الفتاة اليهودية التى أصرت على أن تأخذ ثمن جسدها مائتى جنيه ، وسيان عندها أن تأخذ المبلغ من ابلر .. أو من مخابرات الانجليز !

وكنت قد بدأت اشك فى أن الفتى المجنون قد اعترف بالصلة التى قامت بينى وبينه ...

وظهرت لى الحقيقة كاملة عندما علمت بعد ذلك ، أن الجاسوسين قد أمسكا عن الكلام يوما كاملا ، ثم حملتهما المخابرات البريطانية حملا الى مستر تشرشل وكان يزور مصر فى ذلك الوقت ، فلما مثلا أمامه ، وعدهما بحياتهما ان اعترفا بكل شىء ..

واختار الجاسوسان بين الموت والحياة .. فاعترفا اعترافا كاملا ، وجاءا بى وبحسن عزت الى السجن !

حتى لو كان مصطفى النحاس

وبدانا نرقب النهاية المحتومة لضابطين فى الجيش المصرى ، يقبض عليهما بتهمة الاتصال بجواسيس الاعداء .. وقد كان الالمان فى ذلك الوقت هم أعداء مصر من الوجهة الرسمية !

ثم جاء اليوم الذى يتقرر فيه المصير .. فقد صدر تشكيل المجلس العسكرى لمحاكمتنا ، ودعينا للمثول أمامه

ولم نكد ندخل حتى فوجئنا بما افقدنا الصواب

كان المجلس مكونا من ثلاثة من ضباط المخابرات المصرية ، وانجليزيين احدهما برتبة ميجر ، واسمه جنكينز ، والثاني برتبة كابتن واسمه سمبسون من ضباط قلم المخابرات البريطانية

وضابط من البوليس المصرى وكان اسمه كمال رياض

وكان يبدو من تصرفاته وحركاته واسئلته ، انجليزيا صميما لا يمت الى المصرية بشيء ..

وقد لا تهم القارىء تفاصيل المحاكمة

فقد كان أهم مافيها اعتراضنا على أن نحاكم كضباط مصريين ، امام ضباط انجليز ، ولو كانوا مخولين هذه السلطة من وزير الدفاع حينئذ حمدى سيف النصر ، ومن رئيس الحكومة نفسه ، مصطفى النحاس !

بل لقد كان هذا التصرف من وزير الدفاع المصرى ، ومن رئيس الحكومة المصرية ، هو الخنجر الاول الذى طعنا به فى ذلك اليوم ..

ولم يستطع المجلس العسكرى أن يحصل منا على شيء .. لا اعترافات ولا اجابات

لاشيء غير الاحتجاج العنيف .. ونظرات الاحتقار

وتقرر وضعنا تحت الايقاف .. ثم طردنا من الجيش فى ٨ اكتوبر ١٩٤٢

اى بعد حادث ٤ فبراير بثمانية اشهر فقط

ولم نكد نبرح مكاننا من الجيش ، حتى تسلمتنا السلطات المدنية ، فحملتنا الى سجن الاجانب ثم رحلتنا الى معتقل المنيا

حلقة الاتصال بالاخوان

كان هذا الحادث ، الذى انتهى بطردنا من الجيش واعتقالنا، نذيرا آخر بتاجيل العمل الحاسم الذى كنا نفكر فيه

وكان كذلك بدءا لتطورات اخرى فى تشكيل الضباط الذى لم يتاثر موقفه بخروجنا من الجيش ، ولم يتأثر بذلك موقفنا منه نحن أيضا ..

وكان نهاية صلات مع الاخوان المسلمين ، وبدء صلات جديدة معهم

فقد كنت انا حتى ذلك الوقت حلقة الاتصال الوحيدة بين تشكيل الضباط وبين الاخوان المسلمين

فلما انتهى الامر باعتقالى ، بدات حلقة اخرى عملها

وكنت حين قبض على ، قد اجريت فعلا آخر اتصالاتى فى تلك الفترة معهم ..

وكانت هذه الاتصالات فى نفس الفترة التى تم فيها اتصالى بالجاسوسين الالمانيين

فقد كانت خطتنا اذ ذاك لابادة الجنود الانجليز العائدين من العلمين ، قد تمت من الناحية العسكرية ، وكانت استعداداتنا كافية فعلا ..

وكنا قد بدأنا نفكر فى التنفيذ العملى .. فكان لابد لنا من ان نعاود الاتصال بالاخوان المسلمين لكى يكونوا هم القوة الشعبية التى تشاركنا باسم الشعب تبعات العمل الكبير

واذا قلت « الاتصال بالاخوان المسلمين » فانما أعنى الاتصال

بالمرحوم حسن البنا ، فلم تكن لى صلة عملية بغيره .. أو هكذا أراد حسن البنا نفسه .. فقد كان كما قلت من قبل، أحرص ما يكون على أن يظل ما بيننا وبينه سرا خافيا على الجميع ، حتى على كبار الاخوان أنفسهم

وعندما بدأت الاتصال به للقيام بالعمل الفعلى الذى كان يعرف اننا ننويه . تكتم الامر أيضا بينه وبين نفسه

فقد ذهبت اليه حينئذ فى دار الاخوان وطلبت مقابلته لامر هام ، وكان الاستاذ السكرى وكيل الاخوان المسلمين فى ذلك الحين موجودا معه ، فاذا به يشير بأن أدخل الى غرفة فى مدخل الدار ، كانت مخصصة لشركة المعاملات الاسلامية

وبذل رحمه الله جهدا كبيرا لكى لا يشعر السكرى بأية حركة غير عادية ، ثم تسلل الى فى الغرفة من باب آخر لها ، وأخذنى من يدى فخرجنا متلصصين ، الى عربة نقلتنا الى بيته بالقرب من دار الجماعة

واغلق البنا باب غرفته ، وأوصد الشبابيك ، ثم مال على برأسه لكى يسمع ما أردت أن أنهيه اليه

دور الاخوان

وفى تلك الليلة بسطت للمرحوم البنا كل التفاصيل ، وتوسعت معه فى شرح دقائق الخطة العسكرية الموضوعة ، وافهمته حقيقة الدور الذى نريد أن يقوم الاخوان به ، وحدود هذا الدور

واطرق البنا طويلا وهو يستمع لى ثم سكت فترة طويلة اخرى قبل أن يتكلم .. وعندما تكلم أجهش فى البكاء !

ومرت فترة وهو يتكلم ..

كنت أنا خلالها ذاهلا كالمسحور

قال كلاما كثيرا .. كلاما مثيرا امتزج بالايمان الشديد ..

وكان واضحا جدا من كلامه انه يؤثر مصلحة البلاد ..

ولكننى عندما خرجت من عنده ، سألت نفسى :

هل وعد الرجل بشيء ؟

هل هو سيقوم بتنفيذ نصيب الاخوان منها ؟

وحرت فى الاجابة على كل سؤال من هذه الاسئلة .. فالواقع أن الرجل تكلم كثيرا وأثر فى نفسى كثيرا ، وبكى من أجل مصر كثيرا .. ولكنه لم يعد بشيء ولا ارتبط بشيء !

ولا أفهمني أنه مقبل على تنفيذ نصيب الاخوان من الخطة!

هل كان معنا ؟

ولكنك لو سألتني حينئذ سؤالا من هذه الاسئلة لما استطعت أن أجيب عليه اجابة قاطعة كما أستطيع أن أفعل اليوم ..

انه رغم عدم تقيده بأي وعد فهو معنا .. بقلبه ووجدانه وتفكيره .. وروحه أيضا !

وكان أخطر ما أردت معرفته منه فى تلك الجلسة ، هو أن اعرف شيئا عن استعداداته من حيث الاسلحة .. فقد كنت على يقين أن الرجل يملك سلاحا ، وانه يختزنه ويعرف كيف يخفيه

وكانت مباراة بيني وبينه .. أنا أريد أن أعلم وأطمئن ، وهو يباعد بينى وبين ما أريد مباعدة لبقة لا تكاد تشعر بها أبدا ..

وفى جو الغموض والاسرار الذى كان يحوط نفسه به ، ويحوط كل أعماله وكل جماعته ، كان سهلا عليه أن يقنعك بأنه يملك سلاحا ، وأن يقنعك بألا تسأل عنه ابدا ..

وأن يقنعك بأنه أعد فعلا جماعته للكفاح ، وأن يقنعك بأن تحفظ هذا سرا بينك وبين نفسك

وأن يقنعك بأنه معتمد على قوة كبيرة مخيفة مجهولة ، وان

يقنعك ايضا بأن تؤمن بهذه القوة ، دون أن تعرف عنها اى شيء ..

وكان هذا هو آخر اتصال لى بحسن البنا قبل اعتقالى

ولكن اتصالات جديدة بدات عقب ذلك

اتصالات بينه وبين ضابط آخر من ضباط تشـــكلينا ، واتصالات بينه وبينى أثناء هربى من المعتقل ..

وكانت هذه الاتصالات الجديدة ، صورة أخرى من صـور الفصل الكبير الذى اشترك الاخوان فى صفحاته



ثورة رشيد عالى الكيلانى

- عزيز المصرى يتوقع هزيمة رشيد الكيلانى
- تاريخ الخيانة فى سياسة البلاد العربية
- خبرة البارون التائه فى الصحراء !..
- كيف ادعيت انى مريض بقلبى ؟
- الحظ الملعون يتربص عند الهرم ..
- سقوط طائرة عزيز المصرى !..

كان اعتقالى خاتمة لفترة من فترات الكفاح الذى بدأناه يوم استقر عزمنا عليه فوق تباب الشريف .. الى جوار منقباد ..

ولم يكن هذا الكفاح يستطيع ان يتصل طول الوقت ، فقد قلت ان جمال عبد الناصر كان قد نقل الى السودان ، وان تشكيلنا الاول كان قد تشتت هنا وهناك ..

وكانت الاحداث قد دفعت بعضنا لكى يعمل ، فعمل بروح التشكيل ، وفكرته .. واتصل فى ذلك بمن استطاع الاتصال بهم ، وتصرف وحده حين اعوزته المشورة ..

وقد تلا هذا الاعتقال احداث .. وسبقته ايضا ــ غير ماذكرت ــ احداث ..

وكانت كل هذه الاحداث ، وثيقة الصلة بالتمهيد للثورة التى كنا نعد لها ، وبالعمل الفعلى الذى كانت الاحداث تدفعنا الى القيام به ..

ولكى يتم اليوم ما نستطيع سرده من تفاصيل هذه الثورة وتمهيداتها سأروى قصة الدور الفعلى الذى قام به عزيز المصرى ، الذى ادى الى اعتقاله ومحاكمته ..

كنا قد عدنا من الصحراء الغربية ، عقب رفضنا أوامر تسليم السلاح الى القوات البريطانية ..

وكنا كما اسلفت ، قد عقدنا العزم على الاتصال ، بعزيز المصرى ، وعلى ماهر ..

ولم يتم اتصالى بعلى ماهر ، ولكنى اتصلت بعزيز المصرى ، على النحو الذى ذكرته ..

ورغم التحفظ والحذر الشديد اللذين كنت التزمهما كلما

ذهبت اليه الا انني فوجئت ذات يوم بالقائمقام موسى لطفى ، مدير المخابرات المصرية وقتذاك ، وهو يقول لى اننى التقى بعزيز المصرى هنا وهناك ..

وان المخابرات البريطانية التى تراقبه ، قد وضعتنى انا ايضا تحت المراقبة !..

وسألت القائمقام موسى لطفى عما يريده منى ؟

فسكت ثم قال :

ـ انى فقط احذرك ..

وفهمت ان تحركاتى كانت مكشوفة وذكرت لهذا الرجل احسانه الى بكشف هذا السر لى ..

اللحظة الحاسمة

وبدات ازيد من حذرى ، ولكنى لم اقف اتصالى ، لا بعزيز المصرى ، ولا بالجماعة التى كنت القاها من تشكيلنا ..

وكان شغلنا الشاغل فى تلك الفترة ، هو مراقبة تطورات هجوم المحور فى الصحراء الغربية . كنا نتتبعه ساعة بساعة ، ونحن نستعد ونتكتل انتظارا للحظة الحاسمة ..

وكان يوم من ايام الصيف فى عام ١٩٤١

كنت عائدا الى منزلى . عقب نزهة قصيرة اعفيت فيها نفسى من متاعب التفكير وتوتر الاعصاب . ولم اكد ادخل البيت ، حتى اخبرت بأن عزيز المصرى قد مر بى ، فلما لم يجدنى طلب ان اتوجه اليه فور حضورى ..

وكانت هذه الزيارة من عزيز المصرى ، وهذا الطلب ايضا ، يحملان فى طياتهما بالنسبة الى ، شيئا خطيرا ..

فلا بد ان شيئا قد وقع ، واننا على وشك ان نخوض احدى المعارك ..!

وغادرت منزلى فورا .. واسرعت الى عزيز المصرى ..

وجلس عزيز يروى لى تفاصيل مثيرة ، الهبت حواسى ، وجعلتنى اعتقد ان ساعة البدء ، قد تحددت ..

واننا فى الطريق اليها ..

قال لى عزيز المصرى ان الالمان قد اتصلوا به عن طريق بعض اعوانهم .. وانهم يرحبون بخبرته فى شئون الشرق الاوسط والعرب ، وانهم على اتم استعداد لاختطافه ، ونقله الى قيادتهم ، حيث تستطيع خبرته ان تلعب دورا عمليا كبيرا ..

اذن فقد بدأت نذر المخاطرة .. ولن يكون العمل داخليا فقط ، وانما سيكون هناك تنسيق لخطة من الداخل مع خطة اخرى مع الالمان ..

وكان يجب ان نقرر هل نقوم بهذه المخاطر ، أم نرفض القيام بها .. وكان علينا ان ندرس كل ذلك على اساس الاعتبارات والظروف المختلفة المحيطة بنا .. فى القاهرة ..

ففى هذا الوقت كانت الحكومة ومن خلفها مخابرات الانجليز تشك فى نوايا عزيز المصرى ، وتتوقع منه ان يهرب الى الخارج ومن اجل هذا سحبت منه جواز سفره ، ووضعت عليه رقابة شديدة ..

ولم يقابل عزيز المصرى هذا الاجراء بالرضى ، بل توجه الى المسئولين ، وطلب منهم ان يسمحوا له بالسفر الى الخارج فعلا ، فرفضوا هذا الطلب ..

ومعنى هذا ، ان كلَ حركة من حركات عزيز المصرى كانت تسجل وتحسب عليه ..

واكثر من هذا ان حكومة مصر ، ومخابرات الانجليز كانتا تتوقعان سفره ..

هذا من ناحية ..

اما من الناحية الاخرى التى جعلت عزيز المصرى يشعر

نه سبع قد حبس فى قفص من حديد .. فهى قيام ثورة رشيد عالى الكيلانى فى ذلك الوقت بالعراق ..!

الساسة العرب !

كانت هذه الثورة ، هى المتنفس الحقيقى الوحيد لنا ، هنا فى مصر .. وكنا نتابع انباء هذه الثورة ، فى حماسة بالغة ، ونعلق عليها آمالا واسعة ..

ولكن نظرتنا الى هذه الثورة ، كانت تختلف كل الاختلاف عن نظرة عزيز المصرى ..

كانت نظرتنا مليئة بالارتياح والحماسة والتفاؤل ...

وكانت نظرته مليئة بالضيق والتشاؤم ..

فقد كنا فى شبابنا وحماستنا ، نريد ان نصنع ما صنعه رشيد عالى الكيلانى ..

ننقض على الانجليز ونعلنها عليهم فى أزمتهم ثورة مسلحة

وكانت هذه البداية من رشيد عالى هى المفتاح الذى رأيناه يفتح لنا الطريق ، ويشعل نار شعوب هذه البلاد على الغزاة فيها ..

ولكن عزيز المصرى ، كان يسمع انباء هذه الثورة فينتابه الضيق والعصبية ، ويملأه التشاؤم ..

وكنا نسأله فى ذلك .. فيقول :

ـ انتم لا تعرفون رجال السياسة فى العراق مثلما اعرفهم

وكان يسترسل فى حديثه فيروى لى قصصا من خيانات الساسة العرب او اكثر الساسة العرب على الاصح ، منذ اتصل بالاحداث فى عهد الدولة العثمانية ، وكان اذ ذاك يرعى الحركة العربية

وكان يسمع انباء هذه الثورة ، ثورة رشيد عالى ، فيتوقع الخيانة ، وتتجسم له الخناجر التى لابد ان يطعن بها رشيد فى ظهره ..

وكان يتصور هذا المصير ، لتلك الثورة المخلصة ، فيكاد ينفجر غيظا ، وكمدا ..

هروب عزيز المصرى

ولم نكن نحن .. حتى آخر لحظة ، نشاركه هذا الشعور ، أو نقبل منه هذا الكمد ..

هذان الظرفان : المراقبة الشديدة المفروضة عليه من الحكومة والانجليز .. وثورة رشيد عالى التى كان يتوقع لها ان تطفئها الخيانة.. كانا هما العاملين الرئيسيين فى تكييف الموقف عندما عرض الالمان عرضهم عليه ان يختطفوه ليستفيدوا من خبرته فى وضع خططهم ..

وفكر عزيز المصرى طويلا .. وفكرت معه .. ثم استقر رأينا على وجوب سفره .. وعدم افلات هذه الفرصة ..

وفى اليوم التالى ، عاد عملاء الالمان الى عزيز المصرى ، فأبلغهم قراره بالقبول ..

ووضع الالمان خطة الاختطاف ..

طلبوا منا ان نحدد لهم مكانا خارج القاهرة يصلح لنزول الطائرات .. وقالوا انهم بمجرد معرفة هذا المكان ، سيرسلون طائرة تحمل العلامات الانجليزية لتهبط فيه .. ويكون عزيز المصرى فى انتظار الطائرة ..

وعلى الفور تناولنا الخرائط ، واخذنا نحن الاثنين ، ومعنا زميلى عبد المنعم عبد الرؤوف ندرس جميع الاماكن ، وندرس ايضا كل الاحتمالات ..

اخترنا مطار الخطاطبة .. ولم يكن مطارا بالمعنى المفهوم ، وانما كان مجرد ارض صالحة لهبوط طائرة ..!

وقمنا ثلاثتنا لاستكشافه بعربة عزيز المصرى ، ثم حددنا مكانه على الخريطة بالطريقة الطوبوغرافية العسكرية ... وارسلناه الى الالمان ..!

وبدانا نحن ننتظر الموعد الذى سيحـدده الالمـان لهبوط طائرتهم « الانجليزية » فى ارض الخطاطبة ..

ولكن دهشتنا كانت شديدة عندما جاءنا رد من الالمان ، يرفضون فيه فكرة « الخطاطبة » ويعينون منطقـة « جبل رزة » على طريق الواحات البحرية ، مكانا للقاء ..

البارون التائه

واخذنا ندرس اسباب هذا التغيير .. فوجدنا ان الالمـان كانوا على حق وانهم على دراية تامة بصحرائنا ، ومعرفة حقيقية بوسائل الهروب من مصر .. ولعل هذه الخبرة قد اكتسبت عن طريق الرحلات التى قام بها كشافوها ورحالوهم قبيل الحرب والتى تاه فى احداها احد باروناتهم فى صحرائنا

لهذا قبلنا هذا التغيير ، وحددنا يوم السفر ..

كنا اذ ذاك فى يوم اربعاء ، وكان سفر عزيز المصرى قـد تحدد له يوم السبت التالى على الفور ..

ولا ادرى كيف توقعت مخابرات الانجليز ، اننا على وشك اتخاذ خطوة خاصة ..

فقد صدرت الى فى نفس اليوم ــ يوم الاربعـاء ــ اوامر بالنقل الى الصحراء الغربية فورا ، وانبانى مدير السلاح ، وهو يصدر الى امره ، وجوب سفرى فى اليوم التالى مباشرة يوم الخميس ..!

ولم يكن لهذا النقل اسبـاب .. وانما كان امرا واجب التنفيذ فحسب ..

ووقفت حائرا امام مدير السلاح اللواء احمد الصاوى ، وهو يصدر الى امره .. وكان على ان اختار ، اما ان اسافر فى الموعد المحدد واما ان ارفض السفر ، ومعنى هـذا اعلان عصيانى لاوامر الجيش فى ظروف حرب ..

وهى اخطر تهمة يمكن ان توجه الى ضابط فى الجيش ..

وخرجت من عنــد مدير الســلاح ، وتوجهت الى عزيز المصرى ، لأعرض امرى عليه ..

ولكنه رفض ان يشير بشيء على وفوض لى الامر كله .. والشيء الوحيد الذى اتفقنا عليــه هو وجوب ســفر عزيز المصرى فى الموعد الذى تحدد فعلا .. وان يكون عبد المنعم عبد الرؤوف فى صحبته ... حتى تطير به طائرة الالمان ..

وقــد تركت الامر لهمــا ، وتوجهت انا الى المســتشفى العسكرى صباح الخميس .. وادعيت انى اشعر بآلام مترتبة على مرض فى القلب اصبت به اثر حادث تصــادم كان قد وقع لى ..

ولم يكن صعبا ان احصل على اجازة مرضية من المستشفى العسكرى وان أبطل بذلك ـ ولو مؤقتــا ـ امر النقل الى الصحراء ..

وقضــيت يومين فى المستشــفى اترقب يوم السبت ، واتعجله ..

سوء الحظ

وجاء يوم السبت .. وزارنى فى نهايته عبد المنعم عبــد الرءوف وكان حزننا مبتئسا .. ! ان الرحلة لم تتم ، ولم يستطع عزيز المصرى أن يصل الى « جبل رزة » ولم يكن السبب انكشاف أمر هذه الرحلة ، ولا رقابة البوليس ، ولا اى شيء من كل الاسباب التى تطوف بالذهن لاول وهلة .. ولــكنه كان القدر ..

فقد خرج عزيز وعبــد المنعم بسيارة جــديدة اشتريت خصيصا لهذا الغرض .. وسارت بهما السيارة شوطا ، واذا بها تتوقف عن السير فجأة على مقربة من الهرم ، وقبل ان يدخلا بها طريق الواحة البحرية ، الذى كانت الطائرة الالمانية ستهبط فيه ..

وكان الاتفاق ان تهبط الطائرة عند الغروب ، وان يصعد اليها عزيز بمفرده ، ثم يتصل بنا عن طريق اللاسلكى فور وصوله الى خطوط الالمان ..

وقال لى عبد المنعم ، انهما لم يتمكنا من اصلاح العطب الذى اصاب السيارة ، فتركاها فى مكانها بعد ان فات الوقت المحدد لهبوط الطائرة .. وعادا ..!

وقال لى ايضا : ان عزيز المصرى فى حالة عصبية شديدة بسبب هذا الحادث ..

ومضى بعد ذلك يومان ، ثم اتصل احد رجال الالمان بعزيز المصرى ، وابلغه ان الطائرة قد اتت فى موعدها ، وانها حومت حول المكان ، ولم تجد الاشارة المتفق عليها ، فعادت ..

ثم مرت ايام كثيرة ، دون ان يجدد الالمان اتصالهم بعزيز المصرى ..

وكان لابد لاجازتى المرضية ان تنتهى ..

وكان لابد ان ارحل الى الصحراء الغربية ..

ورحلت فعلا ، تاركا كل شىء لعزيز المصرى وعبد المنعم عبد الرؤوف ..

المحاولة الثانية

واكاد اتصور الآن الايام التى مرت بعزيز المصرى بعد ذلك ، على ضوء ما اعرفه عنه ، وما لمسته من انه اذا صمم على شىء لم تستطع قوة ان توقفه عن المضى فيه ..

فقد كان عزيز قد صمم على الذهاب الى خطوط الالمان ، وكانت هذه الفكرة قد اختمرت فى راسه ، واصبحت مسيطرة على تفكيره وآماله .. وكان من الصعب بعد ذلك انتزاع هذه الفكرة من راس الرجل ..

ومرت ايام قليلة ، واذا به يكلف عبد المنعم بأن يبحث له

موضوع سفره ، على متن طائرة مصرية ..

وبدأ عبد المنعم دراسته ، ثم اتصل بقائد الفرقة الجوية حسين ذو الفقار ، واتفق معه على ان يعد خطة السفر ... وان يكون هو الذى يحمل عزيز المصرى الى الالمان ..

وتحدد موعد السفر ، فى ليلة كان فيهـا ذو الفقـار هو الضابط العظيم بالمطار ..

وحمل ذو الفقار عزيز المصرى فى احـدى الطـائرات .. وطارت الطائرة بهما ..

ولـكن القدر كان بالمرصاد ايضا .. فقد سقطت الطائرة وقبض على الرجلين ووضعا فى السجن ..

وبعد أن قضى عزيز المصرى عاما ونصفا فى السجن ، نقل الى « ميس » الضباط تخفيفا عنه .. ثم افرج عنه بعد ذلك فى مارس سنة ١٩٤٢

فى نفس الفترة التى بدأ فيها الالمـانيان آبلر وسـاندى اتصالهما بى .. وبعزيز المصرى ..

كان القدر دائما ضدنا فى هـذه الفترة .. ولـكننا كنا نستفيد من القدر ..

وجاءت الفترة التى اعقبت اعتقالى .. وتغير كل شىء ..

الهرب الى اسطمبول

- صداقة .. وصديق ...
- عشرة جنيهات فقط ...
- لماذا لم ننسف السفارة البريطانية
- فدائيون فى الجيش .. وفدائيون فى الشعب !
- متى نضعف ..؟
- جمال يعود ...

مرت حياتنا كتشكيل منظم بفترة ركود نسبى طويلة ، فعلى الرغم من عودة جمال عبد الناصر من السودان ، الا انه وجد من الخير للتشكيل وللثورة ، الا يعاود العمل المنظم الفعلى الا بعد أن تستكمل لهذا العمل اسباب النجاح ، وكل وسائله ..

وقد جاءت هذه الاسباب واكتملت الوسائل بعد بضع سنوات .. عندما بدأت أعمال وخطط منظمة وصلت الى غايتها يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ..

ومع ذلك ، فقد كانت هناك اتصالات ، وكانت هناك ألوان من النشاط فى نفس الفترة التى تلت اعتقالى ، وسبقت نقطة البدء التى حددها جمال ..

مدة كانت فترة ركود ، ولكنها لم تخل من عمل .. ومن تفكير فى عمل ..

عندما أتذكر اليوم تلك السنوات التى اتصلت فيها بحسن البنا ، قبل اعتقالى ، يأخذنى كثير من العجب للفتات كان يلتفتها فى وقت لم يكن مثلها يخطر لى ببال

وانا أتذكر اليوم ، كم ألح على حسن البنا أن أذكر له اسما واحدا من اسماء زملائى ، ليتصل به أن حدث أن عاقنى شيء عن الاتصال به

وكنت أنزعج لهذا السؤال ، وكنت أتهرب من الاجابة عليه ، فقد كان متفقا بينى وبين اخوانى أن أظل أنا وحدى ، الضابط الوحيد من التشكيل المعروف لمرشد الاخوان

ولكنه ألح .. وألح كثيرا ...

وفى مرة أحرجنى ، فأطلت التفكير .. ثم اخترت ان أذكر

له اسم عبد المنعم عبد الرؤوف ..

ولا اذكر على التحديد لماذا اخترت عبد المنعم ... وكل ما استطيع اليوم أن أذكره من افكار ذلك الماضى البعيد الحافل بالمثيرات ، هو انى اخترت هذا الزميل ، ربما لانه كان اول من انضم الى تشكيلنا عقب عودتنا الى القاهرة فى عام ١٩٤٩

ولم يعلق حسن البنا بشيء عندماذكرت له اسم عبدالمنعم. وانما لزم الصمت والحرص اللذين لونا حياته حتى فارق هذه الدنيا ، بحادث اغتياله المشهور ...

ولكنى عندما قابلته أول مرة بعد ذلك ، ذكر لى اسم عبد المنعم واثنى عليه طويلا .. ثم أخذ يسرد لى تفاصيل كثيرة عن تاريخ عائلة عبد المنعم وحياته وبيته ...

وفهمت أن صلة ما قد وجدت بين اسرة عبد المنعم ، وبين مرشد الاخوان ، وانها صلة قديمة ، وانها صلة معرفة وصداقة وبيئة ، فقد كان جد عبد المنعم شيخا للازهر . كما ان عائلته كلها كانت معروفة بالدين والتقوى ..

وامسك حسن البنا عن ذكر عبد المنعم بعد ذلك ، حتى ظننته نسيه !.

ثم كان القبض على عزيز المصرى وكان الافراج عنه ، ولم يشر حسن البنا اليه أبدا ..

صداقة .. وصديق

وعندما أفرج عن عبد المنعم وكنت أنا اذ ذاك طليقا لم يقبض على ، فقد افرج عنه مع الفريق عزيز المصرى فى مارس عام ١٩٤٢ ، ولم يقبض على أنا الا فى اغسطس من ذلك العام .. عندما افرج عنه ، لم اشأ انا ان اتصل به فى شيء ، كنت اخشى عليه أن تثور حوله شكوك جديدة .. وكنتأريد

له فترة من الراحة بعد المحاكمة والسجن والاعتقال ..

ولكن يبدو ان عبد المنعم أساء فهمي حينذاك ، فقد غضب فى نفسه وتضايق .. وعرفت فيما بعد

وجاء اليوم الذى قبض فيه علي وقبض فيه على عزيز المصرى مرة أخرى .. ولم أكن اذ ذاك على صلة بعبدالمنعم ، ولا على شبه صلة به

وكان آخر شيء أفكر فيه هو أن ينشط عبد المنعم بمجرد اعتقالى ليقوم بما قمت به ، لفكرتنا ، وليقوم بواجبات اخرى يكلف بها نفسه .. لشخصى ..

انها الصداقة التى آمنت بها دائما .. هى التى دفعته ان ينهض فورا بعبء كنت أنهض به .. ثم ان يفاجئنى مفاجاة أخرى ..

عشرة جنيهات

كنت قد نقلت الى معتقل المنيا .. وكنت أذود عن نفسى هم التفكير فى العالم الخارجى ، بالقراءة الكثيرة أقطع بها وقتى ..

وكان هم التفكير فى خارج المعتقل هما ثقيلا ، مثيرا للنفس باعثا للكآبة ... والجنون

فمثلى فقير لايملك غير عمله .. وذوزوج وأولاد .. يعيش فى المعتقل لايعرف لاهله معينا ، غير الذى خلقه وخلقهم

وفى طريقى اليومى الى مكتبة المعتقل التقيت بالمرحوم الشهيد يوزباشى محمد وجيه خليل ، الذى استشهد فى حرب فلسطين ، وكان من دفعتى ومن دفعة عبد المنعم عبدالرؤوف

وينتحى بى الصديق ناحية ليسر فى اذنى ان التشكيل قد رتب لعائلتى عشرة جنيهات فى كل شهر ، وانه جاء لكى يطمئننى بعد أن عزت على الجميع زيارتى ..

متى نضعف ؟

وكانت هذه العاطفةالصادقة من زملائى هىاسمى مايمكن ان يشعر به مثلى فى ظلمة الاعتقال

فقد يعرف الذين زاولوا الكفاح من أجل فكرة أنهم لا يضعفون أمام الموت ولا يضعفون أمام السجن ولا يضعفون امام التعذيب ، وقد يخيل اليهم فى لحظاتالحماس والانفعال انهم لن يضعفوا امام شىء فى الوجود .. ولكنهم فى هذا واهمون . فهناكالشىء الذىيضعفون أمامه ، والذىلايملكون حياله شيئا الا الفرار .. من الواقع ، والفرار من التفكير فيه .. الفرار من هذه المطارق التى تطرق الراس والقلب والضمير ... وتحيل الجبار وهما ضعيفا يكاد يستسلم ويكاد يستغيث لولا كبرياء الكفاح ، ويقظة الفكرة المتأصلة فى نفسه ومثالية الهدف ...

ولعلك عرفت الآن ، ما هو هذا الشىء الذى يضعف أمامه المجاهدون ... انه الولد ، الطفل .. العيال !

هؤلاء الصغار الودعاء ، الذين ندفعهم دفعا الى مرارة الكفاح ، ونأخذهم اخذا على الصبر والحرمان والتقشف ، ولما يبرحوا بعد مهاد الطفولة ، ولما يعرفوا بعد مراحالصبا

هؤلاء هم نقطة الضعف فينا ... وهى نقطةضعف اعترف بها ، ولا تخجلنى ... لاننى انسان !

وقد كنت احتمل ان يحرم اطفالى من رعاية ابيهم ... ولكنى ما كنت أصبر على حرمانهم من ضرورات الحياة

وكانت هذه الجنيهات العشرة ، هى العون الوحيد الذى اقبله لاطفالى لانها لم تصدر عن عطف ولا اشفاق . وانما صدرت عن فكرة مشتركة ، وتكافل بين مكافحين ...

وبدأت أنسى هم الحياة الوثيقة بى خارج المعتقل ... وبدأت أفكر فى خطوط المستقبل ، وخطوات الجهاد

وكان مجرد تفكير نظرى ، تنقصبـــه حكمـــة الواقـــع ، ودراسة الطبيعة

وكان اهم ما يشغلنى هو أن أخرج من هـــذا المعتقل ، ولـكننى لم أكن قد حددت بعـــد ، لمـــاذا أخرج ، أو ماذا استطيع أن أصنع وانا مطارد شريد !

الى تركيا

ويبدو أنى لم اكن وحدى الذى فـكر فى هذا الامر ... فقد فـكر فيه عبد المنعم عبد الرؤوف فى نفس الوقت الذى كنت أنا افكر فيه ...

وفى جلسات متعاقبة مع بعض اعضاء التشكيل من سلاح الطيران ، وكانوا من اكثر أعضاء تشكيلنا حماسة واندفاعا .. أخذ عبد المنعم يضع خطة لتهريبنا .. عزيز المصرى وانا ..

وكانت خطته تعتمد على عدد من المجازفات ، ولم تـكن خطة عملية على أى حال ...

كانت خطته تقوم على الهجوم على المعتقل الذى يقيم فيه عزيز المصرى واختطافه اختطافا مسلحا من حرسه ليهرب عزيز من معتقله فيجد عربة فى انتظاره تحمله الى المنيـا

وكان الشق الثانى من الخطة مماثلا للشق الاول فهو قائم على الهجوم على معتقل المنيا واختطافى من هناك بالقوة لاهرب فأجد عبد المنعم فى انتظارى

أما الشق الثالث .. فكان قائما على أن تقوم طـائرة من القاهرة لتهبط فى المنيا فى نفس الوقت الذى يصل فيه عزيز المصرى اليها ، وأخرج أنا من المعتقل

وكان الاتفـــاق أن تحملنـــا الطائرة فورا الى سوريا .. أو الى اسطنبول

وكانت كفة الاراضى التركية هى الراجحة فى هذه الخطة . للموقف الذى كانت تركيا تتخذه من الحرب

ولكنها ــ كما قلت ــ لم تكن خطة عملية .. فلو قدر لهذين الهجومين المسلحين أن ينجحا ، لما كان من السهل ضبط التوقيت فى العمليتين معا ، بحيث لاتزيد مدة بقائى خارج المعتقل عن دقائق معدودة تحلق بنا الطائرة بعدها الى خارج الحدود ...

لم يكن هذا سهلا .. ولعل أسهل ما كان فى هذه الخطة هو الدور الخاص بسلاح الطيران .. فقد كان زملاؤنا الطيارون ، اكثرنا اندفاعا وحماسا فى كل شىء .. وكنا نرجع ذلك دائما الى طبيعة عملهم كطيارين كل حياتهم مغامرة مستمرة ، والى قوة أعصابهم التى تعتبر شرطا اساسيا فيمن يقبل فى هذا السلاح

كان الجزء الخاص بالطائرة .. هو الجزء العملى الوحيد فى هذه الخطة ، أما القسمان الاخران منها فكانا يحتويان على كثير من الثغرات الكافية لخلق متاعب جديدة لنا ، كنا فى غنى عنها ...

وكانت هذه الخطة هى خطة عبد المنعم وحده ... فقد كان التشكيل ــ كما قلت ــ فى فترة من فترات الركود

تطورات .. بالجملة !

ولكن هذه الفترة كانت تحوى تطورات كثيرة فى الحياة المصرية ، وفى موقف العناصر المختلفة التى كانت ذات تأثير فى سياسة البلاد

فقد أصبح للملك ــ مثلا ــ موقف جديد وتطورت نظرته الى عرشه ، والى شعبه والى مستقبله والى الانجليز تطورا كبيرا ...

هذا الملك الذى كان يمثل عنصرا من العناصر الوطنية حتى ٤ فبراير ١٩٤٢ والذى اعتبرناه فعلا رمزا لمصر .. واعتبرنا الاعتداء على قصره اعتداء على مصر .. واردنا ان نثأر له بابادة الانجليز .. قد تطور أو تغير .. ووضح لنا هذا

التطور والتغير بصورة جعلتنا نضعه فى الصـــف الاول من صفوف الاعداء ...

واحمد ماهر .. الذى ملأ قلوبنا يوم ان وقف وقفته امام الانذار البريطانى فى عام ١٩٤٢ والذى علقنا عليه املا كبيرا يوم عاد الى الحكم فى عام ١٩٤٤ ، لم يكد يستقر فى مقعـد رئيس الوزراء حتى اصدر امره ببقائنا فى الاعتقال وكان هذا الامر بناء على « امر » من الانجليز ، ولا أقول بناء على طلب أو رغبة أو تفاهم !

وحسن البنا ، الذى كان قد أصبح قوة رهيبـــة يخشاها الملك ، ويعلن عن مخاوفه منها ، بدأ يضع لنفسه ســياسة جديدة يضمن بها القفز بحركة الاخوان المسلمين فى جو آمن من مقاومة القصر او غدره .. وكان رحمـه الله يحاول دائما اقناعنا بخطته ، ويحاول ايضا الامساك بطرفى حبلين فى قبضته

جمال يعود ..

وفى هذا الوقت هربت انا من المعتقل .. هربت فى نوفمبر ١٩٤٤ أى بعد تأليف وزارة احمد ماهر بشهر ..

وكانت ظروف كثيرة متعاقبة ..

ففى الوقت الذى انصرف فيه عبد المنعم عبد الرءوف الى الاخوان المسلمين انصرافا كليا . وفى الوقت الذى هربت انا فيه من المعتقل ، وبدأت أكافح لاعيش هاربا شريدا اقتـات من عدد من الاعمال الغريبة هنا وهناك متنكرا مستترا حتى الغيت الاحكام العرفية عام ١٩٤٥ فبدات اظهر بوجهى

فى هذا الوقت .. كان جمال عبد الناصر قــد بدا يتولى بنفسه امر التشكيل داخل الجيش ، لينظمه تنظيما جديدا وليضع له خطة بعيدة المدى طويلة الامد قائمة على فلسفة مدروسة واقعية

وبدأت حركتنا تتخذ صورتين ..

صـــورة داخل الجيش يرسمها ويكون عنـاصرها جمال عبد الناصر ..

وصورة خارج الجيش توليت انا أمرها ..

وكان الغالب على الصورتين ، روح فدائيـة ، وكانت بين الصورتين صلات ...

كنا قد بدأنا نعتمد على أنفســنا كل الاعتماد اثر احداث واحداث ..

وكنا قد رسمنا خطتنا القريبـة على أن ننشىء تشـكيلا شعبيا وتشكيلا عسكريا ، يعملان جنبـا الى جنب ، كل بوسائله وكل بخططه ، ولا يرتبط احدهما بالآخر أى ارتباط ظاهر حتى تأتى اللحظة المناسبة لذلك

ومر بنا تاريخ طويل .. ووقعت أمام أعيننا هزات عنيفة

نسف السفارة ...

وكنت أتعجل الخطى .. وكان جمال يتريث ..

حتى أتى اليوم الذى شكلت فيه وزارة المرحوم النقراشى عقب مصرع المرحوم احمـد ماهر .. وذهب النقراشى الى السفارة البريطانية فقابله كيلرن .. على سلم السفارة ..

وكانت هذه القصة حديث مصر ..

فقد كانت قصة بغيضة فاضحة .. ولم يكن فى البـلاد مصرى واحد يحتمل سماعها ، دون أن تفور الدماء فى عروقه ويهم بأى عمل يمكن أن يسمى من اعمال الجنون .. فقـد كانت خلاصة هذه القصـة أن النقراشى لم يكد يشـير الى مطـالب مصر ، حتى هز ذلك اللورد كتفيـه فى استهتـار وسخرية ، وقال للنقراشى ، دعك من هذا الـكلام .. فان حديث الجلاء والوحدة ليس الا حديث خرافة

وكانت لطمة قاسية أردنا أن نردها

وذهبت الى جمال .. وفى يدى خطة من التشكيل الشعبى ، لنسف السفارة البريطانية على كل من فيها

واستمع لى جمال طويلا . وناقش خطتى مناقشة كاملة.
واقر كل أطرافها وعناصرها ..

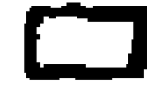
ولكنه فى آخر الامر .. هز رأسه وقال : لا ..

كان يستعرض فى ذهنه الاجراءات التى يستطيع الانجليز اتخاذها عقب نسف سفارتهم وكان يستحضر فى ذهنه مصرع « لى ستاك » سردار السودان ..

وقال : لا .. نحن لانريد أن نعيد مأساة السودان ألتى وقعت منذ عشرين عاما ..

وكان على حق .. فعشرون عاما فى عمر امة مكافحة ، ينبغى لها أن تغير من أساليب كفاحها بما تتضمنه من تجارب ومن دروس ..

ولم تتم هذه الخطة..ولكن بدأ صراع من نوع آخر جديد



هذا اجمال لفترة طويلة .. ولكن هل يكتفى القارىء منى باجمال ؟!..

ان للقارىء أن يسأل عن موقف الملك وكيف تطور ..

وله أن يسأل عن موقف الاحزاب وكيف تطورت ..

وله أن يسأل عن موقف حسن البنا وكيف تطور وكيف تعاونا معه وكيف تعاون معنا ..

وله ان يسأل عن جمال عبدالناصر كيف بدأ خطوطه الجديدة

وله أن يسأل عن سر التشكيلين الفدائيين .. تشكيل الجيش وتشكيل الشعب وله أن يسأل عن دور الاحرار فى معركة القنال ...

وله أن يسأل عن ثورة الاحرار فى نادى الضباط ...

وله أن يسأل عن خطة الاحرار التى اتبعوها بين صفوف الشعب ...

وله أن يسأل عن الترتيبات والظروف التى أخرت موعد قيام الحركة .!؟

له أن يسأل عن كل هذا ؟

إقالة وزارة النحاس

- احمد ماهر ينفذ رغبات الانجليز ..
- فاروق يقول ليوسف رشـــاد .. « حسن البنـــا ضحك علينا »
- ضممنا « الملك » الى صفوف الاعداء ..!
- اخلاص حسن البنا ..!
- العملاق الذى لا يقهر ..!
- الملك يخشى وكيل الوزارة !

فى الساعة الخامسة تماما من مســاء ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ، انقطع صوت الاذاعة المصرية فجـأة ، وكانت تذيع احـدى الاغانى .. ثم عادت تصدر صوتا كان مألوفا لدى المصريين طوال فترة الحرب هو صوت الاستاذ محمد سعيد لطفى ، الذى كان مستشارا للاذاعة فى ذلك الوقت ...

كان يحمل أمر الاقالة التى وجههـا فاروق الى النحاس لينهى بها عهدا بدأ بدبابات الانجليز ...

وكان واضحا فى صوت مستشار الاذاعة ، وفى القائه لهذه الاقالة . انه طروب بها مستبشر .. شمتان !

وكان سهلا على المدركين لحقائق الامور ان يعرفوا الاسباب التى تدعو مستشار الاذاعة الى الفرح الشديد بهذه الاقالة ، فقد كانت هذه الاقالة بشرى ـ من السماء ! ـ هبطت على ذلك الرجل ، لتنقذه من عذاب طويل ، وضيق وحرج لامثيل لهما ، عاش فيهما أكثر من عامين ونصف عام ..

كانت الحكومة طيلة تلك الفترة تتحدى القصر وكان القصر طيلة هذه الفترة يتحين الفرص لاقالتها ...

ولو كان الخلاف قائما على اساس دستورى ، لكان خلافا فى سبيل مصر

راس الملك !

ولـكن النحاس كان يتحدى الملك ، باسم الانجليز ، لاباسم الشعب ، ولا باسم الدستور

والملك كان يحنى راسه ، لانه كان يعلم انه لايســتطيع شيئا غير الانحناء ، حتى تحين الفرصة ، ليبطش بهذه الحكومة

التى جاءت رغم أنفه ، لتذل كبرياءه ، وتهدر كرامته !

وكان الملك قد جرب حظه مرة خــلال حكم الوفـد .. فأرســل حسنين يفـاوض كيلرن ليسمح الانجليز بتغيير وزارة النحاس ، فـكان الرد الذى تلقاه على ذلك ، هو برقية من تشرشل يقول فيها :

ــ لا تغيير ..

وسكت الملك ، وسكت حســنين ، وعلم الوفـد بالامر ، فازدادت حكومته صلفا ، وبطشا ...

والمهم ان هذا الخلاف والتحدى بين الحكومة وبين «الملك» كان مصدر متاعب وحرج شديد لرجل الاذاعة المسئول ...

كان الملك مثـلا يأمر باذاعـة القرآن الـكريم من القصر ، فترسل الاذاعة رجالها وآلاتهـا لاعـداد ما يلزم للملك .. وتسمع الحكومة بالامر فترسل رجالها لسحب آلات الاذاعة ويبدأ الحرج ، وتبدأ المتاعب ، للاذاعة ورجال الاذاعة ..

وكان الوفد يقرر القيـام برحلات فى الاقاليم ، فيـأمر الاذاعةباذاعتها ، ويسمع الملكالهتاف والدعايات ، فيغضب ، ويبلغ غضبه بطريقته المعروفة ، لرجل الاذاعة المسكين ..

وهكذا ، كان على الاذاعة أن ترضى الانجليز ، وان ترضى الحكومة ، وان ترضى الملك ، وكان هذا أمرا لا سبيل اليه !

فاذا أقال الملك حكومة النحاس ، فقد كان من الطبيعى أن يفرح رجل الاذاعة ويستبشر ..

وسمعنا هذه الاقالة من الاســتاذ محمد سعيد لطفى ، وسمعنا بعدها مباشرة الامر الملـكى الصادر بتكليف احمـد ماهر بتشكيل الوزارة .. وكنا فى المعتقل ، قد استطعنا ان نحصل على جهاز راديو يسمح لنا باستعماله كلمـا رضيت عنا ادارة المعتقل ..

ولا أخفى على القارىء انى انا ايضا طربت لهذه الاقالة ..

فقد كانت عندى الرد الاول على انذار ٤ فبراير المشئوم

وفى غمرة هذا الطرب ، غفلت عن تحليلها ، والتعمق فى مدلولهـــا ..

فان الامر لم يكن بعد قد ترك للملك يتصرف فيـــه كيف يشاء ، لابد من مصدر لهذه القوة التى تقمصته ، حتى أقال وزارة النحاس ... ولابد من أتفاق سابق ، وان التغيير آت من الانجليز ، لا من الادارة الحرة للملك !

تجاربنـــا

غفلت عن هـــذا التحليل ، فى غمار النشوة التى بعثتها فينا هذه الاقالة ..

وغفلت عنـــه فى غمار النشوة التى تلتهـــا . اذ أصدر الرئيس الجديد أمره بالافراج عن جميع المعتقلين .. وبدأت أعد نفسى للحرية ...

وكل من عرف الاعتقال يعرف كيف يكون الامل فى الحرية، وكيف تتزاحم مشروعاتها على الراس ، وتتواثب صـــورها أمام الخيال ...

ولكنى أفقت بعد ذلك بقليل .. أفقت من الآمال ؛ وأفقت من الخيالات وافقت من هـــذا الطرب الذى غمرنى عنـــدما سمعت اقالة النحاس

فقد رأى احمد ماهر ان يفرج عن جميـــع المعتقلين ... ولـــكنه رأى أن فينا خطرا داهما يهدد النظام العام !

وبدأنا التحليل ، وتعمقنا فى سر الاقالة ، وتـــكفلت الايام بعد ذلك بافشاء الاسرار !

وبدات أضـــيق ذرعا بالمعتقل واصبح وجودى فيـــه بعد ذلك ضربا من المستحيل ... فوضعت خطة هربى وهربت

فعلا ، هربت فى الشهر التالى لاقالة النحاس ، أى فى شـهر نوفمبر ١٩٤٤ ...

وبدات اتصل سرا باخوانى فى تشكيل الجيش ، واتصـل سرا بالمرحوم حسن البنا ، واعمل سرا فى سـبيل الحصول على ضرورات الحياة ...

انها فترة طويلة على قصرها ، لانها كانت مغامرة كاملة .. ولعل القراء قدقرأوا طرفا منها بقلم غير هذا القلم .. ولعلى اعود الى ذكرها يوما من الايام بالتفصيل

ولـكنى لا افعل اليوم ، وقـد حددت لهـذه الصفحات المجهولة ، خطا تسير عليه ، يستهدف الـكشف عن الاسرار التى يمكن كشفها من تاريخ التمهيد لهـذه الثورة ، وتاريخ تجاربنا خلال ذلك التمهيد ...

خرجت من المعتقل لاكتشف عددا من الحقائق الجديدة ، ولاعرف عددا من الاسرار ...

خرجت لاسمع حديث الملك ، عندما ذهب يزور تشرشل فى السفارة البريطانية ...

وكان حديثا عجيبا ... فالرجل الذى ضربه الانجليز ، او ضربوا مصر كلها فى شخصه ، لم يكن يخلق به ، ولا بكرامة عرشه ؛ ولا بكرامة البلد التى « يملـكها » أن يذهب بنفسه لزيارة رئيس وزراء الانجليز ، الذى اصـدر أمره بتحرك الدبابات الى قصره وطعنه هذه الطعنة الدامية ..

ولـكن ... متى كانت لفاروق كرامة ، ومتى كان يعرف كرامة لعرشه وبلده ...

القوة التى فى الميدان

لقد ظننا هـذا يوما ... وكنا فى ظنوننا مخطئين ...

فالضربة التى اصابت كبرياء مصر من أجل الملك ، لم تصب ابدا كبرياء الملك من اجل مصر ... لانه لم تكن له كبرياء

وخرجت لارى قصر راس التين ، القصر الرسمى الثانى فى البلاد ، وقــد أمر الملك بتحويله الى مستشفى عسكرى ، لا لجنود مصر وضباطها ، الذين حاولوا الموت فى سبيل عرشه يوم هوجم عرشه ، ولـكن لجنود الانجليز وضباطهم الذين تحـــركوا بالدبابات يحطمون بها باب قصره الاول ، فى قلب العاصمة !...

وخرجت لارى فاروقا قد ترك كل ما كنا نرجوه فيه من معانى الشباب والوطنية ، وارتمى بين أحضان جنود أمريكا ، وضباط أمريكا ... يلعب معهم ، ويســـهر معهم ، ويقوم برحلاته معهم ، ويلهو فى لياليه معهم ... وكأنه رأى فيهم الجدار القوى الذى يستطيع الاستناد اليه ، ان تخلى عنــه الانجليز !...

وخرجت لاعرف السر فى كل هذا ... فقد سيطرت على الملك روح من الرعب الشديد من ذلك اليوم الذى أقتحم فيه قصره بالدبابات والمدافع .. ورأى فيه عينى كيلرن تقدحان بالشرر !...

أصبح الملك يخاف ... يخاف على حياته ، ويخاف ضياع العرش منه ، حتى لقد كان يتتبع أنبـــاء التحركات الداخلية لجنود الانجليز ، فلا يكاد يسمع عن أى تحرك من تحركاتهم ، حتى يؤوله بأنهم يقصدونه به ، وانهم يعتزمون ازاحتــه عن العرش مثلما ازاحوا من قبل بعض اسلافه ..!

وكان تصرفه الدائم فى كل مرة من هـــذه المرات ، هو أن يترك قصره ، ويهرب الى انشاص ... وكأن انشاص كانت بعيدة عن دبابات الانجليز !!

واذن فقد اصبح الملك العوبة فى ايدى الانجليز ، ولم يعد فى استطاعتنا أن نعول عليه فى شىء من خططنا ... بل لعل

الاسلم ان نعتبره ... من الاعداء ...

وهكذا ، ذهبت مع الاعداء ، صفوف الوفـــد وصـــفوف السعديين ، وقوة الملك

ولم يبق فى الميدان الا قوة الاخوان

هل نستعين بهم .. وهل نعول عليهم ؟

عاودت اتصالى بالمرحوم حسن البنا ، وانا هارب من المعتقل

وتبسط معى حسن البنا بصورة لم تسبق له من قبل .. فرغم كل الصلات التى قامت بينى وبينه كنت اشعر دائما انه يقول شيئا ، ويخفى فى نفسه اشياء ..

ولكنه فى تلك المرة ، تبسط كثيرا وشرح كثيرا ، وافاض كثيرا ... ثم ... ثم كلفنى بأمر !

شرح لى حسن البنا متاعبه التى تأتيه من ناحيتين :

ناحية الملك .. وناحية الاجانب ...

وقال لى ان الملك قد بدأ يشـــعر شـــعورا قويا بخطورة دعوة الاخوان ، لما كان يسمعه من أن دعوتهم تقوم على أن يكون الملك بالمبايعة لا بالوراثة

وقال لى ان الملك يدبر امره ليبطش بهذه الحركة ، وانه يخشى ان يضرب الملك ضربته ، والحركة لم تبلغ بعد أوج قوتها

العملاق الذى لايقهر

وكانت هذه أول مرة يفصح فيها حسن البنا عن شـــعوره بعدم وصـــول دعوته الى ذروة القوة والمناعة ... فقد كان دائما يعطى سامعه صورة للجماعة ، اشبه بصـــورة العملاق الذى لايقهر ولا يخشى عليه ...

واستطرد بعد ذلك الى ذكر طرف آخر من متاعبه ، وكان هذا الطرف ، هو موقف الاجانب من الدعوة ...

فقد بدأ يشعر بان الاجانب ايضا يرهبون دعوته ، ويعتقدون

انها اذ تقوم على وجوب الاخذ بشريعة الاســلام ستتعرض حتما لاعمالهم واموالهم ، وحرياتهم الممنوحــة لهم بمقتضى القانون السائد ، والدستور ..

وقال لى ان هــذه النظرة الموحدة الى دعوته ، من جانب الملك ، ومن جانب الاجانب ، تجعل الدعوة فى خطر جسيم، فما ايسر أن تتحول هذه النظرة الموحدة الى تحــالف عملى للقضاء على الدعوة ، وعلى الجماعة التى تدعو اليها ... يومئذ لايعرف من اين تصوب اليه الضربات !

واستمعت اليه ، منصتا ، ومناقشا ... ثم رأيته يطرق فجأة يستجمع كلمات معينة ، يريد أن يبدأ بها حديثا جديدا وبدأ حديثه الجديد ...

قال لى انه يريد ان يضع حدا لهذه المتاعب ، وانه يعتقد ان الاجانب يمكن أن يطمئنوا الى الدعوة ، لو اطمأن اليها الملك

ونظر فى عينى طويلا وهو يقول :

انا استطيع ان اكسب طمأنينة الملك ، لو تقابلت معه ...

وكان وجهه ينبىء فعلا عن الثقة الــكبيرة التى تملأ نفسه بقدرته على كسب طمأنينة الملك

وظهرت هذه الثقة اكثر واكثر ، وهو يصــــف لى كيف يستطيع أن يزيل من نفســـه جميع الاوهام والشـــكوك لو تيسرت له مقابلته ... مرة واحدة !

ثم أوضح لى انه لايريد أن يبدأ مع الملك سياسة وفاق ، أو تعاون ... ولــكنه يريد أن يشيع جوا من الطمأنينـــة فى نفس الملك ، يجنب به سفينةالاخوان أية عقباتتعترض الطريق

وقصد الى هدفه بعد ذلك مباشرة ، فقال لى : أنت تعرف يوسف رشاد

قلت له : نعم... أعرفه ، وبينىوبينه صداقة كبيرةومودة

فقال : ويوسف اليوم ذو حظوة ، فلو استطعت أن تشرح

له هــدف ... وان تفهمه اني لست خطرا علي الملك ، ولا أريد أن أكون خطرا ، لامكنه اقناع الملك بمقابلتى ...

واجبته انا : أحاول ...!

ومضيت فى تلك الليلة ، ابحث الامر بينى وبين نفسى ... هل أقوم بهذه الوساطة ، وكيف اقوم بهـــا ... وما مدى مايمكن أن يترتب عليها . وكنت اذ ذاك لا أزال هاربا أعيش متنكرا ، واتحاشى الظهور فى أى مكان

ولـكني مع ذلك .. ذهبت الي يوسف رشاد .. وابلغته رســـالة حسن البنا ، فنـــاقشنى فيها ، ثم وافق على أن يلعب هذا الدور

الملك يخشى وكيل الوزارة

وعندما رايت يوسف رشاد بعد ذلك قال لى : لقد فاتحت الملك فى هذا الامر ، فى محادثة تليفونية بينى وبينـــه واذا به يقطع حديثى قطعا ويوجهه وجهة اخرى ... وقابلته بعد ذلك فقال لى :

ــ كيف تكلمني تليفونيا فى أمر كهـــذا ، ألا تعلم أن حسن رفعت يراقب التليفونات ؟!

ودهشت انا عند سماع هذه الـكلمة .. فقد فهمت منها انه يخشى المراقبـــة ، حتى من حسن رفعت وكيل وزارة الداخلية المصرية !

وعاودت الالحاح علي يوسف رشاد بعد ذلك وفى هذه المرة، استطاع يوسف أن يحصل على اذن من الملك ، بأن يقابل هو أولا حسن البنا ، ويستمع اليه ... وينقل حديثه الى الملك ليرى أن كان يقابله ...

وكدنا نحدد موعد المقابلة بين حسن البنا ويوسف رشاد ... وفى احد الايام كنت فى منزل يوسف رشاد فدق جرس

التليفون وكان الملك هو المتكلم ... واستمع يوسف لحظات قصيرة .. ثم قال حاضر ... وانتهت المكالمة ... ونظر الى يوسف وقال لى : ان الملك يقول :

ـ الغ كل ماقلته لك بشأن حسن البنا ..

ويئست انا من المحاولة ، وخصوصا انى كنت أقوم بها فى حالة تنكرى واختفائى ... وأبلغت حسن البنا بيأسى ...

ومرت أيام .. وسقطت الاحكام العرفية ، وبدات اظهر من جديد ..

اتحاد الكلمة

وكنت فى بيتى بعزبة النخل فى احدى الليالى ، عندما اقبل حسن البنا ، ومعه المرحوم محمود لبيب ، فتناولا معى طعام العشاء ...

وأخذ حسن البنا يتحدث عما يمكن أن تجنيه البلاد اذا ما اتحدت الكلمة ، وهدأت شكوك الملك فى الاخوان ... ولكنه كان فى هذه المرة شديد التحفظ يكتفى بالتلميح عن التصريح ، لوجود المرحوم محمود لبيب ...

وفهمت انا انه يريد منى أن أعاود الكرة ، وألح فى تدبير مقابلة له مع الملك ... فلمحت له بدورى ، بأنى سأفعل ..

وفى اليوم التالى ، قصدت الى الاسكندرية ، فقد كان الملك هناك فى تلك الايام ، وكان يوسف رشاد الى جانبه ، وتحدثت مع يوسف رشاد فى الامر واقنعته بمعاودة المحاولة

وبذل يوسف رشاد جهدا كبيرا مع الملك ...

وضحى فى سبيل ذلك تضحية .. كانت كبيرة فى ذلك الوقت !...

فقد غضب منه الملك ، واقصاه عن صحبته عشرة ايام

طوال .. وعندما عاد يقربه ، قال له : اياك أن تفاتحنى مرة اخرى فى هذا الموضوع !

اخلاص حسن البنا

وللتاريخ بعد ذلك اذكر ، أن الملك فى يوم من الايام ، قد دعا اليه يوسف رشاد ، وطلب منه ان يتصل بحسن البنا ، ان يستمع الى ما كان حسن البنا يريد أن يقوله له ..

والتقى يوسف رشاد بحسن البنا وتحدث معه ثلاث ساعات

وقال لى يوسف رشاد ، انه خرج من هذه المقابلة ، مقتنعا تماما بخلوص نية حسن البنا نحو الملك .. وانه ذهب الى الملك فنقل اليه كل شيء ... واذا به يفاجأ بالملك يقول له حسن البنا ضحك عليك !!

وحاول يوسف رشاد ان يدافع عن نفسه ، وان يقنع الملك بأنه ليس بالساذج الذى يضحك عليه الناس ... ولكن الملك فنقل اليه كل شيء ... واذا به يفاجأ بالملك يقول له ضحك عليك ..

هذا ما قاله لى يوسف رشاد ...

وقال لى ايضا بعد ذلك بأعوام ، ان الملك فى أواخر عهد ابراهيم عبد الهادى قال له :

ــ احنا غلطنا فى ضربة الاخوان . وحقنا نرجع لسياستنا القديمة ...

الله أعلم !

وسألت يوسف رشاد ، وما هى السياسة القديمة ؟... فقال :

ــ صدقنى ...أنا لا أدرى ... ولكن يبدو أن صلة أخرى قد حدثت بين حسن البنا وبين الملك عن طريق غير طريقى .. وان الملك قد اتخذ لفترة قصيرة خلال عام ١٩٤٦

موقفا معينا من الاخوان ... ثم عدل عنــــه بعـــد حرب فلسطين ...

قال لى ذلك ... ثم قال : والله أعلم ...

هذه هى العناصر التى كانت فى الاجواء خلال الفترة بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٦ وفى هذه الفترة ، كان جمال عبدالناصر قد بدأ خططه الجديدة



خطوط الثورة

- يوم السلام وسلطان الظلام ...
- الجيش والشعب مظلومان !
- الملك والاحزاب فى خدمة الاستعمار
- من الذى تقدم لحماية الملك .. ؟
- الفساد والرجعية والحزبية البغيضة .!
- لا بد من قوة تقضى على الاقطاع ..

يستطيع قارىء هـذه الصفحات ان يبدأ من هنا فصـلا جديدا كاملا من تاريخ هذه الثورة

وهـو فصـل يختلف فى كثير عمـا تضمنته الصفحـات السابقة ... فحيث قام التمهيد الاول ، للثورة ، على أساس أكثره عاطفى، وحيث استطاعت الظروف والاحداث والتقلبات السـياسية أن تكون عاملا اسـاسيا فى دفع خطواتنا الاولى وتوجيهها .. واملاء اعمـال واتصـالات معينة علينا .. فان الشطر الثانى من هذا التمهيد الطويل للثورة ، أو الفصل الثانى الذى نبدأ تاريخه اليوم يتميز اول ما يتميز بسيطرة العقـل على كل خطواته ، التى بدأت تقوم على أساس معين مدروس ، ولهدف محدد مدروس .. وفى تتابع منطقى ، لا صلة للاحداث الوقتية به ، اللهم الا صلة العوامل المساعدة على زيادة الوعى بين عناصر الشعب والجيش ، وبعث اليقظة الحقيقية ، واشعار الافراد بأن القضية قضية كل منهم .. وأشـعارهم بضرورة الثورة ..

وان كانت الصفحات السابقة ، قد حوت أعمالا ، واتصالات، أساسها انفعالات فردية أو شبه فردية بالاحـداث ... فلن تضم الصفحات التالية سوى أعمال ، تنظيمية ، تنتفى منهـا الروح الفردية ، ويسيطر عليها عقل التشكيل المنظم ، ونتائج المناقشـات والابحـاث بين العناصر التى اجتمعت وتآلفت ، وحددت أهدافها

لقد آن وقت العمل الجماعى المنظم .. وبدأ جمـال عبـد الناصر يخرج من صمت المراقب ، الى حركة القائد الذى يعد

العدة لاكبر معركة تنتظرها مصر منذ غلبت على امرها تحت اقدام الطغاة ...

يوم السلام

لو قدر لهذا الفصل ان يوضع تاريخ لبدئه .. لامكن ان يقال انه بدا فى ٨ مايو ١٩٤٥ ، نحدد هذا التاريخ ، ولا نقصد به ان اعمالا معينة بدات فى هذا اليوم بالذات .. وانما نعنى فقط ان هذا اليوم ، قد وضع حدا لفترة من تاريخ العالم ، تبدأ بعدها فترة اخرى .. ومصر ، كجزء من العالم ، تتأثر حتى باحداثه الكبرى كما ان ظروفها الداخلية ، كانت لا بد ان تتاثر ، بهذا اليوم ايضا

انه يوم انتهاء الحرب فى أوربا ...

اليوم الذى انتظره العالم طويلا ، رخدع به العالم كثيرا

فقد سمى يوم السلام !

وقد سمى يوم النصر !

واعتقد الناس ، او هكذا ضللهم سادة الغرب ، ان العالم قد بدا حقبة حقيقية من السلام .. وان قوى الخير قد انتصرت فعلا على سلطان الظلام ، وان هذا الخير سيعم جميع الامصار والشعوب، وانالمواثيق والعهودالتىكانتتبرم وتقطعخلالفترة الحرب ، ستصبح منذ اليوم حقائق بارزة فى تاريخ الانسانية

ولم يقل احد لهم ابدا ، ان سلطان الظلام قائم فى نفس القوى التى كانت تحاربه ، وان المواثيق والعهود ، قد اعدت لاحاديث الدعاية فى اذاعاتها ونشراتها وافلامها وصحفها ، وانها ستصبح تاريخا بمجرد انتهاء الحرب . الم نكن قد سمعنا بميثاق الاطلنطى والم نكن قد قرانا عنه فى مئات من الصور المختلفة ، والم تكن نشرات الدعاية واذاعاتها تقول حينئذ ان هذا الميثاق يجب ان تتضمنه محفوظات تلاميذ

المدارس ، لانه دستور الحياة والكرامة والعدالة التى تمخضت عنها الانسانية بعد ابشع مجزرة شهدتها الحياة

كنا نسمع هذا ، كما كان العالم يسمعه ، وكنا ننتظر اليوم الذى تضع فيه الحرب أوزارها ، لا ايمانا منا بصدق هـذه الدعايات ، ولكن لنبدأ خطى جديدة على ارض واضحة المعالم

فقد كان انتهاء الحرب عندنا يعنى اشياء كثيرة ...

يعنى تبلور الاوضاع بصـورة لا تسـمح بالفـروض ولا المخادعات ولا الاحتمالات .. وانما تسمح بشيئين اثنين .. لا وجود لثالثهما : العمل لمصر ... والعمل ضد مصر

ولكل من العملين طريق واضح ، ومظاهر لا تخفى على احد وليس بين الطرفين طريق وسط

هذا هو اول ما كان انتهاء الحربْ يعنيه بالنسبة الينا

وكان يعنى شيئا آخر ..

كان يعنى قرب انتهاء الاحكام العرفية .. الكابوس اللعين الذى وضع مصـائر الاحـرار تحت رحمة مخابرات الانجليز وجواسيسهم والذى كان يتهدد كل من يحاول ان يخطو خطوة وطنية واحدة خلال اعلانها ..

وان لم تكن هذه هى الفرصة المناسبة لبدء العمل المنظم ، فليست هناك فرصة أخرى ..

ولمح جمال عبد الناصر هذه الفرصة التى كان قد فكر فيها طويلا خلال الحرب

ثم بدأ ينظم خطوطه ، ويحـدد اعـوانه ، ويرسم خطواته لهدف كبير

وكان جمال الذى يعمل ، هو جمال الناضج الذى مرت به تجارب السنوات الست الكثيرة ، سنوات الحرب ، وما تخللها من احداث داخلية وخارجية ، وما رآه فيها من هزات عنيفة، ومن محاولات وطنية واخـرى خائنة .. ومن بطولات زائفة،

وأساليب خادعة ومن أوضاع غريبة حلت بالجيش ، أو فرضت عليه ، ومن دعايات مثيرة ، غرق فيها الشعب وتهدف كلها الى تضليله لكى يكسب الاستعمار واذنابه من الخونة وأصحاب المصالح والحكام الفاسدين

وكان جمال يرى ان هذه الظروف والاحداث والصور قد مرت بغيره مثلما مرت به .. وان هـذا الغير قـد تأثر بها وانفعل ، واكتسب وعيا جديدا ، نشأ فى فترة الحرب وآن له أن يتجمع ... وان يعمل وعيا فى كثير من عناصر الشعب ، ووعيا فى كثير من عناصر الجيش .. وعيا لا بد ان يحرك اصحابه الى عمـل معين أو اتجـاه معين .. ولا بد لكى تنجح خطى اصحابه ، ان تتجمع وان تتوحد وان تتحد اهدافها

الجيش والشعب

وكان ايضا يرى عقبات فى الطريق

فعلى الرغم من ثقته بأن العنـاصر الواعيـة فى الجيش ، تسيطر عليها نفس الافكار والمبادىء التى تسيطر على العناصر الواعية فى الشعب .. وعلى الرغم من شعوره بأن ما يسخط منه أفراد الشعب وجماعاتهم هو عين ما يسخط منه ضباط الجيش وجنوده .. وعلى الرغم من ثقته بأن المعركة التى يجب أن تبدأ هى معركة الجيش والشعب معا .. الا انه كان يشعر بانعدام ثقة الشعب فى الجيش وانعزال الجيش انعزالا ظاهرا عن قضايا الشعب ...

فقـد كانت صـورة الجيش فى ذلك الوقت هى صـورة « الكرباج » الذى يلهب به الطغاة ظهور ابناء الشعب ، وهـو سيف التهديد الذى يملكه الحاكم ويملك ان يسخره ضـد هذا الشعب كلما ثار او سخط

انها الصـورة التى رسمها الانجليز وشاركهم فى اظهارها ،

ووضع الاطار حولها ، حلفاؤهم : القصر ، والاحزاب

وأصبح الشعب لا يخشى الملك ، لا لانه مقدس ، أو لان القانون يحميه ، ولكن لانه القائد الاعلى للجيش ، والمسيطر على تحركاته ، والآمر فيه والناهى ..

والجيش مظلوم ...

والشعب مظلوم ..

فلم يكن جيش مصر اجنبيا عن ابنائها ، ولم يكن جيشا من المماليك او المرتزقة .. ولكنه كان جيشا من الشعب ... مشاكله هى نفس مشاكل الشعب ..

ولم يكن الشعب يجهل هذه الحقيقة ولكنه كان يضلل عنها بأساليب كثيرة وفى مناسبات متعددة ، تجعله يخشى جيشه ، وكانه جيش احتلال

كانت هذه هى الحقيقة الاولى فى الموقف .. ان الشعب يعتقد ان هذا الجيش هو جيش فاروق لا جيشه ... وانه يائس من امكان القيام بالثورة الكبرى ، لان الجيش عندئذ لن يثور فى صفوفه ، ولن يقاتل دفاعا عن مطالبه . وانما سيقف فى وجه أبنائه يضربهم بالحديد والنار ، ويحطم معنوياتهم ، وينصر عليهم الظالم والطاغية والمحتل

وكان حاجزا ليس من اليسير تحطيمه ، فليس من اليسير ان تخلق ثقة وايمانا ، حيث لا ثقة ولا ايمان

وكان هناك الى جانب هذا العامل حلف آخر كبير .. جمعت عناصره مصالح مشتركة كثيرة

وكان هذا الحلف ، يجمع بين الملك والاحزاب ، والرجعية ، ويعمل بوحى الاستعمار ، او يعمل لصالحه

وقد لا نذهب وراء الاستنتاجات كثيرا .. فنتهم عناصر هذا الحلف بالخيانة العامدة .. ولكن شيئا فى الوجود لا يستطيع أن ينفى عن هذه العناصر جميعا ، انها كانت تخدم الاستعمار ، ضالة .. او عامدة

فاما الملك .. فقد كان عامدا متعمدا فاهما لما يعمل حق الفهم كان الملك قد عرف تماما ان الهوة سحيقة بينه وبين هذا الشعب .. وكان الذين حوله ، من الحاشية الفاسدة والرواد الخائنين .. قد أقنعوه تماما ، بان كل نقرب من ناحيته الى الشعب ، سيزيد من نهم هذا الشعب فى مطالبه.. وان هذا الشعب ان لم يضرب بالسياط سيتغول ، ويتحول الى خطر داهم عليه وعلى اسرته وعلى عرشه ايضا

وكان حسنين يقول بلسان الملك : « لقد عرض الملك عرشه فى الطريق فلم يتقدم لانقاذ هذا العرش احد من ابناء شعب مصر » ...

وهو يعنى يوم ٤ فبراير ، حينما تحدى الانجليز .. فلما انتصر الانجليز عليه وعين النحاس رئيسا للوزراء ، هتف الشعب للنحاس ولم يلتقط عرشه الذى القى الانجليز به .. فى الطريق !

وكان حسنين يبرر بهذا مسلك الملك ، الذى بدا من تقربه للانجليز ، وخضوعه لاوامرهم وبيعه نفسه لهم ... فالملك بحاجة الى من يحميه ... وقد أثبت الشعب ، فى ٤ فبراير انه غير مستعد لحماية الملك

احزاب الاقلية

وكان فى هذا الحلف مع الملك .. احزاب الاقلية ، التى لم تحلم يوما بالوصول الى مقاعد الحكم عن طريق انتخابات نزيهة بريئة من التزوير ، وكانت هذه الاحزاب منذ نشأت تعرف أن طريقها الى الحكم هو الايقاع بين حزب الاغلبية وبين الملك ، والاعتماد على قوى السلطة المحتلة والسلطة الداخلية فى حكم البلاد

وكانت لذلك تاتى الى الحكم بغيضة كريهة ، وتذهب عنه مشيعة بلعنات شعب مصر ..

ولكن الطريق قد دخلت عليه عوامل جديدة بعد ٤ فبراير .. وجدت هـذه الاحزاب فرصتها لتضليل الشـعب بمـا تزعمـه من وطنية الملك ، ومن انها تأتي الى الحكم ، لتنتقم للوطنية المصرية من قبول حزب الاغلبية الحـكم على حراب الانجليز

وبهذا بدأ الشـعب يتعـرض لحملة تضليل كبيرة مثيرة تشنها عليه أحزاب الاقلية ، متحالفة مع القصر .. مع الملك وأعوانه ورواده وحاشيته

أما حزب الاغلبية .. فقـد اغرق فى الفسـاد ، وداخلته شياطين الشهوة فضم اليه الاقطاعيين والسماسرة .. وربط بمصالحهم مصيره ، وبدا هو الآخر ينعزل عن تمثيل الشعب ، تمثيلا صحيحا يقوده به الى أهدافه الحقيقية

لقد تمثلت ديكتاتورية الاغلبية فى أبشع صورها وأصبح من العبث التفكير فى اصلاح هذا الحزب بعـد أن قوض بنفسه الاساس الشعبى الذى يقوم عليه ..

ولم يكن هذا وحده هو كل شيء فى الجانب الآخر ، كانت هناك أيضا حملة الرجعية المتجرة بالقيم الروحية لشعب مصر

وشعب مصر شعب مؤمن متدين ولكن الايمـان والتدين شيء ، ومحاولة استغلال هذه الحقيقة العميقة فى الشعب استغلالا يحولها عن الغاية السامية منها تحويلا كاملا .. شيء آخر

فالايمان والتدين خيران اصيلان فى طبيعة شعب مصر والاتجـار بالدين شر مسـتطير يخلق للدين أهـدافا غير اهدافه ، ويجعل منه عاملا رجعيا يستتبع الجمود والتحجر ، ويفسد الجماعات

أمراض الشعب

ولكن هـذا هو الموج المتلاطم الذى كان يحوط سـفينة الشعب

استعمار قائم .. احلاف من القصر والاحــزاب والرجعية .. ودعايات تنصب انصــبابا فوق رؤوس هــذا الشــعب المسكين ، وكلها تحــاول ان تنحرف به عن دوره الحقيقى فى المعركة الىادوار كثيرة أخرى تخدمأهداف الاستعمار وحلفائه المستترين والظاهرين

وفوق هذا كله .. فهناك جبهة الشعب ايضا ، وما تعانيه من أمراض

امراض وراثية بعيدة الغور متأصلة الجذور

امراض اورثه اياها ذله الطويل تحت سياط الاقطاع والملوك والطغاة وجيوش الاحتلال

امــراض منها التردد ، ومنها النفاق ومنها الاستســلام للواقع ، ومنها الخوف .. ومنها ، ومنها .. ومنها !

أمراض لا سبيل الى بعث هذا الشعب ، الا باستئصالها ، ولا سبيل الى استئصالها الا بازاحة اسبابها من الطريق

لا بد من قوة

فلا بد اذن من قوة تعمل لازاحة هذه الاسباب ...

لا بد من قوة تزيل من البلاد الملكية الطاغية لتزيل بعد ذلك آثارها

ولا بد من قوة تقضى على الاقطاع قضــاء مبرما لتستطيع بعد ذلك ان ترفع مستوى الشعب ، ومعنوياته ، وتزيل منها اثار الخضوع والخنوع والاستسلام والخوف ..

ولا بد من قوة تقود الشعب كله للذود عن حقوقه وحريته المقدسة التى سلبها منه الاستعمار قرونا وقرونا حتى فقــد الشعب الامل فى الخلاص منه ... او كاد يفقد هذا الامل

ولا بد من قوة تستطيع أن تقف فى وجــه الاحزاب التى تستغل الشعب لتخدم مصالحها ومصالح الانجليز ، وتقف فى

وجه الرجعية التى تضلل الشعب ، وتنحرف به عن طريقه الذى رسمته له فطرته السليمة طوال القرون الماضية ، وتثبت اقدامه فى طريق التطور والنهوض

لا بد من قوة تصنع كل هذا .. لتصل بالشعب الى الامل الذى يراوده : ان يحكم نفسه بأيدى ابنائه ، وان تكون له بنفسه الكلمة العليا فى مصيره

ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تقوم بهذا العمل ... غير الجيش

الجيش الذى لا يثق به الشعب ، والذى يعتبره سوطا يلهب ظهره بأمر الطغاة ، والذى استطاع الاستعمار واعوانه أن يعزلوه عزلا كاملا عن الشعب الذى ينبت منه

هذا الجيش الذى كان يطمع الشعب فى معونته ، ولكنه وجد نفسه بمنأى ومعزل عنه

وبدأ جمال يرقب هذه الجبهات ، الاعداء ، والملك ، والاحزاب ، والرجعية ، والانحلال الذى بدأ ينخر فى عظام الامة ...

ووضع جمال عبد الناصر هذه العوامل والقوى جميعا امام ناظريه .. ثم بدأ ...

بدأ يرسم الوسيلة .. ويضع الخطوط ، ويعد التنظيم الذى يستطيع ان يقود الجيش الى معركته الكبرى باسم الشعب

بدأ يصنع ذلك ، فى الفترة التى تلت يوم ٨ مايو ١٩٤٥ .. يوم النصر كما اسماه الانجليز

اللجان الخمس

- فتحنا دكانا لبيع الزجاجات القديمة
- الادارات الثلاث
- كان سلاحنا زجاجات مولوتوف
- الذين « وصموا » بالكفاح الوطنى
- كانت الصداقة هى اساس التشكيلات

بعد الدراسة المستفيضة التى قام بها جمال عام ١٩٤٥ للموقف ، وما يحيط به من ظروف وملابسات قرر ان يبدا العمل الداخلى فى الجيش

والذين يعرفون « جمال » يعرفون انه رجل لا يبدا عملا حتى ينتهى تماما من بحث جميع تفاصيله ، ولا يخطو خطوة حتى يدرس الارض التى سيخطو عليها ، ويتبين جيدا معالم طريقه يدرس قبل كل هذا ، ما سبقها من خطى ...

ويوم قرر جمال أن يبدأ عمله التنظيمى الجديد ... كان كمن يقف فى منتصف طريق متصل .. وراءه خطوات تتلاشى مع الليل ، وامامه خطوات تبدو مع النهار ..

وكان لا بد له أن يسلط اضواءه القوية على الليل الطويل من خلفه ، ليدرس كل خطوة من الخطى السابقة فقد تعود ان يستفيد من هذه الدراسات وأن يكسب كثيرا من التأمل فى أفكاره السابقة ، وفى افكار الآخرين

وقد كان هناك شبه تنظيم حركى لنا ، قبل عام ١٩٤٥ وكان هذا التنظيم المبدئى ، هو أول شيء أكب جمال على دراسته ، يوم أراد ان يبدأ العمل الجديد

كنا قبل عام ١٩٤٢ قد انتهينا فى تنظيم أنفسنا ، الى تشكيل خمس ادارات رئيسية ، تنفرد كل منها بدور خاص فى خدمة التشكيل ..

وكانت هذه الادرات على التوالى هى :

١ ـ الادارة الاقتصادية

٢ ـ ادارة التشكيلات

٣ ـ ادارة الدعاية والاتصال بالكتل الشعبية
٤ ـ ادارة الارهاب
٥ ـ ادارة الامن

وكانت ظروف كثيرة قد اقتضتنا ان ننشىء هذه الادارات الخمس ، لنحقق عن طريق كل منها هدفا معينا ..

وقد نجحنا فى بعض ما أملناه منها وفشلنا فى بعضه الآخر ...

ولكنها جميعا قد قامت بواجبها فى ظروف الحرب القاسية ، واستطعنا عن طريقها أن نحقق كثيرا من الاعمال التى كنا نقررها

وقد تبدو اسماء هذه الادارات اسماء ضخمة ، فيخيل لسامع كلمة « ادارة الاقتصاد » أو « الادارة الاقتصادية » مثلا ، انها كانت ادارة منوطة ببحث المسائل الاقتصادية او المالية للبلاد او تصميم السياسة الاقتصادية المستقبلة عند نجاح فكرتنا ..

قد يبدو شىء من ذلك .. وعندئذ تبدو مهمة هذه الادارة عندما نفصح عنها ضئيلة هزيلة ..

فقد وجدت هذه الادارات لتكون فى خدمة التشكيل وحده ، من حيث هو تشكيل عسكرى داخل الجيش ...

وكانت لكل منها اهمية قصوى ، عند انشائها ، والى كل منها يرجع جانب من نجاح هذا التشكيل فى الاحتفاظ بكيانه خلال سنوات الحرب ، وما يحيط بالكفاح فيها من خطر ..

وسأضع امام القارىء هنا صورة لكل من هذه اللجان ، او الادارات ، ووظائفها واهدافها ..

الادارة الاقتصادية

نشأت فكرة هذه الادارة نتيجة للواقع الذى درسناه فى ماضى المكافحين والذى توقعناه لانفسنا ..

فالذى يدرس تاريخ الكفاح الوطنى فى مصر ، والذى يدرسه فى بقاع الارض جميعا ، يعرف دون مشقة كبيرة ، ان من اهم العوامل التى تعوق المكافحين عن مواصلة الكفاح ، والتى تثبط همم المقبلين عليه لقمة العيش .. لقمة العيش التى لا يغرى الحصول عليها ، ولكن يرهب الحرمان منها

ولنحصر انفسنا فى تاريخ مصر لنرى صور المكافحين الذين سبقونا ، وكيف جعل الاستعمار وحكوماته منهم عبرا ، ورموزا للشقاء ، ترهب كل من تحدثه نفسه بالكفاح ..

فقد كان من « يوصم » بالكفاح الوطنى ، ينظر حوله فلا يجد يدا تمتد اليه ..

لا يجد عملا فى حكومة ، ولا فى شركة من الشركات .. ولا رعاية من اصحاب الوطنية والمتجرين بالكفاح ..

وانظر الى الذين حكم عليهم بالسجن سنوات كثيرة وصلت الى حد الاشغال الشاقة المؤبدة فى عام ١٩١٩ وما تلاه من اعوام الثورة المصرية المجيدة ..

منهم من عفى عنه قبل ان تنقضى مدة عقوبته .. ومنهم من قضاها كاملة فى الشقاء ..

فانظر الى الفريق الاول ، تجده قد انقسم طائفتين : طائفة غنمت الغنم كله فأصبح منها الزعماء والحكام والثراة واعضاء مجالس الشركات الكبرى والمساهمون فيها وحملة الالقاب والرتب والنياشين ..

هذه طائفة ...

وطائفة غرمت الغرم كله .. خرجت من السجون لتجد تعاسة الحياة .. لتجد عقوق الوطن والاصدقاء وزملاء الكفاح لتعيش مشردة تسعى الى لقمة العيش ، فان لم تجدها ــ وما وجدتها ــ فى رعاية الوطن ، ذهبت تقتاتها فى معسكرات الانجليز !

واما اولئك الذين خرجوا من ظلام السجون بعد انقضاء مدة عقوبتهم .. فياويلهم ..! خرجوا للنسيان والتشرد .. خرجوا اشبه بفاقدي الرشد .. تزوغ اعينهم فى جنبات الوطن .. لترى الشباب يهتف للزعماء ، ويهتف للحرية .. ولو نظر امام عينيه لرأى كيف يكون عقوق الزعماء ، والى اى مصير ينتهى رواد الحرية والمكافحون عنها ..

وكانت هذه الامثلة كلها امام اعيننا فى تلك الفترة التى اقدمنا على اجتيازها بجرأة الشباب ، وحماسة الذين وهبوا للجهاد انفسهم ..

وقلنا اننا بشر ...

واننا لا نريد ان يتعرض احدنا لمثل ما تعرض له هؤلاء المساكين ..

وان علينا ان نتدبر امر تمويل هذا التشكيل بحيث يصبح قادرا على اعالة اى فرد منه يتعرض لنكبة من هذه النكبات ..

ونشأت هذه اللجنة .. لجنة كل مهمتها جمع المال ، واختزانه ، واستثماره — ان امكن — بوسائل مأمونة لاتكشف عن حقيقتها ، لكى لا نسير فى طريقنا ، وظهرنا من هذه الناحية مكشوف ..

وبدات هذه اللجنة تكون لها رأس مال ..

وبدأته فى حقيقة الامر على حسابنا ..

فكلفتنا ان يضغط كل منا ميزانيته ضغطا شديدا ليرى كم جنيها — او كم قرشا ! — يستطيع ان يقتطعه من مرتبه كل شهر لصالح التشكيل ..

وفعلنا ...

وكلفتنا بعد ذلك ، ان يستدين كل منا على مرتبه قيمة شهرين من احد البنوك ، كما يفعل كثير من الموظفين ..

وفعلنا .. اى فعل اعضاء التشكيل جميعا الا انا فقد اعفتنى

اللجنة من هـذا التكليف لانى اذ ذاك كنت المتزوج الوحيـد بين اعضاء التشكيل ، وكنت انفق على اولادى وزوجى من مرتب « اليوزباشى » المعروف ..!

وعلمت اللجنة ان الفريق عزيز المصرى قد باع محصـول حديقته من ثمار المانجو بخمسين جنيها فاستولت على هذه الجنيهات الخمسين !

ولم تجد وسيلة للتمويل السريع بعد ذلك .. فاكتفت !

وكان يمكن لراس المال البسيط ، الذى جمعناه حينئذ ان يكون نواة لابأس بها لتمويلنا . ولكن عام ١٩٤٢ جاء بأحداثه التى قررنا خلالها الاستعداد لابادة الانجليز العائدين من العلمين .. وكانت وسيلتنـا الى ذلك الزجاجـات المعروفة بكوكتيل « مولوتوف » والقنابل والمسدسات المصنوعة محليا ، والمفرقعات ..

وكانت المشكلة فى هذه الخطة ، هى مشكلة الحصـول على الزجاجات الفارغة .. فوظفنا لذلك رأس المال .. ثم فكرنا فى كيفية استخدامه ..

وكان ان فتحنا « دكانا » لتجارة الزجاجـات الفـارغة ، واجلسنا فيه رجلا امينا ، اخذ يتعرف ببائعى الزجـاجـات الفارغة المتجولين .. حتى عرفوه واعتادوا ان يعودوا اليـه آخر كل نهار ، بما جمعوه من الزجاجات الفارغة ..

ولم يكن هذا الفيض يكفى ، فذهبنا الى سوق الزجـاج بشارع كلوت بك وابتعنا منه ما يلزمنا ..

كنا بحاجة الى عشرات الالوف من الزجاجات الفارغة ... وكان رأس المال الصغير الذى جمعته لجنة الاقتصاد هو الذى مكننا من اتمام هذه العملية ..

وعلى الرغم من ان المـال الذى جمعته هـذه اللجنة لم يستثمر ، ولم يستعمل فيما جمع من اجله .. الا ان وجود

هذه اللجنة كفكرة ، ظل ماثلا امام جمال عبد الناصر وهو يعد عدته للتنظيم الجديد ..

لجنة التشكيلات

واللجنة الثانية ، او الادارة الثانية ادارة التشكيلات ..

وكانت لهذه الادارة اهمية خاصة نظرا للعمل الخطير الذى كانت منوطة به ..

فهى التى كانت تجمع العناصر التي يمكن ضمها الينا من ضباط الجيش فى مختلف الاسلحة ..

وهى التى كانت تبوب هـذه العناصر باعتبار اسلحتها واختصاصاتها وتكون منهم الخلايا والتشكيلات المختلفة ..

وهى التى كانت تراقب مدى تقدم التشكيل او تأخره بما لديها من المعلومات الدقيقة عن عدد الضباط الذين ينضمون الينا ، والذين يخرجون علينا .. ومعرفة أسباب زيادة الاقبال على التشكيل أو نقصه ..

وكانت هذه اللجنة هى وحدها التى تعرف جميع الضباط الذين يناصروننا ، وهى وحدها التى تعرف ـ فعلا ـ مدى قوتنا ..

فعلى الرغم من اننا حرصنا منذ البدء على ان يضم تشكيلنا ضابط من كل سلاح يكون مسئولا عن صلة سلاحه بالتشكيل الا ان هذا الضابط نفسه لم يكن فى اكثر الاحيان يعرف اكثر ضباط سلاحه ، لانهم ليسوا من دفعته .. او لانهم لم يخدموا معه فى مكان واحد ..

اما هذه اللجنة فكانت مهمتها ان تعرف الجميع .. وأن تجمعهم لا على اساس اختبارات الجمعيات السرية المختلفة ولكن على اساس الصداقات القائمة بينهم وبين بعضهم ... فقد كان اساس تشكيلاتنا ، هو الصداقة التىتخلق الثقة وتنفى الشكوك ..

وكان مفروضا ان تنتهى مهمة اللجنة عند هذا ، وان تحيل امر الضباط الذين يخرجون على التشكيل الى لجنة الامن ..

ولكننا لم نكن تقدمنا فى اساليبنا فى الفترة الاولى الى هذا الحد ...

وكانت هذه الصورة للجنة التشكيلات هى التى وجدها جمال امامه .. عندما بدأ تنظيمه الجديد ..

لجنة الدعاية

واللجنة الثالثة كانت لجنة الدعاية والاتصال بالكتل الشعبية

ولم تكن هذه اللجنة تفتعل الدعاية ولا كانت تلجأ الى الاساليب الشائعة فيها كطبع المنشورات او مراسلة الصحف

وانما كانت تساير الاحداث لتثير مناقشات عارضة تستعرض فيها الحالة العامة ، فى جلسات الضباط فى « ميساتهم » او بين الشلل المختلفة فى منازلهم ..

وكانت الحوادث التى تقع فى تلك الفترة الكثيرة الاحداث ، هى التى تدفع بدعايتنا كثيرا الى الامام ..

ومن اهم الحوادث التى استغلتها لجنة الدعاية حادث تسليم فرنسا عام ١٩٤٠ وما تبعه من انعزال انجلترا ووقوفها وحيدة امام العدو ، مما كان يثير حماسة الضباط لكل فكرة تقول بضرب انجلترا فى محنتها ، لانها لن تسلم بمطالبنا ، ولن تخرج من بلادنا الا وهى مرغمة صاغرة ..

ومن الاحداث التى دفعت بدعايتنا كثيرا الى الامام ايضا فى تلك الايام حادث الامر الذى صدر الينا بتسليم أسلحتنا للانجليز ، ورفضنا هذا الامر ، وحادث خروج على ماهر بعد بيانه المعروف .. ثم اخيرا حادث ٤ فبراير الذى غطى على كل ما عداه !..

هذا من حيث الدعاية داخل الجيش اما الاتصال بالكتل الشعبية فقد كان هم هذه اللجنة ان تقوم بعملية موازية تماما

لعمليتها الاولى داخل الجيش .. وهذه العملية الجديدة ، هى جس نبض الكتل الشعبية ومعرفة اتجاهاتها ومدى تأثرها بالحوادث المختلفة .. ونوع هذا التأثر ، ومدى استعدادها للمعركة ..

وعن طريق هذه اللجنة تعاونا حينا من الزمن مع بعض شباب الحزب الوطنى كما عرفنا عن طريقها الاستاذ عبد العزيز على وكان اذ ذاك لايزال مسيطرا على الجهـاز السرى للحزب الوطنى الذى شكله بنفسه عام ١٩١٩ .. وقد ظل يتعـاون معنا بعد ذلك لفترة طويلة .. وافدنا من معونته كثيرا ..

وكان هذا هو كل عمل هذه اللجنة حينما بدأ جمال يضع تنظيمه الجديد ..

اما اللجنتان الاخيرتان ، وهما لجنة الارهاب والامن فانه لم يحن بعد الوقت لشرحهما وتسليط الاضواء عليهما ..



اللقاء الأول

بين عبد الناصر وعامر

- مولد الثورة بين الخرطوم وام درمان
- جهلاء فى منصب القيادة !
- ((فكرة الحياة)) لا تختفى ..
- خمر بامر القائد !..
- هروب من النافذة !..
- خطة ماكرة !..

بهذه الحلقة يبدأ الطور الثانى من اطوار التمهيد لثورة ٢٣ يوليو .. وهو الطور الذى بدأه جمال عبد الناصر ، بعد التجارب العديدة التى مرت بنا فى تلك السنوات الاولى المليئة بالمخاطر والمشقات ..

وان كان جمال قد اشعل الجذوة فى ليالى منقباد .. وان كانت هذه الجذوة قد ظلت مشتعلة بأيدينا ، تلهب بها سواد الاعوام المظلمة .. فقد ظل جمال مراقبا لهيبها مسجلا لانتصاراتها ، مستفيدا من تجاربها ..

وكان فى صمته ، خلال نقله الى السودان ، وبعد عودته من هناك يعد لجذوة اخرى لا يظهر ضوؤها ، ولا يفرغ زيتها .. جذوة عاقلة حكيمة لا تشعل النار ولكن تضىء الطريق ..

وفى خلال الاعوام التى كنا فيها نظهر لنختفى ، ونختفى لنظهر .. كانت عينا جمال الفاحصة تبحث عن الرجال والاعوان ..

ولعل انتصاره الاول فى هذا الميدان .. كان لقاؤه لعبد الحكيم ..

وبقصة هذا اللقاء .. يبدأ هذا الطور ، من اطوار التمهيد للثورة ..

الى السودان

السودان ...

السودان .. الذى يهرع اليوم شيقا للقاء مصر .. وتهرع مصر للقائه جذلى .. كان فى تلك الايام منفى المغضوب عليهم من رجال الجيش ..

ولا يسأل احد : لماذا كان السودان منفى ؟ ! فهكذا كان .. وكانت اسوان ايضا منفى .. والعريش .. والصحراء الغربية وكل بقعة خلا القاهرة .. والاسكندرية !

وفى الجيش ، كان الملازم جمال عبد الناصر ضابطا صغيرا مغضوبا عليه .. فمنذ ايام منقباد وثورتنا على الاوضاع هناك .. على البعثة الانجليزية .. وعلى اللواء المصرى الذى كنا نسميه السلطان عبد الحميد .. منذ تلك الايام المجيدة من اعوام الشباب .. كسب جمال كراهية القومندانات .. وحقدهم .. وتوقعهم الفرصة لايقاع الاذى به ..

وكان معروفا ان الكتيبة الثالثة ستتحرك الى السودان..

وعندما يقترب رحيل كتيبة الى السودان ، يرسلون الى الكتائب الاخرى فى انحاء الديار ، لكى تبعث اليهم بأسماء « المغضوب عليهم » من ضباطها .. لكى يساقوا الى المنفى يوم الرحيل ..

ولكنه لم ينتظر أن ترسل به كتيبته الى المنفى .. وانما سارع بنفسه يقدم اسمه ، ليكون بين الراحلين ..

ودهش اخوانه لهذا التصرف .. وكانوا يحبونه ، ويحبون أن يبقى بينهم ..

ولكنه كان قد رسم لنفسه طريق السير .. وكان قوة مجهولة تدفعه دفعا الى زيارة شطر الوادى الحبيب .. واستقراء الحقيقة فيه ..

عبد الحكيم ... هناك

وكانت الكتيبة الثالثة التى تتهيأ للرحيل ، لا تزال فى المكس بالاسكندرية وكان على جمال ان يمضى الى الاسكندرية ليلتحق بها ، ثم يرحل معها الى ارض الجنوب ..

وفى ليلة السفر الى الاسكندرية ، التقى به الصاغ عثمان

نصار من ضباط كتيبته ، وكان من اصدقائه المخلصين ...
وسأله :

ـ اترحل غدا ؟..

ـ باذن الله ..

ـ هل تعرف احدا من الضباط هناك ؟..

ـ ابدا ...

ـ اسأل اذا عن الملازم عبد الحكيم عامر ، وتعرف به ..

ولعل هذا هو كل ما يذكره جمال من حديث الصاغ عثمان نصار اليه عن عبد الحكيم ..

فلم يكن جمال ممن ينشئون صداقاتهم على هذه الاسس السطحية البسيطة .. ولم يتوقع ابدا ان يكون عبد الحكيم ـ هذا ـ صديق عمره ، ورفيق جهاده الكبير ..

ولا يذكر جمال عن يوم لقائه الاول بعبد الحكيم شيئا .. ولكن عبد الحكيم هو الذى يذكر ...

يذكر ان نبأ وصول جمال الى الاسكندرية كان قد سبقه الى هناك ..

ويذكر انه قام من فوره ، وذهب يستقبله كصديق ، أو زميل جديد ..

ويذكر انه قدم اليه نفسه .. ثم قدم اليه كل التسهيلات المستطاعة ..

ويذكر ايضا .. ان جمال كان « قرفانا » وانه قابل صنيعه شاكرا .. ولم يبد عليه اثر لهذه التوصية التى كان يحملها من الصاغ نصار ..

نقيضان ...

وقد تسجل الايام ان لقاء عبد الحكيم وجمال قد تم فى ذلك اليوم .. بالاسكندرية ..

ولكن هذا اللقاء ، لم يكن شيئا ..

لم يكن هو اللقاء الحقيقي بين الصديقين اللذين لم يفترقا بعد ذلك كثيرا فى حياتهما .. واللذين ارتبطا معا بأقوى ما يرتبط به صديقان .. رباط العقل والقلب والكفاح المشترك ..

اما اللقاء الحقيقي .. والتعارف الكامل .. فقد بدأ فى الخرطوم ..

هناك عاشا معا .. وعرف كل منهما صاحبه ..

ولكنهما لم يقطعا مرحلة التعارف فى يوم او اثنين ، ولا فى اسبوع او اسبوعين ..

فقد كانا نقيضين فى كل شيء ..

كان جمال شديد التحفظ ..

وكان عبد الحكيم شديد الاندفاع ..

كان جمال هادىء الاعصاب دائما .. مهما حدث ، ومهما راى .. وما اكثر ما كان يرى مما يشقى النفس الابية ..

وكان عبد الحكيم سريع الانفعال ، سريع الغضب تستفزه الصغيرة والكبيرة على حد سواء !

والذين يعرفون عبد الحكيم اليوم ، فى هدوئه ، وصمته ، واتزانه البالغ ، قد لايصدقون هذا الكلام ، وقد ينكرون هذه الصورة ..

ولكن الايام التى مرت بعبد الحكيم فى اثنى عشر عاما .. والاحداث التى هزته هزا .. قد استطاعت ان تغير فيه كل شيء .. وان تبدله انسانا آخر لايعرفه اليوم من عرفه بالامس القريب ...

الاسد الهصور

واخذت عوامل كثيرة تعمل فى توطيد الصلة والصداقة بين الضابطين الصغيرين ..

وكان اول هذه العوامل .. قومندان الكتيبة ..

كان قومندانا من نوع فريد قل ان يوجد بين الضباط مثله فقد عرفنا قومندانات ذلك الزمان ، قططا فى ثياب أسود ..

عرفناهم اذلة للضباط الانجليز .. اعزة علينا ، نحن ابناء الفلاحين ..

عرفناهم يتحكمون فى مصائرنا واعمالنا وخطواتنا بالباطل اكثر مما يتحكمون بالحق ..

بل لعلنا لم نعرفهم يتحكمون بالحق ابدا .. ولو كانوا كذلك ما غضبنا ولا اعتبرنا صلفهم من مستلزمات الحياة العسكرية

ولكن الصلف والغطرسة ، كانا مظهر التعويض عن مركبات النقص التى كانوا يعانون منها ..

جهلاء .. فى مناصب القيادة ..

اذلة لاصغر ضابط انجليزى .. وعلى اكتافهم المزيد من النجوم والتيجان ..

وتحت امرتهم ، شبان صغار .. كبرت بالعلم مقاييسهم ، وبالعزة والوطنية انفسهم وقلوبهم ..

هكذا كان موقف القومندانات منا ..

او هذه كانت اسباب هذا الموقف ..

ولكن قومندان الكتيبة الثالثة فى السودان ، كان يجب ان يتحكم فى ضباطه الصغار ، تحكما من نوع جديد ، لم تعرف له فى الجيش مثيلا ...

من النافذة !

كان الرجل ولوعا بالشراب .. ما يكاد المساء يقبل ، حتى يعد عدته ، لسكرة تذهب بعقله .. وتريه نفسه اسدا هصورا يملأ زئيره الفلوات ..

ولم يكن يحب الشراب وحده ..

ولم يكن يظفر بفرصة الشراب مع الانجليز ..

فكان الحل الطبيعى عنده .. أن يأتى بضباطه .. بالامر !!
وان يكلفهم بمجالسته وبمشاربته كلما جاء المساء ..

وتصوروا .. شرابا بأمر القائد .. وفى مجلس الاسد الهصور ..

لقد كان الضباط جميعا ـ حتى الذين يشربون الخمر منهم ـ يضيقون بهذا التكليف الثقيل ..

ولكن جمال ، لم يكن يضيق فقط ، بل كان يضيق ويسخط ويقاوم .. ويفسد على القائد مجلس الشراب ..

وماذا يستطيع ان يصنع ، وقد امتنع عن المشاركة فى الشراب ، فصدر اليه الامر بالمشاركة فى جلسة الشراب ..

وكانت ليلة لا ينساها جمال ، ولا عبد الحكيم .. حينما حاولا ان يتركا مجلس القائد .. فرفض وزمجر وقام الى ابوابه فغلقها ..

وتلفت جمال حوله .. وانتظر حتى شرب القائد كاسين او ثلاثة .. وبدا يصول فى المكان ويزأر ..

ثم اشار الى عبد الحكيم .. وقفز من النافذة .. وقفز عبد الحكيم خلفه .. وتبعهما الضباط جميعا ..

وعاد القائد الى مجلس الشراب ، ليجده خاليا خاويا من السمار ..

ولم يغن صراخه ولا زئيره شيئا !.. فبعد دقائق كان الضباط جميعا قد استقروا فى احدى دور السينما يشاهدون فيلما ضاحكا .. ويضحكون ..

والذى لم يضحك فى تلك الليلة هو القومندان المهيب !..

ومنذ الصباح التالى ، بدأت حرب باردة بين القومندان وبين جمال وعبد الحكيم .. فقد فهم انهما كانا رأس الحربة التى فتحت الثغرة فى نافذة داره ..

وبلغ التفنن من الطرفين اقصاه فى هذه الحرب الباردة .. حتى جاء يوم تنفس فيه القائد الصعداء شيئا ما .. لان

عبد الحكيم قد هبط الى القاهرة ليلتحق « بفرقة » دراسية من فرق الجيش ..

انتفاع ...

وادرك القائد انه لم يعد امامه سوى جمال .. وان جمالا وقد اصبح وحده الآن ، لن يجد من يشاركه فى معارك كل يوم ! ..

ولكنه لم يلبث ان نكب فى فطنته .. فقد استمرت الحرب الباردة بينه وبين جمال .. وزادت فنونها ..

وفى يوم من الايام .. اصدر القومندان أمره بنقل جمال الى جبل الاولياء .. ليستريح منه ..

واستراح فعلا .. ولم يره بعد ذلك حتى اليوم ..

واتم عبد الحكيم فرقته ، وعاد الى الخرطوم .. فلم يجد « جمال » ووجد أركان حرب الكتيبة يسأله فى حذر :

ــ ماذا بينك وبين القومندان ؟..

ويجيب عبد الحكيم فى حذر ايضا :

ــ لماذا ؟ ..

فيسر اليه أركان الحرب ، ان القومندان لم يكد يعلم نبأ عودته ، حتى استشاط غضبا واصدر امره بنقله الى كسلا..

خطة ...

وكان عبد الحكيم قد عرف ان « جمال » قد نقل قبله الى جبل الاولياء .. وفهم ان القومندان يريد التخلص منه كما تخلص من جمال ..

وكان عبد الحكيم يعرف نفسية القومندان جيدا .. ويعرف ان هذا النقل ليس الا انتقاما ..

وكان يريد ان يذهب الى جبل الاولياء بدلا من كسلا باى ثمن ..

وابتسم عبد الحكيم فى وجه اركان الحرب ، وقال له :
ــ ان « عفشى » لايزال مربوطا .. وانا احب ان اذهب الى كسلا ..

وتركه قليلا ريثما يبلغ هذا للقومندان .. ثم طرق باب القومندان ، ودخل .. ولم يكد ينته من التحية حتى سأله فى تلهف :

ــ متى اذهب الى كسلا ؟ !..

ودهش القومندان ، وقد وقع فى روعه ان لعبد الحكيم اصدقاء او اقرباء او مصالح من اى نوع هناك .. ثم زمجر وقال :

ــ من قال لك انك ذاهب الى كسلا .. انى لن ابعث بك اليها .. وستذهب غدا الى جبل الاولياء ! !

ولعل هذه كانت اول خطة من خطط عبد الحكيم الماكرة الماهرة !

وكان صباحا مشرقا عندما ذهب عبد الحكيم الى جبل الاولياء .. الى صديقه .. جمال ..

فكرة الحياة

وفى جبل الاولياء .. زادت الصداقة عمقا بين الزميلين .. واكتمل التفاهم بينهما .. فى كل شىء ..

كانا يقضيان معا سهراتهما يلعبان الشطرنج

وكانا يقضيان معا ايامهما .. فى رحلات الصيد

وعندما يذكر احدهما تلك الايام وتلك الليالى ، لايكاد يذكر الشطرنج ، ولا الصيد ، بقدر ما يذكر المشاجرات الكثيرة التى تقع بينهما ..

فليس يسيرا ان تقوم صداقة حقيقية بين هذين الرجلين دون أن يسبقها عدد كبير من المشاجرات ..

ولم يكن فى جبل الاولياء من الضباط سواهما ..

فكان جمال هو القومنـــــدان ، وكان عبد الحكيم ضابطه الوحيد ..! ولم يكن بد اذا تشاجرا صباحا ان يصطلحا فى المساء .. واذا تشاجرا مساء أن يصطلحا فى الصباح ..!

ولـكن هذه الفترة .. قد انتهت بالتفاهم التام بينهما .. وبالتفكير المتصل الموحد .. فى حالة الجيش ..

فقد اقتنعا تماما ، ان المشكلة ليست مشكلة الـكتيبة .. ولا القومندان ولا الرؤساء الانجليز ..

ولـكنها مشكلة الجيش كله .. والبلد كلها ..

وكان الحاكم العام فى الســـودان يزودهما بكؤوس المرارة والحقد على الاستعمار والاوضاع القائمة فى البـــلاد .. كان الحاكم العام فى السودان ، هو القائد الاعلى للجيش هناك ، بما فى ذلك الجيش المصرى .. وكان لايخفى احتقاره لجيش مصر ولا كراهيته للمصريين ولا نزعاته الاســتعمارية العاتيــة التى لاتقاوم ..

وما حدث فى تبات الشريف ..

حدث فى جبل الاولياء ..

انها الجذوة التى يوقدها جمال فى بساطته وعمقه واتزان تفكيره ..

انها القرار ، والتصميم الذى تتمخض عنه المناقشات معه

انها الفكرة « فكزة الحياة » التى انبعثت هنـاك فى تبات الشريف ، قد كسبت رجلا جديدا .. عبد الحكيم عامر ..

لا بد من القضاء على الاستعمار .. بأى صـورة ، وبأية وسيلة ..

لابد من تطهير ارض مصر والسودان من هذا العار الجاثم فيهما ..

لابد من عمل شىء .. شىء عظيم ..

ومثلما حدث معنا أيام تبات الشريف .. حين صدرت حركة

التنقلات فى الجيش ، فذهب كل منا الى مكان .. حدث مع جمال وعبد الحكيم ..

فلم تلبث الاوامر ان صدرت بنقل عبد الحكيم الى منقباد وبنقل جمال الى الصحراء الغربية ..

وافترقا فى ذلك اليوم افتراقا ظاهرا .. ولكن الصلة بينهما لم تزد الا وثوقا وقربا ، حتى التقيا مرة اخرى فى القاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٤٢ .. عقب حادث ٤ فبراير المشئوم ..

وعندما التقيا .. بدأت احداث جديدة .. لم تعرف القاهرة اكثرها .. ولكن تسجلها هذه الصفحات ..



أوّل ثورة
في نادي الضباط

- لحساب من كان يعمل احمد حسنين ؟ !
- خطة الحركة الاولى ..!
- احمد حسنين ينصح ...
- حذاء ... وليس قنبلة ...
- معركة من نوع جديد ...
- اين الطريق .. ؟

الحقيقة التى يجب ان يدركها كل من يقرأ هذه الصفحات ، او يحاول دراسة تاريخ هذه الثورة ، والخطوات التى مر بها التمهيد لها ، هى ان الذين قاموا بها واعدوا لها ، لم يبدأوا خطواتهم بوعى كامل وانما تدرجوا فى وعيهم السياسى ، مع الاحداث والايام ..

ولعلهم احسنوا الظن يوما برجل او جماعة او حزب .. ولعلهم علقوا على هذا الرجل ، او هذه الجماعة ، او هذا الحزب املا ... ولعلهم ساروا اشواطا خلف هذا الامل ..

ثم جاءت الايام ، تكشف لهم عن حقائق لم يكونوا يعرفونها ، وجاءت الاحداث تطرق اعصابهم طرقا عنيفا يهز كيانهم هزا ، ويفتح عيونهم لادراك جديد ، ويوجه خطواتهم الى طريق اكثر وعيا ، واقرب صلة بالهدف ..

والهدف الواحد .. الهدف الكبير الذى لم يتغير ، والذى تعتبر كل الاهداف الجزئية فى تاريخ هذه الثورة ، وسائل اليه ، هو القضاء على الاستعمار ، وازالة كابوسه الجاثم فوق صدر مصر ...

وليس غريبا فى سبيل الوصول الى هذا الهدف ، ان تلتقى جماعتنا بكثير من الاحزاب والهيئات والافراد .. فقد كان هذا الهدف ، هو البيرق الذى يرفعه كل تشكيل سياسى فوق بابه ، والذى يخطف بريقه انظار الشباب المتعطش للخلاص ..

وليس غريبا ايضا فى سبيل الوصول الى هذا الهدف ، ان تنأى جماعتنا بنفسها نأيا شديدا ، عن كل وسيلة يظهر عنصر التضليل فيها ، سواء أكانت الوسيلة حزبا ، ام جماعة ، ام فردا .

وقد كانت الفترة التى بدات بعد حادث ٤ فبراير ، فترة نشاط ثوري كبير ، لا فى جماعتنا وحدها ، ولـكن هنـا ، وهناك .. فى الجيش ، والجماعات ، وطوائف الشباب القومى والحزبى ، والتكتلات الصـغيرة العلنيـة والسرية ، المدنيـة والعسكرية ..

وكانت هذه الفترة لذلك ، محكا للافراد والجماعات .. ومختبرا يظهر معادن النفوس وفرصة للتعارف بين المخلصين

بعد ٤ فبراير

كانت فترة عصيبة تلك التى تلت حادث ٤ فبراير ..

وكانت مجالا لنشاط كبير .. هنا وهناك ..

فقد كان الملك ـ مثلا ـ يظهر امام الشعب بمظهر الوطنى الذى تحدى المستعمرين ، واراد ان يقود شعبه الى الخلاص منهم فغلبوه على امره ، واستلوا منه سيفه وصولجانه والزموه قصره كالطير السجين ..

وكانت الاحزاب المعادية للوفد ، تحاول بنشاطها الخفى والظاهرى ، ان تكسب من تصـويرها للحادث نفســه ومن نقائص الحكم الوفدى المعروفة ومن عطف الشعب على موقف الملك المطعون فى قصره ، وسـيلة لاكتساب الانصـار ، وبث الدعاية الحزبية ، والتمهيد للوثوب الى الحكم فى ثوب وطنى ، بعد ان كانت لا تعرف طريقها الى الحكم الا وانف الشعب راغم تحت اقدام القصر والانجليز ..

وكانت طوائف الشباب المجاهد المختلفة الاتجاهات ، قـد زج بها فى السجون والمعتقلات ومستشفيات المجانين ..

وبقيت خارج الاسوار جماعة الاخوان المسلمين من ناحية ، وجماعات صغيرة ضئيلة العـدد من الشباب الساخط تجتمع لتفكر ، وتزداد سخطا ، او تجتمع لتدبر امرا كهذا الذى كنا

ندبره والذى اعتقلت بسببه واعتقل معى بسببه عزيز المصرى وآخرون ..

جماعات ... واتجاهات

كنت انا اذن اعمل من ناحية ..

وكان الاخوان المسلمون يعدون انفسهم على النحو الذى تحدثت عنه فى بعض الصفحات السابقة ..

وكانت هناك اجتماعات متفرقة تعقد هنا وهناك ، تضم شبابا ثائرا ساخطا ..

فمن هذه الاجتماعات مثلا ، اجتماعات كانت تعقد فى حى الزيتون ضمت عددا من ضباط الجيش من بينهم الصاغ كمال الدين حسين وضباط آخرون ..

واجتماعات اخرى كانت تضم اليوزباشى مصطفى كمال صدقى وعددا من الضباط وضباط الصف ، على نحو سنفصله على صفحات قريبة ..

كان كل يعمل فى طريق .. وكانت اغلب الخواطر والافكار تتجه ناحية القتل والارهاب .. قتل الانجليز واعوانهم ، فلم يكن هناك متنفس حقيقى للثورة المكبوتة فى الصدور .. ولم تكن هناك آمال واضحة تدعونا الى التريث والتفكير ، او تستطيع ان تحدد خطواتنا اليها فى اتزان .. كنا قد فقدنا كل صمام يحمينا من الانفجار ، حتى صمام التعزى بالامل ..

وكان جمال وعبد الحكيم فى ذلك الوقت ، كسائر هذه الجماعات الشابة الساخطة ، يحاولان ان يصنعا شيئا ..

ولكن الميزة التى امتاز بها جمال ، ميزة الصبر والتريث والتفكير الكثير .. استطاعت ان تنأى بهما وبمجموعة اصدقائهما عن كل عمل طائش ، او خطوة غير مأمونة ..

الحركة الاولى

حتى كان عام ١٩٤٤ .. اى بعد ان قضت وزارة النحاس فى الحكم ما يقرب من العامين ..

وكان قد اصبح واضحا ان هذه الوزارة قد وطنت نفسها على تسليم كل ما يطلبه الانجليز اليها .. وان الملك قد اصبح عاجزا عن كل مقاومة .. وان مقاليد الحكم الداخلى نفسه فى مصر ، قد وضعت نهائيا بين يدى تشرشل رئيس وزراء انجلترا ..

ولم تعد الاعصاب تستطيع مزيدا من الاحتمال ..

ولقد اصبح هذا الوضع الشائن مثارا لاحاديث بين الضباط فى كل مكان .. الكل يتكلم .. الكل يهمس .. الكل يفكر ..

وراى جمال ان فى الامكان استغلال هذه الحركة الواسعة من الهمس والنشاط والسخط فى دوائر ضباط الجيش ، بتحويلها الى حركة موحدة واضحة ، وسيلتها معارضة هذا اللون من الحكم ، وهدفها تحدى الانجليز ..

واشترك جمال وعبد الحكيم فى تنظيم هذه الحركة واعداد العدة لكل احتمال ..

ثم اتفق جمال وعبد الحكيم على الا يظهرا بصورة واضحة فى هذه العمليات ، على ان يكون عبد الحكيم هو المحور الظاهر فيها ..

ومرت ايام ، فوجىء بعدها اعضاء مجلس ادارة نادى ضباط الجيش ، وكبار اللواءات والقواد فيه ، بدعوة موجهة الى الضباط لعقد اجتماع عام فى النادى للبحث فى شئون البلاد والحكم ..

ثم فوجئوا بعدد ضخم من الضباط يحضر هذا الاجتماع فى موعده .. ثم فوجئوا بمناقشات واضحة ، وخطابات جريئة ، وقرارات تتخذ ..

وقام اللواءات يحاولون الاعتراض على هذه الحركة وهذه الخطابات السياسية ، وهذا النشاط الذى لا تقره تقاليد الجيش ..!

واذا بعاصفة من السخرية والتحدى تثور فى وجوههم ، من جانب الضباط الصغار .. واذا بالاجتماع يواصل برنامجه الموضوع له ، رغم هذا الموقف من اللواءات المسيطرين على الجيش والنادى جميعا ..

نصيحة حسنين

وانتهى هذا الاجتماع بتشكيل لجنة من ضباط مختلف الاسلحة ، كان من اعضائها الصاغ صلاح سالم ، ولم يدخل اللجنة جمال ولا عبد الحكيم ، طبقا للقرار الذى اتخذاه من قبل ...

وكلفت هذه اللجنة من قبل الضباط المجتمعين جميعا بالتوجه لمقابلة المرحوم احمد حسنين (باشا) للتفاهم معه فيما يمكن عمله لوضع حد لهذا الحكم الانجليزى السافر فى البلاد .. وافهامه ان الضباط جميعا مستعدون لاى امر ، مهما كان هذا الامر .. انهم اذ يلجأون اليه فى هذا السبيل .. انما يريدون بذلك ان يوجههم الوجهة السديدة التى تضمن الا تضار مصلحة البلاد بشىء ..

وذهبت اللجنة فعلا الى المرحوم احمد حسنين وقابلته فى مكتبه .. وناقشته كثيرا .. ولكنه خذلهم .. واضاع هذه الجهود التى جمعتهم ، وكتلتهم ، بنصيحة واحدة وجهها اليهم ، ثم تشبث بها تشبثا شديدا .. هى الا يقوموا بأى عمل من اى نوع كان لأن الظرف — فى نظره — غير مناسب لشىء ..

وعادت اللجنة بهذه النصيحة .. ولم تكن تعلم ، ولا كان احد فى البلاد يعلم بما كشفت عنه الوثائق والوقائع بعد ذلك من الاسرار ..

وعندما تكلمت الوثائق والوقائع ، اثبتت ان احمد حسنين رائد فاروق ، ورئيس ديوانه وظهيره ومرشده يوم حادث ٤ فبراير ، وقبله ، وبعده .. والرجل الاول فى القصر المعتدى عليه .. احمد حسنين هذا ، كان طوال حكم الوفد فى تلك الفترة ، يتصل بالانجليز .. لا لمصلحة البلاد .. ولكن لكسب ثقتهم فيه كحاكم جديد ، يستطيع ان يقضى لهم من المصالح ما كان الوفد يقضيها .. وان ينفذ لهم سياستهم «الديمقراطية» فى حكم البلاد وتوجيهها ..

احمد حسنين كان يريد ان يكون بطل ٤ فبراير الثانية .. ولكن بغير دبابات .. !

ومع ذلك ، فلم تكن شكوكنا فى احمد حسنين قد بدات فى ذلك الوقت .. ولم نكن لذلك نجد تحليلا سليما لموقفه ..

وعندما علم الضباط بهذه النصيحة ، هاجوا وماجوا .. واوشكوا على الانفجار ..

سباب فى الطريق

وكان لابد من صمام امن آخر ..

ولم يكن صمام الامن هذا سوى التنفيس .. التنفيس بالقول ، بالصوت ، بالكلام .. ما دامت الكتابة ممنوعة ، والاعمال الايجابية ... لا يرضى عنها الرجل الاول فى قصر الملك ! ..

وتم الاتفاق على ان يخوض الضباط معركة من نوع جديد .. معركة لا تجمع فيها ولا تكتل ولا منشورات ، ولا اعتداءات ؛ معركة ليست بالفردية ، ولا بالجماعية ، وانما هى جماعية الحقيقة فردية المظهر ..

ورات القاهرة ضباط الجيش ، بملابسهم الرسمية ، يختلطون بالناس فرادى ، فى المقاهى والمجتمعات ، وعربات الاوتوبيس والترام .. وساعات الصلاة .. ويثيرون مسائل

الحكم ، ويوجهون السباب علنـا ، للانجليز ، والوزارة التى اقامها الانجليز ..

ولم يكن المراد بهذه العملية ، مجرد اثارة الشعور الشعبى ضد الانجليز وضد حكومة النحاس .. ولـكن كان الغرض منها اشعار الانجليز والحكومة نفسها ، بأن ضباط الجيش قد فاض بهم ، وانهم قد اصبحوا على استعداد لاى شىء ..

حذاء ... لا قنبلة

وظلت القاهرة تسمع هـذا السباب العلنى وترى هـذا التحدى السافر من صغار الضباط فترة طويلة من الوقت .. حتى كان حادث ، لم يكتف فيه بطله « الضابط » بكلمات السباب والتجريح ..

كان النحاس ذاهبا لصلاة الجمعة بمسجد الرفاعى ..

وما ان انتهت الصلاة وخرج النحاس ليركب عربته ، الا وتقدم منه ضابط شاب من السواحل هو أبو شبانة والقى بحذائه على عربة النحاس ..

ويبدو انه لم يستطع ان يسدد قذيفته جيدا على العربة .. فقد اخطأ الحذاء عربة النحاس ، والتقى بعربة عبد الحميـد عبد الحق ..

وثارت ثائرة الحكومة ورجالها .. وظن البعض ان الحذاء يخفى قذيفة من نوع آخر اشد خطرا وفتـكا .. فارتاعت القلوب ، وهلعت الافئدة ، وحوقلت الالسـنة ، وبسـملت الشفاه .. وانتهى الامر بالقبض على الضابط .. صـاحب الحذاء ..

... ومحاكمات !

وفى ثوان معدودة ، كان الفريق حمدى سيف النصر (باشا) وزير الحربية ، قد ابلغ بنبأ العدوان الاثيم .. وفى الدقائق

التالية ، كان قد توجه الى وزارته ، وجمع هيله وهيلمانه ، وقرر عقد مجلس عسكرى مستعجل لمحاكمة هذا الضـــابط المقبوض عليه ..

ولاول مرة عقد المجلس العسكرى ، فى الدور الاسفل من وزارة الحربية .. وجىء امامه بالضابط المتهم .. وشرع فى محاكمته على وجه السرعة ، بينما كان حمدى سيف النصر فى غرفة مكتبه ، يستجوب الشهود بنفسه قبل ان يمثلوا امام المجلس ، ويلقى اليهم بتفاصيل ما يشهدون به ، ويهددهم بكل تهديد مستطاع !

وليس امر هذه المحاكمة ، هو ما يهمنا فى هذه الصفحات فقد كان الضباط جميعا فى انتظار محاكمات مثلها ، لـكل منهم .. وكانت كل كلمة مما كانوا يقولون علنا فى الطرقات والمجتمعات كافية لادانة قائلها .. وسامعيها !..

ولـكنها حادثة من الاحداث ، التى وقعت فى تلك الايام ، نتيجة لعدم اكتمال الوعى السياسى فينا ..

فحقيقة كنا الى ذلك العام ، نأمل كثيرا فى وطنية الملك ... وكنا نصنع كل هذا لمقاومة الانجليز فى شخص الحكومة التى فرضوها ...

ولـكن عاما واحدا لم يكد يمر بنا ، حتى ادركنا اننا كنا على خطـأ عظيم .. وحتى تغيرت فكرتنا تغيرا كاملا ، واصـبح واضحا امامنا ان كل شخص ممن كنا نعرفهم ، ونعلق الآمال عليهم ، كان يضع مصلحة البلاد تحت كعب حذائه ، وانهم جميعا كانوا يعملون فى سبيل تقوية نفوذهم ، والوصول الى مقاعد الحكم ، والسيطرة والسلطان ...

حتى الملك المطعون فى قصره ، ادركنا من امره ما لم نكن ندركه ، وما لم نكن نتصور حقيقته ..

وحتى الاحزاب التى لبست اثواب الملائكة ، لم نكن نستطيع

ان نتصور مدى القذارة الموغلة فى ابدانها تحت هـذه الاثواب البيضاء الناصعة ..

اين الطريق !..

الـكل سواء ..
الـكل يعمل لنفسـه ..
الـكل لا يهتم بمصلحة البلاد فى شىء ..
الـكل على استعداد للبيع .. والتسليم ..
الـكل عدو لمصر .. صديق لاعدائها ..
والظلام كثيف ..
لا امل فى الملك .. ولا امل فى الاحزاب ..
والامل الوحيد قد يخالج خيالنا فى وجوه جديدة مجهولة .. وجوه خرافية تصنعها اوهامنا ، وتتمنى ان تلقاها على مسرح الحياة ..
ولـكن .. اين الوجوه .. واين مقام هذا الامل ، فى عالم الحقيقة ..
هذا ما لا بد ان نصل الى جواب اليه ..
ولـكن كيف تستطيع هذه الوجوه ان تظهر والظلام كثيف ؟
لابد اذن ان ينقشع الظلام ..
ولـكن .. كيف ينقشع الظلام ؟
هذا محور التفكير الذى ادى الى تشكيلات كثيرة عسكرية وشعبية .. تتناولها هذه الصفحات ..

عزيز المصرى ..
فى معركة الحرية

- حقيقة منشورات مصطفى صدقى ..
- قصة اعترافات حسين توفيق ..
- حيلة القاويش ...
- ضباط يحلفون يمين الاخوان المسلمين !
- نصيحة العمر ...

عندما يتكاثف الظلام ، وتتعذر الرؤية ، ويتخبط الناس فى طرقات الحياة ، وتتشعب بهم مسالكها .. يختار الله من عباده المخلصين من يتيح لهم البصيرة التى تغنى عن البصر ، فاذا هم يتوقفون عند العثرة ، لانهم يتوقعونها ، وأن لم ترها منهم الابصار ..

وقد كان الله معنا فى طريقنا الطويل الى هـــذه الثورة ، فأودعنا البصيرة كلما أدلهمت الظلمة .. وجنب خطواتنا أكثر العثرات ..

وفى طريقنا هذا الطويل، لمعت أمامنا أضواء، وتبعت أقدامنا اقدام .. ولــكن خطواتنا ظلت محتفظة باتزانها وشخصيتها، واستقلال توجيهها واستطاعت أن تؤكد للجميع ، أنهاتستطيع أن تلتقى بخطوات الآخرين ، ولكنها لا تستطيع أن ترتبط بها، لا متبوعة ولا تابعة ، لانها خطوات لا تمضى الا بارادة أصحابها، وأصحابها لم تكن تعوزهم البصيرة ، مهما افتقدوا الضوء فى الطريق ..

منذ عام ١٩٤٢ .. وعقب حادث ٤ فبراير ببضعة أشهر تقررت هذه الحقيقة ، حقيقة استقلال خطواتنا داخل الجيش عن كل مؤثر خارجى وعن كل قيادة خارجية ..

وكان لهذا القرار ، الذى اصبح تقليدا راسخا لنا بعد ذلك، سبب مباشر وظروف

ففى يوم من الايام ، وجه المرحوم الشهيد « وجيه خليل » الى عبد الحكيم عامر وكان يعرفه ويعرف حماســه واتجاه تفكيره ويعرف أنه واحد من جماعة الضباط الاحــرار الذين يتشاورون دائما فيما ينبغى عمله عقب ذلك الحادث المشئوم..

ولاشك ان بعضناكان يرى العنف ويفكر فى القيام بأعمال ارهابية واسعة النطاق ... فالارهاب دائما هو اول الحلول التى تتبادر الشباب المتحمس فى ايام المحن القاسية التى تجتاح الوطن ...

ولم تكن هذه الفكرة تجد معارضة كبيرة أو محسوسة من اكثرنا .. بل لقد كان بعضنا يدبر الامر للتنفيذ وكانها خطة مرسومة لا اختلاف عليها

ولم تكن زيارة الشهيد « وجيه خليل » لعبد الحكيم عامر الا صدى لوجود هذا الاتجاه بيننا .. فقد كان مقصودا بهذه الزيارة تدبير اغتيالات متعاقبة واسعة النطاق تشل حركة الانجليز واعوانهم فى الايام العصيبة من ايام الحرب

وانتهت هذه الزيارة والتقى عبـــد الحكيم بجمال فأنباه بنبئها ..

لا آلات ولا أدوات

وكعادة جمال انصت طويلا الى هذه القصة .. والاسلوب الذى سيتبع فى التنفيذ ، وتمويل الفدائيين ورعاية أسر من يتعرض منهم لسوء ، والاستعدادات الموجودة لهذه المعركة التى « سوف » تدور فى الظلام ...

وشيء واحد لم يستطع جمال ان يستخلصه من حديث عبد الحكيم ..

من الذى سيدير هذه المعركة .. وما هى اهدافه منها ..

ولم يكن الشهيد وجيه خليل قد قام بهذا الاتصال بأسمه الخاص ولكن باسم جماعة تقف من خلفه هى التى بعثته رسولا الى جمال ..

وقال جمال فى هدوء :

ـ لا ...

ثم أردف :

قد نرى القيام بحملة ارهابية واغتيالات ، ولكننا عندما نصنع ذلك يجب أن نصنعه بأنفسنا ونتحمل وحـــدنا كل مسئولياته ونتائجه ... فالخط الذى يجب أن نسـير عليه كضباط فى الجيش هو الا نكون آلات ولا أدوات فى يد أحد من الناس ولا جماعة من الجماعات مهما كانت وحدة أهدافنا ومهما كانت درجة اخلاصهم ..

قال هذا جمال فى عام ١٩٤٢ .. وانتهت بهذا قصة «وجيه خليل» .. قبل أن تبدأ .. !

ولكن قصة أخرى لوجيه خليل قد بدأت بعد ذلك .. قصة عظيمة ، مجيدة وهب فيها حياته كأشجع ضابط فى أقدس الميادين ..

فقد انضم وجيه بعد ذلك الى الاحرار واصبح عنصرا من أهم العناصر فى تشكيلاتهم .. فلما كانت حرب فلسطين كان من أسبق الضباط اليها

وهناك فى الميدان جرح زميل له وكان هو فى مصفحته فهبط ليحمل زميله الجريح .. هبط تحت نيران اليهود ليخر صريعا شهيدا كأشجع ما يكون ضابط وكأنبل ما يكون انسان

يمين الاخلاص للدعوة

وفى عامى ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ .. فى الفترة التى تتناولها هذه المجموعة من الصفحات ، تكررت الصلات بين الضباط الاحرار وبين تشكيلات كثيرة عسكرية ، ومدنية .. ولكن هذا القرار الذى صدر فى عام ١٩٤٢ .. ظل دستورا لهذه المجموعة من الضباط ..

فى هذه الفترة نشطت جماعة الاخوان المسلمين نشاطاكبيرا فى اجتذاب عدد من ضباط الجيش اليها .. ونشطت نشاطا كبيرا فى الاتصال بجمال عبد الناصر ، ومجموعة أصدقائه ..

وليس سرا ان عددا من الضباط كانوا قد الفوا دعوة الاخوان ، واحبوها .. ورأوا فيها املا ومخرجا لمصر من محنتها ..

وعندما تلتقي ببعضهم اليوم قد يقص عليك قصة ذلك اليوم الذى تم فيه « اختياره » بواسطة الجماعة ، ثم طلب منه أن يذهب الى مكان ما .. لحلف اليمين ..

كانوا اذ ذاك يذهبون ليلا ، الى حى الصليبة فاذا ما انطوى الحى عليهم ، قادهم رسول الاخوان فى ازقة مظلمة متعرجة .. حتى يصلوا الى بيت عتيق .. فيصعدون درجا يؤدى بهم الى غرفة مظلمة ، لا أحد فيها ، ولا تفتح نوافذها ..

ويجلس الضابط الى منضدة ، وضع عليها مصحف ، ومسدس .. ثم يدخل الى الغرفة فى الظلام رجل لا يراه الجالس ، ويلقنه يمين الاخلاص للدعوة ، فيؤدى هذا القسم ويداه موضوعتان على المصحف والمسدس

وتنتهى هذه العملية فيخرج الرجل من الغرفة اولا .. ثم يخرج الضابط ليجد رسول الاخوان الذى جاء به فى انتظاره يقوده مثلما جاء به الى خارج الحى ..

التعاون .. لا الانضمام

وكان الصلة بين الاخوان ، وبين ضباط الجيش ، ضابط هو الصاغ عبد المنعم عبد الرءوف .. وكان عبد المنعم ، يدعو ضباط الجيش الى الانضمام لصفوف الاخوان ، ويعرفهم دائما بالصاغ « محمود لبيب » ليتولى هذا قيادتهم فى طريق الدعوة

وكان الضباط يرحبون بهذا التعاون .. انهم كانوا يريدون متنفسا ينفسون به عن آلامهم الحبيسة ، كقوة وطنية مقيدة باغلال الحياة العسكرية ..

وكانت كثرة الضباط ترى ان يقوم التعاون دون الانضمام .. فمن سمات الرجل العسكرى الا يخضع لاوامر تأتيه عن غير

الطريق العسكرى الذى يندرج فيه ..

ولعل اخطاء كثيرة قد وقعت من جماعة الاخوان فى صلتهم بالضباط .. فقد كان الضباط ينضمون الى هذه الجماعة ، أو يتعاونون معها ، وفى يقينهم أن دورهم فى هذا التعاون هو دور التنظيم والتدريب لشباب الاخوان المتحمس الذى يتحرق شوقا للتدريب العسكرى وحمل السلاح فى انتظار الفرصة التى تأتيه للعمل ..

ولكن تنظيمات الاخوان ، كانت لا تفرق بين الضباط وغيرهم .. حتى لقد كانوا يحددون للضباط مواعيد التدريب .. فاذا أقبلوا ، وجدوا واحدا من المدنيين ، يعطيهم دروسا فى كيفية استعمال المسدسات .. !

وكانت هذه الاساليب تزعج الضباط ازعاجا شديدا .. فهم يقبلون على الاخوان ، وعلى دعوتهم ، كضباط مدربين ، لا كجماعات فى حاجة الى التدريب .. وهم يشعرون بمرارة وأسى يملآن قلوبهم عندما يجدون الجزاء الوحيد لهم على هذا الاقبال والرضى ، هو أن يعلمهم مدنى ، كيف يستعملون السلاح !

فوق ذلك ، فلم تكن خطة الاخوان واضحة لهم .. ولم يكن أحد يصارحهم بشىء ..

وكانوا يتساءلون .. متى نعمل ، وما هو نوع العمل الذى نعد أنفسنا ونعد شباب الاخوان له .. فلا يجابون على سؤال ..

وكانوا يسألون : فما هو المطلوب منا ..

فيقال لهم : ان تثقوا فى قيادة الدعوة .. وأن تعملوا ما يطلب منكم فى حينه فحسب ...

ولم تكن هذه الفترة قصيرة .. فقد امتدت اكثر من عامين .. وحدثت فى خلالها أحداث ظن هؤلاء الضباط أن كل حدث منها ، سيكون الناقوس ، الذى تصدر على أثره أوامر العمل المطلوب ..

ولكن هذه الاحداث مرت ، بكل رنين النواقيس .. والاخوان في جمود .. والضباط المنضمون في حيرة من أمرهم .. لايعرفون ماذا يصنعون ..

نصيحة العمر

وكضباط لم يكونوا يستطيعون أن يأخذوا أنفسهم هذا المأخذ الشديد .. فكانوا يتكلمون فيما يضيقون به من الامر . وكانوا يلجأون الى أصحاب الرأى يسألونهم العون والتوجيه ..

وكان ممن ذهبت اليهم جماعة الضباط المنضمين للاخوان الفريق عزيز المصرى ..

وللفريق عزيز المصرى ، طبيعته النزاعة الى التحرر من كل قيد .. وشخصيته المستقلة دائما وطريقته في تربية ضباطه وابنائه على الاستقلال بالرأى وقوة الشخصية . والعمل بالارادة ..

ويقول لك هؤلاء الذين ذهبوا الى الفريق عزيز المصرى ، أنه قال لهم « كونوا اخوانا اذا شئتم .. ولكن لا تقفوا عند هذا الحد » ..

ولما سألوه عما يصنعون اجابهم :

ـ اقرأوا .. اقرأوا كل كتاب .. اقرأوا في السياسة ومذاهبها .. والاقتصاد وفنونه ، والاجتماع وأبوابه .. اقرأوا واضيئوا في رؤوسكم هذا المصباح الذى وضعه الله فيها لكى يضاء لا لكى يهمل ويهال عليه التراب ..

اقرأوا .. ثم اضربوا في الارض . واعرفوا الناس ، وجربوا بأنفسكم كل شيء .. ولا تتقيدوا بدعوة ، ولا بزعيم .. ولا تربطوا أنفسكم برأى ، قد ترون غيره غدا اذا ما استنارت بالعلم رؤوسكم ..

ينضمون للاحرار

هذه كانت نصيحة عزيز المصرى للضباط الذين ذهبوا اليه فى تلك الايام ..

وقد ظل هؤلاء الضباط على صلتهم بدعوة الاخوان ،ولكنهم جميعا اخذوا هذه النصيحة مأخذ الجد .. وبدأوا يقراون ..

ومن هؤلاء عدد من الضباط الذين يفخر بهم جيش مصر.. لانهم استطاعوا أن يجمعوا بين روحانية الدين ، وبين ضوء العلم ، وحقائق الحياة المادية التى خلقنا لكى نعيش فيها ..

وكل هؤلاء قد انضموا الى الاحرار بمجرد تكوينهم على النحو الذى سنفصله فى هذه الصفحات ..

وفى خضم تلك الايام العصيبة من أعوام ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ .. حدثت أحداث أخرى من تشـــكيلات أخرى .. بعضها مدنى .. وبعضها عسكرى ..

منشورات مصطفى صدقى

وكان أول هذه الاحداث ، هو حادث التدبير للاعتداء على الفريق ابراهيم عطا الله .. الذى اتهم فيه اليوزباشي مصطفى كمال صدقى وزملاؤه

وكان مصطفى كمال صدقى قدكون مجموعة من العسكريين، اكثرهم من ضباط الصف .. تهدف الى تطهـير الجيش من رؤسائه الجهلاء .. وكان اسم الفريق ابراهيم عطا الله فى رأس القائمة التى فكر مصطفى كمال صدقى وجماعته فى التخلص منهم ..

وكان مصطفى كمال صدقى ضابطا فى المخابرات فى الجيش فاختار فى مجموعتــــه عددا من صولات الادارة .. واخذ يعد المنشورات ويطبعها داخل الادارة ، وبالاتها ، ظنا منه أن هذه الوسيلة هى أسلم الوسائل لكى لا ينكشف أمر مجموعته ..

ولكن تقديره لم يكن سليما .. فقد ضبطت المنشورات .. وضبطت قائمة فى داخل ادارة المخابرات تحوى اسماء ثلاثة وعشرين ضابطا .. وصولا ..

والقي القبض على الجميع ، وتقرر حبسهم وتقديمهم الى المحاكمة

حيلة من القاويش

وكان الحادث الثانى الذى أحدث دويا فى البلاد هو حادث اغتيال امين عثمان .. وقد قام بهذا الحادث تشكيل فدائى خارج الجيش .. وكان متفقا عند تقريره ، الا يبوح القاتل اذا قبض عليه بأى شيء أو بأى اسم من أسماء اخوانه ..

وكان حسين توفيق ، هو الذى تقدم فى اللحظة الاخيرة واصر على ان يوكل اليه امر التنفيذ .. وعندما قبض عليه ، ظل مصرا على عدم الاعتراف ، حتى استطاع كامل القاويش وكيل النيابة الذى تولى التحقيق ان يلعب بأعصابه ، بقصة مختلقة ، ان دلت على شيء فعلى ذكاء القاويش وادراكه الصحيح لنفسيات من يقوم بالتحقيق معهم ...

فقد ادرك القاويش أن حسين توفيق قد قام بهذا العمل ، كعمل من اعمال البطولة يذكره له التاريخ .. فأراد ان يطعنه فى حلمه العزيز طعنة دامية ، تجعله ينسى عهده للجماعة ، ويبوح بكل شيء ..

وذهب القاويش الى احدى الصحف الكبيرة ، وأملى عليها خبرا مؤداه ان التحقيق قد أسفر عن وقوع الحادث لاسباب نسائية .. وجعل فى الخبر تلميحا الى قيام صلة بين امين عثمان وبين سيدة عزيزة جدا .. على القاتل حسين توفيق

وفى الصباح دعا القاويش القاتل الى مكتبه .. واطلعه على هذا الخبر ..

وجن جنون حسين توفيق ..

لقد قتل أمين عثمان ، وفى يقينه أنه يعمل عملا من أعمال البطولة الوطنية .. فكيف يقبل أن تذهب كل هذه البطولة هباء .. وان تلوث أيضا سمعة أسرته ، وسمعة أعز النساء عليه ..

وانفجر يعترف .. يعترف بالجماعة التى دبرت هذاالحادث وأسماء أعضائها ، واهدافهم ، ومكان اجتماعهم ، وتفاصيل ما يملكون من أسلحة .. اعترف بكل شيء ..

وكنت بين من شملتهم اعترافات حسين توفيق ، فالقى القبض علىوشاركته السجن واحدا وثلاثين شهرا ، حتى برأنى القضاء ..

سياسة جمال

وهكذا ...

كانت هذه الفترة فترة نشاط كثير .. نشاط من الاخوان كجماعة منظمة .. ونشاط فى داخل الجيش او ألوان من النشاط فى داخل الجيش ، واتصالات بالفريق عزيز المصرى .. وتدبيرات عنيفة واغتيالات ..

وكان لجمال عبد الناصر رأى فى كل هذا ..

فى يوم طلب منه عبد المنعم عبد الرؤوف ان تقوم بينه هو وجماعته صلة مع الاخوان .. رحب بقيام هذهالصلة .. على أن تظل لجماعته شخصيتها المستقلة ، وتفكيرها الخاص ..

ويوم وقع حادث الفريق ابراهيم عطا الله قرر معاونة جميع المقبوض عليهم من الضباط وضباط الصف فقام هو ومجموعة اصدقائه بجمع الاشتراكات ودفع مرتبات المقبوض عليهم جميعا طيلة فترة ايقافهم ..

وحدث ان علمت ادارة الجيش بهذا الصنيع فأصدرت أمرها بمنع الاتصال بهؤلاء الضباط ، ومنع القيام بأية معاونة لهم..

ولكن جمال واصدقاءه رفضوا هذه الاوامر ، وتحدوها علنا وواصلوا العمل لمعاونة المعتقلين ..

وقد ظنت هذه الجماعة يوم خرجت من الاعتقال ، ان هذا الموقف من جمال معناه رضاؤه عن العمل معها .. ولكن جمال رفض ذلك عندما عرض عليه ..وقررت المجموعة عـــدم التعاون مع هذه الجماعة ، لانها تضم افرادا اكثرهم يتصف بالعبث وعدم المبالاة وحب الشهرة ، وعدم التقدير لحقيقة العمل ، الذى يريدون عمله ..

اما لماذا قام بمعاونتهم .. فقد قام بذلك ، لانه راى اشعار الرؤساء فى الجيش ، بان هذا الراى الذى راته فيهم جماعة مصطفى صدقى ..يمكن جدا ان يكون راى الجميع !

ويوم قام التشكيل الفدائى باغتيال امين عثمان ، ظلت المجموعة على صـــلة بى ، حتى اعدت خطـــة لتهريبى من السجن ..

وهكذا كانت تقاليدالمجموعة قد بداتتتخذ صورا واضحة فى مواقف متعددة ..

وكان اهم هذه التقاليد ، هو انتظل الجماعة قائمةبنفسها ، عاملة بارادتها ، محددة لخطواتها ..

وفى كلمتين اثنتين ..

الا تكون آلة ، ولا اداة فى اى يد

اما وسائلها .. فقد تطورت ..

تطورت من صداقة تجمع الضباط ، الى تشكيل له نظام وادوات ..

وتطورت من السريـــة .. الى العلنيـــــة الى السرية مرة اخرى .. وكان لـكل مرحـلة من هذه المراحل ظروفهـــا واسبابها وغايتها الوقتية المحددة ايضا ..

وظلت الجماعة تسير .. خطوة خطوة .. نحو اعـــداد كبير ..

قواعد حركة الأحرار

- العمل الجماعى وحده هو الطريق الى النجاح
- النقراشى يهاجم الانجليز ويضرب الشعب !
- أهداف ... وهدف ...
- الاخوان المسلمون يهادنون صدقى ..
- لا بد من قيادة ..
- مصابيح فى الطريق ...

ان السر الحقيقى فى نجاح هذه الثورة ، راجع الى الروح التى سادت فى التمهيد لها ..

فقد يجتمع الناس حول مبادىء ، حول نظريات يقرءونها ، أو أفكار يبشر بها دعاتها وقد يبلغ بهم الاقتناع بهذه المبادىء والنظريات ، والافكار غايته ،ويبلغ بهم التعصب لها ذروته ،وما بعد الذروة أيضا ان صح هذا القول ..

ولكن هذه المبادىء ، والنظريات ، قد تتعرض للجدل ، فتتعرض الجماعة للانقسام .. وقد يتفاقم الجدل ، فينحرف عن الآراء الى أصحابها ، وتبرز الاشخاص ، وتختفى الآراء .. وتتلاعب أهواء النفوس .. ثم تنهار الجماعة وما اجتمعت عليه ..!

حدث هذا كثيرا .. حدث فى مصر ، وحدث فى غير مصر .. وفقدت الشعوب فرصا كثيرة للتحرر والتطور ، لان مجادلات قامت بين قادتها ، أورثتهم التفكك والتحزب ، وفتحت الثغرات بينهم لمطامع النفوس واهوائها ..

ولست أكتب هذا غضا من قيمة المبادىء والنظريات فما استحق الحياة من لا مبدأ له يعيش من أجله .. ولكننى فقط أرى أن المبادىء وحدها لاتكفى ،لان الرباط الذى يربط العقول، لا يستطيع دائما أن يربط القلوب ، وأن يذيب الهوى ، ويقتل الاطماع ..

ولذلك أرجع الفضل فى نجاح هذه الثورة ، وعدم انكشاف أمر مدبريها والممهدين لها .. الى شىء أهم كثيرا من المبادىء التى قامت عليها ، وقامت من أجلها .. الى الصداقة العزيزة الوثيقة ، التى ربطت بين كل من شارك فيها ، صغيرا كان أم كبيرا ..

وهل كان يمكن ، اولا هذه الصداقة أن يزيد عدد الضباط الاحرار قبيل الثورة على الالف ضابط ، فلا يوجد بينهم خائن، ولا وجل ولا ثرثار ؟! . .

وهل كان يمكن ، لولا هذه الصداقة ، أن تقوم الثورة فعلا ، وتنجح ،فلا يعرف من الاحرار الا هذا العدد الضئيل ، الذى الزمته ظروف الثورة أن يظهر بوجهه على مسرح الاحداث ، وأن يتحمل بنفسه مسئوليات العمل الكبير ؟! . .

انها الصداقة فقط . الصداقة .التى استطاعت ان تحوط مبادىء الثورة بسياجها المتين،وان تحمى النفوس من نزواتها . . لانها احتلت من كل قلب منزل الاطماع . .

وبهذا الدستور . . دستور الصداقة . . بدأ التكوين الفعلى للاحرار فى عام ١٩٤٤ . .

اجتماعات

كانوا قد اصبحوا جماعة من الاصدقاء . . جماعة صغيرة عرف بعضهم بعضا فى ظروف كثيرة مختلفة . . وقربت بينهم صداقة اثيرة واعية . .

ومنهم من عرفه الناس فى مجلس الثورة بعد ذلك . . ومنهم من لا يزال يقوم بنصيبه من العمل فى وحدته او سلاحه او الادارة التى ينتمى اليها . .

كان منهم مثلا ، جمال عبد الناصر . .

وكان منهم طلعت خيرى وعبد المجيد فؤاد من سلاح المدفعية . . وكان منهم عثمان نورى من ضباط المخابرات وكان منهم كمال الدين حسين . . وكان منهم حسين حمودة . وعبد المنعم عبد الرؤوف . .

وكان معهم آخرون ايضا . . فلست اذكر الاسماء هنا على سبيل الحصر . . فقد كان معهم مثلا الصاغ خالد محيى الدين، وكانوا يجتمعون احيانا فى بيته بشارع الخليج بالحلمية . . كما

كانوا يجتمعون فى بيت جمال الذى كان يقع عند تقاطع شارع الملك مع شارع الملكة نازلى .. واحيانا كانوا يجتمعون فى بيت عثمان نورى بشارع جسر السويس بضاحية مصر الجديدة .. واحيانا فى بيت حسين حمودة بمنشية البكرى

راى عام

اصدقاء متفاهمون .. يريدون ان يعملوا شيئا ..

ويستعرض هؤلاء الاصدقاء حالة البلاد .. فيخرجون بعدد من الحقائق التى يجب ان يحسب لكل منها حسابها ..

يستعرضون حالة الجيش ، فاذا هى حالة اليمة غير مشجعة .. فلم يكن لضباط الجيش اذ ذاك راى عام .. ولو فرض ان كل ضابط صغير كان اذ ذاك ساخطا فى نفسه .. فان هذا السخط لايمكن ان يؤدى الى نتيجة عملية ، ما لم يصبح سخطا عاما ، محدد الاسباب ، دافعا الى التكتل والعمل

فالمشكلة الاولى اذن ، هى مشكلة خلق راى عام واع بين ضباط الجيش ، حتى يستطيع هذا الراى العام ان يحرك الجيش كله نحو هدف واحد ، بصورة منظمة منسقة تؤتى ثمارها ..

ولم يكن يغيب عن ذهن هذه المجموعة ، ما سبق من احداث خلال الفترة الاولى من ايام الحرب .. فقد كنا اذ ذاك نعمل.. ولكننا كنا نعمل اعتمادا على انفسنا ، لا على رأى عام موحد بين الضباط .. ولذلك كانت اعمالنا فردية ، او شبه فردية.. وقد تاكد لهذه المجموعة الا جدوى هناك من اى عمل فردى . وان العمل يجب ان يكون عملا جماعيا كبيرا ياتى نتيجة لراى عام يجمع الضباط ..

والمشكلة الثانية التى كانت هذه الجماعة تفكر فيها .. هى مشكلة انعزال الجيش عن الشعب ، وتسخيره دائما ضد كل حركة شعبية تقوم فى البلاد ..

فقد كان الشعب فى تلك الفترة يتحمل العبء كله .. عبء الثورة بعد الثورة .. عبء التضحيات الجسيمة والاستشهاد برصاص السلطات المصرية والانجليزية ايضا ..

وكان الجيش .. الجيش المصرى .. هو القوة الخارقة التى يحسب الشعب حسابها ، كلما فكر فى الثورة من اجل تحقيق اهدافه ..

كانت هذه هى صورة الجيش فى نظر الشعب .. او كان هذا هو الوضع المتعارف عليه .. ولم يحدث ابدا ان حاول الجيش ازالة هذه الفرقة بينه وبين الشعب ، لا لان ضباط الجيش كانوا يكرهون ذلك ، ولكن لانهم كانوا منصرفين عنه انصرافا غير واع .. اى انهم كانوا مستسلمين للامر الواقع المتعارف عليه ..

وكانت هذه المجموعة ترى ان الشعب الذى تحمل حتى اليوم كل التبعات والتضحيات ينبغى ان يطمئن الى جانب جيشه .. وان يدرك ان هذا الجيش معه لا عليه .. وعلى الاقل ، ان يدرك أن هذا الجيش ، أن لم يستطيع ان يكون معه بحكم ظروفه وواقعه ، فلن يكون عليه بحكم مصريته ..

اهداف ... وهدف

واستقرت المجموعة على خطة طويلة المدى ..

خطة لها اهداف صغيرة يتبع بعضها بعضا .. ولها هدف كبير وغاية ، يجب ان تصل اليها مهما بعدت الشقة وطال المدى

واصبح دور هذه المجموعة منذ تلك الايام ، هو السير خطوة خطوة حسب برنامج مرسوم على الوجه التالى :

* خلق راى عام قوى بين ضباط الجيش
* اشعار الضباط ان عليهم مسئولية كمواطنين ، لا تقل عن مسئولية افراد الشعب العاديين ..

* التدرج فى بث الوعى السياسى بين الضباط حتى يصبح من الممكن توجيههم الى ان يكون للجيش نفسه دور فى عملية انقاذ البلاد ، او ان يكون على الاقل محايدا بين الشعب والسلطات الغاصبة الحاكمة ، بحيث لايشترك فى تسديد الضربات الى الشعب اذا تقدم احد لحمل تبعة الانقاذ ..

اما الهدف البعيد من كل هذا فهو الوصول بأى صورة من الصور الى تغيير النظام الملكى القائم فى البلاد ..

لا سرية ..

وبدات المجموعة بعد ذلك تسير الى هذه الاهداف وفق نظام معين ايضا تم الاتفاق عليه ..

فقد تم الاتفاق مثلا على نبذ السرية نبذا تاما فى هذه المرحلة من مراحل الدعوة ..

فان السرية توحى بالتآمر ، وتنذر بالخطورة ولا تستطيع ان تجمع الانصار بسهولة ، لان عامل الخوف والحذر قد يتغلب فى آخر الامر ..

فلتكن العلنية اذن هى الوسيلة .. ففى جوها يمكن تكوين الصداقات وتعزيزها ، واختيار الاشخاص الذين يبدو اخلاصهم وقدرتهم على العمل دون اثارة لغط او شكوك فى صفوف الضباط او فى الاوساط الحاكمة ..

وكانت هذه هى الخطوة الاولى .. فقد اصبحت هذه المجموعة بين جماعات الاصدقاء فى الجيش تثير المناقشات العلنية فى جميع مشاكل الدولة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .. الداخلية والخارجية ..

وبدأت هذه المناقشات العلنية تستهوى الضباط الشبان المتحمسين .. وتملأ حياتهم بشىء جديد يعطيها قيمة اكثر .. فقد كانت حياة ضباط الجيش حتى ذلك الوقت حياة خاوية

الا من النظريات العسكرية التى يدرسها والتدريبات التى يقوم بها ، ومشاكله الفردية الجدية او العابثة على حد سواء ..

وانتشرت هـذه الجماعات المفكرة .. او انتشرت هـذه المناقشات العلنية بين الضباط بصورة مبشرة ناجحة ..

لابد من قيادة

وبدات بواكير النجاح تظهر سريعا ..

فقد بدات تسمع نفس المناقشات هنا ، وهناك .. وبدات ترى الضباط يلتقون ، فاذا هم متفقون فى السخط ، متفقون فى الشعور بحاجات الوطن ، متفقون فى التفكير فيما يجب عمله من اجل انقاذه ..

ومعنى هذا ان الرأى العام قد بدأ يتكون .. وان عقبة كبيرة من عقبات الطريق ، قد اخذت تزول ..

وكان لابد بعد ذلك من التوجيه .. فقد كان واضحا ان هذا السخط عندما ينمو ، يمكن ان يكون خطرا كبيرا ، اذا لم يصحبه توجيه سديد ..

فقد تقع احداث كالتى كانت تقع بين شهر وآخر وبين يوم وآخر من تلك الايام العصيبة السوداء .. واذا بالساخطين ينفجرون فرادى .. او ينفجرون دون وعى ، فيؤخرون الحركة بدلا من ان يساعدوا على تقدمها ..

وقد تستطيع بعض الهيئات او الجماعات ، اذ تشعر بهذه الروح الجديدة تدب بين ضباط الجيش ، ان تحاول ضمهم اليها بصورة او بأخرى .. وعندئذ تفلت من الجيش قيادته ، الى أيد قد لا تحسن التوجيه ..

وعادت المجموعة تتفق على اساسين آخرين تعتبر المحافظة عليهما عاملا جوهريا من عوامل النجاح :

* العمل على الا يتأثر الضباط بالاحداث الجارية اى تأثر

يدفعهم فرادى او جماعات على القيام بأى عمل دون وعى أساسى ، ودون خطة حكيمة مرسومة ..

* والعمل على ان يحتفظ ضباط الجيش باستقلال تفكيرهم ، فلا يرتبطون كأفراد ، او كجماعات بأية هيئة او حزب خارج نطاق الجيش لان الجيش عنصر خطير يجب ان يظل توجيهه فى الايدى القادرة على تقدير خطره ، فلا يكون أداة فى يد احد او جماعة من الناس ..

تجمعات ...

وكان لابد لضمان هذين العنصريين من نشاط منظم تسيطر على توجيهه المجموعة بنفسها ..

ويوما بعد يوم ، وجدت حلقتان كبيرتان تجتمعان علنا ، وفى نطاق واسع ، وعلى أساس الصداقة ايضا ..

وعن طريق هاتين الحركتين ، بثت الافكار ، وحذر الضباط من التأثر بالحوادث تأثرا فرديا ومن الارتباط بأية جماعة او فرد خارج نطاق الجيش ..

وبدأت هاتان الفكرتان ترسخان فى نفوس الضباط .. واصبحتا جزءا لايتجزأ من الرأى العام المنتشر الموحد بين ضباط مختلف الاسلحة

واطمأنت المجموعة الى ان الجيش لن يقوم بأى عمل اخرق او احمق .. وان الضباط سيظلون بمنأى عن التأثر الفردى.. وانهم لن يعملوا الا جبهة واحدة منظمة ..

وبطبيعة الحال لم تكن سيطرة المجموعة قد شملت جميع ضباط الجيش ، ولا نسبة كبيرة منهم ..

فقد كانت فى الجيش العناصر السلبية التى لا تضر ولا تفيد ، والتى لايمكن الاعتماد عليها فى اى شىء ..

وكانت فى الجيش عناصر اخرى مستقلة عن هذا التكوين ، كجماعة مصطفى صدقى التى رفضت جماعتنا التعاون معها.

وكانت فى الجيش عناصر انتهازية ، لم يكن من الصعب تحديدها ، واتقاء خطرها ..

وفى ظلال هذه الاجتماعات العلنية ، والمناقشات المخلصة ، والوعى الذى بدأ ينمو ، تكونت الصداقة القوية بين الضباط . التى كانت سياج الحركة منذ ذلك التاريخ .. وظلت سياجها حتى اليوم ..

ومثلما كان من المستحيل الوصول الى السيطرة الكاملة على جميع ضباط الجيش وعناصره ، فقد كان من المستحيل منع الضباط من التأثر بالاحداث الجارية فى البلاد .. ولكن المبدأ الذى اتفقت المجموعة عليه ، منذ البدء .. وهو الا يؤدى هذا التأثر الى أى عمل فردى ، قد ظل سائدا طول الوقت..وكان تأثر الضباط بالاحداث ، عاملا مساعدا لاكتمال صفوفهم حول الفكرة والهدف البعيد ، ولتحديد دورهم تحديدا واضحا وضوح الشمس ..

الاخوان وصدقى

ففى فبراير سنة ١٩٤٦ ـ مثلا ـ وقعت حوادث الجامعة المشهورة ، فأثارت حماسة الضباط للحركة الشعبية ، وحقدهم على السلطة الحاكمة والمستعمرين ..

وفى خلال الايام التى تلت هذه الحركة ، وقعت المهادنة بين صدقى وجماعة الاخوان المسلمين .. فأيدت هذه المهادنة دعوتنا الى عدم الارتباط بأية جماعة خارج نطاق الجيش ، اذ وضح فى اثنائها التناقض بين ضباط الجيش الذين كانوا ـ كأفراد ـ على صلة بالاخوان المسلمين ، وبين جماعة الاخوان كجماعة لها سياستها التى اوحت لها فى ظرف من الظروف ان تهادن حكومة صدقى ضد حركة الشعب ..

... ثم الوفد

وعندما ذهب النقراشى الى مجلس الامن يعرض قضية

مصر .. قوبلت الطريقة التى هاجم بها الانجليز هناك باعجاب شديد فى صفوف الضباط جميعا .. وفى الوقت نفسه ، كشف النحاس عن وجه غير وطنى عندما ارسل برقيته المشهورة الى سكرتير الامم المتحدة يعلن فيها ان النقراشى لايمثل شعب مصر .. فى وقت كان النقراشى فيه يهاجم الانجليز ..

ولعل هذين الموقفين قد احدثا مقارنات كثيرة بين موقف النحاس وموقف النقراشى ، فقد كان شعور الاعجاب بالنقراشى فى موقفه ، يقابله شعور الاشمئزاز من النحاس فى موقفه ..

ولكن عودة النقراشى من مجلس الامن ، واعماله التى تبعت ذلك لقمع الحركة الشعبية بالحديد والنار ، قد بعث فى الضباط الشعور باليأس من كل الرجال .. وسوت بينه وبين غيره من الذين تشدقوا بالوطنية وخانوا قضية الوطن ..

مصابيح فى الطريق

هذه الاحداث بالذات ..

حادث الكبارى ، وحادث المهادنة بين الاخوان وبين صدقى وحادث برقية النحاس ، وحادث قمع الحركة الشعبية على يد النقراشى .. قد كان يمكن ان تؤدى جميعا ، او ان يؤدى اى حادث منها الى انفجار فردى أو جماعى من ضباط الجيش على غير وعى ، أو تنظيم سليم ..

ولكن المبدأ الذى كان قد ساد الضباط وشاع بينهم ، جعل من هذه الاحداث مجرد مصابيح تضىء لهم طريق العمل القادم، وتزيد من وعيهم الحقيقى بما يجرى فى البلاد ، وبالدور الذى يجب أن يقوموا به ..

ومع الايام التى تمر .. بدات المرحلة الثانية ، مرحلة التنظيم والتكوين .. بعد ان اطمأنت المجموعة الى المرحلة الاولى .. مرحلة اشاعة الوعى ، وتكوين الصداقات ..

تشكيل سري داخل الجيش

- كيف ابيح للضباط التطوع فى حرب فلسطين ؟
- حرب فلسطين تزيد سخط الاحرار ..
- تزوير قسائم العهدة .. والحرب بالبنادق فقط !
- الاخوان والمفتى والجامعة العربية ..
- خطابات وحماس ..
- مساعدة فى الطريق ..

كانت الروح التى سادت الجيش قد بدأت تبشر بنجاح عظيم خلال الاحداث الكثيرة المتعاقبة فى عامى ١٩٤٦ ــ ١٩٤٧

فقد ازدادت جماعات الساخطين بصورة ملحوظة وانتفت السلبية انتفاء يكاد يكون كاملا .. وادرك الضباط ادراكا كاملا انهم على وشك ان يخوضوا معركة من اجل الخلاص.. خلاص الشعب وخلاص الجيش الذى ينبت من صميمه ..

وشعر الحكام .. الملك الطاغيــة ، والقواد « العظــام » والسياسيون ، بعدوى السخط التى بدأت تنتشر فى صفوف الضباط .. وخيــل اليهم ان « المصــل الواقى » من وباء السخط يكمن فى خزائن الدولة ، وانهم اذا استطاعوا ان يحقنوا بهذا المصل جيوب الضباط لأمكنهم أن يعيدوهم الى السلبية المطلقة التى كانت قد اصبحت من تقاليـــــد الجيش المصرى الراسخة دهرا طويلا ..

وكانت السلبية هى كل ما يأملون فيه ، ليســتطيعوا عن طريقها عزل الجيش عن معارك الشعب ، وتسخيره فى الوقت المناسب لالهاب ظهره ..

وبدأت ترقيات الضباط تنشر فى الصحف متتابعة متلاحقة كوسيلة لارضائهم من جانب ولايقاع الفرقة بينهم وبين طوائف الشعب المــأزومة من الجانب الآخر ..

ولكن حسابهم كان مليئا بالاخطاء الجسيمة .. والخطــأ الاول والاكبر فيه ، هو ان الروح الوطنيــة عندما تستيقظ ، يصعب تخديرها .. وان الاغداق المفتعل يكشف بنفسه عن دوافعه ويصبح عاملا من عوامل اشاعة السخط لا اشــاعة الرضى ..

وفى الوقت نفسه .. كانت الاحداث تتلاحق .. وكانت احداثا جسيمة كشفت الغطاء عن كل شىء ، وبدات تجرف الضباط جرفا .. نحو المعركة ..

تحول الى العمل السرى

فى ذلك الوقت كانت حلقات الساخطين ، تضم كل منها خمسة ضباط على وجه التقريب ..

وكانت الاسلحة جميعا ممثلة فى هذه الحلقات ، والصداقة القوية تربط بين افرادها ، من مختلف الاسلحة ، ومختلف الرتب التى لم تكن قد تجاوزت رتبة الصاغ فى ذلك الوقت ..

ورات المجموعة ان تبدأ تنظيمها بداية تدريجية.. فلا تنتقل من الاجتماعات العلنية الى العمل السرى دفعة واحدة .. وانما تتدرج الى ذلك ، حتى يصبح واقعا طبيعيا تؤمن عواقب السير فى طرقاته ..

فقد كان رأى المجموعة قد استقر فعلا على تكوين جهاز سرى فى داخل الجيش يناط به الاعداد للعمل الكبير ، والقيام بهذا العمل ايضا فى اللحظة المناسبة ، مطمئنا الى تأييد الضباط جميعا فى المرحلة الحاسمة ، بعد ان اشتعلت فى قلوبهم شرارة السخط ، ونما الوعى الشعبى فيهم ، كأفراد .. وكجماعات

وكان اختيار اعضاء هذا الجهاز السرى ، يحتاج الى دقة ، ووقت غير قصير .. خصوصا وانه لم يكن من تقاليد هذه المجموعة ، ان تركن الى اساليب الاختبارات المفتعلة التى تركن اليها الجمعيات السرية على اختلافها كما لم يكن من تقاليدها الاعتماد على حلف يمين ايا كان شأنه .. وانما الاعتماد ـ فقط ـ على الاخلاص الواعى المقترن بالصداقة الكاملة ..

وبدأ التدرج الى الهبوط ـ تحت الارض ـ والايذان ببدء العمل السرى يأخذ طريقه هادئا حتى لا يشعر الضباط بأن

هناك حركة غير عادية ، او عمليات فصل بين الجهازالسرى وبين جموعهم الساخطة ..

اشتراكات ... ومنشورات

وكانت الخطوة الاولى فيه ، هى اقتراح جمع اشتراكات من الحلقات الساخطة جميعا ..

وفهم الضباط من هذا الاقتراح ان هناك اتجاها الى عمل فعند مناقشة الاقتراح ، وتعليل اسبابه .. ذكر احتمال اللجوء الى طبع منشورات .. واحتمال ايقاع الحكومة لونا من الاذى ببعض الضباط ، وانه يجب ان يكون لدى « الضباط » لا لدى « المجموعة » قدر من المال ينفق منه على المنشورات ، وعلى معاونة الضباط الذين يمكن ان يصيبهم الاذى من جراء هذه الاعمال ، واعالة اسرهم اذا اصابهم شر ..

وفى الوقت نفسه .. نوقشت جبهة الاعداء .. وحددت تحديدا واضحا ، بأنها مكونة من الاستعمار .. والملك .. والاحزاب السياسية جميعا

وادرك كل ضابط انه مشترك اشتراكا فعليا فى محاربة هذه الجبهة .. فسهل بعد ذلك انشاء التنظيم السرى ، فى مأمن من الفضول ، لقد كان كل ضابط بعد ذلك يعتقد انه واحد من التنظيم السرى ، ولا يفكر فى اكتشاف أمر ، يعتبر اكتشافه خطرا داهما على الحركة كلها .. وعلى المشتركين فيها ، وعلى البلاد ..

فلسطين

وبينما كانت المجموعة تدبر أمر البدء فى التشكيل السرى.. جاءت الاحداث ، تؤجل هذه الخطوة وتحول اتجاه السخط الى ناحية اخرى ، لم تلبث ان كانت حجر الزاوية فى تهيئة الجو لنجاح هذه الثورة ..

فقد اقبل عام ١٩٤٨ .. واقبلت معه احداث فلسطين .. أو بصورة عامة .. حرب فلسطين ..

والقراء يذكرون كيف التهبت المشاعر عقب الاعتداءات اليهودية المتتابعة على عرب فلسطين العزل من السلاح .. وكيف قرر الشباب العربي في مختلف البلاد خوض الحرب المقدسة ، دفاعا عن العروبة في أعز ديارها ..

وفي الايام الاولى لهذه الاحداث ، لم يكن قد تقرر ان يخوض الجيش هذه المعركة .. ولكن الحكومة كانت في موقف لا تستطيع معه منع الجماعات الثائرة من الشباب ، من خوض هذه الحرب كمتطوعين ..

وكانت المجموعة ترى من واجبها تدريب الشبان الذين يتطوعون للقتال ، والتطوع معهم لقيادتهم خلال المعركة ..

الاخوان .. والمفتي .. والجامعة العربية

وبدات في تلك الفترة صلات جديدة مع جماعة الاخوان .. صلات بين ضباط المجموعة ، وبين قيادة الجماعة ..

فقد عقدت اجتماعات في بيت المرحوم حسن البنا ، ضمت جمال عبد الناصر ، وكان اذ ذاك في كلية اركان الحرب ، وكمال الدين حسين ضابط المدفعية ، وبعض الضباط المنتمين للاخوان ..

وفي نفس الوقت نشأت صلات بين المجموعة وبين الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين .. وبين المجموعة وبين الجامعة العربية ..

وكان هدف المجموعة من هذه الصلات جميعا ، هو تكوين تنظيمات وتشكيلات مسلحة ، وتدريبها واعدادها اعدادا كاملا بكل ما تحتاج اليه من خبرة ومن سلاح ، قبل التطوع لخوض غمار المعركة المقدسة ..

وكان الاخوان يقولون انهم مستعدون الى اقصى الحدود ، وانهم لاينقصهم شيء سوى السماح لهم بالسفر الى ميدان المعركة ..

وكان المفتى والجامعة العربية الى جانبه ، يكونان تشكيلات من المتطوعين ، وقد اعلنت الجامعة انها على استعداد لتسليحهم والانفاق عليهم ..

الاستيداع او الاستقالة

وبقى دور الضباط .. فقد كان الضباط لايستطيعون الاشتراك فى الحرب الا اذا اعلنت الحرب من الدولة اعلانا رسميا ، واشترك الجيش فيها ، ولم يكن قد تقرر بعد اعلان الحرب ..

ولذلك فكر الضباط فى الخروج من الجيش ، والاشتراك فى الحرب كمتطوعين ..

وبدات الطلبات تنهال على قيادة الجيش من ضباط المجموعة ومن عدد كبير من الضباط الآخرين .. وكانوا يكتبون فى طلباتهم ، انهم مستعدون لتقديم استقالاتهم ، او طلبات الاحالة الى الاستيداع ، على ان تتركهم الحكومة يذهبون الى الميدان بأسلحتهم ..

وكانت الحكومة مترددة فى ذلك اشد التردد ، مما اوجد الضباط فى حالة من الغضب ، وزاد من حدة السخط فى قلوبهم ..

ولكن ضغط الحوادث كان قاسيا وخطيرا .. وشعرت الحكومة بأنها لابد أن تعمل عملا .. واقتربت اللحظات الحاسمة ، مع ازدياد فظائع اليهود يوما بعد يوم ..

قبول التطوع

وفكرت الحكومة فى ان ترسل جماعة من ضباط سلاح

المهندسين الى فلسطين ، ليقوموا ببعض الاعمال الاستكشافية ووجدت ان خير وسيلة لذلك ، هي ان تقبل ما كان الضباط يطالبون به من اباحة احالتهم الىالاستيداع اوقبول استقالاتهم وتركهم للذهاب الى الميدان بأسلحتهم كمتطوعين ..

وفوجيء الضباط باشارات تأتيهم لمقابلة الفريق عثمان المهدى (باشا) رئيس هيئة اركان حرب الجيش فى ذلك الوقت

ولبى الضباط الاشارة ، وفى مكتب رئيس اركان الحرب ، وجدوا الفقيد أحمد عبد العزيز .. واخبرهم الفريق عثمان المهدى ، ان طلباتهم قد قبلت ، وانهم يستطيعون اعداد انفسهم للتطوع للقتال ..

٤ قطاعات

كانت الجامعة العربيــة اذ ذاك قد بدات تنظم تشكيلاتها بالاشتراك مع مفتى فلسطين ، وكان قد تقرر تقسيم فلسطين الى اربعة قطاعات بأربع قيادات ميـــدان ، على أن تخضع القيادات الاربع للجنة العسكرية التى جعل مقرها دمشق ، ومثل مصر فيها اللواء صالح حرب ..

وكان القطاع المصرى فى فلسطين هو قطاع الجنوب ، وقد عينت الجامعة لقيادته اللواء سليمان عبد الواحد سبل ..

وكانت المجموعة تعرف اللواء سبل من قبل .. فقد كان الفريق ابراهيم عطا الله قد اخرجه من الجيش .. فأقام الضباط له حفلة تكريم فى نادى الضباط . لا لتكريمه فعلا ولكن تحديا لابراهيم عطا الله ..

وكان مع اللواء سبل ، ضابط مخابرات هو اليوزباشى مصطفى كمال صدقى ، وقد سافر سبل الى فلسطين مع متطوعى الجامعة العربية والمفتى .. ولكنه لم يمكث هناك طويلا ، فقد دب النفور بينه وبين ضابط مخابراته .. ثم عاد هو ، ولم يرجع مرة اخرى الى الميدان ..

استعداد ...

وكان الضباط المتطوعون فى تلك الايام يعدون انفسهم للسفر .. يعدون انفسهم بالسلاح ، وتدريب الجنود الذين سيحاربون تحت امرتهم .. فلما عين المرحوم احمدعبدالعزيز قائدا لقوات المتطوعين فى فلسطين ، ذهبت المجموعة معه الى منزل اللواء سليمان عبد الواحد سبل لتحصل منه علىمعلومات عن الجبهة ..

وكان مؤسفا انها لم تستطع الحصول على اية معلومات ذات قيمة عسكرية ..

ومضى الضباط يواصلون استعداداتهم ..

وكان اقسى ما يواجههم هى عمليات الاستعداد .. فللاسف الشديد كانت ظروف الاعداد قاسية موئسة لأى ضابط ، مثبطة للهمم ، قاتلة للارواح ..

بنادق فقط ! ..

كانت الحكومة مثلا تريد من الضباط والجنود ان يسافروا الى ميدان القتال غير مزودين الا بالبنادق !

وكان الضباط يحاولون اقناع المسئولين بأن البنـــادق وحدها لاتكفى وان السفر بغير مدافع ، يعتبر انتحارا ، او يعتبر مهزلة يدفع المتطوعون ثمنها من ارواحهم .. ولـكن الحكومة لم تكن تتحرك لصرخاتهم ..

وبدأت الايام تمر ، ومع مرورها بدأ اليـأس يخيم على النفوس ، حتى لقد عاد كثير من الضباط فى قرار التطوع ، ورجعوا الى خدمة الجيش بعد ان كانوا قد قطعوا شوطا فى استعداداتهم ..

وأى ضابط يسمح لنفسه ان يذهب الى القتال .. ومعه بندقية ، وليس مع جنوده سوى البنادق .. والميدان ميـدان

حرب حديثة لم يكن احد يشك فى انها حرب ضد عدو مجهز بأحدث وسائل القتال ..

واخيرا .. وبعد جهود طائلة سمحت الحكومة للمتطوعين بأن يأخذوا معهم عددا من المدافع .. وكان هذا انتصارا عظيما ، فرح الضباط والجنود به .. !

خطابات ..

وجاءت ليلة السفر .. وفى ليـــلة السفر وقعت بعض المفارقات والحوادث التى لا تنسى

فى ذلك اليوم .. يوم السـفر .. اعتـذر عبد المنعم عبد الرؤوف عن الذهاب الى الميدان .. وكان متطوعا ، ولا يدرى احد لماذا تردد ، فقد كان حتى ذلك اليوم شديد الحماس ..

ولم يكد نبأ اعتذاره يعرف حتى تقدم اليوزباشى خـالد فوزى ليحل محله فى التشكيلات المسافرة ..

وعندما ذاع نبأ اعتذار عبد المنعم عبد الرؤوف ، دب الذعر فى نفس أحد الضباط ، فاعتذر بدوره أيضا ، واذا بالمرحوم اليوزباشى انور الصيحى يتقدم لكى يحل محله ، وكأنما كان يسعى الى قدره .. فقد استشهد انور الصيحى فى اول معركة عقب وصوله الى ارض فلسطين ..

وفى مساء ذلك اليوم جمع احمد عبد العزيز جميع المتطوعين وخطب فيهم قبل السـفر .. وكل من حضر تلك الليلة يذكر خطاب احمد عبـد العزيز .. ويذكر قوله بحمـاس لهؤلاء المتطوعين ، انكم لا تذهبون لقتال عدو فحسب .. ولـكنـكم ذاهبون لتكتبوا التاريخ

وفرغ احمد عبد العزيز من خطابه .. واذا بالجمع يرى المرحوم حسن البنـا ومعه الشـيخ فرغلى ، قادمين لوداع المسافرين .. وخطب حسن البنا ، وخطب الشيخ فرغلى .. واشتد الحماس وبلغ اوجه ..

المتطوعون ...

وفى الحقيقة كانت الروح عالية .. وكان الحماس شديدا .. وكان الكل ذاهبا لكى يموت اقدس ميتة واشرفها .. ولكن هذا لم يكن يعنى امام الضابط العارف بأسرار القتال وفنون المعارك ، ان العمل من اوله الى آخره لن يؤدى الى نتيجة تذكر مهما حسنت الظنون ..

فقد كان المتطوعون خليطا من شباب الاخوان المسلمين ، ومن افراد الليبيين .. وما تعرفه الجيوش النظامية جميعا باسم الضبط والربط .. كان مفقودا تماما بين هذا الخليط الذى لم يتعود الحياة العسكرية ، ولا يستطيع ان يفهمها فى ايام معدودة ..

وكان الضباط حيارى بين الاخوان المسلمين بنظمهم الخاصة وتقاليدهم المعروفة ، وبين الليبيين الذين كان السيد عبد الرحمن عزام قد اتى بهم وقال انهم خير المحاربين واشدهم بأسا واقواهم شكيمة ..

ولكن روح الفداء التى كانت مسيطرة على الجميع كانت توحى بامكان التغلب على جميع المصاعب والعقبات ..

ورحلت قافلة المتطوعين ..

والذى افادته حركة الجيش من هذه الرحلة .. رحلة المتطوعين الى ارض القتال ، لايمكن تقديره بحال من الاحوال .. فقد كانت هذه الرحلة وحدها كافية لكى تخلق فى كل ضابط قدرا من السخط ، يكفى لكى يدفعه دفعا الى الموت فى سبيل تغيير الاوضاع القائمة فى البلاد ، اذا حدث ان عاد من الحرب سليما ..

كشوف العهدة

بدات المهازل بما رآه الضباط من قوات الاسلحة المختلفة

بخصوص العهـــد التى كانت لديهم فى اسلحتهم .. فأســوا الاسلحة اعطيت للمسافرين واسوا العربات اعطيت لهم .. واكثر من ذلك ، قام كل صاحب عهدة بجرد عهدته جردا خاصا ، لـكى يحصر الناقص منها ، ويكتبه فى كشوف الاسلحة والمعدات المسافرة الى الميدان ...

وهكذا كنت تجد فى الـكشوف ما لا تجد فى الحقيقة ... بل كانت الكشوف تحوى اضعاف الاسلحة والمعدات الموجودة فعلا فى ايدى الجنود لان اصحاب « العهد » وجدوا فى هـذه المناسبة فرصة العمر لتغطية ما فى ذمتهم من نقص شديد ..

مساعدات

والذين كانوا يعطفون على المسافرين فعلا ، ويساعدونهم فعلا ، هم اخوانهم الضباط والجنود والعمال الذين التقوا بهم فى الطريق ..

ففى العريش مثلا ، قام رجـال الصـيانة بفحص العربات المسافرة ، والذعر والاسى والحزن مخيم عليهم جميعا .. فقد كانت كلها سيارات قديمة لا تصلح لشىء .. وقضى رجـال الصيانة هناك ليلهم ونهارهم عاكفين على اصلاح السيارات واعدادها لـكى تستطيع ان تكمل الرحلة الى الميدان ..

وكان الضباط يقولون لاخوانهم : « الله معنا .. فالذهاب الى الحرب بسيارات كهذه نوع من الانتحار .. »

ومع كل هذا ، فقد كانت الروح اقوى ، والحماسة اشد من ان يجرفها اليأس ..

وسافر المتطوعون ، وقد لزموا فى طريقهم قلنكات السكة الحديد ، حتى وصلوا الى رفح .. ثم الى خان يونس ..

وفى خان يونس .. فوجىء الضباط فى اليوم التالى بحضور

عبد المنعم عبد الرؤوف .. وهكذا لم يتخلف هذا الضابط الذى كان معروفا بين اخوانه بالحماس ..

ولنترك المتطوعين الآن .. فلسنا بسبيل كتابة تاريخ حرب فلسطين .. لنتركهم ، والحقد على الاوضاع يغلى فى قلوبهم .. ونلتقى بالجيش المصرى المسافر رسميا الى فلسطين بعد هذه الرحلة بأسابيع قليلة ..



فلسطين
كيف ذهبنا وكيف عدنا

- القيادة تأمر بانشاء ركن فاروق فى غزة !
- القاعدة فى القاهرة ..
- عبد الهادى يقبض على جمال عبد الناصر ..
- اهداف الضباط الاحرار ..
- السرية المطلقة ..
- نظام الخلايا ..

ان قصة حرب فلسطين على حقيقتها قصة مثيرة مفجعة.. هى مأساة حقا ومأساة من النوع الذى لا ينسى ..

ولقد حاولت ان اكتب الصفحات الخاصة بالتمهيد لهذه الثورة فى اثناء حرب فلسطين .. ولكننى امسكت .. فما اعرفه انا عن هذه الحقبة المجيدة من حياة شعب مصر وجيشها اعرفه بالسمع ، لا بالممارسة والتأثر والانفعال .. وعندما اتذكر ما كنت اسمعه خلال تلك الايام من مآسى الحرب ، وخيانة القيادات ، ترتبط هذه الذكريات بأيامى الخاصة ، ومتاعبى الشخصية اذ كنت اذ ذاك سجينا .. فلم يكفنى حبس حريتى ، ولكن كان مقدرا على ايضا ان احرم من خوض هذه الحرب المقدسة ، التى طالما تاقت نفسى لخوضها ..

وايام السجن يمكن ان تكون لها صفحات ..

وايام الحرب ، لها بدورها صفحات ..

وان ارتاحت نفسى الى ذكر صفحات من ايام سجنى فى يوم من الايام ، فلن ترتاح لكتابة شىء عن ايام الحرب التى لم أخضها ، والتى خاضها زملاء لى ، كاتبون ..

الحرب

والذى لابد من ذكره لكى تستقيم هذه الصفحات هو الصورة الذهنية والعاطفية ، لضباط الجيش ، ومنهم ضباط مجموعتنا يوم دخولها . والصورة الذهنية والعاطفية لضباط الجيش وضباط مجموعتنا يوم عادوا منها ..

اما يوم الخروج للحرب .. فيوم ذكراه مجيدة فى نفوس الضباط والجنود جميعا ..

لقد اعلنت الحرب .. وسواء أعلنها فاروق أم أعلنتها حكومة البلاد القائمة ـ حكومة النقراشي فى ذلك الوقت ـ وسواء أكان اعلانها خطأ ، ام كان اعلانها صوابا ـ وسواء أكان الجيش مستعدا لخوضها ، أم لم يكن مستعدا . فالحقيقة الوحيدة هي ان الضباط جميعا لم يفكروا فى شيء من هذا كله .. لم يفكروا فى الخطأ أو الصواب لم يفكروا فى احتمال النصر او احتمال الهزيمة .. ولكنهم فكروا فى شيء واحد فقط .. ان حربا اعلنت باسم مصر ، وان جيش مصر يجب ان يخوض هذه الحرب ، كأشجع ما تخوض الجيوش حروبها ، وان يموت رجاله ، ضباطه وجنوده ، فداء لكل ذرة من ثرى الارض المقدسة ، ثرى العروبة والمجد والتاريخ والقداسة ..

هذا هو ما فكر فيه ضباط الجيش وجنوده .. وهذا وحده هو ما جعلهم يندفعون اندفاعا الى ميدان الشرف ، دون نظر الى الحقائق الاساسية التى يهتم بها كل محارب وخاصة اذا ما اشعرته الظروف بأن قيادته نفسها لم تول الامر ما هو جدير به من الاهتمام ..

فالذين سافروا الى الحرب سافروا مجردين من اقوى سلاحين يسافر بهما المحارب

المعلومات الحقيقية او شبه الحقيقية عن العدو ..

والاطمئنان الى حسن استعداد الجيش نفسه ..

والذين سافروا الى حرب فلسطين ، لم يكونوا يعرفون شيئا مطلقا عن جيش اليهود ، ولم يكونوا يعرفون شيئا مطلقا ايضا عن جيش مصر نفسه ومدى استعداده وحقيقة امكانياته !

ولكنهم سافروا .. سافروا حماسة .. وسافروا ذودا عن شرف الوطن الذى ادخرهم للذود عنه .. وقد آن ان يلبوا نداءه المقدس رغم كل شيء ..

فى ارض المعركة

وكل ما يفيد الآن فى هذه المذكرات ، هو ما شعر به الجيش المصرى فى فلسطين منذ الاسابيع الاولى ، من حقائق تثبط اى همة ، وتقصم اى ظهر ..

فهناك .. فى ارض المعركة ، وضح تماما ان كل ما يلزم لجيش يحارب لا وجود له فى جيش مصر .. كل ما يلزم .. من سلاح او عتاد او ذخيرة او مواصلات .. لا وجود لشىء يصلح للحرب ابدا ..

وهناك فى ارض المعركة ، وضح تماما انها معركة تسير وفق نظام غريب لم يسبق له مثيل فى تاريخ المعارك الناجحة والفاشلة فى العالم بأسره .. فالجيش يحارب فى فلسطين ولكنه يقاد من القاهرة .. وهو يقاد من القاهرة وتصدر له الاوامر .. اوامر التحرك والهجوم دون نظر لا الى اصول الحرب ، ولا الى مقدرة الجيش نفسه ..

وهناك فى ارض المعركة ، وضح تماما ان الانجليز قد دبروا تدبيرهم لخيانتنا .. لخيانة هذا الجيش فى معركته الاولى المقدسة .. فهؤلاء الانجليز الذين وعدوا حكومة النقراشى بمساعدة جيش مصر بالسلاح والعتاد والذخائر .. قد امسكوا ايديهم مرة واحدة .. ولم يعطوا الجيش شيئا ..

وهناك فى ارض المعركة ، وضح تماما ان الانجليز قد دبروا تدبيرهم لخيانة جيش مصر لا بهذه الوسيلة فقط ولكن بالتدخل لدى بعض الدول العربية ، لكى تحيك بنفسها الفخاخ لجيش مصر ..

وركن فاروق ! ..

وهناك فى ارض المعركة ، شاهد الضباط والجنود المصريون مهزلة المهازل ومأساة المآسى يوم ذهبوا الى غزة — ولم يكن فى

غزة حرب ولا قتال ــ واذا بالاوامر تأتى من قيادتهم بالقاهرة ، بانشاء استراحة لفاروق هناك تسمى « ركن فاروق بغزة »

هكذا فجعوا فى الحرب من اوائلها ..

اما اواخرها فكانت فترة تأمل ويقين ..

النتائج ... توحى

اواخرها كانت الفترة التى ادرك فيها كل ضابط وكل جندى فى جيش مصر .. ان هذه القيادة يجب أن تتغير .. قيادة الجيش وقيادة البلاد ..

اما قيادة الجيش ، القيادة التى لم يكن لها وجود ابدا .. فلو وجدت ، او وجد نوع من القيادة الحقيقية .. لما امكن ان يهزم جيش مصر ابدا رغم النقص البالغ الذى كان يعانيه فى سلاحه وعتاده ..

وليس هذا مجال مناقشة هذه النتيجة فكل ذلك متروك لقصة حرب فلسطين الكاملة ..

ولكن النتيجة التى عاد بها الجيش على اى حال .. هى المرارة والسخط والتصميم على تغيير هذه القيادات جميعا .. تغيير الاوضاع القائمة فى البلاد من اساساتها ..

قاعدة للعمل

ولعل القارىء لم ينس ان هذه الحرب قد انتهت فى عهد عبد الهادى المعروف بعهد الارهاب

وفى هذا العهد عادت القوات المصرية من فلسطين .. وقررت المجموعة ان تبدأ العمل فورا ، فقد كانت هذه هى اللحظات المناسبة فعلا لتكون نقطة البدء فى العمل السرى الكامل الذى يؤدى الى تغيير الاوضاع فى البلاد ..

وكان لابد للمجموعة ان تتخذ لها قاعدة تعمل منها ، اى ان

تعمل على ان يستتب بعض رجالها فى مكان معين ، وان تحرص كل الحرص على ابقاء هذه القاعدة حتى لا تعمل فيها يد التشتيت

القبض على جمال

وبينما كانت المجموعة تفكر فى هذا الارتكاز فوجئت المجموعة بزيارة غير مرغوب فيها من الفريق عثمان المهدى « باشا » رئيس هيئة اركان حرب الجيش حينئذ ، لمنزل جمال عبد الناصر

ولم يكن الفريق عثمان المهدى وحده فى هذه الزيارة ، فقد كان معه عدد من ضباط البوليس الحربى . .

ولم يكن هدف الزيارة هدفا عاديا . . وانما كان الهدف هو القبض على جمال عبد الناصر ، وتفتيش بيته . .

وقام رجال البوليس الحربى بالتفتيش ، فلم يجدوا فى البيت سوى بضع طلقات . . فقد كان جمال عبد الناصر حريصا دائما

اما جمال ، فقد اصطحبه عثمان المهدى ، الى « دولة » ابراهيم عبد الهادى باشا رئيس مجلس الوزراء والحاكم العسكرى العام والمسئول الاكبر فى عهد الارهاب

وهناك فى مكتب رئيس الوزراء والحاكم العسكرى العام ، جرت مناقشة طويلة بين جمال وبين عبد الهادى . . فقد وجه عبد الهادى لجمال تهمة التعاون مع الاخوان المسلمين مستدلا على ذلك بانه — اى جمال — قد قام بتدريب بعض شبان الاخوان على السلاح ، اثناء الحرب وقبيل قيامها

اما جمال . . جمال الثائر الذى كان عائدا من الفالوجا . . فلم يكن لديه من الصبر مايمكنه من عدم الاحتداد فى المناقشة على الحاكم العسكرى العام

ولعلها كانت مفيدة . . فقد تريث ابراهيم عبد الهادى فى اصدار الأمر باعتقاله . . وارسل رسله يأتونه بأخبار جمال . . ثم أفرج عنه فورا . . لانه ادرك أن لهذا الضابط

شخصية معينة بين ضباط الجيش ، وان له كيانا خاصا فى صفوفهم ، فخشى أن يعتقله ، فتكون القشة التى تقصم ظهره ، وظهر العهد من بعده

القاعدة فى القاهرة

وانتهينا من هذه المشكلة .. وبدانا فى التكوين .. تكوين القاعدة أولا ..

وكانت القاعدة مكونة من جمال وعبد الحكيم وزكريا محيى الدين وصلاح سالم

واستطاع كل منهم أن يجد له مكانا شبه ثابت فى القاهرة

فجمال ، وكان برتبة صاغ فى ذلك الوقت قد عين فى مدرسة الشئون الادارية بالجيش

وعبد الحكيم عين فى مدرسة المشاة

وزكريا عين فى الكلية الحربية

وصلاح استقر فى وحدته بالقاهرة

وفى الايام التى تلت ذلك ، فرغ جمال من وضع اساس التنظيم كله ..

الاهداف والنظام

واختار جمال للتشكيل اسم الضباط الاحرار .. الاحرار فى كفاحهم فى سبيل الحياة ، والاحرار فى سعيهم الى تحرير وطنهم من الاستعمار والاستغلال والفساد ، وكذلك الاحرار من الانتماء الى اية هيئة او جمعية أو تشكيل معروف

ووضعت أهداف التشكيل وطبعت .. وتم توزيعها فعلا على الضباط الاساسيين فى التشكيل .. وظهر أسم « الضباط الاحرار » لاول مرة ..

وكانت أهم الاهداف التى تضمنها هذا المنشور الاول :

• القضاء على الاستعمار الاجنبى واعوانه من الخونة المصريين

• تكوين جيش وطنى قوى

• ايجاد حكم نيابى سليم

وفى نفس الوقت ، وضع النظام الاساسى للتشكيل على الوجه التالى :

• السرية المطلقة فى كل شىء

• تخصيص كل ضابط من ضباط مجلس قيادة التشكيل لسلاح من أسلحة الجيش يكون هو المسئول عن تنظيمات التشكيل فيه

• الاخذ بنظام الخلايا ، ووجوب عقد اجتماعات الخلايا اسبوعيا وبانتظام .

• تكليف كل ضابط من ضباط مجلس القيادة بتقديم تقرير اسبوعى الى المجلس يوضح فيه مدى تقدم التشكيل فى داخل سلاحه وعدد المنضمين وعدد من رئى استبعاده

• وجوب ضم اعضاء جدد فى كل اسبوع

• اصدار المنشورات بصفة منتظمة اسبوعيا

وعلى هذا الوجه بدأ التشكيل مرحلته الحاسمة ، وخطته المدروسة .. على أساس نظام معين ، وأهداف محددة واضحة وخلايا .. كاملة ..

لماذا نجحنا ؟

- نجحنا لاننا عرفنا كيف نسير ..
- اللواء الذى جعلناه قائد نفسه فقط
- الضابط الذى حملناه مسئولية طبع المنشورات
- القصر وحيدر
- ((التيتل)) الذى دفناه فى مكان أمين

كنا قد انتهينا من اقرار التنظيم العــام للتشكيل السرى داخل الجيش ، واخترنا له اسم « الضباط الاحرار » وكنا قد انتهينا من تحديد أهداف هذا التشكيل السرى ، وعرف بصورة كاملة .. ووضعنا قواعد العمل ..

ومنذ تلك اللحظة ، لم يهدأ لنا بال ، ولا للحكومات ، ولا للانجليز ، ولا للقصر ..

ففى أيام قليلة ، كانت منشوراتنا قــــد أصبحت تصدر بانتظام .. وكانت هذه المنشورات تزعج السلطات الداخلية والخارجية ازعاجا شديدا . لان صــــدورها بتلك الصورة المنظمة ، كان يعطى فكرة لهذه السلطات بأن التشكيل الذى يصدرها ، ليس من ذلك النوع الذى اعتاد الجيش ان يفاجأ بظهوره بين فترة وأخرى ، ليصدر منشورا أو منشورين ، ثم يختفى ، أو يكتشف أمره

وكان شغل السلطات الشاغل فى تلك الايام هو أن يضعوا أيديهم على أى حلقة من حلقات هذا التشكيل ، أو يمسكوا بأى خيط يؤدى الى اكتشاف أمره .. ولكننا كنا من جانبنا فى منتهى اليقظة .. فلم نمكن أية ســلطة من السلطات من العثور على شىء .. لم نترك ثغرة واحدة تستطيع هــــذه السلطات مجتمعة أو متفرقة ان تنفذ منها الينا

وكانت هذه اليقظة ، الى جانب التجــارب الـكثيرة التى مارسناها منذ الشباب الاول ، من أيام منقباد ، هى السبب الرئيسى فى نجاح خطتنـــا نجاحا كاملا .. كما ان ارتبـــاط أهدافنا بعواطف الشعب واتجاهاته ، كان من أكبر العوامل المساعدة التى مكنت لنا من هذا النجاح ..

لقد نجحنا لاننا عرفنا كيف نسير .. ولاننا سرنا فى اتجاه الشعب .. ولاننا استفدنا من تجربتنا الطويلة السابقة ..

جواسيس !

وكنا فى بدء أيامنا كتشكيل سرى ، عندما اتصل مصطفى كامل صــــدقي بجمال وحاول التفــاهم معه على ان تنضم مجموعته القديمة ــ أى مجموعة مصطفى صدقى ــ الى تشكيلنا ، توحيدا للجهود ..

وكان معنى هذا ان تشكيلنا كله قد بات فى خطر .. فان معلوماتنا عن مصطفى صدقي وجماعته كانت تدل دلالة كبيرة على أنهم يعملون لحساب القصر

وكان لابد أن يقتنع مصطفى صدقى بأنه ليس هناك أى تشكيل يضمنا ، وأن جمال عبدالناصر لايعمل شيئا على الاطلاق

ولم يكن هذا صعبا على جمال .. فقد استطاع فى لحظات قليلة أن يقنع مصطفى صدقى بأنه قد أصبح بعيدا عن كل نشاط ، أو كل اتصال بنشاط .. وانه أكثر من هذا صمم منذ عاد من فلسطين على أن .. يأكل العيش ... وبس !

واقتنع مصطفى صدقى بهذا الـكلام .. ومضى ..

وفى الحقيقة ، كان مصطفى منجما جيدا للمعلومات .. وكنا نستغله كيفما نشاء .. دون أن يشعر .. فقد كان مولعــا بالتباهي والتفاخر ويحب أن ينسب الى نفسه أشياء كثيرة مما يحدث ، يحيطها بما يعلمه جيدا من ملابســات .. كنا نستفيد من ذكرها فائدة لا تقدر ..

الخلايا ..

وفى ذلك الوقت بدأت الخلايا تعمل ..

كانت خلايا خماسية .. تبدأ كل خلية بأحد ضباط القيادة الذى يكون من نفسه نواة لخليتــه .. ثم تتسلسل الخلايا

على هذا الوجه ، كل عضو من اعضاء الخلية الاولى يكون هو نفسه نواة لخلية جديدة لا يعرف أعضاؤها أحـدا غيره من أعضاء الخلية الاولى ..

وللحقيقة نذكر اننا لم نتعد فى تسلسلنا هذه الطبقة الثانية من طبقات الخلايا .. وان هذا كان فى حد ذاته سببا من أسباب نجاح التشكيل وضبط جميع أموره ضبطا كاملا ..

وكانت واجبات أعضاء الخلايا هى :

١ ـ ضم الموثوق بهم الى التشكيل

٢ ـ اثارة الموضوعات العامة فى وسط الضبـــاط ، لخلق مجموعة كبيرة من العاطفين على أية حركة يمكن أن يقوم بهـا التشكيل فى يوم من الايام ..

وبالطبع كان اعضاء الخلايا يدفعون اشتراكات شهرية ، وكانت هذه الاشتراكات توضع فى صـــندوق توفير باسـم البكباشي احمد حمدى عبيد .. وكأنها مجرد نقود يدخرها من دخله الخاص ..

وكنا نحاول الاستفادة من كل شيء .. من كل الظروف والعلاقات الشخصية والاحداث التى تقع : وأحيـانا كانت تسنح لنا فرص طيبة ، لا تخلو من طرافـة . ولـكننا كنا دائما نحسن استغلالها .. كما كانت الظروف نفسها تساعدنا كثيرا .. وعندما كانت الظروف تلعب دورها الى جانبنا كنا نشعر براحة نفسية كبيرة وأمل ساطع يشع فى قلوبنا .. فقد كانت الدلالة الوحيدة لمساعدة الظروف لنا ، هى اننـا مرموقون من الله عز وجل ... بعنايته

القصر وحيدر !

وكان أخوف ما نخافه جهتان :

القصر ومخابراته الخاصة ..

وقيادة الجيش ..

وكنا لذلك قد رتبنا أمورنا جيدا ، على تطويق الجبهتين كلتيهما .. وبينما كان صلاح سالم يقوم بدوره فى كسب ثقة حيدر «باشا» واعطائه المعلومات المضللة وتغطية نشاط الضباط الاحرار ، كلما تعرض لخطر الانكشاف .. كنت أنا أقوم بهذا العمل نفسه بالنسبة للقصر ، وعن طريق الدكتور يوسف رشاد

وبهذه الطريقة كنا نضمن دائما ، أن نعرف أولا بأول كل ما يمكن أن يكون قد وصل الى علم احدى هاتين الجهتين من معلومات ــ صادقة أو كاذبة عن نشاطنا وان نعرف أيضا أولا بأول كل مايمكن أن تفكر فيه احدى هاتين الجهتين من اجراءات خاصة بنا ، وان نضمن أيضا تغطية الموقف فى كل حالة من الحالات ..

والى جانب هذا ، كانت الفرص الطريفة تسنح لنا وكانت الظروف تساعدنا فى كثير من الاوقات ..

هو الذى يطبع !

حدث مثلا ، ان قبض على الضابط حسن علام أثناء قيامه بكتابة منشور ضد الاوضاع التى كانت قائمة حينذاك ..

ولا أحد يدرى ان كان هذا الضابط قد نوى فعلا طبع هذا المنشور وتوزيعه .. فلعله كان ينفس عن نفسه مجرد تنفيس بهذه الوسيلة ..

ولكن الحادث وقع على كل حال .. فقد قبض عليه متلبسا بكتابة كلام شبيه بما كان الضباط الاحرار يكتبونه فى منشوراتهم .. ورفع الامر الى الفريق حيدر باشا .. واذا به يتهلل ويشرق ويشعر انه قد وضع يده على التشكيل الخطير المزعج الذى يسمى نفسه بالضباط الاحرار ..

وكانت فرصة لنا .. فأنا أذكر أننا لم ندع وسيلة فى تلك الايام الا استعنا بها لاثبات هذه التهمة عليه .. وقد ثبتت فعلا واتجهت أنظار القصر والقيادة وجهة أخرى تماما فى كل

ابحاثهم الخاصة بالكشف عن حقيقة الضباط الاحرار
ولعلنا ان نكون قد تألمنا كثيرا لهذا الحادث ، ولموقفنا منه .. ولكن مصلحة الوطن التى كنا نعمل بصدق من أجلها كانت تقتضى منا ان ننتهز هذه الفرصة ، والا ندعها تفلت من أيدينا أبدا ...

المعركة .. لم تنته

ولم تكن هذه هى الفرصة الوحيدة الطريفة . أو الفرصة الوحيدة التى عرفنا كيف نستغلها استغلالا كاملا مفيدا ..
فقد حدثت أحداث اخرى أثناء معركة القنال ، كانت كفيلة باضعافنا أو الكشف عن سرنا الكبير ..
وقد كانت معركة القنال من وجهة نظرنا ، معركة مجيدة تبدى فيها شعور الشعب واستعداده الكبير للتضحية بكل شىء ..
وهناك قصتان .. لعل احداهما قد كسبت شهرة معينة اذ جاء ذكرها فى محكمة الثورة أثناء محاكمة فؤاد سراج الدين ، عندما ذكر « المتهم » قصة اللغم البحرى ..
اما القصة الثانية .. أو هى الاولى باعتبار تاريخ الحوادث فكانت قصة على هامش الاحداث ، ولكنها كانت ذات خطر كبير ، لولا أننا أحسنا استغلالها ..

مجاهد فى سينا !

ولنبدأ بهذه القصة .. وقد وقعت فى الايام الاولى للمعركة .. وكنا اذ ذاك فى سينا .. كنت هنساك أنا وعبد الحكيم وصلاح .. وكنا نشعر بالضيق الشديد الذى يملأ نفوسنا ونفوس جميع الضباط فى سينا ، فقد كان الجميع هناك يشعرون بأن عليهم واجبا يجب أن يؤدوه فى هذه المعركة وانه لا حق لاحد فى منعهم من القيام به ..

وتكاثر الضيق ، وغلت الصدور ، وأصبحت القوات هناك في شبه هياج مستمر ، ينذر بالخطر ..

ووصلت التقارير الى قيادة الجيش عن هذه الحالة المسيطرة على القوات في سيناء فأرسلت القيادة ضابطا كبيرا هو اللواء توفيق مجاهد ، وكلفته بتهدئة الحالة هناك ..

وجاء اللواء يهدئنا !

جاء ، فجعل يخطب فينا ويناقشنا ، ويحاول اشعارنا بأن دور الجيش لم يأت بعد ، لا لأن الجيش يجب أن يستعد .. ولكن لان عدونا الحقيقى فى نظر اللواء مجاهد ، ومن أرسلوه - هو اليهود .. وان علينا ان نفرغ من اليهود اولا ثم بعد ذلك نفكر فى الانجليز ..

واطال اللواء مجاهد كثيرا فى هذا المعنى ، حتى ضاقت الصدور .. واذا بصلاح سالم يصرخ فى وجهه قائلا :

ان عدونا الاساسى هو الانجليز ، هو هذا الاستعمار القائم فى بلادنا .. واننا يجب علينا أن نطهر ارض الوطن من هذا الاستعمار أولا . وقبل كل شيء ..

ويبدو أن صرخة صلاح قد لاقت تأييدا من الضباط .. واذا باللواء مجاهد يبدى ضيقه الشديد بهذه الصيحة ، ثم لا يفتأ أن يبدى رأيه علنا فى صلاح ... وكان هذا الرأى هو أن صلاح سالم ... رجل خطر

واحسسنا بالخطر يحدق بنا .. فقد أيقنا أن اللواء مجاهد لا بد أن يكتب تقريرا عند عودته الى القاهرة ، يتهم فيه صلاح سالم بالخطورة .. ومن يدرى كيف يمكن أن يتجه نشاط القصر الى كشف حقيقة صلاح واتصالاته ، وكيف يمكن أن يؤدى هذا الى الايقاع بالتشكيل كله ..

وقررنا أن نلغم الارض للواء مجاهد قبل أن يعود الى القاهرة ، ويقدم تقريره المنتظر ..

وفى نفس الليلة اجتمعنا ، عبدالحكيم عامر وصلاح وأنا ..

فى منزلى الصغير فى رفح .. ثم رأينـــا أن نكتب خطابا الى الفريق حيدر باشا ، نضمنه شكايتنا من أن اللواء مجاهد قد أثار الضباط اثارة شديدة فى زيارته لهم ، وانه اسـتفزهم استفزازا يمكن أن يؤدى الى ما يجب اتقاؤه من شرور .. خصوصا وان لهذا اللواء تاريخا أثناء حرب فلسطين .. وان هذا التاريخ معروف لسائر الضباط ..

وكتبنا الخطاب فعلا ، وأرسلناه الى حيدر ..

وفى اليوم التالى هبط اللواء مجاهد الى القاهرة .. ولكنه لم يكد يحط قدميه فيها حتى كان حيدر « باشا » قـد استدعاه اليه وبدأ التحقيق معه فيما ألصقناه به من اتهامات!

وانتهى التحقيق بقرار نقله الى المنطقة الجنوبية ..

وكان اللواء مجاهد اذ ذاك نائبا لرئيس هيئة اركان حرب الجيش المصرى ، كان يتمتع بهذا المنصب الخطير ، وهـذه الادارة الضخمة .. واذا هو ينتقل الى المنطقة الجنوبية .. حيث لا جنود ولا ضباط .. أى حيث يصبح قائد نفسه.. فقط .. لا غير !!

التينتل او اللغم !

والقصة الثانية من قصص معركة القنال ، هى قصة اللغم البحرى التى اشار اليها سراج الدين اثناء محاكمته

وقد وقعت هذه القصة فى ٢٥ ديسمبر ١٩٥١ أى قبـل حريق القاهرة بشهر كامل على التحديد ..

واذكر هذا التاريخ جيدا .. لانه كان يوم ميلادى .. أو عيد ميلادى .. كما يسمى الناس تاريخ مولدهم ..

وكنا ثلاثتنا فى رفح .. عبد الحكيم ، وصلاح ، وأنا .. وكان معنا هناك سبعة وعشرون ضابطا ..

والضباط فى مثل هذه الوحدات النائية ، ينتهزون فرصة

المرح انتهازا .. وكان « عيد ميلادى » احدى هذه الفرص .. ولذلك قرر الضباط ان يحتفلوا بهذه « المنــاسبة » على حسابى ، فى سينما المدينة ..

وذهبنا الى السينما .. وبقى عبد الحكيم وصلاح فى الميس وحـــدهما ...

لمــاذا ..؟

لا أدرى لعل ذلك لاننا لم نود أن يخلو الميس من ضباط ..

ولعل الامر أكبر من هذا كثيرا .. فقد كان لابد فعلا من ان يوجد ضباط فى الميس ، وان يكون هؤلاء الضــباط هم عبد الحكيم وصلاح بالذات .. فقـــد عودنا الله طيلة ايام استعداداتنا لهذه الثورة ، أن يكون معنا فى كل شيء ..

ودق جرس التليفون فى الميس ، فقام اليه عبد الحكيم .. وكان المتكلم هو جمال عبد الناصر .. من القاهرة ..

وقال جمال لعبد الحكيم جملة واحدة .. « التيتل جاى النهارده فى الطيارة .. استعد لاستلامه .. »

وقطع جمال الخط .. وانتهت المـكالمة ..

وكانت كلمة « التيتل » من كلمات قاموسنا « الحركى » .. وكان معناها « اللغم »

وكنا قد اتفقنا من قبل على اعداد لغم بحرى كبير لنضعه فى القنال قبل مرور باخرة انجليزية كبيرة .. فننسفها بذلك

وكان هدفنــــا من هذه « العملية » هو تعطيل القنال ، وتقديم الدليل الـكافى للعالم ، على أن الانجليز لا يستطيعون حماية القنال ، مادام المصريون لايمكنونهم من ذلك

وجلس عبد الحكيم وصلاح ينتظران « التيتل » .. وكانا بالطبع لا يعلمان شيئا عن حقيقة حجمه ..

وبعد قليل .. اتصل ضابط من العريش بعبد الحكيم ..

وقال له بلغتنا « الحركية » أستلمت « التيتل » ولكنى لا أعرف كيف أوصله الى القنطرة ، لان امكانيـاتى اقل من ذلك كثيرا ..

وأجابه عبد الحكيم بقوله :

ـ أرسله الى فى رفح .. وسأتصرف أنا فى الامر ..

وعاد عبد الحكيم وصلاح ينتظران « التيتل » مرة أخرى .. وقد علما انه سيصل اليهما ساعيا على الارض لا هابطا من السماء .!

وبعد قليل ، وصل « التيتل »

وصل ، فى حراسة ضابط كيماوى ، كان هو الذى قام باعداده ، وكان أيضا هو المكلف بتركيبه فى القنال ..

وكانت الساعة اذ ذاك ، الثامنة مساء ..

وكان هذا « التيتل » عبارة عن أربعةصناديق كبيرةالحجم ثقيلة الوزن جدا ..

وتعاون عبد الحكيم وصلاح والضابط الكيماوى علىانزال الصناديق .. وكان جليا انها لايمكن أن تدخل من الابواب ، ولا أن تخفى فى احدى الغرف ..

وكان الحل الوحيد ، هو أن توضع هذه الصناديق الى جوار الباب .. ثم أن يسرع عبد الحكيم وصلاح الىالسينما ليخرجانى منها ، حتى أجلب لهم بعض جنود سلاحالاشارة ، ليساعدوا فى عملية نقل هذا « التيتل » .. غير المنتظر ..

وخرجت من السينما ، وتوجهت فورا الى سلاح الاشارة فأحضرت بعض جنودى بينما ذهبا هما الى سلاح خدمة الجيش فأحضرا ضابطين من الاحرار ، وعربة لورى كبيرة ..

وكان الوقت الذى أمامنا يحسب بالثوانى لا بالدقائق .. فقد أوشكت السينما أن تنتهى .. وبانتهائها سيحضر

الضباط الى الميس .. وينكشف أمر « التيتل » الذى كنا نحرص اشد الحرص على اخفائه ..

وفى هذه الثوانى التى كانت قد بقيت لنا ، استطعنا أن نضع التيتل فى اللورى ، وان نجهز اللورى بالبنزين الذى يكفيه لقطع ٣٥٠ كيلومترا .. الى القنطرة .. وان نعد بعض قطع الساندوتش ، للضابط الكيماوى ومرافقيه ..

وسار اللورى على بركة الله ..

واتصلنا نحن بزملائنا من الضباط الاحرار فى العريش لكى يدعوه يمر .. ثم اتصلنا بزملائنا فى القنطرة ، لكى يتسلموه

ولم نكد نفرغ من كل هذا ، حتى كانت مظاهرة قوامها سبعة وعشرون ضابطا تقترب فى مرح من الميس ..

كانت السينما قد انتهت .. وكان الضباط عائدين ..

ولعل قصة « التيتل » هى احدى قصص معركة القنال

والذى نستطيع اليوم ان نضيفه الى ماذكرت هو أن القنطرة قد استلمت « التيتل » وان الضابط الكيماوى قد ركبه فعلا .. ثم قامت فى وجهنا عقبات لم تسمح لنا بتنفيذ خطتنا .. فقررنا دفنه .. دفنه فى مكان امين .. ولا أحسب الا انه لا يزال يرقد فى مكانه الى هذا اليوم

موعد الثورة

- حددنا موعد الثورة سنة ١٩٥٠
- قلنا لسراج الدين « حافظ على الدستور ونحن نحميك »
- فؤاد سراج الدين يقول « ان شعب مصر لا يهتم بالدستور »
- تم الانتخاب فى منزل كمال الدين حسين ..
- الاتصال برجال الوفد .. جريمة ..
- سراج الدين يقول : « احنا خايفين من الجيش »

ان دور الاحـــرار الذى بدأ اذ ذاك كان قــد بدأ ليستمر لا ليتوقف وكنا نمر فى تلك الاثناء بفترة كمل فيها استعدادنا ، واصبحنا قادرين فعلا على التحرك من وحداتنــا ، لنضرب الضربة التى تطهر البلاد من رأس الفساد فيهــا .. الملك ، والاقطاع . وما يتفرع عنهما من احزاب وسياسات قادتهــا طويلا الى الخراب ..

فالسنوات التى مرت بنا بعــد اكتمال تنظيمنا ، وهى سنوات ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٢ .. قد كانت ســنوات الاستعداد والدراسة الـكاملة للموقف ، وتحديد موعد البدء .. وفى نهاية هذه السنوات أو قرب نهايتها ، وقعت معركة القنال ، وأدركنا ان دورنا الـكبير قد حان وقته ..

انها فترة مترابطة اذن .. ســنمر اليوم مرورا ببعض احداثها ، لنعود الى ذلك مرة أخرى

ففى عام ١٩٥٠ كنا قد اكتملنا من حيث التنظيم الداخلى .. للخلايا ، والمخابرات ، وجمع الاشتراكات وعقد الاجتماعات وضم الضباط

كان كل شىء يجرى على مايرام .. وكنا نفكر دائما فى الزمن الذى يجب أن نقضيه فى الاستعداد والتهيؤ للمعركة .. وكنا ـ ككل من يقدم على خطوة كبيرة جريئة ـ نقدر قوة العدو بحدها الاقصى ، ونقدر قوتنا بحدها الادنى ، ونعتقد اننا لن نبدأ حتى نكون على يقين من أن الحد الادنى لقوتنا ، قد أصبح أقوى فى كل شىء مما يمكن أن يكون عليه الحد الاقصى لقوة العدو ..

والعدو ، كان بالطبع ، فاروق وجهازه الرهيب ، مع وضع الاستعمار وما يمكن أن يقدم من مساعدة فى الحساب ..

وكنا فى بدء عام ١٩٥٠ قد قدرنا للاستعداد خمس سنوات، اى أننا حددنا موعدا للحركة عام ١٩٥٤ أو ١٩٥٥

ولكن الظروف السياسية التى لابست الاشهر الاولى من حكم الوفد الاخير جعلتنا نعيد التفكير مرة أخرى ، ونحدد للحركة موعدا بعد ثلاثة أعوام بدلا من خمسة أعوام

فقد كانت سياسة المهادنة التى فاجأ بها الوفد البلاد فى أول شهور حكمه تستدعى هذا التقريب لموعد الحركة

اذ كانت هذه السياسة وحدها ، هى النذير الاكبر بوجوب انفجار الشعب وقرب هذا الانفجار ..

فقبل عهد الوفد الاخير .. كان الشعب يرى امله فى حزب الوفد رغم مساوئه .. وحتى نحن كنا نعتقد أن حزب الوفد رغم كل هذه المساوىء المعروفة للجميع : هو الحزب الذى نستطيع أن نركن اليه يوم نقوم بضربتنا الكبيرة ، لنسلمه زمام البلاد ، على أسس واضحة من التطهير والعمل الخالص للوطن

كنا نعتقد هذا ، بل لقد خطونا فى هذا السبيل خطوات سيأتى تفصيلها ..

وكنا رغم كل هذا ، مضطرين الى أن نحسب حسابا للحقيقة الكبرى وهى أن حزب الوفد اذ يجىء بهذه الاغلبية الساحقة فى عام ١٩٥٠ ثم يهادن القصر تلك المهادنة المكشوفة المزرية ، قد صدم الشعب فى أمله الوحيد الباقى ، ولم يجعل هناك مجالا يستطيع الشعب أن يتنفس فيه الا أن ينفجر فيطيح بكل شىء

وكنا نقدر هذا الانفجار الشعبى ، وعواقبه ونريد أن نكون ميزانا حساسا لانفعالات الشعب ، حتى لا يأتى انفجاره دون توقع منا ، فيتعرض لملحمة رهيبة بينه وبين القوة الغاشمة قد لا تكون سليمة العواقب

وفى الوقت نفسه كنا نخشى أن يدب الملل فى نفوس ضباطنا، وأن يعطى التراخى فرصة للقضاء على قوتنا ، بعوامل التشتيت

المقصودة أو غير المقصودة على حد سواء ..

لذلك قربنا الموعد الذى حددناه للحركة ، وجعلناه عام ١٩٥٢ أو ١٩٥٣ بدلا من ١٩٥٤ أو ١٩٥٥

انتخاب جمال

وكنا فى ذلك الوقت فى القاهرة . نحن جميعا وكنت أنا أعيش كالحبيس فى دائرة ضيقة ، لم يسمح لى جمال بالتحرك فى أى دائرة أوسع منها بحال من الاحوال ، فقد كان تاريخى السابق ، تاريخى الذىلم يمر عليه أكثر من عامين منذ خرجت من السجن فى آخر مرة ، يجعل أى حركة أقوم بها مثار شكوك

ومر عام ١٩٥٠ ، واقبل عام ١٩٥١ .. وفى هذا العام نقل بعضنا الى سينا .. نقل صلاح وعبد الحكيم وأنا .. الى سينا ، ونقل جمال سالم الى العريش ..

أما باقى مجموعتنا .. فقد ظلوا فى القاهرة

وكان هذا النقل .. وتشتيتنا فى ثلاث جهات مدعاة الى اتخاذ اجراء لا بد منه ، لم نكن قد فكرنا فيه قبل ذلك العام

كان لابد انيكونلنا رئيس مسئول ، يقوم بتنسيق أعمالنا واصدار الاوامر والتصرف الوقتى فيما يجد من مشكلات ..

وعقدنا اجتماعا لبحث الامر ، ثم انتخبنا بالاجماع رئيسا لنا .. جمال عبد الناصر ..

وبدأ بذلك تقليد جديد لهذه المجموعة ، أن نحدد موعدا للاجتماع فى كل عام لانتخاب الرئيس ..

وفعلا ، تم ذلك أيضا فى يناير ١٩٥٢ .. اذ اجتمعنا فى منزل الصاغ كمال الدين حسين وانتخبنا جمال رئيسا لمدة سنة أخرى من ذلك التاريخ ..

واختيار الرئيس

على أن هذا الاجتماع ، قد تضمن قرارا آخر اتخذناه ، واتفقنا على ابقائه سرا بيننا

وكان هـــذا القرار هو اختيار اللواء أركان الحـرب محمد نجيب لكى يكون قائدا لحركتنا فى يوم تنفيذها

وكان سبب اتخاذ هذا القرار .. هو اننا لا بد أن نضع فى حسابنا شخص القائد الذى نتقدم خلفه الى الشعب ، لكى نستطيع أن نمهد لشخصيته التمهيد الـكافى فى صـــفوف الجيش

وكان الرئيس نجيب قد عرف لمجموعتنا عن طريق عبـد الحكيم عامر ، اذ كان عبد الحكيم عامر أركان حربه أيام معركة فلسطين .. كما كان عبدالحكيم قد قام بتعريف اللواء نجيب بالبكباشى جمال عبد الناصر عقب عودة جمال من الفالوجة ..

ورغم اتخاذنا هذا القرار ، فلم نشأ أن نعلنه حتى للرئيس نجيب نفسه .. لان الوقت لم يكن قد حان بعد لاتخاذ هذه الخطوة

وبعد اسبوع عقدنا اجتماعا آخر .. فقد كنا نشعر فى ذلك الوقت أن موعد الحركة قد يكون اقرب بكثير مما يتصور، ومما نقدر ..

تقدير الموقف

وفى هذا الاجتماع طلب جمال سالم أن نقرر البدء فى اتخاذ موقف الاستعداد الكامل للعمل فى أى وقت .. وأن تكون المهلة التى تعطى لضباطنا قبل البدء شهرا على أكثر تقدير

ووافق المجلس على ذلك ..

وفى نفس الاجتماع ، كلف المجلس عبد الحكيم عامر ، بعمل « تقـدير موقف » للحــالة من جميع نواحيهــا ، الشعبية والسياسية والعسكرية ، وأن يقوم بعرض تقريره على المجلس فى أسرع وقت ..

كنا جميعا نشعر بوطأة الاحداث وبتحكمها الواضـــح فى تحديد موعد حركتنا .. فقد كان الشعب يغلى ، وكان الجيش يغلى .. وكان لا بد من عمل ..

وانتهى هذا الاجتماع الذى عقدناه بمنزل قائد الاسراب ـ حينئذ ـ حسن ابراهيم

ثم اجتمعنا بعد يومين اثنين ، لكى ندرس التقرير الذى أعده عبد الحكيم عامر ..

وفى هذا الاجتماع .. استطعنا أن نطمئن تماما .. وانتهينا الى اننا قادرون على القيام بالحركة فى أول فرصة ممكنة .. وان امكانياتنا تضمن لنا النجاح ..

ولم يكن هذا التقرير نتيجة لدراسة يومين من عبد الحكيم .. فقد كان مسبوقا بجولة قام بها جمال وعبد الحكيم فى داخل الجيش للقيام بعملية حصر كاملة لاول مرة ، ومعرفة حقيقة القوة التى نستطيع الاعتماد عليها ..

وبالطبع كان هذا الاجتماع ، قبل حريق القاهرة .. ولم يكن أحد يتوقع وقوع ذلك الحادث المشئوم

الاتصال بالوفد

ولنترك الآن التفاصيل العسكرية ، لنلم بما قمنا به الى جانب ذلك من محاولة لاستغلال الموقف السياسى ، والتهيئة لاوضاع ما بعد الثورة من الناحية السياسية ، والناحية الشعبية

الوفد ..

الوفد الذى كان يحكم .. والذى هادن الملك فى أول عهده، ثم اضطرته الظروف واضطرته نفس القاعدة الشعبية التى لم يكن يستطيع أن يغفل حسابها الى الغاء المعاهدة ، وبدء الكفاح المسلح ضد قوات الاستعمار فى القنال ..

هذا الحزب ، كان أملا من آمالنا رغم كل شىء وكنا نريد أن نقويه فى موقفه ، وأن نجعل منه الشرارة التى تطلق قذيفتنا

وقررنا أن نتصل بالوفد ، وأن نترك أمر تدبير الاتصال به الى جمال عبد الناصر ..

ولن اسبق هنا الحوادث ، ولكنى سأحاول أن أذكر تفاصيلها كما يذكرها الذين شاركوا فيها ..

بدأ جمال بدعوة اليوزباشى جمال القاضى ، وطلب منه أن يتصل بعمه « عبد اللطيف محمود باشا » الوزير الوفدى إذ ذاك ، وللتفاهم معه على أوجه المساعدة التى يحب الوفد أن يحصل عليها من تشكيلنا العسكرى فى سبيل ايقاف الملك عند حده ، ومنع اعتداءاته على الدستور

جريمة كبرى

وكان السر فى اختيار جمال القاضى ، هو هذه القرابة بينه وبين عبد اللطيف محمود ، فقد كان اتصال اى ضابط بالجيش بأى رجل من رجال الوفد حينئذ ، يعتبر فى نظر قادة الجيش، ورجال القصر ، جريمة تستوجب الحساب والعقاب ..

ولذلك كان علينا أن نغطى هذه الاتصالات باللجوء الى صلات القربى ، التى لاتثير الريب والشكوك ..

وذهب جمال القاضى الى عمه .. ثم عاد ليقول ان عبد اللطيف محمود صارحه بأنه لا يستطيع أن يتكلم شخصيا فى هذا الامر ، ولكنه مع ذلك على استعداد لتقديم جمال القاضى الى رجل الوفد المسئول ، فؤاد سراج الدين ، ليتم التفاهم بينهما مباشرة ..

وفكر جمال عبد الناصر فى الامر واستعرض فى ذاكرته اسماء الضباط الذين يمكن أن يعتمد على واحد منهم فى الاتصال المباشر بفؤاد سراج الدين ، ثم استقر على أن يكلف القائمقام رشاد مهنا بهذا الاتصال لانه ايضا تربطه أواصر القربى بفؤاد سراج الدين

تخاذل ..

وتقابل جمال مع رشاد مهنا ، وطلب منه أن يذهب لمقابلة سراج الدين وجس نبضه ، وابلاغه أن الجيش اليوم لم يعد

مستعدا للوقوف الى جوار الملك ضد أى اجراء شعبى تتخذه حكومة الوفد ، ويؤدى الى محاولة الملك البطش بها أو اقالتها

وتحدد موعد المقابلة بعد بعض تأجيلات من جانب رشاد مهنا

ولكن الموعد المحدد بصفة نهائية أقبل .. واذا برشـــاد يعتذر عن مقابلة سراج الدين ، بدعوى أنه قد جد ما يشغله فى قريته ، وانه مسافر اليها فى اليوم نفسه ..

وللتسجيل والتاريخ ، أذكر هنا أن هذا الموقف من رشاد مهنا ، قد أثر كثيرا فى نفسية جمال ، فقد كان أول تخاذل من رجل يحاول أن يعتمد عليه فى شىء ..

واندفاع ..

بلغ هـذا النبأ البكباشى أحمـد أنور ، فمضى بنفسـه الى البكباشى جمال عبد الناصر ، وأبدى استعداده للقيام بهـذا الاتصال ، وقال انه غير معروف بنشاط معين، ، وانه مستعد للتضحية حتى ان كانت هنالك تضحية ، وان اكتشاف صلته بالوفد لن يؤدى ـ على كل حال ـ الى أى عواقب تصيب تشكيل الضباط الاحرار

وكلفه جمال بهذه المهمة ، وان كان قد ابدى له شكه فى أن يستجيب سراج الدين ، واحســـاسه بأن سراج الدين سيحاول استدراجه دون أن يبوح له بشىء .. ثم أوصـاه اذا اراد سراج الدين ان يصل معه الى اى قرار ، بأن يفهمه أن له اخوانا وقيادة لا بد أن يرجع اليها قبل التصريح بأى شىء ..

وتمت المقابلة

وسأترك الآن البكباشى احمد أنور يروى تفاصيل هـذه المقابلة ..

قال احمد أنور ..

طلبت مقابلة سراج الدين ، واتفقنا على موعد المقابلة .. الساعة الخامسة والنصف ، فى بيته بجاردن سيتى ..

وارسل الى فؤاد سراج الدين الاستاذ فاروق القـاضى ، وكان اذ ذاك يشـغل منصب السكرتير البرلمـانى لفؤاد سراج الدين ، بصفته وزيرا للمالية ، أرسله الى ليقابلنى فى ميدان الاسماعيلية ، ويأخذنى الى داره . وكان معى شقيقه جمال القاضى الذى جاء يصحبنى ليعرفنى بشقيقه ..

والتقيت بفاروق القاضى ، ثم ذهبنا ، واذا بفاروق يقودنا الى الباب الخلفى للدار حسب التعليمات التى كان قد تلقاها من فؤاد سراج الدين

وجلسنا فى احد الصالونات الكبيرة .. ثم أقبل علينا فؤاد « باشا » وأمر الخدم باغلاق الابواب وعدم السماح لأى أحد بالدخول ..

وجلس ..

كنا أربعة ..

فؤاد سراج الدين وجمال القاضى ، وفاروق القاضى .. وانا ..

وانتظرت فى تحرز شديد وتحرج ، أن ينسحب فاروق ، ويدعنا وحدنا فى هذه المقابلة البالغة الخطورة والاهمية .. ولكن فؤاد « باشا » لمح منى هذا التحرج والتحرز .. فابتسم لى مشجعا .. وقال لى : تكلم .. فليس فاروق غريبا .. وبدأت أتكلم ..

باطنا والريح

قلت له :

ــ لقد جاوز الملك كل حد ، وخصوصا بتعيينه حافظ عفيفى

رئيسا لديوانه .. فلماذا لا تتخذون موقفا حازما تجاه هذا التحدى الصريح من الملك ..

وابتسم فؤاد سراج الدين .. وقال فى بساطة خبيثة ..

ـ احنا طبعا .. خايفين ..

ـ من ايه ؟

ـ من الجيش .. هى دى عايزه تفسير ؟

ثم استطرد :

ـ احنا ناس « باطنا والريح » .. واحنا صحيح كنا بنحايله لغاية مانقدر نلغى المعاهدة . انما دلوقت اذا انزنقنا .. فمفيش مفر .. حانخرج .. ونقول للشعب كل حاجة

وثار جمال القاضى ، وهو فى طبعه عصبى شديد الانفعال .. وقال :

ـ ولماذا لم تفعلوا ذلك وقد عين الملك عبد الفتاح عمرو « باشا » مستشارا له ، رغم سحبكم اياه من سفارة لندن !

وكان سؤالا محرجا .. ولكنه كان أيضا سؤالا فى الصميم .. ومع ذلك فقد ابتسم فؤاد سراج الدين .. وقال أيضا فى بساطة :

ـ احنا رفضنا هذ التعيين رفضا حاسما .. ولكن الملك أصر ، وعينه بنفسه .. ثم وجدنا ان هذه المسألة مسألة صغيرة ، لا تستحق أن نعطيها من الاهتمام ما ينسينا قضيتنا الكبرى ..

الشعب لا يفهم فى الدستور

وسألته :

ـ أليست فى اعتباركم اعتداء على الدستور

وضحك سراج الدين وهو يقول :

ـ الدستور .. هى البلد دى بتفهم فى المسائل الدستورية

وألقى برأسه الى الوراء كمن يتذكر أياما ماضية ثم قال :

ـ عندما وقعت الازمة بين الملك وبين النحاس فى الوزارة الماضية بشأن حق اعطاء الالقاب .. كانت هذه أزمة دستورية لا شك فيها ، فقد كان رأينا أن الملك لا يمنح ألقابا الا بناء على طلب حكومته .. ومع ذلك ، مع كونها أزمة دستورية .. فقد استطاع الملك أن « يسرح » شيوخ الازهر فى البلاد ، وأن يوعز اليهم بأن يخطبوا فى البلاد ، وأن يخطبوا فى المساجد ضد النحاس ، ويوقعوا فى روع الشعب أن النحاس يريد أن يصبح ملكا يمنح الرتب والنياشين .. وللاسف .. فهم الشعب هذا .. واضطررنا الى التراجع ، لان الشعب لا يفهم كثيرا فى المسائل الدستورية ..

والتفت فؤاد سراج الدين فجأة .. ثم سألنى مغيرا مجرى الحديث :

ـ فيه ضباط كتير معاكم ؟

قلت :

ـ نعم .. من جميع الاسلحة ..

فعاد يسألنى محاولا أن يخفى ما أدركته أنا من سؤاله ، وهو أنه كان على علم بصورة ما بحركة الاحرار ..

ـ أظن كان فيه سلاح .. تعبان !!

وأجبته على الفور :

ـ لا .. غير صحيح .. فجميع الاسلحة الآن مستعدة لاتخاذ أى موقف نراه .. ونحن جئنا هنا لكى نتفاهم معك على امكان الاستناد الى الجيش .. فهذا الجيش هو جيش الشعب ولن يكون بأى حال جيشا للملك .. وعليكم أن تتخذوا أى موقف قوى .. وعلينا نحن أن نقف الى جواركم

ورأيت من فؤاد سراج الدين انطواء شديدا ، ونظرات لمحت فيها بعض الشك والارتياب ..

ولم يكن أمامى الا أن أندفع فى حماس مبينا أخطاء الملك ،

وجرائمه ، حتى يطمئن الينا .. ويتكلم ..

وفعلا شعرت أن نظراته قد تغيرت .. وبدأ يتكلم بصراحة أكثر كثيرا ..

كان يحاول أن يعرف مني تفاصيل كاملة عن عدد الضباط ومدى استعدادهم ، وحقيقة الثورة الكامنة فى داخل الجيش

ثم ترك موضوع الضباط ، وراح يتكلم فى السياسة المصرية والاحزاب ، والوطنية والسياسيين ..

وفجأة .. اعتدل فى جلسته ، وسألنى سؤالا .. لم اكن قد أعددت نفسي للاجابة عليه بحال من الاحوال ..

كان سؤالا ماكرا فى صيغته .. وفى طريقة المفاجأة التى وجهه بها الى ، فؤاد سراج الدين



مارس ١٩٥٢
وموعد الثورة

- أوشكنا أن نقوم بالثورة فى مارس سنة ١٩٥٢
- فاروق يحاول مغادرة البلاد بعد حريق القاهرة
- سراج الدين يستدرجنا ليصبح وزيرا للحربية
- حيدر وطه حسين ..
- ١٢ شيشكلى ..
- اللعب على الحبلين

ان المقابلة التى تمت بين فؤاد سراج الدين « باشا » وبين البكباشي أحمد أنور فى أواخر ديسمبر من عام ١٩٥١ ، والتى تركنا لاحمد انور تسجيلها فى صفحتنا الاخيرة من هذه الصفحات ، كانت من أهم المقابلات التى تمت قبيل ظهور حركة الجيش ..

ولم تكن أهميتها عندنا ناجمة عن شعور منا بأهمية معاونة الوفد لنا فى حركتنا فقد كنا منذ مدة طويلة قد قررنا نهائيا أن ينفرد الجيش بالحركة دون تعاون مع أية هيئة سياسية او غير سياسية خارج نطاقه .. ولكن هذه الاهمية جاءت من شعورنا بوجوب اكتشاف كل شبر من الارض التى نمشى عليها ، قبل أن نقدم على خطوتنا

لقد كان جمال عبد الناصر قليل الامل فى امكان قبول الوفد لما نعرضه عليه .. ولكن هذا لم يمنعه من السعى الى الوفد هذا السعى الحميد .. ولو أن الوفد قبل أن يكون الشرارة التى تطلق الثورة ، لتغيرت ملامح كثيرة من تاريخ مصر الحديث .. ولكنه لم يقبل .. وسأترك للبكباشي احمد أنور اتمام حديثه الذى نشرنا بدايته فى الفصل السابق ليعرف القراء كيف كان تخاذل الوفد عن المضى فى الطريق الوحيد الذى كان يجب أن يمضى فيه .. وكيف أثر هذا التخاذل فى الاحداث المتلاحقة التى شاهدتها مصر فى مطلع عام ١٩٥٢ .. والتى انتهت بظهور الثورة ، وانتهاء عهد الفساد ..

قال البكباشي أحمد أنور ..

كنت قد مهدت الجو تماما لكى يشعر فؤاد سراج الدين بملء الثقة فى شخصى فيتكلم ويفصح ، ولا يخشى أن تكون هناك دسيسة او مكيدة قد دبرت له

وكان فؤاد سراج الدين قد بدأ يشعرني بأني أصبحت فعلا موضع ثقته .. وأخذ يتكلم بصراحة وحرية فى موضوعات سياسية ووطنية محاولا ايهامى بأنه يذكر لى أسرارا خطيرة لا ينبغى أن تذكر الا لمن يكونون فى الموضع الاول من ثقة الرجل فيه ..

وفجأة سألنى السؤال الذى لم أكن قد توقعت أن يوجه الى ولا أعددت نفسى للاجابة عليه

قال لى فؤاد سراج الدين فى بساطة :

ـ مين تفتكر يصلح لقيادة الجيش ؟

قال : قيادة الجيش .. ولم يقل قيادة الحركة .. وقالها فى بساطة لا مثيل لها وكأنه يسأل عن الصحة أو يتحدث عن حالة الطقس

ولم افهم أنا مغزى سؤاله الا بعد انصرافى من منزله عندما جلست أستعيد ما دار فى الجلسة حرفا حرفا لكى أقدم به تقريرى الى البكباشى جمال عبد الناصر .. فقد أدركت عندئذ من وضع أسئلته المتناثرة سؤالا الى جوار الآخر انه لم يكن يسألنى مجرد سؤال برىء عمن أظنه أصلح من الفريق حيدر باشا لقيادة الجيش وانما كان يقصد تماما الى معرفة رئيس حركة الضباط الاحرار

أدركت هذا بعد خروجى من منزل سراج الدين.. وحمدت الله عند ذلك كثيرا .. فعلى الرغم من مفاجأته لى بهذا السؤال وعلى الرغم من جو الثقة الذى كان قد سيطر على الجلسة ، وعلى الرغم من اللهجة البسيطة التى القى بها سؤاله فقد سيطر على ــ دون أن أدرى لذلك سببا ــ الحذر الطبيعى الذى كنا قد تعلمناه فى الفترة السابقة من الاعداد للحركة وكنت بالطبع فى مأزق ، فلابد لى ان أجيب .. والا فقدت ثقة الرجل التى أجهدت نفسى فى اكتسابها .. ولم يكن ممكنا أن أجيب لان شخص القائد كان لا بد أن يظل سرا حيث لا يعلم به أحد ..

ووجدت نفسي أختار اسم رجل بعيد كل البعد عن حركتنا رجل لا صلة له مطلقا بالضباط الاحرار ولا بتشكيلاتهم ولكنه فى الوقت نفسه شخصية يمكن اذا ذكرت ألا يقابل ذكرها فى هذا المقام بأى قدر من الارتياب ..

وقلت له وكان ذلك بعد لحظات قصيرة جدا من سؤاله :

ـ أعتقـــد أن اللواء سيف اليزل هو الذى يصلح اليوم لقيادة الجيش ..

وهز سراج الدين رأسه وقال لى :

ـ اختيار موفق

ولم أفهم مغزى هذه الكلمة أيضــا ، فقد كنت لا أزال مأخوذا بالمأزق الذى وجدت فيه ..

ويبدو أن سراج الدين قد سره أن عرف منى اسم « قائد حركة الضــباط الاحرار » وأراد أن يصل عن طريقى الى معلومات أخرى أعم وأشمل .. ولكنه كان فى كل كلمــة حريصا وكان لا يسأل سؤاله الا بعد أن يمهد له كثيرا ..

هذا كله أدركته بعد انصرافى من منزله اما أثناء وجودى فقد كنت أحاول فقط ان أجيب على أسئلته وأن أعرف منه رأيه فيما جئت أعرضه عليه ..

حيدر وطه حسين !

وبدأ سراج الدين تمهيده الطويل الثانى بالحـــديث عن الفريق حيدر باشا

وكان طرق هذا الموضوع أمرا طبيعيا ما دمت قد حددت له اسم القائد الجديد ..

فأخذ يتحدث عن انتخابات النادى الاولى ، ثم قال :

ـ انتم خذلتمونا فى مسألة حيدر ..

وكانت الحكومة قد قبلت استقالة حيدر باشا من قيادة الجيش على أثر التحقيقات التى أجريت فى قضية الاسلحة

الفاسدة ، ولكن الملك أعاده بعد ذلك رغم ارادة الحكومة
وقال سراج الدين :
ـ لقد قلنا للملك ان اعادة حيدر ستؤدى الى كارثة وأن الضباط جميعا سيثورون .. ولكنه عندما أعاده . ثم ندبه عنه فى حضور حفلة نادى الضباط ، صفق له الضباط طويلا فى حضور وزير الحربية الوفدى ، مصـــطفى نصرت ـ مما أوجد الوزير فى حرج شديد ، وشلنا فى موقفنا من الملك شللا كاملا
وكانت هذه القصة قد وقعت بالفعل وكان تصفيق الضباط لحيدر هو أكبر لطمة وجهت الى حكومة الوفد وأضعفت موقفها
وأردت أن أطمئن سراج الدين ، بافهامه أن ما حدث لايعبر مطلقا عن رأى الجيش .. وأن هذه المظاهرة قد افتعلها عدد معين من الضباط .. ثم قلت له :
ـ اننا لو أتينا بطه حسين وعيناه قائدا عاما لكان أحسن كثيرا فى منصبه من الفريق حيدر باشا
ورأيت فؤاد سراج الدين يبتسم . فاستطردت قائلا :
ـ لأنه ـ على الاقل ـ يفهم فى السياسة ..
وضحك سراج الدين ثم قال :
ـ على كل حال انتم صفقتم لحيدر .. وأحرجتمونا ..
وفى الحال ، قال لى :
ـ هل سمعتم عن اتجاه النيـــــة الى التخلص من بعض الضباط ؟
وكنا على علم بذلك فعلا فقد كانت هناك قائمة قد أعدت لطرد عدد من ضباط الجيش وكانت هذه القائمة تتضمن أسماء سبعة ضباط من تشكيلنا

١٢ شيشكلى

وقلت له : لقد سمعنا أن الملك قال لحيدر بغضب « ازاى

تسيب ١٢ شيشكلى قاعدين فى الجيش ؟! »

وطرب سراج الدين لهذه الاجابة .. ثم سألنى :

ـ زى مين

ولما وجدنى تلكأت فى الاجابة .. استطرد هو قائلا :

ـ انك تستطيع اذا عرفت الاسماء وكانت تهمكم أن تبلغنى شخصيا بما تعرف .. فقد أستطيع أن أكون مفيدا !

وكنا نحن نعلم أن هناك مباراة بين الوفد وبين الملك فى السيطرة على الجيش .. وكان فؤاد سراج الدين يريد ان يعرف ما لدى من معلومات لكى يشعر الملك بأنه على علم بكل شىء ثم يستغل هذا فى الوصول الى هدفه الذى سعى اليه كثيرا ..وهو أن يكون وزيرا للحربية ..فقد كان همه فى تلك الايام أن يقنع الملك بأنه اذا أصبح وزيرا للحربية لاستطاع ان يسيطر على الجيش تمام السيطرة ..

من أنتم ؟!

وعاد سراج الدين يؤكد لى استعداده لكى يكون مفيدا لنا اذا عرف منى أسماء من يهمنا أمرهم ..

ولكنى فى هذه اللحظة كنت حاسما فقلت له على الفور :

ـ أرجو الا تهتم معاليك كثيرا بالاسماء .. ويكفى أن تتأكد من وجود قوة مخلصة كافية داخل الجيش .. وانك انت تستطيع أن تعتمد علينا وان تجدنا فى أى وقت اذا أردت منا مساهمة فعلية فى شد ازركم تجاه الملك ، فى أية خطوة دستورية أو وطنية تريدون اتخاذها

وأطرق سراج الدين .. ثم قال :

ـ يعنى ؟!

فأجبته :

ـ يعنى اننا نريد منكم بصراحة أن تتخذوا موقفا وطنيا شديداً من الملك

فقـــال :

ــ واذا أقالنا الملك ؟!

قلت له :

ــ تتمسكون بمراكزكم وتتركون الباقى لنا .. فالجيش كله على استعداد للوقوف الى جانبكم فى هذه الحالة وقوفا قويا فعالا مؤازرا ...

وابتسم سراج الدين وهو مطرق .. ثم قال :

ــ ربنا يسهل .. وان كان رأيى الصريح هو ان الجيش يجب أن يلزم شئونه الخاصة

وانتهت المقـــابلة بذلك .. وتوجهت الى البكباشى جمال عبد الناصر ، فرويت له كل تفاصيلها ..

اللعب على الحبلين

ولنعد الى حديث الحركة .. فقد درسنا موقف الوفــد بعد ذلك على ضوء هذه الاجابة الواضحة من سراج الدين .. وعلمنا بوسائلنا الخاصة أن سراج الدين قد اخفى نبـأ هذه المقابلة عن جميع وزراء الوفــد فى ذلك الوقت .. وانه أراد ان يبقى امرها سرا بينه وبيننا .. وبين مصطفى النحاس

والواقع أن هذا الموقف من الوفد قــد أثر تأثيرا كبيرا فى الايام التى تلت ذلك ..

فقد كانت حوادث القنال تتفاقم يوما بعــد يوم .. وكان شباب مصر يقوم بأعمال عظيمة وهو أعزل من كل سلاح الا وطنيته وايمانه ، وكان رجال البوليس يتحملون العبء الاكبر من أعباء الجهاد ضد جيش كبير كامل التسلح .. وكان الموقف يفلت من يد حكومة الوفد يوما بعد يوم .. لمحاولتها السير فى اتجاهين واللعب على حبلين فى وقت واحد ..

فقد كانت تساير الملك ، وتعبىء الشعب .. والملك خائف من الشعب متآمر عليه ، والشعب حانق على الملك ثائر عليه

.. والحكومة تريد أن تسير فى هذين الاتجاهين المتناقضين

ولم يكن لنا بد من الانتظار ، لان هذه الحكومة لا تريد ان تقف الموقف الحازم الذى يمكننا من التدخل واقرار الامور ، وايقاف الملك عند حده ، أو الاطاحة به . والسير بالكفاح فى طريقه القويم

وفجأة تغيرت الظروف جميعا بالمؤامرة الكبرى .. حريق القاهرة ..

حدث هذا الحريق الذى أكل اقتصاديات البلاد ، واطاح بسمعتها ومكن للقوى الرجعية من الانتكاس بانتفاضتها فى لحظة واحدة .. دون انتظار ولا توقع من أحد ..

وكيف كان لنا ان نتوقع حادثا كهذا ..

لقد فوجئنا به ... واعترانا الوجوم أياما ... ثم بدأت جميع حواسنا المعنوية والمادية تعمل معا ، بصورة لم يسبق لها مثيل فى تشكيلنا ...

كنا نريد أن نتبين الطريق ، وان نعرف كيف نضرب ضربتنا ، بعد وقوع هذا الحادث وما تبعه من سوء الموقف الدولى لمصر ، ومن خراب اقتصادى ، وذهول شعبى ، وانتكاس كامل ، وسيطرت الرجعية بصورة لامثيل لها على كل مرافق البلاد ...

وبدأنا نلاحظ ونراقب ...

فاروق ينتابه الذعر

وكان أول ما استقرت عنده أفكارنا فترة معينة هو ذلك الذعر الذى انتاب فاروق ، عقب الحادث مباشرة .. والتفكير المضطرب الذى كان ينساق به فى الصباح الى غير ماينساق به فى المساء

لقد ذعر فاروق ذعرا شديدا .. وفكر فى الهرب من البلاد ، وأعد نفسه للسفر فعلا .. ووجدنا نحن أنفسنا فى

موقف من يجب أن يعد نفســه للعمل فى أية لحظة ، ومهما كانت الظروف والعقبات

سنعمل وحدنا

واجتمعنا ، وحددنا موعدا تقريبيا لحركتنا شــهر مارس ١٩٥٢ ، أى بعد أيام قليلة من موعد ذلك الاجتماع ..ووضعنا خطتنا كاملة .. وكنا قد راعينا فيها الاســاس الاول الذى اتفقنا عليه من بدء التــدابير الاولى للحركة ، وهو أن ينفرد الجيش بهــذه الحركة انفرادا كاملا ، دون الاعتمــاد على أية هيئة أو جماعة أو حزب فقد كانت اتصالات جمال عبدالناصر المتعددة مع جميع الهيئات ، قد أثبتت لنا بصورة قاطعة انه لاتوجد هيئة واحدة على استعداد للقيــام بأى عمل جــدى الى جانبنا ..

واتخذنا هذا الموقف لاكثر من أسبوع .. موقف التأهب الـكامل للقيام بالحركة فى أى وقت ..

ولــكن الاسبوع الذى مر بعد ذلك جدد أحداثا جديدة فى حياة البلاد ..

فقد أقيلت وزارة على ماهر .. أو استقالت مرغمة .. وجاء شهر مارس بوزارة الهلالى ، وبأسلوب جديد.. وهدأت مخاوف فاروق ، وقرر البقاء فى البلاد ..ووجدنا أن فرصتنا تــكون أكبر اذا انتظرنا قليلا حتى تتكشف الامور ، ويفيق الشعب من ذهوله الذى أوجدته الاحداث فيه

وهكذا قررنا تأجيل موعد الحركة الذى كنا قد حددنا له شهر مارس .. وكان هذا هو التأجيل الاخير ..

الثورة ليلة التنفيذ

- كمال الدين حسين يخرج بلا سلاح ..؟
- لماذا عينا رشاد مهنا وزيرا ووصيا على العرش
- مثل للسياسيين
- الخطأ الوحيد
- يوم مجيد ..
- ذكريات خالدة ..

كانت اللحظة الحاسمة تقترب بسرعة عظيمة .. وكانت هذه السرعة فى حد ذاتها خطرا مباشرا على كل من له صلة بمسرح الاحداث .. فالحوادث عندما تسرع وتتلاحق ، يخشى أن ينقلب زمامها ، بحيث تتحكم هى فى الذين يصنعونها ..

والحوادث أيضا عندما تسرع وتتلاحق ، تكشف مكنونات النفوس وتجلو جواهرها ..

وهكذا كانت أحداث شهر يوليو من عام ١٩٥٢ .. الاحداث التى سبقت يوم الثورة .. كانت سريعة متلاحقة ، وكانت تجرى فى أكثر من اتجاه ، وتجرف أمامها أكثر من تيار ، وتنتاب بدوارها كل الرؤوس ..

كان الملك فى حالة أقرب الى الجنون .. فمنذ جاءت نتائج انتخابات النادى تحديا صريحا له ، ومنذ وقف ضباط الجيش فى ناديهم ذلك الموقف المكشوف المعادى للملك ، ومنذ بدت فيهم روح الاستهتار الذى لاحدود له بالعرش ، وبالتالى بكل القوى التى كان العرش يستند اليها .. منذ وقعت كل هذه الاحداث ، والملك لا يقر له قرار ..

ولم يكن تأثير هـــذه الحـــالة فى الملك يقتصر على تصرفاته الشخصية فحسب ، ولا على علاقته بالجيش وقيادة الجيش فحسب ، وانما انعكست هذه الحالة على الموقف السـياسى والموقف الوزارى

فأصبح بقاء الوزير فى وزارته رهنا بما لديه من حلول لهذا الموقف ، أو من آمال فى العثور على الحلول

ولم يكن فى مصر كلها من يستطيع حل ذلك الموقف . ولذلك لم يكن وزير يبقى فى منصبه ..

وفى هذه الدوامة الصاخبة ، كانت قيادتنا تعمل فى صمت وهدوء وصبر واتزان .. كانت تعد لليوم الذى عرفه العالم كله، وسجله التاريخ .. يوم الثورة ..

يوم الثورة ..

والايام التى سبقت يوم الثورة ..

قد لايكون مما يهم قراء هذه الصفحات أن أذكر لهم تفاصيل الخطة التنفيذية للثورة .. فهى تفاصيل عسكرية ، كأى خطة عسكرية بسيطة توضع لاحتلال مدينة ، أو اقرار وضع

ولكن ما قبل ذلك اليوم وما بعده يهم كثيرا ..

وملابسات التنفيذ فى تلك الليلة تهم ايضا كثيرا ..

لان ما مر بنا فى تلك الأيام ، وما مر بنا فى تلك الليلة بالذات ، هو التاريخ الحقيقى للناس وللشعب ، وللاوضاع التى سيطرت على البلاد حقبة طويلة من الزمن ..

لكأن السنين جميعا كانت ترسب رواسبها مصفات الزمن ، لتتراكم هذه الرواسب كلها فى فترة قصيرة .. هى تلك التى سبقت يوم ٢٣ يوليو ..

وكان صراع الشعب وآماله قد تجمعت أيضا خلال الاعوام الطويلة الكئيبة ، لكى تقود خطى الجيش والشعب فى ذلك اليوم التاريخى المجيد

وفى خلال كل ذلك تقع مفـــارقات ، وحوادث صـــغيرة ، وتصرفات شخصية ، قد نذكرها اليـوم فنبتسم ونضحك ، ونحمد الله .. ولكنها حين كانت تقع كانت تؤرق البال .. حتى تنتهى !

مع القصر وجها لوجه

ولقد كان القصر فى تلك الايام لايزال شاكا فى قدرتنا على القيام بحركة كاملة .. ولكنه كان يريد أن يبطش بنا ، استعادة

لمكانته التى رأى أنها اهتزت اهتزازا شديداً . وقطعا للطـــريق علينا ، لانه كان يعتقد أننا وان كنا أضعف من أن نقوم بحركة كاملة ، فنحن على كل حال نستطيع أن نكون التمهيـــد الاول للحركة الكاملة . .

كان هو يعتقد هذا . . وكنا نحن نغذى فيه ذلك الاعتقاد بالاساليب الكثيرة التى اتخذناها ، لتضليله وتضليل رجاله فى القصر ، وفى الجيش . .

ولذلك كان يريد أن يفتك بنا ، وكان يدبر لهذا الفتك . . فى نفس الوقت الذى كنا نحن قد فرغنا تماما من وضع الخطة الحاسمة ، للفتك به ، بعرشه وحكم أسرته للبلاد . .

ماذا بعد الثورة

كنا قد انتهينا من ذلك تماما . . وكنا لهذا قد بدأنا نفكر فيما بعد الثورة أيضا . . وكنا أيضا قد انتهينا الى قرار . .

ففيما يتعلق بالثورة نفسها ، وبتنفيذ خطتنا ، كان قرارنا هو أن ينفرد الجيش بكل شيء . . فقد قام جمال باتصالات كافية مع جميع الهيئات التى كان يمكن أن تكون عاملا مساعدا فى الثورة ، واذا بالنتيجة الوحيدة التى يخرج بها ، هى أن الجيش يجب أن يتحمل وحده جميع أعباء التنفيذ . لان جميع الهيئات والاحزاب التى اتصل بها ، قد أثبتت أنها غير جديرة بالثورة ، ولا مستعدة لعمل أى شيء ، بل لعل ما فيها من رجعية أصيلة كان وحده خليقا بدفعها الى خيانة الثورة ، لو أنهـــا استطاعت الى ذلك سبيلا . .

ومع ذلك فقد بقي علينا أن نفكر فيما بعد الثورة . . فيما يخلف التنفيذ . . ماذا نصنع ؟

هل نحكم ؟

هل نسلم الامر للشعب يصرفه كيف يشاء ؟

ومن الذى يتحمل مسئولية الحكم عندما نترك الامر للشعب، ريثما يختار الشعب ممثليه ؟

سؤال يقضى على السؤال الاول قضاء مبرما ؟

فهل نسلم الامر للسياسيين ..؟

واى السياسيين جدير بقيادة البلاد بعد الثورة ؟

وعلى اى أساس يحكمون ؟

وجعلنا نقلب الامور .. نضع كل فرض ثم ندور حوله ، نتلمس أوجه القوة فيه وأوجه الضعف ..

وينهار الفرض الاول ، فنبحث عن الفرض الثانى ..

وهكذا دراسة طويلة خرجنا منها بنتيجة واحدة هى :

ان الجيش لايحكم ، وانما يقوم بالثورة ، ثم يسلم البلاد للمدنيين فى اللحظة التى يفرغ فيها من عمله الكبير ..

أما كيف .. وأى أنواع المدنيين .. فلم نستطع ان نقرر شيئا محددا معينا .. وانما اكتفينا بأن نقرر مبدئيا ، اعادة البرلمان المحلول ، وكان هو نفس برلمان سنة ١٩٥٠ ، الذى جاء بأغلبية وفدية ، وترك الحكم لحزب الاغلبية يصرفه ريثما تجرى أول انتخابات نظيفة فى مصر ..

مثل السياسيين

هذا هو القرار الذى استرحنا اليه ، وشعرنا حياله بالعزة الكاملة ، وروعة المثل الاعلى ..

أليست ثورة على الاوضاع القديمة كلها ..

فماذا كان الطابع المميز للاوضاع القديمة ؟

كان شيئا واحدا ظاهرا .. الجهاد فى سبيل الحكم، لاالجهاد فى سبيل المثل العليا ، أو فى سبيل الصالح العام ..

الاحزاب كانت هكذا ..

والهيئات كانت هكذا ..

والمستقلون والافراد كانوا هكذا ..

كل كان يسعى الى الحكم ، ليحقق به مصالح شخصية وحزبية . وكل كان يجعل الصالح العام فى المرتبة الثانية على أقل تقدير ..

ولذلك أردنا أن نضرب للشعب مثلا جديدا ، أردنا أن نقدم له صورة جديدة يرى فيها وجوه أبنائه المخلصين ، لا وجوه حكامه المفسدين ..

أردنا أن نقول له ، لقد أنجبت أفرادا يستطيعون أن يكافحوا فى سبيلك لافى سبيل انفسهم .. وأن يصلوا الى الحكم فى سبيلك لافى سبيل أنفسهم .. ولكنهم لايحكمون .. لايحكمون لانهم ـ حقيقة ـ لم يعملوا فى سبيل الحكم ، ولكن عملوا فى سبيلك ، ولك أنت وحدك بعد ذلك أن تحكم ، وأن تختار ما يحكمون

لم يكن أحد يترك الحكم مختارا .. فأردنا أن نتركه مختارين .. أن نتركه والشعب يدمى أيديه تصفيقا لنا ، ودفعا بنا الى مقاعد الحكم .. أن نتركه وقد حققنا الامنية الاولى لكل مصرى عاش فى خلال القرن الاخير .. أمنية الخلاص من حكم أسرة محمد على وملوك أسرة محمد على

أردنا أن نضرب مثلا للسياسيين .. مثلا يقنعهم بالدليل الواقعى القاطع ، بأن الوضع كله قد تغير .. تغير من أساسه الى الحد الذى أصبح الحاكم يترك الحكم فيه فى يوم نصره الكبير

اردنا ان نقول له ، لقد أنجبت أفرادا يستطيعون أن يكافحوا فى سبيلك ، ما دام الحاكم لا يقصد به الا مصلحة الوطن ، واننا لذلك نترك الحكم ، أو نترفع عنه .. نأباه لانفسنا لاننا لا نريد أن نحكم ، وانما نريد لمصر ان تحكم حكما صالحا .. وأن نكون نحن بعض جنود هذا الحكم الصالح النزيه

واعتقدنا أننا اذا فعلنا ذلك ، فقد قضينا على كل أمل

السياسيين فى أن ينظروا الى الحكم كوسيلة للكسب أو الاثراء أو استغلال النفوذ .. فان وضع المثل الصالح أمام أعينهم كفيل بدفعهم الى احتذائه أو التمثيل به

الخطأ الوحيد

وكم كنا طيبين بسطاء .. وكم كنا متفائلين

لقد قدرنا كل شىء من أعمالنا العسكرية ، فأحسنا التقدير ولم نخطىء مرة واحدة

ولكننا قدرنا فى هذه المرة ، فأخفقنا الواقع .. وغلب فينا التفاؤل على ادارك حقيقة الواقع ..

عندما نصل الى الحديث عما تلا الثورة من الاحداث :سيأتى تفصيل الامر كاملا .. وسيعرف الناس لماذا حكم على ماهر شهرا ، ولماذا تولينا الحكم ، وكيف أردنا أن نعيد البرلمان القديم ، وكيف قررنا اجراء الانتخابات العامة فى فبراير ١٩٥٣ ، أى بعد ستة أشهر فقط من الثورة ..

كنا نريد أن نغلب الواقع الكريه على أمره .. كنا نريد أن ننتصر على كل شىء حتى على خبث النفوس ..

ولكن اخيرا .. وضح لنا أن المستحيل له وجود .. وأن نابليون لم يكن على حق ابدا

ولكن هذا سنتركه اليوم .. نتركه كما تركناه يوم فكرنا فيه ، ثم لم نكد نستقر على رأى ، حتى أدرنا عيوننا وجهة اخرى .. بدأنا نعد للتنفيذ ، ونرقب الاحداث ..

يوم مجيد

وجاء يوم ٢٣ يوليو ، ليظهر لنا أشياء كثيرة .. ليظهر لنا أن تقديراتنا كانت صحيحة تماما .. وأن الله كان برقب حركتنا ، ويقدر لها معنا كل مايكفل لها النجاح .. وان الشعب كان كله

فى انتظار القيادة التى تقوده الى النصر .. فينتصر ..

ولعلى لست مستطيعا أن أؤرخ تاريخ شاهد العيان للايام التى سبقت ٢٣ يوليو مباشرة .. فقد كنت اذ ذاك فى رفح .. وعندما وصلنى الامر من جمال بالعودة ، عدت مباشرة ، ولكنى لم أكن أفطن أن الحركة مدبرة فى الليلة نفسها .. ولعل القراء يدهشون اذ أروى لهم انى جئت من السفر ، وتوجهت مباشرة الى احدى دور السينما .. فما أن عدت فى منتصف الليل الى منزلى ، حتى وجدت أشارة التنفيذ ، فلم ألبث لحظة واحدة ، وانما مضيت من فورى الى القيادة

وهناك أصبحت نكتة تروى ، ونادرة يتندر بها الزملاء ..

فما أن يسأل واحد منهم فى أى اجتماعاتنا ــ حتى اليوم ـ أين أنور ، حتى يجد من يجيب : فى السينما ..

ولذلك اقتصر على ما رأيته ، وما شاركت فيه قبيل الحركة واثناءها ..

تهديد نجيب

ولعل أخطر ما مر بنا قبيل الحركة ، هى المحاولة الاخيرة من القصر ، التى انتهت بقرار حل مجلس ادارة النادى ..

فقد أرسل القصر الى نجيب تهديدات كثيرة بنقله من القاهرة .. وكان مغزى هذا النقل ، هو اجباره على الاستقالة ، أودفعه اليها .. كما وجد من رؤساء الوزارات من حاول ان يغريه بكرسى الوزير ، وكان علينا أن نحافظ على بقائه ضابطا معنا ، بعد أن استقر رأينا على تكليفه بقيادة الثورة

واجتمعنا فى تلك الايام ، وبحثنا الامر ، ثم توجه جمال الى نجيب ، وطلب منه ألا يستقيل ابدا مهما هددوه ومهما صنعوا به ، وان يعمل على المحافظة على نفسه ، وعلى مركزه فى الجيش ، بأى ثمن وبأية وسيلة .. وطلب منه طبعا فى حالة عرض الوزارة عليه أن يرفضها ..

ووافق نجيب على ذلك .. وفعلا لم يخضع لعوامل التهديد، ولا لعوامل الاغراء ، ولم يقبل شيئا مطلقا ..

وكان لهذا الرفض طبعا عواقبه .. اذ ترتب عليه صدور القرار بحل مجلس ادارة النادى ، وأن يقوم محمد نجيب بتسليم النادى لاخيه ، اللواء على نجيب .. على أن يتكون للنادى بعد ذلك مجلس ادارة مؤقت ..

وهذه طبعا كانت الشرارة المباشرة المؤذنة بالحركة ..

ذكريات

وفى يوم الحركة ، لكل منا ذكريات .. وذكريات ..

فى ذلك اليوم نفسه ، كان جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين ـ مثلا ـ لا يزالان يقومان بالتدريس فى كلية اركان الحرب فعلا .. ولم يبد عليهما للضباط اى شىء .. رغم أن خطة تنفيذ الحركة نفسها كانت مستقرة مطمئنة فى جيب سترة جمال ..

ويذكر كمال الدين حسين ، انه فى نفس يوم ٢٢ يوليو ظهرا، كان يناقش بعض طلبة الكلية .. واخذ الطلبة يسألونه أسئلة ، واذا به يذكر أن هناك واجبا عليه ، أهم من مناقشة الطلبة ، والاجابة على أسئلتهم فى ذلك اليوم فأخذ يتهرب من أجاباتهم ، و «يكلفت» الشرح «كلفتة» ظاهرة ، وطلبته فى اندهاش .. لان الذين يعرفون كمال يعرفون مدى دقته واخلاصه لعمله وعنايته فيه بكل صغيرة وكبيرة ..

ولكن هؤلاء الطلاب ، رأوا كمال بعد الحركة لكى يحاسبوه على هذه «الكلفتة» التى لم تغب عنهم ، والتى لم يكونوا يدركون فى ظهر ذلك اليوم السبب فيها .. وكانوا يستغربون ..

ولا يكاد كمال يذكر هذه القصة ، حتى يذكر كيف خرج لاداء واجبه فى تلك الليلة .. وليس معه سلاح .. فهو يروى انه اتفق مع جمال على أن يزوده ببعض الاسلحة ليخرج بها

هو ورجاله .. وتأتى ساعة التنفيذ ، فيفاجأ كمال ، بأن حمالا لن يستطيع تزويده بالاسلحة لان المخزن الذى كان مسفقا على أخذ السلاح منه كان مغلقا ..

وقال كمال الدين حسين.. توكلت على الله وأخذت رجالى معى ، وليس معهم جميعا سوى طبنجة واحدة .. ومضوا الى سلاح المدفعية .. سلاح كمال .. ومن هناك أخذ كل ضابط سلاحه ، وخرجوا الى عمليتهم ..

ومثل هذه الذكريات يذكرها الآخرون ..

يذكر جمال سالم وصلاح سالم ذكريات من رفح ومن العريش ..

موقف رشاد

فقد كان جمال فى العريش ، وكان صلاح فى رفح .. والى كليهما وكلت عمليات الثورة فى ذلك القطاع ..

وكان ادق ما يواجههم هناك ، هو وجود رشاد مهنا ، الذى كان بالعريش ، ولم يكن على علم بشىء عن الثورة حتى تم تنفيذها فعلا ..

وكان على جمال سالم أن يتولى هو قيادة العملية كلها هناك .. برغم انه طيار ، وأن صلته ليست وثيقة بضباط الجيش بطبيعة الحال ..

ويذكر جمال سالم انه طلب معونة رشاد مهنا ، فرفض أن يذهب فى تلك الليلة ، رفض أن يذهب الى قيادة القوة أو أن يظهر بأى صورة من الصور ..

ولقد كان رشاد مهنا فعلا مشكلة لنا .. فقد كان التشكيل قد قرر عدم تكليفه بأى عمل من أعمال الاحرار .. وكان رشاد نفسه متباعدا نائيا بنفسه عن الشبهات ، ولكنه مع ذلك ، كان قد اقنع عددا كبيرا من ضباط المدفعية ، بأنه وراء كل اصلاح يجرى فى داخل الجيش ، وكان قد كسب بذلك ثقتهم .. ولذلك

لم يكن سهلا علينا أن ننزع هذه الثقة ، لان ظروف الثورة نفسها لم تكن تحتمل مجادلات ، وكان هذا يعنى أن نحافظ على صلتنا برشاد ، ودية سليمة ، محافظة منا على القوة التى كانت تؤمن به ، وتثق فيه ..

وجاء .. فى موكب

وعندمانجحت الثورة فى القاهرة ، أصدرت قيادتنا أوامرها الى رشاد بأن يبقى فى العريش وأن يقوم بقيادة الفرقة هناك ..

ولكن رشاد لم يخضع لهذا الامر .. بل عاد الى القاهرة فى يوم ٢٥ يوليه ، ودخل الى القيـــادة فى موكب من الضبـــاط والحرس ، ثم سافر الى الاســـكندرية ، ليحضر خروج الملك باعتباره مشتركا فى العملية وفى قيادتها ..

وأتقن رشاد دوره حتى ظن أكثر الضباط انه عمود كبير جدا من أعمدة الثورة ، وذهبوا يرددون ما كان يختلقه لنفسه من ادوار وهمية عظيمة ..

ولا شك أن هذا التصرف قد أثر فينا فى ذلك اليوم ، ولكن المهم هو أن تنجح الثورة فقط

.. أما جمال ، فقد دعا اليه رشاد ، وكلمه على انفراد ، ولامه كثيرا على هذا التصرف ، حتى اعتذر رشاد .. وبكى ..

وعيناه وصيا

وعند خروج الملك ،وبحث مسألة الوصاية قررنا تعيين رشاد مهنا وصيا على العرش .. وكانت أسباب هذا التعيين هى : أولا تعيين أحد الضباط وصيا على ألا يكون هذا الضابط من أعضاء مجلس القيادة حتى نحتفظ بجماعتنا كاملة داخل المجلس .. وثانيا لان رشاد كان بطبعه يحب المظهر الكبير ،وكان هذا المنصب كفيلا بارضاء نزعاته ..

وفعلا ، عينا رشاد وزيرا للمواصلات تمهيدا لتعيينه وصيا ..

وذهب جمال سالم اليه ليبلغه بذلك .. فاذا به ـ أي رشاد ـ يبكي وينتحب .. ويقول وهو يشرق الدموع .. أنا لا استحق كل هذا .. أنا منذ الآن ، خادم المجلس .. وخادم الثورة ..

قال هذا .. ولكن

ولكن بينما كانت جماهير الشعب كلها تهتف بحياة الثورة ، وبينما انطلقت أصواتها الحبيسة تطالب بالاصلاح ، وتعلن عن فهمها لحقيقة الثورة الكبيرة ، وانها لا يمكن أن تكون مجرد عملية لاخراج فاروق .. وبينما كان الكادحون يبثون آلامهم للقادة ، والقادة يعلنون آمالهم للشعب .. كان رشاد مهنا ، وطعمة الاقطاعيين والسياسيين ، قد بدأوا في نفس الوقت يتآمرون على الثورة .. وعلى حقوق الشعب ..

لقد نجحت الثورة .. ولهم هم أن يكسبوا مغانمها .. أليس لكل شيء ناجح ارباح ، والم يكونوا هم وحدهم الذين يستولون على الارباح دون الشعب ؟..

وهذه قصة بدأنا بها المذكرات .. ولا بأس من أن نختمها بها أيضا ...



فهرس

صفحة

صفحة



وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL.

هـذا الكتاب

في الشهر الماضي أصدرت سلسلة كتاب الهلال « قصة الثورة كاملة » فكشفت عن الاحـداث الخطيرة التي وقعت منذ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

واليوم تنشر سلسلة كتاب الهلال هذا الكتاب النفيس عن « أسرار الثـورة المصرية » بقلم القائمقام أنور السادات ، وذلك بمناسبة مرور خمسة أعوام على قيام الثورة المصرية

وقد تناول هـذا الكتاب العوامل الحقيقية والاسرار الخفية التي رسبت في نفوس المصريين حقبا من الزمن ، ثم حركت كامن وطنيتهم ، وألهبت الثورة في صدورهم ، وأوقدت الشعور حتى استفاض وانطلق في قوة يحطم الملكية ، والاقطاع والاستعمار

« فهذا الكتاب ـ كما يقول الرئيس جمال عبد الناصر ـ خلاصة البواعث الخفية والاسباب السيكولوجية لثورتنا السلمية »

انه ليس مجرد كتاب أحداث وأسرار فحسب ، ولكنه سجل لتاريخ حقبة من الزمن ، كان لها خطرها ، وكانت لها عواقبها ، فكان من أثر حوادثها تلك الثورة السلمية الرائعة التي كان لها الاثر الخطير ، في مصر وفي العالم

كتاب الهلال

عصفور من الشرق

تأليف

توفيق الحكيم

طبعة خاصة مزدانة بالرسوم

سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال





كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٧٧ ـ محرم ١٣٧٧ ـ أغسطس ١٩٥٧

No. 77 — August 1957

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ـ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صـــاغا ـ الامريكتـــين ٥ر٥ دولارات ـ ســـائر أنحاء العـــالم ١٧٠ قرشـــا صـــاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

عصفور من الشرق

تأليف

توفيق الحكيم

طبعة خاصة مزدانة بالرسوم

دار الهلال

الاهـداء

الى

حاميتي الطاهرة

السيدة زينب

مقدمة المؤلف

ظهر كتاب « عصفور من الشرق » منذ نحو عشرين عاما، وما من شك ان كثيرا من الاحداث قد وقعت في العالم خلال تلك الأعوام ، وان كثيرا من الآراء قد تغيرت أو استحدثت، فينبغي ألا يغيب عن ذهن القارىء اليوم أن الصورة التى تعكسها هذه القصة ــ التى ربما كانت أول قصة مصرية تناولت فى ذلك العهد الأفكار والاتجاهات العالمية ــ انما هى صورة العالم بشرقه وغربه فى السنوات التى تلت الحرب الكبرى الأولى مباشرة . فى ذلك الوقت كانت الدنيا تضطرب بأفكار جديدة ، كما كانت تتصادم فيها الاتجاهات المختلفة والعقائد والتقاليد . وكانت أفكار أوروبا تنتقل بسرعة الى الشرق القديم . كما كان الشرق القديم يملأ رأس أوروبا بصور غامضة أحيانا وبمثل روحية أحيانا أخرى . كما كانت التجربة الاشتراكية فى مرحلتها الغامضة أيضا فلم تسفر بعد عن نتائجها ، ولم تستطع أن تدخل الاطمئنان التام حتى على قلب ذلك العامل المقيم فى الغرب

كانت الدنيا مؤرجحة على أشدها بين المادية والمثالية . أما اليوم فان كثيرا من تلك الأفكار قد اتضح ، وكثيرا من

التجارب قد تحقق ، وكثيرا من الاتجاهات قداستقر ، وان كان العالم لم يستقر بعد ولم يهدأ

الى أى حد أستطيع أنا أو يستطيع قارىء اليوم أن يقر الآراء والاتجاهات التى يمثلها أشخاص هذه القصة ؟

هذا ما لا أستطيع أنا شخصيا الاجابة عنه .

ذلك انى اليوم لست طرفا فىالموضوع . وليكن مفهوما أن أشخاص القصة فى ذلك العهـد هم وحدهم المسئولون عن آرائهم تبعا لظروف العالم التى كانت وقتئذ محيطةبهم

ولكن هـذا لا يمنعنى من القـول ان أهـم تلك الآراء والاتجاهات لم يزل الحكم عليـه معلقا . لأن يومه لم يات بعد . فالصراع بين المادية والمثالية لم ينته فى هذا العصر أيضا . ولسنا ندرى الى أى حد تستطيع المادية أن تحقق وحدها سعادة البشرية ؟ وهل المادية الاشتراكية الحديثة تنوى حقا أن تجمد على المبدأ المادى أو انها قد تعدله وتضم اليه المثالية الروحية ؟

ومن يدرى أيضا ؟ ربما اسـتطاعت المادية الجديدة أن تنتصر وحدها وبوسـائلها وأن تنفع البشرية وان تبتـكر نوعا من المثالية أو الروحية ينبع منصميم مبادئها ولاعلاقة له بالمثالية أو الروحية القديمة ؟!

وقد تستطيع المثالية أو الروحية القديمة أن تتجـدد وأن تساير العصور الحديثة وان تفتح لها مرة أخرى آفاقا جديدة بوسائل جديدة .

كل هذا جائز

ولا أحب هنا أن أتنبأ بشىء . وان كان هذا الكتاب قد

سبق أن تنبأ بأمر وتحققت بالفعل نبوءته : فقد جاء فى ختام الفصل الثامن هذه العبارة على لسان أحد أشخاص القصة : « ... انى أتنبأ لك ، منذ الآن ، بوقوع نوع من الحروب الصليبية بين الماركسية والفاشية الخ » ... ووقعت بالفعل الحرب بين روسيا الماركسية وألمانيا الفاشية بعد نشر هذه العبارة بنحو ثلاث أو أربع سنوات !.. بل وقد وصفها بالفعل بعض الساسة فى تلك البلاد بأنها « حرب صليبية » !!!

لا أريد فى هذه المقدمة الوجيزة تنبؤات

ولكنى أكتفى بالقول ان الانسانية كثيرة التقليب والتغيير للمبادىء ، والتعديل والتحوير فى الاتجاهات .

لأن تلك هى طبيعة التطور البشرى .

انه لا يجمد على شىء

توفيق الحكيم



توفيق الحكيم

فى الطريق

الفصل الأول

مطر غزير ، قد الجأ النـــاس الى مظلات المشــــارب والحوانيت، والى الحيطان وأفاريز البيوت، ومداخل المترو .. ولم يبق فى ميدان « الكوميدى فرانسيز » غير مياه تتدفق من الميازيب ، وسيارات تخوض فى شبه عباب

آدمى واحد ثبت لهذا المطر ، وجعل يسير الهوينا ، غير حافل بشىء ، عيناه الواسعتان تتأملان نافورة الميدان، وهى زاخرة بالماء ، وفمه ذو الشفاه العريضة يلوك شيئا كالبلح ، ويلفظ شيئا كالنواة ، ويده اليمنى كالرسول الأمين ــ من جيبه الى فمه ــ تواتيه بالمدد فى غير انقطاع

هذا الآدمى فتى نحيــل الجسم ، أسـود الثياب ، على راسه قبعة سوداء عريضة الاطار ، فى قمتها فجوة غائرة ، كطبق الحساء ، قد امتلأت بماء المطر ! ..

وفرغ الفتى من تأمل النافورة ، فغادرها الىجانب آخر من الميدان ، يقوم فيــه تمثال الشاعر « دى موسيــه » وهو يستوحى عروس الشعر . فوقف الفتى ينظر اليه ــ وقد نقش على قاعدته : « لا شىء يجعلنا عظماء غير الم عظيم ! » ثم تطلع الى وجه الشـاعر ، فالفى قطرات المطر تتســاقط من عينيه كالعبرات ، فتحـرك قلبه ، وسكت فمه !.. ثم همس مرددا كالمخاطب نفسه :

ــ لا شىء يجعلنا عظماء غير الم عظيم !.. نعم !..

ومرت فى رأس الفتى صـــور من ماضى بعيـــد ... ثم همس :

ـ حتى هنا أيضا يعرفون هذا ؟!..

وغرق فى التفكير ، وغرقت قبعته فى الماء ، حتى فاض فسال على وجهه . واذا صوت خلف ظهره يصيح به :

ـ أراهن بمائة فرنك ، أن لا مخلوق يقف هكذا أمام هذا التمثال الا أنت ...

فاستدار الفتى سريعا :

ـ اندريه ؟!..

ـ قبل كل كلام ، انج بى وبنفسك من هذا المطر، ليس هذا وقت النظر الى التماثيل ! ..

ـ بل هذا وقته !.. تأمل يا أندريه !.. هذه الدموع فى عينى الشاعر !..

ـ لو لم يكن هذا الشاعر من رخام ، لولى الساعة هاربا، هو وعروسه ، الى أقرب قهوة ، وتركاك وحـــدك ، وسط هذه المياه !..

ولم ينتظر الفرنسى جوابا من صاحبه ، بل جذبه الى مظلة قهوة « الريجانس » القريبة ، ثم نظر فى وجهه فوجد فمه يتحرك :

ـ عجبا ! ماذا فى فمك ؟..

فلم يجب الفتى . ولفظ من فمه نواة ، وقعت فى الماء الجارى الى « البلاليع » فصاح به أندريه :

ـ تأكل بلحا ؟!..

ـ نعم ، وفى شوارع باريس !..

ـ آه أيها العصفور القادم من الشرق !..

ـ فى مصر نسميه « عجوة » هذا النوع من البلح ..

انى اتخيل نفسى الآن فى ميدان المسجد بحى السيدة زينب ! واتخيل هذه النافورة .. ذلك « السبيل » بنوافذه ذات القضبان النحاسية ..

ـ كفى تخيلا ! تعال .. لقد سكن المطر ..

ـ الى أين ؟..

فلم يجب أندريه ... واخذ ينظر الى ملابس الفتى ، ويتامله ، من قبعته السوداء ، ومعطفه الاسود ، ورباط عنقه الاسود ، الى حذائه الاسود ، ثم قال :

ـ عظيم جدا ..

ـ ما هو العظيم جدا ؟!..

ـ انك الآن خير من يصلح للذهاب ..

ـ الى فاتنتى الجميلة ؟..

ـ بل الى المدافن .. هلم معى ، لتشييع جنـــازة زوج بنت مدام شارل !.. ان عليك « طقم » حداد كامل .. لكانى بك دائما ، على أتم استعداد لمثل هذه الطلبات !.. انه ليسرنى أن أصحب مثلك الى هذه النزهة القصيرة !..

ـ النزهة ؟!

قالها الفتى وهو ينظر الى صاحبه شزرا ، ولكن صاحبه تجاهل النظرة ، وجذبه من يده وقال :

ـ تعال نؤدى معا هذا الواجب ..

ـ نحو من ؟...

ـ نحو الفقيد المرحوم زوج بنت مدام شارل !..

ـ ومن هى أولا مدام شارل ؟..

ـ هى والدة أحد زملائى فى المصنع

ـ وما ذنبى ؟! ..

ـ ذنبك انك صديقى !.. فلتتحمل ما أتحمـــل ...

لاشيء يثقل على نفسى ، مثل المشى صامتا خلف عربات الموتى !.. سنتحدث على الاقل معا فى شئوننا ، بل فى شئونك أنت .. انت .. انى أعدك وعدا صادقا بالحديث طول الوقت ، عن فاتنتك ذات الانف ، الذى تقول انه ـ فى نظرك ـ المثل الاعلى للأنف الجميل .. قلب فى راسك كل الصور والاوضاع ، التى كنت قد تخيلتها للجمال ! ..

ـ نعم ، نعم ! .. لقد كنت أعتبر الجمالَ ...

وانطلق الفتى يتكلم متحمسا .. ولم يفطن الى «أندريه» وقد قاده من ذراعه ، ونزل به الى احدى محطات المترو ، وابتاع له تذكرة فى الدرجة الثانية ، واركبه قطارا مرق بهما فى جوف الارض مروق لسان « محسن » بذلك الحديث اللذيذ . وابتسم أندريه ، آخر الامر فى خبث ، ابتسامة من يقول فى نفسه : « ان معى الآن مفتاح قياده ، فلألوحن له « بها » يتبعنى صاغرا ، بغير أن يشعر ، الى اقاصى الارض !.. »



دقت نواقيس كنيسة «سان جرمان» احتفالا باستقبال الجثمان ، ولم تكن الجنازة قد وصلت بعد ولم يكن بباب الكنيسة أحد غير « محسن » ، فقد تركه « أندريه » عند الباب ، وذهب يشترى مظلة يتقيان بها المطر أثناء السير فى الطريق من الكنيسة الى المقبرة ، وأبطأ أندريه على صديقه ، وبدت طلائع الجنازة ، واشتد دق النواقيس .. ثم فتح باب الكنيسة على مصراعيه ، واقتربت عربة الموتى، تتهادى حاملة التابوت ثاويا تحت باقات الزهر ، وخلفها المشيعون تحت مظلاتهم ، ووقفت العربة ، وحمل التابوت الى داخل الكنيسة ، ومرت أفواج المشيعين بمحسن ، فى ملابسه السوداء الكاملة ، فانحنوا له حاسبين أنه من أهل

الميت الاقربين ! .. هنا ادرك الفتى حرج موقفه ، فأسرع واندس فى فوج الداخلين ، قبل أن تقع عليه أعين أهل الميت الحقيقيين ، والناس تنحنى له فيظنوا بشأنه الظنون

دخل محسن الكنيسة ، ولم يكن قد دخل كنيسة قط، ولا حضر صلاة ميت من أموات النصارى ، ولارأى مايجرى فيها من المراسيم ، ولا ما يتبع من الطقوس ـ فأحس برهبة ، وخيل اليه انه باجتيازه العتبة قد ترك الارض ، وارتقى الى جو آخر ، له عبيره ، وله نوره !.. هنا أيضا عين الخشوع وعين الشعور ، الذى كان يهز نفسه كلمادخل فى القاهرة مسجد السيدة زينب !.. ايضا عين السكون ! وعين الظلام فى الاركان ، وعين النور الضئيل الهائم كالارواح فى جو المكان !.. ان بيت الله هو بيت الله فى كل مكان وكل زمان !..

وضع التابوت فى الصدر ، واضيئت حوله الشموع ، واخذت اصوات الرهبان تعلو ، مرتلة الصلاة على انغام الارغن ، ثم تقدم الناس فى صف طويل نحو التابوت يمرون به ـ الواحد تلو الآخر ـ ينضحونه بماء مقدس من « قمقم » فضى ، ومشى « محسن » فى الصف ذاهلا خائفا أن يحدث صوتا على أرض الكنيسة ، وانتبه قليلا، فرأى القمقم فى أيدى من أمامه فى الصف ، يرسم به الواحد علامة الصليب، وهو ينضح به الميت ، ثم يسلمه فى صمت الى من خلفه ، وراقب الفتى هذا العمل يتكرر أكثر من خمسين مرة ، وهو يحسب ألف حساب لنوبته ، واذهلته الرهبة فما راعه الا والقمقم يسلم اليه ممن امامه فتناوله بيد ترتجف ، ولوح به نحو التابوت ، راسما فى الهواء علامة ، لا يدرى من فرط اضطرابه : أدلت على صليب أم على هلال !.. ثم نضح التابوت على نحو خشى معه أن يكون قد أكثر فبلل الغطاء ، ولكنه فرغ من مهمته على أى حال ، فتنفس الصعداء ، ومد

يده بالقمقم يسلمه الى من يليه ، فلم يجد خلفه أحدا .. كان هو الاخير في الصف .. ياللكارثة !.. ما العمل ؟!.. وحار وارتبك بهذا القمقم في يده ، لا يدرى ما يصنع به ، وقد اشتغل عنه القوم بتعزية أهل الميت الواقفين عند باب الخروج ، وتصبب العرق باردا من جبينه .. انه يحمل في يده شيئا مقدسا .. كيف اذن يتصرف من تلقاء نفسه ، في شيء مملوك لله داخل بيت الله ؟! انها لمسئولية عظمى ! ولمحه أحد القسيسين في هذا الموقف فبادر اليه وحمل عنه العبء ، فانصرف الفتى ، وكأنه يقول في سذاجه : « ما اقوى كواهل اولئك الرجال الذين يتحملون كل التبعات ، في ادارة ممتلكات السماء !.. » وأسرع « محسن » الى اللحاق بالصف ، كي يعزى أهل الميت ، فما كاد يتقدم اليهم في ملابسه السوداء ، حتى حملقوا فيه ، كأنما هم يتذكرون أو يتساءلون عن هذا الصديق الحميم ، الذى اتى يشاركهم مصابهم في ثياب حداد كاملة ، لم يرتد مثلها بعض أقارب الميت ولا ذويه !.. واعياهم التذكر وفهم «محسن» مايجول بخاطرهم ، فلفظ سريعا بضع كلمات غير مفهومة ، وانطلق الى الخارج .. فوجد أندريه واقفا تحت مظلة جديدة بين بقية المشيعين المنتظرين خروج التابوت ! ..

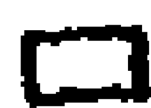
ورأى الفرنسي صديقه فابتدره محملقا في وجهه :

ــ مالك أصفر الوجه ؟!..

فلم يجب « محسن » بغير قوله :

ــ اذهب وادفن زميلك ، أما انا فاني انتظرك في قهوة « الدوم » !

واختفى سريعا ، قبل أن يترك لاندريه وقتا للكلام ..



جلس « محسن » وصاحبه أندريه ، في قهوة «الدوم»

بحى « مونبارناس » ، وهى ملتقى أهل الفن : من مصورين ومثالين وشعراء ، وهى من أجل ذلك ذات شهرة وصيت ، وهبط فى ذلك العام سعر الفرنك الفرنسى ، فهبط باريس سائحون كثيرون ، أغلبهم من الامريكان ، انتشروا كالذباب فى كل مكان !..

وطلب «محسن» قدحا من عصير البرتقال، جعل يرشف منه فى بطء ، من خلال ذلك العود المجوف من القش ، وطلب « أندريه » كأسا من « البرنو » أخذ منه جرعة ، ثم التفت الى صديقه قائلا :

ـ اتدرى أين دفنوا زوج بنت « مدام شارل » ؟

ـ لا اريد أن أعرف اين دفنوه !..

ـ لماذا ؟

فضاق « محسن » ذرعا :

ـ وبعد ؟... أخبرنى بحق ربك ، متى تعتقنى من هذا المدعو زوج بنت « مدام شارل » ؟! أما كفاك أنى صليت على روحه فى الكنيسة ، ونضحته من القمقم المقدس؟!...آه ! ... اننى لن أغتفر لك هذا التهاون منك .انك كنت تعرف أنى داخل هذا الحرم المقدس ، ولا تقول لى حتى أعد نفسى!

فابتسم « أندريه » وقال :

ـ أيها العصفور الشرقى !... تعد نفسك لدخول الكنيسة ؟!... ما معنى هذا ؟... انا ندخلها كما ندخل القهوة ... أى فرق ؟؟..هناك محل عام ، وهنا محل عام. هناك الأرغن ، وهنا الأوركستر !...

فلم يلتفت اليه « محسن » وهمس كالمخاطب لنفسه :

ـ بل هناك السماء !... وليس من السهل على النفس الصعود فى كل لحظة ... انه لمجهود !...

فلم يبد على الفرنسى انه فهم «محسن» ، ولم يكلف نفسه

عناء سؤاله ، ورفع كأسه ، وجرع جرعة أخرى ، ثم أشار بطرف عينـه الى أمريكية حسناء ، جالسـة مع أسرتها على مقربة منهما ، وهى لاتفتر عن النظر الى من حولها من فنانين، ووقعت عيناها آخر الامر على « محسن » فى ثيابه السوداء، فغمزت من معها وهمست اليهم بكلام !...

ولحظ « محسن » نظراتهـا فقال لأندريه في صـوت منخفض :

ـ لماذا يرمقونني هكذا ؟...

ـ يحسبونك من أهل الفن ، بهذه القبعة وهذه الملابس!

ـ انهم ينظرون الى ، كما ينظر الانسان الى طائر غريب! ... أو لم يروا فنانا قط ؟... يخيل الى يا « أندريه » أن هؤلاء الامريكان قوم خلقوا من الاسمنت المسلح : لاروح فيهم ولا ذوق ، ولا ماض !... اذا فتحت صدر الواحـد منهم وجدت في موضع القلب « دولارا » !... انهم ليأتون الى هذا العالم القديم ، حاسـبين أنهم بالذهب يستطيعون أن يشتروا لأنفسهم ذوقا ، ولبلادهم ماضيا !...

ولم يظهر على « أندريه » أنه أصغى الى كلام صديقه كله، فلقد كانت عيناه تتبعان الامريكية ، فقال :

ـ أهذه بربك من الاسمنت المسلح ؟!...

ـ لا تطيل اليهـا النظر هكذا . والا قلت لزوجتـك « جرمين » !...

فهز الفرنسى كتفيه ، ومضى فى اظهار اعجابه :

ـ تأمل هاتين العينـين الزرقاوين ، كأنهمـا فى لون زرقتهما بحيرتان من بحيرات الجنة !...

ـ كلا ... بحيرات الجنة من لون الفيروز ؟! ...

ـ أيها المفتون !··· انك لاترى غير عينى فاتنتك التى لا تعرف اسمها !!···

فنظر « محسن » الى الفضاء باسما سابحا بخياله ، ثم قال :

ـ أعرف صوتها ، وهذا ليس بالقليل···ليلة الامس فى « الاوبرا » ؟

ـ كنت فى « الاوبرا » ؟

ـ اطمئن ··· أعلى «التياترو» ··· وسمعت صوتها·· أعنى صوتا كصوتها ··· كل صوت جميل هو صوتها··· سمعته يغنى :

« قلبى يتفتـــــح لصـــــــوتك
كما تتفتح الازهار لقبلات الصباح »



ليلة جميلة

الفصل الثانى

جلس محسن كعادته كل صباح الى مائدة المطبخ ، فى المنزل الذى يقطنه ، آمنــا شر البرد القارس فى الطريق ، مستعذبا نقر المطر على زجاج النافذة ، كأنه نقر أطفال على طبول صغيرة ، وقد وضــع على رأســه قلنسوة مصرية من « الكستور » وفتــح أمامه كتاب الجمهــورية ، للفيلسوف أفلاطون ، وأمسك سكينا جعل يقشر بها بصلا ، وبين آن وآن يلتفت الى طفل فى الرابعة ، يلعب فى أحــد الاركان متقلدا سيفا زائفا مما يلعب به الاطفال ، ومصــوبا مدفعا صغيرا من الصفيح نحو أعــداء وهميين من الالمــان : وكان الطفل يثرثر ويصيح ، موجهــا الكلام : تارة الى أعدائه ، وتارة الى جدته العجوز الواقفة أمام النار ، تهيىء مرقا من لحم البقر ، وهى لاهية عنه وعما يقول !٠٠٠وأخيرا التفتت اليه وسألته :

ـ ألست جوعان يا « جانو » ؟٠٠٠

ـ كلا ٠ انى أحارب « البوش » ٠٠٠

فقالت جدته فى تحمس :

ـ نعم !... قاتل « البوش » يا « جانو » ! ... ولا تبق منهم أحدا على وجه الارض !٠٠٠

فرفع « محسن » رأسه مستغربا هذه الكلمة ، وقال :

ـ « البوش » ؟٠٠٠ من هم البوش ؟٠٠٠

فابتسمت العجوز وقالت :

ـ هم الالمان ... نحن ـ عامة الفرنسيين ـ نطلق عليهم هذا الاسم ! ...

وصاح « جانو » :

ـ نعم هم الالمان ... جدتي ! ... لماذا هم ، يسمون البوش ؟ ...

ففكرت المرأة قليلا ، ولم يسعفها علمها المحدود وقالت:

ـ لست أدري ...

وأسرعت فغيرت مجرى الحديث ناظرة الى « محسن » مبتسمة لانهماكه في عمله :

ـ « برافو يا مسيو « محسن » !... انك لبارع حقا في تقشير البصل ! ...

فقال « محسن » دون أن يبدو في نبراته تهكم أو تلميح:

ـ براعتك يا سيدتي في الغناء والعزف على «البيانو» ! ..

فابتسمت ، ولم تدرك مراده وقالت :

ـ يا لك من فتى متملق ! ...

وأخفى « محسن » في نفسه ابتسامة لذكرى ذلك اليوم الذي هبط فيه هذا المنزل . فقد أرادت هذه المرأة أن تدخل على نفسه السرور ، وتملأ المنزل بهجة ومرحا ، فأرسلت في طلب « جرمين » زوجة ابنها ، وأجلستها الى « البيانو » ، وأخذت هي في الغناء بصوت لم يعرف له « محسن » أصلا من الاصول ، واذا الغناء ينتهي بصيحة، ظنها « محسن » داخلة في تركيب النغم !... ولكنها كانت صيحة شجار ، دب فجأة بين الحماة وزوجة ابنها، واستفحل أمر الخلاف بينهما الى حد أزعج الفتى ، فما راعه الا غطاء « البيانو » يغلق في عنف . وزوج الابن تقوم الى قبعتها ومعطفها ، فتضعهما عليها وضعا في غضب ، وتذهب نحو

الباب تريد الانصراف ، وانقلب المنزل فى لحظة شرمنقلب، وامتلأ ـ لا بالمرح والبهجة والسلام ـ ولكن بالكدر والكرب !٠٠ وما من سبب ظاهر استطاع محسن أن يستخلصه لكل هذا ٠٠٠ منذ ذلك اليوم و « محسن » يحسب حسابا لعزف العجوز وغنائها ٠ واذا عزفت مرة أو غنت ، رفع عينيه الى السماء ، وسأل المولى حسن الختام !٠٠٠

التفتت العجوز مرة أخرى الى « محسن » والى البصل ، ثم قالت باسمة :

ـ لا بأس !٠٠٠ لك عندى ثمن عملك هذا يا مسيو « محسن » !٠٠٠ أتدرى ما هو الثمن ؟ سأعزف لك أغنية على البيانو ؟

فلم يملك محسن نفسه وقال :

ـ أتسمين هذا ثمنا ؟!

ثم استدرك ، وقال سريعا :

ـ أية أغنية ؟ ينبغى أن نتفق على الاغنية أولا ٠٠٠

فقالت المرأة :

ـ الاغنية التى تحبها ، تلك التى قلت لى انك سمعتها فى دار « الاوبرا »

فاهتز « محسن » فى كرسيه ، وأنشد على الفور مطلع أغنية « سان سانس » :

« قلبى يتفتح لصوتك كما تتفتح الازهار لقبلات الصباح ! »

فنظرت اليه المرأة فى عجب :

ـ ما أشد حبك للموسيقى !٠٠٠

ـ انها فى دمى !

قالها محسن فى بساطة تنم عن حقيقة عميقة ، وفى لهجة

تشير ــ عن غير قصد ــ الى ماضيه بأكمله !··· ثم تناول السكين ، واستأنف تقشير البصل ، وهو يصغى فى أعماق نفسه الى أنغام تلك الاغنية ليلة أنشدتها « نينون فالان » الشهيرة ، فى أوبرا « باريس » منذ شهرين · ليلة جميلة عجيبة لاينساها « محسن » ، فقد رأى فيها ما لم ير من قبل ، وسمع ما لم يسمع ، ولقد أراد فى تلك الليلة أن يتشبه ــ لأول مرة ــ بالموسرين ، فاستأجر مقعدا فى صفهم ، وهو لايعلم أن ذلك يستلزم لبس ثياب السهرة الرسمية ، ونبهته العجوز ، فحار فى شأنه ، اذ ليس لديه هذا اللباس ، ورأى آخر الامر أن يلجأ الى الحيلة ، فاشترى صدر قميص أبيض منشى ، ربطه على صدره رباطا وثيقا ، بخيوط (الدوبارة) ، ثم أتى بأكمام منشاة ربطها كذلك حول معصميه ، وارتدى ملابسه العادية السوداء فوق هذا كله ، والعجوز تنظر اليه وتقول : « ولو أنه حدث الليلة حادث استدعى خلع ملابسك لوجدوا فيك عجبا : انسانا مربطا بالخيوط من الداخل (كطرد) البريد ! » ، وحان الوقت ، ودخل « محسن » « الاوبرا » ، فما تمالك أن وقف مشدوها : أية عظمة وأى ثراء يشعران بالدوار؟!·· وأى أنوار ؟!···

وأدرك من فوره معنى مجسما لكلمة (الحضارة الغربية الكبرى) التى بسطت جناحيها على العالم !···

نعم ، ما كل هذا البذخ والاغراق فى الترف ، الى حد الكفر والفجور والاستهتار ، لكأنما جاء القوم ــ وأغلبهم من سراة الامريكان الى هذا المكان ــ يتساجلون الغنى والسعة وكبرياء المال ، أكثر مما جاءوا يلتمسون لذة التطهر والخضوع فى حضرة الفن ، أو لذة العودة الى الانسانية والروح على يد الموسيقى ! ··

وصعد « محسن » سلم « الاوبرا » المشهور ، وهو



والعجوز تنظر اليه وتقول : « ولو انه حدث الليلة حادث استدعى خلع ملابسك لوجدوا فيك عجبا: انسانا مربطا بالخيوط من الداخل » (كطرد البريد)

يتصبب خجلا بين الصاعدين من أصحاب (الفراك) الثمين ، والقبعة العالية ، والقميص المنشى (الحقيقى) ، والسيدات الانيقات فى أثواب الليل البراقة ، والحلى المتألقة ، كأنهن الشموس فى عالم الماس ، وخيل الى « محسن » انه قد دخل بين هؤلاء القوم بالغش والتدليس ، وأن هذا السلم الشهير يأنف من حمله وقد مرت عليه السنون ، وهو يحمل الجاه والمال فى العالم قاطبة ، ولعله المكان الوحيد الذى لا شك قد وطئته أقدام جميع الملوك ، فليس ببعيد أن يغضب السلم فى هذه اللحظة ويزلزل بـ « محسن » صائحا : « لم يبق على آخر الزمان الا أن يطأنى ، بنعله القديم ، مثل هذا الصعلوك القادم من الشرق ! .. » وتصور « محسن » أن خيوطه قد تحل لسبب من الاسباب ، فيسقط الصدر المنشى على الرخام ، وسط أولئك القوم المترفين فتكون الفضيحة ! .. كانت ليلة أحس فيها الحرج والمذلة ، وعلم أن ثمرات الفن انما هى أيضا حق ، ووقف على طبقة الاغنياء ، وأن الطريق الى الاستمتاع الروحى ينبغى أيضا أن يفرش بالذهب ، وتمثلت له تلك الجمهورية الجميلة التى تخيلها الشعراء والفلاسفة فى كل زمان : جمهورية لا تعرف الذهب ، وتعرف السلام لانها لا تعرف الجشع .. الكل فيها مثل فرد واحد ، الكل يقرأ وينعم ، والكل يلعب ويمرح .. أما الذهب فانهم يصنعون منه مصابيح الطرقات وحوافر الجياد .. ياللسماء ! .. أو مستطاع لمثل هذا الحلم الجميل أن يتحقق يوما ، على هذه الارض ؟! ..

وتنبه « محسن » قليلا ، وترك تأملاته ، ورفع رأسه ، فألفى السكون قد هبط على هذا المنزل الريفى الصغير ، ولم يسمع الا صوت لقط الدجاج فى الحديقة ، وصياح الديكة وهرج الاوز ، ثم ثرثرة « جانو » مخاطبا لعبه بين

آن وآن . وكأنما سئم « جانو » اللعب آخر الامر ، فنهض ودنا من المرآة صائحا فى لهجته الصبيانية :

ـ جدتى ! .. ألدجاجة الحمراء تبيض اليوم

فأجابت جدته فى تقطيب :

ـ « جانو » ! .. انى لا آذن لك فى الذهاب الى الدجاج وحدك ..

ـ سأذهب مع مسيو « محسن » ..

ـ لن تذهب اليوم ! .. ان المطر ينهمر فى الخارج والبرد شديد ! ..

ـ وماذا أصنع الآن ؟ ..

ـ حارب « البوش » ! ..

ـ حاربتهم .. !

ـ قص على مسيو « محسن » كيف أراد الألمـــان ان يدمروا باريس ! .. الا تذكر ما قلته لك عن هذا ؟ ..

ـ كلا . انى اريد ان اعود الى منزلنا ! ...

ـ منزلكم خاو الآن ، وليس به احد . انت تعلم أن اباك وامك لايرجعان من المصنع قبل الغروب ! ..

دمدم الطفل وتبرم فى صـوت كالبكاء ، ثم مشى فى بطء الى حيث يجلس « محسن » ، وجعل ينظر اليه ، ثم مد يده الصغيرة الى الكتاب المفتوح فوق المائدة ، وطفق يقلب صفحاته باحثا عن صورة فيه ، ولم يتحرك « محسن » ، فقد كان عقله مشغولا ، ونظراته جامدة ، لاتتجه الى شىء بعينه ، انما كان يتساءل فى أعماق نفسه :

ـ أليس فى كل فرنســـا أمهات يلقن أطفالهن كراهية الألمان ؟ ... ومن يدرى ؟ ... لعل كل نساء المانيا يعلمن اطفالهن كذلك بغض الفرنسيين ! ... ولتكن الأســباب

ماتـكون . . . بأى حق تستطيع أم أن تنشىء ولدا على العداوة والبغضاء ؟ !! .

وانتشرت فى المكان رائحة شواء شهى ، فرفع «محسن» بصره ، فألفى المرأة تخرج من الفرن فخذا من لحم البقر ، أخذت تدهنه بالزبد وهى تقول :

ـ سيحضرون هذا المساء فى الساعة السابعة للعشاء !..

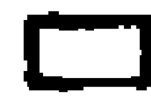
فقاطعها جانو صائحا فى فرح :

ـ وهل « جيزيل » ستحضر أيضا يا جدتى ؟

فابتسمت المرأة والتفتت الى « محسن » غامزة بعينها :

ـ بالطبع ، ستحضر « جيزيل » مع والديها !

فتهلل وجـــه الطفل ، وطفق يثرثر كالببغاء ، وابتسم « محسن » متذكرا أيام الطفولة الأولى !



دقت الساعة الواحدة فى مصانع « كوربفوا » فأسرعت المرأة الى قاعة الأكل ، وجعلت تهيىء مائدة الغداء ، وسمع صرير مفتاح فى الباب الخارجى ، ثم بدا فى الدار شيخ ، ما كاد « جانوا » يسمع صوت نعاله وسعاله ، حتى انطلق نحوه يجرى ويصيح : « جدى حضر .. ! جدى حضر . ! » ودخل الرجل المطبخ ، ونشر مظلة فى يده بللهـا ماء المطر ، ومد يديه الى النار ، وهو يحـادث زوجه فى شئون المعاش بعبارات يقطعها سعال عنيف ... وأصغت اليه المرأة حتى فرغ من حديثه ، فقالت له فى صوت اليائس :

ـ صفوة القول، ليس لنا أن نأمل فى عمل بأحد المصانع، أليس الأمر كذلك ؟ ...

ـ الوقت عسير ياعزيزتى ، والمصـانع لاتريد أن تمنح أمثالنا القوت ، لأن لديها حاجتها من العمـال . من أولئك

العمال المساكين ،الذين تسخرهم طول اليوم من اجل لقمة كالعبيد ! ...

ـ وماذا نصنع نحن اذن ؟ ينبغى أن تـذكر أن ولديك « اندريه » و « مارسيل » لن يستطيعا بعداليوم امدادنا بالمال فلقد اعتزم « اندريه » الحاق « جانو » بمدرسة داخلية ، وفى هـذا باب جديد للنفقات سيتكلفه المسكين ، كذلك «ماسيل» يتكلف الباهظ من المال منذ عام فى الانفاق على مدرسة « جيزيل » ! ..

فاطرق الرجل مليا ثم قال :

ـ صدقت ! .. ليس لنا اذن من مورد الا ..

والتفت يمنة ويسرة باحثا عن « محسن » بعينـين خابيتين تحت المنظار .. وادركت المرأة مراده والتفتت الى مكان « محسن » من مائدة المطبخ فوجدته خاليا فقالت :

ـ « عصفور الشرق » صعد الى حجرته من غير شك، كى يضع كتابه ويتهيأ للغداء ... نعم ليس لنا من مورد الا ما يدفعه هذا الشاب

صمت الرجل لحظة متفكرا ثم قال :

ـ اترى تطول اقامته بيننا ؟...

ـ من يدرى ؟... لقد قال لى ذات يوم انه سيمكث عامين أو ثلاثة ... آمل ألا يسأم حياة الريف ، ويفر الى باريس!

فظهر القلق على وجـه الشيخ ، ثم نظر مفكرا الى النار المتأججة فى الوجاق ، وقال كمن يدخل على نفسه الاطمئنان:

ـ كلا ، انه ، فيما يبدو لى ، شـاب لايميـل الى اللهو كسائر الشبان !

ـ حقيقة ، أنه لايحب سوى المطالعة والتأمل والموسيقى،

لكن من يدرى ان كان يلبث فينا كل مدته ؟ ليس لنا الا أن نأمل !...

هز الرجل رأسه وأطرق صامتا ، ثم دس يده فى جيبه، وأخرج لفافة تبغ ، وجاء « جانو » يجرى وقفز الى ساق جده فامتطاها ، كما يمتطى الحصان ، وطفق يحدثه بمجىء « جيزيل » المنتظر !...



عبيد المصنع

الفصل الثالث

فرغوا من الغداء وانصرفت المرأة الى الأوانى والأطباق تغسلها فى المطبخ وتتأهب للعشاء ، وجلس زوجها على مقربة منها يدخن ويطالع جريدة « الأمانيتيه » ـ الانسانية ـ المنتشرة فى طبقة العمال وأهل الفاقة .وخلا « جانو » الى لعبه ومدافعه وحربه الضروس ، وأغلق « محسن » حجرته عليه ، ووضع كتابه أمامه وقرأ صفحتين ، ثم جمدت عيناه على الكتاب ، ولم يعد يقرأ أو يبصر شيئا ، فقد ترك الحجرة ، وغادر الارض ، وضل فى بحار التأملات !...

وأقبل المساء أخيرا ، ورن جرس باب الحديقة ، فترك « جانو » لعبه وأسرع نحوه ، ثم لم يلبث أن صاح فى فرح: « ماما حضرت ! بابا حضر ! » وظهرت امرأة فى مقتبل العمر ، جذابة الوجه ، تعلق بها « جانو » ، وهى تدفعه عنها فى رفق ، وخلفها زوجها « أندريه » ، وعليهما ، هما الاثنان ، مظاهر التعب والقوى المنهوكة ، ومسحت العجوز يديها فى « فوطة » المطبخ التى ترتديها ، وأقبلت على زوج ابنها تعانقها ، وتتأمل وجهها وتقول فى حسرة متصنعة :

ـ انك متعبة منهوكة القوى يا « جرمين » !...

فأجابت الزوجة ، وهى تنظر الى زوجها الشاب :

ـ اننا لم نخرج من المصنع الا الساعة !...

واتجهت العجوز الى ابنهـا تعانقه ، وتصيح فى حرارة حقيقية :

ـ وأنت أيضا يا «أندريه » ! ما كل هذا الشحوب؟...

ـ اننا يا أماه نعمل ثماني ساعات فى النهار !...

قالها « أندريه » وهـو ينظر الى أبيه ، وكان أبوه قـد طرح الصحيفة من يده ، واتجه الى « جرمين » و « جانو » يباسطهما ، فلما سمع قول « اندريه » صاح فى حدة :

ـ يا لها من وحشية !... ان هذا لم يعد يسمى عملا، انما هو الاسترقاق ... الرق لم يذهب من الوجود ... لقد اتخذ شكلا آخر يناسب القرن العشرين ... ها هى ذى جيوش من العبيد يسخرها أفراد معدودون من السادة الرأسماليين !...

ورفع « جانو » بصره الى جده ، ولم يدرك سببا لحدته !

وحانت من « أندريه » التفاتة الى الصحيفـة الملقاة على الارض ، فابتسم وقال :

ـ أهذا ما قرأته اليوم فى « الأومانيتيه » يا أبتاه؟...

فأجاب الرجل فى جد وحدة :

ـ نعم ، أوليس هذا هو الحق ؟!...

ـ من غير شك ، هـذا هو الحق ، لكن ماذا نصنع نحن الفقراء ؟...

ـ ينبغى أن تنقص سـاعات العمـل على الاقل ، حتى تستردوا بعض حريتكم وبعض وقتكم ، وحتى تنقذوا مابقى لكم من صحتكم ، وحتى نجـد لنا ـ نحن العاطلين ـ عملا وكسبا نسد به الرمق !...

ـ انك تجهد نفسك فى الكلام يا أبتاه !... لقد قلت الحقيقة : نحن عبيد القرن العشرين ، ومتى كان للعبيد حق الاعتراض أو حق الاقتراح ؟...

وأراد الشيخ أن يجيب ، ولكن « جانو » تململ ونظر الى والديه ، والى جدته وصاح :

ـ لماذا أبطأت « جيزيل » ؟

وجعل الطفل يجذب ثياب أمه ملحا فى السؤال، فضربت الام على يده الصغيرة في لطف ، وخلصت ثيابها منه ، وارادت جدته أن تقصيه ، فقالت له :

ـ اذهب وجيء بمسيو « محسن » فقد أزف ميعاد العشاء!

وتنبه « أندريه » فسأل على الفور :

ـ أين عصفور الشرق ؟ ... لقد فاتني أن أسأل عنه ساعة دخولى !؟...

ـ فى حجرته !...

فاتجه « أندريه » نحو سلم الدار ثم عاد يقول :

ـ لست أرى نورا فى حجرته !...

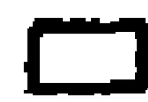
فأجابت الام العجوز ، وهى تقطع رغيفا طويلا من الخبز:

ـ انه فى حجرته ، جالس الى مكتبه ، وطالما يفاجئه المساء ، وهو أمام كتابه بلا حراك ، وكثيرا ما ادخل حجرته فأجد الظلام مخيما عليه ، وهو جالس جامد كالتمثال، فأدير له مفتاح الكهرباء !...

ـ انه غريب الاطوار !... انى أعرفه حق المعرفة !...

وعندئذ دق جرس الباب ، الحديدى ، فمرق «جانو » من بين الجميع الى الباب ، وهو يصيح كالعصفور الصغير :

ـ « جيزيل » !...



اجتمع الكل حول المائدة ، وكانوا قد انتهوا من العشاء منذ قليل ، ولبثوا فى مقاعدهم يتحدثون عن الاشتراكية ، وقد فشا أمرها فى باريس ، وأمست بدعة من البدع ،

يتبعها الناس مقلدين ... ان الحياة أمست عسيرة ، وان سعر الفرنك هوى الى الحضيض ، وان فرنسا الآن فريسة أصحاب المال الامريكيين ، وان هؤلاء الامريكان قد بلغ عتوهم واعتدادهم بثرائهم أن الواحد منهم لا يوقد « سيجارة » إلا بورقة مالية مشتعلة ، تحت أنظار الشعب الفرنسى الفقير!

... هنالك صاح زوجها الشيخ فى غيظ :

— يا لهم من أنذال !...

ثم استطردت العجوز فجأة ، وكأنها استكشفت شيئا:

— لاريب أنهم هم السبب فى غلاء أسعار الخضر واللحم والفاكهة !؟...

وألقت نظرة استفهام على الحاضرين ، فاذا هى ترى «جانو» وابنة عمه « جيزيل » قد جلسا متلاصقين ، يأكلان «الجاتو» ولا يكفان عن الكلام !...

ونفد نصيب « جانو » فجعل ينظر الى جيزيل » التى تكبره بعامين ، وهى تأكل فى تؤدة وكياسة ، وفطنت الطفلة الى فمه العاطل ، والى نظراته الطامعة ، فما ترددت، وتقدمت الى صديقها بكل ما بقى لها . ولم يأب عليها « جانو » ، وقبل منها هديتها ، وطفق يلتهم ما أعطته اياه ، وهو ينظر اليها بعينين باسمتين ، كلها اعتراف بالجميل ، لكنه لم يقل شيئا ... هنالك تجهمت له جدته وصاحت به :

— « جانو » !... ألا تقول لها شيئا ؟...

فالتفت الطفل الى جدته فى سذاجة :

— أقول ماذا ؟ ...

— تقول ماذا ؟ تقول مايقول الناس ، عندما يتقبلون شيئا من الغير !...

— ماذا يقولون ؟

— يقولون : « شكرا » ، ولقد علمتك ذلك ألف مرة

ثم التفتت الى والدى الطفل فى قنوط :

ـ لم يبق لى جلد على تهذيب هذا الغلام ، وانى أصارحكما القول : هذا ليس من عملى ، انما هو من عمل الابوين ، وما دمتما تتركان لى ابنكما طول النهار ، وتنصرفان الى المصنع، فلا أمل فى أن ينشأ ولدكما على الخلق القويم !...

فأجاب « أندريه » فى غير اكتراث :

ـ وهل تظنين يا أماه أن هذا من عملنا نحن؟... هذا من عمل المدرسة ، وسندخله المدرسة ، أما نحن فلدينا عمل آخر كما تعلمين !...

ـ نعم ... المصنع !...

فقال الشيخ فى تهكم :

ـ بالطبع ... المصنع !!...

فهزت « جرمين » كتفيها ، فقالت العجوز فى حدة :

ـ لاتهزى كتفيك يا « جرمين » !... اياك أن تنسى لحظة أهمية تأثير البيت ... فى زماننا كان البيت هو كل شىء !... آه ، لقد ذهب كل شىء طيب بذهاب زماننا!..

فقال « أندريه » وأخوه « مارسيل » فى وقت واحد :

ـ أين هو البيت اليوم يا أماه ؟...

فتأملت العجوز قليلا هذا القول منهما ، ثم أجابت :

ـ صدقتكما ، لم تعد هنالك أسرة ... الرجل والمرأة فى المصنع طول النهار !... يا له من زمن عجيب !...

فقال الشيخ فى قوة واقتناع :

ـ قلت لكم هذا عصر العبيد قد عاد من جديد !...

وانتبه « محسن » لهذه العبارة ، فلمعت عيناه ببريق غريب ، ثم لم يلبث أن استأذن من الحاضرين فى الصعود الى حجرته ، فأذنوا له باسمين ، فصعد وجلس الى مكتبه فى الظلام ، وهو يهمس :

ـ نعم ، لم يذهب الرق من الوجود ... لكل عصر رقه وعبيده ! ...

في قفص الحُبّ

الفصل الرابع

لم يمكث « محسن » غارقا فى تأملاته طويلا ، فقد ضرب عليه الباب ، فانتبه ، واذا صديقه « أندريه » وزوجته « جرمين » يصيحان به :

ـ عصفور الشرق وحيد فى القفص ! ...

فقال « محسن » كالمخاطب نفسه :

ـ انى دائما فى قفص !...

فقال « أندريه » فى ابتسامة خبث :

ـ فى قفص الحب سجين أيها المسكين !...

ـ نعم سجين !...

فقالت جرمين باسمة :

ـ أتعترف بهذه السهولة ؟...

ـ وما فائدة الانكار ؟...

ـ ولماذا لاتنطلق حرا مغردا فى فضاء الحب ؟...

فأسرع « أندريه » قائلا :

ـ انك تطلبين المستحيل . انه سيظل دائما هكذا ، انه حتى الآن لم ينجح حتى فى الوصول الى معرفة اسمها..!

فقالت « جرمين » فى ضحكة خفيفة :

ـ لم يعرف بعد اسمها !... حقا انه لمحب خائب!...

فاتخذ وجه « محسن » لون الجد الصارم ، وقال فى هدوء وموافقة واقتناع :

ـ أما انى محب خائب ، فهذا صحيح ، ولا محل للجدل فيه ، وقد أعيتنى هذه الخيبة فى كل زمان ومكان !...

فقال أندريه سائلا :

ـ ألم ترها اليوم ؟...

ـ لم أرها منذ أسبوع ، ولم أنصرف الى غير مطالعاتى ، ان الكتب تستطيع أن تشغل رأسى حقيقة ، لكن هل الرأس هو كل شىء فى حياة انسان ؟ ... آه ! ... ان أجمل لحظاتى ساعة أقف أمامها أنتظر ، وأنا أعلم انها لن تلقى الى بكلمة تسر خاطرى ... مرة واحدة نظرت الى عفوا نظرة وقالت لى :

ـ اما تزال واقفا ها هنا ؟ ... اى مخلوق انت ؟! ...

ـ وما قصدها من هذا ؟

ـ لست أدرى !... فسر هذه الجملة كما تشاء ... أما أنا فقد فسرتها طبعا لمصلحتى ... انى أحب هذه العبارات المبهمة التى أتخيل معناها كما أشاء !...

ـ انك رجل خيالى ، وهذه مصيبتك !...

قالها « أندريه » وهو ينظر الى « جرمين » ، فأمنت على قوله برأسها وأضافت :

ـ من غير شك ، لا سبب عندى لفشل «محسن» غير أنه خيالى أكثر مما ينبغى ، والمرأة لا تقنص بالخيال ، بل بالحقيقة

فلم يعترض « محسن » وقال فى اذعان :

ـ وأين هذه الحقيقة ؟... امنحانى هـذه الحقيقة التى أكسب بها عطف المرأة !؟...

فقالت « جرمين » :

ـ أتريد أن تعلم أين تجد هذه الحقيقة ؟

ـ نعم أخبريني أين هي ، وأنا لا أنسى لك أبدا هـذا الجميل !...

ـ انها تشترى بالثمن ؟...

ـ كم الثمن ؟ كل حياتى فيما أعتقد !

ـ بل عشرون فرنكا فقط ...

ـ أتمزحين ؟...

ـ بل أقول جدا . عشرون فرنكا فقط ، تشترى بها من حانوت شارع « هوسمان » زجاجة عطر « هوبيجان » صغيرة ، وتقدمها الى صاحبتك فى الصباح ... هـذه هى كل الحقيقة ... أفهمت ؟...

فحلق « محسن » فى الفضاء ، كأنما قد كشف عنه حجاب ، ثم التفت الى جرمين وقال :

ـ أحقا ما تقولين ؟...

فابتسمت « جرمين » وقالت فى صوت المتعجب :

ـ يدهشنى أن فتى ذكيا مثلك يجهل هذا !...

ـ قارورة « هوبيجان » فقط !..ثمنها عشرون فرنكا!.. انك تبالغين يا سيدتى !... انها لجديرة أن أضع تحت شباكها قلبى كله !...

ـ شباكها ؟!...

ـ لن أقدم لها شيئا زهيدا من هذه الاشياء !...

ـ أين صاحبتك يا«محسن» ؟

فأجاب « أندريه » فى الحال عن صديقه باسما :

ـ قلت لك يا «جرمين» انه لايعرف من هى ، ولا يدرى عنها شيئا !...

فقال « محسن » دون أن يخرج عن هدوئه :

ـ هذا صحيح !...

وازداد عجب « جرمين » فقالت تسأل الفتى :

ـ يا للغرابة !··· وأين تراها اذن ؟!

فأجاب محسن :

ـ أراها فى شباكها ، تشرق على الناس بعينين من فيروز، وهم يمرون أمامها الواحد تلو الآخر ، من كل جنس ومن كل طبقة فيهم الفقير مثلى ، وفيهم الموسر مثل ملك الملوك ··· نعم ! يمر بين يديهـا كل يوم هـذا الموكب ، وهى تبسم من شباكها بين آن وآن ، دون أن يعرف أحـد سر قلبها !···

فنظرت « جرمين » الى « محسن » مليا ثم قالت :

ـ أهذه المرأة فى باريس ؟··· أم فى كتاب ألف ليلة وليلة !···

وقال « أندريه » ضاحكا :

ـ وهذا الشباك أين هو ؟··· فى أى قصر سحرى؟··

وأردفت « جرمين » ضاحكة :

ـ وهل توجد حقا فى باريس تلك المرأة التى يمر بين يديها الناس وهى فى الشباك ؟!···

فأجاب « محسن » فى هدوء :

ـ فى شباك التذاكر !···

فصاحت « جرمين » وقد فهمت مراده :

ـ آه ···! هى عاملة فى شباك تذاكر ···!

ـ « تياترو » الاوديون !···

قالها « محسن » كالحالم ، وضحكت « جرمين » ، وضحك « أندريه » ، ثم قال :

ـ أتسمع نصيحتى يا « محسن » ؟··· اذهب غدا وقدم

اليها طاقة من الزهر ، ثم ادعها الى العشـــاء فى مطعم من المطاعم !...

فتفكر « محسن » قليلا ثم قال :

ـ واذا لم تقبل منى طاقة الزهر ؟!

فقالت « جرمين » من فورها :

ـ لا يوجد امراة فى باريس ترفض طاقة من الزهر ! . .



هيكل الحُب

الفصل الخامس

ـ « مدموازيل » !... ألم يأت بعد ؟...
ـ من ؟...
ـ ذلك الفتى الذى يضع المعطف الاسود فوق منكبيه .
ـ لست أدرى يا « كلوتيلد » ... لا أظن انى رأيته اليوم
ـ انى أراه دائما جالسا فى القهوة التى أمامنا يطيل النظر الى هذا الباب !...
ـ لعله مجنون !...

وعندئذ أقبل رجل فى سن الشباب جميل الهيئة ، دخل توا على عاملة شباك التذاكر ، من ذلك الباب الذى كتب عليه بخط كبير : « الدخول ممنوع » ، فما ان رأته « كلوتيلد » العجوز حتى تناولت مكنستها ، وهرولت الى عملها ، وهى تهمس :

ـ « الرئيس » !...
ـ من المجنون يا « سوزى » ؟...

قالها ذلك الرجل ، بعد أن ألقى على الفتاة الجميلة نظرة لا يدرك معناها غيرها !... فهزت كتفيها ولم تجب ، فألح الرجل فى شدة وغضب :

ـ قلت لك أريد أن أعرف من المجنون ؟...

فرفعت رأسها ، ونظرت اليـه بعينين متسعتين فى لون

الفيروز ، تزينهما أهداب طويلة شقراء ، ثم قالت في صوت لايدرك معناه الا هو :

ـ لست أنت المقصود على أى حال !٠٠٠

ـ من اذن ؟٠٠٠

ـ فتى آخر كنا نتحدث عنه !٠٠٠

ـ فتى !!

ـ لست أعرف بعد من يكون ، اعتـاد أن يأتى كل يوم الى هذا الشباك ، فينتظر حتى ينفض الناس ويخلو المكان، فيتقدم الىقائلا : « بونجورمدموازيل ! » فأرد عليه التحية، فيقف يطيل الى النظر صامتا ، ثم يتحرك قائلا : «أورفوار مدموازيل ! » ، ويمضى لشأنه !٠٠٠

ـ أحد المعجبين من غير شك !٠٠

قالها الرئيس الشاب فى نبرة غريبة٠فأجابته «سوزى» على الفور :

ـ بل مجنون ٠٠٠ هذا كل اعتقادى !٠٠٠

ـ حسبتك تعنيني أنا !٠٠٠

ـ أنت ؟! لا يا عزيزى « هنرى » أنت العقل بعينه ٠٠٠ أنت أعقل مما ينبغى !٠٠٠ آه يا سيدى ، لقد تبين لى أنك أعقل مما كنت أتصور .. هنيئا لك ! ...

قالتها «سوزى» فىاطراق ، وفى شىء منالغضبالمكتوم، وأطرق هنرى أيضا ، وجعلت يده تعبث بدفتر التذاكر على حافة الشباك ، وطال بينهما صمت قطعته ، « كلوتيلد » حارسة المقاصير ، صائحة من جوف مقصورة :

ـ مسيو هنرى !٠٠٠ أنعد مكان « الاوركستر » ٠٠٠

فانتهز « هنرى » الفرصة ، ليخرج من موقفه ، وأسرع الى قاعة المسرح ، وتوسط صفوف المقاعد وصاح :

ـ أيتها الحمقاء «كلوتيلد» !...الليلة رواية «الارليزيه»! ... أتريدين « الأرليزية » بغير موسـيقى ؟!... أعدى محل « الاوركستر » حالا أيتها الشمطاء !...

وعاد السكون الى المكان ، وأرادت « سوزى » أن تعود الى تلاوة قصة «لاجارسون» التى كانت تشغل وقتها الخالى بقراءتها كلما خفت وطأة العمل ، لكن شيئا فى رأسها حال بينها وبين الكتاب ، فجعلت تنظر فى فضاء المكان دون أن تثبت بصرها فى شىء بعينه ، وحانت منها نظرة عارضـة الى تمثال « فولتير » الرخامى أمامها فى الردهة ، وعلى شفتيه تلك الابتسامة الساخرة المشهورة ، فحركت أهدابها قليلا وكأنما راعها شىء منه ، لـكنها تمالكت ، وهزت كتفهـا ، وأخرجت من حقيبة اليد بجانبها علبة أنيقة الشكل ومرآة صغيرة ، وجعلت تطلى وجهها الجميل، حتى ظهرت «كلوتيلد» تقول فى غضب :

ـ أسمعت شتائمه ؟!...

فقالت « سوزى » فى غير اكتراث :

ـ من ؟...

فأجابت العجوز وقد استندت الى مكنستها :

ـ «الرئيس»!...أما رأيت سوء خلقه اليوم ؟!... انه لاريب قد حدث بينكما شىء يا « مدموازيل سوزى » ، ان خلقه لايسوء الا يوم يكون الامر بينكما ...

فتنهدت « سوزى » ، تنهيدا خفيفا ، وابتسمت ابتسامة فاترة ، ولم تجب ...

لبث « محسن » فى مجلســـــه من المقهى الذى أمـــام الأوديون ، يحتسى قدحا من القهوة ممزوجة باللبن، ويتأمل تلك الأعمدة العظيمة التى يقوم عليها بناء المسرح الفخم... ولا تبرح عيناه الباب ، كأنما هو باب فردوس ، لايدرى

أهو من داخليه ••• أم كتب عليه أن يظل دونه من الضالين!
••• ولم يقطع عليه تأمله غير حركة فتى وفتاة من أهل باريس ، يتعانقان خلفه ، ويقبل أحدهما الآخر علانية، كما اعتاد الباريسيون أن يفعلوا غير حافلين بعاذل أو رقيب!
••• فازور « محسن » عنهما برأسه ، غير راض أن تعرض العواطف هذا العرض ، فى الشوارع والطرقات ، فتبتذل وهى التى ينبغى لها أن تحفظ فى الصدور كما تحفظ اللآلىء فى الاصداف ••• وبينما «محسن» فى تأمله اذا كف قد وضعت على كاهله فالتفت،فرأى «أندريه» يبتسم له ويقول:

ـ ماذا تصنع هنا أمام الاوديون أيها الفتى الشارد ؟!••

ـ أنت ؟ دائما أنت ورائى هكذا !

ـ ماذا تفعل هنا ؟ أجب وأسرع !

فتردد « محسن » قليلا ، ثم أشار الى المسرح قائلا :

ـ انى أتأمل هيكل الفن

فغمز « أندريه » باحدى عينيه وقال :

ـ بل قل هيكل الحب

ـ كلاهما واحد ••• أحدهما حال فى الآخر ، كالنور فى المصباح !•••

ـ أهى هنا

ـ هى هنا ، ورواية « الأرليزية » هنا ••• آه !•••

ما اجملها وما أجمل الرواية ، نثرا وموسيقى ! ... هنا فى هذا الهيكل قد امتزجت صورتها فى نفسى بصدى أنغام « الانترمتزو » ، ورقصة « الفراندول » !•••

ـ ألم تقدم اليها بعد باقة الزهر أو عطر «الهوبيجان» ؟..

ـ لا زهر ولا عطر ••• انها أعظم قدرا عندى ، وأجل خطرا من أن أقدم لها شيئا ، أو أن أوجه اليها كلاما !•••

فبدا العجب في وجه الفرنسي ، وخيل اليـه أنه يسمع الغازا وطلاسم لاقبل له بفهمها ، فهز كتفيه مريحا نفسه :

ـ تلك ولا شك فلسفة شرقية ! ...

ـ وأنت كيف عثرت علي ؟... وما حضورك هنا الساعة، والعمل في المصنع قائم على قدم وساق ؟!...

ـ لامصنع اليوم ولا قدم ولا ساق ... ألم تقرأ صحف الظهر ؟... قد أضرب العمـال في مصانع « كوربفوا » ، أضربنا جميعا الى أن يعـدوا بالنظر في مطالبنا ... وأما العثور عليك ، ومعرفة مقرك الآن فليس من المعضلات !..

وابتسم « أندريه » في خبث ، ثم مد يده الى صـديقه قائلا :

ـ والآن هلم بنا !...

فنظر اليه الفتى دهشا قلقا :

ـ أين ؟

ـ نحضر اجتماع العمال ...

ـ وما شأني أنا والعمال ؟...

ـ نزهة قصيرة ...

ـ نزهة ؟ آه يا سيدي !... بعض عطفك وكرمك !.. أخبرني متى ترحمني من هذا الذي تسميه : «نزهة قصيرة»؟

ـ يسرني دائما أن تذهب معي ...

ـ وأنا يسرني دائما أن تذهب أنت وحـدك ... دعني الآن فيما أنا فيـه ... اني كمـا تعلم لست من العمـال المتعطلين ... انك لترى أن لدي عملا ...

ـ في أي مصنع ؟...

ـ هنا ...

وأشار الفتى بيده الى المسرح ، فضحك «أندريه» وقال:

ـ أتسمي هذا عملا ؟!... آه....أيها العاشق الشرقي الذي ينفق أيامه في قهوة يحلم، وحبيبته على بعد خطوتين!..

سمع الفتى ذلك من صديقه الفرنسي ، فانتفض قائما ، وقد لمعت في رأسه كالبرق صور من الماضي ، فرأى قهوة « الحاج شحاته » في حي السيدة زينب بالقاهرة ، وذكر جلوس عمه اليوزباشي « سليم » الساعات الطوال ببابها ، شاخصا الى دار محبوبته « سنية » ، آملا أن يلمح لون ثوبها الحريري الاخضر ، خلف «المشربية» ، وأدرك «محسن» لفوره أنه يصنع الآن في شارع « الاوديون » عين الذي كان يصنع سليم في شارع « سلامة » منذ سنوات ... أهي المصادفة ؟... أم أن هذا شيء في دمه ؟... لايدري ، غير أنه يحس قوة ترغمه على الجلوس قرب مكانها ، وأنه يحب هذا القرب لذاته ...

وعاد «محسن» فجلس ، واتسعت حدقتا الفرنسي دهشة وصاح :

ـ الا تستطيع أن تبرح هذا المكان ؟ ...

ـ انك ترى بعينيك اني لا أستطيع

فأشار « أندريه » الى « التياترو » بأصبعه :

ـ لماذا لاتذهب اليها فتفاتحها بما في نفسك ؟...

ـ أأنت مجنون ؟!

ـ أنا المجنون ؟؟!

لفظها الفرنسي وهو ينظر الى « محسن » ولا يجد كلمات يصفه بها ، ومضى الفتى يقول :

ـ ياعزيزي « أندريه » !... ما زال في رأسي قليل من الادراك ، يكفي لافهامي على الاقل أن مثل هذا الجمال ، في شباك مفتوح للجمهور ، لا يمكن أن يبقى حتى الآن في انتظار قدوم هذا الصعلوك الشارد الذي هو أنا ! ...



« .. آه ... ايها العاشق الشرقى الذى ينفق
ايامه فى قهوة يحلم ، وحبيبته على بعد خطوتين !»

ـ تريد أن تقول ان لها عشاقا ؟ ٠٠٠
ـ ألف عاشق وعاشق ، وقد لايحصــون عدا ٠٠٠ كل من حولها يحبهــا ، ذرات الهواء ، وهوام الفضاء ، ونجوم السماء !٠٠
ـ كفي خيــالا وشــعرا ٠٠٠ تكلم فى الواقع ٠٠٠ هل أخبروك أنها تحب أحدا بعينه ؟ ٠٠٠
ـ انها يا سيدى محبة محبوبة ! ٠٠٠
ـ كيف علمت ؟
ـ بالفراسة ٠٠٠
فنضب معين الصبر من صدر الفرنسى وصاح :
ـ الفراسة أيها اللكع ؟ وهذا بابها ، وهذه هى جالسة، آكاد أراها من هنا !٠٠٠ أقسم أنى لم أر مثل هــذا فى حياتى !٠٠٠
فلم يحفل « محسن » لصياحه ، ولم يبد حراكا ، غيرأنه أرسل نظرة الى باب المسرح ، وخطر له طيف « سـليم » مرة أخرى ، وهو اليوم زوج لاحدى قريباته ، وأبلولدين صــغيرين ، وقد شــغل وظيفة عسكرية فى مصلحــة خفر السواحل ، وأصبح ذا جسم ممتلىء و « كرش » محترم » ، أما شارباه القائمان فقد هوت بهما الايام ، واتخذت حياة ذلك الرجل الشكل المألوف فى حياة « الملايين » من هــذا النمل البشرى ، وقد ذهبت ســاعات جلوســـــه فى قهوة شحاته ولم يبق لها أثر ظاهر فى حياته !٠٠٠ طغى الزمن ببحره الطامى على أحلام الماضى ، واختفت صورة « سنية » من رأس « سليم » ،ومع ذلك ، فهو انبحث اليوم فىأغوار، قلبه عن خير ساعات حياته لما وجد أحلى ولا أشهى من تلك اللحظات ، التى كانت تطير هبــاء فى جلوس طويل ، بين اليأس والرجاء ، شاخص الابصار الى نافذة سنية !٠٠٠ ذلك الانتظار الحلو المر ، انتظار شىء جميل يرجو أنيحدث

ولن يحدث ، هو كل ما ظفر به قلب « سليم » ، وكل قلب على هذه الارض ، من احساسات عليا ، ماذا يهم مايتم من لقاء بعد ذلك بين حبيبين ؟ ٠٠٠ ان خفقة القلب التى كانت تهز كل كيان « سليم » كلما خطف بصره خيال امرأة خلف المشربية ، وذلك الصبر الطويل على القهوة فى انتظار هذا الخيال ، هو كل جمال الحب ! ٠٠٠

واسترسل « محسن » فى تصوراته وتذكاراته ، فنسى « اندريه » وادرك الفرنسى القنوط ، فرفع يده فى حركة عصبية :

ـ لا ! ٠٠٠ حقيقة لا ٠٠٠ انى لا أستطيع أن أنفق عمرى جالسا هكذا ٠٠٠ ان الزمن شيء لا تعرفونه أنتم معشر الشرقيين ، ولا يعنيكم أمره ! ٠٠

فقال محسن :

ـ لقد تحررنا منه ! ٠٠٠

فحملق « أندريه » فى « محسن » مليا ، ثم صاح :

ـ آه ، أيها الشرقيون ٠٠٠ أأنتم بلهاء أم أنتم حكماء؟ ٠٠ هذا ما يحير ! ٠٠٠

ـ تلك عبقريتنا !



طريق الأمــل

الفصل السادس

يروى الجاحظ : أن رجلا دميما ، تزوج أعرابية حسناء ، هامت به ، فسئل في ذلك ، فقال : « قرب الوســـاد ، وطول (١) السواد » !...

ذكر « محسن » تلك الكلمة ، وهو جالس يرمق أعمدة « الاوديون » من مكانه بالقهوة ذات صـــباح ، فاهتز فى كرسيه ولمعت عيناه فرحا ، فقد وجد السبيل الذى يسلكه مثله ... انه يعرف نفسه ، فهو كصندوق مقفل غير مطعم بذهب ولا بفضة وغير موشى بألوان ولا برسوم ، ولا تبهر هيئته ولا تغر . ولكن قرب الجوار قد يحمل الصادف عنه، على النظر اليه واستطلاع ما فيه ، وهو ان فعل فلا شــك واجد فى قلبه بعض تلك اللآلىء ، التى يبحث عنها الناس، ولكن كيف يدنو منها دنوا متصلا ، وهو غير قدير على أن يذهب اليها الآن ، ليقرئها الســلام ، وكيف يجــد « قرب الوساد ، وطول السواد » مع هذه ؟ وهو لا يستطيع ان يظفر من وقتها بخمس دقائق ؟ وتذكر ــ عند ذاك ــ شارع سلامة بالقاهرة ، حيث كان يقطن منذ أعوام الى جوار « سنية » . حقا لو لم تكن يد القدر قد وضعت مسكنه الى جانب مسكنها، لما كان لتلك الفتاة مكان فى حيـــاته يوما ما !... نعم ، لا شىء اليوم ، يستطيع أن يخرجه من هذا اليأس ، غير قرب

---

(١) المعنى طول الجوار ، وطول الليل ــ أى طول الزمن

السكن والجوار « طول سواد الليل ، وبياض النهار» !...
ولكنه لايعرف أين تسكن ؟... وكيف تسكن ؟...
أبمفردها ؟ هذا هو الحلم الذهبي !... لا ، هذا مستحيل
ان القدر لأقسى من أن يظفره بهذا الحلم ... انها لا شك
تقطن مع أهلها !... ومع ذلك ، ماذا يعنيه من هذا الامر؟
انه راض بالقليل ، يكفيه منها مجرد الشعور ، في كل حين،
أنها هي جارته !... بقي عليه أن يعرف مقر سكنها،وهذا
ميسور ، ما عليه الا أن يتبع خطاها ، وهي خارجة من
المسرح في المساء !... هنا وثب « محسن » وكأن الأزمة
قد انفرجت ، فهومنذ اليوم ، لن يتخذ القهوة مطارا لخيالاته
المحلقة ، بلا جدوى ، فوق هذا المسرح!...ولكنه سينشط،
ويسير في طريق الامل ، على هدى من أمره !... وفرك
يديه ليدفئهما من البرد ، ومسح معطفه وقبعته من رذاذ
المطر الذي أصابهما ، وقام يمشي في الطرقات ، يقتل النهار
في انتظار المساء ، متصفحا : تارة وجوه حوانيت الكتب ،
وتارة « اعلانات » المسارح الغنائية على الحيطان ، وحفلات
« الموسيقى السانفونية » ، انه حتى اليوم لم يكن قد عرف
موسيقى « بيتهوفن » معرفة كاملة ، فان الحفلات السانفونية
القليلة التي حضرها لم تعقد بعد أسباب الالفة بينه وبين
ذلك القلب الكبير ، ولم يقنط الفتى !... فهو يعلم أن
الآلهة لا تكشف سرها لأول قادم ، وأن الملوك والعظماء
لايظهرون لكل من طرق أبوابهم ، - انما ينبغي الصبر
الطويل على الجلوس بأعتاب الهياكل وأبواب القصور ،
والتوسل بالرغبة الصادقة في الوصول ، فان الصبر في
الفن وفي الحب هو مفتاح الطريق !...ووقع نظر «محسن»
على برنامج حفلة موسيقية تعزف فيها السمفونية الخامسة
« لبيتهوفن » ، تبتدىء بعد الظهر ، وتنتهي في المساء
الباكر ، فما تردد وأزمع الذهاب ... وجاء الظهر فتغدى
في مطعم صغير ، ثم أسرع الى مسرح « شاتليه » ، ليصغي

الى ذلك الرجل الذى أصغت اليه أجيال من البشر !...
هنالك وجد الفتى المسرح يعج بالناس ، فاتخذ له مجلسا متواضعا فى أعلى المكان ، وجعل يشاهد ، من عل ، ذلك البحر العجاج من نساء ورجال فى القاعة والشرفات !... ولم يمض قليل حتى ظهر الموسيقى « جابرييل بيرنيه » ، رئيس الفرقة : بعصاه الصغيرة ، ولحيته البيضاء القصيرة! ... فسكن الضجيج فجأة وارتفعت الايدى بالتصفيق ، ثم خيم على المكان سكون قدسى كسكون المعابد ، وشعر «محسن» بالخشوع الذى خامره فى الكنيسة ذلك اليوم ، وتحركت يد الاستاذ بالعصا ، فاذا «بيتهوفن» يتكلم بلغته السماوية، قوية أول الامر فى ذلك الـ « اليجرو » الجليل ، حلوة بعد ذلك ، كأنها أصوات الملائكة الصافية : فى الـ « أندانت » الهادئة ، ثم فياضة بالسرور الداخلى : من ذلك الـ «سكرتزو» المشرق ، الى أن تنتهى منه الى ذلك الفرح المتفجر : من أضواء أنغام الـ « برستو » الاخير !...

نعم ، ان هو الا وحى السماء يتكلم ، بمختلف المشاعر العظيمة التى رفعت الانسانية الى هذه المرتبة !... لقد بدأ « محسن » يدرك ويحس حقيقة تلك الكلمة التى قرأها فى « نيتشه » : «كل عواطف البشرية السامية فى السنفونية الخامسة !... »

وترك « محسن » المسرح وهو شارد اللب شأنه شأن بقية الناس !... وما زالت نفسه هائمة فى ذلك الجو العلوى !... وخرج الى الطريق !... فاستقبله الهواء البارد ضاربا وجهه ، فعادت فى الحال اليه نفسه ، ونظر حوله : فاذا الظلام ينبئه أن الموعد قد قرب ، فأسرع فى المشى الى « الأوديون » ، ووقف ببابه مستخفيا وراء عامود يرقب خروج الحسناء !...

دقت الساعة العاشرة ، فأقفل شباك التذاكر ، وخرجت

الفاتنة تتهادى ، كالغزال الذىوصفه اسحقالموصلى بقوله:

شـادن لم ير العراق وفيـــه
مع ظرف العـــراق دل الحجاز

وعرف « محسن » هــذا الشادن من مشيته ذات الدل ، قبل أن يرى فى الظلام وجهه ، فاختلج قلبه ولم يتحرك ، وابتعدت صاحبته ... وهمست اليه نفسه : أن انطلق ، خشـية أن تختفى عن نظرك !... فأسرع خلفهـا وهو كالخائف ، الى أن بلغت سلم « المترو » الارضى ، فنزلت الى المحطة بعد أن ابرزت لعامل الباب تذكرة من دفتر معها، وما ان وصل « محسن » واتجه الى شباك التذاكر ، وابتاع تذكرة ، ودفع قطعة فضية ، واسترجع بقيتها ، حتى كان القطار قد أقبل ، ومضى بالفتاة ، وهو ينظر فاغرا فاه خائب الأمل !... وثاب الى رشده بعد قليل ، فقال لنفســه : « لم أحسب حساب دفتر التذاكر الذى معها ! بالطبـع ينبغى أن يكون معى مثلها هذا الدفتر ، وهى التى تقطـع عين الطريق ، آتية غادية مرتين فى اليوم !... لا بأس!... لا فائدة من الحزن والندم ، غدا أعيد الكرة بعد أن أعـد عدتى !.. وجاء الغد فحصل على دفتر تذاكر فى الدرجـة الثانية ، وانتظرها ثم اقتفى أثرها حتى المحطـــــة ... وجاء قطـــار « المترو » فاندفع هـــو الى عـــربة فى الدرجة الأولى ... وسار القطار ولا اتصال بين العربات . والمحطات كثيرة ولم يعرف فىأيتها نزلت الفتاة !... وضاع أثرها أيضا منه فى هذه المرة ، فسخط وثار على نفســه صائحا : انها الخيبة والبله بعينه !... ألا أسـتطيع ان أقتفى أثر انسان عشرة أمتار ؟!... ثم هدأ وابتسم وقال كالحالم : « ما كنت أعتقد ان مهنة « البــوليس السرى » بهذه الدقة والصعوبة !...

غير أن هذه التجارب الخائبة قد نفعت الفتى فى اليوم

الثالث ، فقد احتاط للأمر من كل جانب ، ولم يغفل عن الفتاة طرفة عين ، وصعد معها فى عربة واحدة ، وجعل يراقبهما عن كثب دون أن يظهر لعينيها حى بلغ « المترو » محطة « بورت دى ليلاس » فنزلت ، فاسرع ونزل خلفها ! ... وسارت فى طريق طويل ، تنبت على جانبيه أشجار الزيزفون والكستنباء ، فتابعها متواريا ، بين لحظة واخرى، خلف جذوع الأشجار ، الى أن بلغت فندقا يدعى « فندق زهرة الأكاسيا » فدخلت ...

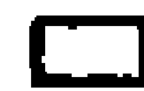
لم يفعل « محسن » شيئا بعد ذلك ، غير أنه عاد أدراجه وهو لا يمشي على الأرض ... ولكنه يطير راقص القلب ، فقد عرف منزلها !...

وفى صباح الغد نهض « محسن » مبكرا ، وفتح حقائبه ، وحشر فيها ثيابه وكتبه حشرا، وودع المرأة العجوز الدهشة على عجل !... وأعطاها رسالة سريعة ، كي تسلمها الى « أندريه » وزوجته ، ووضع أمتعته فى « تاكسى » ، وهو يقول للمرأة العجوز :

ــ قبلى عنى الصغير «جانو» !... غدا يخبرك «أندريه» عن سر هذا كله ... الى اللقاء !.. والتفت الى سائق السيارة وهمس : « الى « بورت دى ليلاس » فندق زهرة الاكاسيا » ! ...

وماكادت تختفى السيارة حتى ثابت العجوز الى رشدها، وقالت متنهدة :

ــ هذا الذى كنا نحسبه عاقلا ؟!..



كانت السيارة تسابق الريح ، وقلب « محسن » يسابق السيارة ، وهو كأنه قد ظفر بايوان كسرى ! .. ما كل هذا الفرح ؟ ... الأنه رآها تدخل فندقا ؟! ... واذا ظهر

بعد هذا كله انها لاتقطن هذا المنزل، وانها ذهبت زائرة ، أما كان ينبغي له أن يتريث ، ويستوثق من الأمر ، قبل هذا الركض الجنوني بأمتعته ؟! . .

هنا اصفر وجهه قليلا ، وخشي أن يكون قد فقد أثرها ايضا هذه المرة ، غير انه لم ير الا أن يمعن فى السير ، وان ينزل هذا الفندق، فقد فات أوان الرجوع، ووقفت السيارة بباب الفندق وانزلت الأمتعة وقادته المديرة الى الحجرة رقم ٤٨ فى الطابق الخامس .

وكان كل ما يطمع فيه « محسن » وقتئذ ، ان يعرف هل تقطن هنا حقا صاحبته ؟ ... وفى أى طابق وأى حجرة ؟... ولكن كيف يوجه السؤال وهو لا يعرف اسمها ؟... ودخل الفتى حجرته ، فألفاها صغيرة نظيفة، ذات نافذة تطل على فضاء ، ــ فهذا الحى هو طرف قصى من أطراف باريس ، وباب من أبوابها ــ كما ألفى مطبخا صغيرا ملحقا بالحجرة ، معدا بأحدث معدات تهيئة الطعام، من موقد وفرن صغير ، يشعل بغاز يأتى فى أنابيب ، الى ادوات لشواء اللحم ، وخزائن لوضع الأوانى ، وحوض ماء ، فهذا الفندق معد لسكن الأسر الفقيرة ، وكل حجرة بملحقها معدة ، كأنها مسكن مستقل !... ›

ولبث « محسن » فى حجرته ذلك اليوم ، يشتغل باخراج امتعته وكتبه ، وتنظيم أمره فى تلك الحجرة ، وهو يقول فرحا : « لقد أصبح لى مطبخ ، انى سأحتاج اليه من غير شك أيام العسر والافلاس ، فان اكلة فى المطعم تنفق على هذا المطبخ البسيط ثلاثة ايام !... »

نام « محسن » ليلته الأولى فى ذلك المقر الجديد نوما ثقيلا ، فلقد قرأ البارحة كثيرا ، وتأمل كثيرا ... وهو ــ اذ يفعل ذلك ــ لا يستيقظ دائما قبل التاسعة ، ولكنه فى هذا الصباح نهض قبل السادسة وثبا من فراشه على صوت

ناتن ، يغنى كأنه طائر جميل هذه الأغنية المشهورة فى رواية « كارمن » :

الحب طفل بوهيمى ! . .
لا يعرف أبدا قانونا ! . .

فأسرع الى النافذة ، وبحث عن الصوت ، فاذا فتاته فى « روب دى شامبر » نسائى من الحـرير الأبيض ، تنظم « ازهار البنفسج » فى أصص ، على حافة النافـذة التى تحت نافذته ! . . . هى ؟ . . . هنا ؟ . . . تعيش فى حجرة اسـفل حجرته ؟! . . وثب قلب « محسـن » ، ونبض نضات ، خيل اليه انها سمعتها ، ولكنها مضت فى غنائها :

« اذا لم تحبنى فأنا أحبـك
واذا أحببتك فالويل لك ! . . »



المجرة رقم ٣٨

الفصل السابع

اسرع « محسن » وارتدى ثيابه ، ووقف بباب الفندق ينتظر خروجها ، فهو قد ادرك انها لا بد خارجة بعد قليل ! ... وهو يعلم أن شباك تذاكر « الاوديون » يفتح في الساعة الحادية عشرة، ولم يخب ظنه ، فقد سمع صوتها بعد لحظة وهى تنزل السلم سائلة صاحبة المنزل عن بريد الصباح ، فاستعد وضبط أعصابه ، وما كادت تدنو منه حتى تقدم اليها ، ورفع قبعته السوداء ، فرفعت أهدابها الجميلة وسددت اليه عينيها الفاروزيتين ، فأرتج عليه ، ولم يعرف كيف يبدأ الكلام !... وخيل الى الفتاة انها رات هذا المعطف ، وهذه القبعة السوداء ، من قبل ، وبدا على وجهها انها تذكرته !... فما أن رآى « محسن » منها ذلك حتى قال من فوره :

ـ نعم ، أنا هو !...

فابتسمت قليلا ، غير انها قالت :

ـ هو من ؟ ...

فخجل الفتى وارتبك ، ورات الفتاة خشونة ردها عليه فاستدركت :

ـ ان لم أخطىء الظن ، فأنت ياسيدى « زبونى » !! ...

ـ نعم ، أنا هو « زبونك » الدائم !... ولى الشرف أن اكون كذلك !...

ــ وما جاء بك الى هذا الحى الذى لا يعرفه الأجانب ؟.. معذرة من فضولى !!! .

ــ فضولك يا سيدتى هو كل ما أرجو وما أحب ... جاء بى الى هذا الحى ... الفضول !...

فابتسمت وقالت :

ــ ايضا !..

ــ بل شيء أكبر جدا من هذا ...

واحمر وجهه قليلا ، وخشى أن يكون الموقف قد طال ، وأنه قد قطع عليها السير ، فأبدى لها أسـفه سريعا ... وتنحى عن طريقها واستأذنها فى أن يسير الى جانبها قليلا حتى يتم حديثه ... فأذنت له ومشيا الى محطة «المترو» وهو يقول :

ــ انى جئت اليك احجز محـلا لمشاهدة قصة هـذا المساء ! ...

ــ شباك التذاكر ليس هنا !... انه هناك فى المسرح !..

ــ وما يمنع أن يكون فى اى مكان تحلين فيه ؟!... هو الذى يجب أن يتبعك !... ككل شيء وكل انسان !...

فالتفتت اليه تستجلى أمره ، وكأنما ادركت قليلا حقيقة فرضه :

ــ كيف عرفت انى اقطن هذا الحى ، وهذا الفندق ؟!..

ــ عجبا !... اتقطنين هذا الحى ، وهذا الفندق ؟!!... اذن انت تقطنين هذا الحى وهذا الفندق !..

فنظرت اليه فاحصة ، كمن ينظر الى مخلوق عجيب ، ولكنه مضى يقول :

ــ وافرحتاه !.. انا ايضا اقطن هـذا الحى ، وهـذا الفندق !...

فقالت فى لهجة المستريب :

ـ منذ زمن طويل ؟!..

ـ منذ .. لست أدرى .. نعم ، منذ زمن طويل !..

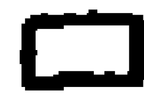
فلم تنبس الفتاة ، وساد بينهما صمت عميق ... وشعر «محسن» ببرد يكتنف الموقف وراى محطة «المترو» قد اصبحت منهما على قيد خطوات ، وخشي ان تضطره هي فجأة الى الافتراق عنها ، ولم يقل بعد شيئا يثبت الى الأرض هذه الصلة الطائرة ... فاندفع يقول فى غير تبصر :

ـ ما أجمل هذا الصباح !.. لقد استيقظت على اغنية « كارمن » تتصاعد من نافذة تحت نافذتى !.. لكن ... بأى صوت وأى غناء !! ...

وكأن الفتاة لم تسمع شيئا ، فقد لزمت الصمت، وكانت قد دنت من سلم « المترو » الأرضي . فالتفتت الى محسن ومدت يدها اليه قائلة ـ فى صوت كله تحفظ ، كأنها تخاطب شخصا لا تعرفه ، ولا تحرص على أن تعرفه :

ـ عم صباحا يا سيدى !...

وهبطت السلم ، واختفت فى لمح البصر ، تاركة الفتى فى مكانه ، كتمثال من الرخام قد غطاه الجليد !..



ثاب « محسن » الى رشده ، ولكن الدهش لم يفارقه ، لماذا تركته على هذا النحو ؟!.. أكان مسرفا فى حديثه ؟.. لكن لماذا ؟.. وماذا كان يجب عليه اذن أن يقول ؟!..

واسترسل فى التفكير برهة ، يقلب الأمر على وجوهه .. الى أن انتهى به حديث النفس الى شاطىء هادىء : الرجاء ، والرضى بما حدث حتى اليوم ، فان حياته منذ اليوم الى جوارها شيء ليس بالقليل ، بل انه الآن يستطيع ان يعرف عنها الكثير ... يستطيع أن يعرف اسمها على الأقل ، وأن

يعرف مع من تعيش هنا !... ولم يفكر « محسن » أكثر من ذلك ، فقد جرى لساعته الى الفندق ، وصعد الى الطابق الرابع ، وبحث عن الحجرة التى تقع أسفل حجرته، وقرأ رقمها : « ٣٨ » ، ثم نزل فى الحال الى صاحبة الفندق، فحياها فى ابتسامة رقيقة ، وحرك شفتيه مترددا لا يدرى بعد ، كيف يصل الى غرضه دون أن يبدو عليه شىء ، ولكن المرأة ابتدرته :

ــ أراض عن حجرتك يا سيدى ؟

ففتح هذا السؤال الطريق للفتى ، وقال :

ــ لا بأس بها . وان كنت أفضل الحجرة السفلى ؟...

ــ السفلى ؟... فى الطابق الرابع ؟... انها مشغولة يا سيدى !...

ــ تشغلها أسرة ؟؟ ...

ــ كلا يا سيدى بل آنسة بمفردها !...

فأخفى الفتى سرورا كاد يشرق به وجهه :

ــ بمفردها ؟! ...

ثم استطرد فى الحال :

ــ نعم !.. ان الحرب الكبرى قد جعلت الفتاة هنا كالشاب ، تسعى وراء رزقها بمفردها ! نعم !.. هذه الآنسة ، ان صدق ظنى ، فهى عاملة شباك التذاكر بمسرح الأوديون !...

ــ صدق ظنك يا سيدى !...

ــ نعم !.. انى أختلف الى الأوديون كثيرا .. هى ، ان صدقت ذاكرتى : « مدموازيل ... مارى » ؟! ...

فابتسمت المرأة ابتسامة ، لا أحد يدرى : ان كانت تنم عن خبث ومكر وادراك، أو انها لاتنم الا عن بساطة وملاطفة:

ـ خانتك ذاكرتك هذه المـرة ياسيدى ، انهـا تدعى « مدموازيل سوزى ديبون » !...

ـ « سوزى » ؟! ..

انزلق هذا اللفظ من بين شفتيه ، وهو فى نشوة من فرح داخلى يشبه الذهول ، وتنبه من فوره ، وضـبط نفسه ، والتفت الى المرأة وقال :

ـ اشكرك ياسيدتى على هذا الوقت الذى اضعته عليك ... اشكرك !...

ثم تركها وخرج الى الطريق سريعا يهمس :

ـ « سوزى » !...



أنبياء الشرق
وأنبياء الغرب

الفصل الثامن

انفق الفتى ما بقى من ذلك الضحى هائما على وجهه ، فى طرقات ذلك الحى ، جاعلا من شأنه البحث عن مطعم رخيص ، يلجأ اليه فى أيام الضنك ، وهى كل الأيام ، عـدا اليوم الأول والثانى من كل شهر ... وقد وجد ضالته فى شارع « مونيلمونتان » ! ... انها شبه « حانة » ، توسم فيها النظافة مع قلة النفقة ، فقد قرأ فى لوحـة من ورق « الكرتون » معلقة على بابها ، أن ثمن الاكلة الكاملة مـع زجاجة من النبيذ خمسة فرنكات بالتمام ، وكان الظهر قد اقبل ، وأحس « محسن » الجوع ، فدخل ذلك المطعم ، واتخذ له مجلسا فى أحد الأركان ، وجاءه الغلام ، فطلب اليه شريحة من لحم الثور ، مشوية مع البطاطس ، واعتدل فى جلسته مطمئنا يفحص وجوه الحاضرين !.. انهم جميعا من طبقة العمال ، أولئك الذين ينبذون الشوكة والسكين ويقطعون الخبز واللحم بمدية الجيب !...

ولكن الفتى لم يأنف من تلك السواعد العارية ، والجباه المتصببة عرقا ، والثياب التى تقطر بؤسا ، ف « محسن » لا يشعر دائما أنه فى مكانه ، الا بين أمثال هـؤلاء ، وهو يوم يدفعه الرخاء الى مطعم فاخر ، فانه يدخله دائما خائفا كالغريب ،ويجعل الفتى يقضم رغيفه قضما فى انتظار الغداء، ويصغى فى أعماق نفسه الى تلك الرباعيـة من رباعيـات

« عمر الخيام » : « اذا أردت أن تعرف الصفاء والسلام ، فاحدب على تعساء الحيـاة ، أولئك الضعفاء الفقـراء الذين يرتعدون في شقائهم ، عندئذ تظفر بالسعادة ! » ...

نعم انه فعلا يجد فى نفسه الآن شيئا من تلك السعادة الهادئة الصافية ، فى هذا المكان المتواضع ، وسمع حوارا على مقربة منه ، بين صاحب المطعم البدين ، وبين عامل من العمال شاحب الوجه حاد النظرات :

ـ لن أتناول اليوم لحما ، انى مريض !...

فقال صاحب الخان مشفقا :

ـ نعم !.. أرى ذلك ... انك تعيش وحدك فيما أعلم يا مسيو « ايفان » ...

ـ انى دائما وحدى فى الحياة !...

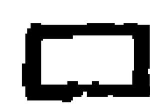
هذه العبارةالاخيرة استرعت التفات «محسن» ، لا لأنها ذات نغمحزين ؛ بل لأن الفتى كان يتصور أنه ، هو وحده، الذى يحيا دائما وحده فى الحياة ... انه يعلم أن المعتزلة اليوم قليل ، ولكم يشعر بحب وتقدير لأولئكالذينلاتطيب لهم السكنى الا داخل أنفسهم ، ذلك أن قليلا من الناسمن يملك نفسا رحبة غنية يستطيعأنيعيش فيها ، وأنيستغنى بها عن العالم الخارجى ... انه يعتقـد دائما أن الزاهدين الحقيقيين ليسوا الا أناسا ، لهم نفوسكالفراديس ، تشقها الانهار،وتنيرها الشموس ، وتتلألأ فيها الكنوز ، فهى عالم من الفتنة والسحر ، لا نهاية لبدائعه وأسراره !...

وأبطأ طبق الحساء على جاره العاملالمريض ، فأبصره قد أخرج من جيبه كتابا ، جعل يلتهم صـفحاته بدلا الطعام ، وود «محسن» لو عرف عنوان الكتاب !... ودفعـه حب الاستطلاع الى أن يميل بجسمه ويختلس النظر ، ففاجأته عين الرجل ، فارتبك الفتى وأشار الى الكتاب :

ـ معذرة هذا الفضول منى !٠٠٠انى أحب الكتب،لاشك انه كتاب لذيذ ٠٠٠

فأرسل اليه الرجل نظرات عميقة ، ولم يقل شيئا،لكنه مد يده ، وأرى الفتى العنوان على الغلاف ، فاستطاع «محسن» أن يقرأ :

« رأس المال » : كارل ماركس !٠٠٠



لم يمض النهار حتى نشأت صداقة وديعة بين «محسن» وذلك العامل الفقير ، وقد أنس أحدهما الى الآخر ، كما يأنس الغريب الى الغريب ، وهو الواقع٠فهذا الرجل روسى، ترك بلاده منذ بضعة أعوام ، وهو أيضا من أولئك الذين يعيشون على القراءة والتفكير والوحدة ، وقد دعا الفتى الى حجرته الصغيرة ، التى يقطنها فى احدى دور العمال ٠ فرأى «محسن» الكتب مكدسة فى كل مكان ، ولم يستطلع « محسن » شيئا عن دخيلة الرجل ، لكنه أحس أن الرجل قد فرح بمعرفته فرحا عميقا ، فقد قال وهو يعد له الشاى، على موقد فى أحد الاركان :

ـ لكم أشعر أن وطأة مرضى قد خفت قليلا منذ لقائنا ، لست أدرى لماذا ؟ ...

وقدم للفتى قدح الشاى ، وجلس هو على صندوق قديم من الخشب الابيض ، فقد أكرم ضيفه بالكرسى الوحيد فى الحجرة ، ورشف « محسن » رشفة وهو يقول :

ـ وأنت يا مسيو « ايفانوفتش » ؟ الا تحب الشاى ؟

ـ انى أفضل جرعة من « الفودكا » ٠٠٠ آه ٠٠٠ ان هذا الشراب مع « تولستوى » ، هما كل ما أحب الآن من الروسيا !٠٠٠

ولمح « محسن » بعض المرارة فى كلام الرجل ، فقال له فى سذاجة :

ـ كيف ذلك ؟ ان الروسيا الآن هى جنة الفقراء !...

فأجابه الرجل كالمخاطب لنفسه :

ـ أتظن ؟... ان جنة الفقراء لن تكون على هذه الارض!..

وصمت الرجل قليلا ثم قام الى زجاجة «الفودكا» فتناول منها جرعة وهو يقول :

ـ أنت أيضا ممن يعتقدون فى هـــذه الخرافة : جنـــة الفقراء ؟!... انى فكرت فى أمرها كثيرا ، ومن ذا الذى لم يفكر فيها ؟... تلك مشكلة الدنيا لم تحل : « وجود أغنياء وفقراء وسعداء وتعساء على هذه الارض » !... من أجل هذه المشكلة وحدها ظهر الرسل والانبياء ! ...

ـ يا مسيو « ايفان »...لست أرى رأيك فى أن المشكلة لم تحل !... ان الانبياء قد جاءوا من السماء بخير الحلول

ففكر الرجل قليلا ، ثم قال كالمخاطب لنفسه :

ـ أنبياؤكم أنتم ؟!... نعم هـــذا من الجائز !... ان الشرق قد حل المعضلة فى يوم ما ...هذا لاريب فيه ، ان أنبياء الشرق قد فهموا أن المساواة لايمكن أن تقوم على هذه الارض ، وانه ليس فى مقدورهم تقسيم مملـكة الارض ، بين الاغنيـــاء والفقراء ، فأدخلوا فى القسمة « مملـــكة السماء » ، وجعلوا أسـاس التـوزيع بين الناس « الارض والسماء » معا : فمن حرم الحظ فى جنـة الارض ، فحقـه محفوظ فى جنة السماء !... هذا جميل!...ولو استمرت هذه المبادىء ، وبقيت هذه العقائد حتى اليوم ، لما غلى العالم كله فى هذا الاتون المضطرم ، ولـكن « الغرب » أراد هـو أيضا أن يكون له أنبياؤه ، الذين يعالجون المشكلة على ضوء جديد ، وكان هذا الضوء منبعثا هـــذه المـرة ، من باطن

الارض ،لا آتيا من أعالى السماء ... هو ضوء العلم الحديث، فجاء نبينا « كارل ماركس» ، ومعه انجيله الارضى : «رأس المال » ، وأراد أن يحقق العدل على هذه الارض ، فقسم « الارض وحدها بين الناس ، ونسى « السماء » ، فماذا حدث ؟... حدث أن أمسك الناس بعضهم برقاب بعض ، ووقعت المجزرة بين الطبقات تهافتا على «هذه الارض» !!..

وتأمل « محسن » قليلا هذا الكلام ، ثم قال كالمخاطب لنفسه :

ـ كمن يلقى تفاحة بين أطفال يتلمظون !...

ثم عاد الرجل يقول :

ـ لقد ألقى قنبلة « المادية والبغضاء واللهفة والعجلة » بين الناس ، يوم أفهم الناس أن ليس هناك غير «الارض» ـ يوم أخرج « السماء » من الحساب ، لان علم الاقتصاد الحديث لا يعرف السماء ! ... أما أنبياء الشرق فقد ألقوا زهرة « الصبر والأمل » فى النفوس ، يوم قالوا للناس : « لا تتهالكوا على الارض ، ليست الارض كل شىء ! ... ان هناك شيئا آخر غير « الارض » يدخل فى «التوزيع» ! ». آه ! ... ان أنبياء الشرق هم العباقرة حقا ! ...

وصمت الرجل قليلا ، ثم مضى يقول :

ـ ان روح «المسيحية» ، كما نبعت فى الشرق: هى المحبة ، والمثل الاعلى ، وروح « الاسلام » : الايمان والنظام . ومسيحية اليوم فى الغرب : هى « الماركسية » وهى كذلك : لها مثلها الاعلى ـ لا فى محبة الناس بعضهم بعضا ، وتبشير الفقراء « بمملكة السماء » ، وحضهم على اعطاء ما لقيصر لقيصر ، وما لله ـ بل باغرائهم بمملكة ، تقام على أنقاض طبقة ، وأشلاء طبقة ، ونصحهم بالهجوم على قيصر ، وأخذ ما لقيصر ! ... وان « انجيل » هذا الدين : كتاب « رأس المال » تجد أيضا فى بعض صفحاته تنبؤات مخيفة ،

كتنبؤات « يوحنا » في رؤياه ـ ففيه توعد بانهيار هذا العالم ، وحلول عالم آخر قوامه العمال وحدهم !... أي اجسام تسير بغير رءوس فوق المناكب ؟! ... يا له من حلم مخيف! ...

أما « اسلام » العصر الحديث في الغرب : فهي « الفاشستية » ، وهي كذلك لها طابع الايمان والنظام !... ايمان لا بالله ، بل « بزعيم » من البشر ، ونظام لا يؤدي الى التوازن الاجتماعي بالتواضع والزكاة ـ انما هو نظام فرضته يد الارهاب ، ليؤدي الى مطامع الاستعمار ، والوثوب على الضعيف من الشعوب ! ... ولهذا الدين أيضا « كتابه » وخطبه « المنبرية » الملتهبة ، لا بحرارة عقيدة سماوية ، ولكن بحرارة قوة حيوانية ، وشراهة دموية ! ... آه أيها الصديق ... تلك هي الديانات التي استطاع الغرب أن يخرجها للناس ـ يوم أراد أن يزاحم الشرق ويخرج للعالم أديانا ! ...

فرفع « محسن » راسه بعد اطراق طويل ، ثم قال :

ـ يدهشني منك هذا القول يامسيو «ايفان» ، وأنت من العمال ؟! ...

ـ نعم ، أنا من العمال ، ومن الفقراء ... لكن ، لي من سوء الحظ رأس يفكر ، اني أعرف أن وعود أديان «الغرب» الجديدة كلها ... ان هي الا تغرير بالعمال والفقراء ... ان « الماركسية » و « الفاشستية » قد أخذتا عن أديان « الشرق » طرقها وأساليبها ، وفهمتا جيدا أن كل خطة النبي هي استمالة الساخطين والمتذمرين والمعوزين ، وهم الكثرة الغالبة !... هكذا فعل « عيسى » و « محمد » !... هل تبعهما ، أول الامر ، غير العبيد والأرقاء والفقراء والضعفاء ؟ ... ذلك أن طبقة الراضين والموسرين ليست في حاجة الى أن تتبع أحدا ! ... وهي مع ذلك قلة نادرة ،

وسط خضم الدهماء ، فالدهماء هم سند الدين،وهم القوة فى كف النبى ! ... لقد أدرك ذلك جيدا أنبياء أوربا فى العصر الحـــديث ودرسوا Technique النبـــوة على أيدى الاساتذة الشرقيين ، فبنوا كل شيء على أساس واحــد : « الدهماء » ! ... وجعلوا يتنافسون فى ارضاء هذه الكتل الآدمية بالوعود : وعود واقعة قريبة الأجل ، « وهنا كل غباء هـؤلاء الانبياء ! » ... ان التنـافس بين الدينيين ليبدو لى شديد الخطر ! ... وانى لأتنبأ لك ، منذ الآن ، بوقوع نوع من « الحروب الصليبيـة » بين « الماركسية » و « الفاشستية » ــ تحشد فيها الدهماء ضد الدهماء ، وتتناثر فيهـا الجثث ، وتتطـاير الأشلاء ... هـذا كل مكسبنا ... انهم لن يبقوا لنا حتى على ذلك الوهم اللذيذ ، والعزاء الجميل الذى غمرنا فيه أنبياء الشرق الحقيقيون !

ــ اى وهم وأى عزاء ؟ ! ...

ــ جنة السماء ، ومملكة السماء ! ...

ــ اتسمى هذا وهما ؟ ! ...

ــ آه معـذرة ... معـذرة ! ... انك مؤمن ! ... ما اسعدك أنت ! ... وما أحسن حظك ! ...

هـــدية !

الفصل التاسع

خرج « أندريه » من العمل فى استراحة الغداء ، فوجد رسالة من « محسن » تنتظره ، فلم يدهش ، ان رسائل « محسن » اليه قد كثرت ، منذ أن غادر منزل الاسرة فى « كوريفوا » جاريا خلف قلبه

فض « أندريه » الرسالة وقرأ :

« عزيزى « أندريه » !...

« لم أزل أستيقظ على غنائها ، لكن قد حدث أمر جلل هذا الصباح ، بينما أنا قرب النافذة ، أصغى اليها خفية، اذا الباب يطرق ، واذا « الغسالة » قد حملت الى ثيابى النظيفة ، وقدمت الى ورقة الحساب : عشرة فرنكات،فلمعت فى ذهنى حينئذ فكرة أعجبتنى ، وأرجو أن تعجبك ، ذلك انى تناولت الورقة وسطرت فى ذيلها : « سيدتى !... لا أجد معى الساعة نقودا ، فاذا تفضلت وأديت عنى الحساب فانى لا أنسى لك هذه اليد ، ولك جزيل الشكر سلفا مع احترام المخلص : جارك رقم ٤٨ » ودفعت الورقة الى الغسالة، وأحلتها على الحجرة السفلى ، التى تقطنها جارتى «مدموازيل ... س » ...

ومضت الغسالة بالفعل ، وبقيت أنا أرتجف قلقا ... أتراها تؤدى عنى ؟... واخجلتاه اذا رفضت !... واذا قبلت فما يكون معنى هذا ؟...

« ينبغي أن أبادر فأبشرك ، لقد عادت الغسالة الى بعد هنيهـة ، تقول في ابتســام : ان « مدموازيل ... س ، جارتي ، ـ قد دفعت في الحال ، دون أن تنبس بلفظ !..

« ماذا تقول في كل ذلك ؟...

محسن ... »

ابتسم « أندريه » وطوى الرسالة ، وأشعل لفافة تبغ ودخن قليلا ، ثم أخرج ورقة وكتب :

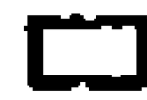
« عزيزي محسن !...

« ماذا أقول في كل ذلك ؟... أقول : ان عهدي بالمحبين أن يظهروا دائمـا أمام الفتيات ، بمظهر النعمـة واليسر والرخاء ، وأن يكونوا هم على الاقل الدائنين وقت الاقتضاء ، ولكنك قد عكست الوضع ، وأصبحت مدينا لفاتنتك بكل شيء ، أي : « بالقلب وبفاتورة الحساب » ... ان مسألة التجـائك في الاقتراض الى «مدموازيل ... س » ، ولما تتوثق بينكما المعرفة ، لغاية في الجرأة !... واني لأعجب جدا لهذا الحادث ، وأرى فيه فجر عهد جديد في تاريخ الغرام !...

أندريه ... »

مرت أيام بعد ذلك ، والفتاة تصادف الفتى ، تارة بباب الفندق وتارة في المصعد ، ولاغرابة في ذلك، فهما متحدان في المسكن إنما الغريب في الامر أنه منذ أن أدت عنه الحساب لم يعد يقبل عليها ، ذلك الاقبال الذى كانت تراه منه، ولم يعد يحييها الا تحية مختصرة ، واذا جمعهما المصعد ، فهو مطرق لايريد أن يتكلم ، ولا أن يشير بحركة تنم عن اهتمام لأمرها ، هو الذى كان ينتظر منـه أن يبادر فيشكرها على عطفها الكريم .. انه لم يشكرها ، بل انه لم يشر قط الى ما حدث بذكر أو تلميح ، وانفردت « سوزى » في حجرتها ذات مساء ، وجعلت تفكر قليلا في أمر هذا الفتى الغريب:

أهو شرقى : متوحش ، لايعــرف الآداب واللياقــة ؟!٠٠٠ ولكن الامر فى ذاته أبسط من أن يحتاج الى معرفة بالأدب أو اللياقة ، ولا يمكن أن يكون ذلك الفتى جاهلا ، انما هو تصرف مقصود ، لماذا ؟٠٠٠ هذا ما لم تهتد اليه الفتاة٠٠٠ ان هذا الفتى غريب الاطوار ٠٠٠ هــذا كل ماتستطيع أن تفهمه !٠٠٠



لم يكد ينتهى الاســبوع ، حتى تلقى « أندريه » هــذه الرسالة :

« عزيزى « أندريه » !

« الآن آن الأوان أن أفى بدينى ، ولا يليق أن أرد اليها عشرة فرنكات ، انما يحسن بى أن أقدم اليها هدية ٠ ماذا ترى أن تكون هديتى اليها ؟٠٠٠ أشر على سريعا !٠٠٠

محسن ٠٠! »

فأسرع الفرنسى وأرسل الجواب :

« عزيزى « محسن » !

« ان «باريس» كلها لم تخلق الا للنســاء ، وكل تجارة باريس هى فى الهدايا التى تقدم الى النساء ٠٠٠ ما عليك الا أن تمشى قليلا فى أى شارع من شوارع باريس ، فانك واجد عشرات الحوانيت،التى تعرض ما تشتهى لصاحبتك من حقائب اليد ، وصناديق « البودرة » والقبعات والجوارب والعطور والزهور ، وقد مضى نصحنا لك فى هذا ولم تقبل النصح !٠٠٠

أندريه ٠٠٠ »

قرأ محسن هذه العبارة ، وردد كالمخاطب لنفسه ، فى غير اقتناع :

حقائب يد ، وصناديق « بودرة » ، وزهور وعطور!٠٠٠

أشياء لا معنى لها ، انك أحمق يا مسيو « أندريه » !...

ثم مزق الرسالة ، ووضع القبعة السوداء على رأسه، ونزل الى الطريق هائما على وجهه ، طول يومه ، فيشوارع باريس ، يفكر ويبحث عن الهدية ، دون أن يدخل حانوتا، أو يرسل عينيه الى وجه متجر ، فهو لم يعتد النظر إلا الى واجهات حوانيت الكتب !... وقادته قدمه مصادفة ،آخر الامر ، الى سوق الطيور فى الضفة اليمنى من نهر السين! ... وقرع سمعه صوت ببغاء صغير ، ينادى المارة بصفيره وكلماته الملقنة ، فرفع «محسن» بصره ، وتفكر هنيهة ، ثم دخل الحانوت لوقته وابتاع الببغاء ، وخرج حاملا قفصا ، ينبعث منه صفير وضجيج ، ومشى به مشية المنتصر الذى ظفر بضالته ! ... ولكنه لم يسر خطوات فى الطريق ، حتى وجد القفص الذى فى يده قد تبعته القطط والكلاب الضالة ، واذا منظره ، وهو حامل الببغاء ، وكلاب الحى خلفه ، قد بدأ يستلفت أنظار المارة !...وخشى أن يجتمع حوله العاطلون والصغار ، فاستأجر سيارة حملته معالهدية الى الفندق ... وما ان أوى « محسن » الى حجرته حتىخلع ثيابه على عجل ، وجلس الى ببغائه طول الليل ساهرا ، يلقنه كلمات وعبارات ... الى أن رضى عن هذا التلميذ الصغير ، فوضع فى عنق قفصه حبلا رقيقا ، وفتح نافذته، وأدلى بالقفص فى الفضاء الى أن حط على حاجز الفتاة ، ثم جعل يناجيه ، مناجاة « حافظ الشيرازى » للببغاء فى قصيدته التى قال فيها :

« أيها الببغاء !... أيها الناطق بالأحاجى احرص الى الأبد على ريشك زاهيا فى لونالياقوت ، وعلى قلبك فياضا بالمرح !... آه أيها الحظ !... اسكب على وجوهنا ماء الورد ، ولا تبح للصاحى بأسرار النشوة !... نعم ، ان الحكمة هى الثراء الحقيقى ، ولكن .. كم تساوى الى جانب نظرة الحب ؟!... »

استيقظت « سوزى » فى الصباح ، واتجهت الى نافذتها مترنمة كعادتها ، وما كادت تفتحها حتى رأت نفسها أمام ببغاء فى قفص » فدهشت !••• ثم أبصرت الحبــل المدلى ، فأدركت من أين هبط ، فرفعت عينيها الى الطابق العلوى ، واذا الفتى فى نافذته يبسم لهــا كأنما كان فى الانتظار ، وحياها تحية الصباح فردت عليه التحية باسمة،ثم أشارت الى القفص قائلة :

ـ لمن هذا ؟•••

ـ لك !•••

ـ لى أنا ؟ شكرا يا سيدى ، لكن لماذا ؟•••

ـ هذا ما استطعت أن أقدمه اليك ، اعترافا بجميلك ، فأرجو أن تقبليه منى !•••

ـ ما أجمل هذا الببغاء ! ما اسمه ؟ ! . . .

ـ اسمه . . . « محسن » ! . . .

ـ محسن » ! . . .

وما كادت الفتاة تنطق هــذا الاسم حتى صــفر الببغاء وصاح :

ـ أحبك ، أحبك ، أحبك !•••

فضحكت « سوزى » وقالت :

ـ عجبا ••• من لقنه هذه الكلمات ؟•••

فأجاب الفتى لفوره :

ـ لا أحد . . . فى «عينيه نظر» هذا كل ما فى الامر ! . . .

فابتسمت الفتاة لهذا الجواب • وقالت :

ـ أكرر لك شكرى يا ••• مسيو •••

ـ أتسمحين أن أقدم اليك نفسى ••• ولو أن التقدم من

هذه النافذة العالية لايسمى تقدما ... فالاصح أن أقول : ان ألقى اليك بنفسى !...

فضحكت الفتاة وقالت :

ـ يسرنى بالطبع ذلك،غير أنى لا أضمن لك الوصول سالما الى نافذتى ، فألقى باسمك وحده الآن فهو يكفى ...

فقال الفتى :

ـ اسمى « محسن » !...

فنظرت اليه نظرة استغراب وقالت :

ـ كالببغاء ؟!...

ـ نعم !...لى الشرف أن يكون اسمى كاسم ببغائك !..

فابتسمت ولم تجب ، وظن محسن أنه قد تحدث اليها أكثر مما ينبغى ، وخيل اليه أنه ربما أثقل عليها ، وخشى أن يزيد فى الكلام ، فتبدر بادرة تمحو من شفتيها هذا الابتسام ، فحياها سريعا باشارة خفيفة ، وابتعد عن النافذة مختفيا لفوره عن أنظارها ... ثم جلس الى مكتبه يتأمل الامر...عجبا !... مامعنى الجلوس ؟... وفيم التأمل؟! ... لقد كانت أمامه ، وكان بينهما حديث... لماذا تركها؟ ... ألا يجدر به أن ينهض من مقعده ويعود اليها ؟... ولكن نافذتها كانت قد أغلقت !...



مملكة الخيال

الفصل العاشر

شعر « محسن » حوله ببرد الوحدة . وأراد أن يحادث أحدا ، أو يذهب لمقابلة أحد ، غير أن الوحيد الذى يستطيع أن يفضى اليه بشىء هو « أندريه » !... انه ليس مجنونا حتى يخبر «أندريه » فيسخر من خيبته.ويلقى على مسامعه مرة أخرى : « ان المرأة تكسب بالواقع لا بالخيال » آه ، الواقع ! الواقع هو ... انه هوالواقع فى حب لا أمل فيه، ولا يجد الى جانبه حتى من يعزيه!...وتذكر «ايفانوفتش» .. نعم ، لعل ذلك الروسى ، المنفى مثله فى مجاهل «العزلة»، يستطيع أن يسرى عنه الساعة ، بحديثه الغريب،واطلاعه، وتأملاته ...

وكان المساء قد أقبل ، وأدرك أن صاحبه لابد قابع فى حجرته الحقيرة ، تحت سقف ذلك المنزل العتيق ، فذهب اليه من فوره فوجده كما توقع أن يراه،جالسا فوق صندوقه الخشبى ، كما يجلس الثراة فوق « الشيزلونج » ! .. وبين يديه كتاب ضخم ، ينهل من صفحاته ، كما ينهل الالمانى من كوب « جعة » ذى زبد !...

فما ان رفع رأسه ، ورأى الفتى ، حتى أشرقت أساريره المظلمة وانتعش قليلا وجهه الذابل ، وطرح الكتاب من يده، ونهض يهيىء للزائر مكانا خليقا بجلوسه ، فمنعه «محسن» باشارة سريعة ، وبادر فقعد مثله على حافة الصندوق ، وصمت قليلا . وبدا عليه أنه يريد أن يقول شيئا فى نفسه،

ولم يتردد طويلا ، فقد انفجر على الرغم منه :

ـ يا مسيو ايفان !··· انى لست سعيدا ، ولعلك أنت أيضا كذلك !··· ان سر تعاستنا هو أننا نعيش فى هذه الحجرات المغلقة ··· اننا نجهل الواقع وطرائقه المباشرة ··· لا شيء يكتسب بالخيال فى هذه الحياة !···

فهز الروسى رأسه ، وابتسم ابتسامة ساخرة وقال :

ـ من علمك هذا أيها الشرقى ؟! ...

ـ هى البداهة ، ولكن أعيننا هى التى لا ترى !···

ـ لا ، لست أصدقك · ذاك كلام لاينبغى أن يقوله مثلك ···

فمر طيف « أندريه » برأس « محسن » لكنه لم يقل شيئا ومضى « ايفان » يقول :

ـ الواقع والطرق العملية المباشرة ؟!··· تلك بالضبط كل حياة الحيوان!···الفاصل الوحيد بين الانسان والحيوان هو «الخيال» . ان اليوم الذى يستطيع فيه الحيوان أن يحيا دقيقة واحدة ، خارج الواقع والمادة ، اليوم الذى يلجأ فيه الحيوان الى طرق معنوية غير مباشرة للوصول الى غاياته ، اليوم الذى يستطيع فيه الحيوان أن يمضى الليل « يحلم » فى غابته المقمرة بدلا من مطاردة الفريسة ، ـ هذا اليوم يكون آخر عهده بالحيوانية · « الحلم » هو العالم العلوى الذى لايدخله حيوان !··· « الخيال » هو تاج السيادة والسمو الذى تميز به الانسان !···

وسكت لحظة ، فقال محسن :

ـ نعم ، ولكن « الواقع » ···

فانطلق الروسى :

ـ « الواقع » ؟··· الواقع ··· انى لا أحترم الآن كثيرا هذه الكلمة !···

ومر طيف « أندريه » مرة أخرى برأس الفتى···حقيقة

أن صديقه الفرنسي هو الذى يذكر دائما هذه «الكلمة » ، ولكن هذا الروسي الثائر ، الواقف في منتصف الطريق بين الشرق والغرب !... من يضمن لمحسن أنه على حق في كل هذه التصورات ؟... وبدأ الشك على وجه الفتى...وقرأ « ايفان » ما يجول بخاطره ، فصاح به وهو يهزه من كتفيه:

ـ آه !... « الخيال » ... هو ليل الحياة الجميل !... هو حصننا وملاذنا من قسوة النهار الطويل ... ان عالم « الواقع » لايكفى وحده لحياة البشر !... انه أضيق من أن يتسع لحياة انسانية كاملة !... نعم ، مرة أخرى أقول لك ، اني شديد الاعجاب بأنبياء الشرق !... ان المعجزة الحقيقية التي جاءوا بها : هي أنهم قدموا للناس عالما آخر عامرا بسكان من ملائكة ذوات أجنحة جميلة بيضاء ، زاخرا بجنات : فيها انهار من التمر ، وأشجار من الزمرد ، راعدا بنيران : تتأجج بلهب زرقاء ، كألسنة الابالسة ، الهائمة كالخفافيش !... في هذا « العالم » استطاعت البشرية أن تعيش ، حياة أغنى وأحفل من حياة الواقع !... «الغرب» ايضا حاول ذات يوم أن يخلق للناس مثل هـذه العوالم ، فظهر فيه أنبياء الخيال، منشئو «الأتيوبيا» ، فصنع «توماس مور » : « جزيرة الخيال»، و «كامبانيلا» : «مدينة الشمس» و « موريللى » : « قانون الطبيعة » . و«كابيه» : «رحلة الى ايكارى » !!... ألعاب صبيانية ، كتلك القصور والقلاع والجنان ، التى يقيمها الاطفال على شاطىء البحر من الرمال! ... نعم ، خيال مرتب بيد المنطق ، مزين بنظريات العلم والفلسفة ، كما تزين قصور الصبية بأوراق الحلوى الفضية الذهبية !... لكن ، كم من البشر عاش فى هذه «العوالم» التى صنعتها أيدى « العلماء » أنبياء الغرب ؟؟... آه ، ان الغرب انما عاش أجمل حيـاته في ذلك الحـلم السماوى ، وذلك العالم العلوى الذى صنعه الشرق ، وان ضياع الغرب لم يبدأ الا يوم أفاق من هذا الحلم ، ونزل الى عالم واقعه ،

يدب فى هضـــابه المتحجرة ، ووديانه الجافة ، كمـا تدب الحشرات !...

وسكت الروسى لحظة ، ثم عاد يقول :

ــ آه !.. السماء ، الجنـــة ، الجحيم !... جرد عالمنا الارضى من هذه الكلمات الثلاث التى بنيت فى الشرق، تنهار فى الحال أروع أعمالنا الفنية !... كل ما استطعنا أن نخلق من جمال ، انما صنع تحت نور شـعاع من أشـعة مملكة السماء ، انى أعرف أن « الغرب » اليوم موضـع تقـدير واكبار ، لعلمه واستكشافاته وانتاجـه واختراعاته !... لكن ، ما قيمة هذا الى جانب ذلك الاستكشاف الاعظم الذى ظهـر فى الشرق ؟!... ان الغـرب يستكشف الارض ، والشرق يستكشف السماء !... ان الذى اســـتطاع أن يغمر البشرية كلها فى حـلم يدوم الاحقـــاب ، ان الذى استطاع أن يصنع مثـل هـــذا « الحلم » ــ لهو حقيقـــة فوق مستوى البشر !... انا نمجـد ذلك الذى أوجـــد للانسانية ، وأسكن الانسانية ، « قارة جــديدة » ... لكنا لانرى مجـد ذلك الذى أصـــعد الانسانية ، وأسكن الانسانية : « السماء » !...

وتأمل محسن مليا قول الروسى وهو مطرق !...

نعم ، انه ليشعر دائمـــا أنه لايسكن الارض وحدها ، ان حياته ممتدة أيضا الى السماء ، وان له أصدقاء وأحباء وحماة من القديسين ، أهل السماء.. انه لن ينسى «السيدة زينب » الطاهرة وفضلها عليه فى الملمات ، ان لها وجودا حقيقيا فى حياته !... ما من مرة وقع فى شدة ، الا وجد العزاء عند باب ضريحها ذى القضبان الذهبيـــة ... كل نجاح ظفر به فى الحياة ، هو دفعة من يدها ، وكل عطف هو نظرة من عينيها ، وكل ابتســـامة من الحظ انمـا هى ابتسامة من شفتيها ! ... انه يتخيـــل هيئتها ووجهها

وملامحها !... ويعتقد أنها في السماء بردائها الابيض ، انما تنظر اليه دائما وترعاه وتجعله من شأنها ، كان هذا هو كل عملها !...

لكن هناك ساعات تتجهم له فيها الحياة ، وتقسو عليه الظروف ويرى كأن « السيدة » قد نسيته ، فيفطن ويذكر لوقته أنه فى تلك الساعات ، وتلك الظروف ، انما هو الذى كان قد نسيها !... نعم ، انها لاتنسى ألا من ينساها ... اننا ـ أهل الارض ـ لنشغل أحيانا بما نصادف من فوز أو لذة أو متعة ، فنقع فى غشيه من غرورنا ... ننسى معها أنفسنا وننسى السماء وأهلها . عند ذاك تتركنا السماء في حقارتنا الارضية ، ووحدتنا الباردة ، فلا نستيقظ ، ونرى ما صرنا اليه ، الا يوم نحتاج الى حرارة العزاء والى العطف العلوى ...

ذكر الفتى كل ذلك ... لقد كان مسجد «السيدة زينب» هو المكان الذى يقضى فيه نهاره أيام الدرس ، وكانت « السيدة » هى التى تقلب له صفحات الكتب ، فيما خيل اليه ، وكانت هي التى تصبره وتشد عزيمته ، وهى التى كانت تجفف ـ بأناملها الرقيقة النقية ـ دموع حبه الاول ، وآلامه الاولى . أنه لم يكن وحيدا ...

آه ... ما أقوى الانسان الذى يعتقد أن له صديقا ونصيرا من أهل السماء !... انه كان يحملها نصيبها من التبعات اذا أخفق في خطوة ، فان « السيدة » هى التى تخلت عنه ، ولعلها أرادت هذا الاخفاق لحكمة لايعلمها هو ، واذا وضع أمله فى شيء اتجه اليها ضارعا : أن تقف الى جانبه ، وتضم همسها الى همسه ، وصوتها الى صوته فى رجاء « الله » !... ان هذا الاحساس جميل ، وهذا الاعتقاد مريح !...

نعم ، لو شعر « محسن » لحظة أنه فى وحدة مطلقة ،

وأن السماء ليس لها وجود ، وأنها جرداء جدباء ، غير عامرة بكائنات عليا ، تتصل حياته بحياتها ، وأنه قد خلى بينه وبين هذه الارض وحدها الى الابد ، لما عرف كيف يستطيع تحمل الحياة يوما واحدا !...

عندئذ لمعت فى رأس الفتى ـ كسنا البرق ـ صـــورة من حياته فى الغرب ، وللمرة الاولى تنبه الى أمر مخيف : انه لم يذكر « السيدة » فى حرارة الا الآن ، بعد حـديث « ايفان » !...

لقد مرت الايام تلو الايام ، وهو يطالع أفكارا مختلفـة من الاغريق الى « فولتير » ، ويشاهد وقائع مضطربة ، من أزمات القرن الماضى الى انقلابات ما بعد الحرب !... انها لحمى تعصف بكل رأس ، وان رأسه قد أصبح كبقية ما حوله من رؤوس ، فقاعة بين فقاقيع تملؤها الافكار والحوادث ، وتتدافع فى شبه اناء من خمر مغلى !... ليس فى حياته اليوم اذن مكان تهبط فيه « السيدة » بردائها الابيض!... وان روحه ... قد غار ، كما يغور النجم تحت شمس رأسه المحترق !...

آه ... انه قد نسى حاميته التى فى السماء !... لو أنه أحس يدها على كتفه ... لما تعثر فى خطاه أمام صـــورة « سوزى » !...

اللقاء الصامت

الفصل الحادى عشر

فتح « محسن » عينيه فى الصباح ، على شبه صوت ملائكى ينادى اسمه ! . . . اتراه صوتا آتيا من السماء ؟ . . ولكن النداء تكرر واضحا عذبا ، فوثب الفتى من فراشه ، واصغى ثم ابتسم : انه آت من النافذة السفلى . . عجبا ! . . انها « سوزى » تقول فى نغمة موسيقية :

ـ محسن ! . . محسن ! . . .

فأسرع الفتى الى النافذة كالمجنون :

ـ اتنادينني ؟ . . .

فرفعت الفتاة أهدابها الجميلة ، فى شيء من الدهشة ! . . . ورأى الفتى يدها على قفص الببغاء ، تقدم اليه حب « القرطم » فأدرك كل شيء ، فتخاذل وارتبك :

ـ معذرة ! . . . لقد نسيت أنى أشترك مع ببغائك فى عين الاسم ! . . .

ورآها تبتسم ، ورأى جمالها فى ذلك الصباح الباكر انضر من زهر « النرجس » فى أصص نافذتها ، فتشجع وقال :

ـ نعم ، انى اشترك مع هذا الببغاء فى الاسم ، ولكنى لا أشترك معه فى الحظ ! . . . ان الفرق بيننا عظيم . . انه هو الذى يحظى بعنايتك ، فتنادينه ، وتناجينه ، هذا

الأحمق الذى لا يشعر بمقدار ما يناله من سعادة ! ...
آه ... لأولئك الاشتراكيين الذين يطلبون المساواة بين الناس فى الحظ والنصيب ، وأنا لا أستطيع أن اطمع فى مساواتى ، فى الحظ والنصيب ، بهذا الببغاء ! ...

فضحكت الفتاة وقالت :

ــ اتراه مطمعا عسيرا ؟ ! ...

ــ أن أكون مثل هذا الببغاء ؟ ... لست أطلب شيئا الا أن أكون مثله بالضبط ! ...

ــ ولكنك لست فى قفص ! ...

ــ آه يا سيدتى ! ... انى فى قفص ، لا يراه كل الناس !...

فنظرت اليه الفتاة مليا ، ثم قالته باسمة :

ــ اذا كنت حقيقة كذلك ، فأنت تستحق اذن شيئا من ذلك العطف ، الذى تمنحه الطيور السجينة فى الأقفاص !

فاسرع الفتى يقول فى تضرع :

ــ ثقى انى أشد طيور الأرض استحقاقا لعطفك ! ...

فسألته الفتاة :

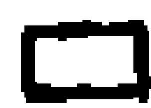
ــ وما نوع العطف الذى تريده منى ؟ ... انى بالطبع لا استطيع أن أقدم اليك قليلا من « القرطم » ! ...

ــ انك تستطيعين أن تتناولي معى قليلا من « القرطم » ... هذا المساء فى مطعم ... فى اى مطعم يروقك ! ؟ ..

فضحكت الفتاة ضحكة طويلة رقيقة :

ــ يا لك من مداعب ماهر ! ...

ــ أنا ؟ ... يا سيدتى ! ... لاول مرة أسمع من يصفنى بالمهارة فى شىء ... شكرا لك ! ...



لم يأت العصر ، حتى كان « محسن » فى منزل «أندريه»

بقيم الدنيا ويقعدها ، وقد أجلسه صديقه الفرنسي أمام المرآة ، وجعل ينظم له شعره الأشعث ، بينما أخذت « جرمين » ، تنظف معطفه الأسود بالبنزين ، وتزيل عنه البقع . ورأى الفتى اهتمام زميليه ، فصاح يحمسهما :

ــ نعم ، اصنعا مني انسانا خليقا بلقاء فتاة جميلة ! . .

فابتسمت « جرمين » ، وقالت :

ــ عرفت اسمها أخيرا ؟ . . .

ــ سوزي ! . . .

لفظها الفتى همسا ، وكمن يرتل صلاة ، ولكن « جرمين » سمعته فقالت باسمة :

ــ اسم جميل . . . والموعد : أين ؟ . . . ومتى ؟ . . .

ــ هذا المساء فى محطة « المترو » ! . . .

ــ وبعد ؟ . . .

ــ سنتناول العشاء ! . . .

ــ فى اى مطعم ؟ . . .

ــ آه . . . صدقت . . لست أدرى . . . ياللمصيبة ! . . . نسيت التحرى عن المطعم الموافق . . . أسرع ! . . . اسرع يا « أندريه » وخبرنى عن رأيك فى هذا الموضوع الخطير ! . . . .

فصاح « أندريه » يائسا :

ــ لا تهتز هكذا ، لقد فسد ترتيب شعرك ، وتبعثرت خصلاته من جديد، آه . . لقد ضاع تعبى فيك سدى ! . .

ــ ولكن موضوع المطعم ذو اهمية كبرى ! . . .

ــ لا شيء أتفه من موضوع المطعم . . هذا الذى تصفه بالخطر والأهمية الكبرى ! . . . كل شيء تافه تتخيله أنت دائما هائلا ، لو كنت مكانك لأخذتها ، بكل بساطة الى مطعم « كاردى » ! . . .

فضحكت « جرمين » ضحكة طويلة ، فنظر اليها زوجها نظرة العجب :

ـ لماذا تضحكين ؟ ! . . .

ـ انه المطعم الذى ذهبت بى اليه يوم لقائنا الأول ، ومع ذلك . . لم تشأ يومئذ ان تطلب من أجلى «أوردفر فاريه» !..

ـ أمازلت تذكرين تلك الحماقات ؟ !. . .

فصاح « محسن » وهو يلتفت اليهما :

ـ آه أحسنتما صنعا بهذه الحماقات ! . . . سأطلب لها انا هذا « الاوردفر فاريه » ! . . .

فانتهره « أندريه » :

ـ قلت لك : لا تهتز ! ولا تتحرك ، حتى أفرغ واطمئن على منظرك ! . . .

فالتفت الفتى الى المرآة وهو يقول فى قلق :

ـ وهل تعتقد أن الحال سيدعو الى الاطمئنان ؟ ! . .

ـ ان الأمر على كل حال لا ينبغى أن يدعو الى اليأس !..

فسكت « محسن » على مضض . . . ثم عاد يقول سريعا ، كمن تذكر شيئا هاما :

ـ اسمع يا « أندريه » ! . . . فى جيب معطفى قارورة « هوبيجان » من الصنف الغالى ، اشتريتها عملاً بنصائحك الغالية . . . أترى أن أتعطر منها قبيل اللقاء ! ؟ . . . انها كفيلة أن . . .

ـ المسألة ليست مسألة « هوبيجان » ! . . .

ـ تريد أن تقول . . .

فألقى « أندريه » نظرة أخيرة على شعر « محسن » ووجهه ، ثم صاح فى نبرة مرحة :

ـ أريد أن أقول ان لك الآن وجه عاشق يستطيع أن يذهب توا الى موعده ! . . .

فنهض « محسن » واتجه الى « جرمين » الباسمة :

ـ أهو يخدعني ؟ !

فقالت « جرمين » للفور وهي تقدم اليه المعطف :

ـ انه يقول الحقيقة .. البس معطفك ، وانطلق مطمئنا ، ايها الفتى السعيد ! ...

فارتدى « محسن » معطفه ، ووقف امام المرآة يتأمل هيئته طويلا :

ـ المسألة مسألة ذوق ! ... ما دام المنظر يصلح في رايكما للذهاب الى المواعيد ، فليس من الكياسة أن أطعن في ذوقكما ! ... الى الملتقى ! ...

قالها وهو يتحرك الى الباب ، رافعا قبعته السوداء في الهواء ، وشيعه « أندريه » وزوجته الى السلم ، وهما يقولان باسمين :

ـ تشجع ! ...

انتظر « محسن » الفتاة الى أن جاءت ، وذهبا الى « بوكاردي » فتناولا العشاء ، ثم خرجا الى « الجران بولفار » ، فشربا القهوة في أحد المشارب ، ودقت الساعة العاشرة ، فنهضت « سوزي » طالبة العودة الى مسكنها ... عند ذاك فقط أفاق الفتى وثاب الى رشده .. وأحس فجاة الجوع ، فهو لم يأكل شيئا في المطعم ، هو الذي كان قد دخله جائعا ، فخرج منه جائعا دون أن يشعر ! .. وهل كان في مقدوره ، وهو الى جانبها ، أن يفكر في اكل أو شرب ؟ ! ... ان المعدة لتنام عندما تستيقظ الروح ! .. انه لا يذكر شيئا من امره ، لكنه يذكر كل شيء من أمرها هي ، يذكر حركة يديها الرشيقتين وهي تتناول « الاوردفر فاريبه » ، ويذكر جمال فمها وهو يشرب « البورجوني » ، ويسمع صدى ضحكاتها الرقيقة الخافتة ، عندما كانت تراه يذهل عن الطعام بالرنو اليها ، أو الكلام

الطويل فى أشياء لم يعد يذكر ما هى ...

ومرت الساعات ، كأنها اختلاجة من أهدابها ، وها هو ذا قد حان وقت الافتراق عنها ! ... لا ، هذا مستحيل ، أبهذه السرعة قد وصلا الى باب النزل ؟ ... لماذا يقسو القدر على الناس هذه القسوة ؟ ان الساعة لتطول كأنها الدهر عندما نقع فى كرب أو بلاء ، وأنها لتقصر كأنها ابتسامة عابرة عندما نجتاز النعيم ! ... ولم يرع الفتى الا يدها تمتد اليه مودعة قبل أن تدخل النزل ...

ـ لا ، ان الوقت ما زال متسعا ، ونحن ما زلنا فى اول الليل ، وعندى كلام لم أفض بعد به اليك ...

قالها « محسن » وهو محتفظ بيد « سوزى » فى يده فى حرص وخوف ... فقالت الفتاة :

ـ انى لا أستطيع طبعا أن استقبلك فى حجرتى الساعة ، ولا أن أصعد الى حجرتك ، فافض اذن بما تريد ها هنا الآن ، أو ... فلنسر قليلا فى هذا الشارع ...

ومشينا جنبا الى جنب فى ذلك الطريق الطويل ذى الأشجار الكبيرة ، الى أن بلغا حدود « بورت دى ليلاس » ، وعادا من عين الطريق الى أن اقتربا من ميدان « جامبتا » ، وفاجأتهما الأنوار فرجعا ادراجهما يحتميان فى ظلام الأشجار ، والفتى لا ينبس ، وهى صامتة صمت من ينتظر منه الافضاء بشىء ... وكانما عيل صبرها . فقالت فى صوت خافت رقيق :

ـ ماذا كنت تريد أن تقول لى ؟

ـ كل شىء ! ...

ـ انى مصغية اليك !

فأراد « محسن » أن يتكلم ، لكن الألفاظ هربت من رأسه كما تهرب العصافير من الأقفاص ... أن لديه

احساسا عاريا ، ولا ينبغي أن يظهره عاريا أمام سيدة ! . . لا بد له من ثوب أنيق ، فالمرأة يسرها دائما الثوب الأنيق ، وان كان على جسم نحيل من عاطفة نحيلة ! . . . ان هذه الفتاة لا شك تدرك ما عنده ، وهى لا تكتفى بذلك ، وهى انما تدمى قدميها ، سيرا فى هذا الليل ، لتسمع الفاظا يلذ لها سماعها فى ذاتها . . فماذا تراها تفعل بمشاعر قوية فى اطمار بالية

وخشى « محسن » العاقبة ، وتغلب عليه الوهم فقال كالهامس :

ـ لا . . لا أستطيع الآن . . .

فقالت هى أيضا كالهامسة :

ـ لماذا ؟ ! . . .

ـ غدا ، اذا شئت . . .

ـ بل الآن ! . . .

فتردد الفتى لحظة ، ثم تماسك وانطلق انطلاق الهارب الخائف الذى يريد أن يقنع عقله بالشجاعة والثبات ، قائلا كالمخاطب لنفسه :

ـ لست جديرا أن أقول لك ما أريد الآن ، دعينى أبعث اليك غدا برسول عنى يحسن الكلام ! . . .

ـ من هو ؟

ـ الشاعر الاغريقى القديم « أناكريون » ، سأحضره معى عصر الغد عند محطة « المترو » ، وسيفضى هو اليك بكل شىء ! . . .

إني أريد

الفصل الثانى عشر

كانت كل حياة « محسن » فى الأربع والعشرين ساعة التالية : ترقب الموعد ، واعداد نفسه ، وترويض لسانه ، وضبط أعصابه لمواجهة الموقف ! ... وجاء العصر فارتدى ثيابه فى عناية وهم بالخروج ، ولكن الباب طرق عليه ، وظهرت خادم النزل تقدم اليه رسالة وردت « بالبريد السريع » ، ففض الفتى غلافها بيد ترتجف ، وقرأ لمحة واحدة :

« صديقى ...

« أرجو منك الا تنتظرنى هذا المساء ، فى المكان المعروف ، فانى سأبقى فى العمل الى ساعة متأخرة ، لم تكن فى الحساب ! ... اذا كنت مع ذلك فى مسكنك ، فانى آمر بك عند منتصف العاشرة ، لأقول لك « بونسوار » ! ...

سوزى ... »

عاد الدم يجرى الى وجنه الفتى ، وهدأ تنفسه ، وانتظمت دقات قلبه ، ثم خلع سترته ، وجلس الى مكتبه يفكر باسما ، ويتلو خطابها على مهل . ووقف عند كلمة « صديقى » ، ثم عند قولها : « فانى آمر بك » ، فأحس طرف أجنحة السعادة تمر به ، ورفع عينيه الى ما حوله ، انها ستأتى هنا بعد قليل ... ما كل هذه الكتب المكدسة

فى غير ترتيب ؟ ينبغى أن يقر فى الحال النظام محل الفوضى، وقام من فوره الى حجرته ، يهيئها للاستقبال العظيم



وجاء الليل وانتشر الظلام فى سماء شبه صافية ، تؤذن بانتهاء الشتاء ، ووقف « محسن » قرب النافذة ينظر الى النجوم المتألقة بأشعتها الزرقاء ، وأذنه مرهفة الى الباب ، فى قلق ونفاذ صبر ، وخيل اليه مرات أنه يسمع نقرا خفيفا على بابه ، فكان يسرع الى فتحه فلا يجد أحدا ! .. لقد اختلط فى رأسه الوهم بالحقيقة من طول التأمل والانتظار ، وسمع أخيرا طرقة هزت قلبه قبل أن تبلغ رأسه ، فأيقن أنها هى ... فأصلح من شأنه على عجل ، وفتح الباب ... نعم ، انها هى ... هذه المرة .. بقبعتها ومعطفها وبقية ثياب الخروج ، ودخلت مبتسمة كأنها زنبقة :

ـ لقد جئت توا كما ترى ، قبل أن أمر بحجرتى ... آه ! ... أهذه حجرتك ؟ ... انها جميلة

ـ الآن فقط ، أرى انا انها جميلة ! ...

ـ ما كل هذه الكتب ؟ انك تقرأ كثيرا ... بهذا المقدار تلذ لك الحياة فى ...

ـ وانت ؟ ...

ـ انى أفضل الحياة فى ... الحياة ...

ـ انت أيضا ! ...

ـ لماذا تنظر الى هكذا ؟

ـ أصبت ، أرى الآن انى على خطأ ... ما الذى يعنينى من أمر حياتك أنت ؟ ... ما انت الا « حلم » يحيا فيه .. الآخرون ...

ـ ومن هم الاخرون

قالتها فى ابتسامة ذات معنى ، وأناملها تعبث بصفحات كتاب فوق المكتب ... وأرخى الفتى بصره ، ولم يجرؤ على المضى فى الكلام ... ونظرت اليـه لحظة ، ثم قالت فى صوت خافت رقيق :

ـ انى مصغية اليك ! ...

فتذكر « محسن » البارحة ، وفطن الى مرادها . فرفع راسه ، وقال :

ـ اتسمحين لى ان اقدم اليك من يستطيع أن يتكلم باسمى ؟ ...

ـ ذلك الشاعر الاغريقى الذى قلت لى عنـه ؟ ... ما اسمه ؟

ـ « اناكريون » !

ـ نعم ، نعم ، أين هو ؟ ...

فأشار بأصبعه الى الكتاب الذى تعبث به :

ـ انه بين يديك ! ...

فضحكت ضحكة ساخرة ، ورفعت الكتاب تنظر فيه ، وبادر « محسن » فدلها على احدى صفحاته وقال لها :

ـ اقرئى هذا ! ...

فقرات :

« أنى أريد ،
أريد أن أحب ،
ولقد زين لى « الحب » أن أحب ...
فأبيت من جهلى أن أصغى اليه ...
فقبض من فوره على قوس من ذهب !..
ودعانى الى القتال ..
فلبست له الحديد ،
وأمسكت بالرمح والدرع ! ...
ونهضت ، كأنى « أشيل » ! ...

اتازل ((الحب)) ،
فسدد الى سهاما ،
حدت عنها فطاشت ،
ونفدت سهامه ،
فتقدم الى يتقد غضبا ،
وهجم على فاخترق جسمى ونفذ الى
قلبى ! ...
فانهزمت ! ...
يا لها من حماقة ان اتقى بدروع ! ..
اى سلاح خارجى ينتصر على ((الحب))
اذا كانت المعركة قائمة داخل نفسى ؟ ! ..

وفرغت الفتاة من القراءة ، ولكن بصرها بقى جامدا على السطور ، وكان الفتى قد دنا منها ، يقرأ معها من صفحة واحدة ، فأحس شعرها المعطر قد انتثرت خصلاته الذهبية على وجهه ، كما تنتثر اشعة القمر على الكائنات ، ولم يذكر الفتى شيئا عندئذ ، ولم يفطن الا الى وجه « سوزى » الناعم الحار ، قد لاصق وجهه ، وكأنها تقبله !.. نعم ، انها بين ذراعيه تقبله ، هذا لا ريب فيه الآن ، وهى حقيقة واقعة الآن ، لا وهم فيها ولا غموض ، ولم يدر الفتى كيف حدث ذلك ، ولا ما يصنع بعد ذلك ! ؟ ..

آه لأولئك الخياليين، عندما يعطون فجأة : « الحقيقة » !.. نعم ، فجأة ، أى قبل أن يترك لهم زمن ، يسبغون فيه على تلك « الحقيقة » أرديه الخيال الموشاة ! ... انهم يتلقون جسما غريبا ومادة عارية ، لا يعرفون ماذا يراد بها . أن « الحقيقة » عملة لا تجوز فى مملكة « الأحلام »

لم ينم « محسن » تلك الليلة ، فقد كان ما حدث ذا دوى



« وفرغت الفتاة من القراءة ، ولكن بصرها بقى جامدا على السطور وكان الفتى قد دنا منها ، يقرأ معها من صفحة واحدة »

فى نفسه ... وجاء الصباح فأسرع الى صديقه « اندريه » يقص عليه كل شىء ! ...

وابتسم الفرنسى لرواية الفتى ، وقال له :

ــ أرأيت أنها فتـــاة ككل الفتيات ؟! .. وعاملة كآلاف العاملات !؟ .. تلك التى اسكنتها قصرا من قصــور ألف ليلة وليلة ، وجعلتها تنظر من عليائها ، الى مواكب الناس المتدفقة تحت شباكها . آه أيها الصديق ! ... اقتنعت الآن أن الأمر أقل خطرا مما كنت تتصور ، وأن وقوع امرأة بين ذراعيك مسألة بسيطة ، لا تحتاج الى كل هذا الوقت ، الى كل هذه الخيالات والتأملات ! ؟ ...

فأحس الفتى احساس من يهوى الى الأرض ، وكأن قيم الأشياء فى نظره قد تضاءلت ، وكأن الحياة نفسها قدتجردت من غطائها ، ــ فبدت كتمثال مصبوب من السخف ! ... وشعر « محسن » بفراغ فى مادة نفسه ، لا يدرى بعد اليوم بماذا يملؤه ! ...

وترك الفتى صاحبه ، وانصرف مطرقا ، دون أن ينبس بحرف ! ...

نعيم وجحيم

الفصل الثالث عشر

... ولكن للأرض لذاتها وآلامها ! ... ولقــد هبط « آدم » الأرض فغمره نعيم وجحيم ، من نوع آخر ومادة اخرى ... وهكذا ! ... كان يستيقظ « محسن » بعدئذ كل صباح على قبلات ملتهبة ، فيفتح عينيه ، فاذا موجة من ذهب ذلك الشعر الجميل قد غطت وجهه ... وصوت عذب يقول له :

ــ أورفوار ! ...

ثم خطى قدمين صـغيرتين تخطو على خشب الحجـرة ، وتتجه الى الباب ، شبه حركة راقصة ، ثم صوت الباب يفتح ويغلق ... ثم لا شيء ... انها ذاهبـة الى عملها !

لم يكن لـ « محسن » بعد ذلك من عمل الا الاستمرار فى النوم الى الضحى ، فلم يعد به حاجة الى التبكير ، ولم يعد صوت غنائها هو الذى يوقظه ، الى أن يكل من النوم ، فينهض فى تراخ ، ويرتدى ثيابه على مهل ، ثم يخرج الى مطعم « الأوديون » بجوار المسرح ينتظرها فيه لتناول الغذاء ، ثم يبقى معها حتى موعد فتح شـباك التذاكر فى منتصف الثالثة ، فيتركها ليعود اليها ساعة العشاء فى ذلك المطعم ، ثم يذهبان وقد فرغت من عملها الى « سينما » الحى ، فيجلسان متلاصقين ، يتبادلان القبلات فى الظلام ، كما يفعل من بجـوارهم من عمال وعاملات ! ... وتذكر

« محسن » ذات مرة ملاحظته الأولى ، يوم رأى فتى فرنسيا يعانق فتاة فى الطريق ، لقد حسب يومئذ فى ذلك امتهانا لقداسة الحب ! . . .

أتراه يقول ذلك الساعة ؟ . . . لا ، ما الذى تغير ؟ . . لا شيء . . . انه يحب دائما ، ولكن طعم « الحب » هو الذى تغير . التفاحة هى التفاحة ، ولكنها تفاحة أرض جديدة !.. تفاحة « الأرض » . . . حلوة لكن داخلها الدود ! . . . ولم يكن « محسن » يطيق أبطاء « سوزى » خمس دقائق عن موعدها ، ولم يكن يحتمل رؤيتها تبتسم لأحد معارفها ، وهى تحنى رأسها بالتحية ، ولم يعد يرى صورتها فى أحلامه ممتزجة بأنغـام « الأنترمتزو » و « رقصة الفراندول » ولكنه يراها فى نومه ، تعانق رئيسها « هنرى » الذى عرف منها بعض أخباره ، أو يراها تقبل شابا زنجيا تلك القبلات الملتهبة ، فينهض منزعجا مضطربا ، يود لو يمزق جسدها بأسنانه ! . . .



وجلس « محسن » ينتظرها ذات مساء فى ذلك المطعم ، الذى يؤمه ممثلو « الأوديون » وفنانوه ، ومضت سـاعة مجيئها ولم تظهر بالبـاب ، فاختفى الابتسـام من وجه الفتى ، وذهبت رغبته فى الطعام ، وود لو ينهض ويخرج ويركض هاربا ، حتى تأتى ولا تجده ، وخامرته الشكوك ، ولم يستطع أن يقبل فى أمرها عذرا ، وحكم عليها فى نفسه حكما قاسيا ، وتمنى لو يحطم شـيئا : حقيبة يدها ، أو طبقا من هذه الأطباق . . . ولكن الباب فتح فى تلك اللحظة ، وبدت « سوزى » مسرعة اليه ، وكأنها قرأت فى وجهه كل ما فى نفسه ، فبادرت تقول :

ــ أبطأت عليك قليلا ، أردت أن أحصل على تذكرة دعوة

الحفلة الأولى من الرواية الجديدة ... لأقدمها اليك ! ..
وأخرجت من حقيبة يدها رقعة من « الكرتون » أعطتها اياه ، فأخذها ... ولكن الهدوء لم يستقر فى نفسه ، فقال لها فى صوت حار :
ـ انى أحبك الى حد مخيف ... الى حد الرغبة فى أن أنهال عليك ضربا
فقالت مبتسمة وهى تفحص قائمة الطعام بعينيها :
ـ هذا مخيف حقا ، ماذا طلبت من الأكل ؟ ...
ـ انى أحبك ، أحبك كثيرا ! ...
قالها كالمخاطب نفسه ، وهو يفحص بعينيه خصلات شعرها المتهدل تحت القبعة ، وجاء خادم المحل يتلقى الأمر ، فطلبت الفتاة ما اختارت من بين الألوان ، والتفتت الى الفتى الساهم ، كما التفتت الى الخادم وصاحت به :
ـ عجبا ! ... ماذا تريد أن تأكل ؟ ...
فرفع الفتى بصره ، كمن ثاب الى رشده ، وتناول بطاقة الطعام ، وهو يقول :
ـ ماذا آكل ؟ ... لست أدرى ؟ ... أشيرى على أنت .. فانى لا أستطيع أن أعصى لك أمرا ! ...
فطلبت له مثل ما طلبت لنفسها ، وانصرف الخادم ، والتفتت هى اليه :
ـ ماذا بك ؟ ...
ـ لا شىء ! ... ما أشد الحرارة داخل هذا المكان ! .. انى أحس العطش ...
وسكب قليلا من الماء فى كوبه ، وجرع منه جرعتين ، وقالت « سوزى » ، وهى تبحث كوبها الذى لم يوضع بعد على المائدة :
ـ أنى أيضا أحس العطش ...

وتناولت كوب « محسن » ، وشربت من الموضع الذى شرب منه الفتى ، وهى تنظر اليه باسمة ، ورأى الفتى ذلك منها ، فقال فى صوت خافت نارى متقطع ، كأنه حمم متطاير :

ــ بى ... رغبة هائلة ... فى أن .. أقبلك الآن ! ...

فضحكت ضحكة رقيقة كلها دل ، ونظر محسن خلسة الى من حوله فى المحل . ثم مضى يقول :

ــ لا أستطيع ، فلأقنع الآن مرغما بالشرب من الموضع الذى مس شفتيك ... كما فعلت معى ! ...

ورفع الكوب الى شفتيه !! ..



الخروج من الجنة

الفصل الرابع عشر

عاش « محسن » حياة « الواقع » ، يأكل ويشرب وينام في « الحقيقة » ، ولم يفطن الى كتبه المغلقة منذ تلك الليلة ، ولم ير فوق أكداسها غير بضعة دبابيس شعر للسيدات ، وعلبة « بودرة » قد تناثر منها مسحوقها الخمرى النحاسي ، في لون الاجسام الرخامية التى عانقتها الشمس على شاطىء البحر ... ذلك اللون المحبوب من الباريسيات فى ذلك الوقت !... نعم ، لم يعد البياض الناصع ، لون السحب ، هو المثل الاعلى !... انما هى الحمرة الحارة ، لون الصلصال المحترق !!...

وتلاقى « محسن » و « سوزى » على مائدة المطعم هذا المساء مبكرين ، فالليلة الحفلة الاولى للرواية الجديدة ، وقد جاء للتمثيل فيها الممثل الشهير « دى فيرودى » !

وكان الفتى باسم الثغر ، منشرح الصدر ، يلتهم طبق « البفتيك » فى نشاط ظاهر ، ولحظته الفتاة قليلا وابتسمت قائلة :

ـ أرى أن لك اليوم شهية للطعام !...

ـ ان « البفتيك » لذيذ ، ولكنى ـ مع ذلك ـ مسرور لسبب آخر !...

ـ ماهو ؟

ـ انى مدعو الى الحفلة الاولى فى ثانى مسرح بباريس !..

انها المرة الاولى التى يقع لى فيها ذلك ... وهذا بفضلك ... انى فخور بك !.

ــ هذا شىء لايدعو الى الفخر !..

ــ لا ... انك ...

ــ لاتقل شيئا !.. كل بغير ان تتكلم ياببغائى الكبير !..

ــ آه !... ببغاؤك الكبير !... كم أغبط ذلك الآخر الصغير !... انه فى قفصه ، فوق نافذتك ، أكثر حرية منى بين يديك !...

ــ قلت لك لاتتكلم حتى تفرغ من طبقك ... انى أعلم أن لاشىء يذهب شهيتك دائما مثل الكلام على المائدة !.. استمع أنت ،وأنا أتكلم !.

ــ نعم ، تكلمى انت !..

وعكف « محسن » على طعامه ، وارادت « سوزى » أن تفتح فمها بالحديث ، ولكن الباب فتح ، وظهر شيخان جليلان ابتسما للفتاة فى تحية من راسيهما ، وجلسا الى احدى الموائد ، وقد هرع اليهما مدير المحل وغلمانه ، ورأت الفتاة علامة الاستفهام على وجه الفتى ، فأسرعت تقول له هامسة :

ــ اتدرى من هذا الشيخ القصير ؟...

ــ من هو ؟

ــ مسيو « دى فيرودى » نفسه !..

فرفع « محسن » راسه ، ينظر اليه فى عجب واعجاب ، ثم قال هامسا :

ــ هذا « دى فيرودى » ؟!..

ــ انه مثال الوداعة وطيب الخلق

ــ ومن هذا الشيخ الضخم الذى معه ؟

ــ عجبا ، الم تره من قبل ؟ هذا مسيو « سيلفان » !

ــ « سيلفان » العظيم ؟!..

ونظرت سوزى الى طبق « محسن » ، ثم قالت فى الحال بلهجة الآمر :

ـ والآن ، الكلام ممنوع ياببغائى العزيز !..

ـ نعم !... تكلمى أنت ...

وعاد الفتى الى الاكل ، وجعلت « سوزى » تتحدث :

ـ أتعرف أن زوجة مسيو « سيلفان » تجيد طهى « البويابيس » ؟... وأن مسيو « هريو » وزير المعارف ، وهو الصديق الحميم للممثل « سيلفان » لايستمرىء أكل « البويابيس » الا من صنع « مدام سيلفان » العجوز ؟!.. اسمع هذا : فى الشهر الماضى ...

ولم تتم ، فقد فتح الباب ، وظهر شاب فرنسى جميل الطلعة ، ماكاد يقع بصره على « سوزى » الى جانب «محسن» حتى تغير وجهه ، وما كادت تراه الفتاة على هذه الحال حتى تغير وجهها ، وانقلب كل شىء فيها راسا على عقب ، وشعر « محسن » فى تلك اللحظة أن مصيبة نزلت به ، لايدرى بعد ماهى ، وجلس ذلك الشاب الى خوان قريب ، ووجهه فى وجه الفتاة . لكنه أطرق وجعل كأنه لاينظر اليها ، ووضع عينيه فى « قائمة » الطعام ...

واطرقت « سوزى » كذلك . وكانت قد فرغت من الاكل فلم تدر ماذا تصنع ، وقلق « محسن » فسألها :

ـ ماذا دهاك ؟

فلم تجبه ، ولم تلتفت اليه ، وأومأت الى غلام المطعم فاقترب منها فقالت له :

ـ مجلة « الالستراسيون » من فضلك !

فأسرع الخادم وأحضر اليها الصحيفة المصورة التى طلبتها ، فتناولتها ونشرتها بين يديها ، وجعلت تتأمل صورها فى صمت كأنها غير حافلة بوجود « محسن » الى جوارها ، واحس الفتى منها ذلك ، فغلى الدم فى رأسه ، وقال لها بصوت هامس يقطر مرارة :

ـ أهذا هو صاحبك « هنرى » ؟..

فلم تجب ، فمضى يقول :

ـ لماذا تسكتين الآن عن الحديث معى ؟

فلم تجب ، فقال :

ـ أريد أن أعرف معنى اهتمامك الآن فجأة بهذه المجلة وهذه الصور ؟!..

فلم تجب ، فقال :

ـ تريدين أن تفهميه فى بساطة أنى انسان لاخطر له عندك، وانك لاتتناولين معى العشاء عن رغبة أو سرور ؟!..

فلم تجب ، فقال ذاهب الصبر :

ـ وبعد ؟.. الا تقولين كلمة ؟.. لقد قضى الامر اذن ، ولم أعد ببغائك العزيز ؟.. وانت ماعدت تحرصين على شهيتى للطعام أو الشراب ، والاقبال على ان تحدثينى كما كنت الآن تفعلين ؟!..

فلم تجب ، ولم ترفع رأسها ، ومضت تقلب الصور ، فقال فى غضب مكتوم ساخر :

ـ ثقى ان خليلك قد اقتنع الآن كل الاقتناع أنك تفضلين قتل الوقت بمطالعة المجلة ، على الحديث مع مثلى !.. نعم ، لقد فهم الآن أنى لا أساوى شيئا فى نظرك !

فلم تقل شيئا ، فقال :

ـ لعلك تريدين أن يفهم أكثر من ذلك ، فيرى أنى لست أكثر من معجب مفتون ، من أولئك المغفلين الاجانب ، الذين ينفقون على الغانيات ويتقبلون فى رضا اعراضهن واهمالهن وازدراءهن !..

فلم تجب ولم تتحرك ، فقال :

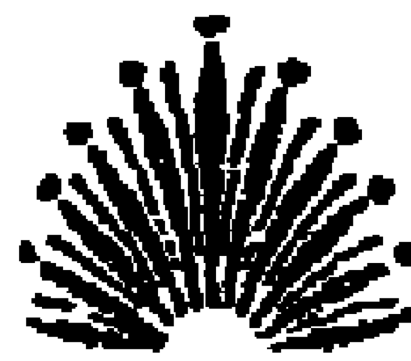
ـ انك تحملينني من الاذلال مالا أطيق !.. نعم ، ينبغى أن أقول لك : ان ماتصنعين بى الآن لكثير ، وليس الذى يعنينى

من الامر هذا الحب الهائل ، الذى ظهر فجأة الساعة فسحرك، وجعل منك تمثالا من الشمع ، فأنت حرة فى شئون عواطفك، ولا يدفعنى الى هذا الكلام ألم أو غيرة ... حقيقة ان حالى الآن لاتدعو الى الاغتباط والارتياح ، ولكنى أنا أيضا حر فى شئون عواطفى !.. ما أسألك عنه الساعة هو أن تفكرى قليلا فى أمر موقفى ، وأن تنقذى على الاقل المظاهر ، وأن تعامليني فى شيء من البر والكرم ، والا تجعليني ذليلا أمام حبيبك أو خليلك ، الا اذا كنت تقصدين ذلك ، وكان هذا هو السبيل ، الذى ترتفعين به فى نظره ، وتصلين به الى عنايته وحسن التفاته !.. وبعد ؟ الا تقولين شيئا ؟. أمصرة انت على هذا الصمت المهين ؟.. اذن ... ليس فى وسعى الآن مع الاسف العميق الا أن ..

وأومأ الى الخادم فجاء ودفع اليه سريعا قيمة «الحساب» كله ، ثم نهض قائلا :

ـ وداعا ... ياسيدتى !.

ومضى على عجل دون ان ينظر اليها ، وخرج من المطعم ، خروج آدم من الجنة !.



الفصل الخامس عشر

قبع « محسن » فى حجرته ، مهيض النفس ، جريح القلب ، وجعل ينظر الى كل شىء حوله ، كمن ينظر الى شىء غريب ! ... نعم ، لقد فقد هذا المسكن معناه ، وهذه النافذة ، ماعادت تشرف الآن على ذلك الهناء ... وان صوت الغناء العذب المتصاعد من النافذة السفلى ، ليس الآن غير طعنة طويلة ، تنفذ الى سويداء فؤاده !.. فهى انما تغنى دائما للآخر ... انه مازال يسمع فى الصباح ، عين الاغنية من « كارمن » :

« الحب طفل بوهيمى
لايعرف أبدا قانونا »

هذا صحيح !... وهو الآن يلقى جزاء اللعب مع ذلك الطفل البوهيمى !.. انه لم يعد يسمع حتى صوت ندائها للببغاء الصغير !.. ان اسم « محسن » قد اختفى من فمها ، على الاطلاق ، وخطر للفتى أن ينظر الى قفص الببغاء فوق نافذتها ، فأطل من نافذته فأخذه الروع !.. لم يجد قفصا ولا ببغاء ، أين العصفور ؟ أين « محسن » الآخر ؟ لايدرى مصيره هو ايضا ، لعلها قذفت به كذلك الى عرض الطريق ، وحزن الفتى لتلك الفكرة !..

ومرت ساعات ... ومرت أيام ... و « محسن » يعيش فى المه ، كما يعيش الجريح فى دمه !... وخطرت له

خواطر ، وطافت به هواجس !... وانتهى من تأملاته الطويلة الى عزم : أن يراها ويحادثها مرة أخيرة ... آه !.. للمحبين المدحورين !... كم يعلقون الآمال على مايسمونه « المحادثة الاخيرة » ؟!.. انهم لايريدون ان يفهموا أن الشرح والمنطق والتفسير والايضاح ، وكل وسائل الفكر والعقل ، أشياء لاتفيد فى مسائل القلب ، وأن النعيم والجحيم انما تفتح أبوابهما ، وتوصد على شبه ألفاظ سحرية ، لامعنى لها :

« افتح ياسمسم !.. اغلق ياسمسم !.. »

وسمع الفتى ذات عصر صوت غنائها وعلم أنهافى حجرتها ، فتجلد وذهب الى بابها ، وطرق طرقة خفيفة خجلة . ففتحت . وما ان رأته حتى عادت ، فأغلقت فى وجهه الباب فى هدوء ، بغير أن تلفظ كلمة !...

فرجع الفتى أدراجه ، أحمر الوجه ، من أثر تلك الصفعة ، وجلس الى مكتبه ، وأخفى رأسه بين كفيه !...

ومرت عليه ساعات أخرى ، وفكر مرة أخرى : لو أنه استطاع فقط أن يكلمها ويفهمها ؟!..

وحاول فى اليوم التالى أن يعيد الكرة ، فطرق بابها مرة ومرة . فلم تفتح له !.. وتوسل اليها أخيرا ، من خلف الباب أن تصغى اليه خمس دقائق ، يخرج بعدها ولا يعود ، بل انه بعدها بترك المنزل كله ، والمضى بأمتعته الى حيث لاتعلم ، لكنه لم يتلق جوابا !.. فهى سماء صماء ، لايصل اليها دعاء ، وهو عبد طريح على أرض الشقاء ، قد ارتكب خطيئة لا غفران لها ، ولا يدرى ماهى ؟!

وحدثته نفسه أحيانا بالثورة ، وود لو تنقلب كل ذرة من ذرات حبه الى قنابل ، تتساقط محطمة ذلك الشىء الجميل ، الذى كان يسميه « سوزى » !.. ولكن ، رباعية من رباعيات الخيام ، وقعت فجأة تحت بصره ، وهو يقلب الكتاب بين يديه لاهيا حالما :

« اذا اردت أن تسلك
طــريق السلام الدائم
فابتسم للقدر اذا بطش بك
ولا تبطش بأحد !. »

نعم ، فليبتسم ، على الرغم من كل شيء !... حسبه أن قد ظفر بلحظة من هذا النعيم الذى كان يجهله !.. نعم . ان تلك الفتاة استطاعت أن تكشف له عن جانب من جوانب الجنة المجهولة فى كيانه !.. فليكن من أمرها مايكون ، فهو الآن يعلم بفضلها مالم يعلم !.. « جنة الارض » هى التى أعطته مفاتيحها ، واذاقته رحيقها ، ووضعت شفتيها الى جوار شفتيه على حافة ذلك الكوب البلورى ، من الـكوثر الارضى !!..

لكنها قد طردته ؟.. فما مصيره ؟.. أيعود الى السماء ؟!

وترك مجلسه ، واقترب من نافذته ، وأطل منها على نافذتها السفلى ، فوجدها موصدة ، ولكن الضوء ظاهر من زجاجها ، فهى فى حجرتها ذلك المساء ... لـكن ، كيف السبيل اليها ؟.. ان بابها المغلق فى وجهه لاتخترقه صلاة ، ولا يفتحه بخور !.. انها الآن فى حجرتها كاله فى سمائه ، وقد احتجب ، بالسحب واعتصم بالشهب ، فلا يدرى أحد كيف يدنو منه !.. وتأمل « محسن » السماء طويلا من نافذة حجرته العالية ، وقال متنهدا :

« آه !.. أيتها السماء السابعة !...
انى أراك وأحادثك ،
من هذا الطابق الخامس !...
أما فاتنتى ، التى كانت دانية منى ،
فهى نائية ... نائية الآن عنى !...
آه !... لو انها كانت فقط
فى السماء السابعة !؟...
لكنها ... فى الطابق الرابع !!.. »

الوداع الأخير

الفصل السادس عشر

سيدتى ...

لم يكن بد من أن أكتب اليك هذا الخطاب ... اطمئنى ، لن اطلب فيه شيئا ، ولن أرجو منه شيئا ... انى لست اخدع نفسى ، ولست أجهل حقيقة الامر !... انى منذ دخل المطعم مسيو « هنرى » ، ولحظت كيف تغير وجهك ، فهمت فى الحال أن ساعاتى عندك أمست معدودة ، ولعل كلماتى التى وجهتها اليك ذلك المساء لم تكن الا صيحات التشبث بالحياة ! فان كنت قد جرت فى القول ، وانطلقت بكلام اغضبك ، فانى أطمع دائما فى أنك تصفحين ، كما صفحت ولا ريب ، الملكة الجميلة « سميراميس » عن زلات لسان « اسيرها » ، يوم دعته الى ليلة من ليالى النعيم ، مهدت فيها الفرش واقيمت الموائد ، وقدمت « أطباق البفتيك » ، وتلاقت الشفاه على الاكواب ، وفاح عطر الـ « هوبيجان » من أعطاف الثياب وانتثرت خصلات الذهب على الوجوه ، الى ان لاح الصباح ، فتغير وجه الملكة الجميل ، ووضع الاسير فى الاغلال ، ومشى به الى الموت ، وهو ذاهل مازالت فى رأسه بقية من نشوة الليل !...

ان الذى كان يلطف ، من غير شك ، وقع الامر على ذلك الاسير ، انه كان يعلم أن الملكة تلهو ، وأن الجلاد سيستقبله على باب مخدعها فى الصباح ، فهو لم يغتر ، ولم يغب عن عينه السكرى سيف المنية ، يبرق من خلف الكؤوس !...

ولكن ملـكات العصر الحديث يفعلن بأسراهن غير ذلك ، كل شيء عندهن مستتر مقنع ، « فهى » تضع على وجهها ذلك القناع الحريرى الاسود ، الذى يلبس فى « المساخر » ، وتجر خلفها أسيرها وهو مسحور بجمال عينيها الفاروزيتين ، تزهران فى السواد ، كأنهما نجمان بازغان فى صدر الليل !.. وتسير به الى خلوة يقرآن فيها صفحات الحب منفردين ، ويلتصق فيها الوجه الحار على الوجه المورد ، ثم تجذبه الى ضجيج الناس والطرقات ، وقد خيل اليه فى هذا الحلم انهما فى « فينيسيا » أيام « الكرنفال » ، وكأن كل شيء حولهما راقص ، وكأن على رأسيهما تلك التيجـان من « الكرتون » الفضى الذهبى ... وكأن حبـال الورق « السربنتان » الخضراء الحمراء تشد جسميهما ، أحدهما الى آخر فى رباط ، خيل الى الاسير ، وهو غارق فى أحلامه انه وثيق لن ينقطع !.. ولبثا هكذا مرتبطين بتلك «الحبال» يذهبان بها فى كل مكان ، فى المطاعم : حيث « البورجونى » المعتق ، وفى السينما : حيث القبلات فى الظلام !.. عجبا !.. اكل هذا لم يكن حبا ؟! ... من قال ذلك ؟.. ومن أذن للاسير فى أن يشك ؟.. حقيقة انه لم ير كل ماخفى من وجه « الجميلة » ، فهى لم تخلع بعد قناعها !... انه يؤمن بصدق هاتين الفاروزتين اللامعتين !

وجاء الصباح ، وطلعت الشمس ، وغارت النجوم وافاق ذلك الحالم ، فلم يجد حوله أحدا ، غير كناسي الطـرق يكنسون بقايا الكؤوس المحطمة والتيجان الممزقة ، واكوام « حبال » الورق ذى الالوان ... التى كان يحسبها قديرة على أن تربط الاجسام طول الاعوام ، أين ذهبت « الملكة » ؟ ... لايدرى !.. كل مابقى منها هو قناعها الحريرى الاسود ملقى تحت أقدام المائدة !..

آه يا سيدتى ! ... لماذا فعلت ذلك ؟ ... ولماذا لم تخبرينى « بشروط » اللعب من أول الامر ؟ ... لو أنى

عرفت هذا الوضع للأشياء ، لهان كل هذا ، ولكن المروع فى الأمر أنى أخذت كل شيء على سبيل الجد ! ...

ان من السهل على عقليتى الشرقية البسيطة ، أن تعيش فى الأحلام كما تعيش فى الحقائق ، وانها لتأبى أن تؤمن بانهيار الأشياء بمثل هذه السرعة ! ..

لقد كنت أنت ، من غير شك ، تعلمين ان هذا كله ليس سوى عبث لن يدوم طويلا ، ويوم كنت تعرفين انى انما احيا فى مهزلة مبتذلة سخيفة ! ...

لقد هبطت الأرض، صافى النفس، نقى القلب كما هبطها ذلك الاله الهندى « ماهادوفا » الذى تروي خبره الأساطير الهندية : لقد نزل الى الأرض ، كرجل من الرجال ، يرقب اعمال البشر بين البشر ، فقابل فتاة جميلة حياها فحيته ، وسألها عن أمرها ، فقالت انها راقصة من راقصات المعابد ، ورفعت « صفاقاتها » « صنجاتها » بين أصابعها ، ورقصت له ألف رقصة ورقصة ثم ركعت أمامه وقدمت له زهارا ، وقادته الى مسكنها ! ... وهناك جعلت تعنى به ، جاهلة حقيقة أمره ، وتكشف له عن قلب نادر نبيل ، على الرغم مما يحيط به من ادران ، وعاشا فى سعادة الأرض ، الزمن الذى تسمح به سعادة الأرض ! ... وذات صباح ، استيقظت الفتاة فوجدت حبيبها الى جانبها ميتا ، فبكته بكاء مرا ، وجاء الناس والكهنة ، وأحرقوه ، كما يفعل الهنود بموتاهم ، فأسرعت الفتاة ، وألقت بنفسها الى جانبه فى اللهب ، فاصعدها معه الى السماء ! ...

تلك قصة الفتاة الهندية ، أما الفتاة الأوروبية اليوم ، فانها تفعل غير ذلك ! ... انها اعقل من أن تلقى بنفسها فى اللهب ، من أجل الذى تحب . اما من لا تحب ، فهى تعرف كيف تجعله هو اللهب ، وهو الحطب الذى يلقى فى المدفأة ، كى ينشر الحرارة فى مسكنها المغطى بالجليد ! ... خيل الى

يا سيدتي حقيقة ، أن ريحـا باردة قد هبت على ما كان بينك وبين مسيو « هنرى » فى يوم من الأيام ، وكان ينبغى أن أدرك أن قلبك يومئذ ، كان فى حاجة الى الدفء ، وكان ينبغى انأعلم أنالمكان المعد لى، انما هو « الموقد » !.. وأن هذا الوقود « الحى » ، ينبغى أن يبقى حتى يحترق بأكمله ، ويصبح رمادا ، وتنتهى مهمته ، فتكنس ذراته ، وتطرح فى الهواء ! . . .

لست أحب ياسـيدتى أن أتهمك « بالأنانية » ، ولكن عتبى عليك لا يعدو أمرا واحدا صغيرا : كان يحسن بك أن تخبرينى بمهمتى ، حتى أحترق على علم ، وأفيد الغير عن رضا ، ولكنك شئت أن تسخرى بى من تحت « قناعك » حتى تكون لك المتعتان ! . . .

لا تحسبى أنى حانق عليك ! . . . على النقيض . . . ان من حقك أن تصنعى الذى صنعت ، فالحياة عندك متاع !.. وانى أحب لك السرور من أعماق قلبى ، وانى لست نادما على ذلك القلب ، الذى قدمته اليك فى احترام ، فألقيت به فى المدفأة ! . . . انه لك على كل حال . . . انه كان لك ، تفعلين به ما تشائين ، وقد فعلت به ما شئت ! . . . انما الذى يؤلمنى الآن : هو حياتى بعد ذلك ! . . . لقد أسرفت فى الخيال ، فجعلت منك كل جنتى ، وعشت هذا الخيال ، وليس من الهين على أن أعيش من فورى فى شىء آخر ! .. انى مثـل ذلك « الملحد » ، الذى طرد حـديثا من حظيرة « الايمـان » فتشرد بعـد ذلك « بقلبه » ، لا يدرى أين يسكنه ! . . . مثله مثل صعلوك من صعاليك الحياة ، أذا طلع النهار انسـاق الى ترهات العقل ، حتى يجن الليل ، فأوى « بقلبـه » الى حيطان « العقيـدة » ينطرح فوق الأفاريز

شأنى الآن هكذا ! . . . أعلم أنك الآن شىء بعيـد عنى

بعد النجوم ، ومع ذلك ما زلت أعيش معك ! . . .

منذ تلك الليلة الحاسمة فى المطعم الى اليوم ، وأنا لا أنام قبل أن أسمع صوت المصعد ، يقف على « طابقك الرابع » واصغى الى صوت قدميك الصغيرتين ، تخطران فى ذلك الممر الطويل ، الى أن يفتح بابك ويغلق ، فأعلم أنك قد عدت ، فأسرع الى نافذتى أنظر الى الضوء المنبعث من زجاج حجرتك ، وأظل على تلك الحال ساهرا ، حتى تطفأ أنوارك وتنامين ، وعندئذ تنام عينى ، كأنما أنت التى تأذنين لها فى النوم ! . . لا تحسبى ما أقوله مبالغة منى ! . . .

لا ، ان كثرة الترقب واعتياد التربص ، قد أكسبا أذنى مرانا غريبا ، على سماع أصوات المصعد ، والخطوات والأبواب ، مهما دقت ومهما اختلطت ! . . . انى بأذنى استطيع الآن أن أميز وقع خطواتك من بين مئات انى لم أر وجهك منذ تلك الليلة ، لأنى لم أجرؤ على النظر اليك ، ولكنى أقنع بعالم الأصوات التى تصدر عنك ، وتصلنى بحياتك اليومية

العجيب فى الأمر انى اعلم أن كل هذا حمق غير مجد ، ومع ذلك أفعله ! . . . وأعجب منه أنى أحصى عليك خفية كل حركاتك ، فأعلم أنك تلك الليلة سهرت أكثر مما ينبغى ! . . . لست أدرى أين ؟ . . . والليلة التالية عدت مبكرة ! . . . لست أدرى لماذا ؟ . . .

معذرة ، هذا السلوك المعيب منى انما أنا رجل شريد ، طرد من قصر « الحب » السحرى ، فهو يلجأ فى يأسه اذا جن الليل الى الحيطان والأفاريز ! . . . ولقد فكرت بالفعل فى ترك هذا المنزل ، والانصراف الى شأنى ، وربما فعلت ذلك فى يوم قريب ! . . لكنى حتى الآن لم أقو على ذلك !. .

انى افهم الآن موقف آدم عقب اخراجه من جنة السماء . . انى أتخيله قد لبث — بغير حراك — فى الموضع

الذى هبط فيه ، ومرت به ليال وأيام وهو ينظر الى السماء ، يرقب كل حركة فيها : اذا رعدت ، فهى صوت أبوابها ، تفتح لتناديه من جديد ، وأذا لمع البرق ، فهى ابتسامة رضا قد يعقبها انفراج المحنة ، واذا تساقطت الشهب ، فهى همسات غضب ما زال قائما ، واذا استدار البدر ، فهو شفيع وبشير بعودة الهناء القديم ! ... وكر الزمن ، وآدم يتمرغ فى مكانه بين اليأس والرجاء ! ...

عند ذلك المهبط من الأرض ، يمسح وجهه بأعتاب النعيم ، الى أن انتزعته غريزة « الحياة » من هذا القنوط الطويل ، وأرغمته على النهوض ، فقام يدب فى الأرض ، ويعيش كما تعيش الأحياء من المخلوقات ! ..

انى لست اعرف كم لبث آدم فى مر زمن ، وانى لأتوق الى معرفة ذلك ، ولكن الذى أعرفه على التحقيق : أن جنتى انا دامت أسبوعين ، حسبتهما حسابا دقيقا ، بالساعة والدقيقة ! ... منذ الليلة التى ذهبنا فيها معا الى مطعم « بوكاردى » ، الى الليلة التى خرجت فيها وحدى من مطعم « الأديون » ، أسبوعان من النعيم ، هما كل زادى ، وكل كنزى ! ...

وبعد ... فانى قد أطلت عليك كثيرا ، وليس من حقى ان أسلبك كل هذا الوقت ، لتطالعى حماقاتى ! ... وليس من حقى كذلك ، أن أنتظر منك ردا على هذا الخطاب الطويل ، فحسبى منك ـ برا وكرما ـ أن تقرئيه فى ساعة فراغ ! .. انه على أى حال نوع من اللهو ، وهو على كل حال صائر الى « المدفأة » !... وان كنت أرى أن « الشتاء » قد انقضى ، فقد ظهرت عندك بشائر الربيع !.. أمس رأيت على نافذتك آنية ، يبسم فيها زهر « الكرز » ، فى أغصانه الرفيعة الأرجوانية ! ... فذكرت أغنية « سان سانس :

الربيـــع جـــاء ! ...
يحمـــل الرجـــاء ! ...
الى قلـوب الأحبـاء ! ...

ما أكذب هذا الشعر ! ... هذا الربيع ، على غير أمل الناس فيه انما هو الذى جاء ينتزع الرجاء ... ومع ذلك فانى استقبل بوجهى نسماته العاطرة ، ولا أرجو منه شيئا كما يفعل الآخــرون ، انى أخشــاه كما خشيه « حافظ الشيرازى » :

حـبى نســيم الربيــع ،
قادنى الى الصحراء ! ...
لقد حمل الى النسيم عطره ،
لكنه أخذ منى راحتى ! ...
الهى ! لا تحمل هذا الجمال ،
الـذى لا قلب لــه ! ...
وقر أشجان الهائمين بحبه ! ..
لقـــد جثـوت فى الطريق
الذى عفــرته أقدامها ! ...
لكنهـــا لـــم تدن مـــنى ،
لقد ارتفعت توسلاتى وتنهداتى ،
فأزعجت نوم الطيور والأزهار ! ..
لكنهـــا لم تفتــح عينيهــا ،
بالأمس مس الكوب شفتيها ،
وقال : انه يعطى الحياة ! ...
فقلت : لا بل هى التى أعارته
الحيـــاة ومـــع ذلك ، لو أنى
أمامهـــا مت محترقا ! ...
لما أطفأت لهبى بأنفاس شفتيها ! ..

ما أصدق هذا الشعر ! .. كل كلمة فيه ، كأنها عاشت

حياة آدمية ! ... أخـيرا أستأذنك فى طرح القلم ، فان الفجر قد بدا من النافذة ، وأخشى أن تغضبى لمجرد انى اختلست طيفك ليلة ! ... أرجو مرة أخرى أن تغفرى لى هـذه الثرثرة . فأنا لست خيرا من « محسن » الآخر فى شيء ! ... أعنى « الببغاء الصغير » ! .. انى لم أعد أرى قفصه فى نافذتك . فلعله حى يرزق انى أيضا حى أرزق . لقد تحققت أمنيتى ، وتسـاوينا فى عين الحظ والنصيب « الببغاء الكبير » و « الببغاء الصغير » !.. ألا تذكرين ؟.. كل ما يحزننى من أمر « محسن » الصغير أنه هـو أيضا ، وقد أصبح بعيدا عنك ، لا يستطيع هو أيضا أن يحييك كل صباح بذلك الصغير المعتاد مرددا :

« أحبك ! ... أحبك ! ... أحبك ! ... »

« محسن »





محسن يطالع الرسالة التى كتبها الى فتاته قبل ان يبعث بها اليها

الفصل السابع عشر

صديقى ...

على الرغم من خطابك ، الذى وجهت الى فيه كثيرا من اللوم ، فانى ما زلت أدعوك « صديقى » ! ... أو لسنا صديقين ، ما دمنا نشكو من عين الداء ؟ ... انى لم استطع اليوم منع نفسى من الرد عليك ، بل لقد هممت فعلا بزيارتك هذا الصباح ، غير ان خطابك وما فيه من صواب ، وما جاء به من عتاب ، قد أشعرنى بقبح موقفى طول الأسبوعين « المعروفين » ، ولقد عدت الى حجرتى بعد تلاوة كلماتك ، وانا حقيقة متألمة ، ولقد وددت لو انى لم اعش قط هذين الأسبوعين ! ... انى خجلة ، ولا أستطيع ان اقابلك وجها لوجه ! ... كيف السبيل الى محو كل هذا من ذاكرتك وذاكرتى ؟! ...

نعم ، لست انكر ، انى كامرأة تحب بكل جوارحها ، قد كنت حقا « انانية » ! ... انى فكرت بالفعل ذات يوم فى أمر تصرفاتى ، وتنبهت الى ما فيها من ضرر وشر ، ولكنى مع ذلك أقدمت على هذا الشر ، آملة أنك لن تعجز عن الانفصال عنى ! ... نعم ، ارجو أن تثق كل الثقة انى ، عندما فكرت فى كل هذا ، لم يخطر لى قط على بال ان الأمر سيصل بك الى مثل هذا اليأس ! ...

صدقنى ، انى محزونة حقا لهذه النتيجة ! ... وانى ،

من أعماق قلبى ، أبدى لك شديد أسفى ! ...

لكن.. ماذا عساى أستطيع أن أفعل ، لأنال الصفح ؟!..
ان آلامك تترك فى نفسى ألما عميقا ! ... وأرجو منك أن تثق بذلك ! ...

وبعد ، أتقبل منى أن أمد يدى وأصافحك ؟! ...

« سوزى ديبون ... »

حاشية : ـ

سألتنى عن الببغاء الصغير ، وقلت أنك لم تعد ترى قفصه فى نافذتى ! ... هذا صحيح ! ... انه ليس عندى الآن ، فان أمر طعامه وشرابه ، والالتفات اليه ، لما يحتاج الى وقت ، لا استطيع أن أكرسه له ، فسمحت لنفسى أن اهديه الى «كلوتيلد» حارسة القاصير ، وقد أوصيتها أن تعنى به كل العناية ، فكن مطمئنا ! ...

« س ... »



العودة الى السماء

الفصل الثامن عشر

ترك « محسن » مسكنه فى نزل « زهرة الأكاسيا » واستأجر حجرة فى النزل الذى يقطنه صديقه «ايفانوفتش»، وكان الروسى قد اشتدت عليه وطأة المرض ، فلم يشأ الفتى ازعاجه بكثرة الكلام، فلزم هو أيضا حجرته ، لايخرج منها الا فى الصباح ، يقطع شوارع الحى صامتا ، ثم يعطف على باعة المأكولات يوم السوق ، فيشترى « كيلو جراما » من الأرز وموزة واحدة ، يعود بهما الى حجرته حيث يهىء غداءه بيده ! ... ذلك شأنه أكثر الأيام ، فقد نضبت موارده من طول الانفاق فى المطاعم الجيدة ودور السينما والمشارب ، وهو الآن لا يستطيع حتى تناول الأكل فى مطعم الحى الحقير ! .. انه الآن يدفع ثمن الأسبوعين اللذين قال أنهما « كل زاده وكل كنزه » ، واللذين قالت « هى » : « أنهما شىء تتمنى لو يمحى من ذاكرتها ، وتود أنهما لم تعشهما » ! ...

ووقف الفتى أمام النار فى أحد أركان حجرته ، يرقب فوران الماء فى آنية الأرز « الألومنيوم » ، وهو صامت مفكر شأنه فى كل يوم من تلك الأيام التى مضت ، كأنها أعوام !.. يتبخر الماء فيصب غيره فى الاناء ... ويتبخر فيصب غيره .. والأرز لا ينضج ، فيأكله آخر الأمر شبه حصى !.. ما من مرة نضج معه هذا الأرز ! ... وما من مرة خطر له أن يسأل أحدا فى طريقة طهيه ، أو يغير هذا اللون من

الطعام ... لماذا يفعل ذلك ؟ ... ليس للأكل الآن مذاق فى فمــه ، وان « الكيلو » من هــذا الأرز الرخيص ليكفيه خمسة أيام ! ...

وكان لحجرة « محسن » الجديدة نافذة ، لم يفتحها قط منذ مجيئه ولم يدر على أى شيء تشرف ! .. لا يريد أن يعــرف ... ان نافذة قلبه قــد أغلقت . وما من شيء يســترعى التفاته الآن ، غير أســعار « الأرز » مدونة على البطاقات فى الحوانيت ، وغير عناوين الكتب القديمة ينظر اليها معروضة فى المكاتب ، دون أن يمسها . وكان احيانا يلمح فوق غلاف الكتب فقرة أو عبارة أو بيتا من الشعر ، وضع على سبيل الاستشهاد ، فيجعل منه « نغمة » ، يظل فكره يرتب عليهــا « تقــاسيم » طول النهار ، وكان يجد فى هذا شيئا من الســلوى ، غــير أن بصره وقع ذات يوم على كتاب ، جعل فى رأسه هذا القول لشاعر يابانى :

انما يبنى الشاعر سعادته على الرمال ،
ويسطر أشــعاره فوق ماء الجــدول
الجــارى !...

نعم !... هنا كل البلاء الآدمى !... ألا يمكن للنفس الشاعرة أن تقيم هناءها على دعائم أثبت قليلا من هــذه الرمال ، التى تغرق فيها الابل . وتكتب أغانيها على صفحات أبقى من صفحات هذا الماء ، التى تطويها فى شــبه طرفة العين أنامل الهواء ؟...

نعم هنالك سبيل واحد : لاينبغى أن نبنى شيئا جميلا فوق هذه الارض !... هذه الارض المتغيرة المتحركة برمالها ومائها وهوائها !..

وفطن الفتى ، أن هنالك حقا نوعا من الهناء ، قد عرفه يوما ، هو هناء الصفاء !... هذا الصفاء الذى لايوجد الا فى الارتفاع !..

وأحس الفتى فعلا ، كأنه قد خف وزنا ، وكأنه يرتفع، وكأنه يبتعد عن الارض ، ليعود الى السماء ، الى سمائه التى كان قد هبط منها !!...

ولعل « الأرز » أعانه على ذلك ، فان «الزهد» هو سلم « الصعود » !!...

وأقبل الفتى بعدئذ على غذائه الحقير الضئيل فى لذة روحية ، وبسمة راضية وضاءة ، أنارت له مسالك نفسه المظلمة ، وذكرته بسروره فى صباه يوم كان يقتات «بالفول النابت » ، ويجلس بكتابه كل يوم الى جوار ضريح «السيدة زينب » !...

لم يكن شىء يعكر عليه صفاءه الروحى يومئذ غير حارس المسجد ، ذلك الشيخ المتأنق ، فى عباءته الثمينة ، وشعره المخضب بالحناء ، وعيونه الكحيلة ، ينظر بها الى صندوق « النذور » بين يديه ، وغير سجاجيد المسجد الغالية ، وثرياته الكبيرة ، لماذا كل هذا ؟!...، ان الفتى لم يكن قط يخالجه شعور اللذة العليا الا وهو فوق الحصير ، حيث كان يتخذ مكانه دائما ، لا فى قاعة الضريح ذاتها حيث الفرش والرياش ، وبقية تلك المظاهر الحمقاء لذلك الاحترام الكاذب، والخشوع الزائف ، انما فى تلك الردهة الخارجية ، التى طرح الحصير على بعض أرضها ، وترك البعض الآخر عاريا نظيفا ، كالنفس النظيفة العارية !... كان يحس الفتى ، هنالك ، أنه أقرب الى روح السيدة الطاهرة !...

وجعل « محسن » ـ طول يومه هذا ـ يقلب مثل هذه الافكار ، وعاوده شوق وحنين الى المسجد ، أو الى بيت من بيوت الله ، وتذكر الكنيسة !... نعم ، ان فيها أيضا قد أحس يومئذ عين احساس الصعود ، لكن ، تلك المراسيم والطقوس ... سرعان ما جذبته الى الارض ، لتوقعه فى ذلك الحرج ، الذى وقع فيه ذلك اليوم !...

نعم ، كلما همت روح الانسان بالتحليق نحو الاعالى كبلتها أكاذيب الانسان ، وأنزلتها الى التراب ، كل شقاء الانسانية أنها لا تستطيع أن تترك شيئا عظيما ، ذا قداسة بغير أن تلبسه ثيابا مبتذلة مضحكة ، من حمقها وزيفها وغرورها ؟!...

لماذا أراد الناس أن يجعلوا «الله» فى حاجة الى السجاجيد الفارسية يفرش بها بيوته ؟!... و « السيدة » فى حاجة الى « النذور » والتجف والشمع ، كأنها لا تستطيع النوم فى الظلام ، ثم ذلك « القمقم » الفضى فى الكنيسة ، وتلك الاشارات والعلامات ، لماذا كل هذا ؟؟...حتى «الموسيقى العظيمة » ، التى استطاعت أن ترفع الانسان الى بعض القمم ، سرعان ما جعلوا لها ثياب سهرة ، ترتدى من أجلها ، وقواعد وتقاليد ، لا بد من مراعاتها !... وتنقلب الامور على مر الزمن ، فينسى الناس الاصل والجوهر ، ويذكرون الفرع والعرض ... فاذا كل التفاتهم الى ثياب السهرة ، دون « الموسيقى » ، اذا كل عنايتهم بالمظاهر والمجاملات، دون الايمان والعبادات ، ولا يستثنى من بين هؤلاء الا الفقراء التعساء ، الذين جاءوا حقيقة للصلاة ، ومن بين أولئك — الا الهواة — « زبائن » أعلى « التياترو » الذين حضروا حقيقة من أجل الموسيقى !...

ان « الأخلاص للدين والفن ، يستوجب «التجرد» !...

وذكر « محسن » « بيتهوفن » ، وتلك « السانفونية الخامسة » ، التى كان قد سمعها ، وذكر ذلك الجو العلوى الذى عاش فيه ذلك اليوم ، فحدثته النفس بالذهاب الى « الكونسير » !...

نعم ، فليذهب ولو أدى ذلك الى حرمانه أكل الموز شهرا بأكمله !.. لالزوم للفاكهة ، انه يستطيع أن يكتفى بالارز أسبوعا .. وأشرق وجه الفتى لهذه الفكرة ، وأحس كأن

بردا وسلاما يهبطان قلبه ، ويضمدان جروحه ! . . انه الآن يشعر ببعض القوة ، ولم يعد يخشى شيئا !.. هو الذى كان قد حرم على نفسه ، خوف الضعف ، ذكر الجميلة قاطنة نزل زهرة « الاكاسيا » ، تلك التى أجهزت على أمله ذبحا ، بخطاب رقيق رقة حد السكين المسنون !

نعم ، الآن . . . بقليل من الموسيقى يستطيع أن يعتصم بالسحب ، ضد هذا الحب الارضى ، الذى وضع أنفه فى الرغام !..

وذهب « محسن » الى مسرح « شاتليه » ، فوجد من حسن حظه « برنامجا » موسيقيا حافلا : « بارسيفال » و « سحر يوم الجمعة الحزينة » لريتشارد فاجنر ، و « السانفونية التاسعة » لبيتهوفن !

وكانت نقوده لا تسمح له بأكثر من مكان للوقوف بأعلى المسرح فما تردد !.. وكان حريصا دائما على اقتناء ذلك الكتيب الصغير ، الذى يباع فى الردهة ، فان فيه تحليلا دقيقا فى أكثر الاحيان للقطع التى تعزف ، وبيانا عن ظروف وضعها ، ونبذا من تاريخ مؤلفيها ، فما أحجم عن شراء نسخة ، وأسرع يتخذ له مكانا ، تحت مصباح من مصابيح الكهرباء وجعل يطالع على عجل هذه السطور :

« لقد أراد فاجنر أن يصور بموسيقاه ، قصة المسيح اذ جاء يحمل الى الانسانية ، التى نخرت فيها « الانانية » ناموس « الحب » الذى يخلصها من الخطيئة !.. ولقد جاء فى خطاب خاص ارسله «فاجنر» الى صديقه الموسيقى « لست » : كيف نبتت فى خاطره فكرة تأليف هذه القطعة؟!

ووصف المشاعر التى أثارتها فى نفسه ذكرى الجمعة الحزينة فى يوم من أيام الربيع ، حيث كان فى مدينة « زوريخ » : « لاول مرة استيقظت يوم الجمعة المقدس على شمس مشرقة ، فنظرت الى الحديقة حولى فألفيتها

خضراء ، تصدح فيها العصافير، فجلست على عتبة البيت، انعم بهذا « السلام » ، الذى انتظرته طويلا !.. وأثر فى نفسى هذا الصفاء الذى يكشف الاشياء فتذكرت ، من فورى ، أن اليوم هو يوم الجمعة المقدس !.. وعند ذاك خطر لى أن أضع هذه القطعة »

وانقطع « محسن » فجأة عن القراءة ، فقد أطفئت الانوار ، ووقف « المايسترو » ، ينقر بعصاه الرفيعة نقرا خفيفا على قمة مصباحه الاخضر ! تنبيها للعازفين ، وبدأ « الاوركستر » يعزف مقدمة « بارسيفال »

نغمة ترتفع منفردة أول الامر ، لا يصحبها شىء : كأنما هو صوت واحد يتكلم ، وسط سكون الكون !.. صوت ، فى عين الوقت ، الهى وبشرى !.. وتمضى تلك النغمة حاملة فى أعماقها بذور الالحان الدينية ، التى تتركب منها القطعة ، الى أن تقابلها تلك الاقوال المقدسة : خذوا ، وكلوا، هذا هو جسدى !.. خذوا ، واشربوا ، هذا هو دمى !.. ثم يسمع من « الكواتيور » شبه رعدة مبهمة ، بين عديد من الانغام السريعة المتعاقبة ، ورنين الصناجات المكبوت ، كأنما هو صوت طليق ممتد ، يخفت شيئا فشيئا تحت قباب كاتدرائية عظيمة !..

« واستمر الاداء ، و « محسن » ليس على هذه الارض، الى أن أشار « الاستاذ » بعصاه اشارة الانتهاء ، وانطلقت الايدى بتصفيق كأنه الرعد ، فتنبه الفتى ، وقام الناس يدخنون فى فترة الاستراحة أو يتحادثون ، وبقى «محسن» واجما فى مكانه ، ولمح على المسرح حركة دخول أفراد مجموعة المنشدين « الكورس » من سيدات ورجال ، ينتظمون فى أماكنهم ، فرفع الكتيب الى عينيه ليقرأ ماقيل عن قطعة « بيتهوفن » ويهيىء نفسه للمثول بين يدى هذا القلب العظيم ، كى يسمع منه ، ويفهم عنه .. وقرأ الفتى

هذه الصفحة : « وبلغ فن « بيتهوفن » فى « السانفونية التاسعة » غاية ما يستطيعه بشر فى عالم البناء الصوتى ، ولقد اخرج هذا العمل فى تلك المرحلة من حياته ـ التى ابتلى فيها بالصمم ـ كارثة جاء ذكرها فى وصيته التى كتبها فى اكتوبر سنة ١٨٠٢ م ، على اثر ازمة قوية منازمات اليأس ، تبدو من هذه الاسطر : الى شقيقى « كارل » و « جوهان » بيتهوفن : أنتما يا من كنتما تحسبان أنى انسان حقود عنيد أكره الناس .. ما أظلمكما !.. انكما لتجهلان السبب الخفى لكل هذا الذى ظهر لكما من أمرى .. انى ، منذ الطفولة ، كنت أحس أن نفسى وقلبى يتجهان بطبعهما الى الخير !.. انى كنت دائما على استعداد للقيام باعمال عظيمة ، ولكن لا تنسيا انى منذ أعوام ستة ، أصبت بداء قاس ، زاده خطرا عجز الاطباء !.. وانى الفيت نفسى مرغما على العزلة قبل الاوان ، وعلى انفاق بقية حياتى بعيدا عن العالم !.. ولقد حاولت أن اتجاهل احيانا مانزل بى ، ولكن التجربة المؤلمة كانت تذكرنى دائما بانى قد فقدت السمع ، ومع ذلك فانى لم أستطع ان اتجرأ مرة واقول للناس : تكلموا بصوت عال !.. صيحوا .. انى أصم !.. آه ، كيف أعترف بهذا وأعلن للناس ضعف حاسة ، كان ينبغى أن تكون عندى أقوى مما عند جميع الناس ، حاسة كنت أملكها ـ فيما مضى ـ على اكمل نمو ، وادق تركيب ، وأرهف شعور ، مما لم يتيسر لغيرى من الموسيقيين !.. كلا !.. لا أستطيع ، لهذا ارجو ان تصفحا عنى اذا كنت اليوم أهجر ـ كما تريان ـ هذا العالم ، الذى كنت فيما سبق أمرح فيه بكل نفس راضية !.. انى لشديد الاحساس بمصيبتى ، وانى من اجلها ينكرنى الجميع !.. لم يعد الآن من حقى ان انشد الراحة فى صحبة اخوانى الآدميين !.. انتهت مسرات المحادثات اللطيفة ، ولذات المناقشات الرفيعة ، انتهت المصارحات القوية ،

وتبادل المناجاة الحارة ، حالى الآن لا تسمح لى بارتيـــاد المجتمع الا بالقدر الذى تحتمه الضرورة القصوى !.. ينبغى اذن أن أعيش مطرودا منبوذا !.. أى اذلال يجرح نفسى أحيانا ، اذ أرى الى جانبى أحد الناس ، يصغى الى أنغام مزمار يعزف عن بعد ، لا أستطيع أن أسمعها ، او اناشيد راع ، لاأستطيع أن أسمعها كذلك !..» يروى أحد أصدقاء « بيتهوفن » أنه فى صباح صيف ١٨٠٢ م ، استـــرعى التفات صديقه الى راع فى الغابة ، يعزف على ناى من قصب الحانا شجية ، فأبدى « بيتهوفن » جهدا مرهقا ليسمـــع شيئا ، فلم يستطع ، ورفق به صديقه ، فكذب عليه ، وزعم له أنه هو أيضا لا يسمع شيئا ، لبعد الصوت عنهما ولكن « بيتهوفن » فهم الحقيقة ، وغرق فى حزن عميق !.. ومثل هذه الحوادث كانت تلقى بى على أعتاب اليأس ، وكادت تغرينى أن أضع حدا لايامى !.. ولكنه الفن وحده هو الذى أبقى على حياتى ... آه ، أنه ليشق على ترك هذا العالم ، قبل أن أعطى كل ما أحس ، داخل نفسى من مخلوقات ، لم تزل بعد فى طور التكوين !.. آه ايتهـــا القدرة الالهية !.. انك لترين من عليائك ذلك القاع السحيق فى أعماق قلبى !.. انك لتعرفين أنه عامر بحب الانسانية والرغبة فى عمل الخير يا شقيقى « كارل » و « جوهان » اذا انتهت أيامى ، وكان طبيبى الاستاذ « شميت » لم يزل حيا ، فالتمسا منه باسمى أن يصف دائى ، وأن يرفق ذلك بصفحاتى هذه ، فلعل الناس بعد موتى يصفحون عنى على الاقل !.. أما اساءتكما لى ، فأنتما تعلمان أنى قد صفحت عنها منذ أمد بعيد !.. وكل ما أتمنى الآن ، أن تكـون حياتكما أيسر من حياتى ، وان تعفيا مما رزئت أنا به من متاعب !.. وأوصيكما أن تعلما أطفالكما « الفضيلة » ، فهى وحدها — لا « المال » — السبيل الحقيقى للسعادة !.. وانى أتكلم عن تجربة ، « فالفضيلة » هى التى كانت كل

سندى فى محنتى ، واليها والى « فنى » يرجع كل الفضل فى انى لم ألجأ الى الانتحار . وداعا !.. وليحب احدكما الآخر !.. »

لقد كان بيتهوفن يعيش اذن فى ظلام السكون ، عندما اخرج « سانفونيته التاسعة » ، ولقد احتمل كل ذلك فى جلد ـ كما قال فى وصيته ـ ولقد خضع لحكم القدر فى شجاعة ، كما يقول فى مذكرات أخرى : « الاذعان ، الاستسلام !.. فلنعرف كيف نستخرج الدرس الخلقى النافع ، من أفدح المصائب والكوارث !.. بذلك نجعل انفسنا جديرين بمغفرة الله !.. »

لم يبق اذن « لبيتهوفن » من الحياة غير متعة البصر : عيناه وحدهما أمستا كل صلته بالطبيعة ، وقد انحصر كل فرحه فى ارسال النظر الى وديان « فينرفالد » الخضراء يهيم فى غاباتها ملتمسا من الطبيعة العزاء ، آملا أن يجد فى صدرها كل قوى الحياة والخلق ، صائحا فى فضائها من اعماق قلبه تلك الصيحات التى وجدت مدونة فى أوراقه :

« يارب الغابات !.. يا ربى القدير على كل شىء ، انى احس البركات ، وأشعر بالسعادة فى هذه الغابات ، هنا كل شجرة من هذه الاشجار تسمعنى صوتك !.. يا لها من روعة أيها المولى العظيم !.. هذه الاحراش ، وهذه الوديان ، تفوح برائحة الهدوء والسلام !.. هذا السلام الذى لابد لنا منه ، لنستطيع أن نتفانى فى خدمتك ! »

ووقف « محسن » عن القراءة فى عجب وتأثر شديدين ! لكأن عبيرا يعرفه ، يهب من طيات هذه الكلمات ، أن هى الا كلمات من النبع ، الذى صدرت منه كلمات أنبياء الشرق

وأطفئت الانوار ، وتكلم « بيتهوفن » .. انه لا يتكلم

كبقية الناس ! لكنه يقيم من الاصوات عالما ، لا تدخله ولا تسكنه غير الارواح الخيرة المهذبة ! .. وتحددت أركان تلك « السانفونية » ووضحت للآذان والارواح : هيكلا عظيما ، مشيدا على اعمدة نورانية ، من أنغام آلية ، واصوات آدمية !

ولم يتمالك « محسن » ، وأخذته رجفة ، وتصبب جبينه بالعرق ، نشوة عليا ، عند ما ارتفعت الابواق النحاسية الى جانب صيحة « الكورس » :

« قفوا متعانقين !..
ايتها الملايين من البشر !..
أيها الاخوة !..
ان فوق النجوم أبا
حبيبا الى كل القلوب !...»

ولبث الفتى مشدود الاعصاب ، متفصد الجبين ، فى شبه ذهول حتى عزف « اليجرو » الختامى ، والتقت أصوات الرجال والنساء بصوت « الاوركستر » !.. فكأنما أستار السماء قد انفرجت ، ليصل الى آذاننا غناء الحور والملائكة ، مجتمعين فى جنة الخلود يلقون نشيد الفرح ، ذلك القبس الالهى ، فرح الانفس التى تعيش فى « الله » !..

الى الشرق

الفصل التاسع عشر

نزل « محسن » الدرج ، ليخرج كعادته الى الطريق ، يستنشق هواء ذلك الصباح الجميل ، فرأى باب حجرة صديقه « ايفان » مفتوحا ، وسمع سعاله ، فعطف عليه ، وضرب الباب مستأذنا .. فأذن له ودخل الفتى فوجد الروسى جالسا على سريره ، اصفر الوجه ، بين يديه كتب ثلاثة ، فقال له :

ـ كيف حالك اليوم يا مسيو « ايفانوفتش » ؟

ـ بخير !..

ـ انك تجهد قواك فى القراءة ، وأنت لم تزل مريضا !..

ـ اجلس !..

قالها الرجل على نحو غريب ، عجب له الفتى ، ونظر بطرف عينه الى الكتب ، وقرأ فى دهشة :

« التوراة » ، « الانجيل » ، « القرآن » !..

ثم التفت الى « ايفان » وقال :

ـ عجبا !.. انك فيما أعلم لاتؤمن بشىء ...

فقال الروسى ، كالمخاطب لنفسه :

ـ أريد أن أعرف : كيف استطاعت هذه الكتب الثلاثة أن تعطى البشرية راحة النفس ، وأن تغمرها فى ذلك الاطمئنان؟! نعم !... انى لاأومن بشىء ، وانى أرى أحيانا الموت دانيا

منى ، وفى يده « خرقة » : ليمحونى كما يمحى رقم كتب بالطباشير فوق لوحة سوداء !... فاحتقر نفسى ، وازدرى كل حياة انسانية ... آه !... ما أسعد أولئك المؤمنين ، الذين يرون الموت مرحلة الى حياة اخرى مجيدة جميلة !.. انهم لاشك ينظرون الى الموت ، كأنه عربة » بولمان » فى قطار سريع ، يذهب بهم الى نزهة « آخر الاسبوع » ... ان مثل هؤلاء لايمكن أن يروا الحياة الانسانية الا أنها شىء عظيم . لانها تشغل الكون دائما ، طول الخلود ، انهم لايستطيعون ان يزدروا انفسهم هؤلاء الناس !..

ـ ولماذا لاتؤمن أنت أيضا بالحياة الاخرى يامسيو « ايفان » ؟..

ـ آه !... ثق أنى أريد ، فالرغبة والارادة لاتعوزانى . ولكن ... أمن الممكن لمثلى أن يؤمن بالجنة والنار ، كماكان يؤمن بها المسيحيون فى عصر الشهداء ؟!. انهم كانوايتقدمون للذبح ، ويلقى بهم الى أنياب السباع وهم يبتسمون ، راضين مقتنعين أن أبواب الجنة مفتوحة لاستقبالهم ، مصغين الى صوت المسيح يقول لهم من عل : « طوبى لكم ، اذ عيروكم ، وطردوكم ، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين ، افرحوا !.. وتهللوا ، لان اجركم عظيم فى السموات !.. »

ـ ومثل ايمان المسلمين فى عهد النبى ، فقد حدث فى موقعة « بدر » ، التى نشبت بين المسلمين وأعدائهم من قريش ، ان مسلما ترك القتال وانتحى يأكل بلحا ، فسمع النبى يقول : « لايقاتل اليوم رجل ، فيقتل صابرا محتسبا ، الا ادخله الله الجنة ! » .. فقذف الرجل بالبلح من يده ، وقام يصيح : « أفما بينى وبين دخول الجنة الا ان يقتلنى هؤلاء ؟!.. » ثم رمى بنفسه فى أحضان الاعداء ...

ـ نعم ، يخيل الى ان مثل هذا الايمان لايمكن أن يعرفه الغرب اليوم !.. ان الشرق يوم أعطى الغرب هذه الاديان ،

انما أعطاها على النحو الذى ذكرنا ، فتسلمها الغرب ، والبسها اردية موشاة بالذهب ، ووضع على رءوسها التيجان المرصعة بالماس ، واقبضها صولجانات الجاه والسلطان والجبروت الارضى !.. ان الكنيسة فى أوروبا ، كانت ـ فى يوم ما ـ أعظم مؤسسة مالية ، وان نظامها الرأسمالى لادق نظام . وان ثروتها الطائلة لتسند ظهر اقوى البيوت المالية ، وتقوضها اذا شاءت فى طرفة عين ، فأين ذهبت كلمة المسيح : « ما اعسر دخول ذوى الاموال الى ملكوت الله ، لان دخول جمل من ثقب ابرة أيسر من ان يدخل غنى الى ملكوت الله !!... »

ـ وأين ذهبت كلمة النبى محمد : « انى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة ، فاخترت لقاء ربى والجنة !... » ثم قوله أيضا : « اللهم توفنى فقيرا ، ولا توفنى غنيا ، واحشرنى فى زمرة المساكين !... »

ـ نعم لاشك أن المسئول عن انهيار مملكة السماء هم رجال الدين انفسهم !... أولئك الذين كان ينبغى لهم أن يتجردوا من كل متاع الارض ، ويظهروا فى زهدهم بمظهر المنتظر حقا لنعيم آخر فى السماء ... لكنا نراهم هم أول من ينعم بمملكة الارض ، وما فيها ، من اكل طيب ، يكنزون به لحما ، وخمر معتق ، ينضح على وجوههم الموردة، وتحت امرتهم : السيارات يركبونها ، والمرتبات يقبضونها !.. انهم يتكلمون عن السماء ، وكل شىء فيهم يكاد ينطق بأنهم يرتابون فى جنة السماء ، وانهم متكالبون على جنة الارض ، هؤلاء هم وحدهم ، الذين شككوا الناس فى حقيقة مملكة السماء ! ... ان كل مابناه الانبياء : بزهدهم الحقيقى ، وجوعهم ، وعريهم ، مما أقنع الناس بأن هؤلاء الرسل انما هم حقا ينتظرون شيئا فى العالم الآخر ، جاء هؤلاء فهدموه ! ...

وكانوا هم أقوى دليل على كذب مملكة السماء، وخير دعاية لمملكة الارض !... وانسوا الناس بانغماسهم فى هذه الحياة ، أن هنالك شيئا آخر غير هذه الحياة !...

ـ صدقت فى كل هذا يا مسيو « ايفان » .. ان مسلك رجال الدين قد يشكك عامة الناس ... لكن انت ... من كان مثلك على هذه الثقافة وهذا العلم ... انك تستطيع ان تقيم ايمانك على لباب الكتب السماوية وحدها ، بغير حاجة الى .. احد ..

ـ وهذا ما أردت أن أفعله ايها الصديق ، منذ ليال وأيام ... غير أنى ... ينبغى أن أصارحك .. لم أستطع ... لم أستطع مطلقا ...

ـ لم تستطع ماذا ؟..

ـ آه !.. لقد فسدت فى رأسى كل تلك الصور الجميلة للحياة الاخرى ، كما تفسد زجاجات الصور «الفوتوغرافية» عندما ينفذ الضوء الى حجرتها السوداء ... لست أدرى سببا لذلك ... يخيل الى أنها الحضارة الاوروبيةالحديثة ، لا تسمح للناس أن يعيشوا الا فى عالم واحد ... ان سر عظمة الحضارات القديمة انها جعلت الناس يعيشون فى عالمين ... لقد عرفت تلك الحضارات « العلم » ، و « العلم التطبيقى » ، فالحضارة التى تشيد الاهرام ، لايمكن ان تجهل العلوم النظرية والتطبيقية ، ومع ذلك فان ذلك العلم لم يفسد من الرءوس زجاجات الصور ، التى تمثل الحياة الاخرى ـ تلك الحضارات أسميها انا « الحضارات الكاملة » ولكن آسيا وافريقيا ارتبطتا بالزواج ، فى طور من أطوار التاريخ ، وانتجتا مولودا جديدا : هذه الفتاة الشقراء ـ التى تسمى « أوروبا » ـ جميلة رشيقة ذكية ، لكنها خفيفة أنانية ، لايعنيها الا نفسها ، واستعباد غيرها !...

وهنا قاطعه « محسن » قائلا كالمخاطب نفسه :

ــ نعم ، « أنانية » لاتعرف غير حياة الواقع ، ولا يهمها شقاء الغير ، ولا تحب الحياة الا فى ٠٠٠ الحياة

فمضى الروسى يقول ، دون أن يفهــم ما جال فى خاطر الفتى :

ــ نعم ، نعم !٠٠٠ هى كذلك حقيقة ٠٠٠ ان هذهالفتاة ترى المجد كله فى شىء واحد : تضع الاصــفاد فى أرجــل البشر ، وبدأت أول ما بدأت بأبويها : افريقيا وآسيا ٠٠٠ أنكرتهما ، وحبستهما ٠٠٠ وانطلقت فى الحياة ، لايحدها حد ، ولا يقوم لها شىء ٠٠٠ الى أن انتهى بهــا المطاف فى بيت من بيوت الليــل ، تديره ، وتشاهد فيــه شــجار السكارى ، يحطمون الكراسى والكئوس !٠٠٠ انى أخشى أن تكون أوروبا موشكة على دفع الانسانية الى هوة ٠٠٠ انها لتثوب أحيانا الى رشدها ، وترى مصيرها ، فتقع فى أزمة من أزمات الضمير : انها لتستيقظ فيها الروح أحيانا فتشك فى نفسها ، ويخيل اليها أن مدنيتها الخلابة ليست الا بهرجا وأن علمها الحديث كله ــ وهو وحده الذى تتيه به على البشرية ، فى مختلف تاريخها ــ ليس من حيث القيمة العملية غير « لعب » من صفيح وزجاج ومعدن ، قدمت للناس بعض الراحة فى أمور معاشهم،ولكنها أخرت البشرية ، وسلبتها طبيعتها الحقيقية ، وشاعريتها ، وصفاء روحها !٠٠٠ ان السكك الحــديدية والطيــارات قد أعطتنا السرعة ؟ ... وتوفير الوقت ، ولكن ما فائدة ذلك ؟ ... ولماذا السرعة ؟ ... ولماذا توفير الوقت ؟! ... كأنما قــد هبطت علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط !٠٠٠ مانحن الا قطرات ماء فى نهر الحياة ٠٠٠ ما حظنا من سرعةالتيار، واندفاعه الى البحر ؟!٠٠٠ انما حظنا الاكبر : فى التمهل حول الاعشاب الناتئة ، والسكون عند شــواطىء الجزر ، يداعبنا النسيم !٠٠٠ من الذى استفاد من هــذه السرعة الملعونة غير قبضة من النهمين ، جمعوا فى أيديهم الثروات،

وسموا بالرأسماليين !··· أما أنا وأنت وبقيــة الآدميين الوادعين ، فقد خسرنا تلك الرحلات الطويلة ، على ظهور الجياد أو الابل ، ننزل فى كل مرحلة ، ننعم بالطبيعة فى أشكالها المختلفة ، وفى أوقاتها المختلفة !··· نعم كسبنا السرعة ، ولكن خسرنا ثروة النفس التى تنمو باتصـالها المباشر بالطبيعة ، انما اليوم نفرح بكلمة السرعة ، وننسى أنها ليست سوى اغفاءة ، نقضيها فى عربة قطار ، يمرق بنا فى نفق مظلم ، ويوصلنا حقيقة فى وقت قليل الى حيث أردنا · ولكنا لانعرف بعد ذلك ماذا نصنع بالوقت الباقى ، فننفقه فى الحمق والسخف ··· ان الطبيعة لتنتقم ، وان كل وقت يسرق منها لانجد له سوقا ننفقه فيه ، غير سوق النخاسة الخلقية ، والانحطاط الآدمى!···كذلك«السينما» ـ كما يقول « دوهاميل » ـ لاتعطينا غير الطبيعة محفوظة فى العلب ، أو قصصا سخيفة ، تؤثر فى أعصـابنا تأثير « الافيون » ، « والراديو » وما يقدمه من قشور المعلومات وردىء الموسـيقى ··· كل شىء فى هـذه المدنية الحاضرة يتآمر على قتل الفضـائل الانسانية العليـا ، وصـفاتها الآدمية السامية ، وقواها الطبيعيـة الكامنـة ، بتعويدها التراخى والكسل ، باسم « الراحة الحديثة » حتى نامت كما ترى النفوس والارواح ، وأصبحنا أمام ناس مصنوعين من « الألمنيوم »··مصيبة المدنية الأوربية نزلت منذ استقرار الصناعة الكبرى !··· هذه الصناعة التى شطرت المجتمع الأوربى الى شطرين : فئة قليلة كل همها جمع المال ، وفئة كبيرة كل همها أن تقدم هذا المال فى مقابل لقمة ! ... الفئة الاولى لادين لها الا الذهب ، والفئة الثانية لا دين لها اطلاقا ولا شخصية ولا نفس ، لأنها آلات صماء ·· ان نظام تقسيم العمل قد أدى الى أن صنع الدبوس الواحـد أصبح محتاجا الى ثمان عشرة عملية مختلفة ، كما يقول «ادم سميث» ، وأن العامل الواحد قد يقضى حيـاته كلها فى صـنع رأس

الدبوس فقط ، وآخر فى صنع جزء آخر منه ، كذلك الحال فى صناعة الاحذية ، فهي فى بعض المعامل الامريكية تقسم الى أكثر من مائتى عملية ، يخص العامل الواحد منها جزء واحد من عشرة أجزاء : كعب الحذاء مثلا ... معنى هذا أن العامل لم تبق له حتى تلك اللذة الفنية القديمة ، التى كان يحسها ويرتاح اليهــا ، وهو يصنع بيديه حذاء كاملا فى حانوته الصغير . نعم !... حتى متعة الخلق الكامل ، التى كانت تشعره بآدميته قد ذهبت ، وأصبح الآن شأنه شأن المخرطة أو المطرقة أو المنشار ، يخرط ، ويطرق ، أو ينشر ، جزءا صغيرا معينا بالذات من هذا الدبوس أو ذاك الحذاء ، وهو يكرر هذه العملية التافهة كل حياته !... ما الفرق بينه اذن وبين الآلة ؟!... لافرق ، ان الرجل مازال يحس آدميته بالنسبة للشيء الذى يصنعه ، ويخلقه بيديه ، آنية من الفخار كان ، أو حذاء ، أو رداء منسوجا على نول ، أو قطعة أرض يزرعها ، ويجني ثمــارها !... انه لم ينقلب بعد ـ لحسن حظه ـ منشارا آدميا ، أومخرطة بشرية!...

استمع الى الكاتب الانجليزى «ألدس هكسلى» يصف أوروبا الحديثة : « ان اسلوب الحياة فى العصر الحاضر ليــدعو الى الاشمئزاز ، ذلك أن تطور النظام الصناعى قد أدى الى نمو فجائي لتعداد أوروبا ، ففى نحو قرن واحد تضاعف سكانها ، ثم جاء بعد ذلك التعليم الابتدائي للجميع ، فنتج عنه ظهور جمهور هائل من القراء ، ونشط لهــذا الجمهور أصــحاب الاعمال ، فأنشأوا صناعة جــديدة : هى صــناعة « مادة القراءة» !... هذه « المادة المقروءة » لم تكن ـ ولا يمكن أن تكون مطلقا ـ غير بضاعة من النوع الردىء جــدا ! ... لماذا ؟ ... تلك مسألة حسابية : ان عدد الكتاب ، أصحاب الموهبة الفنيــة ، قليل دائما . ومن هنا نرى أن الجــانب الأكبر للأدب المعاصر ، هو دائما غاية فى الرداءة ، ولما كان الأوربيون قد اتخذوا عادة القــراءة طول الوقت ـ وتلك

رذيلة ، كعـادة تدخين « السجاير » ، بل ربمـا كتدخين « الأفيون » أو تعاطى « الكوكايين » ، فان أوربـا اليـوم تتغذى بأدب من الطبقة العاشرة . وهذا كله حدث جديد ، اذ فى المـاضى لم يكن الناس يعرفون غير قليل من الكتب حقيقة ، ولكنها كانت من أجود نوع ، ولأضربن مثلا بالإنجليز ؛ فلقد كانوا الى عصور قريبة يشبون على « الكتاب المقدس » وعلى « رحلة الحاج » لـ « جـون بانيان » ! ... كتابان لا نظير لهما فى نبل المعنى وصفاء الأسلوب ! ... أما اليوم فانهم يشـبون على « الديلى اكسبريس » وعلى المجلات والقصص « البوليسية » ، فالتعليم العـام كان له هـذه النتيجة السيئة : فهو بدلا من أن يجعل النـاس يقرءون قليلا الآثار الخالدة قد جعلهم يقرءون دائما حماقات مخجلة! ... ان الفن القـديم قد يقصر أحيانا عن الاجادة ، لانه ساذج أو ناقص ، ولكنه لم يكن يوما قط مبتذلا . لماذا ؟.. لان الأقدمين لم تهيأ لهم الاسباب أن يكونوا مبتذلين !

فأطرق « محسن » قليلا ثم قال :

ـ نعم ، ربما كان هذا صحيحا ! ... ان الأعرابية فى خيمتها ، تلك التى كانت لا تعرف ما هى القراءة والكتابة ، كانت تتذوق الجيد من شعر جرير ، والأخطل ، والفرزدق ، وتتغنى بأحسن أغانى . مصعب ، ونصيب ، واسحـاق الموصلى ، وتطـرب للفجر الجميل ، وتهتز نفسها لنسيم الأصيل ، وتفل الصحراء ـ بفتنتها الطبيعية ـ على سحر القصور الزائف ! .. ان مستوى الذوق العام ـ وبالأحرى مستوى الثقافة الحقيقية ـ لا شأن له بكتابة أو قراءة ! ..

فقال الروسى بقوة :

ـ على النقيض ، ان فكرة التعليم العام للقراءة والكتابة كغيرها من بقيـة الافكار الأوربية الخاطئـة ، التى روجتها أوروبا ، وجعلتها بمثابة المبـادىء الثابتة ثبوت العقائد ،

قد انقلبت أسلحة فتاكة لجوهر الطبيعة البشرية ، فالدهماء التي تعلمت تلك الرموز السخيفة ، ماذا اكتسبت ؟ ... لقد حشيت أدمغتها بسخف وقاذورات كما يقول «هكسلي» ، وهبط مستوى ذوقها ، ومع ذلك لم تتكون لها شخصية ولا ارادة ، فها أنت ذا تراها تنقـاد كالخـراف الى كل من يقوم فيها ناعقا أمام « ميكرفون » ، فالدهماء هي الدهماء ، ولا أصلح لقلبها وعقلها مـن وسـائل الشرق الطبيعية في التهـذيب : تعمير قلبها بالدين وعقلها بالـكتب السماوية النبيلة الفصيحة ، وتركها تتصل بالطبيعة لا « محفوظة في علب » ... الراديو والسـينما والكتب ، ولكن الطبيعـة الحقيقية ، أمنا الرءوم ، تكشف لهم عن جمالها وأسرارها مباشرة ، بغيروسيط من الرأسماليين المغامرين ، وأصحاب الأعمـال الأفاكين !... تلك هي نتائج العـلم التطبيقي عنـدما ترك في أيدي الأوربيين ، وذاك أثره في النفس الانسانية ، انظر بعد ذلك أثره في جسم البشرية ، تجد أنه استحال الى قنابل وغازات خانقة وطوربيد وغواصات ودبابات ، الى آخر ذلك الابداع والتفنن في وسائل الفتك بأجسام البشر ، فالعلم التطبيقي في الغـرب كل محوره تحطيم البشرية روحا وجسما !... ان العلم تلك «الماسة» العظيمة المتألقة لم تضعها أوربا في قمة عمامتها ، لتشع نورا وجمالا ، ولكنها وضعتها في سـن مخرطة بخارية ، لتقطع بها زجاج ذلك الكأس العظيم : كأس البشرية المتلىء بماء روحها ، ومادة جسدها !... أما العلم الصرف ، البعيد عن ضـوضاء « الآلة » ، ومطامع أصـحاب المنـافع ، فان الشرق هو الذي عرفه لذاته ، كمظهر من مظاهر العبقرية الآدمية المفكرة ، في تعطشها لمعرفة الحقيقة العليا !... وهنا كل نبل العلم ، وغايته . هذا العلم الخالص أورثته أفريقيا وآسيا فتاتهما الشقراء أوروبا ، سبائك ذهبيـة وأحجارا كريمـة من الزمرد والفيروز والياقوت ، فاحتفظت الفتـاة

ببعضه ، وجعلته حليا لبهرجها ، وهنا كل جمال أوروبا الفكرى الباقى ، أما بقية الكنوز فصهرتها وصكتها نقودا تضعها فى المصارف ، وصنعت منها أغلالا تستعبد بها العالم ! ... ومع ذلك فهى لم تعرف التحلى بالعلم لذاته الا منذ عهود قريبة !... لاتنس أن أوروبا هى الوحيدة التى أعدمت فى يوم علماءها حرقا ، واتهمتهم بالسحر والجنون، وخنقت حرية الرأى حتى فى شئون الادب والفن. وجعلت من المسيحية ، التى تبشر بالمحبة والسلام، سلاحا للفتك امام محاكم التفتيش . ولكن أوروبا اليوم أبرع قليلا من ذى قبل، فهى تجيد اخفاء حيوانيتها ، تحت ريش صناعى ، يمثل أجنحة ملك سماوى . ان أوروبا اليوم فى أزمة شديدة . لاشك أنها أخطر أزمة مرت بها ، ذلك أنها قد تنبهت الى أن ما زعمته مدنية عظيمة قد أفلس ، وظهرت من تحت الريش أنياب الخنازير البرية !... وقد فهم الشرق أن فتاته ليست الا غانية خليعة ، لا قلب لها ولا ضمير ، وليست لها قيمة روحية ولا خلقية ، وأن مآلها السقوط ، ممزقة الجسد ، تحت موائد المعربدين ، فى ذلك الحان الذى تشرف نوافذه من جهة ، على المحيط الاطلنطى ، ومن الجهة الاخرى على البحر الاسود !... أيها الصديق !... الى الشرق !... الى الشرق !... فلنرحل معا الى الشرق .. ان أجمل ما بقى لاوربا انما أخذته عن الشرق ! ... لم تعد حياتى هنا !... ماذ نصنع الآن ههنا ؟؟ ... حتى راحة النفس لانجدها هنا ... ان العودة الى الهدوء والصفاء هى فى عودتنا الى فضاء الصحراء ، هناك نستنشق بملء رئتينا ، لا دخان المداخن ، ولكن رائحة السماء ، هناك لانجد تلك السحب الكثيفة ، التى تحول بيننا وبين الله ؟ هلم بنا، لقد يئست ...

ان قليلا من الأمل قد داعب قلبى ، اذ تذكرت منذ أيام حكاية عودة الشاعر الفرنسى « كوكتو » الى حظيرة

الكنيسة ، وأنت لا شك تعرف حكاية هذا الشاعر القلق! ..
لقد استنفد كل حياة الفكر والفن ، وعرف المجد الادبى ، وانغمس فى نهر الحياة اللاهية ، وبلغ كل ما يستطيع أن يبلغه المفكر الشارد وحده بعيدا عن الايمان ! ... فماذا حدث ؟ ... تملكه السأم من الحياة ، وشعر بالنقص فى كيانه ، وبالفراغ فى قلبه ، فضاق ذرعا بأيامه ، فألقى بنفسه القلقة فى أحضان « الافيون » ، لعله يجد فيه الشفاء والراحة ، استمع اليه يقول فى خطابه ، الى صديقه الفيلسوف « جاك ماريتان » : « ان الافيون ليحملنا الى نهر الموتى ، انه ينسخنا ، ويحولنا الى شبه مرج من المروج اللطيفة ، ويجعل من جسدنا ليلا ، تتزاحم فيه النجوم ، كأنها النمل ، ولكن سعادتنا هى سعادة فى مرآة ، نغدو فيها من رءوسنا الى أقدامنا محض أكذوبة واذا نحن كالمومياء: تقف آلة الاجسام وتأبى الاعضاء أن تطيع ، لاتؤثر فينا تقلبات الطقس ، وما نعود نشعر ببرودة أو حرارة ! ... لقد كان مصوروا « نابلى » يزينون حيطان المساكن ، بما يسمونه « خدعة العين » . ان «الافيون» ليس الا مصورا طريقته « خدعة الروح » ، انه يزين حيطان الحجرة التى أدخن فيها بتصاوير تلذ لى وتريح نفسى ، ان الافيون هو طارد الحيرة والقلق .. ان الافيون ليشبه « الدين » بالقدر الذى يشبه فيه « المشعوذ » « المسيح ! » .. الخ . الخ

وأشرف « كوكتو » أخيرا على الدمار ، الى أن ألقى بنفسه فى أحضان الدين ، هنا كان أملى الاخير أنا أيضا ، اذ اعتقدت أن الاوروبى المفكر ، الذى شب على هذه المدنية ، يستطيع أن يعود الى الايمان الحقيقى فى الوقت المناسب ، الى أن قرأت هذه الرسالة المتبادلة بين «كوكتو» و«ماريتان» فخامرنى الشك ! ... انها رسائل على غاية ما تكون من البراعة فى الاسلوب ، واتقاد الذكاء ، ولكنها ليست أكثر

من « قطع أدبية » !... آه ، انهم يكتبون « أدبا » ، هؤلاء الناس ـ حتى يوهموننا أن المسألة مسألة حياة أوموت...

ان الفرق بين عبقرية الغرب الروحية ، وبين عبقرية الشرق الروحية ، كالفرق بين « المشعوذ » و « المسيح » !...

خذ هذين الكتيبين : اقرأهما ، وأخبرني هل تصدق أن هذين الرجلين يعتقدان حقا بالسماء وما فيها ، من جنة ونار ، اعتقاد ذلك المسلم الذى قلت لى الآن : انه ألقى البلح من يده ، وجرى يقدم نفسه للقتل ، واعتقاد أولئك الشهداء من المسيحيين الغابرين ! ... انى أفهم أن يتكلم هؤلاء الشعراء الاوربيون عن الدين والمسيح كلاما كله اعجاب خالص ! ... انى أيضا أعجب الاعجاب الخالص بالاديان ، ولكن الذى أريد ليس مجرد الاعجاب ، كما نفعل أمام قطعة فنية من عمل عظماء الفن او الادب أو الفكر ! ... لست أريد الاعجاب الناشىء عن آلاتنا المفكرة ، وما فيها من بضاعة ثقافية مكتسبة أو موروثة ، انما أريد الايمان : ايمان القلب ، الايمان الاعمى بأن المسيح فى السماء ، وأن الله هو الله كما يتصوره البسطاء ، وان الجنة هى الجنة كما يتخيلها أولئك الذين قال فيهم المسيح : « طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السموات ! ... طوبى لأنقياء القلب لانهم يعاينون الله ! ... »

آه يا صديقى ، يا أخى ! ... ان أوربا كلها الآن ليست الا رجلا مفكرا قلقا حائرا يتعاطى الافيون . ان «جان كوكتو» هو كل « أوروبا » فى أزمتها الحاضرة ! ... انتهت أوروبا ، ولا شىء من داخلها يستطيع انقاذها ، لان كل شىء الى « عقليتها » هذه ـ تحوله الى أدب وأسلوب وزيف وكذب ! ... انما الانقاذ من الخارج ، انما النجاة فى الفضاء الى هناك ... الى الشرق ... قم معى ... الى الشرق

... افتح هذه النافذة ... دع الهواء يدخل ، اخلع عنى هذه الأردية الثقيلة ، هذه السحب الكثيفة تحجب عنى...

وامتلأ فم الروسى برغوة وزبد ، ووضع يده على عنقه يمزق قميصه ، كأنما هو يختنق ، واصفر وجه «محسن» ، ولم يبد حراكا ... ثم تنبه قليـلا من ذهوله ، فصـاح صيحة مدوية ، وأسرع الى الباب يطلب النجدة ! ...



قضي الأمر

الفصل العشرون

اعتكف « محسن » بضعة أيام ، علم خلالهـا أن صحة « ايفانوفتش » غاية فى السوء ، وجاءه صاحب النزل ذات صباح يطرق عليه بابه ، ففتح له مفزوعا !

ــ ما الخبر ؟ ...

ــ صديقك الروسى ...

ــ مات ؟

ــ لما يمت بعد ، ولكنه يسأل عنك اليــوم منــذ طلعت الشمس ...

ــ وكيف حاله ؟

ــ لست أدرى ، هو يزعم أنه اليوم بخير ، ولكنه مريض بذات الرئة ، كما تعلم ، داء لا يرحم ... أتذكر ذلك اليوم عندما صحت مستنجدا ؟ ... لقــد أغمى عليه أيضا فى المساء ، وكان فى حالة احتضار حقيقيــة ، فاستدعينا له القسيس ، ولكنه ما فتح عينيه قليلا وابصره حتى صاح فيه وفينا بصوت خائر لكنه ثائر : « ابعــدوا عنى هــذا السكير بوجناته الموردة ! » ... وتصور عندئذ أى حرج وقعنا كلنا فيه ! ... على أى حال ، قد بلغتك يا مسيو « محسن » ، ولك أن تذهب اليه اذا شئت ، أو لا تذهب

وخرج صــاحب النزل ، تاركا الفتى فى مكانه مطـرقا مفكرا . ولم يجد « محسن » بدأ من الذهاب الى « ايفان »

على الفور ، فقام ومضى الى حجرته ، فوجده فى فراشه ، يتأمل اشعة الشمس الداخلة من النافذة ، وتنبه الروسى لحركة دخول « محسن » ، فوجه بصره اليه ، وأشار له بعين باسمة الى شعاع ذهبى انعكس على الفراش :

ـ ما أجمل الشمس اليوم ! ...

ـ نعم ...

قالها الفتى فى غير اكتراث ، وهو يتأمل وجه الرجل الشاحب وفرحه الذى يشبه فرح الأطفال الساذج بهذا الشعاع فوق سريره ، وساد صمت ، قطعه المريض بشبه همس :

ـ آه ؟ ... النور ... النور يشرق من بلاد الشمس ، ليغرب فى بلاد الغرب ! ...

ثم التفت الى « محسن » وقال له فى صوت متداع :

ـ اقترب يا صديقى ، وانهضنى قليلا ... فانى سئمت طول الرقاد ! ...

فتردد الفتى خوفا عليه :

ـ انى أخشى ...

ـ لا تخش شيئا ، ضعنى بجوار النـافذة ، أعنى على الجلوس ، حيث يغمرنى نور الشمس ! ...

فلم ير « محسن » بدأ من تلبية رغبته . فساعده على القيام ، ومشى به الى ظهر صندوقه الخشبى ، حيث وضعه عليه وضعا ، فقال الروسى وهو يستنشق الهواء بما بقى له من رئتين :

ـ شكرا لك ... أيها ... الصديق ! ...

ثم أمسك بيد « محسن » بين يديه ، ونظر اليـه طويلا وقال :

ـ أتعاهدنى ؟ ...



« اقترب يا صديقى ، وانهضنى قليلا .. فانى سئمت طول الرقاد »

ـ على ماذا ؟ ...

ـ ان نذهب معا الى ... الشرق ؟ ...

فتردد الفتى قليلا ثم نظر الى كيان الرجل الواهى :

ـ نعم ، عندما تسترد كل صحتك ! ...

ـ انى اشعر اليوم أنى قد شفيت ، ان صحتى تسمح لى أن أسافر ، اليوم بالذات ! ... اسمع : ان لدى فى هذا الصندوق مبلغا من المال ادخرته يكفى نفقات السفر ! .. وسأخرج اليوم أبحث عن مشتر لهذه الكتب وهذه الامتعة ... لست فى حاجة الى كتب بعد اليوم ، انما انا فى حاجة الى ... هواء ... وفضاء ... وصفاء !

وخشى « محسن » أن تنمو الفكرة فى رأس هذا المريض ، فيرتكب حماقة تسىء الى صحته . فلم يبد تحمسا لما قال ... ثم أراد أن يثنيه ، عن عزمه فقال :

ـ أرى أنك تقسو فى الحكم على الغرب يا مسيو « ايفان » مهما يكن من أمر ، فان أوروبا قد وصلت بالعلم البشرى الى قمم لم يصل اليها ...

فلفظ الرجل ضحكة سخرية ، وقال :

ـ من قال لك ذلك... أتعرف ماهو العلم أيها الفتى ؟... ان العلم « علمان » : العلم « الظاهر » والعلم « الخفى » وان أوروبا حتى اليوم طفلة ، تعبث تحت أقدام ذلك « العلم الخفى » ، الذى كانت حضارات أفريقيا وآسيا قد وصلت به حقيقة الى قمم المعرفة البشرية ... أما العلم « الظاهر » وحده فهو كل ميدانها ، الا أن الآلة المفكرة محدودة ، وأن كل وسائل العلم الظاهر هى أعضاؤنا وحواسنا الظاهرة ، وتلك ليس لها من الدقة ما يقتنص ، غيرالظواهر التافهة ، من ظواهرالطبيعة والكون ــ مهما تعاونها الآلات والعدسات . كل هذا العلم الحديث الذى يبهرك ليس ، فى حقيقته غير « طريقة » و « أسلوب » ! ... نعم ان الجديد حقا فى العلم

الاوروبى الحديث هو « اسلوب » التفكير المنتظم و «طرائق» البحث العقلى المرتقب ، أما اكثر من ذلك فلا ... وأما أن نسمى مجرد استكشاف بعض خواص الطبيعة بحواسنا ، وصولا الى قمم المعرفة البشرية ، فتلك هى السخرية الكبرى ! ... ان قمم المعرفة البشرية هى مجاهل ذلك « العلم الخفى » ، الذى لم يدخل قط عقل أوروبا ، لان وسائلها كما قلت لك لا تهيئها الا لفهم مظاهر الحياة السطحية ، ولا أقسو عليها اذا استعملت كلمة «السطحية» ، لانها هى الحقيقة ... أن عين العلم الاوروبى لا تقع دائما الا على سطح الاشياء ، ككل عين ! ... انها مدنية لا تدرك ولا تعترف الا بما يقع تحت لمسها وبصرها ومنطق عقلها ، ولا تقوم الا على عالم المحسوس ، وانى أصرعلى أن هذه المدنية الكبيرة أن هى الا « مدنية ناقصة » لانها لا تعرف الحياة الا فى « عالم واحد » ! ... أريد أن أهرب الى البلاد التى تعيش فى « عالمين » ، تلك البلاد التى ارتفعت فيها المعرفة البشرية الى قمم « العلمين »

وسكت الرجل قليلا ، ولمح « محسن » التعب على وجهه فقال له :

ـ لا تتكلم كثيرا ! ... أرجو منك ذلك ... حسبنا ما حصل فى المرة السابقة ! ...

ـ لن أتكلم ، كفى كلاما . ولكنى سأفعل ! ... الى العمل ! ...

ثم تحامل ونهض قليلا مستندا الى الحائط فأسرع اليه « محسن » :

ـ الى أين ؟

ـ أرتدى ثيابى ، لأخرج فأبيع هذه الكتب ، وأتهيأ للسفر

ـ ليس الآن ، ليس الآن ... انك متعب

ـ دعنى ، أيها الشاب ، سنذهب الى الشرق ، أريد أن

ارى جبل الزيتون ، وأن أشرب من ماء النيل وماء الفرات وماء زمزم وماء ...

ـ ونترك هذه البلاد ... وهذه الحضارة ... ونترك « بيتهوفن » ؟ ... آه يا مسيو « آيفـان » ! ... انك تستطيع أن تقول كل شيء عن الغرب فأسمع لك ، ولـكن « بيتهوفن » ها هو ذا نبى حقيقى ! ... ها هو ذا رسول للمحبة والسلام ، خليق أن يرفع مجد الغرب أبد الآبدين... وأن يطهر الانسانية وأن ينير القلوب ! ...

فالتفت الروسى الى محسن قائلا فى قوة :

بيتهـوفن ! ... بيتهـوفن ! ... نعـم بيتهـوفن » و « هاندل » ، و « موزار » ، و « هايدن » ، و « جان سباستيان باخ » ، و « ميكل آنج » ، و « رفايـــل » ، و « رمبرانت » ، و « باســكال » ، و « ســان توماس » ، و «كوبرنيك» ، و «جاليليه» ، و «دانتى»...الخ الخ ... كل أولئك ان هم الا زهرات يانعات فى حديقة المسيحيـة الغناء ! ...

ثم وضع يده على كتف « محسن » المطرق الساهم :

ـ هلم الى المنبع !... الى المنبع ؟...الى هناك ... الى هناك ! ...

ثم ترك الفتى فى أطراقه ، وتحامل متكئا على الحائط ، يبحث عن حذائه وسترته ... ومرت فى رأس « محسن » خواطر ، وبدت له صور من الشرق اليوم ، فرفع رأســه وقال لصاحبه الروسى :

ـ ألم تر الشرق قط من قبل ؟ ! ...

فأجاب الرجل ، وهو يضع حذاءه فى احدى قدميه :

لم أره قط الا فى أحلامى ... ولكنى لن أموت قبل أن أراه ! ...

فأطرق « محسن » مرة أخرى ، وهم أخيرا أن يرفع رأسه ليقول لـ « ايفان » :

ــ مهلا ، مهلا أيها الصديق !...ان ذلك المنبع الذى تريد ان تراه ، وتلك الانـــهار التى تريد أن تشرب منهـا ، قد تسممت كلها ! ... ان «الفتاة الشقراء» يوم حقنت فخذها « بالمورفين » السام لم تترك أبويها سالمين ، لقد قضى الامر ، ولم يعد هناك نبع صاف ، فان الزهد قد ذهب كذلك من الشرق ! ... وان رجال الدين هناك يعرف بعضهم اليوم كذلك اقتناء السيارات ، وقبض المرتبات ، وتورد الوجنات من النعم والمتع ، وأن ثياب الشرق الجميلة النبيلة هى اليوم خليط عجيب من الثياب الاوروبية ، يثير منظره الضحك ، كما يثيره منظر قردة ، اختطفت ملابس سائحين من مختلفى الاجناس ، وصعدت بها فوق شجـرة ترتديـها ، وتقلد حركات أصحابها ! ... وأن التعليم العام للقراءة والكتابة ، وحق التصويت والبرلمان ، وكل هذه الافكار الاوروبية قد اصبحت فى الشرق اليوم مبادىء ثابتة ، يؤمن بها الشرقيون ايمانهم ــ بل أكثر من ايمانهم ــ بمبادىء الاديان ! ... وانه لمن السهل أن تقنع شرقيا اليوم بأن دينه فاسد ، ولـكن ليس من السهل أن تقنعه بأن « الصناعة الـكبرى » هى عجلة « ابليس » التى يقود بها الانسانية الى الدمار ... وأن التعليم العام لرموز الكتابة نوع من الهراء ، وانك قد تســتطيع اليــوم أن تقتلع من رأس الشرقى عظمــة « السماء » ! ... ولا تستطيع مطلقا أن تقتلع منه عظمـة « العلم الاوروبى الحديث » ، وانه لمن اليسير أن تسفه عند الشرقى الآن « رسالة » الانبياء ، ولا يمكن أن تسفه لديه « رسالة » القوة المادية الحديثة ! ... بل من العجيب أن هذه الافكار والمبادىء ، التى تعتبر فى الشرق اليوم ثابتـة ثبوت الآيات المنزلة ــ قد يناقشـــها الاوروبيون أنفسهم

وينقضونها ، وهى ما تزال حافظة عندنا كل قوتها ! ...
وإن المدفع قد ينطلق فى أوروبا ضد بعض هذه الافكار ، ونرى ضوء لهبه ، ولكن الصوت لا يصل الى آذاننا لا لبعد المسافة ، بل لان آذاننا لا تسمع ، وقلوبنا لا تعى ! ... لقد كانت « الحقنة » شديدة الفعل والاثر . نعم ، ولا أحد يدرى هل أوروبا حقنت الشرق بأفيون خالص أو بأفيون ممزوج بسم ناقع ، سرى ــ وما زال يسرى ــ فى شرايينه يقتل كل بذور المثل العليا الشرقية فى النفوس ، فشبان الشرق اليوم ــ عندما أرادوا أن يتخذوا لهم مثالا للرجولة والبطولة ــ لم يتجهوا شطر « غاندى » ولكنهم اتجهوا بعيون ، كأنها منومة تنويم المغنطيس شطر «موسولينى» ، ويوم أرادوا أن يجعلوا للتقشف والخشونة لباسا لم يضعوا على أبدانهم العارية القوية رداء بسيطا من القطن ، يصنعونه بأيديهم ــ لكنهم ارتدوا القمصان الاوربية ذات الالوان!...
اذن حتى أبطال الشرق قد ماتوا فى قلوب الشرقيين ! ...

نعم ، اليوم لا يوجد شرق ! ... انما هى غابة على أشجارها قردة ، تلبس زى الغرب ، على غير نظام ولا ترتيب ولا فهم ولا ادراك

لم يجرؤ « محسن » أن يقول مثل هذا الكلام لصاحبه الروسى ، فقد أدرك ان هذا الرجل ، الذى لم يستطع شىء فى الغرب أن يشفى نفسه القلقة الحائرة ــ قد وضع كل أمله فى الشرق ، وقد صنع الشرق فى رأسه صورا عظيمة هى كل أمله الباقى ، وان كشف الحقيقة لعينه الآن أفظع طعنة يقتل بها هذا المسكين ، فتركه فى خيالاته ، ورفع الفتى رأسه أخيرا ليرى ماذا يصنع صاحبه ، فألفاه ملقى على ظهر الصندوق ورأسه الى الحائط وفى احدى قدميه الحذاء ، فأخذه روع لمرآه وأسرع اليه :

ــ ماذا بك ؟ ... مسيو « ايفان » ؟ ماذا بك !

فقال الرجل ، فى صوت كالحشرجة :

ـ فات الأوان !

ـ أى أوان ؟

ـ اذهب أنت وحدك ... الى ... هناك ...

ـ أأستدعى لك الطبيب ، يا مسيو « ايفان » ؟ أأطلب لك ؟ ...

ـ لا ... لا تفعل شيئا ... انى ... أعرف نفسى ...

ومال راسه ، وانطفأ النور الباقى من عينيه ، لكنه تحامل وقال فى صوت يكاد لا يسمع :

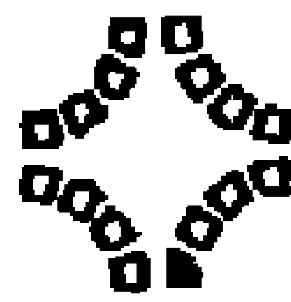
ـ اذهب أنت يا صديقى ... الى هناك ... الى النبع ... واحمل ذكراى وحدها معك ... وداعا ...



فهرس

صفحة

صفحة



كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج انيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما ـ ما عدا كتابى زينب ومع الله فى السماء وابتداء من كتاب ((قال الرئيس)) (العدد ٧١) ١٠٠ مليم ـ بخلاف مصاريف البريد المسجل ، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية

١ ـ عبقرية محمد (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٢ ـ ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

٣ ـ هرون الرشيد (نفدت)
تأليف المرحوم الدكتور أحمد أمين

٤ ـ أبو الشهداء (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٥ ـ جنكيز خان
سفاح الشعوب (نفدت)
تأليف ف . بان

٦ ـ قلب النسر
تأليف اوكتاف أوبرى

٧ ـ السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

٨ ـ غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

٩ ـ زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

١٠ ـ الزعيم احمد عرابى (نفدت)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ ـ بطلة كربلاء (نفدت)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

١٢ ـ اشعب أمير الطفيليين (نفدت)
تأليف توفيق الحكيم

١٣ ـ نفرتيتى ربة الجمال والتاج (نفدت)
تأليف صوفى عبد الله

١٤ ـ حديث رمضان (نفدت)
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

١٥ ـ عبقرية خالد (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

١٦ ـ الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ . س . ارمسترونج

١٧ ـ كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

١٨ ـ الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

١٩ ـ لا تخف (نفدت)
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٢٠ ـ مصطفى كامل
باعث النهضة الوطنية (نفدت)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٢١ ـ القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

٢٢ ـ زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

٢٣ ـ مذكرات عرابى
جزء أول (نفدت)
تأليف الزعيم احمد عرابى

٢٤ ـ مذكرات عرابى
جزء ثان (نفدت)
تأليف الزعيم احمد عرابى

٢٥ ـ عبقرية عمر (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٦ ـ آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٢٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون
(نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٨ ـ عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم

٢٩ ـ أبو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

٣٠ ـ البؤساء (نفدت)
تأليف فيكتور هيجو

٣١ ـ علمتنى الحياة (نفدت)
لنخبة من علماء الشرق والغرب

٣٢ ـ فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

٣٣ ـ مدرسة المغفلين (نفدت)
تأليف توفيق الحكيم

٣٤ ـ لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

٣٥ ـ عصاميون من الشرق والغرب
(نفدت)
لنخبة من كبار الكتاب

٣٦ ـ الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة ـ الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

٣٧ ـ ذو النورين عثمان بن عفان
(نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٣٨ ـ محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان

٣٩ ـ عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر

٤٠ ـ الحرية الحمراء
تأليف حبيب جاماتى

٤١ ـ اهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم

٤٢ ـ الله (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز

٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

٤٥ ـ نساء النبى (نفدت)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٤٦ ـ ثائرون
تأليف محمود تيمور

٤٧ ـ زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم

٤٨ ـ هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب

٤٩ ـ غادة النيل
تأليف اميل لودفيج

٥٠ ـ مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد

٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم

٥٢ ـ طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه

٥٣ ـ الف ليلة وليلة (نفدت)
(الجزء الاول)

٥٤ ـ عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٥٥ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)

٥٦ ـ مدرسة الشيطان
تأليف توفيق الحكيم

٥٧ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)

٥٨ ـ معاوية بن أبى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد

٥٩ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)

٦٠ ـ اعرف نفسك
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٦١ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)

٦٢ ـ مع الله .. فى السماء
تأليف الدكتور أحمد زكى

٦٣ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء السادس)

٦٤ قصة الثورة كاملة (نفدت)
تأليف أنور السادات

٦٥ ـ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد

٦٦ ـ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٦٧ ـ عبقرية الامام على
تأليف عباس محمود العقاد

٦٨ ـ شاعرة الطليعة عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى

٦٩ ـ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٧٠ ـ بطل الكفاح الشهيد محمد فريد
تأليف عبد الرحمن الرافعي

٧١ ـ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر

٧٢ ـ بناة النهضة العربية
تأليف جرجي زيدان

٧٣ ـ محمد الرسول البشر (نفدت)
تأليف توفيق الحكيم

٧٤ ـ القصر المسحور
تأليف طه حسين ـ توفيق الحكيم

٧٥ ـ قصة الثورة كاملة (نفدت)
تأليف أنور السادات

٧٦ ـ أسرار الثورة المصرية
تأليف أنور السادات

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب ((المبتديان)) بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبي دانيال بالإسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمي صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبي ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكي ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكتبات الشهيرة وأكشاك الصحف ، ما عدا الكتب التي نفدت نسخها كما ترى في هذا الكشف

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢
(الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thome.
Pateo Do Colegio N° 3.
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL.

هـذا الكتـاب

عصفور من الشرق كتاب أدبى فلسفى وضع فى قالب قصـة غراميـة طريفة ، ولكنه تناول كثيرا من الآراء التى كانت – حين ظهر هذا الكتاب منذ عشرين عاما – تتضارب ولا تنفك تتصارع وتتصادم فى العالم حتى اليوم، وهى أول قصة مصريه تناولت الافكار والاتجاهات العالمية

انه كتاب يصور العالم بشرقه وغربه، ويأتى على ذكر الافكار والآراء التى كانت جديدة فى ذلك الوقت ، وكمـا كانت تتصـادم فيهـا الاتجاهات المختلفة والعقائد والتقاليد

هـذه الآراء وتلك الاتجاهات لا تزال فى صراع الى اليوم ، ولا تزال موضع أخذ ورد ، ولا تنفك تستحوذ على عقول الكثيرين من الناس عامة والمفكرين خاصة

وقد استطاع الاستاذ توفيق الحكيم أن يعبر عن هذه الآراء والاتجاهات تعبيرا صادقا أمينا بأسلوبه الجميل وحواره الممتع الاخاذ

كتاب الهلال

البؤساء

تأليف فيكتور هيجو

تعريب

شاعر النيل

محمد حافظ ابراهيم

العدد ٧٨

قروش ١٠

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٧٨ ـ صفر ١٣٧٧ ـ سبتمبر ١٩٥٧

No. 78 — September 1957

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ـ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا ـ الامريكتين ٥ر٥ دولارات ـ سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

البؤساء

تأليف فيكتور هيجو

تعريب

شاعر النيل

محمد حافظ ابراهيم

اهداء الكتاب

إلى الأستاذ الإمام

انك موئل البائس ، ومرجع اليـــائس .. وهذا الــكتاب ـ أيدك الله ـ قد الم بعيش البائسين : وحيــاة اليائسين . وضعه صاحبه تذكرة لولاة الامور ، وسمــــاه : كتـــاب « البؤساء » ، وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة : « الرحمة فوق العدل » ..

وقد عنيت بتعريبه ، لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار ، ورأيت أن أرفعه الى مقامك الاسنى ورأيك الاعلى لاجمع فى ذلك بين خلال ثلاث : أولاها التيمن باسمك والتشرف بالانتماء اليك ، وثانيتها ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب الى الرجل الذى يعرف مهر الكلام ، ومقدار كد الافهام ، وثالثتها امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ما وضعه حكيم المغرب الى حكيم المشرق (١)

فليتقدم سيدى الى فتاه بقبوله ، والله المسئول أن يحفظه للدنيا والدين ، وأن يساعدنى على اتمام تعريبــه للقارئين

---

(١) صدر هذا التعريب قبل أن يتوفى الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ ، وكان شاعر النيل من خيرة مريديه وأصدقائه فصدره بهذا الاهداء البليغ

كلمة فى التعريب

بقلم محمد حافظ ابراهيم

هذا كتاب « البؤساء » ، وهو خير ما أخرج للناس فى هذا العهد ، وضعه صاحبه وهو بائس ، وعربه معربه وهو بائس فجاء الاصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة ، وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه ، وعربه كاتب هذه الاسطر وهو فى بلواه

ولولا أننى أشرب بالكأس التى كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم ، لما وصـــــل مبلغ علمى الى مبلغ علمه ، ولما سبح يراعى فى قطرة من سيول قلمه . ولو أن لى قلما من اعواد أشجار الجنة ، وصحيفة من صحف ابراهيم وموسى ، وقد تلقتنى البـلاغة من كل جهة بفضلها ، فسموت الى لبـــاب مصاصها ، وأخذت منها حاجتى ، لما حدثتنى النفس بتعريب ذلك الكتاب ، لولا اتحادنا فى الالم وتشابهنا فى الشقاء

فلقد كنت أنظر فيه نظرة المنجم فى الميقات ، واستوزع الله بيان تلك المعجزات ، حتى اذا نفذ الفكر الى ما وراء سطوره ، واهتدى الخاطر الى مكامن حكمه ، دعوت أم اللغات ، وعملت على التوفيق بين هذه الغادة الشرقية وتلك الفتاة الغربية ، وعمدت الى مد صلة النسب بين الغادتين اللتين انتهت اليهما بلاغة العرب وبلاغة الافرنج ، فاذا شمست احداهما وازور

جانبها ، أغريت بها سلطان العقل ، فلا يزال بها يروضها كما يروض الراكب المطية الصعبة ، حتى تسكن الى أختها وترتاح الى جوارها . ولم تزل تلك حالى : أدخل بينهما دخول المرود بين الجفن والجفن ، وأمشي بينهما مشية الحكيم فى الصلح بين القوم والقوم ، حتى أئتلف الذوقان وامتزج الروحان، وضمت شمسيهما طفاوة(۱)، واحتوت بدريهما هالة، وخلعت الاولى على الثانية جلالها ، وأعارتها الثانية نضارتها وجمالها ، واصبحت تلك المعانى الافرنجية بعد أن صقلها اللسان المبين ، وجندرها (۲) الذوق الشرقى ، تسكن فى هذه المعانى العربية

ولم يقع للناطقين بالضاد حتى اليوم شيء من مؤلفات ذلك الحكيم ، وهم أحوج الناس الى معرفة أسرار الحياة والانتفاع بمثل ذلك الفكر ، الذى كنت بينا أراه يسابح الاجرام فى أفلاكها اذا هو يدارج النمال مدابها ، وبينا ألمحه بين ذروة العلم وشرفة القصر ، اذا هو بين قاع البحر وعميق النهر .. فكم افلت من هجيرة واختبأ فى خميلة ، فمن تلهب جمرة القيظ فى صميم القائلة ، الى تراوح النجم فى الروضة ، ومن التردد بين زفير العاشق وحرقته ، الى التمشى بين نفس الحبيب وريقته

ولا يزال الكتاب فى كل أمة يتلمسون أن يعقل عنهم ما ألهموا أن يدخلوه فى مؤلفاتهم من الحكم والامثال، فيصدحون عنها الشرور بأقلامهم كما يصدح (۳) المطر ، ويستهبطون الحكمة من سمائها فيسكنونها بين سطورهم ، وينشدون

---

(۱) الطفاوة : دارة الشمس وهالة نورها

(۲) وجندرها : اى هذبها الذوق الشرقى

(۳) أخرجها مثلا . وكان من وساوس العرب ـ اذا خشوا سقوط المطر ـ ان يعمد احدهم الى خيمته او عطفه ، فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها ، رجاء ان يخطىء المطرفى سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة . وقد كانت هذه الصدحة مما استعان به المتنبى على تأييد دعواه فى النبوة

لذلك الامثال فينثرونها فيما يتخيرونه من الاقاصيص التى تدعو الى العظة ، وتصفح النفوس عن ركوب سبل الغواية

ومن تلك الاقاصيص ذلك الكتاب الذى أعانى تعريبه اليوم فلقد قص علينا صاحبه أحسن القصص ، فكان مثله فيه كما قال عن نفســـــه : مثل المنجم الذهبى لا تصـــل الايدى الى تبره حتى تكاد تحصى ثراه عدا

وقد خار الله لى أن أعربه ، فاستعنته فأعاننى ، واستهديته فهدانى ، وسلخت اثنى عشر هلالا فى تعريب تلك الصفحات التى ترونها اليوم . وحاولت أن أصل بها تلك الرحم ، التى قطعتها يد الترجمة التجارية بيننا وبين أولئك الرجال ، الذين تجردوا لتعريب أساطير الاولين فوفوها قسطها من الاتقان ، وألبسوها من البهجة لباسا ترضاه اللغة ويرضاه أبناؤها

ارأيتك أيها الناظر فى كتاب كليلة ودمنة ؟ أكان يقوم وأنت تذوق حلو تركيبه ، وتستمرىء لذة أسلوبه ، أن عبد الله بن المقفع قد عربه عن الفارسية ، لو لم يصل خبر ذلك اليك ؟ فسقيا لتلك الاقلام التى عربت فأعربت ، وسطرت فأعجبت وواها لهذه اللغة التى أصبحت بين أعجمى ينادى بوادها ، وعربى يعمل على كيدها . .

ومن نظر فى بطون تلك الكتب التى تترجم اليوم ، رأى هذه الغادة الشرقية وهى على فراش موتها تندب خدرا قد ابتذلته الاقلام ، وسترا قد هتكته الاوهام ، وقد فتحوا لها فى بطون هذه الكتب قبورا ، وخاطوا لها من تلك الصحف أكفانا ، وهيأوا من هذه الاقلام أعوادا ، وما هو الا أن يثنى ذلك الغربى بدعوته حتى يسرع الى جنازتها أهلها وذوو قرابتها . .

اللهم أنت تعلم أننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر، ونسمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر ، اللهم ان هذا خـذلان منك فأدركنا برحمتك وهيىء لنا من أمرنا رشدا

أيكون بين أبناء اللسان العربى مثل من أرى اليوم من فحول

البلاغة وملوك الكلام ، وأنا لا أعرف من هذه الزهور قديمها وحديثها غير اسماء معدودات ، ولا أكاد اجيد وصف قصر من القصور أو آلة من الآلات ، ومخترع من الاختراعات الا ما وقع تحت نظر العرب فى تلك الجزيرة الجرداء ، وماسمت اليه حضارتهم فى عهد الدولة الاندلسية ؟

اى رجل كان صاحب كتاب البؤساء ، واى غيث سقاه ، وجو حواه ، حتى أدخل فى لغته من الكلمات مايخطئه العد ، ووقف فى وجوه المعارضين فيها وقفة البسفور فى وجوه الطامعين فى هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين ؟ أو ليس رجالنا بقادرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما آتى به ذلك الرجل وهو وحيد ؟

تباركت اسماؤك اللهم .. أيدعى البعير – وهو ذلك المركب الخشن – بهذه الاسماء التى تضيق عنها بطون الكتب وهذه مراكب البخار والكهرباء لا نكاد نجد لاسمائها مرادفا فى هذه اللغة ؟ فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربى الذى يقول فى وصف عيشه :

الابيضان أبردا عظامى الماء والفت بلا ادام (١)

وهو فوق راحلة ظالع على قتب (٢) يكاد يدمى عجانه تحت شمس لا تكاد تأكل ظلها فى مفازة

تمشى الرياح بها حيرى مولهة حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

اذا أردته على أن يصف تلك الراحلة العجفاء فأرهف بالقول وسرد من الوصف ما يبلغ حد الاعجاز ، وأردتنا على أن نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخوان ، ونتبوأ أريكة « الاوتومبيل » تحت ذلك الظل الظليل ، فى مخارف (٣) ضفاف النيل على فراش وثير ، ومتكأ من حرير :

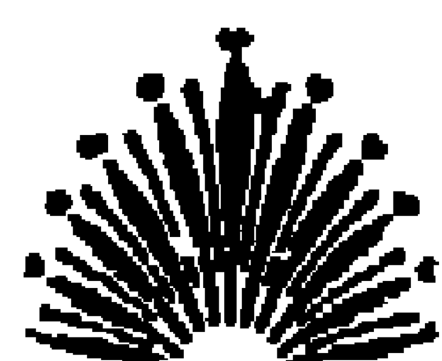
---

(١) تقول العرب : الابيضان عن الماء والفت ، والاحمران عن اللحم والخمر
(٢) القتب هو ما يجلس عليه راكب الراحله
(٣) جمع مخرف وهو المتنزه

بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك المركب الذلول الذى لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقفنا أمامك موقف الحائر لا نعرف له اسما يدل على مسماه ، ولا مرادفا فى اللغـــة يؤدى معناه ؟

فخذوا أيها القادرون على الاصلاح بيـد اللغة ، وانظروا كم ادخل فيها آباؤكم الاولون من كلمة فارسية

وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم بما ندعوكم اليـه • وهذا باب الاشتقـــاق وباب النحت لا يزالان بحمـــد الله مفتوحين لم يصبهما ما أصاب باب الاجتهاد ، فادخلوا منهما آمنين





شاعر النيل : محمد حافظ ابراهيم

كلمة فى المؤلف

بقلم محمد حافظ ابراهيم

ولد « هيجو » والقرن الغابر صبى فى مهده لم يدرج من حجر أمه ، ولم يفرق بين أمســـه ويومه ، فاصطحبا طفلين ثم افترقا ، وضرب الدهر بينهما بضرباته فالتقيـا شيـخين فانيين فاذا الاول سيـد القرون ، واذا الثانى نادرة البطون ، هذا يمشي على قدمين من ليل ونهار ، ويطير بجناحين من كهرباء وبخار ، وذلك يتوكأ على عصوين من عظة واعتبـار ، ويرتدى بثوبين من حكمة واختبار ، وقد جلس الاول على سرير دولة الايام ، وأخـذ الثـانى بصولجان دولة الاقلام ، فالتقت دولةالعجب ، بدولة الادب ، واجتمعتبدائع الاختراع ببدائع اليراع ، فاخضل ظل هاتين الدولتين ، وامتـــد من المغربين الى المشرقين ، فظل الناس بين نعيم الحرية ونعيم المـــدنية ..

سبحانك اللهم ، هل كانت تعقل هذه الذرات ـ وهى فى عالم السديم ـ أن سيرتقى بها الحال الى العيش فى هــذا النعيم ؟ فتبارك الله الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم

ولد هيجو واللغة الفرنسوية بمنزلة بين الضعف والحاجة، والقوم بين أسر التقليد وذل التقييد ، والادب لم يبق منــه

الا الدماء ، فانبته أبوه نباتا حسنا ، فما كاد يشهد ستة عشر ربيعا حتى تحركت نفسه الى معالجة الشعر فقرض قصيدة دار لها فلك البلاغة ، ورددها لسان الكون ، رفعها الى المجمع العلمى فاهتزت جوانبه عجبا ، وكادت تطير أعضاؤه طربا ، ولولا انه كشف عن سره ، وأوضح عن بيان عمره ، لاجزلوا ثوابه ، ورفعوا جنابه ، ولكنهم قارنوا بين شعره ، وعمره ، فاستنزروا أيامه واستغزروا بيانه ، فظنوا انه يسخر منهم ، فلم يجيزوه الا يسيرا . وهبت بعد ذلك رياح سعوده ، فأخذ بناصية القوافى ، وتنازل له سلطان الخيال فسبح فى ملكوته ماشاء الفكر ، وما زال يتنقل فى تلك العوالم الخيالية حتى نودى به أميرا على دولتى النظيم والنثير ، وشجر بينه وبين جماعة الشعراء الخلاف ، فرأوا الحفاظ والتمسيك للقديم ، ورأى غير ذلك ، فلم يزل بهم يصابرهم ويطاولهم حتى ظهر عليهم ، ورفع للشعر منارا أطلت منه الحقيقة بجلالها ، واشرفت منه الطبيعة بجمالها

ولما صدع قيود الشعر ، واطلق سراحه من سجن التقييد وقد وقف اذ ذاك على أبواب الثلاثين من عمره ، نظر فاذا فن التمثيل يتضاءل تحت أستار الملاعب ، تضاؤل الحسناء تحت الاطمار ، لاخذ رجاله بأسباب التقليد ، وترسمهم أثر الرومان واليونان فيما وضعوه من الاقاصيص التى تمثل ادوار تلك الازمان الغابرة ، ورأى أن الواضعين فيه لم يجيئوا بما ينقع الغلة ، فانبرى الى منازلة أولئك المقلدين ، وقامت بينهما حرب عقدت عجاجها الاقلام ، وادارت رحاها الافهام فمازال يكر عليهم بجيوش البيان ، وكتائب البرهان ، حتى خضعوا لقلمه ، وساروا تحت علمه

ولاحت بعد ذلك تباشير الاصلاح فى سماء الادب ، وظهر كتابه الذى سماه نتردام دوبارى Notre Dame de Paris فطلع على الناس طلوع القمر على المدلج الحائر ، حشرت له فيه

اللغة جنودها من الالفاظ والمعاني ، فاستعرضها صفاصفا ، وتفقدها حرفا حرفا ، ثم أبرزها الى ميـــدان التحرير على أحسن تعبئة واكمل نظام ، وقد وفق بين قلبها وجناحيها كما يوفق القائد الخبير

ولما قضى من الادب لبانته ، واخذ من الشعر حاجته ، هجر الشعر الى السياسة ، وما هى الا جولة من جولات الفكر حتى دعته السياسة الى مواصلة الشعر ، ليوضح لها سبيل استهواء الافئدة ، واستبطان الضمائر ، ويكون طليعتهــا فى اكتشاف مايستكن فى قرارة النفس وخلجات الفؤاد

وبلغ هيجو من السياسة كوكبها (١) فركب سفين الحرية عرض بحارها ، فما زالت توفى به من بحر الى بحر ، وترمى به من عبر الى عبر ، وهو على ظهـرها يطالع فى أفق الدهـاء صحيفة الرجاء ، وقد وضع أمامه ابرة الامل ، وجعل وجهته قطب العمل ، حتى بلغته شاطىء آماله ، وحمد مغبة أعماله

وما كاد يتنسم الافرنس نسيم الحـــرية حتى هبت ريـح الاستبداد من رقادها ، وصــفت من جوانب العرش المالك ، فاحتملت هيجو على أكتافها واندفعت به ، حتى اذا بلغت سماء بروكسل عاصمة البلجيك ألقت به هناك فى منفاه الجديد

فنزل الرجـل متماسكا لم يعتره الدهش ، ولم يتطرق الى عزمه الخمول ، وغادر باريس وقد أقسم أن لا يهبطها أو يهبط عرش الملك فيهــا ، وبرت يمينه .. فانه لم يطأ أرضها حتى وطئتها بوادر خيل الالمان فى حرب السبعين

ولبث هيجو فى منفاه ، وكانت أيامه فيه أخصب أيام حياته فأسلس العنان لفكره ، وأوسع المجال لقلمه ، فوضـــع كتابه الذى سماه « نابليون الصغير » ، ونظم بعده كتاب «العقوبات» فنال فيه من نابليون الثالث ما لم ينله منه زوال ملكه ، وكان

---

(١) كوكب الشىء معظمه



فيكتور هيجو : مؤلف البؤساء

عليـه أشد غضاضـة من تسليم سـيفه الى يد عدوه في يوم خذلانه

وجاء ذلك الكتاب مثال مايملى الحق على القريحة . وتوحى الموجدة الى اليراع ، ووضع بعده كتاب «المشاهدات» وكتاب « البؤساء » الذى نعربه اليوم ، وكم له غيرها من مؤلفـات جليلة ، ومنظومات بديعة ، منها ما صنعه فى صباه كـ «أوراق الخريف » و « أناشيد الشفق » ، ومنها ما وضعه بعد عودته الى الوطن ككتاب « العام الاسود » ، ومات هيجو وهو نادرة الفلك ، وواحد عطارد



كلمة فى البؤس

بقلم فيكتور هيجو

مثل البائس الذى سجلته يد المقادير فى سجل العناء ، وطوحت به فى ظلمات هذا الوجود ، فمضى يتخبط فى ديجور الحياة ، يؤمه النحس ، ويمشي على اثره الشقاء ، تلعب به الايام لعب النكباء بالعود ويدب فى نفسه اليأس دبيب الآجال فى الاعمار ، كمثل الغريق ظفر به البحر الهائج فى يوم ريح صرصر عاتية ، فلبث معلقا فى خيط من الاجل تحت شقى مقص الفناء ، يفتح له الوهم بين كل موجتين قبرا ، ويمد له الخوف بين كل قطرتين بحرا ، يطفو به القدر ويرسب به القضاء ، فتلتقفه الموجة بعد الموجة ، وتلتقمه اللجة بعد اللجة ، وقد درجه البحر فى كفن من الزبد ، وحمله على نعش من الماء فوق اعناق امواج كالجبال ، تعلو به تارة الى مجرى الافلاك ، وتسفل به أخرى الى مسبح الاسماك ، حنق عليه الماء والهواء ، وزهدت فى وجوده الارض والسماء ، وكلما هم بالاستسلام للموت أدركه الحرص على البقاء فجعل يجالد تلك الامواج الثائرة ، ويصارع ذلك الجبار العنيد ، حتى اذا نزح التعب قواه ، طواه البحر فى جوفه طى السر فى الفؤاد : ذلك مثل البائس فى هذه الحياة الدنيا

اما ذلك المجتمع الانسانى فمثله كالسفين اخذت فى ذلك الخضم مجراها ، فانحطت عليها الاعاصير واصطلحت عليها الانواء، والقت بها فى تلك اللجج التى تضل فيها الظنون والاوهام سبيل النجاة ، يدنو منها القضاء فيفرق ، ويسبح فيها الخيال فيغرق ، اذا تدجت فهى ليالى الشقاء ، واذا ثارت فهى براكين الماء . القى بهذه الجارية تيار الماء والهواء ، الى حيث هذا الغريق تصافحه رسل الحمام ، فجعل يدعوها اليه مرة بالنداء واخرى بالايماء ، لتستل حياته من يد الاجل . وكلما صاح ذهبت بصيحته هوج الرياح ، أو أشار قام بينه وبينها سد من الامواج ، فهى لاتسمع نداءه ، ولاتنظر ايماءه ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين



الجزء الأول

من البؤساء

الفصل الأول

جان فالجان

أشرف على مدينة «دينى» رجل يضرب فى الارض على قدميه فدخلها وقد مال ميزان (١) النهار واكتهل اليوم الاول من شهر أكتوبر سنة ١٨١٥ وكان قد ركب نعليه عامة يومه فما أدركها حتى أخذ منه الجهد وأعياه النصب وأمله طول الشـــقة (٢) وحتى ملكه الجوع ونال منه الظمأ وجمع فى منظره بين تعب الحياة وتعب السفر فكانت النظرة اليه تدعو الى الريبة فيه . لذلك مانظره أحد من سكان تلك المدينة الا ومرت به خلجة شك فى أمره

وكان ربعة فى الرجال بادنا (٣) شديد الحول يضرب لونه الى السمرة طويل شعر اللحية قصير شعر الرأس لقرب عهدها بالمقراض ، نيفت أعوامه على الاربعين ، عليه أسمال بالية وبيده عصا وقد احتقب (٤) خرجا ملأه بحاجه ولباناته

دخلها وهو أشعث أغبر ، وقد انتشرت على أديم وجهه طبقة نسجتها يد السفر من خيوط الشمس وطلتها بطلاء من العرق والغبار فسار فيها وقد أنكره كل من رآه — وكذلك ينكر ابن السبيل — وأخذ سمته الى دار المشيخة ، فمضى (٥) قدما فى

---

(١) مالت الشمس الى الغروب . (٢) السفر الطويل .
(٣) ذو البدن السمين . (٤) اى حمل . (٥) اى سار الى الامام

احدى سبلها ، حتى اذا قطعها عطف يسرة وعرج على تلك الدار ولبث فيها بعض ساعة ، وخرج فمر بجندى فحياه فصعر(١) الجندى خده وتثاقل فى رد تحيته ، فمضى الرجل فى طريقه ونظر الجندى يترسم (٢) مواقع أقدامه ، حتى غاب عنه سواده

ولعله كان قادما من الجنوب ــ فلقد طلع على تلك المدينة من ذلك السبيل الذى ركبه نابليون الاول قافلا من «كان» الى «باريس» منذ سبعة أهلة ــ وكأنه منذ أصبح ما تبلغ (٣) فما هو الا ان أفلت من دار المشيخة حتى تيمم المنزل ، فلما دلف(٤) الى حيث يطبخ ألفى رب النزل هناك ، فسأله رب النزل وقد احس بقدومه وان لم يمد اليه بصره : «ما سؤل الطارق ؟» فقال الرجل : «أكلة ونومة» ، قال : «لك سؤلك» ثم التفت اليــــه فما كاد يأخذه نظره حتى أخذه الشك فيه فعطف قائلا : «أو تصل يدك الى وفاء حق ما تطلب ؟ » فضرب الرجل بيده الى جيبه وأخرج كيسا فهزه حتى أسمعه وسوسة (٥) ما بداخله، وجلس الى النار يصطليها ــ وقد كان مقرورا(٦) وولى ظهره الباب . وجعل رب النزل يخالسه النظر فى الجيئة والذهوب ، والرجل غافل عنه ينكت الارض بعود فى يده حتى كاد يأتى عليه(٧) الجوع فصاح بصاحبه : «اما آن أن آكل وليس هنا من هو أحوج منى الى الطعام وما لى بد من تناول ما أمسك به النفس ؟» فقال له رب النزل : «انى ليحزننى أن تنصرف عنى وأنت طاو ، فلقد سبقك الى شراء ماترى قوم نزلوا بنا منــــذ اليوم ، وما منهم الا من هو أحرص منك على الطعام» فقال

---

(١) شمخ بأنفه وتكبر .
(٢) ترسم الاثر اقتفاه .
(٣) تبلغ أكل الخبز .
(٤) دلف مشى .
(٥) يقال وسوسة الحلى ووسوسة الدراهم صوتها .
(٦) المقرور الذى اصابه القر وهو البرد .
(٧) اتى عليه اهلكه

الرجل : «لن أبرح الارض حتى أصيب ما اتبلغ به ، فلقد سايرت الشمس من شروقها الى غروبها وقضيت يومى طاويا وما بلغت هذا المكان حتى أدمى السير قدمى ، ومن العجز ان أبتغى عنه حولا» . فقال له صاحبه وهو يحاوره : «لقد بالغت فى محاسنتك كى لا أجبهك (١) بالرد ، وكرهت ان أجمع عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع ، فأبيت الا الاصرار فاغرب عنى أيها الرجل ولا تلحف (٢) فى السؤال فأنا أعلم بك منك ولو شئت لزدتك فقد زهدنى فيك ما أقرأ عنك فى تلك الرقعـــة التى تراها بيدى وصاحبها لاتغيب عنه وساوس صدرك وانك لقريب العهد به ، ذلك رب الدار التى عرجت عليها حين أحلتك المدينة فاذهب غير معقب وحسبك ما سمعت يا جان فالجان» فعالج الرجل الكلام فاستعصى عليه لفرط الدهش ، فأهوى بيده الى متاعه فاحتمله وخرج يتعثر فى ذيل الخيبة ، وركب الطريق الاكبر ومضى على وجهه يقتاده القضاء والقدر

ولوانه نظر وراءه لرأى بباب النزل قوما تكاد تنهبه أبصارهم ، وما منهم الا من قاف (٣) أثره بنظرة من الشك ، ولكن الرجل لم يلتفت فقلما يسكن البائس الحزين الى تلك اللفتة التى تريه النحس على عقبيه ، فواصل السير وقد انساه طريف الحزن تالد التعب ، ولكنه ما لبث أن تنبه فيه هاجع الجوع ، فأشفق أن يدهمه الظلام قبل أن يبلغ مكانا يعصمه من القرة (٤) ويذود عنه الطوى ، فما زال يتيامن ويتياسر حتى لمح ضوءا فقصده فاذا هو على باب نزل حقير فوقف أمامه وهو يكبره ، الجوع يدفعه والخوف يمنعه ، حتى صحت عزيمته على الولوج فلما صار بصحن الدار وبصر به ربها ، صاح : «من الطارق؟» فقال: الرجل : «عابر يطلب قوتا وكنا» ، ودخل حيث يسمع الصوت فوجد قوما جلوسا ينتظرون نضج الطعام ، وشم ريح القتار

(١) جبهه بالرد واجهه به . (٢) الحف فى السؤال اى الح .
(٣) قاف بمعنى اقتفى . (٤) القرة البرد

فكادت تثب أحشاؤه الى القدر ، فقال له صاحبه : «دونك النار فاصطل ريثما ينضج الطعام» . فانتحى ناحيتها وجلس اليها ومد امامها قدمين أدماهما التعب

وما كاد يحتويه هذا المكان حتى احتوى الشك من فيه فقد نظروا رجلاً ترتسم على وجهه آلام الحياة مطرقا حزينا اذا امررت عليه النظر امرارا رأيت فيه سهولة السطيع ، واذا ادمنته فيه تبينت فيه الجفاء

وكان بين أولئك الجلوس رجل قد بصر به ضحوة النهـــار وقد ركب الطريق بين «براسكاس راسكابلون» فرابه امره حين دنا منه وهو فارس فطلب اليه ذلك البائس أن يردفه لينفس عنه كرب السير فكان جوابه ان استحث جواده هربا من شر تلك الطلعة وقد أراد الله أن يكون ذلك الفارس بين اولئك القوم الذين كانوا بباب النزل الاول وقوفا يشيعون ذلك الطريد بنظرات تقعد همة «الفوتوغرافيا» عن تصوير ما فيها من الاستخفاف والازدراء وبين أولئك الجلوس الذين رابهم أمره فى النزل الثانى ، فأومأ الى رب النزل فلما دنا منه همس فى أذنه بكلمات ملأته نفورا من ذلك القادم فانفتل اليه ، وقال له : «ما كان أخلقك بالتحول عن هذا المكان» فأجابه الرجل :«أو قد علمت بحادثة ذلك النزل ؟» قال : «نعم وسنشفعها بأختها» فاستقبل الرجل الباب ولما صار بالطريق اذا هو بصبية يرجمونه بالمدر وقد تعقبوه منذ هبط المدينة ، فخشى أن يصيبه عنت منهم ان هو تغافل عنهم ، فأشار اليهم بعصاه يوهمهم بالاذى ، فنفروا عنه نفور القطا ، فانطلق حتى اذا صار أمام السـجن خطر له أن يأوى اليه ليلته وقال لن أجمع على نفسى بين الجوع والسهاد ولقد أرانى الى الراحة أجوع منى الى الطعام وهـذا جو خليق أن يهلكنى قره ولن أعدم أن أجد فى هذا السجن مكانا يعصمنى منه

فلما تمكن منه هذا الخاطر طرق الباب فقال السجان : «من

الطارق ؟» قال : «غريب لا مندوحة له عن الالتجاء الى السجن» قال : «ومتى كان السجن دارا للضيافة ؟ فان كنت أمسيت وقد أعياك الامر فهذا باب اقتراف الجرائم لايزال مفتـــوحا وهو لا يلبث ان ولجت فيه أن يقتادك الى هنا » فانصرف الرجل مخذولا وليس وراء ما به من البؤس غاية ، وتغلغل فى المدينة فمر فى طريق ضيق على عطفيه حديقتان عليهما سياج وفى وسط احداهما دار صغيرة تعلو الارض بطبقة ، باحـــدى نوافذها سراج يضيء الليل .فما هو الا أن رآه حتى أسرع اليــه فلما بلغه نظر من تلك النافذة فاذا رب الدار بين زوجه وولده وهو أهنأ مايكون بالا ، فقال استضيفهم فلعلى أن أصادف منهم جانبا رحيما ، ثم خفض من جزعه ونقر بأصبعه على زجاج النافذة نقرة الجبان ، فلم يسر اليهم الصوت ، فخلع عن منكبيه رداء الفزع ونقر نقرة مطمئنة ، فقالت المرأة لزوجها : «كأنى أسمع نقرا على زجاج النافذة» فتسمعا جميعا فسرى اليهما الصوت فقام الرجل الى السراج فحمله واستقبل الباب ففتحه فأخذ بصره رجلا تذعر منه الابالسة ، فقال رب الدار : «من الذى أرى ؟» قال : «غريب يستضيفك ولك الحكم فى الاجر»، فقال له وقد دب الشك فيه : «ان كنت ذا مال كما تزعم فهذه الفنادق فما منعك أن تغشاها» ، قال :«غشيتها فلم أجد فيها مكانا» . فقال له وقد تملكه الشك : «أن ماتقول لشبيه بالباطل وليس هذا بأبان المواسم ، وانى لارى رجلا غير ميمون الطلعة ولقد راعنى منك ما يروع المرء من قاتله وكأنى أسمع صوتا يقطر منه الدم وأكبر ظنى انك ذلك الرجل» فقال له :«لاتعجل فى الحكم على ماليس لك به علم ، فما أنا الا ابن السبيل قطعت فى يومى اثنى عشر فرسخا وقد أجهدنى الكد والنصب ، وهدنى التعب وأخذ منى الطوى ، فهل لك فى أن تسعفنى بكسرة من الزاد ولك أجر المحسنين ، فان لم تفعل ، فشربة من الماء ؟» فقال : «بل شربة من حميم» واغلق فى وجهه البـــاب ، فوقف

الرجل وقد كاد يأتى عليه اليأس لولا أن بصر فى ضوء الشفق بشىء شبيه بالكوخ فى وسط الحديقة المجاورة لذلك البيت فقال : «ما لهذا الكوخ بد من ساكن ولكنى آتيه فلعلى أجده خاليا فأفنى فيه دولة الظلام واستجن (١) فيه من ذلك البلاء المتساقط» فقصده فاذا هو وجار (٢) لكلب وقد غاب عنـــه صاحبه ، فانبطح فيه الرجل على وجهه واستحالت عليه الحركة لضيق المكان ، وكان متاعه لايزال على ظهره ولم تقو يده على ازالته لفرط ما ناله من الاين والنصب ، فلبث قطعا من الليل وليس به حراك حتى اذا أمله حمل ما على ظهره عمد الى نزعه فأخذ يعالجه بيده ، وانه ليفعل ذلك اذ فاجأه رب الوجار ، فتسلل الرجل من مكانه وغادره لذلك القادم واشفق أن يثير غضبه بتثاقله عن الخروج فينشب فيه أنيابه وهو فى ذلك المضيق لايستطيع دفعا عن نفسه ، وخرج من البستان وهو اشد مايكون جزعا من الحياة شريدا يطويه البرد وينشره الطوى ، تعذر عليه حتى الوصول الى السجون وعزت عليه حتى مراقد الكلاب

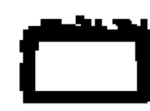
فلما صار فى الطريق قال : «لقد قصدت الفنادق فذادونى عنها ، فالتجأت الى السجن فكذلك ، فاستضفت الناس فكذلك ، ولقد زهدت فى حتى الكلاب ، فليس لى الا التحول عن هـــذه المدينة»

ثم سار مقنع الراس كاسف البال واستقبل الفضاء وكان ليله بهيما ضرير النجم شديد القر ساقط النواحى متهم الصباح فانطلق حتى اذا بلغ مزرعة حديثة العهد بالحصد رفع رأسه ومد بصره فاذا ظلمات يقصر فيها قاب العين ، وقد زاد فى ظلام الليل ما تلبد فى سمائه من تلك السحب الكثيفة فكانت السماء اشد ظلمة من الارض . فانقلب الرجل على عقبيه وام المدينة

---

(١) استجن اى استتر .
(٢) الوجار الجحر

وكانت ذات سور وأبواب فرأى الابواب وقد اغلقت فحاول التسور فأعياه الامر ، فما زال يطوف بالسور حتى عثر على ثغرة فانحدر منها الى المدينة ، ومضى على وجهه تترامى به الطرقات وتتقاذف به الازقة حتى مر ببيعة فوجد على بابها مقعدا من الحجر فسقط عليه لايعى من فرط التعب واضطجع عليه . وما كاد يحتويه ذلك المضجع حتى خرجت من تلك البيعة امرأة صالحة فقالت له وقد رأته ممددا كالجذع : «ماخطبك أيها النائم ؟» فقال لها : «وهل يدعو ما أنا فيه الى السؤال الا ترين انى أنام ؟» فقالت له وقد أخذتها رأفة عليه : «أتفترش الصخر ؟» قال : «مر بى تسعة عشر حولا ولا أفترش غير الاخشاب ، وانا الليلة أفترش الصخور ولولا اننى صفر اليدين لاكتريت لي مكانا . على أننى طرقت الابواب فلم أظفر بكريم» . فقالت : «هل أدلك على بيت ماطرقه قبلك طارق وجبه بالرد ؟» ، واشارت له الى بيت صغير على كثب منه فأخذ الرجل سمته اليه



وكان هذا البيت لعابد بمدينة «دينى» وقد أفرد له المؤلف فى صدر الكتاب بابا قصره على ذكره ومناقبه ، ومبلغ مافيه ان الرجل مسماح كريم عفيف الازار طاهر المهد سريرته فى بياض صحيفته فعال للخير مناع للشر ، وكان يقطن هذا البيت مع أخت له على خلق كريم وهى امرأة نصف لاعجوز شمطاء ولا فتاة هيفاء وكانت لهما خادم من ذوات الاسنان تعد من العمر ستين عاما

وبينا كان الرجل آخذا طريقه الى ذلك البيت كانت الخادم تحدث مولاتها :

«لقد هبط المدينة رجل مريب ما رآه أحد الا وذعر من رؤيته وقد مشى بحديثه الكبير والصغير فورد الاندية وولج

الاخبية واجمع الناس على وجوب التحرز منه حين نظروا فى وجهه سيما الفتك والشرور فلا ينجلي هذا الليل الا عن حادث جلل وها هو يطوف تحت راية الليل فى الازقة والطرقات حتى اذا عن له صيدا أو آنس من أحد غرة وثب عليه فسلبه نفسه ومتاعه ولا آمن ونحن فى هذا البيت أن يصول علينا الذئب صولته ، ولا أظن تهاون العسس فى الامور الى هذا الحد الا لما امسكه حاكم البلد فى نفسه من الضغينة على رئيس الشرطة ، وما وقره رئيس الشرطة فى صدره من الموجدة على ذلك الحاكم يحاول كلاهما القاء تبعة الحوادث على صاحبه ، ولقد وجب على كل من له مسكة من العقل أن يقيم من نفسه حارسا على نفسه حتى تنحسر فترة الشقاق بينهما وأنا غادية الى السوق لشراء مزلاج(١) لهذا الباب وداعية أحد النجارين لاصلاح عضادته»

وانها لتحدثها كذلك اذ دخل سيدها وقد الم بطرف من الحديث ، فنظر اليها نظرة المستطلع ، وسألها سؤال المستخبر ، « لقد وعيت طرفا من حديثك فما عسى أن تكون تلك النازلة التى توشك أن تحل بنا ؟» فاندفعت الخادم تحدث مولاها بما تعلمه من أمر ذلك الرجل ، وكلما آنست منه ارتياحا الى حديثها تغلغلت فى الاغراق واسترسلت فى المغالاة وقالت : «ولقد عود مولاى طراقه على الدخول فى هذا البيت قبل الاستئذان ، وقد علموا منه ذلك فهم يغشونه بالليل والنهار ولا يكلفهم ذلك غير دفع هذا الباب !» . وما كادت تنتهى من مقالتها حتى سمعوا طرقا فقال العابد : «أتيت أهلا أيها الطارق» فاندفع الباب بعنف ولاح رجل على عتبة الدار وأخذ يخطو الى صحنها بقدم مطمئنة وصدر لا يبرحه القلب . وان عهدنا بهذا القادم لقريب ، فما هو الا أن تراءى حتى كادت تنقطع نياط قلب الخادم من الهلع ، فهمت بالصياح فخانها الصوت فلبثت فاغرة

(١) الترباس عند العامة

الفم غائبة الرشد . أما الاخت فقد حفز الخوف احشاءهاحفزا فنظرت الى أخيها فاذا هو مثلوج الصدر جليد القلب رابط الجأش طلق المحيا ، فثاب اليها رشدها وعاودها السكون ومرت كأن لم تكن تلك الجازعة الهلوع ، وأما ذلك الرجل ،فقد وقف فى صحن الدار وانشأ يقول :

«اننى مجرم طويت فى السجن رداء شبابى ، وسلخت فيه مائة وثمانين شهرا حتى استوفيت عمر العقاب ، ولم تشرق على شمس الحرية الا منذ أيام أربعة ، فهبطت تلك المدينة وقد شمر النهار ، فقصدت الفنادق ، فحالت بينى وبينها تلك الورقة الصفراء التى يحملها حديث العهد بمغادرة السجون ، فطرقت الابواب فلم أصادف رجلا كريما ولا قلبا رحيما . فقلت آوى الى السجن، فأنا أقرب الناس عهدا به فنهرنى السجان، فدلفت الى وجار كلب فطاردنى حتى طردنى ، فقلت أنطلق الى الفضاء فأنام تحت حراسة النجوم ، فتقنعت بالسحاب وكأنها عافت النظر الى تلك الطلعة المنحوسة . واشفقت من سقوط المطر ، فعدت معقبا الى المدينة ، ولم أصب من رحمة فى الارض ولا فى السماء ، فحالت بينى وبينها الابواب حين بلغتها ، فما زلت أطوف بالسور حتى ظفرت بصدع فيه وانحدرت منه الى المدينة وهمت على وجهى فى الطرقات حتى مررت ببيعة فاذا على بابها مقعد من الحجر فانطرحت عليه،وانى لكذلك اذ مرت بى امرأة من الصالحات فنفضت اليها جملة الحال ، فأرشدتنى الى هذه الدار ، وها انذا قد بلغتها . ولقد عودنى الشقاء على أن أجتزىء بالشربة وأكتفى بالكسرة ، فهل انا مصيب عندكم ما امسك به النفس ؟ فلقد ظللت يومى طاويا وقطعت اثنى عشر فرسخا وانا راكب هذين النعلين ، فان فعلتم — وما اظنكم تفعلون — فلكم ما تشاؤون من الاجر ، فانى على الدفع قدير !»

فنظر العابد الى الخادم ، وقال لها «هيئى له مكانا على المائدة» ، ثم أخذ يحد البصر على ذلك الرجل ، كمن يحاول أن

يستشف ما فى قرارة نفسه ، فمضى الرجل قدما حتى اقترب من السراج وضرب بيده الى جيبه فانتزع منـــه تلك الورقة الصفراء «اجازة الاطلاق» وكانه لم يصدق اذنه لقرب عهدها بسماع غير الذى سمعت» فالتفت الى العابد ، وقال له : «دونك الورقة التى ما صحبتنى الى مكان الا سبقنى النحس اليه وانى لاتلو عليك ما فيها فقد تعلمت القراءة فى مدرسة السجن» . واخذ يتلوها :

«ان جان فالجان مجرم أطلق سراحه بعد أن لبث فى السجن تسعة عشر حولا ، قضى خمسة منها قصاصا على السرقة ، وقطع الباقى جزاء معالجته الفرار من السجن مرارا وانه لفتاك جسور»

ثم قال :

« لذلك ترانى ما حللت فى مكان الا وأنكرنى من فيه واوجس خيفة منى فياليت شــــعرى أكذلك تكون معى أم أنت من المحسنين ؟ »

فنظر العابد الى الخادم وقال لها : « مهــــدى له سريرا » وخاطب الرجل قائلا : « نزلت رحبا فاجلس الى هذه النار واصطل وما هى الا لحظة حتى يحضر الطعام فاذا فرغت من تناولـه اخذت مضجعك فى ذلك السرير » . فصدق الرجل فى هذه المرة اذنيه وأشرقت أسارير وجهه وسرى عنه ما كان فيه من الغم ، وخرج به فرط السرور الى الهـــذيان فجعل يقول : « اسرر وحشية وغطاء وما لجنبى عهد بها منذ تسعة عشر حولا؟ ولقد كان قائما بنفسى ان لا أرى منك غير الذى رأيت من أصحاب الفنادق . فما بالك تبالغ فى محاسنتى كأنى بعض بنى الانسان ولقد كنت أنهر الساعة كما تنهر الكلاب ، فما أرق شمائلك أيها الرجل فتالله لاضاعفن لك الاجر . فيا ترى ما اسم هـــذا النزل وكم ينبغى أن ادفع ؟»

فقال العابد : « ان الذى يؤويك لم يكن بنزل كما تزعم ،

ولكنه بيت ذلك الذى يخاطبك» فقال الرجل : «لقد خيم الحزن على بصرى فلم ألمح اشارتك التى تحملها ولعلك عابد بتلك البيعة القريبة ، فلا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، فأنت حقيق بمؤاساة البؤساء»

ثم رد الرجل ورقته الصفراء الى جيبه ، وألقى على الارض متاعه وأسند الى الحائط عصاه وانتحى ناحية النار وجعل يقول : « ولا اخالك تكلفنى على ذلك أجرا » . فأجابه صاحبه وهو يحاوره : « لا بل فاحفظ عليك دراهمك فلسنا فى حاجة الى شىء منها »

وكره العابد الخوض معه فى مثل هذا الحديث فحول مجراه قائلا : « ولعلك ياسيدى مقرور ، فان ليلتنا باردة الهواء » فتمشى السرور فى قلب الرجل حينما استأذنت تلك الكلمة على سمعه ، وتنزهت روحه من داخل الجسد ، واصابت منه تلك اللفظة (سيدى) موقع الماء من ذى الغلة الصادى

ولا يزال المصاب فى شوقه على ظمأ الى نهلة من موارد الاحترام ، حتى اذا ظفر بها أصبح مبرود الغليل

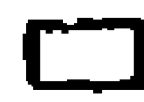
وانتقل العابد من حديثه الى مخاطبة الخادم فقال : « أرى سراجنا مريض الفتيلة ضئيل النور » . فألمت بقصده وأسرعت الى مخدع نومه وعادت تحمل شمعدانين من فضة ووضعتهما على المائدة

فقال الرجل للعابد : « لقد اكرمتنى الكرامة كلها وحادثتنى محادثة القرين وجلست معى على بساط المساواة ، على انى لم اكتمك شيئا من أمرى وعندى ان ما فعلت لكثير على مثلى » فقال العـــابد : « لم تكن الدار بدارى ، ولكنها دار للمسيح ولا يسأل هذا الباب داخله كائنا من كان عن اسمه ، ولكن يسأله عن المه وانت رجل قد أضر بك الالم ونال منك الجوع والظمأ ، فالتجأت الى تلك الدار وليس فى ذلك من فضل ، وانما الفضل لله فهيا الى المائدة فقد حضر الطعام

فأخذ الرجل عليها مجلسه وجلس اليه العـــابد يؤاكله ويؤنسه حتى فرغ من أكله وحانت ساعة الانصراف الى النوم فأخذ بيده الى المضجع الذى هياه له ومر فى طريقه على حجرة العابد، فنظر فيها نظرة ألمت بجميع ما بداخلها وحين بلغ به رب الدار مضجعه حياه وهم بالانصراف ، فتعلق به الرجل ، وزمهر فى وجهه بعينين نم انساناهما عما كان يخفيه فى قرارة نفسه من الغدر ، فقال له وقد شبك ذراعيه ووقف أمامه وقفة تمشى لها القلوب فى الصدور : « وما يؤمنك ان لا أنالك بسوء وقد جعلتنى بحيث لا يحول بينى وبين الفتك بك حائل ؟ » . فأجابه العابد : « ومتى أغنى الحذر عن المرء شيئا وهذا أمر قد فرغ الله منـــه ؟ »

ثم غادره وانكفأ الى مخدعه ولم يلتفت اليه . وبعد أن قضى فيه صلاته تحول عنه الى البستان وأخذ يطوف فى نواحيه وهو يتأمل فى نظام الفلك وقدرة الصانع ويطلق الفكر فى تلك الاشياء المستسرة فى ضمير الدجى

اما الرجل فما صدق ان يتوارى عنه حتى أهوى الى السراج فأطفأه وانطرح على ذلك السرير ، وليس به حراك وغط فى نومه ، وما كاد ينصرم من عمر الليل نصفه حتى انقلب العابد الى مخدعه وأخذ مضجعه فيه ونام ولم تبق فى هذه الدار عين لم يأخذ النوم بمعاقد أجفانها . ولما اكتمل الليل أو كاد تيقظ الضيف من نومه !



وقد آن ان نسطر للقراء تاريخ هذا الرجل :

كان جان فالجان من أسرة رقيقة الحال تعمل فى الارض ببلدة (برى) وكان أبوه يشذب الشجر ، ولم تكن له حرفة سواها فتربى هذا البائس فى معهد الجهل ، فلم يجلس الى مؤدب ولا معلم ولم يرتضع بلبان العلوم والمعارف فمر قدما جهولا .

ولما يفع ورث عن أبيه تلك الحرفة وكان طويل التفكير عن غير حزن ، وفقد أبويه وهو صغير فماتت أمه محمومة ومات على اثرها أبوه .. هوى من رأس شجرة كان يشذبها فدق عنقه ، فاحتضنته أخته وكان لها سبعة من البنين والبنات فلم يزل مكفى المؤونة عندها حتى مات زوجها وليس بين ولدها كاسب وأكبرهم يومئذ فى الثامنة من عمره فلم ير جان فالجان بدا من القيام بمعاش أخته وأولادها فجعل يعمل لبطنه وبطونهم ويكدح فى طلب الرزق وأجره فى أيام موسم حرفته لا يزيد على ثمانية عشر صلديا ، فاذا انقضت تلك الايام انطلق الى جماعة الحاصدين فى المزارع فأصاب رزقا له ولأهل بيته . وما زال يكافح الايام ويناضل البؤس وهو لا تصل يده الا الى ما تدعو اليه الحاجة لحفظ الحياة حتى نزلت بهم سنة من السنين حبس شتاؤها الناس عن الخروج فى طلب وجوه الرزق ، فأملق الرجل املاقا شديدا ونزلت به الضائقة وحصره العوز ، فأمسوا ذات ليلة ولم يجدوا ما به يتبلغون ، فصاحت تلك السبعة الاطفال من ألم الجوع ، والتصقت بطونهم بالظهور من فرط الطوى . فكبر الامر على جان فالجان وغادر الدار وخرج هائما على وجهه يطلب لهم ما يقتاتون به فمر بخباز قد أغلق حانوته وتهيأ للنوم فى مخدع له بداخلها ، وكان بابها من زجاج وخلفه حواجز من الحديد ينفذ من أثنائها الساعد فوقف أمامه ونظر من زجاج الباب فاذا رغفان الخبز على قيد ذراع منه ، وذكر أمر الغلمة فساقه قائد الاضطرار الى ارتكاب جريمة السرقة لأجل أن ينتزعهم من مخالب الجوع ، فصدع الزجاج بقبضته وأهوى بيده الى الخبز . وانه ليحاول اختلاسه اذ أدركه الخباز وقد تنبه من نومه مذعورا على دوى تلك الصدمة . فتخبل الرجل فى أمره وطرح الخبز وأخذ يعدو طلبا للنجاة . وطفق يعدو والخباز على أعقابه حتى لحق به وتعلق بأثوابه وقد خدشه الزجاج فى يده وساعده خدوشا كانت هى الشهود على

جريرته ، فسيق الى المحاكمة ، وكان كلفا بالصيد فى الغابات مدمنا لحمل بارودته ، فلما قبضوا عليه ، وكان محتقبا لها ، شبه لهم انه بعض خطفة الصيادين وهم قوم قد مقتهم الشعب لوهم ديني رسخ فى عقيدته يلحقهم بقطاع السبيل ، لذلك وفوا هـذا البائس قسطه من الاذى وزجوا به فى السجن خمس سنين !

وفى اليوم الذى نودى فيه بنصر ديمونتبوت كان جان فالجان يرسف فى قيوده وقد سلكوه مع رفقة له فى سلسلة طويلة الذرع . ساروا به الى سجن تولون وقلبه يقطر حزنا على هؤلاء الذين خلفهم بعده لاترعاهم عين ولاتواسيهم يد ولما وصل الى السجن البسوه ملابس المجرمين ولم يبق له أثر من ماضيه حتى اسمه فقد محته يدالشقاء وأصبح لايدعى بغيرنمرة ٢٤٦٠١

ولا يعلم الا الله ما الذى حل بعده بتلك الارملة وأولادها وقد خلفهم على مدرجة من سيول الحوادث يعبث الجوع بأحشائهم ويلعب اليأس بأرواحهم وليس لهم من معين ولا نصير وقد ركب كل منهم رأسه وهام على وجهه من فرط الجوع وتغلغل فى ظلمات هذا الوجود ولحق بمن ابتلعتهم تلك الظلمات من البؤساء وتشتتوا فى البلاد وجر عليهم الدهر ذيل النسيان فنسيهم . حتى ذلك السجين فى سجنه انساه اياهم كر الغداة ومر العشى ، وتتابع البلاء وتوالى الشقاء ولم يجر على لسانه ذكر أخته فى أيام بؤسه وما ذكرها غير مرة وقد نقل بعضهم طرفا من خبرها بعد أن لبث فى السجن بضع سنين لا يعلم من أمرها شيئا ، نقل اليه انه رآها بمدينة باريس تساكن البؤس فى دار ، ولم يبق لها من أولادها غير واحد وقد انقطعت الى العمل فى احدى المطابع فنظرها وهى مبكرة اليها وفى يدها ولدها وقد بلغ الرابعة من عمره ، وكانت فى دار المطبعة مدرسة للاطفال فأدخلت فيها ذلك اليتيم فهى تغدو به كل يوم اليها وتتركه فى فناء الدار حتى تحين ساعة الدرس ، وكانت تنطلق

لمزاولة العمل فى المطبعة قبل هذا الحين بساعة ، فيلبث ذلك اليتيم فى فناء الدار وحيدا فينزوى فى ركن من أركانها وينكمش تحت ذيل الانكسار ، وطالما شاهده من مر به وهو يقضقض من البرد وفى عينيه كسل الكرى وقد تأخذ حارس الباب الشفقة عليه فيدعوه الى كنه حتى يفتح باب المدرسة

هذه هى المرة التى سمع فيها بذكر أخته وآلمته ذكرى تلك الانفس التى كان يحبهـا ولـكنه ما لبث أن عاد الى حاله من النسيان فقد كان فى قلبه جرح لفراقهم وقد اندمل ذلك الجرح لطول العهد واشتغاله بما هو فيه من العذاب والشقاء

وما كاد يطوى أجل السنة الرابعة حتى وقف عليه الدور فى الهروب ، فأفلت من السجن وقد أعانه رفاقه على ذلك وكانوا قد تمالأوا فيما بينهم على الفرار بالتعاقب ، ولما ظن نفسه ناجيا لبث يومين هائما فى فضاء تلك الحرية الموهوبة لا يهتدى الى سبيل

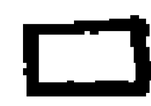
ولم يستمرىء ذلك البائس لذة الاطلاق والحرية ، ومتى كان حرا من بات مقلقل الشخص ، مروع العين ، منزعج الضمير ، طاوى الحشـا يفرق من الفىء ، ويفزع من لا شىء ، يخيفه الليل تسطو غياهبه فتنسج على بصره غشـاوة تمنعه عن التحرز من الوقوع فيما عساه أن يكون قد مد له من الشراك ، ويزعجه النهار يغرى به الرقباء ويهدى اليه العيون ؟ فهو ما مر به طير الا وفزع ، ولا نبحه كلب الا وجزع ، ولا دقت ساعة ولم يدق لها قلبه ، ولا لاح شبح ولم يطر له لبه ، فاذا أغفى سلت عليه سيوفها الاحلام ، واذا تيقظ راشت اليه سهامها الاوهام

فما زال يذوب فرقا بين تلك الهواجس والوساوس حتى سلمه ظلام الليل الى ظلام السجون غرثان ظمآن لم يصب فى يوميه كسرة من الخبز ولا شربة من الماء وقد امتدت أعوام سجنه الى ثمانية بعد خمسة فدخل السجن وثوب شقائه قشيب جديد بعد أن كان خلقا رديما ، وقد كان غادره ولم

تبق له فيه الا سنة واحدة وعاد اليه وقد ولدت له تلك السنة ثلاثا

وما زال يعالج الهروب فلا يسرح الفرصة اذا عرضت ولا يحجم عن الدور اذا آن ، وهو كلما ظن انه ناج أدركه عثار الجد فرده الى السجن ومد فى أجل بقائه فيه حتى قطع على تلك الحال تسعة عشر حولا

وخرج من السجن ، وهو كالحجر الصلد ، لا تنال منه النوائب ولا تأخذ منه الآلام ، بعد أن كان ذلك الرعديد الهلوع ، دخل فيه وهو بادى اليأس جزوع ، وخرج منه وهو كظيم



وما كان جان فالجان خبيثا ولكنه فدما جهولا على انه ما لبث ان تلقن فى مدرسة الدهر العليا دروسا ألحقته بمصاف الحكماء قام بتهذيبه فيها أساتذة الايام والليالى فعلمه القيد السكون ، وعلمته الاغلال الصبر كيف يكون ، وأرشده قرع العصا الى الاستقامة ، وسقاه التعب والنصب مرارة الندامة ، وانتزعت مضاجع الخشب من جبينه ذلك الطمع ، وصهرت حرارة الشمس ما كان فى نفسه من الجشع

فجلس الى نفسه يحاسبها ، وجرد من نفسه حكما على نفسه ، وجعل ينظر الى ما ضيه نظرة الحكيم العاقل ، الى ضلالة الاحمق الجاهل ، فعلم انه أتى أمرا نكرا ، وان ما نابه من القصاص لخليق أن يحل به . وقال فى نفسه لقد كانت لى مندوحة عن السرقة فلو انى سألت الناس هذا الخبر لما ابوا على اعطاءه ، ولو انى أخذت بالأناة فى الامر لوجدت لى منصرفا عن ارتكاب هذا العار ، اما بالسؤال وان كان ذلا ، واما بالعمل وان كان عزيزا ، ولكنى تعجلت وكان الاخلق بى أن أعتصم بحبل الصبر

فمن النزر أن يموت المرء جوعا على أنه ما خلق الا ليعيش

بين السعادة والشقاء ، فان كان نصيبه فى الحياة الالم كان حقيقا باحتماله وان عظم ، فما كل الم يكون للموت رائدا

فلقد عققت نفسي وعققت تلك الارملة وأولادها وحاولت الفرار من وجه البؤس فواجهت العار ، واني وان زلت بي القدم فلست بأول الخاطئين ، فهذا سبيل كل مضطر عديم

ولا ازال ارى انهم نظروا الى هذا الجرم من غير وجهه فأكبروا الفعل وافرطوا فى العقاب واخذوا جانب شريعتهم فى القصاص ولم يأخذوا جانب المجرم فى الرحمة ونظروا فى ميزان حكمهم الى كفة الجزاء ولم ينظروا فى كفة العفو عند التوبة

فلسوف يسألونك عن تلك الحظوظ التى رموا بها فى مجرى النحوس ، وتلك الانفس التي القوا بها فى يد البؤس والشقاء

واني لا ارى مقارنة بين الضرر الذى لحق بصاحب الخبز وبين الضرر الذى نزل بى من وراء ذلك الحكم ، فانه وان لم يأت من طريق الظلم فقد جاء من طريق القسوة والافراط

وكان جان فالجان يحاكم نفسه وهو واجد على تلك الهيئة الحاكمة وقد أخرجه حنقه عن حد الرشد ، ولقد يكون الحنق جنونا

وما ظنك أيها القارىء برجل لم يصب من ذلك المجتمع الانساني خيرا ولم يأنس منه غير هذا الوجه العبوس الذى كان يكمن فى أثناء ذلك العدل الموهوم ؟ فهو ما دنا منه دان الا ليدني اليه أذاه ولامسه انسان الا ليمسه منه الضرر ، ولا طرقت اذنه بعد موت أبويه كلمة تستروح منها روائح الرفق ولا وقع عليه نظر تمازجه الرحمة

فما زالت تهادي به الخطوب وتقاذف به الآلام وهو يتململ على سيال البلوى حتى أيقن ان الحياة حرب وانه وحده هو المهزوم فيها ، وان ليس ما يعتد به من السلاح غير ما امسكه فى نفسه من الحقد على العالم بأسره ، فهو سلاحه الذى أعده لمناواة الايام ومنازلة الانام وكان يشحذه فى أيام سجنه ويبالغ

فى الحرص عليه ، وقد رأى ان قوة ذلك السلاح لا تكون الا فى قوة الذكاء ، فعمد الى الدخول فى مدرسة السجن وقد تفتق العلوم بعض الاذهان الى استنباط وسائل الاذى وطرق الانتقام

وبعد ان فرغ من الحكم على نفسه وعلى العالم بأسره انتقل الى الحكم على تلك القوة التى دفعت هذا العالم الى فعل الشر وكان بقاؤه فى السجن تلك المدة الطويلة وهو يرزح تحت اثقال الهموم يسمو بنفسه آنا الى السماء ويهبط بها آنا الى الارض ، فيرى عن يمينه نور اليقين وعن يساره ظلام الشك . ولم يكن ذلك الرجل خبيثا عند دخوله الى السجن ولكنه أحس بسريان الخبث فى نفسه حين جلس للحكم على هيئة العالم وشعر بدبيب الكفر فى قلبه حين جلس للحكم على تلك القوة السماوية

وهنا يجب أن يقف بنا التأمل برهة ونتساءل : هل يدخل فى باب الامكان أن يخرج الانسان من طباعه دفعة واحدة ، فيخالف غريزته ويناقض نحيزته ، ويتحول عن جبلته وينزع عن سجيته

وهل لبنى البشر سلطان على النفوس يحولها عن الفطرة التى جبلت عليها ، فيرد منها الى الخيانة ما فطر منها على الطيبة

وهل يرتبط شقاء الحظوظ وعثار الجدود بفساد النفوس فاذا حمق حظ المرء ولج به عثار جده ، خبثت نفسه وساءت فعاله ؟

وهل يخضع القلب لسلطان الحوادث خضـــوع الاعضاء فتدعوه الى الانكماش أمامها كما يدعو العبء الثقيل الظهور الى الانحناء ، وهل لا يوجد فى نفوس البشر نور ســـماوى لايذهب بسنائه الشك ولا تطمسه الضلالة ، فيبقى ساطعا فى تلك النفوس يلوح منه نور اليقين وتنبعث منه أشعة الهدى؟

تلك أسئلة يدرك الحكماء عندها الحصر ويعجز الباحث فى علم الاعضاء عن الاجابة على آخرها ، فلو انه نظر جان فالجان وهو فى سجن تولون ، وقد وافت ساعة الراحة من عنـــاء

الاشغال ، فانتقل من ألم الجسم الى الم الفكر لراى رجلا يقطر حزنا ويذوب كمدا ، يزدهيه الصمت ويغوص به الفكر فى بحار من التأمل . انشبت فيه الشرائع اظفار الظلم فجعل ينظر الى العالم بعين الحقد والحرد ، واخرجته المدنية عن حد الرحمة فجعل ينظر الى السماء بعين السخط

ورأى مريضا داؤه فى النفس لا فى الجسد ، وقد عز عليه الشفاء . ولو قف عمله عند حد التوجع له ، ولصرف نظره عن تلك القروح التى تسكن فى هذه النفس المجروحة بسهام الشرائع الجائرة

ولراى راى ذلك الفيلسوف (دانتى) فعمد الى محو كلمة الامل التى رسمتها يد القدر على جباه البشر

وياليت شعرى أكان يحس ذلك البائس بذلك الوجدان الذى نحس به له ، وهل سمت مداركه الى معرفة كنه ذلك الشقاء الذى أتيح له

ولما حانت ساعة اطلاقه من القيود ورن فى اذنه قولهم له انك حر منذ اليوم ، دبت فى نفسه الحياة وشعر بأشعة من الامـل تمحو ظلام ذلك اليـأس الذى سـكن فى نفسه منـذ تسعة عشر حولا ، ولكنه ما لبث أن عاودته نزوات الالم حين علم ان اطلاقه سيكون مشفوعا بتلك‌الورقة الصفراء، وانقبض لتلك الجولة من الفكر وجه امله ، وأيقن انه لا زال فى قيد لا تصل يده الى صدعه ، وان هذا الحكم قد وكل به زبانية من العذاب ، فهو فى أسر السجون مثله فى تلك الحرية الموهوبة لا تزال تكلؤه عين البؤس والشقاء

واخذ يفكر بعد ذلك فى الثروة التى جمعها أيام محنته مما كان يصيبه من الاجور على عمله فى السجن ، فظن انه أصبح ربا لثلثمائة وثلاثين غرشا ، ونسى ان أيام العطلة من كل أحد وما يلتحق بها من أيام المواسم قد قرضت من رأس ماله ستة وتسعين غرشا فلم يطـرح من حسابه ذلك القـدر العظيم ،

ولا تسل عما حل بنفسه من الجزع حين ألم بهذه الخسارة وذلك الغبن المبين

وفى اليوم التالى ليوم تسريحه من السجن مر بمدينة (كراس) على معمل للزهور به قوم يعملون وكانوا فى فقر الى المعونة لعدم الفسحة فى الوقت وطلب سرعة الانجاز فى العمل فعرض على رب المعمل نفسه فألحقه بأولئك العملة

وكان جان فالجان لا يعرف التعب ولا يأنف الملال فعكف يعمل بخبرة ومهارة وسأل فى أثناء ذلك عن الاجر الذى يصيبه العامل فى يومه فقالوا له ثلاثون صلديا ، ولكن رب العمل لم ينقده على عمله غير النصف حين علم انه يحمل تلك الورقة الصفراء

فقال جان فالجان فى نفسه تلك هى الخطوة الاولى فى سبيل هذه الحياة الجديدة ، وهذا كله ببركة تلك الورقة الصفراء ، فلعنة الله على كل ذى لون أصفر غير الذهب

فانى وان كنت قد نجوت من السجن فلا اظن نفسى ناجيا من جور ذلك الحكم

هذا ما حل به من الغبن فى مدينة كراس ، ولم ينس القارىء ما أصابه فى مدينة دينى



ولما كان السحر تيقظ الضيف من نومه ، أيقظه لين الفراش ونعومة الملمس ، وقطع غرارة ذلك السرير الذى لم يكن له به عهد منذ عشرين حولا وقد حن جنباه الى مضاجع الخشب واشتاق رأسه تلك الوسادة من القش وكان قد هجع ثلثا من الليل فسرى عنه التعب فهب وقد عاوده النشاط وكانت عادته أن لا يهجع الا قطعا من الليل فلما تنبه اخذ ينظر يمنة ثم يسرة ثم أهوى رأسه الى الوسادة وجعل يعالج النوم من جديد

ومن قضى يومه بين الالم والاضطراب ثم أخذ مضجعه بعد

ذلك ، كان النوم الى الحلول بمقلته أسرع منه الى سواه ، ولكنه اذا تيقظ فقلما يجد النوم الى عينه سبيلا

كذلك كان جان فالجان فقد استعصى عليه النوم وأدركه الأرق وانتابته الهواجس والافكار وجعل ينتقل به سيال الفكر من مكان الى مكان وقد مرت أمامه تلك الحوادث الغابرة مرور الصور المتحركة ، وهو كلما نزلت برأسه فكرة أدركتها على الأثر أختها فلا تفتأ تطاردها حتى تغلبها على مكانها ، فما زال رأسه مسرحا لسوانح الافكار وميدانا لسوابق الاوهام حتى نزل به فكر فألقى فيه عصا التسيار وأقسم لا يبرح أرجاءه وكان مبعثه من تلك الاوانى الفضية التى لمحها ذلك الشقى على مائدة العابد عند تناول العشاء ، ولمح الخادم وهى تضعها فى أحد الأركان من مخدع نومه على مقربة من سريره

فسولت له نفسه أن يذهب بها وقد قومها بضعف ما كان يمتلكه يومئذ من المال وكلما حاول أن يثنى عنانه عن ركوب طريق العار ابى طمعه الا أن يقف به على رأس ذلك الطريق فلبث ساعة وهو يحارب تلك العزيمة ، ويكافح شيطان هذه النفس الخبيثة ، حتى تغلب عليه الطمع وزين له الشيطان اختلاس تلك الأوانى فثار من مرقده وهم بمزاولة ذلك العمل

ثم عاوده التردد فجلس على سريره وهو من نفسه فى حرب عوان ومد يده فتحسس متاعه والتمسه فى الظلام فمسح عليه بيده وقد كان على قيد ذراع منه . ومن رآه وهو على هذه الحال فى جوف تلك الحجرة تحت أستار ذلك الظلام رأى رجلا خرج به فرط التأمل عن حد الشعور بما حوله وقرأ على وجهه سطورا من الشؤم رسمتها عليه يد الشر الذى كان يجول فى نفسه

ولولا أن دقت ساعة الحائط فانتشلته من قرار تلك اللجة التى نزل الى قاعها غواص الفكر ، للبث كذلك حتى الصباح

فثار من مكانه وخلع نعليه وكان لم يخلعهما عند النوم

والتمس عصاه واحتقب متاعه وتهيأ للعمل واخذ سمته الى مخدع العابد وعلق انفاسه واخرس صوت أقدامه ومشى على أطراف أصابعه حتى اذا بلغ البـاب تسمع فلم يسمع شـيئا فدفعه بطرف البنان وهو أشد ما يكون احتراسا كأنه هرة تحاول غشيان ذلك المكان ، فلان له الباب ودار على عقبه بحركة لم يسر الى السمع صوت لها

فلبث غير بعيد ودفعه دفعة ثانية كان فيها أشد جراة منه فى الاولى فازداد لينا حتى فتح له طريقا يسع مروره لولا منضدة من الخشب كانت معرضة فيه ، قد دعته الى طلب الزيادة فى انفراجه

فألم جان فالجان بحرج الموقف ولم ير بدا من الاقدام فدفع الباب مرة ثالثة أشد من أختها وكان الباب على ظمأ الى قطرات من الزيت ، فصر لتلك الصدمة صريرا ، دوى له فى هذه الظلمة صوت جاف فاحتوته الرعدة وكادت تقف ضربات قلبه من الهلع ولبث كمن أخذته الصيحة وقد نفخ فى الصور ، ومثل له الفزع ذلك الباب وقد تحول الى كلب عقور رابه سواد مقبل فجعل ينبح نبيحا يكفى لايقاظ أهل الكهف ، فكيف بأهل ذلك البيت ، وظن أنه لا محالة هالك ، وخال عروقه وهى تنبض فى صفحتيه مطـارق تطرق الحديد وأن أنفاسه تصفر تصفير الرياح فى بطون الكهوف والمغاور ، وأن ذلك الباب قد زلزل الارض زلزالها فزعزع أركان المنزل وأن هذا الصوت النكير قد انذر الناس بالكبسة ، فما هو الا أن يتنبه العابد وهاتان المرأتان حتى يقع فى قبضة العسس فيعيدوه الى سيرته الاولى

ولبث حيث كان لا يقـدر على الحـــركة وهو كأنه بعض الانصاب حتى سكت عنه الروع ورأى الامر أيسر مما كان فى نفسه فمد بصره داخل الحجرة ، فاذا العابد يغط فى نومه ، وأصغى بأذنيه ، فاذا الدار فى سكون الرموس

فخفض من جزعه ودعا اليه الاقدام وخطـا خطوة فاذا

هو داخل الحجرة فجعل ينقل أقدامه باحتراس كراهة ان يصطدم بشيء من الأثاث . وانه ليختلس الخطى اذ برز القمر من وراء غمـامة كانت تغشاه ورمى جرمه على تلك الحجرة فأنارها فنظر جان فالجان نفسه على قيد شبر من سرير ذلك النائم

وكأن الطبيعـة لم تزحزح هـذا النقاب عن وجه القمر فى تلك الفترة الا لتوضـح لعيون الكون عمـل ذلك الجانى لعله يذكر أو يخشى ، فلقد كان القمر منـذ زمن لا يتعدى شـطر الساعة مقنعا بغمامة سوداء وقد انجلت عنـه فى اللحظة التى أوشك فيها أن يعثر هذا الشقى بأعواد السرير

ومن رأى ذلك المضطجع على فراشـه ، رأى رجـلا قـد قام على رأسه حارسان من المهابة والجلال يتألق فى وجهه نور اليقين ويجول فى محياه ماء البشر وترتسم على وجهـه آيات الرضا والقبول ، وتكتسى شـفتاه بابتسامة الامل الفسيح ، ويتأرجح من أردانه ريح التوكل

وقد راع هذا الواقف جـلال ذلك الموقف فجعل ينظر بعين الاكبار الى ذلك الجسد الذى سـكن فيه التقى ، وتلك الروح التى باتت تسبح فى عالم الاسرار وتسبـح فى ذلك الملكوت السماوى

وكانت لله مشيئته فى ذلك الراقد ، فقـد أفاض عليـه من أنوار الهدى ومنحه من آيات المهابة والجلال ما جعله مهيبا فى اليقظة والمنام ، لذلك كان جان فالجان وهو مقيد فى مكانه بقيد من الخشية ينظر اليـه وقد تمشت العظة فى نفسه وامتلأت عينه جمالا وأفعم صدره جلالا

ولا يعلم الا الله ما كان يمتزج بأجزاء نفسه من الانفعال وهو يدمن النظر الى ذلك الراقد الذى تنتشر على وجهـه طبقة من النور السماوى تمازجها نفثة من الروح الالهى الذى أنار الله

به بصيرته وأضـــاء سريرته فتــلألأ فى وجهه ، والوجه مرآة الضمير

وزادت بهجــة البدر فى بهجــة ذلك النائم فكان يراه جان فالجان فى نور فوق نور ولم يزل واقفا فى مكانه ولم يحــول بصره عنه ، وما شك من رآه فى انه يتردد بين أن يهوى بعصاه الى تلك الجمجمة فيشجها أو يهوى بفمه الى تلك اليد فيقبلها

كل ذلك والعابد غارق فى نوم لم تقطعه عليه تلك النظرات المريبة حتى حانت من جان فالجان التفاتة فرأى الصليب وهو باسط ذراعيه وكأنه يومىء الى أحــدهما بالوقاية والى الثانى بالمغفرة ، فأغرته تلك اللفتة الى الاسراع فى العمل

فاندفع يمشي الى الامام حتى وقف عند تلك الاوانى الفضية وهى فى ســفطها فتناوله ورجع أدراجــه ومر بجانب السرير بقدم مطمئنة وجأش رابط ، حتى اذا جاوز البــاب انحدر الى الحديقة فألقى بالسفط على الارض بعد أن نقل الى خرجه ماكان فيه وتسور الحائط ونجا بنفسه وخرج مع البازى عليه سواد

ولما توفى الليل هب العابد من نومه وخرج يجول فى حديقته وكانت تلك عادته عند كل صباح فلمح الخادم وهى تهرول اليه تنادى : « أيعلم مولاى تولى الله حراســته أين ســفط الاوانى الفضية ؟ »

فأشار العابد اليه وكان مطروحا على مقربة منه ، وقال لها « أليس هو هذا ؟ » . قالت : « كأنه هو ولكن أين أوانيه ؟ » قال : « هذا ما لست أدرى » . فصاحت الخادم : « كان الذى خفت أن يكون فلقــد فقدت تلك الاوانى وأكبر ظنى أن ذلك الرجل الذى غشينا بالامس هو الذى ذهب بها »

ثم طفقت تجرى الى حجــرة الرجــل وعادت على الاثر وهى تقول : « نعم ذهب بها فلا بورك له فيهــا » ، ولاحت منهــا التفاتة فرأت آثار أقدامه مطبوعة على أرض البستان ، فجعلت تترسمها بالنظر حتى انتهت بها الى احــدى زواياه فشاهدت

آثار تسلقه على الحائط ، فقالت : « من هنا أخـذ طريقه ومن هنا ظهر الحائط »

وما زالت تبدى وتعيد وسيدها صامت اللسان وما زاد على أن قال : « ومتى كنا نحن أصحابا لتلك الاوانى ؟ ألم تكن هى من نصيب الفقراء وقد حبسناها عنهم ؟ ولقد أصاب الرجل فى فعلته فان هو الا بعضهم وقد وقف به نصيبه عليها فلاتجزعى فليس فى الامر ما يدعو الى الجزع وهـذه أوانى القصـدير أو صحاف الخزف تكفينا مؤنة الاسف على ضياعها »

ثم غادرها وانكفأ الى حجرته وما كادت تحتويه حتى سمع طرقا على الباب ، فقال : « أتيت أهـلا أيها الطارق » فانفتح الباب وظهر على عتبة الدار ثلاثة من الرجال قدأخذوا بخناق رابع بينهم !

فمد العابد بصره فاذا ثلاثتهم من الجندواذا صاحبه بالامس يكاد يذوب بينهم فرقا

فقال لصاحبه وقد هبت من شمائله روائح الكرم : « لقـد نسيت عند انصرافك عنا أن تقرن هذين الشمعدانين الى تلك الاوانى الفضية ، وأنت تعلم أنك ربهما منـذ الامس • وما أنساك أن تذكرهما الا شيطان العجلة • فخـذهما فلعلك أن تصيب من ثمنهما ما تصلح به من شأنك ! »

ثم التفت الى الجند ، وقال لهم : « لقد آذيتمونى فى ضيفى انه خير مما تظنون »

والتفت بعدها الى صاحبه ، فقال له والبشر يجول فى محياه: « اذا شئت زيارتنا منذ اليوم ، فلا تجعل طريقك على البستان فان لك لمندوحة عن احتمال مشاق الصعود والهبوط ، وهـذا بابنا لا يغلق فى وجه الطارق ، وما هى الأن تدفع الباب حتى تكون فى وسـط الدار » • ولما تم انصراف القوم ، قال له : « لقدجعلت لى عهد الله أن تنفق ما أخذت فى رياضـة نفسك على البر والتقوى فلا تنكث مع الله عهـدك » • فلبث الرجـل

مبهوتا عند سماع ذكريات ذلك العهد الذى لم يأخذ على نفسه القيام به فقال له العابد : « اعلم اننى اشتريت نفسك بعدأن سللتها من يد الهلاك ثم وهبتها لله فلا تكن عليها من المسرفين»

وخرج الرجل منالمدينة كمن يحاول الفرار ، ومضى على وجهه تقاذف به الطرقات وتهادى به الحقول ولا يشعر لفرط مانزل به أكان يقبل أو يدبر ولا يعلم انه كان يضرب فى قطعة من الارض لا يتعداها



وهكذا قضى سراة يومه فى أودية التيه والضلال ولم يشعر بألم الجوع وأن كان لم يذق طعاما ، فسار وهو يكاد ينشق غيظا ولا يعلم الا الله على أى شىء قد أمسك هذا الغيظ فى نفسه ولعله سرى اليه من ندامته على ماضيه أو من خذلانه فى حاضره. وكأنه كان يحس برقة قد أدركت فؤاده وأخذت تقرض من أطراف غلظته فتضعضع نفسه كلما شعر بانزعاج تلك الغلظة التى أسكنها فى فؤاده ذلك الظلم الغابر وأيدها فيه هذا الجد العاثر . وجعل يتساءل فى كل آن عما عساه أن يحل محلها ويؤثر العودة الى السجون على البقاء على تلك الحال التى لايعلم مأتاها

كان على عطفى طريقه سياج تطل منها زهور قد أخطأتها أيدى الجناة فجعلت تهيج فيه ذكرى الصبا كلما تنسم منها ذلك الارج الفياح الذى لم يكن له عهد به منذ ابتدأت أيام محنته

وقد بلغت من نفسه تلك الذكرى ما لم يبلغه البؤس والشقاء وكذلك قضى يومه على غير استواء

ولما كان الاصيل وقد رسمت الشمس على سطح الارض ظلال الحصى كان جان فالجان مضطجعا فى جوف خضراء ليس فيها سواه وقد مر برأسها طريق معبد ينتهى بمدينة (دينى)

تلك التى لاقى فيها صنوف الشقاء

وانه يفكر فى أمره وفى تلك الاسمال التى كانت مثار النفور لكل من يراه اذ أحس بوقع أقدام ، فاستوى جالسا فاذا هو يرى سوادا مقبلا فتبينه فاذا هو غلام يعد من العمر اثنتى عشرة سنة وهو يحتقب جرة له ويحمل حيوانا صغيرا جعله وسيلة لرزقه ، وقد شهد ما كان عليه من الاطمار البالية بعراقته فى الفاقة ، وهو يغنى بصوت رخيم ، ويلاعب الجو بقطع من الفضة كانت مبلغ ثروته فى حياته

فانه ليلهو بقذفها فى الجو والتقاطها اذ هوت كبراها الى الارض وأخذت تجرى على رأسها الى حيث كان جان فالجان مستترا عن نظر ذلك الغلام خلف تلك العواسج

فما هى الا أن انتهت اليه حتى كان أسرع من السهم فى ممره الى وضع قدمه عليها ليحجبها عن نظر ربها الذى كان يحرص عليها حرص الموت على النفوس ، ويترسم أثرها بنظر يكاد ينهبها وهى تجرى على الارض نهبا

ولما علم بمقرها وثب اليه فاذا هو يرى عنده رجلا ، فلم يأخذه الروع ولم يعتره الدهش

وكان الطريق اذ ذاك خاليا من المارة ولا يسمع فى هذا الجو الفسيح الى قطقطة (١) سرب من القطا يسبح فى الجو على قيد مرمى السهم

فوقف الغلام فى وجه الرجل وقد ألقى الشرق (٢) فى شعر رأسه سلوكا ذهبية ونشر على سحنة ذلك الفاتك طبقة تعلوها حمرة النجيع (٣) ، وقال له بصوت يمازجه ارتياح الغلمة وسكينة الابرياء : أين قطتى؟ فمد الرجل بصره اليه وقال: « من أنت ؟ » قال : «أنا (فرجى) الصغير »

فانتهره الرجل ونكس رأسه وتصامم عن سماع كلامه وأخذ

---

(١) صورة لطير القطا (٢) بمعنى الشمس (٣) بمعنى الدم

الاول يلحف فى السؤال والثانى يبالغ فى السكوت حتى ضاق الغلام ذرعا وأهوى الى ذلك الشيخ وأخذ بمجامع طوقه وجعل يعالج تحويل قدمه عن تلك القطعة الفضية

فزمهر الرجل فى وجهه ، ومد يده ليلتمس عصاه ، فأثارت تلك الحركة نخوة الغلام فأغلظ فى القول حتى أحفظ (١) ذلك الشيخ فثار من مكانه وأهابه يكاد يتمزق غيظا وصاح به : « ان لم تنج بنفسك فلا نجوت بها بعد اليوم ! »

فارتاع الغلام لوعيد ذلك الفاتك وأطلق للريح ساقيه وجعل يعدو ولا يلوى على شىء حتى غاب سواده وقد غابت الشمس

ولبث الرجل فى مكانه حتى سطت عليه غياهب الظلام وهو غائص فى لجج من الأفكار وكأنه كان ينظر الى أصل شجرة كانت هناك وقد وقف نظره عليها ولم يتحول، ولولا قشعريرة سرت الى جسمه من قرة ذلك المساء لما عاد الى نفسه من غيبوبة هذا الفكر الطويل ولما أحس بوخز القر ، هم بالتحول عن هذا المكان فأصلح عليه أثوابه وانحنى ليأخذ عصاه ، فأخذ نظره تلك القطعة الفضية وقد كادت تسوخ فى الارض فاحتوته الهزة وجعل يغمغم ويهذى وكأن أجفانه قد شدت الى تلك القطعة بأهدابها وكأنما هى ترميه بنظرات تخترق أحشاءه

ومرت عليه فترة وهو على تلك الحال ثم أخذ يغالب اضطرابه حتى ثاب اليه السكون فاندفع الى الأمام وانقض عليها انقضاض القضاء

ولما صارت فى يده أخذ يستقرىء بنظره ذلك الفضاء ويدور بعينيه فى أرجائه وما شك من رآه وهو عى تلك الحال فى أنه ضار من الوحش يلتمس مريضا يستكن فيه على أنه ماكان يرى فى تلك الانحاء آلا ضبابا قد أعاره الشفق لونه الوردى وقد مد الظلام على الارض رواقا يقصر فيه قاب العين

---

(١) أغضب

فشرع في السرى وقد لبس الدجى وتغلغل فى هذا الفضاء وطفق يهرول فى مشيته وركب تلك الطريق التى نجا منهـا ذلك الغلام المغبون وما هو الا أن خطا فيها بعض الخطوات حتى وقف بغتة ورفع عقيرته ينادى باسم ذلك الغلام رجاء أن يسمعه فينقلب اليه ، وكان يتسمع فلا يسمع شـيئا فما زال يعـدو ويصيح وقد ابتلع هـذا الظلام شخصه ومزق ذلك السـكون صوته حتى يأس من لحاقه

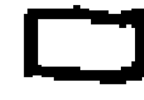
ولو كان الغـلام حيث يسمع ذلك الصوت النكير لما سكن الى اجابته ولضاعف من عدوه وبالغ فى اختفائه طلبـا للنجاة من غائلته

وان اليـأس ليتهب فؤاده نهبـا آذ بصر بشبح يخوض فى أحشاء هذا الليل البهيم ، فداناه فاذا به رجل يحمل شـارة الرهبان وقد امتطى جواداً ، فاستوقفه وسـأله بلهفة الحائر: « ألم تعثر فى طريقك أيها الراهب بغلام صغير؟ » فقال :«كلا» قال الرجل : « انى أنشد غلاما فقيرا وأحسبه يدعى فرجى » قال : « لم أر أحدا » فضرب الرجل بيده الى جيبه وانتزع منه قطعتين من الفضة وقال للراهب : « خـذ هاتين وأنفقهما فى سبيل الله وفى مواساة ذوى المتربة واننى أدعوك بالله أن تقودنى الى السجن فانا بعض المجرمين » فما كادت تستأذن هـذه الكلمات على سمع الراهب حتى همز جواده فمر به مرور الطيف وغادر ذلك البائس فى مكانه وهو كأنه بعض الانصاب • فلم تكن الا لحظة حتى استأنف السرى وطفق يعدو ويصيح كأنه خولط فى عقله وجعل كلما مر بجذع أو شجرة مثل له الوهم أنه يرى انسانا جاثما أو واقفا فيعطف عليه عقله عطفة المستخبر عن ذلك الغلام

كذلك كانت حاله حتى بلغ مكانا تلتقى عنده سـبل ثلاث وقد درج القمر من حجر أمه • فجعل يدعو باسم الغلام وصوته يذهب فى هـذا الفضاء وقد انقطع عن اجابته كل شىء حتى

الصدى فعجز عن التماسك وانحلت عزائمه وقد ناء به كلكل الفضاء فسقط على حجر هنـاك وقال وهو مكب برأسـه على ركبتيه : « أشهد أنى بائس » !

وجال الدمع فى عينين لم يسبح انسانهما فيه منذ عشرين عاما ، وكأنه كان ينبع من ذلك القلب الذى صدعته الخطوب



خرج هذا الرجل من عند العابد وقد علمنا ما كان من أمره وانه لم يكن له من نفسه ما يحاسبه على عمله

فما وجدت العظات الى قلبه سبيلا ، ولا كان لتلك الاخلاق الفاضلة سلطان على أخلاقه ، ولا وصل ذلك القول الكريم الى فؤاده ، ولا ظفرت حكمة العابد بعلاج تلك النفس التى نفرت من الهدى نفارها من طبائع الابرار ، وتحصنت فى معقل من الضلال لا تبلغه العظة ، ولا تعمل فيه الزواجر

وكانت رنة تلك العظات لا تزال تفتق طبلتى أذنيـه • فى نفسه منها ما يقع ، فيبالغ فى صدها ، وتبالغ فى كيده ، حتى أوشكت أن تأتى على قوة الشر فيه ، وتستل من قرارة نفسه ذلك الحقد الكمين

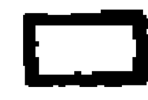
وقد بدأ يشعر فى هذه المرة بأن صفح العابد عن زلته كان طليعة لكتائب المقادير التى خـذل أمامها عناده ، وانه ليجنى على نفسـه ان هو أبى الا الاصرار على ذلك العنـاد والحفـاظ والتمسيك لذلك الحقد الذى وقره فى صدره على جنس البشر ، وقد وجب عليه أن يخرج من تلك الحرب اما قاهرا أو مقهورا ، تلك الحرب التى قامت بين نفسين : نفس اتخذت من تقوى الله جندها ، ونفس جعلت حزب الشيطان حزبها

ولما تعذر عليه المخرج وضاق به الامر ثار من مكانه وأخـذ يسرى على ضوء ذلك النور الذى أوشك أن ينير سريرته

ويا ليت شعرى هل كانت تعاوده اذ ذاك ذكرى تلك الليلة

التي قضاها في مدينة (ديني) وهل كان يسمع صوت ذلك الهاتف السماوى الذى بات ينذره بعقباه ويكل له الخيار بين خلتين : آما نزوع عن الغواية فسمو الى مقام الابرار ، واما استرسال فى الضلالة فهبوط الى قرار الفجار ، ويوضح له سبيل الحياة بين أمرين : أما سعادة ذلك العابد ، وأما بؤس خير منه بؤس المصفد فى قاع السجون

وسبيله فى الاولى أن يحلل بحرارة التوبة ما علق بأجزاء نفسه من بقايا ذلك الشر فيصبح ملكا نقيا ، وفى الثانية أن يلوثها بحمأة الغى والضلال فيمسى طريدا شقيا



وهنا نفتح المجال لتلك الاسئلة التى عرضناها على القارىء منذ العهدالقريب ولا زلنا نقول انالخطوب تفتق الاذهان ولكنا لا نعلم علم اليقين أكان لها أثر حتى اليوم فى فؤاد ذلك الرجل ولعلها كانت تحضره حين اضطرابه فتزيده حيرة وخبالا

فلقد أحدث فى نفسه صنع الجميل على أثر خروجه من السجن وقرب عهده بالشقاء ما يحدثه الضوء الباهر وقد قرع عينا حديثة العهد بحالك الظلام

ولما تجلت له تلك الحياة الجديدة فى أعلى مجاليها وتراءى له آتيها يرفل فى ثياب البهجة والبهاء ، أزعجه ذلك المرأى فلم يستطع عليه صبرا وقد بهر نورالفضيلة ذلك البائس فرد منه الطرف وهو كليل

وما كان جان فالجان اليوم هو ذلك الغصوب الذى سلب الغلام قطعته بالامس وغلبه علىأمره ولا هو بصاحب تلكالفعلة الشنعاء

وانما صاحبها هو ذلك الحيوان المفترس الذى دفعته الفطرة الوحشية الىارتكابها بينما كانت نفسه تسبح فى سماء الحياة الجديدة التى أكبرتها

فلقد فعل بالغلام ما فعل مسوقا بقوة الشر التى مزجتها بأجزاء نفسه مخالطته للاشرار فى أيام سجنه ولا يدرى أغيا كان يفعل أم رشادا

وحين أنست عينه بذلك النور وسكنت نفسه الى صحبة التقى وردت الى طبعها رد الحسام الى قرابه علم أنه أتى عظيما وارتكب جسيما فكادت تتزايل أعضاؤه رهبة وتسيل نفسه جزعا

وفعلت به تلك الصدمة فعلها ومزقت ذلك الغشاء الذى نسجته على بصيرته أيدى الخطوب ، وفصلت فى نفسه بين الحق والباطل فعلت بالاول وسفلت بالثانى كأنها ذلك الجوهر الكشاف الذى يلقى به فى المزيج ليباعد بين أجزائه فتراه وهو يطفو ببعضها ويرسب ببعضها الآخر

وقبل أن يلم بما ألم به أو يدرك مأتى تلك الحال التى وصل اليها طفق يجرى خلف ذلك الغلام ليرد اليه ما سلبه اياه حتى اذا يئس من لحاقه وقف ينظر الى ماضيه فأنكرت نفسه نفسه

أنكرت نفسه الجديدة تلك النفس التى صحبته منذ عشرين عاما ، وشبه له أنه فى عالم الاحلام ، وأنه يرى أمامه طيفا يمثل له انسانا قد نحست طلعته ولؤمت غريزته وخبثت طينته ، قد قبض بيده على عصا وحمل على ظهره حقيبة السلب وقد كتبت يد البؤس على جبينه ذلك الاسم الممقوت (جان فالجان)

وخرج به هول ذلك الموقف عن حد الادراك فرسخ فى نفسه أنه يرى ذلك الشبح رأى العين وأنه يرى أمامه (جان فالجان) فجعل يقارن بينه وبين ما يرى وكأنه ينظر فى مرآة قد رق ماؤها

وأنه ليجرع كأس الغضاضة من يد تلك المقارنة اذ لمح ضوءا سرى فى جوف ذلك الليل ، فحسبه للوهلة الاولى ضوء مصباح، ولكنه ما لبث أن رآه ينمو ويتشكل فى صورة البشر حتى

كمل انسانا سويا ثم أخذ يدانيه شيئا فشيئا حتى تبين فيه وجه ذلك العابد وما هو الا نور الفضيلة قد تمثل فى صـورة ذلك الرجل الكريم

فجعل ينظر بعين بصيرته الى هذين التمثالين القائمين أمامه ويقف بنظره على العابد تارة وعلى (جان فالجان) تارة أخرى

وبدأ يتضـاءل أمام عينيه تمثال ذلك الجانى حتى انمحى رسمه وبقى العابد وحده فى ذلك الهيكل النورانى

فراع الرجل جلال ذلك الموقف وتزاحمت دموع الرهبة فى عينيه على الخروج

فمـا زال ينتحب انتحاب الطفـل ويبكى بكاء الثكلى حتى سطع من خلال دموعه فجر الحقيقة وبزغت على أثره تلك الحياة الجـديدة التى لم يستمرىء لها لذة قبـل اليوم ، وتراءت له صحيفة أعماله وقد سـجلت فيها مخازيه ، فجعل يقرأ فيهـا سطور ماضيه فنظر جريمته الاولى وعلى عينها التوبة والاستغفار وتمثلت له غلظة قلبه وفظاظة طباعه وذلك الانتقام الذى أضمره للناس فى يوم تسريحه

ثم رأى كل ما اقترفه على العابد وما جناه على الغلام

كل أولئك كان عليـه مسطورا ووجد ما عمـل حاضرا ولا يظلم ربك أحدا

فسرى وهو مأخوذ بهذا الوجدان الجديد ولا يدرى له وجهة حتى اذا أفجر (١) وعاد الى رشده رأى نفسه راكعا على عتبة ذلك العابد

ذكرنا فى المقدمة ما كان لفكرة ذلك المؤلف من سرعة الانتقال وقلنا انه بينما نراه يسابح الاجرام فى أفلاكها اذ هو يدارج النمال فى مدابها

---

(١) أفجر الرجل اذا أدركه الفجر

وقد سرت عـدوى ذلك الانتقال من فكره الى يرآعه • فانى لاأعانى من تعريب ذلك الكتاب ما أعانى ، اذا به قد انتقل طفرا من سرد تلك العظات ، الى الخوض فى السياسة

ولا بدع فقد كان حامله كثير التطلع الى فلك السياسة دائب الرصد لاجرامه ، مسلس العنان لجواديه : فكره ويراعه

فما كاد يأتى على ذلك الفصل السابق حتى تدفق فى سرد حوادث سنة ١٨١٥ فملأ صحيفتين بأسـماء لم يجر لها ذكر من قبل ولن يكون لها حديث من بعد • فرأينا أن نغفل ذكرها وأحببنا أن يكون الكتاب غفلا من تلك الاحاديث المبتورة التى لم يكن لها أثر فى غير ذهن واضعها ، وان القارىء ليخرج من قراءتها ومافى يده شىء منها ما لم يكن ملما بحوادث تلك السنة واقفا على تاريخ هذه الامة ، ومن لنا بمثل ذلك القارىء الخبير



الفصل الثانى

فانتين

ولدت تلك البائسة فى قرية «مونتراى سيرمير» ولا تعرف لها أما ولا أبا ولا من يمت اليها بحبل القرابة ، ولا يعرف الناس من أمرها أكثر من ذلك، فوردت سجل العناء وأنظرتها الخطوب حتى بلغت سن الطفل الدارج ، وانها لتدرج ذات يوم فى الطريق وهى تنتعل أديم الارض (١) اذ من بها بعض السابلة (٢) وسماها « بفانتين » ومن ثم أصبحت تدعى بذلك الاسم الذى أصابها كما كان يصيب ذلك المطر المنهمل جبينها

ولما بلغت العاشرة من عمرها ــ ولا أدرى كيف بلغتها ــ خرجت تطلب وجوه الرزق وتلتمس أسباب القوت فى ضواحى تلك القرية

فمازالت تكدح فى طلب العيش حتى يفعت أو كادت تيفع ، فعافت نفسها البقاء على تلك الحال ، وساقها قائد الاضطرار الى الانزعاج عن الوطن ، فشخصت الى باريس ، وألقت نفسها فى معترك تلك الحياة الجديدة ، فمازالت تعمل لبطنها ، وهى تطرق أبواب الارتزاق حتى ظمأ فؤادها الى نهلة من موارد الغرام

وكانت على جمال تولت عفة النفس حراسته ، وقد غنيت

---

(١) بلا حذاء . (٢) عابر السبيل

ببهجتها عن بهجة الحلل ، وأمهرها الحسن بما لم تمهر به أترابها ، أمهرها بالنفيسين : العسجد فى شعرها واللؤلؤ فى ثغرها

فما زالت تطوف على تلك الموارد ورائدها الفؤاد ، حتى وقف بها على منهل قد رق ماؤه ، فاذا بها ترى فيه وجه ذلك الانسان الذى غلبها على قلبها ، فأرضعها أفاويق الآمال وارشفها رضاب الامانى ، حتى أخذت عفتها تتسلل قطرة قطرة ، وحتى جلس منها ذلك الخبيث مجلس الرجل من أهله

وكانت فى مبدأ أمرها ، حيث كان الغرام طفلا والعفـاف فتيا ، تغالب كيد ذلك الهوى ويغالبها ، وتجهد جهدها فى الميل عن ذلك الساحر، ولكنها ماكانت تميل عنه أصبعا الا لتميل اليه ميلا

كذلك كانت حالها حتى أصبح الحب وقد غلبها على أمرها وسقطت بين ذراعى ذلك الاثيم فافترشها ماشاء

ثم زال عنها زوال السكينة عن فؤاد العذراء اذا لم تحصن نفسها ، وغادرها وهى جفن سلاح (١)

وكان لها صواحب ثلاث ، ولذلك الغادر أصحاب ثلاثة ، وقد جمع اللهو بين هذين الفريقين وضرب عليهما بالقداح ، فخرجت لكل واحد من فريق الرجال واحدة من فريق النساء

وكان الرجال فى بلاد مختلفـــة وقد هبطوا باريز فى أيام العطلة السنوية

وما كاد ينصرم أجل تلك العطلة حتى انصرم حبل الوداد ، واختفى أولئك الاربعة فى يوم واحد

وانفرط على اثر اختفائهم عقد التئام الفريق الثـانى ، فبقيت فاتنين وحدها بلا انيس غير ذلك الجنين الذى كانت تحمله فى أحشائها ، فانقطعت عن الناس وانزوت فى بيت

---

(١) حبلى

الاحزان ، وجعلت تعانى من الم الفراق ما تعانى

وزكا حب ذلك الغائب فى فؤادها . وخرجت ذات يوم تستكتب الناس له كتابا تدعوه اليها ، وابطأ خبره عنهـــا ، فشفعت كتابها بثان وعززته بثالث

وما زالت تستكتب الناس وترتقب الجواب ، حتى احتواها اليأس وبلغ منها القنوط ، فأقبلت على نفسها تلومها وباتت تحز الودج (١) أسفا على حالها ، ووضعت حملها فاذا هو طفلة فسمتها « كوزيت »

وأقامت ماشاء الله حتى نزلت بها الضائقة وحضرها العوز ونضبت موارد الرزق

وكانت لها فضلة مما كانت تتعجل به فى أيام لهوها ، فما زالت تنفق منها وتأكل مما كانت تصيبه من ثمنها ، حتى أمست وليس فى يدها ما تستعين به على سد حاجتها

وقد زهدتها أيام قرب الحبيب فى مزاولة العمل الذى كانت تصيب من ورائه الرزق لتوفر أسباب العيش وعدم الحاجة الى العمل ، ففتر ذلك النشاط الذى ولدته فيها الضرورة ووهى العزم وفنى الحزم

وأصبحت ترى الارض فى ناظرها وهى أضيـــق من كفــة الحابل (٢) ، فعزمت على التحول من باريس والعــودة الى مسقط راسها ، وقالت : لعلى أجد هناك ماأصون به أديم هذا الوجه من الاخلاق وأستعين به على تربية هذه اليتيمة

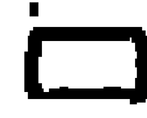
ولما صحت عزيمتها على ذلك جمعت اليــها ما بقى من حاجتها وباعت فوفت مطالب الغرماء وحفظت بعض الدراهم ثم احتملت طفلتها وخرجت تمشى على استحياء وهى كاسفة البال سيئة الحال وليس وراء مابها من الهم غاية

وتنكر لها كل شىء فودت بجدع الانف لو أن ظهر الارض

---

(١) الودج عرق فى العنق ينتفخ عندالغضب ، والمراد شدة الندم
(٢) كفة الحابل حبالة الصائد

من الانس أعرى من سراة الاديم (١) . فسارت ولو رآها أقرب الناس عهدا بها لغابت عنه معرفتها لفرط ما نزل بهـا من الهزال ، واخترم جسمهـا من السقم ، وان كانت لا تزال عليها مسحة من ذلك الجمال الغابر



اخذت طريقا الى بلدتها وجعلت كلما أخذ منهـا التعب تنتحى ناحية من الطريق ، وتجلس ريثما تنفس عنها كرب المسير وتغذو طفلتها

ونزل بصدرها نازل من السعال دعته الرضاعة الى النزول بذلك الصدر الضعيف ، فضاعف من وصبها وزاد من المها ، وما زالت ترمى بها المرامى حتى وقف بها السير على نزل (٢) حقير بقرية « منتفرمى » كان قائما على رأس طريق يدعى بطريق الخبـازين أسس فى صـدر القرن الرابع عشر وزالت معالمه اليوم

وكان هذا النزل لذئب من ذئاب الانس يدعى « تيناردیه » وكانت من تحته ذئبة هى احدى الذئاب وأضراها تدعى باسمه وهما يقطنان مع أولادهما فى ذلك النزل

ولعل ذلك الذئب كان ممن شهدوا موقعة « واترلو » فقد يرى الناظر بأعلى ذلك الباب لوحا كبيرا قد نقشت عليه هذه الكلمات : « هلموا الى جندى واترلو »

ورسمت بأسفل اللوح صورة رجل يحمل على ظهره رجلا آخر عليه شارة القواد تلمع على كتفيه النجوم ويشرق فى اثوابه الدم . وهما تحت جو أشبه بجو المواقع ، عقد الدخان فوقه سماء مكفهرة الارجاء

وقد طرحت أمام ذلك الباب عجلة عاتية من تلك العجلات

---

(١) سراة الاديم ، ظهر الجلد . والغرض الا يكون فى الارض انسان
(٢) النزل : الفندق

التى كانت تستخدم فى ذلك العهد لحمل الاثقـــال وجلب الاشجار من الغابات . وكأنها لم تطرح فى ذلك المكان الا لتصدا أو لتزحم الطريق ، أو لتجعلها تلك الذئبة الضارية أرجوحة لوليدتيها

وقد ستر الوحل أخشاب تلك العجلة وكســـا الصدا حديدها ، فأقامت فى الطريق وهى كأنها بعض أولئك الرؤساء الدينيين الذين قاموا عثرة فى سبيل الشرائع الغابرة

واتفق أن وقفت « فانتين » على ذلك النزل حين كانت تلك الذئبة تلاعب طفلتيها ، وقد وضعتهما فى الارجوحة ، وهما كأنهما قمران فى طفاوة (١) أو زهرتان فى كمام

وكانتا متعانقتين فى هزة ذلك المهاد ، وصـــغراهما بين ذراعى كبراهما ، وقد سلخت الكبرى منهما ثلاثين شهـرا ، وأوشكت الصغرى أن تهل العشرين

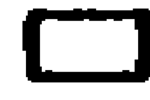
وجلست أمامهما على كثب منهما تشارفهما وتتغنى بشىء من الكلام المقفى . وانها لتشدو كذلك اذ وقفت فانتين على رأسها وقالت : « لعلك أم هاتين الزهرتين ؟ » . فلم تحر جوابا ولم تلتفت ولعلها لم تسمع صوت تلك السائلة ، فقد استطرد بها جواب الطرب فى ميدان الغناء . فعــاودت فانتين السؤال بصوت كان خليقا بالوصول الى مسمع تلك المندفعة فى غنائها . فالتفتت اليها ، فاذا هى ترى فتاة قد أنصب بدنها السير وكدها الهم والصبر ، ونال منها البؤس وبلغ منها الشقاء . وقد كاد يمسح الحزن ما كان على وجهها من مسحة ذلك الجمال، وأوشك أن يذهب البكاء بما كان كامنا فى محاجرها من ذلك السحر الحلال . فانتقلت حمرة وجنتيها الى عينيها ، وهاجر سواد لحظهـا الى حظها وامتد اصفرار شعرها الى لونها ودب سقم جفنها الى صدرها ، وسرى نحول خصرها

---

(١) الطفاوة دارة القمر وهالة نوره . والكمام جمع كمامة وهى غطاء الزهرة

الى جسمها ، والتقى فى مآقيها دمع الحزن بدمع الدلال ، واجتمع فى قدها ذلك الهيف وذاك الهزال

وقد أدمى ادمان وخز الابر سبابتـــها أيام كانت تخيط لتعيش ، وذهب الفقر بزينتها ، فليس عليها من الثيــاب غير ما يحصنها من البرد ويقيها الحر



تلك فاتنين التى كانت تقف على جمالها العيون ، ولو أنها تبتسم اليوم ، لرأى الناظر ذلك اللؤلؤ المنظوم فى ثغرها ، ولكن الحزن والشقاء لم يدعا للابتسام سبيلا الى ذلك الثغر الذى كان منطبقا على ثناياه انطباق المحارة على الجوهرة

وكانت تحمل على ظهرها تلك الحقيبة التى أودعتها كل ماتملك وتحمل بين ذراعيها طفلة ساذجة الطرف عبلة (١) الساق وضاءة الجبين . لها من صدر أمها مهاد ، ومن ذراعها وساد ، أخذ الكرى بمعاقد أجفانها ، فنامت نوما هنيئا بين ذراعين قد صيغتا من الشفقة وصدر قد صور من الحنان

فقالت لهـا ربة النزل وقد رفقت فى القول : « نعـم همـا ريحانتاى » ثم دعتها الى الجلوس بجانبها على عتبة الدار ، وأنشأت تحدثها عن نفسها وعن بعلها ، وجعلت تحاسنهـا فى القول وتلين لها فى الكلام ، ولم يكن ذلك اللين من شـأنها ولا تلك الرقة من طباعها ولكن ربما وجدت الرحمة مسربا الى تلك الافئدة الغليظة عند ذكر صغارها

وكانت تلك المرأة شقراء اللون جهمة الوجه وهى فوق الطويلة ودون البادنة يزدهيها شىء من الخلاعة ، ويشـوب لسانها نوع من التزويق ، شأن أرباب الفنادق ، ولا أحسبها فى ذلك العهد الا وقد جاوزت حد الثلاثين

---

(١) عبلة الساق مفتولتها

ولو انها انتصبت قائمة لراع «فانتين» طول قامتها ولذهب بارتياحها وسكونها الى محادثتها ، ولا بدع فانها لم تكن الا حرث جندى وفراش وحشى (١)

ولما فرغت من حديثها ، أخذت فانتين تنفض اليها جملة حالها ، غير انها كتمتها أمرها ، وألقت فى روعها أنها أرمل قد مات عنها بعلها . وان الحرفة التى كانت تزاولها قد كسد سوقها فى باريز فغادرتها وخرجت تضرب الارض رجاء أن تصيب رزقا لها ولطفلتها ، وانها قضت عامة يومها وهى تعانى تعب السير على قدميها ، وأن ابنتها قد أخذت من ذلك التعب بنصيبها

وما كادت تأتى على ذلك الحديث حتى انحنت على طفلتها تقبلها وتضمها اليها ، فانتبهت الطفلة لحرارة تلك القبلة ، وجعلت تدور فى هذا الفضاء بعينين قد جال فى انسانيهما الوقار وكمنت فيهما السكينة ، وقد نم نظرها عن سر تلك الفطرة السليمة التى لم يكن مثلها بجانب ما ندعوه فينا بالفضيلة الا كمثل السماء صفا أديمها بجانب الشفق شابته الشوائب ، وما يدريك لعلها كان يقوم بنفسها فى هذه الفترة انها ملك من الملائك يطل من سماء عصمته على أعمال هذا الورى

وما هى الا جولة فكر حتى تغيرت حالها وجعلت تبتسم ابتسام الظافر وهمت بالانزلاق من حجر أمها مدفوعة بتلك الارادة التى لا يقف فى سبيلها شىء عند أولئك الاطفال ، وقد حاولت أمها أن تحبسها عن مقصدها فما استطاعت لها ردا . ولما صارت على الارض أخذت تدب حتى انتهت حيث الارجوحة والوليدتان ، فوقفت تنظر ، وكأنها تعجب مما ترى، وقامت الام الى بنتيها فأنزلتهما الى الارض ، وقالت لثلاثتهن

---

(١) اى كانت زوجة جندى او زوجةرجل متوحش

هيـا العبن جميعا . وربطت السن بينهن عرى الائتـلاف فطفقن يمرحن ويلعبن وينكتن فى الارض نكتا

وكانت تلك القادمة الجديدة اكثرهن مهارة وابرعهن يدا فى حفر تلك النكت

وجلست ربة النزل الى فانتين تحادثها وتحاسنها وما زالت بها حتى خلبتها ، وانست منها الارتياح الى سماع حديثها ، فاقبلت عليها بوجهها وجعلت تسائلها عن بنتها وهى تخبرها

وبينما تتحادث الأمان فى ناحية ، وتلعب الصغار فى ناحية اخرى برزت احدى بنات الأرض من خدرها وخرجت تسعى من بعض تلك النكت ، فراع الصغار منظر تلك الحشرة وجزعن لرؤيتها جزعا شديدا وأشفقن منها وقـد ضمهن الخوف الى بعضهن فتقـاربن حتى التصقت جباههن واسـتولى عليهن الدهش جميعا

وحانت من ربة النزل التفاتة فلمحتهن على تلك الحال وقد تجمعن ، فظنت ذلك لداعيـة الانعطاف والميـل ، فقـالت لفانتين وهى تحـدثها : « الا تنظرين الى هؤليات الاخـوات الثلاث ؟ »

فوصلت تلك الكلمة الى فؤاد فانتين قبل سمعها فأمسكت بذراع صاحبتها وقالت لها : « لقد كدت تلمين بما كان يقوم بنفسى منذ رايتك ، فأنى قد عولت على مغـادرة ابنتى بهذا النزل . افلا تكفلنيها ؟ »

فخرجت ربة النزل بالصمت عن لا ونعم ، واشارت برأسها اشارة تشعر بالتردد بين الرفض والقبول

فقالت فانتين : « ولا احسبك الا ستعجبين من امرى ، ولكن الحاجة تدعونى الى ذلك ، فقد استحال على أن أجمع بين السعى وراء العمل وبين اصطحاب تلك الطفلة فأنا غادية الى التمـاس بعض وجـوه الرزق وتاركة (كوزيت) بين ذراعى امها الجديدة وباعثة لك فى كل شهر بما يقوم بنفقتها ، وآخذة

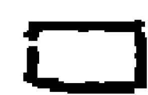
على نفسى القيام بدفع اثنى عشر درهما فى كل شهر لكفالتها فانظرى ماذا تأمرين »

وما هى الا أن انتهت من ذلك الحديث حتى سمعت فى صحن تلك الدار صوتا شبيها بصوت انفجار البارود وقائلا يقول لها : « أولى لك أيتها القادمة أن تدفعى أربعة عشر درهما ، وقد استحال غير ذلك » !

فقالت فانتين : « كذا فليكن » ، ثم نظرت الى صاحبتها نظرة المستخبرة عن صاحب ذلك الصوت ، فألمت تلك الذئبة بمقصدها ، فقالت : « أنه صوت زوجى وهو رب النزل وصاحب الأمر والنهى فيه ، فلا تجعلى له سبيلا الى رفض ما تطلبين مهما اشتط فى الطلب وكلفك ذلك من المؤونة »

وقال الذى هى فى داره : « لن نقبل الكفالة ، أو تعجلى بدفع نفقة ستة أهلة ، وتتركى عندها من الثياب ما يدفع عنها البرد والحر » ، ثم لبث غير بعيد وخرج اليها باسطا يده فنقدته الدراهم وقضت عندهم سواد الليل

ولما كان الفجر قامت فانتين فودعت طفلتها وخلفت تلك الحمامة فى وكر الصقور . وسارت ومدامعها تسابق خطواتها



وما كادت تغادر ذلك النزل حتى غادرته الرحمة على أثرها وأصبحت (كوزيت) بين زوجين لو قسم ما فى فؤاديهما من الغلظة على افئدة البشر لما وجدت الرحمة الى القلوب سبيلا

وقالت المراة لزوجها : « ما لنا ولتلك القنبرة (وكذلك كانوا يدعونها) نغذوها ولا تعمل ؟ وانى لأرى لديها من الثياب ما يقوم ثمنه بوفاء بعض ما أثقل كاهلنا من الديون ، فان رأيت أن نجمع تلك الثياب ونبيعها ! »

فقال الرجل : « ومن الرأى أن تعجلى ببيعها اليوم ، فان غدا لموعد المقاضاة وليس فى أيدينا ما يسد مطالب الغرماء »

وطلعت شمس الغد على تلك اليتيمة بالبؤس والشقاء فلبست ثياب الذل ، وطرحت رداء الدل ، وكانت كلما شبت يوما شب معها البؤس عاما ، حتى أصبح الثرى مهادها والمدر وسادها ، وتبدلت من حضن أمها حضن التراب ومن لين ذراعها خشونة الجماد

اين عين فانتين ترى ذلك الطمر (١) الذى تضل الأبر سبيلها فى شقوقه ، وينتهى العد دون خروقه ، تضحى (٢) فيه وتخصر (٣) وتنطوى تحته وتنشر ، تبكر بكور الغراب الى كنس الدار والفناء ، وتنطلق ، والصبح والليل خيطان ، الى حمل الماء ، تنطلق الى النهر والنهر بعيد ، وتستقبل القر والقر شديد ، وتقطع الطريق وهى طويلة ، وتحمل الجرة وهى ثقيلة ؟

اين عين فانتين ترى تلك اليتيمة وهى تحت الخوان تؤاكل الجرو والهرة ، وتلقف الكسرة بعد الكسرة ، وطعامها دون الهر وفوق الكلب « والهر ينتقى ما طاب ، والكلب يلتهم كل ما أصاب »

ولم تزل تلك القنبرة رهينة الألم والعذاب ، يعدون انفاسها . فاذا تنفست قالوا لها : « لقد أفسدت علينا الهواء » ويرقبون حركاتها ، فاذا تحركت قالوا لها : « لقد كدرت علينا صفو السكون » حتى ضؤل جسمها واضمحل رسمها

ولؤم صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة من أمها ، فما زال يطلب المزيد حتى كلفها ذلك فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ، فكانت تعمل عامة اليوم ، وتجعل ما تصيبه من الاجر لتلك النفقة الفادحة

وكأن الخبيث قد ألم بباطن الأمر ، فقال لامراته ذات يوم

---

(١) الثوب البالى (٢) يصيبها حر الضحى (٣) يصيبها البرد

« انى لا أعلم من أمر فانتين ما لا تعلمين ، أن هى الا بغى قد غلبت على أمرها وما جاءتها تلك الطفلة الا من طريق السفاح . ولا أرى شيئا هو أصلح لحالنا من انتهاز هذه النهزة والتماس الزيادة فى النفقة لعلنا نصيب من وراء ذلك ما نوفى به الديون ، وانى ليعرض لى أن فانتين لا ترى بدا من الاجابة رجاء أن يختفى امرها ولا احسبها الا ستخضع خضوع المضطر ! »

وسقطت الكتب على فانتين سقوط القضاء ، وكلها فى طلب الزيادة فى النفقة ووصف ذلك النعيم التى ترتع فيه طفلتها ، وكانوا كلما افرطوا عليها فى العذاب بعثوا لأمها بما يسكن من نفسها حتى أرسلت لهم قوتها وكل ما تصل يدها اليه ، فصلح شأن أصحاب النزل ووفوا الديون وأصبحوا ببركة وجود (كوزيت) وكدح تلك الأرملة وهم فى سعة من الحال وبشاشة من العيش

وما كان خبث نفسيهما وحده كافلا للسعادة فان النزل قبل حلول (كوزيته) لم يكن شيئا مذكورا فحلت بحلولها البركة وبسم لهم ثغر الزمان

ولبثت عندهم كوزيت ثلاث سنين تعانى من ألم الشقاء ما تعانى وهم يمرحون من وراء عذابها فى بحبوحة النعيم

ولو قدمت فانتين بعد مرور تلك السنوات لتفقد حال طفلتها لانكرت رؤيتها ، ولغاب عنها معرفتها لفرط ما نزل بها من البؤس وما نابها من الشقاء

وكانوا يتحدثون فى تلك القرية بأمرها فيقولون أن أصحاب النزل على ما هم فيه من الكفاف وخشونة العيش يغشون طفلة لقيطة ويربونها احتسابا ، فنعم العمل ونعم الأجر والثواب

وبعد أن غادرت فانتين طفلتها بذلك النزل كما قدمنا ركبت فى طريق قريتها التى ولدت فيها حتى اذا أشرفت عليها بعد الجهد والعناء نظرت فاذا القرية على غير ما تعهد ، تسيل

بها أودية الرخاء ويبسم ثغر السعادة

وقد قامت فيها المصانع وشيدت دور التجارة ، وأصبحت حركة الأشغال ، لدوام اتصالها وسرعة انتقالها ، وهى أشبه شيء بحركة الأرض . وكانت قد هجرتها منذ اثنتى عشرة سنة ، ولما عادت وأبصرت ما هي فيه من رخاء العيش وبشاشة الحال قالت في نفسها : « لقد كانت سعادة هذا البلد بمقدار شقائي . فاني ما كنت أهبط دركا في مهاوى الشقاء حتى كان يعلو درجة في مراقى الهناء »

ولقد صدقت فانتين في حديثها لنفسها فان هذا البلد قد ادر الله لأهله اخلاف الرزق ، ودخلت فيه السعادة بدخول رجل هبطه عند انطواء أجل سنة ١٨١٥ تحت جنح من الدجى ، فكتم الليل أمره

وشبت نار في احدى الدور عند قدوم ذلك الغريب ، فهب الناس لاطفائها . فاندس الرجل في غمارهم وغامر بنفسه في النار ، وكان أول المتوقعين عليها ، حتى استل من فمها طفلين أوشكا أن يبيتا رزقا لها وكانا لكبير الشرطة ، فأكبروا فعله ، وملأوا اذنيه حمدا وثناء ، ولم يسألوه عن اجازة المرور ، ولم تمر بهم خلجات من الشك في أمره وان كان غريبا

وبقى مادلين (١) وكذلك سمى نفسه — في تلك القرية واتخذها وطنا له ، ولا يعلم أهلها من أمره غير ما كان يلوح على محياه من سيما الخير والصلاح . وكان قد وقف على ابواب الخمسين من عمره . وأصبح كثير الاطراق كلفا بالعزلة ولم يكن يملك يوم هبط القرية غير دراهم معدودة ، فدخل في مصنع للتجارة كان قائما هناك واحسبه دخل فيه اجيرا ، فأقبلت دنياه — وناهيك اذا أقبلت — حتى أصبحت فضته ذهبا وأمسى تراب عمله تبرا .

(١) مادلين هو جان فالجان بطل الرواية

ولم تكن الا دورة من دورات الفلك حتى أصبح ربا لذلك المصنع . فاثرى الرجل اثراء يكاد يدفعه العقل لو لم يقع تحت العيان ، فأقام للأجراء دارا ، وشاد للأجيرات أخرى ، وأجرى عليهما الأرزاق ، وفرش الحجرات بفاخر الاثاث ، وكان لا يدخل فى عمله غير الصالح من الرجال والصالحة من النساء . فاستقامت له الأمور وتقلبت به أحوال جميلة حتى أصبح ذا وفر كبير . فكانوا يقدرون ما أودع فى خزائن المصارف بخمس وعشرين الف قطعة ذهبية

وما آلت اليه تلك الوفرة حتى أنفق مثيلها فى صالح الأعمال ومواساة البؤساء . وشاد فى القرية مدرسة للذكور وأخرى للأناث ، وأجرى عليهما الرواتب ، ووسع فى نطاق دار المرضى ، وكان لا ينهر سائلا ولا يرد عاملا .. فاختفى من تلك القرية أثر الشقاء ، فكنت اذا غشيت دارا رأيت من بها فى هناء ، واذا طرقت حانوتا وجدت صاحبها فى رخاء

كل ذلك كان بفضل الانكماش فى الأعمال ، وبركة الكسب من الحلال

وما بلغ (مادلين) ذلك المبلغ الذى ترى الا بطرح الاثرة ومصارعة الجشع ...

ولقد بلغ به من حب الخير ان اقام ملجأ للعجزة وللمعدمين الذين أمسوا من سقط المتاع (ولا عهد لبلاد الفرنسيس قبل ذلك اليوم (بمثله) . وجعل فى مصنعه خزينة لمساعدة عماله الذين أقعدهم الكبر وقطعتهم العاهة

ولم يزل نجمه فى سعود ، وهمته فى صعود ، حتى نبه ذكره ، وعم خيره ونمى خبره الى بيت الملك

فارتاح الملك الى سماع ما أنهوه اليه من أمره ، ورأى أن يجعل له ثوابا على ذلك العمل المبرور ، فأمر باقامته شيخا على ذلك البلد

ولما بلغته ارادة الملك بالغ فى الضراعة بالتماس الاقالة ، حتى

اقالوه ، فعجب الناس من أمره ، فمنهم من اخذها عليه ، ومنهم من عدها له ، فقال قوم انه النزق ، وقال آخرون انها القناعة

وجرت حركات الدهر فوق تلك الحركة التجارية حتى اتسعت هالتها ، فجدد الملك ارادته باقامة « مادلين » شيخا لبلده ، وجدد مادلين طلب الاعفاء !

كل ذلك والرجل تزداد نباهة ذكره ، ويسمو علو قدره ، حتى حيته العظماء ودعته الأندية العالية ، وحتى مشى اليه الكبير والصغير بالرجاء الى الخضوع لتلك الارادة ، فأكره على ذلك المنصب اكراها

وكان بعض سقاط القوم يبسطون فيه الألسن ، ولا يحفظون له غيبا ، فقالوا حينما رأوه يجمع فى أول أمره الأموال انه تاجر يطلب الاثراء

وقالوا حين رأوه يستثمر ما جمعه ان به لجشعا . وزعموا حين بدت لهم منه كراهة الترف والظهور انه أفقى لا يألف النعيم ولا يعرف قدر السعادة

وحكموا حين بدا لهم منه رفض الدنيا انه مائق يجمل به الفقر ولا يليق بوجهه الغنى



ولبث مادلين فى يومه مثله فى أمسه لم يغير المنصب من نفسه ولم يلهه الأشتغال به عن الاشتغال بما هو فيه ، فبقى على عهدنا به من مداومة الاطراق ، وحب العزلة عن الناس

فاذا رأيته رأيت شيخا آذن ليل شعره بالرحيل ، وقد لوحته الشمس ، وجال فى عينيه الوقار ، ولاحت عليه سحنة الفلاسفة

وكان يجلس للنظر فى أمور الناس ، فاذا فرغ من ذلك

انكفأ الى حجرته فقضى لبانته من مأكله ومشربه وانكب على مطالعة الكتب . وقد رأى أن يعوض ما فاته من تحصيل العلوم فى ايام صباه ، فعكف على الدرس فى ايام شيخوخته وان كان الفقر قد منعه فى اوليات عمره من مزاولة التعلم ، فقد ساعده الغنى فى اخرياته على تناوله ، ورأى من الكتب صدرا حليما ، وودا مقيما ، فسكن الى صحبتها وارتاح الى عشرتها

وكان ينطلق اذا شمر النهار الى المزارع والغابات ومعه آلة صيد قد اتقى الله فى استعمالها ، فما هاج بها غرابا ساقطا ولا غال طائرا لاقطا . ولكنه كان يحملها لرد الفوائل ، فيصحبها فى وقت امنه لتؤمنه فى وقت خوفه

وكان مع ذلك ماهرا فى التسديد ، حاذقا فى التصويب يصوب على الشيء ويرمى ، فيضع الرمية من الهدف حيث يشاء

وهو فتى القوة ، قوى الساعد ، يرفع الجواد على كاهله ، ويمسك بذنب الفرس ، ويخلد به الى الارض فيتحلحل اذا كان قويا ، ويقعى اذا كان ضعيفا ، ويستقبل الثور الهائج فيأخذه بقرنيه

وهو على ما فيه من القوة والبأس ، رقيق القلب يجد من الالم لغيره ما يجده لنفسه ، فما مرت به جنازة الا وكان اول المشيعين لها ، ولا امتحن انسان بمكروه الا وكان اول المعزين له . وتراه عند انطلاقه الى الجنائز يختلط بجماعة القسيسين فينوح توحهم ، ويرتل ترتيلهم ، وكأن نفسه تسبح فى غير هذا العالم وعينه تشخص لغير ما يدركه الحس ، وكأن اسلاكا من الالهام الالهى قد امتدت بين اذنيه وبين اسرار ذلك الابد ، فجعل يلقى بسمعه الى تلك الاصوات التى باتت تشدو بحزن على حفافى هاوية الفناء

وكم من يد له على الفقراء وصنيعة مع البؤساء يغشى دورهم

وهم غير شاهدين ، فيلقى لهم بالنقود تحت الوسائد وفوق الفراش ، ثم ينسل تحت الليل كراهة ان يرى ، كأنه يرتكب اثما او يعالج اختلاس شيء

ويعود رب الدار ، فيرى فيها اثر (مادلين) فيظن اللصوص قد ارتقبوا غيبته فجاسوا خلال داره ، فلا يزال يتفقد حاله حتى يعثر بتلك النقود فيأخذها وهو يقول لقد ارادوا سلب نعمتى ولكن ابى الله الا ان اسلبهم مالهم ، وما ذاك الا لامر نزل بهم فأذهلهم عنه

وكذلك كان يجيء بالحسنة وقد كفى الفقير مؤونة السؤال ووفر عليه غضاضة ذلك الموقف .. ولا تسل عند اللقاء عن طلاقة وجهه التى كانت تستتر تحتها هموم صدره وعن محاسنته للمعدمين . فهو كما يصفونه غنى لم يخرج به الغنى عن حد التواضع ، وسعيد لم تقف به السعادة على التبسط والانشراح .



وفى اوائل سنة ١٨٢١ اجاب عابد (دينى) دعوة ربه وقد نيف على الثمانين من عمره ، فنعته الصحف وطار خبر نعيه حتى وقع فى مسامع مادلين ، فوجد عليه وجدا شديدا وظهر من غده ، وعليه شارة الحداد . فتساءل الناس عن نبأه ومشى بعضهم الى بعض وجعلوا يقولون لقد كنا فى ليل من الشك فى امر هذا الرجل ، حتى اضاء لنا حسبه الوضاح ، فما هو الا من تلك الاسرة الشريفة ، ولا ريب ان نسبه يتصل بذلك العابد التقى

واقاموا على ذلك اليقين اياما حتى تعرض له بعضهم بالسؤال فقال وقد اخذ عليه طريقه : « انى اراك تحمل شارة الحداد منذ نعى الناعى عابد مدينة (دينى) فهل انت ممن يمت اليه بحبل القرابة ؟ »

فقال (مادلين) وقد كان ينطق الحزن فى احشائه : « كلا ، وانما كنت فى أول أمرى خادما عنده ! »

وكان العابد قبل موته قد كف بصره ، فلبث كذلك بضع سنين لا يجد الما لفقدان نور البصر وقد بقى له نور البصيرة وبقيت اخته بجانبه لا تنحرف عن سراط طاعته ، ولا تنفك عن ملازمته . فهى لا تريم عن مخدعه ، الا لامضاء امره او قضاء حاجته . وكانت تحرص على رضاه حرص المرء على حدقة عينه ، حتى رأى انه قد استعاض عن عينه بعين ذلك القلب الذى بات لا يغفل عن رعايته

ولبث ذلك البصير اميرا لدولة القلوب ، وكان يقول فى نفسه : « لو تم الكمال لشىء فى هذه الحياة الدنيا ، لاوشك امرى ان يتم كماله ، فانى ارانى لاينقصنى شىء من السعادة ، اللهم انك ان كنت قد استرجعت منى هبة النظر ، فقد جعلت افئدة من الناس تأوى الى ، اللهم أن من آوت اليه الافئدة ، كان خليقا ان يصبح حامدا ويمسى مشكورا »

وكذلك كان امره فى اواخر أيامه ، واخته لا تزال بجانبه يشاهدها قلبه ، وان لم ترها عينه ، وتتحسس روحه روحها فى ظلمة هذه الدار الفانية حتى تعثر بها فتنجاب للقائهما تلك الظلمة ويبدو كوكب الصفاء

نعم كذلك كان امره حتى انتقل من نعيم دنياه الى نعيم اخراه ، وبلغ خبر منعاه (مادلين) كما ذكرنا فوجد عليه موجدته ، واقام على حزنه حتى انصرمت ايام الحداد



وما زال الزمن يحلل من حقد مبغضيه ويستل الوساوس من صدورهم ، حتى اصبح وليس فى القرية من يرتاب فى امره ، فسكنت اليه النفوس النافرة ، وعطفت عليه القلوب

الصوادف ، وبات موضع الحاجة ، ومحل الامل ، ومهبط الثقة يتجه المضطر ، ويستعدى به المظلوم على الظالم ، ويفد اليه المتخاصمان من الاطراف للمقاضاة فيصل بين المتقاطعين ، ويوفق بين المتدابرين ، ويحكم بالتوفيق ، فلا ينحرف عن الحق كأنّ قانون الطبيعة البشرية قد طبع فى نفسه ، فطالعه ضميره وانطلق به لسانه

عطفت عليه القلوب الصوادف الا قلبا واحدا كان يبالغ فى الميل عنه كلما بالغت قلوب الناس فى الميل اليه

وكان هذا القلب فى صدر رجل من كبار الشرطة قد هبط تلك القرية منذ العهد القريب فشهد (مادلين) وهو فى مبتسم زمانه وعز سلطانه وقد استقر فى الذروة من الجاه وبلغ الغاية من الغنى فكان كلما مر به احس بدبيب الكراهة فى نفسه بصورة قد اعجزه ادراك مأتاها

ولا عجب فان لبعض النفوس اشرافا على خافيات الامور يولد فيها من الشعور الحقيقى ما تنبسط له مرة وتنقبض اخرى

وهو كذلك الشعور الذى يقع احيانا فى نفوس البشر فيحدث فيها عاطفة الميل او النفور عند النظرة الاولى ، ويقف فيها موقف المستبد لا يخضع لسلطان العقل ، ولا يجيب نداء الضمير ، فيقاطع بينها ويباين بين طبائعها ويوحى اليها عند اللقاء ، فترى النفس التى ركبت فيها طبائع الكلب تركب نفرتها عند رؤية كل نفس قد ركزت فيها طبائع الهر

اقول ذلك ولو كانت نفوسنا مما يقع تحت الحس لرأيت كل واحدة منها ممسكة بذراع اختها من نفوس تلك العجماوات

ولعلمت ان لكل انسان حيوانا يمثل طباعه ويكيف اطواره ولادركت ان هذه الوحوش وتلك الاطيار لم تكن الا تماثيل اعمالنا فمنها ما يمثل الفضيلة ومنها ما يمثل الرذيلة ، وهى

وان لم تدركها الابصار قد علمت بوجودها النفوس الهاما من الخالق الذى جعلها لها تذكرة واعتبارا

اما الآن وقد سلمت معنا ايها القارىء ان لكل انسان حيوانا يمثل طباعه ، فقد سهل علينا ان نمثل لك نفس ذلك الرجل الشرطى واعنى به (جافير)

زعم بعضهم ان الكلب اذا وقع على الذئبة اولدها جروا وان الذئبة تخشى ان هى انتظرته حتى يشب ان يعطف على صغارها فيغتالها فلذلك تنحى عليه وهو صغير .. فلو اننا جئنا بذلك الجرو ، واسكناه فى هيكل بشرى لتبين فيه القارىء شخص (جافير)

ذلك هو الرجل الذى ما فتىء يتعقب (مادلين) ويسير على اثره مسير القضاء فى حجب الغيب ، فهو اذا لمحه ماشيا كاد بصره ينهب مواقع اقدامه ، واذا سمعه محدثا كاد سمعه يختطف الفاظه قبل ان تبرح فاه ، وكلما وقع تحت بصره قال فى نفسه : «ترى اين نظرت هذا الرجل؟» وجعل يطالب الذاكرة كمن يحاول تذكار شىء درج فى اثناء النسيان ، وينتهى بقوله : « لن يغلبنى هذا الرجل على امرى وان بالغ فى اخفاء امره »

وكان (جافير) مقيما بتلك القرية كبيرا لجماعة الجواسيس من الشرطة ، والشرطة كما تعلم قوم يعرفون بسيماهم تلوح بمعاطفهم مخائل السلطة ، وتهب من اردانهم ريح الخساسة وكذلك كان جافير ولكنه لم يكن خسيسا

وكان مولده بسجن النساء حيث كانت امه سجينة ، وهى من هؤلياء النسوة اللاتى يحترفن باستطلاع الحظوظ من اوراق اللعب ، وكان ابوه سجينا بسجن الرجال . فشب ابن السجينين فى حجر البؤس والشقاء ، ولما بلغ اشده نظر فرأى بينه وبين ذلك المجتمع الانسانى سدا قد استحال عليه ان يجاوزه . وعلم ان هذا المجتمع لا ينبذ وراء ذلك السد الا

احد رجلين : رجل ناصبه العداوة فعمل على كيده ، ورجل منحه الوداد فعمل لمناصحته

وقد وجب ان يكون جافير احد هذين الرجلين فشمست نفسه عن الاول ، وسكنت الى الثانى . فانتظم فى سلك رجال الشرطة واخلص فى العمل وحرص على الطاعة حتى عهد اليه بأمر التفتيش ، واصبح كبيرا لفرقة من الجواسيس

وكان يمقت الاشرار مقتا شديدا ويتفانى فى الايقاع بهم ، وان كان هو من سلالتهم

وقبل ان يسترسل بنا القلم فى تصوير خلق ذلك الرجل فقد راينا ان نصور للقارىء خلقه فنقول :

كان جافير ذا سحنة خاصة به ، وكانت له لحية قد اغرى الموسى ببعضها وحرص على استبقاء بعضها ، فأخصب عاليها واجدب سافلها واستهلت ذراها عند العارضين ، واكتثت اصولها عند العنفقة (١) وكان افطس الانف غائر المنخارين يخال الناظر الى غؤور منخريه وبروز شعر لحيته انه يرى كهفين قد اقاما بين غابتين ، وكان اذا تبسم وقل ان يقع منه ذلك اراك ثغره اصول انيابه ، فهو اذا ضحك فنمر ، واذا غت (٢) من ضحكة فعقور اتخذت العبوسة مسكنا لها بين عينيه ، واطلت النفرة من محاجره ، وستر شعر راسه جبينه وحاجبيه



ذلك خلق(٣) الرجل تصورها للقارىء ،واما خلقه فقدكان قائما على خلتين كريمتين : احترام السلطة الحاكمة ، ومقت المستخفين بها

---

(١) شعيرات بين الشفة السفلى والذقن (٢) غت الضحك اخفاه
(٣) خلق الرجل بفتح فسكون خلقته وهيئته . اما خلق بضم الخاء واللام فهو : طبعه وميله

غير ان المغالاة فيهما قد خرجت به عن حد الاعتدال فأنكر الناس منه ذلك

فكان يرى ان كل ما يقع من جرائم القتل والسلب داخل في باب الاستخفاف بتلك السلطة ، ويسترسل في الثقة بكل عامل في الحكومة وزيرا كان او حاجبا

وينظر بعين النفور والبغضاء لكل من ولج باب المخالفة ، وهو لم يقع منه ذلك الامر في حياته

ويقول وهو يعتقد ما يقول أن القضاة بهم عصمة عن الزلل فهم لا يخطئون ، وان رجال الحكومة لهم اشراف على الامور فهم لا يخدعون . ويزعم أن التوبة لا تغسل الحوبة ، وان المرء اذا اجرم مرة عاش دهره مجرما لا تنفعه الانابة ولا يلوى بجريمته العقاب

كذلك كان يبالغ في الخلتين ولا يستثنى أحدا في الحالتين

وهو مع ما ذكرنا عنه وقور صبور كثير التفكير خاشع القلب عالي النفس مهيب في العين قد ارصد حياته لشيئين لا ثالث لهما : السهر ، والمراقبة

وكان يعمل على كمال اليقين من انتفاع الناس بعمله ويراقب الله في ذلك العمل ، ولا ينحرف شعرة عن اوامر الدين ونواهيه ، فهو في حرفته كالراهب في عيادته

والويل ثم الويل لمن وقع في مخالبه ولو كان من ذوى قرابته ، فانه ليرد اباه الى السجن اذا قبض عليه وهو فار ، وليعارض في رجوع امه الى بلدها الا بعد انقضاء سجنها

وانه ليفعل ذلك وهو اروح ما يكون نفسا واهدأ ما يكون ضميرا ظنا منه انه انما يرضى بذلك شريعة الارض ولا يسخط شريعة السماء

وكان عيشه بين التقشف والعزلة عن الناس فما صادفه انسان مرة متراوضا ، ولا لمح عليه اثر الترف والنعيم ، كأنه لم يخلق لغير الكد والعناء بين المراقبة والاختفاء

وكنت اذا رأيتــه فى حين تجسسه رأيت رجلا قد غاب جبينه تحت قلنسوته ، واستترت عينــاه تحت حاجبيــه ، واختفت يداه تحت كميه ، وانزوت عصاه تحت ردائه ، حتى اذا عن له صيد او سنحت له فرصة انتفض فظهر لك ما اختفى من امره كأنما خرج من كمين أو وثب من ظلمة الى نور

قلنا انه لا عيب فى ذلك الرجل غير تلك المغالاة ، فهو يغالى حتى فى معاملته لنفسه . اللهم الا ساعات معدودة من ايام حياته ، كان يرى فيها نفسه راضية عن نفسه فيهون عليها بعض الشيء من تلك المعاملة

وآية رضاه عنها ان يعمد الى لفيفة من الطباق (١) فيشعلها وكان ذلك مبلغ ارتياحه لنفسه وغاية رضاه عن مغبة عمله

ذلكم (جافير) ومن ذا الذى ينكر خطر (جافير) ؟ هو حرب المجرمين ، وفخ الهاربين ، وفضيحة المختفين ، اذا لفظ اسمه امام اشد العتاة انقلب على عقبيه مذعورا ، واذا لاح شبحه امام احد الفارين تقيد فى مكانه بقيد من الرهبة

فويل لك يا (مادلين) من هذه العين التى تترسم أثرك ، وتلك الاذن التى تتسقط خبرك ، ولا احسبك الا واجدا فى نفسك ما يجده لك ذلك الرجل فى نفسه

فانت بالذى فى قلبك عالم بما فى قلبه ، وان كنت قــد تحفظت ما شئت ، وصابرت ما استطعت ، وتكلفت الســكون عند لقائه وتحاميت طريق صحبته وجفائه ، وزكنت منه على مثل ما زكن منك ، وسألت ضميرك عنه بمقدار ما سأل ضميره عنك

ولبثت تلك الحرب الخفية قائمة بين هاتين النفسين وكلما فتح جافير بابا من الدهاء ابطله عليه مادلين بقوة الصبر والجلد حتى تزعزعت عزيمة الاول ولزم بيته ثلاثة ايام ، وكاد يأكل

---

(١) المعروف الآن بالدخان او التمباك

مقراض اليأس خيوط آماله ، واوشك ان يعتقد بحلول الفشل في مساعيه واعماله

واتفق ذات يوم ان خرج احد سائقي العجلات ومعه عجلة يجرها جـواد . فانطلق بها في طريق الوحل ، فغـارت فيه قوائم الجواد وأكب لوجهه ، وسقطت فوقه العجلة ، فبترت عظم ساقيه ، وانقلب السـائق تحتها فاستقرت فوق صدره فجعل يستغيث ويستنجـد وهو مشفق أن يبتلعه الوحل . فهب الناس لجهة الصوت ووقفوا ينظرون اليه ، ولا يقدم احد على الأخذ بيده

وأقبل (مادلين) مهرولا فنظر الرجل تحت العجلة يسوخ في الطين شيئا فشيئا ، وهو كلما اضطرب طلبا للخلاص كان اضطرابه مساعدا على وأده في الطين حيا ، فأشار اليه مادلين بالسكون ثم التفت الى الجماعة وقال : « أيكم قوى العضل جليد القلب يدخل تحت تلك العجلة فيرفعها بظهره وأجره على ذلك خمسة ذهبا ؟ » فوجم القوم جميعا ، فقال مادلين : « اني ارى الوقت ضيقا وارى أجل هذا الرجل اضيق منه فلا تخنسوا عن مساعدته ولمن يفعل ذلك منكم عشرة ذهبـا وان ابى الا المزيد فعشرون »

وما كاد يأتي على تلك الكلمة حتى سمع من ورائه رجـلا يقول : « ان القوم لا تنقصهم الارادة ولكن تنقصهم القوة ! »

فالتفت مادلين ليرى القائل فاذا به جافير ، ولم يكن لمحه عند قدومه

فحدق فيه جافير وعطف قائلا : « وليعلم سيدى الشيخ انه ليس على ظهر الارض من يقوى ظهره على رفع تلك العجلة، اللهم الا اذا كان من العمـالقة أو من أولئك السجنـاء الذين قضوا شطرا من حياتهم في سجن تولون ! »

فغض مادلين من بصره واستشعر الخوف لاول مرة ، وعلم أن جافير لم يقل ذلك الا تعريضا وتقريعا له ، ولكنـه غالب

نفسه حتى ملكها . ثم التفت الى الجماعة ليرى أيهم أقدم على هذا العمل ، ولما لم يجد معينا جثم على الأرض ، ولم تكن الا جولة فكر ، حتى رآه القوم تحت العجلة منبطحا على وجهه وقد حاول أن يجمع بين مرفقيه ويقرب بين ركبتيه ليعتمد عليها فى رفع تلك العجلة ، فعالج ذلك مرتين ولم يفلح فخفقت قلوب الجماعة اشـفاقا عليـه ، وظنوا أنه لا محـالة هالك ، فصاحوا به : « أولى لك أن لا تطرح بنفسك ذلك الطرح من التغرير ، وانا نناشدك الله أن تستبقى حياتك »

وقال له سائق العجلة وهو تحت كلكل الموت : « انى أدعوك بالله أن تنجو بنفسك ، فانى ميت ولا عاصم اليوم من أمر الله »

كل ذلك ومادلين صامت لا ينبس ، والقوم باهتون من عمله ، والعجلة لا تنفك عن الهبوط حتى تعذر عليه الخلاص وانقطع خيط الأمل من نجاته

وان القوم ليحفز اليأس أحشـاءهم واذا بهم يرون العجلة وقـد تحلحلت ، وجعلت تهتز فوق ذلك الطود الذى رسـخ تحتها وأخذت تصعد بعد ذلك الهبوط ، وسمعوا صوتا قد صحله (١) التعب يدعوهم الى نجدته ويقول لهم : « أعينونى بقوة فقد مكننى الله منها »

وكان ذلك صوت مادلين فأوفض (٢) القوم اليها ، وانتزعوها من مكانها ، وأفلت السائق من مخالب الموت ، والموت خزيان ينظر . وكان هذا السائق يدعى (فوشلفان) وهو من أعداء مادلين الذين أكل الحقد صدورهم ونهش الحسد قلوبهم

وقد كان فى أول أمره جنديا ثم صار تاجرا فأثرى ثم أملق حتى صار من سائقى العجلات . وكان يبيت وهو يتقلب على جنب الحرد (٣) من الحسد كلما فكر فى مادلين وفيما صار اليه

---

(١) بح بتشديد الحاء من التعب
(٢) أسرع القوم
(٣) الحرد بفتح الحاء وكسر الراء المغيظ

أمره من الثروة والجاه ، ويقول لنفسه : « لقد قدم (مادلين) وأنا تاجر وهو أجير فأصبح بحيث يحسد وأمسيت بحيث أكمد »

ومن هنا كان مبعث حقده عليه ومثار حسده له

ولما سار مادلين من تحت العجلة بعد انزلاجها عن مكانها وهو باهت اللون ناضح الجسد ملطخ الثياب ممزقها تحامل (فوشلفان) حتى اقترب منه ، وانكب على ركبتــه يقبلها وجعل يدعو له

كل ذلك والقــوم يبكون من هول ما شهدوا وينظرون الى ذلك الوجه الذى بانت فيه آثار الجهد والعناء ، ولاحت عليه سيما السرور والارتياح ، و (جافير) يكاد ينشق غيظا فى مكانه ومادلين يلقى عليه نظرات مطمئنة ويلمحه لمحات معنوية

ولما انقضى ذلك المشهد وذهب كل لوجهة ، أمر « مادلين » بفوشلفان فحمل الى مصــنعه وافرد له فيه مكانا ووكل به اثنتين من الممرضات ، واوصى بالعناية به وجعل يعوده طرفى النهار حتى أبل من مرضه

ثم وجه اليه برقعة وقع له فيها بأربعين قطعة من الذهب وكتب بها أنه قد اشترى عجلته وجواده بهذا القدر من المال (وان كان الجواد قد نفق على اثر سقوطه والعجلة قد تحطمت منذ ذلك اليوم)

ولما ابل فوشلفان من مرضه كان لا يزال يشكو بعض الألم باحدى ركبتيه ، فحال ذلك بينه وبين الرجوع الى حرفته ، فلذلك أقامه مادلين حارسا لبستان دير النساء بباريس

وبعد تلك الحادثة بقليل وجهت الحكومة الى مادلين ببراءة وظيفته . وكان جافير كلما لمحه حاملا لتلك الشارة التى تأذن له بالتصرف المطلق فى شــؤون وظيفتــه ، كادت تطير شظايا نفسه حسدا

وشعر من نفسه بذلك الشعور الذى يقع فى نفس الكلب اذا وجد ريح الذئب مختفيا تحت ثياب ربه . ومن ثم جعل

يتحامى طريقه ولا يلقاه الا مكرها على لقائه

فكان اذا لقيه لقيه لقاء المحتشم المسكين ، واذا خاطبه خاطبه خطاب المتحفظ الرزين

هذا ما كان من أمر جافير ومادلين . ولقد طال عليك أيها القارىء انتظار حديث فانتين وطال عليها الوقوف أمام تلك القرية

قدمت فانتين بلدتها ، وما نسيت ما كان من أمرها ، فوقفت تنظر اليها ، وقد تنكر لها كل شيء ولم تر من تعرفه ولا من يعرفها فسارت تعروها دهشة الغريب حتى وقف بها نصيبها على باب مصنع مادلين فارتاحت لرؤية وجه ذلك الباب كأنما هى ترى وجه صديق لها ، وعرضت نفسها على رب المصنع ، فأمر بضمها الى قسم النساء فكانت تصيب الكفاف من الرزق لجهلها بتلك الحرفة الجديدة ، وكان اجرها فى اليوم لا يتجاوز حد القوت ولكنها قد بلغت على كل حال مناها وامست تعيش من كسب يدها . ففرحت بصيانتها لماء وجهها وحفاظها لعرضها وانكمشت فى العمل حتى برعت فيه وزادوا لها فى الاجر ، فأمكنها أن تكترى لها مكانا صغيرا وأن تبتاع بعض الأثاث بالقرض والنسيئة ، فبدأت بشراء مرآة كانت تنظر فيها عند كل صباح الى نضرة شبابها فتطرب كلما تمثل لها عسجد شعرها وتراءى لؤلؤ ثغرها ، وكادت تنسى هموم ما ضيها ولم يعد لها من هم غير التفكير فى طفلتها وفيما سيكون أمرها فى مستقبل ايامها

وكانت تحرص كل الحرص على ارسال النفقة فى حينها وتبالغ فى كتمان امرها وتحتجز من الناس غاية الاحتجاز وتتحفظ من أن تسقط منها لفظة تشير الى ذكر « كوزيت » أو محل وجودها أو أن تخوض فى حديث يجر الى ذكر الزواج ، ولكن أبى النحس الا أن يلازم طالعها فانها كانت كلما ارادت ارسال النفقة الى طفلتها فى كل شهر استدعت أحد الكتاب ،

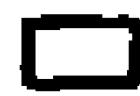
فاستكتبته كتابا الى اصحاب النزل ، وذلك لجهلها بالكتابة كما قدمنا ، فكانت تستدعيه عند قدوم الليل والليل اكتم للسر ، فولد ذلك فى نفوس صواحبها بالمصنع بعض الشكوك، ولفت أنظارهن الى مراقبتها فجعلن يتحدثن فيما بينهن بأمرها ، ويقلن ما لهذه الرسائل بد من سبب ، وما بال هذا الكاتب لا يأتى الا اذا اتى الليل ، وما بال فانتين كاسفة البال تنزوى فى طريقها عن الناس وتتحامى فى المصنع الاختلاط بنا

ولا تعجب ايها القارىء فان اشد الناس مراقبة للناس من كان أبعدهم نفعا من وراء تلك المراقبة ، فهو يراقب لغير نفع يجذبه أو مال يكسبه ، ولكنها غريزة فيه تثيرها الرغبة فى الوقوف على أحوال غيره ، فتراه ينفق المال ويستخدم الرجال ويمالىء كل من كانت له صلة بمن يراقبه من حاشيته وخدمه وأصحابه ، ويكد ذهنه وينتصب بدنه ويصرف النفيس من وقته فى تسقط الخبر وتلمس اللفظ ، ويجمع كيده لاستبطان الأمر ويرصد نفسه لاستطلاع السر ، فيخالط السوقة ويجالس أهل المنزلة التى هى دون منزلته فيعقد لهم مجالس الشراب وينفق عليهم ما يضن بانفاق بعضه فى سبيل البر وطريق الخير ويكمن تحت الليل فى زوايا الطرقات لا يبالى بسقوط الجليد ولا يعبأ بوخز القر ، ويجلد على احتمال تلك المشاق حبا فى الاستطلاع ورغبة فى الاكتشاف ، حتى اذا ألم ببعض الأمر وانكشف له جانب السر ، جلس الى أصحابه فى الأندية يحدثهم وهو يميل بسفالته تيها ، ويثنى عطفه كبرا كأنه قد اهتدى بأبحاثه تلك الى اكتشاف سر من أسرار الكون

كذلك كان حال فانتين مع تلك النسوة اللائى يعملن بذلك المصنع فانهن قد افرطن فى مراقبتها فعددن انفاسها ورقبن حركاتها وذهبن مع الظنون فى أمرها . لمحنها مرة وقد وقف الدمع فى عينيها موقف الحائر فانتحت ناحية من المكان وجعلت تمسحه فى خفية فتغامزن عليها بالعيون وأصبح الشك عندهن

يقينا ولم يكن علم الله بكاؤها الا لذكرى طفلتها وما كان منها مع ذلك الرجل الذى غلبها على أمرها . وما زلن يوالين البحث حتى اهتدين الى معرفة العنوان الذى تكتب به ، وأجتمعن بذلك الكاتب الذى كانت تستخدمه فى الكتابة ، فانطلقن به الى احدى الحانات ، وكان الرجل خفيف الحال مدمنا للراح يبيع ما فى فؤاده من السر بكأس الخمر ، فحططن عليه بالشراب حتى استفرغن ما عنده من أسرار تلك الكتب ، فعلمن أن « لفانتين » طفلة وانها غادرتها بنزل فى قرية (منتفرمى) وما يكتفين بما وصل اليهن من ذلك العلم ، بل بعثن منهن رسولا يرى الطفلة رأى العين ، وكان هذا الرسول شيخة من ذوات الاسنان نسجت الشيخوخة على وجهها طبقة من التشويه ، فزاد ذلك فى دمامة خلقتها وكان زوجها راهبا قد فر من أحد الأديرة فتزوج بها ثم مات عنها منذ زمن طويل فلبثت بعده أرملا الى هذا العهد ، وكانت تعيش من فضلة قد بقيت لها

تلك (مدام فيكتريان) التى كانت رسولهن الى قرية « منتفرمى » وهى التى قالت لهن عند عودتها : « لقد ازلت الشك باليقين ورأيت الطفلة رأى العين وأنفقت على ذلك مائة وأربعين قرشا »



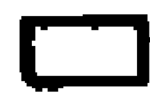
واستفرقت تلك المؤامرة زمنا طويلا حتى استوفت « فانتين » عمر العام وهى بذلك المصنع . وفى ذات يوم دخلت عليها كبيرة دار الأجيرات فناولتها مائتى قرش ، وقالت لها ان رب المصنع يأمرك بالتحول عن هذا المكان وان أحسنت الى نفسك فلا تسكنى القرية بعد اليوم

فجمدت « فانتين » فى مكانها وحاولت الكلام فخانها الصوت ونظرت الى وجه التى تحدثها فلم تلمح فيه العطف

مجالا فخرجت تمشى على استحياء وهى أسوأ ما تكون حالا ، وكان ذلك فى الشهر الذى لوّم فيه صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة منها فانكفأت الى حجرتها وجلست تفكر فيما سيؤول اليه أمرها ، وكانوا قد أشاروا عليها بمواجهة الشيخ « مادلين » لتنفض اليه جملة حالها لعلها أن تصيب منه قلبا رحيما ، فمنعها الحياء من ذلك ، وقالت فى نفسها لقد أمر بابعادى لانه عادل ، وجاد بمائتى قرش لانه كريم ، وما عسى أن يفعل الرجل معى اكثر من ذلك وقد وقع فى نفسه ما أنهى اليه من أمرى ؟

وكان « مادلين » بريئا من ذنبها ولم يكن من عادته الدخول الى دار الاجيرات فلم يشرف على أعمالهن ، وقد عهد بذلك الى واحدة منهن عرف فيها الاستقامة وصفاء السريرة فأقامها رقيبة على الأجيرات ومنحها التصرف المطلق فى أمورهن . وكانت تلك المرأة بمنزلة من الامانة والرفق فى العمل واسداء المعروف ولكنها لم تبلغ المرتبة التى اذا عرف أهلها بوجود الذنب ذكروا العفو عن المذنب فهى التى باشرت التحقيق فى أمر « فانتين » وهى التى حكمت عليها وقامت بامضاء ذلك الحكم وطلبت من مادلين التصديق عليه

كل ذلك يجرى بالمصنع فى قسم النساء ومادلين لا يعلم منه شيئا ، ولا عجب فان امثال هذا الرجل من اصحاب النفوس الزكية والقلوب النقية يتركون النظر فى شؤونهم الى من يرون فيه الاخلاص ولا يحاسبونه يوما على ما يأتيه من ذلك العمل



ولما غادرت فانتين المصنع على اثر تلك المؤامرة لم تر بدا من البقاء فى القرية لأنها قد ابتاعت أثاث منزلها بالقرض والنسيئة ، وقد بلغ التاجر ما نزل بها فأنذرها بسوء العاقبة ان هى غادرت القرية قبل وفاء دينه ، وكذلك كان

حالها مع ربة المنزل الذى استأجرت فيه قاعتها . على أنهـا قد قسمت بينهما ما أحسن به عليها مادلين واستمهلتهما فى المقاضاة فيما تبقى عليها وردت الى التاجر بعض ذلك الاثاث وحفظت منـه ما لم تر بدا من حفظه وعولت على العمـل ، فطرقت جميع الأبواب والتمست أن تكون خادما بأحـدها ، فلم يكن نصيبها غير الرد والاعراض ، فعادت الى منزلها تتعثر فى ذيول الخيبة ، وما زالت تطالب فكرتها فى استنباط عمـل تعيش من ورائه ، حتى فتق لهـا الذهن أن تعـاود حـرفة الخياطة ، فكانت تخيط الأقمصة لعساكر الحرس فتصيب فى يومها اثنى عشر صلديا تحفظ عشرة منها لنفقة (كوزيت) وتنفق اثنين فى احراز مسكة الحوباء (١)

وكانت تساكنها فى تلك الدار عجوز من البائسـات قـد مارست صنوف الشقاء ، وتقلبت بها أحوال العسر والمتربة فجعلت فانتين تجلس اليها فى كل يوم وتأخـذ عنها دروس العيش فى الخلة (٢) والضيق

وليعلم القـارىء أن وراء العيش القليل منزلة أخـرى ، وهى العيش من لا شىء وأن هـؤلاء البؤسـاء الذين شـبوا وشابوا بين شظف العيش ونكد الحيـاة لهم فنون وأساليب فى الانتفـاع باليسير من المـال فتراهم يتلمسـون من وراء الدانق منافع عـديدة ويقضـون بالسحتوت الواحـد حاجا متنوعة

ولقـد أصبحت فانتين بفضل تلك الدروس بارعة فى فن الحياة فاستغنت عن النار فى الشـتاء وعن اللحوم فى الطعام

وعرفت كيف تجعل من ثوبها غطاءها ومن غطائها ثوبها ، وأدركت كيف تقتصد ضوء شمعتها فتأخذ طعامها على ضوء الشـفق أو على أشعة النور الذى ينفذ من طاق جارها وكانت

---

(١) الحوباء النفس
(٢) الخلة بفتح الخاء الحاجة

تقــول لجارتها وهى تحدثها : « انى لأقضى عامة النهار وثلثى الليــل وأنا أخيط ، فأكاد أصيب بذلك ما أتبلغ به من الخبز اليسير ، وانى بحمد الله حزينة القلب كسيرة الخاطر

« ومن كان حاله كحالى من الهم ، كان خليقا أن لا يتناول غير القليل من الزاد ، فأنا أتبلغ بذلك الخبز اليسير وأتتدم بهذا الهم الكثير ، وأجد منهما غذاء أمسك به النفس ، وأحفظ به الحياة » !

وفى تلك الضــائقة التى يخــرج احتمالها عن طاقة البشر كانت تمر بفانتين ذكرى طفلتها ، فتجد لذلك سرورا لا يعادله عنــدها شيء فيدعوها الشــوق اليها الى طلب استحضارها من ذلك النزل ولكنها تراجع نفسها بقولها : « أى ذنب جنته تلك الصغيرة حتى يقضى عليها أن تشاطرنى هــذا البؤس ، وهب أن هذا الذى أنا فيه لم يكن بؤســا فمن أين لى نفقــة الطريق ووفــاء ما على من الديون لأصحــاب النزل حــتى استخلصها من أيديهم ؟ ان هذا الأمل بعيد »

وكانت تلك المــرأة التى علمتها دروس الحيــاة من ذوات النفوس العالية ، وأهل العفة والقناعة تســدى المعــرفة الى الفقير والغنى ، وتفعل الخير لاجل الخير ، ولا تعلم من الــكتابة غير رسم امضائها وتقول أن الله موجود ولا تعــرف غير ذلك

وكم من فضائل كامنة فى نفوس أمثال هؤلاء الذين نزل بهم الدهر الى الحضيض ســـتعلو بهم ذات يوم الى عنان السماء ، فان لكل يوم غدا

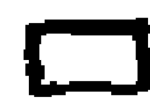
ولبثت فانتين كثيرة الخجل شديدة الحياء من نظر الناس اليها ، وهى على تلك الصورة من خفة الحال ومظهر العوز والاحتياج ، فلزمت بيتها زمنا طويلا ، وكانت اذا دعتهــا الحاجة للخروج لابتياع شيء أو قضاء أمر مشت فى الطريق وهى كاسفة البال تود لو ساخت بهــا الارض لتختفى عن أنظار المــارة ، وكانت تشعر كأنهم يترسمون بالنظر مواقع

اقدامهـــا ويشيرون بالاصابع الى رث ثيابهـــا ، فتغض من نظرها ، وتحتث قدميها للهروب من تلك النظـــرات التى اخترقت أهابها وأدمت فؤادها . ولو كانت تلك البائســـة بباريس لما لفتت اليها نظرا ولا اســـتوقفت ناظرا ولارخت عليها ظلمة الفقر سدولا تحجبها عن العيون ، ولكن فى أمثال تلك القرى الصغيرة قل أن يجد الناس مايشغلهم عن مراقبة الناس .

ومرت على فانتين ثلاثة أهلة وهى تروض نفســـها على احتمال ذلك الازدراء كما راضتها على احتمال مرارة الشقاء حتى نضب ماء الحياء من وجهها وزال ذلك الشـــعور من نفسها ، وصارت تمشى فى الطريق وهى طارحة رداء الخجل لاتبالى بتلك النظرات ولا تحفل بهذه اللفتات ، وكانت تلازم ثغرها ابتسامة ، الله أعلم بما يمتزج بها من غضاضة الحياة ، وتنأى بجانبها عن الناس شامخة الانف عالية الرأس

وكانت كلما لمحتها مدام (فيكتريان) حاســـبها الله وهى تمرح فى قد (١) تلك الخلة والضيق ، وتمشى هـذه المشية فى الطريق حمدت مغبة عملها واثنت على نفسها اذ حالت بين تلك البائسة وبين الهناء وردتها بفضل ســـعايتها الى ذلك الشقاء ، ومن الناس من لايجد سروره الا فى ألم غيره

نفوس فطرت على الشر فلا يصفو لها مورد السعادة ما لم تشبه شائبة من الاذى .



قلنا أن فانتين كانت تقضى عامة النهار وثلثى الليل وهى عاكفة على العمل فلم تزل تلك حالها حتى أوهن الآفراط من عزمها وزاد فى ذلك السعال الذى كان جالســـا فى صـــدرها فاشتدت بها الضائقة اشتدادا يغرب معه الصبر

---

(١) القد هو القدر ، والقامة

ولكنها كلما مشطت عند الصباح شعرها بذلك المشط الذى أسقط الدهر أسنانه ، فكان أشبه الاشياء بثغر الادرد (١) فنظرت جمال فرعها المرسل ارسال الحرير، اختلست رقدة من عين الدهر ومدت يدها لمصافحة السرور

وكانت قد خرجت من المصنع فى أخريات الشتاء فانصرم الشتاء وانطوى على أثره الصيف ودار الفلك دورته ، فاذا الشتاء التالى يقرع باب فانتين قرعا ينذرها بيوم قصير وجو مطير وضباب مقيم وأفق مظلم ونهار يعثر صباحه بمسائه ، وليل يجهل أوله آخره وشمس رمداء ، وسماء مكفهرة الارجاء، وعيش كثير المؤونة ، وفصل هو حرب الفقير وهلاك الضعيف ، يقل فيه العمل وتكثر النفقة فتطلب المعدة الغذاء والجسم الرداء ، ويتلمس المقرور النار ويضيق بصاحب الكفاف رحب الدار

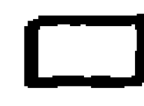
فصل يحول الأفئدة الى صخور ، ويرد السائل الى جماد قد دهم فانتين وهى بين الخلة (٢) والقلة فزاد فى دينها وكساد حرفتها ، فسقطت عليها مطالب الغرماء سقوط القضاء ، وألح صاحب النزل قاتله الله فى طلب النفقة والتماس الزيادة فيها حتى زهدت فانتين فى حياتها وحبب اليها قرب يومها

وجاءها منه ذات يوم كتاب يذكر فيه أن ابنتها اصبحت عارية الجسد ، وأنها ان لم تتداركها بارسال أربعين قرشا لابتياع لباس لها ، فهى هالكة لا محالة . فوقع ذلك الكتاب فى نفس فانتين وأحزنها طول يومها ، ولما كان المساء انطلقت الى حانوت حلاق ، فوقفت أمامه ونزعت ذلك المشط الذى كان يمسك شعرها ، فانسدل على ظهرها وستر أردافها ، فصاح الحلاق : « لله ما أجمل ذلك الشعر ! » فقالت فانتين :

---

(١) درد الرجل ذهبت أسنانه ، فهو أدرد
(٢) بين الحاجة والجدب

« انظر كم تدفع من الثمن اذا بعتكه » قال : « أربعون قرشا » قالت : « عجل بقصه » فقام الرجل الى مقصه ، وأهوى به على شعرها وأعطاها الثمن فاشترت به لساعتها لباسا وبعثت به الى طفلتها . فساء ذلك صاحب النزل وأغضبه لانه كان يطمع فى الدراهم لا فى اللباس. فأعطاه الى احدى ابنتيه وبقيت كوزيت فى جلدها تقضقض من البرد وترتعد من الجليد ، كل ذلك وأمها تظن انها باتت تمرح فى ذلك الكساء الجديد ، ولا علم لها بما تقاسيه من ذلك الالم الشديد



وكانت فانتين كلما احست بألم فراق شعرها ، وجدت لذلك بعض العزاء لانها لم تفقد ذلك الشعر الا لتحفظ حياة تلك الطفلة

وتمر ساعات تذكر فيها حسن شعرها فينقبض صدرها ويمتلىء حقدا على ما يحيط بها ويمتد ذلك الحقد حتى يتناول (مادلين) ذلك الذى كانت تشاطر الناس محبته بالامس ، وقد أصبح اليوم من ابغض الناس لكثرة ماسمعت من انه هو الذى امر بابعادها ، وانه أصل شقائها وسبب بلائها

وكانت كلما مرت امام ذلك المصنع تكلفت السرور والابتسام وجعلت تغنى غناء رخي البال رضى الحال توهم بذلك اهل المصنع أنها اليوم أنعم بالا منها بالامس ، وما خفي عن أصحاب المصنع امرها فقد قالت احدى عجائز الاجيرات حين لمحت فانتين وهى على تلك الحال : « ويل لهذه الفتاة من سوء المصير »

وما زال الشقاء يجر على فانتين الشقاء حتى حدثت نفسها ان تتخذ لها عشيقا جديدا ، وقررت أن يكون أول من تلقاه فى طريقها كائنا من كان . فوقف نصيبها على موسيقار ، رقيق الحال غليظ القلب عاطل يتكفف ، وسائل يستكف لا يعرف

العشق ولا يفقه معنى المداعبة ، فطارحته فانتين حديث الغرام فلم تره يحن الى شيء من ذلك ، على انه ما لبث أن هجرها بعد أن ضربها ونهرها

فخلا فؤادها من كل حب الا حب طفلتها ، فكانت تراها فى ظلمة ذلك اليأس كنجمة تلمع فى سماء آمالها ، نقول « آمالها » لانها كانت تخلو بنفسها فتحدثها بتلك الآمال التى تلوح لها بوارقها فى جو الخيال

ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لاطاقت حمله ، ولكن صاحب النزل كان يزيد فى ألمها ويروعها كل يوم بطلب جديد

كتب لها أن ابنتها مريضة محمومة ، وانها ان لم تسارع بارسال قطعتين من الذهب لوقايتها وعلاجها فانه يخشى عليها عادية الموت . ولا تسل عما حل بها حين اخذ نظرها ذلك الكتاب فقد خرج بها من الالم عن حد الادراك ، فجعلت تضحك وتهذى ، وخرجت تطفر فى الطريق طفر الاطفال ، وتضحك ضحك الابله المعتوه وتقول لنفسها : « قطعتان من الذهب .. اللهم غفرانك .. ان هؤلاء القوم لا يعقلون ! .. »

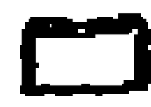
ولم تزل كذلك حتى وقفت على لفيف من الناس قد التفوا حول طبيب الاسنان يعرض عليهم أسرار صناعته وما يلتحق بعلاج الاسنان وتنقيتها ونزع المتآكل من الاضراس وغير ذلك . فاندست فانتين فى غمارهم وهى لا تزال على ذهولها تضحك ولا تعى ، فصاح الطبيب حين لمح لؤلؤ ثغرها : « أتبيعيننى ايتها الفتاة ثنيتيك بقطعتين من الذهب » قالت فانتين : « وما الثنيتان أيها الطبيب ؟ » قال : « هاتان اللؤلؤتان اللتان تلمعان بمقدم ثغرك» فصاحت فانتين : «غفرانك اللهم ان هـذا لهو الضلال المبين » ، وكانت بجوارها عجوز ورداء (١) تسمع كلام الطبيب فقالت تكلم نفسها : « قطعتان من العظم بقطعتين من

---

(١) سقطت أسنانها

الذهب ؟ لله ما أسعد تلك الفتاة ! » . على أن فانتين لم تكد تسمع كلام ذلك الطبيب حتى رجعت أدراجها وقد سترت لؤلؤ ثغرها بمرجان شفتيها ووضعت أصبعيها فى أذنها كيلا يصل كلامه الى سمعها ، وهو مع ذلك يصيح فى اثرها : « أيتها الحسناء تمهلى فى الامر واستوزعى فؤادك يلهمك القبول ، واعلمى انك لم تغبنى فيما عرضناه عليك من الثمن فاذا كان المساء فاغشينا بدارنا بمكان كذا » . فوقع كلامه فى أذنها برغم أصابعها وزاد فى نفورها ، فانطلقت حتى اذا بلغت دارها عطفت على جارتها العجوز ، وهى أشد ما تكون غيظا ، فأخبرتها خبر الطبيب وما كان منه ، وقالت : « لقد بعنا الشعر لانه يعود فينمو ، ولكن ماحيلتنا فى الاسنان ومفقودها كما تعلمين لايعود وهى حلية الثغر ونقطة دائرة الجمال » ، ثم غادرتها وانكفأت الى حجرتها ، وعكفت على خياطتها ولم تكد تستقر فى مكانها حتى ندرت الابرة من يمينها ، فقامت مسرعة الى ذلك الكتاب المشؤوم وأعادت قراءته ورجعت الى جارتها تسائلها عن معنى تلك الحمى ونتائجها ، فقالت لها : « انها مرض من الامراض يعترى الكبير والصغير وهو اليوم أكثر وقوعا فى الاطفال » فقالت فانتين : « وهل يجر هذا المرض الى القبر ؟ » فقالت : « نعم يجر الى القبر اذا تخلت عن المريض العناية » فخرجت فانتين من عندها وقرأت الكتاب مرة ثالثة ولبثت بقية يومها نهبا للهواجس . ولما توفى الليل النهار رآها بعضهم وقد أخذت طريقهـا الى دار ذلك الطبيب ، فانتزع اللؤلؤتين وحباها بالقطعتين . ودخلت جارتها فى صباح الغد مبكرة اليها فألفتها جالسة فوق سريرها وهى شاحبة اللون ، ساهية الطرف ، تنطق بوجهها آثار السهر ، ويدل تضعضع حالها على أثر نزاع قام بينها وبين ليل كان أطول من شعرها ، وأسود من حظها ، وعلى القرب منها شمعدان قد فنيت شمعته ، وخلفت جوانبه شباكا من دموع أسالها اللهيب وجمدها القر

وتقف جارتها أمام ذلك المنظر الذى يقطع نياط القلوب جزعا وتنادي : « ويلي عليك ايتها البائسة تشعلين الشمعة كلها فى ليلة واحدة فما عسى يكون قد نزل بك من الامر ، ومالى أراك كأنك قد انتفضت من كفن أو أفلت من ظلمة رمس ! » فالتفتت اليها فانتين وقد أهرمتها تلك الليلة الماضية ، فأخذت من سباتها وبلغت منها ما لم يبلغه كر الغداة ومر العشى عشرة أعوام كاملة ، فتقول لها : « ليس بى بحمد الله من شيء ، ومن هو أولى براحة البال منى ؟ قد أمكننى الله من انقاذ طفلتى من يد الموت بهذا الذهب » . وتنظر جارتها وهج الذهب بجانبها ، فتصيح « : اللهم انها ثروة ، فمن أين لك هذا ، وقد عهدتك بالامس لا تعرفين وجه الفضة ؟ » ، فتبتسم فانتين ابتسامة تنم عن لعاب دام قد لوث ركنى شفتيها وثغرة مظلمة فى وسط ذلك الثغر المضيء ، فتعلم جارتها كما علم القاريء أن تلك الثغرة المظلمة مكان تينك اللؤلؤتين



وانطلى خـداع صاحب النزل (برئت منه المروءة) على فانتين ، فوجهت اليه بطلبته ولم تكن طفلتها مريضة كما يرجف ، ولكنه شرك قد مده لاصطياد دراهمها حتى سلبها عسجد شـعرها ، ولؤلؤ ثغرها ، وأصبحت عطلا من الحلى والجمال ، فكسرت تلك المرآة التى كانت تجد فى النظر اليها بعض الهناء أيام صحبتها شعرها ، وتحولت عن قاعتها بالطبقة الثانية الى قاعة أخـرى بسطح المنزل قد أعـدت لسكنى البائسين ، وكانت ذات سقف مسنم يرتكز وجهاه على وجه الارض اذا دخل فيها ساكنها البائس انحنى تحت سقفها انحناءه تحت أثقال العيش وأعباء الحياة

ولم تكن تشتمل على غير خشبة قـد طرحت على الارض وخلقة (١) كانت تسميها غطاء ، وكرسى قد نزع تقادم العهد

(١) قطعة قماش بالية

احشاءه ، وجرة كنت ترى الماء فيها تارة سائلا واخرى جليدا ، وزهرية قد جف طينها وذبل زهرها ، وفتاة قد نزعت نقاب الحياء وعافت زينة النساء تخرج فى الطريق وعليها ثوب خلق رديم ممزق الاديم قـد أهملت رتق فتوقه ، واغفلت سـد خروقه . وما ادرى اكان ذلك لضيق فى وقتها ، أو لعدم اعتناء منها بأمرها ، وهى تنتعل حذاء قد كشر عن نابه ، تحت جورب قد نصل عن خضابه يحيط بخصرها نطاق بال مرقع ، يكاد اذا تنفست فيه يتقطع

وتنكفىء الى غرفتها وقد بضع الهم من فؤادها بضعة ، وعبست الخيبة فى وجه املها ، واشتد الامر وضاق ، وتقابلت حلقات الوثاق ، وسطا عليها سعالها سطو الجبار ، ولزمها ملازمة غرمائها بالليل والنهار ، فتقضى فحمة الظلام ، منفرة المنام سميرة الآلام ، حاضرة الدموع غائبة الهجوع ، وتفنى شمعة النهار بين وخز الابر ووكز الفكر وقد قدر عليها الله الرزق فأجراه لها من سم خياطها ، وهبطت أسعار الاجور فنزل اجرها فى اليوم من اثنى عشر صلديا الى تسعة فاستحال عليها امساك الرمق بهذا القدر اليسير . على أن طفلتها وحدها كانت تكلفها فوق ذلك ، ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لقلنا خطب يهون ، ولكن صاحب النزل قد خرج عن أفق الاعتدال فأرسل يطلب منها أربع قطع ذهبية ويقول لها فى كتابه : « لقد عنينا بأمر طفلتك وصبرنا منك على ما تعلمين فان لم تسارعى بارسال هذا القدر من المال نبذنا (كوزيت) بالعراء ، وطرحنا بها فى مساقط الفضاء ، فهى ان اخطأها برد الشتاء ، فليس يخطئها نازل البلاء ، ولقد ابلت اليوم من مرضها ، ولكنه ابلال يعقبه الموت ان فاتك فى أمرها الفوت »

فما الجرح ينكأ به الجرح بأوجع فى نفس الجريح من ذلك الكتاب فى نفس فانتين ، فانها قالت بعد تلاوته : « اللهم انك تعلم اننى بعت الشعر والاسنان بيعة وكس ، وصبرت حتى

ملنى الصبر ، وقد كانت لى صبابة عيش تكفينى السؤال فما زالت ترتشف منها الحاجات حتى أنضبتها ، اللهم لم يبق الا العرض ، وقد أمست تساومنى فيه الايام ، فلا راد لقضائك ، ولا مذهب من ورائك » .. !



أبى قدر الله الا أن تمزق الفاقة ثوب ذلك العفاف وان لا تركب فاتنين غير سبيل الخسارة ، فابتذلت خدرها ، وباعت عرضها ، وعرض منها البؤس على هذا المجتمع الانسانى أمة فاشتراها . عرضها عليه فى سوق الألم فابتاعها بكسرة من الزاد ، وكان فيها من الزاهدين ، فأف لتلك المدنية غلبت الناس على أمرهم ، وزادت فى أسرهم . نفس حرة تباع بكسرة ، وعرض مغبون فيه يتساومون ، ولا زلنا نسمع على هذه المدنية آيات المدح والثناء ، وتطن فى آذاننا أصوات المرجفين فى أنحاء البلاد ، برفع الرق والاستعباد ، عن رقاب العباد . أين كتاب السيد المسيح وأين ما جاء فيه من الحكم الصريح ؟ . طليتم وجه مدنيتكم بطلاء من كلماته ، وأفرغتم فؤادها من حكمه وعظاته ، فتناول حكمه منكم الظواهر ، ووقف عن تناول ما فى السرائر .. أوهمتم الناس بانطواء أجل الرق ، وفاتكم انه وان خف حمله عن أعناق الرجال ، فقد باتت تنوء بثقله أعناق النساء

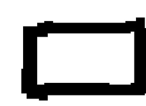
تملق المراة فتجوع وتعرى ، فتركن الى الصبر والتجمل فيضيق عن ذلك ضعفها ، فتفزع الى السعى وراء الرزق من أشرف وجوهه فيقعد بها الدهر ، فتبيع الناس نفسها ، فيتنافسون فى المساومة ، حتى اذا ظفروا بامتلاك تلك النفس المعروضة فى سوق الشقاء ، سجلوا عليها فعلتها تلك فى باب الزناء ، وتغاضوا عن تسجيلها فى باب الرق وهو بها أحق وهى به ألصق

ويل للمراة من الرجل يسترقها . وما يدريه ما المراة .

هى وعاء النســـل وظرف الحمل ، هى زينة الحيـــاة ، وزهرة الجناة ، هى بيت الجمال وموطن الدلال . هى مسكن الضعف ومهبط العطف ، فبالله ما أكثر مخازى الرجال

ذلك مثل فانتين فى ابتذالها لخدرها بعد أن نزلت من المكروه منزلة ينقطع العقل عن تقديرها ويجمد الذهن عن تصويرها ، وبعد أن أنذرها الدهر بالانسلاخ عن هيئة العالم وأنذرها العالم بالخروج عن دائرة الوجود ، فتسكعت فى الضلالة وتبسطت على الاثم ، وتمرغت فى حمأة الغى ، فخــوى هيكلها من روح الشعور ، وكتب اليأس على لوح صــدرها المثلوج قول ذلك الحكيم : « لا رغبة ولا رهبة » ، فأصبحت لا تخشى نازلا ، وأمست لا ترجــو نائلا ، وباتت لا تبالى لأنها ما انتفعت بأن تبالى

مر بها زمن وهى تصابر القضاء ، وتنازع الشقاء ، وتعانق الخطوب وتصافح الكروب ، وتصــبر على ذلك صبرا ، كان أشبه بعدم المبالاة من الحمام بالمنام ، فلم تنتفع بصبرها ، ولم تخرج من عسرها ، فما عساها تحذر اليوم وهى كالاسفنجة سكن الماء أحشاءها وغمر انحاءها سيان أن طاف بها المحيط أو سقط عليها الندى



توجد بعامة القرى الصغيرة ، وخاصة القرية التى تسكنها اليــوم (فانتين) طبقة من نشء الشـــبان العاطلين الــذين يعيشون من وراء دخلهم الســنوى ، وان أحدهم ليظهر بين أهل القرية بمظهر من الترف والنعيم لن يبلغه ساكن باريز ، أو ينفق أضعاف ما ينفق ذلك القروى ، وقد جمعت هــذه الطبقة فى قريتنا تلك من أمثال هــؤلاء العاطلين عــددا كبيرا فتراهم يجلسون فى صدور المجــالس ، وقــد نفخ شيطان العظمة فى معاطسهم ، فجعلوا يتفاخرون بما ملكت أيمانهم :

فمن تياه بكثرة رجاله ، ومن مدل بوفرة ماله ، ومن معجب بحسن سمعته وهندامه ، ومن مولع بالتفنن فى أساليب كلامه ، يتحرش أحدهم برجال الشرطة فيحفظهم بتعنته حتى يجر الأمر الى المشاجرة ، فيقال فلان لا يعبأ برجال الحكومة ، وينطلق الآخر الى التصيد والاقتناص كى ينوه بذكره فيقال انطلق النبيل الى الصيد ، ومنهم من يتورن (١) ويتزين فهو اين خطر تأرج المكان بعطره واشتغل الناس بذكره ، ومنهم مدمن الخمر ومدمن الجلوس فى الاندية حيث يفد السائحون

نعم وفيهم المتغالى فى التقليد ، والمولع بالجديد ، والذى لا يرى نفسه ظريفا الا اذا قاد خلفه كلبا وازدرى بنوع النساء ، فتأنق فى التعريض بهن واستهتر فى تقريعهن

وكان الظرفاء فى هذا العهد يغالون فى البزة ويتأنقون فى الزى ، وشارتهم يومئذ أردية زيتونية اللون مفضضة الأزرار، واحذية تحيط بأعقابها أهلة من الحديد وبكل منها مهماز للجواد شأن الفرسان وعلى رؤوسهم قبعات عالية البنيان كزة الأطراف ، فوق شعر جعد كثيف ، وبأيديهم عصى غليظة كأنها الجذوع ، دع الشوارب الطوال ، والزيق المرتفع ، ومنديل الرقبة المرسل على الصدر

أذكر من بين تلك الطبقة المفتونة شابا لم ينظر مدى عمره سماء باريز ولم يبرح دهره أرض تلك القرية . نشأ بين افراد تلك الطبقة ففعل شرواهم وذهب مذاهبهم ، وكان مثله كمثلهم : دخل قليل وعقل يسير ، وسفه يوازنهما ، ونزق يعادلهما

اتفق أن وقف ذلك المغرور ذات ليلة أمام أحد الأندية وفى فمه لفيفة من الطباق ، وقد انتشرت على وجه الأرض طبقة من البرد

(١) تورن أى تعطر فاسرف فى التعطر

وتمر أمامه فانتين وهي عارية الأكتاف ، وعليها ثوب قصير تتجمل به النساء فى المراقص ، وكانت تلك عادتها منذ نصف عام

تعتمد الليل وتركب فى ذلك الطريق ، فتقبل فيه وتدبر بعض ساعة كأنها حرس يحفظ السبيل ، أو جندى أذنب فكان عقابه السير فوق ذلك الجليد جيئة وذهابا ، ويعتمد ذلك المغرور كلما مرت أمامه اغاظتها ويتحرى اهانتها فيعبس وجهها بكسفة من دخان لفيفته ويرسل عليها شواظا من الاهانة والسباب فيقول : « ما أبشع هذا الوجه وما أخلق حامل ذلك الثغر الادرد بالانزواء عن أعين الناس » وتسمع فانتين ما يقول وكأنها لا تسمع فتنطلق فى طريقها وتواصل سيرها فيه اقبالا وادبارا ، وهو فى مكانه يقطر غيظا

ويحركه ذات مرة سكونها ، فينطلق خلفها انطلاق الذئب خلف الفريسة ، وهو يغت من ضحك المغيظ ويدانيها ، فيهوى بيده الى الأرض ، فيقبض قبضة من البرد وينقض عليها فيدسه بين ثوبها وظهرها ، وينتشر البرد من ملتقى الكتفين الى مستدق الصلب ، فتزأر فانتين زئير اللبوة ، وتنفتل انفتال النمر ، وتنشب اظافرها فى وجهه ، وهى تصيح من فرط الألم بصوت قد صحله ادمان الخمر وابحه الحزن ، ويفزع الناس لجهة الصوت فرادى وثنى ، فيرون رجلا عارى الراس يضطرب فى يد امراة مسلوبة الشعر والشعور ، والرجل يحرص على الانفلات والمراة تحرص على امساكه ، وقد رنحته لطما ولكما وأتحفته بأنواع السباب والشتائم ، فلم تبق فى اللغة كلمة تشير الى بذاءة أو لفظة تدل على لعنة الا ورمته بها من ذلك الثغر الادرد

ويقف الناس حولهما صفوفا وهم بين ضاحك وصارخ ومصفق بيديه ، وكلهم يتساءلون عن مثار تلك المعركة القائمة ، ويبرز من تلك الصفوف رجل طويل القامة ، فيجذب المراة من

نطاقها ، ويصيح بها : « انطلقى على أثرى » . وترفع فانتين عينيها وترى شخص (جافير) فيخفت صوتها وتصفر أحداقها وتتزايل أعضاؤها وتمشى خلفه بين الذلة والانكسار ، وينتهز الشاب تلك النهزة فيختفى وينقضى ذلك المشهد

سار جافير يخترق الصفوف وعلى أثره فانتين وأخذ سمته الى مخفر الشرطة ، فلما بلغه أمر بالباب ففتح وبالشمعة فأوقدت وانتزع من جيبه ورقة وأنشأ فيها يسطر ، وانزوت فانتين فى أحد الاركان كالكلبة راعها مروع ، ووقف حول المخفر بعض المولعين بحب الاطلاع ممن شهدوا الحادثة وجعلوا يشرئبون بأعناقهم من وراء النافذة رجاء أن يلموا بجانب الامر

وكانت شريعة ذلك العهد تقضى بوضع تلك الطبقة من النساء تحت التصرف المطلق لرجال الشرطة ، فهم يلعبون بهن ما شاء الهوى ، ويصادرونهن فى حرفتهن المنكودة وحريتهن الموهومة

فأكب جافير على الكتابة وهو أشد ما يكون غيظا ، وما نسى القارىء ما كان من وصف أخلاق ذلك الرجل الذى ما نم قط ظاهره على باطنه ولا وجد التأثر الى نفسه سبيلا ، ولكنه قد غلب فى هذه الفترة على أمره فلاحت بوجهه ملامح الانفعال فأجمع كيده ومثل أمامه مدى سلطته ، ونفث فى يراعه سم غيظه ، فكان يكتب وحنقه فى عنفوان شبابه وجرم تلك البغى يتجسم أمام عينيه ، حتى اذا فرغ من كتابته وتوقيعه نادى بثلاثة من الشرطة وأمرهم أن يقودوا فانتين الى السجن ، وقال لها : « ستلبثين هناك ستة أشهر »

فارتعدت فرائصها وهمت بالنهوض فخانها العزم فترامت تزحف بجسمها على بلاط قد طلته نعال الشرطة بطلاء من الوحل ، وجعلت تضرع اليه وتستدر رحمته وتقول : « ستة أشهر ؟ اللهم غفرا . ان فى ذلك لهلاكا لطفلة ليس لها سواى من عائل ، فاتق الله فى ضعفى وراقبه فى حياة تلك الطفلة ، ولو انك ألمت بمبدأ الامر لتضاءل فى عينيك منتهاه ، فاصرف نظرك

تلقاء ظلامتي فان كنت قد أجرمت بعدها فعلى اجرامى ، وانى لاستعدى بك على ذلك الشاب الذى وترنى على غير معرفة منى به . لحنى أسبهل (١) فى الطريق فجعل يتحرش بى وأنا اصابره حتى اذا أعياه الامر عمد الى قبضة من البرد فدسها بين ثوبى وظهرى على غفلة منى ، فوجدت لذلك الما أخرجنى عن حد الرشد ، ففعلت به ما فعلت ، وأنا بمنزلة بين الالم والذهول ـ وما ظنك أيها الحاكم العادل بامرأة مريضة يباغتها مباغت بمثل ذلك الاذى تحت هذا الليل فى هذا الشتاء ؟ اتراها كانت تحلم أم تطيش ؟ فان كان بعض الطيش قد أدركنى ، فانما وقع ذلك لفرط الالم ، وضعف التحمل

« الا شاهد ممن وقفوا على الحقيقة يأتى فيظهر براءتى ؟ . الا يعود ذلك الشاب الذى اختفى ، فأعتذر اليه من فعلى ، وان كان هو البادى بالاساءة ؟ . . الا منقذ لى من هذا السجن الذى سيجر الى طرد طفلتى من النزل ، فتموت تحت العراء ؟ فيا ليت شعرى كيف أغذوها ، وأنا لا أكسب فى السجن نصف ما قرره أصحاب النزل لقوتها ؟ فلك الله أيتها الطفلة المنكودة ولى الله من بائسة نزل بها العسر الى تلك المنزلة من الحياة . فوالله ما كان هذا الفحش من أمرى ، ولكن هى الحاجة ترمى بصاحبها الى مرامى الهلاك ، فلا تفرط علينا وكن من الراحمين »

تقول ذلك بصوت حنقه البكاء وأنفاس قطعها الشهيق . كأنها محتضر قد أخذه النزع ، وهى عارية العنق مفتولة اليدين وقد أشرق محياها اشراقا ظهرت معه فى أعلى مجالى الجمال . ولا بدع فان الآلام اذا بلغت مداها انبعث من اثنائها نور سماوى وانبسط على وجوه أصحابها فبدلها تبديلا

ولما فرغت من ضراعتها تماسكت حتى أمكنها النهوض ، ثم

---

(١) اسبهل أى أقبل وأدبر فى الطريق لغير شيء وهو ما يسميه العامة « ضرب بلطة »

دنت منه فقبلت طرف ردائه . ولو أنها ضرعت كذلك الى رجل قد قد من حجر الصوان قلبه ذاب لها رأفة ، ولكنها قد صادفت رجلا بلا قلب ، فهو لا يعطفه التوسل ، ولا ينال منه التذلل

أو تدرى أيها القارىء ماذا كان جوابه لها بعد الذى سطرناه تحت نظرك ؟ كان جوابه أن قال لها : « لقد وعيت حديثك فانطلقى الى السجن فبه حكمت عليك ، وقد استحال غير ما حكمت ، فلو أن ذلك الديان يتجلى اليوم لفصل القضاء لما قضى عليك بغير ما قضيت »

قال ذلك ثم ولاها ظهره فجمدت فى مكانها وتحرك الجند وانهم ليهمون بجرها وما تصل أيديهم اليها ، اذ وثب من جانب المخفر الايمن رجل ملثم فحسر عن لثامه وصاح بهم : « مكانكم أيها الجند ! » فمد جافير بصره فاذا به يرى مادلين ، فحياه تحية الكاره لرؤيته وقال بصوت الكاظم لغيظه : « عفوا سيدى الشيخ » . وما وقعت تلك الكلمة فى سمع فانتين حتى انتفضت فى مكانها فدفعت عنها الجند مهرولة الى مادلين ، ولما تبينت وجهه صاحت به وهى تغرق فى الضحك : « أهذا هو أنت ؟ » ثم بصقت فى وجهه وانقلبت الى مكانها ، فمسح مادلين وجهه وقال لجافير : « خل أيها المفتش سبيل هذه المرأة »

كل ذلك يجرى وجافير ينظر وهو متهم لنظره ويسمع وهو مكذب لسمعه ، وقد قرعت نفسه قارعتان ذهبت أولاهما بصوابه وفلت الاخرى غرب ارادته ، فلبث فى مكانه برهة أعوزه فيها النطق وافترست طائر حلمه الدهشة والذهول — نظر امرأة تبصق فى وجه شيخ جليل والمرأة من البغايا والرجل من أولى الامر فاتهم للوهلة الاولى نظره وشهد بعد ذلك الرجل يمسح وجهه وهو أروح ما يكون بالا ، ويأمر باخلاء سبيل تلك المرأة فلم يصدق سمعه

ولم تكن فانتين أقل ذهولا منه ، فانها لم تكد تسمع قول

مادلين حتى دنت الى البـاب وجعلت تعـالج فتحه وتتهيأ للخروج ، وهى تقول كمن يكلم نفسـه :

ـ أيسرحوننى فلا أسجن؟ومن ذا الذى يستطيع ذلك ولقد سمعت بأذنى الامر بالسجن ، ووعيت ما سمعت ؟ فلئن كنت قد طرق سمعى بعده أمر بالافراج فقد كذبتنى الأذن ، اللهم الا اذا كان جافير هو الآمر ، أما ذلك الشيخ المريب فليس له من الامر شيء ، وما أدرى ما الذى حداه الى الحضور ، أو ما كفاه طردى من مصنعه وخروجى عن أفق العفة والصيانة وهبوطى الى تلك المنزلة ؟ ولقد كنت أعمل فى مصنعه ، فأصيب رزقى بين العفة والكفاف ، فأبى الا أن يكون أداة للسعاية بى ، فأخرجنى حين لا موئل ولا وجـه للرزق ، وحملنى بظلمه على ركوب تلك الطريق . ويعلم الله أنى ركبتها وأنا كارهة لركوبها ، ولكنها سبيل مضطر عديم ، ولولا ما حملنى أصحاب النزل من الديون واشتطاطهم فى طلب النفقة لتلك الطفلة ، وكساد الحرفة التى ازاولها ، لتماسكت وأن زعزنى الدهر ، وبالغت فى تطفيف قوتى الايام والليالى

ويسمع مادلين شكواها فيضرب بيده الى جيبه وينتزع منه كيسه ، ويجده خاليا ، فيرده الى مكانه ويقول لها : « خبرينى كم مبلغ ديونك أيتها الفتاة ؟ » فتقول له : « اليك عنى أيهـا الرجل فلست بمحدثة معك ذكرا » ثم تلتفت الى جافير فتحاسنه فى الخطاب ، وتنتقص أمامه من قدر مادلين ، وتشرح له سوء مغبتها أن هو أصر على حكمه وتستنزل عفوه ، وتعوذ به من عقابه ، وتنتهى بقولها : « ولا أحسبك بعد الذى عرفت من أمرى الا غافرا زلتى متجاوزا عن خطيئتى » ثم تولى الى الباب وتضع يدها على غلقه

وتوقظ تلك الحركة جافير فيعود الى نفسه ويخرج من جمود كان فى أثنائه كالصنم ، ويصيح بالجند بصوت تمازجه نغمة القادر : « يا ويلكم ! أتفلت هذه الفاجرة من أيديكم وأنتم

لا تشعرون ؟ ومن ذا الذى أمركم بتسريحها بعد ان امرتكم بسجنها ؟ يا ويلكم ! ردوها فلتقضين فى السجن أيامها رغم المعارضين ! »

وكان مادلين مصغيا كل الاصغاء لما دار بينهما من الحديث ، فالتفت الى جافير ، وقال له : « اعلم أيها المفتش انى انا الذى آمر بتسريح هذه المرأة ، فلا سبيل لك عليها منذ الساعة ، فانى مررت بمكان الحادثة بعد انصرافكم ، وتسقطت الخبر فأخبرنى بعض من شهد المبدأ والنهاية أن ذلك الفتى هو البادىء بالاساءة ، ولولا تهاون الشرطة لكان هو الحقيق بموقف هذه الفتاة »

فقال جافير وهو يتكلف الكظم لغيظه ويغالب اضطراب نفسه : « أن تسريحها ليدخل فى باب الاستحالة ، فانها اهانت فتى شريفا وآذت شيخا جليلا ، فلئن كانت قد اعذرت فى الاولى فما عسى يكون عذرها فى الثانية ؟ »

قال مادلين : « اما عن الاولى فقد صدقتك الخبر ، واما عن الثانية ، فان الامر لمختص بى ، والعقاب متعلق بارادتى ، فاما عفوا بعد واما جزاء ! »

قال جافير : « عفوا ياسيدى ان الامر لايقتصر على شخصك، ولكنه يتناول العدل كله ، وبمثل هذا العمل واشباهه ينكس العدل راسه ويخترم سياج الشريعة »

قال مادلين : « اعلم ان العدل نوعان : عدل يجرى به الوجدان ، وعدل تجرى به الشريعة . ومن كان صادق الوجدان ، كان خليقا بالتوفيق الى سبيل الحق . ولقد وفقنى الله الى استبطان أمر هذه الفتاة ، والهمنى الوجدان براءتها ، فلا يستطردن بك جواد العناد فى سبيل ايذائها ، فانك لن تنالها بسوء وانا من الشاهدين »

قال : « انى لارانى غير قادر على فهم ما أسمع وما ارى » !

قال : « فلتكن قادرا على الخضوع والتسليم » .. !

قال : « انى لاخضع للواجب وهو يدفعنى الى وجوب الاصرار على سجن هذه الفتاة ستة أشهر » !

قال : « بل يدفعك الى اخلاء سبيلها ، فلا تسجن يوما واحداً »

قال جافير : « أما وقد وقفت بى عند حد اليأس من اقناعك ، فانى لا أرى بدا من الانحراف عن صراط الطاعة ، ولا يكبرن عليك أمر مخالفتى اياك ، فانى لامادك حبل المقاومة فى شأن هذه البغى ، وما وقع لى قبل اليوم أن أقاوم مشيئة الرئيس . ولكن المامى بواقعة الحال وتثبتى من الامر ودخول الحادثة فى دائرة اختصاص الشرطة التى أنا كبيرها ، كل أولئك يدفعنى الى سجن هذه الفتاة » !

وما كاد ينتهى من قولته حتى تقطب وجه مادلين بعد ذلك الانبساط وهبت من شمائله روائح السلطة فقال له بصوت سبقته الى مخارجه الخشونة وامتزجت بأجزائه الحدة : « لقد اسمعتنى أن الحادثة تدخل فى دائرة اختصاص الشرطة التى انت كبيرها . وأسمعك الساعة أن المادة التاسعة وأخواتها الحادية عشرة والخامسة عشرة والسادسة بعد الستين من قانون العقوبات ، تقضى بأن أكون القاضى المطلق . فبناء على صريح تلك المواد أحكم ببراءة فانتين وآمر بتسريحها

« وازيدك بى علما واذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ فهون على نفسك وابرح هذا المكان فحسبك ما سمعت »

فاستقبل جافير هذه الضربة الاخيرة بصدر رحيب كما يستقبل الباسل من الجنود اسنة الرماح وانحنى حتى كاد يقابل الارض بوجهه ، وخرج وما ينظر مابين يديه غما . ومر (بفانتين) فالتصقت بعضادة الباب لتخلى له السبيل، ولبثت فى مكانها ، كأنها بعض الانصاب ، وذهلت وحق لها أن تذهل لمنظر تلك المعركة التى قامت بين رجلين علقت بأذيال الاول

نجاتها وكمن تحت رداء الثاني هلاكها ، هذا يصعد بها الى مراقى الهناء ، وذلك ينزل بها الى درك الشقاء وهى بينهما كالأكرة اذا قذف بها الثانى الى ظلمة اليأس ، ردها الاول الى نور الامل . كأن احدهما ملك يكلأها ، وثانيهما شيطان يحاول أن يتخبطها بمس منه . وقد أنزل الله النصر على الملك فكان من الظافرين

وعجيب أن يكون هذا الملك هو ذلك الشيخ الذى استرسلت فانتين فى كراهته وظنته أصل شقائها ، وسبب بلائها . على انها ما لبثت بعد الذى قد رأته من محاسنته لها وعطفه عليها وتحريه سرورها بتسريحها ووقوفه فى وجه جافير تلك الوقفة التى قطعت على ارادته السبيل أن اخذت تحاسب نفسها وتقول : « لى الويل لشد ماكنت انفر من ذلك الرجل ، وأحمل ضب الضغن وأعزو الى فعله سوء ما وصل اليه امرى من الفحش والتبذل ولقد وترته الساعة وترة يضيق عنها الحلم فصفح وهو قادر على غير الصفح ، ولم يفتر نشاطه عن الذود عنى والمناضلة دونى . فلا احسبنى بعد ذلك الا واهمه فى امره جاهله مقدار خطره ، او ليس الذى قد غلب جافير على امره بقادر على أن يحول بلفظ منه بينى وبين الهناء ، فأموت فى السجن حزينة ، وتموت بموتى تلك الطفلة اليتيمة ؟ اللهم ان هذا هو الخلق الكريم وتلك هى النفس الزكية ! »

كذلك كانت تحاسب نفسها وحقدها يتحلل فى صدرها ووجدها يستل من قرارة نفسها ذلك النفور الذى سكن فيها ، حتى اصبح النفور ميلا والبغض حبا ، وحتى أدركتها الندامة على سالف فعلها وسوء ظنها بذلك الشيخ الجليل ، فكاد يأتى على نفسها الخجل والحياء



ولما برح جافير موقفه الحرج التفت مادلين الى فانتين وقال

لها وهو يغيض من عبرته ، ويخفي من حسرته : « لقد وعيت ما تقولين وما كنت أعلم شيئا من أمرك ، فما منعك أن تنفضى الينا جملة حالك يوم أنذروك بالخروج من المصنع ؟ . ولو فعلت لانصفناك . ولكن أبى الله الا ان يجرى القدر بما شاء ، فأنت منذ اليوم مكفية المؤونة بى ، فانى كافلك وجامع بينك وبين طفلتك ورادك الى طاعة الله بحفاظك على عرضـك ، وموف ديونك وبالغ بك أقصى ما تودين من العيش فلا تبخعى (١) نفسك أسفا على أثر ماضيك ، فان صح ما تقولين ولا أخالك الا صادقة فيه ، فانك لم تخدشي وجه العفاف ، ولم تعقى الفضيلة ، وما كنت امام ذلك المطلع على الافئـدة الا طاهرة الذيل عفيفة الازار »

وما انتهى مادلين من قولته حتى تمثل لها مستقبل حياتها، فرأت جنة يميس فيها النعيم وتجـرى من تحتها أنهـار السعادة ، ورأت نفسها وسط تلك الجنة تتبوأ مقاعد العفاف، وتتكىء على أرائك الصيانة وبجانبها طفلتها الوحيدة

وتزاحمت على نفسها جيوش الامانى فخرج بهـا السرور عن حد الادراك وترامت على يد مادلين تقبلها ، ثم غابت عن الوجود فأمر بها مادلين ، فحملت الى دار المرضى التى أقامها بجوار داره . فأنيمت فيها ، وأوصى بالعناية بهـا وانصرف الى عمله

وكانت الحمى تتمشى فى عظام تلك المغبونة فى نفسـها فمر بها قطع من الليل وهى تهذى وتصيح ، ثم أخذها النوم فنامت حتى اظهر (٢) النهار او كاد ، وشعرت عنـد يقظتها كأنها تسمع بجانب سريرها ترديد انفاس ، فكشفت جانب الستار، فاذا هى ترى مادلين باسطا ذراعيه شاخصا ببصره كالراهب المتبتل يضرع الى شيء فوق رأسه ، فأرسلت بصرها حيث

---

(١) أى لا تهلكى نفسك

(٢) أظهر النهار اذا كان وقت الظهـيرة

يرسل بصره ، فعلمت أنه يضرع الى صليب كان معلقا بأعلى الحائط فأكبرت رؤيته ، وظهر لها فى هذا الموقف ، كأنه هيكل من النور عليه حلة من التقى. فكرهت أن تقطع عليه صلاته وأمسكت برهة ، ثم قالت له بصوت يكاد يخفيه الحياء : « ما الذى يصنع سيدى هناك ؟ » فأجابها وهو يومىء الى الصليب : « جئت أصلى لذلك الشهيد فى السماء » . ولو انصف لقال : « لتلك الشهيدة فى الارض »

وكان مادلين منذ الليلة الغابرة لا ينفك عن تعهدهاوالسؤال عنها فما يستقر فى حجرته الا ريثما يعود لتنسم أخبارها فبات بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ، ولا ينصرم عمرها ، وانتابته الهواجس فما احتواه مضجع ولا التقى له جفن بجفن



وننتقل بالقارىء من حجرة مادلين الى حجرة جافير ،فيرى رجلا قد اقامه الحقد ، واقعده الحرد (١) ، يكاد ينشق غيظا ويقطر غضبا على أثر تلك الضربة التى تلقاها بصدره الرحيب فى مخفر الشرطة ، ويراه وهو ينفث نفثة المصدور ، ويململ تململ الموتور قد أمسك يراعا وانشأ يسطر كل ما املتعليه الموجدة واوحى اليه الضغن

وفى صباح تلك الليلة بكر جافير الى صندوق البريد ، فوضع فيه بيده ذلك الكتاب الذى سطره بحجرته ، وعنون غلافه الى كبير الشرطة بباريس

وما قرأ هذا العنوان قارىء وكان ممن يعرفون جافير وكيتابته ، الا تنبأ أن الكتاب لا يشتمل على غير التماس الاقالة على أثر حادثة الامس

ولما استنار مادلين دفائن (فانتين) وعلم بحقيقة أمرها ، والم بأطراف تلك المؤامرة التى كانت سببا فى خروجها من

---

(١) الغضب الشديد

المصنع ونزولها الى تلك المنزلة من الحيـاة ، سارع بارسال كتاب الى أصحاب النزل يطلب فيـه أشـخاص (كوزيت) ووجه اليهم بقـدر من المـال يبلغ مثلى ما كانوا يطالبونهـا وانذرهم بمرض الوالدة ولزوم المسارعة باحضار الولد



وسقط هذا الكتاب على صاحب النزل سقوط النـدى ، فقال لزوجه وهو يتهلل فرحا :

« لقد در ضرع تلك البقرة العجفاء (يعنى فانتين) ، واكبر ظنى انها ترتع اليوم فى ربيع عشق جديد فمن العجز تسريح هذه الفرصة ، وما لنا لا نمسك الطفلة حتى نحتلب رسـل ذلك الضرع . وهـذا كتاب عاشقها الجديد ينطق عن ولع ويخبر عن كرم . وانى لاتنسم منه ريح الاصرار ، وارى بين سطوره جداول يجرى فيهـا الكسب وتسيل السـعادة ، فاحرصى منذ اليوم على تلك القنبرة ، واحذرى أن تطير فان فى امساكها اطلاقا لارزاقنا » ، ثم قام الى دفتر ، فزور فيـه كل ما زعم انه انفقه على (كوزيت) من أجر الطبيب ، وثمن الدواء ، وما زال يرصد الخبيث من أرقام الحساب ما يملى عليه الطمع ، حتى نيف مجموع ما سطر على مبلغ ما ارسل مادلين

وفى اليوم التالى وجه مادلين الى أصحاب النزل بمبلغ آخر وطلب اليهم المسارعة بارسال الطفلة فقال الرجل لزوجه : « الم انبئك بما سيكون من أمرهم ، اذا نحن احسنا حفـظ هذا الكنز الثمين ، فانظرى كيف لم يجد له عزما على الانتظار فثنى بارسال النقود قبل ان نجيبه على كتابه ، فلنمسـكن الطفلة حتى حين » !

وكانت فانتين لا تزال على فراش المرض ينطفىء سراج حياتها شيئا فشيئا ، ويدنو منها الموت يوما يوما ، وقداثارت

تلك القبضة من البرد دفين دائها القديم ، ففتك السعال بصدرها فتكا كاد يهدم جدرانه ، ولولا تعلقها برؤية طفلتها للقيت ربها منذ حين

وما خفى على الطبيب أمرها ، فانه انذر مادلين بقرب اجلها وقال له : « انى اراها هامة اليوم أو غد ، فان كان لها ولد ، فلا تحولوا بينهما وعجلوا باستدعائه ان كان من الغائبين ، فانكم لا تفرغون من ذلك حتى تفرغ من نفسها »

فجزع مادلين جزعا شديدا ، واشفق أن تموت الوالدة ، قبل أن ترى الولد ، فقام لساعته الى ورقة وكتب فيها الى اصحاب النزل عن لسان فانتين يقول :

« اذا أتاكم رسولى حامل هذا ، فادفعوا اليه (كوزيت) وهو يدفع لكم تلك الديون التى تزعمون مطالبتى بها »

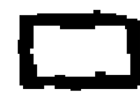
وارتأى أن يكون هو الرسول الى أصحاب النزل فوضع الكتاب فى جيبه وصحت عزيمته على السفر . فبكر من غده الى دار حكمه ، وجلس لانجاز شغله واراد أن لا يترك وراءه من خدمة الحكومة ما يشغله عن خدمة فانتين فتسلف الاعمال ، وانجز فى يومه ما يطالبه به الغد

وانه ليتصفح الاوراق وينظر فى الشؤون اذ جرت جوار بالنحوس ، وعدت عواد بالشرور ، ووقع فى حساب القدر مالم يقع فى حساب مادلين ، فقيل له ان جافير بالباب يطلب الاذن بالدخول . فوالله ما لفظ أمامه هذا الاسم حتى مرت به خلجة من الشك تمازجها نزوة من الالم فتطير ، وتضعضعت حاله وكاد يعجز عن المداراة ، ولكنه رد النفس على مكروهها فاستقرت ، واذن لجافير بالدخول ، وكان اذ ذاك جالسا بقرب المدفأة ينظر فى أوراق محاضر المخالفات ويعلق عليها ما شاء تعليقه

ودخل جافير فوقف وسلم سلام الخاشع المستكين ، ولبث واقفا وراء ظهر مادلين صامت اللسان ساكن الشخص

ينتظر الاذن بالكلام .. كل ذلك ومادلين لم يرفع بصره ، ولم يحرك جسمه كأنه لايشعر بوجود ذلك الواقف

ولو أن أحد أولئك الذين أوتوا علم السحنة يأتى الساعة وينظر الى جافير وهو راسخ فى مكانه،وكان يكون من المخالطين له ، والواقفين على أسرار طبائعه ، والعالمين بتقلبات هـذا المخلوق الذى بينا نراه فى لباس الجندى المحارب ، اذ هو فى ثياب الزاهد الراهب ، لركن عند رؤيته ، وتفرس فى مخائل سحنته أن هذا الجاسوس الصادق والناقل الامين ، قد نزل به نازل وحالت بينه وبين نفسه حوائل ، وقال لامر ما وقف عدو مادلين أمامه وقفة المستسلم المستكين ، وعهدى به يتحين له الفرصة ويتمنى الغصة



وفى الواقع كانت سحنة جافير تنم عما فى ضميره فما مر بخلجان قلبه شيء ولا سرى بقرارة نفسه وسواس ، الا وشفت عنه سحنته كما يشف الزجاج عن الماء

قلنا أنه دخل على مادلين فسلم منحنيا ووقف محتشما وما زال واقفا خلفه موقف الجندى فى صفوف النظام لاتنبعث له جارحة ولا تطرف عين ، وقد فارقت محاجره تلك النفرة وانجابت عنها ظلمة الشك ، فامتزج بأشعة بصره نور الاخلاص وجال فى محياه ماء الخشوع ، ونطقت ملامح وجهه عن صبر لم تشبه مرارة ، وسكون لم تعره كلفة ، حتى التفت اليـه مادلين فرأى رجلا تبدو عليه سيما الانكسار ، وتقرأ فى عينيه آية الحزن ، قد احتشم احتشام الجندى أمام القائد ، والمجرم بين يدى القاضى ، فقال له : « ماخطبك أيها المفتش ؟ »

فلبث جافير برهة وهو صامت كأنه يدعو اليه حصاته ، ثم اندفع قائلا بصوت تسمع فيه رنة من الحزن تشوبها عزة من الشمم :

« جئت انهى الى سيدى خبر جريمة قد وقعت منذ اليوم »
قال مادلين : « وما عسى أن تكون تلك الجريمة ؟»

قال : « ان أحد عمال الحكومة الادنياء قد رمى بعض سراة القضاة فى شرفه ، وطعن عليه فى سمعته ، فدفعنى الواجب الى رفع الامر اليك» . قال : «أتعلم من هما ..؟»

قال : «ما أعلمنى بهما . أما المقترف فأنا ، وأما المقترف عليه فأنت»

وما وقع فى سمع مادلين الخبر حتى وقع فى نفسه شيء من الضجر ، فتململ فى مكانه ، واندفع جافير فى حديثه فقال :

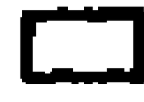
ـ انى لاطلب اليك رفع أمرى الى الحكومة لانال من عقابها مايكفر عن خطيئتى ، ولا تعجبن لعدم التماسى الاقالة ، فاننى ان فعلت ذلك خرجت خروجا . ولا يلحقنى معه العار . ولكننى خليق بأن أنزل منزلة المجرم الاثيم فأخرج ملوما مدحورا

«ولقد كنت معى بالامس غائب اللين حاضر الجفاء ، وأنت من الحق أعزل ، فلتكنه معى اليوم وأنت شاكى سلاح الحق ثاو بحسن الفضيلة»

قال مادلين : «لقد جعلتنى بحيث أرى انك أتيت عظيما وارتكبت جسيما ولا أذكر بينى وبينك أمرا يدعوك الى قول ما أسمع منذ اليوم ، ولقد أطلت فى اتهامك لنفسك ، وبالغت فى وصف اجرامك فما عسى تكون تلك الفعلة التى تزعم أنك فعلتها ؟»

قال جافير : «رميتك فى شرفك وخدشت وجه سمعتك فالتمست من كبير الشرطة بباريس امساكك وسجنك . وذكرت له فى شقة رفعتها اليه أنك مجرم قديم ، وأنك ضالة الشرط التى تنشدها منذ حين ، ولقد كتبت ما كتبت وقسطى

ممتلىء من المرة(١) الصفراء ، وغضبى يفور فوران المرجل على اثر حادثة تلك البغى التى غلبتنى عليها ، ووقفت دونها تلك الوقفة التى قطعت على ارادتى السبيل»



ويرجف قلب مادلين عند سماع قوله «مجرم قديم» ولكنه يتماسك . واستطرد جافير فى حديثه فقال : «وما حملنى على اتهامك ايها الشيخ الا آيات شهدتها وعلامات تحققتها . رأيتك شديد العضل قوى الساعد سديد الرماية اذا رميت ، ولمحت بأحد فخذيك فدغا ، وقد تبينت منك الاولى يوم العجلة ، وما نسيت ما كان من دخولك تحتها ، وانقاذك حياة ذلك الشيخ الفانى ، وتحققت الثانية بتتبع آثارك وتسقط أخبارك وشهدت الثالثة فى مشيتك ، فألقى فى روعى انك (جان فالجان) »

وتسقط شعبة من مهجة مادلين لذكر ذلك الاسم ويندر(٢) من انامله اليراع الذى يمسكه فيقول وهو يغالب اضطرابه : «ومن هو ذلك الرجل ؟» . فيجيبه جافير «هو أحد أولئك الشطار الذين يعيثون فى الارض ، ولقد رأيته منذ عشرين حولا فى سجن تولون ، وهو أشبه النـــاس بك ، ثم زعموا أنه بعد انصرام أيام سجنه عالج السرقة فى بيت أحد العباد ، وجنى فى الطريق على غلام صغير ، فاغتصب منه ما أدرى اى شىء ، ثم أنه اختفى بعد ذلك ، فجدت الشرطة فى طلبه ، وجد فى اختفائه حتى اذا شجر بينى وبينك الخصام فى أمر (فانتين) خرجت من موقفى أمامك بذلك الخذلان ، حملنى الغيظ منك على اخذك بهذا الرجل ، ومثل لى الحنق انك « جان فالجان » وكانت تلك

---

(١) المرة بكسر الميم وتشديد الراء مادة الصفراء التى توجد فى مرارة الانسان

(٢) ندر الشىء سقط . يندر اليراع من انامله يسقط

الآيات التى ذكرتها لك من أكبر البواعث على اتهامك فلا تكن من الراحمين»

قال مادلين وهو يبتسم ابتسامة الله أعلم بما يكمن فى أثنائها من المضض : «وماذا كان جوابهم على كتابك ؟»

قال : «كان جوابهم على كتابى أن رمونى بالنزق والجنون وحسبونى محمقا ، ولقد أصابوا فى رأيهم فى كما أصبت عين الخطأ فى رأيى فيك»

قال : «لقد أحسنوا فى جوابهم ، وأحسنت فى رجوعك عن وساوسك» . قال : «وأعجب من ذلك أن الشرطة قد أمسكت طريدها وعثرت على ضالتها ، ووقع جان فالجان فى قبضة الحكومة وهو اليوم بالسجن ينتظر حلول العقاب»

فأخذت مادلين الرعدة وصاح من فرط ما به ، وما يريد أن يصيح : «وكيف كان ذلك ؟»

قال : «قبضوا عليه وقد ظهر حائطا باحدى الحدائق ، واقتضب فرعا من التفاح ، فسيق الى المخفر والفرع لايزال فى يده ، ثم أودعوه سجن الاحتياط ، وكادت تختفى حاله فلا تدخل جريمته تلك فى غير باب العقاب التأديبى ، لولا أن أراد الله له سوء العاقبة

« فاتفق أن سجن الاحتياط هذا كان عتيق البناء يريد أن ينقض على من فيه ، فأمر قاضى التحقيق بتحويل أهله الى السجن العام ، وكان بذلك السجن رجل من أهل التشطر الذين شبوا وشابوا فى أعماق السجون ، قد أكل سجن تولون شطرا من عمره وأوشك هذا السجن أن يأكل شطره الثانى ، شهدوا منه فى آخر أيامه شيئا من الاستقامة ، وحسن السيرة ، فأقاموه سجانا ولما جيء بأهل سجن الاحتياط ولمح بينهم سارق العود صاح به : «ألا ترى أنى أعرفك أيها الرجل ؟ ألست جان فالجان رفيقى بالامس فى سجن تولون ؟»

« فقال الرجل : « اتق الله يا أخى .. فما أنا بصاحبك الذى ذكرت وانما أنا (جان ماتيو) .. »

« ثم ظهرت عليه الحيرة وعراه الدهش وتظاهر بالبـــله والجمود ـ وقد يحسن أمثال هؤلاء أنواع المكر والخداع ـ فبعث كلام السجان الشك فى نفوس الشرطة ففحصـــوا عن امره وراجعوا لوح أعماله فاهتدوا الى معرفة الارض التى نبت فيهـــا ، والحرفة التى كان يزاولها ، فاذا هو مشـذب الشجر قد اختفى أثره وانقرضت أسرته وكان آخر عهدالناس به فى قرية (فافيرول) وأجهدت الشرطة نفسها فى الوقوف على أثر تلك الاسرة فلم تفلح فعمدوا الى البحث عمن كان معـــه فى السجن فى ذلك العهد فعثروا على اثنين ممن حكم عليهم بالخلود فى السجون ، فأشخصوهما الى حيث يوجد ، فلم يلبثا ان عرفاه كما عرفه ذلك السجان

« وصادفت الشكوى التى رفعتها بشأنك ، فراعهم منى هذا الامر فكتبوا الى ماكتبوا ورمونى بالنزق والتسرع ، فكبر على الامر وقلت فى نفسى لعلهم خدعوا فى امر هذا الرجل فتالله لاذهبن لاراه رأى العين ، فرغت روغة فاذا أنا هناك فنظرت «جان فالجان» ورأيت نفس الرجل الذى شهدته فى سجن تولون منذ عشرين حولا ولم يعد عندى مجال للشك ولا مسرب للوسواس ، وعلمت أنى جنيت عليك جناية يضيق عنهـــا العفو ، فلو أننى كنت موفقـــا فى العمل وكنت أنت مكان ذلك الرجل لسجل عليك الخـــلود فى الســـجن . وانك لتعلم كيف يكون عقاب العـــائد الى الجريمة وخاصة ان كان من أولئك المراقبين»



قال مادلين وهو يتعلل بالتشاغل بالنظر فى بعض الاوراق ويقهر نفسه على التجلد والثبات : «ما لنـــا ولهذا الحديث

فان بنا من الاشتغال بشؤوننا مالا نفرغ معه الى الاشتغال بأمر الغير . اذهب يا جافير الى فلانة التى تبيع الخمر بزاوية المكان الفلانى ، ومرها أن ترفع ظلامتها الينا» ، ثم امره بأوامر اخر ، فقال جافير : «وددت لو كانت لى فى الوقت فسحة ، فأقوم بامضاء أمرك فانى على عزم الرحيل فى هذا المســاء لاشهد غدا مع الشاهدين ، فان غدا ليوم سيكون له ما بعــده يبرم فيه أمر « جان فالجان » ، ويعلو الحق على الباطل وتفلت الناس من شر ذلك الشيطان الرجيم»

فاسود فى عين مادلين مابينه وبين جافير وقال وهو يتكلف السكينة : «أفى غد يخاصمون هذا الرجل ؟» قال : «نعم» . قال : «وكم يمتد أجل ذلك الخصام ؟» . قال : «يوما او بعض يوم» . قال : «حسبك» . ثم أذن له بالخروج فلبث جافير فى مكانه وقال : «انى لاطلب اليك الاقتصاص منى»

فرفع مادلين رأسه وقال : « انى أرى فيك حصافة وارى لك عقلا ومن كان مثلك كان حقيقا بالتكريم ، وكان سبيله أن يعان على أمره ، وان يؤخذ بيده فى زلته ، فلقد عن لنا أن نقرك فى وظيفتك ورأينا أن الامر أيسر مما فى نفسك ، فدع عنك هذا الاغراق فى الطلب واستغفر لذنبك ان كنت من الخاطئين» . فرفع اليه جافير طرفا قد جال فى انسانه الاخلاص ونطق عما يكمن فى نفسه من الوجدان . وقال بصوت قد استمد السكون من جأشه ، واستعار الرقة من شعوره : «اننى لمجرم حقيق أن يؤخذ بجريرته . فلا أرى فى موضعا للسماح» . قال مادلين : «ان كنت قد أجرمت فما وقع اجرامك على غيرى وماكان لاحد أن يخاصمك وأنا من الصافحين»

قال : «عجبت لمثلك كيف يصفح عن مثلى ، وقد حاولت الايقاع بك وعملت على كيدك وسلب نعمتك ، فخنت الاستقامة وعققت الفضيلة وأحفظت العدل ، ولو أننى فعلت ذلك عن غير رغبة فى الانتقام لوجدت لنفسى السبيل الى جميل العذر وقلت

انى شرطى ، وللشرطى أن يشتبه ولا تثريب عليه اذا أخطأه التوفيق ، ولكنى فعلته متعمدا ورميتك متقصدا ، وانى أشهد اننى كنت دانى القسوة نائى الرحمة لا أعرف التجـــاوز عن الخطيئة ولا أعرض تلبيب(١)كل من انحرف قيد أنملة عن صراط الشريعة ، فكيف أرضى اليوم لنفسى ماكنت آباه بالامس على غيرها . ونفسى كما تعلم أكثر النفوس حرمة على، وأولاهن منى بحسن المناصحة .. أرأيتك كيف يجمل بى أن أنصب بدنى فى سبيل اصلاح الغير ، وأنام عن تقويم ما أراه لنفسى من الاعوجاج ؟ انى اذن لمن الظالمين !

«على انى لا أود أن يخرج بك كرم طباعك عن سبيل السداد، فانتصر منك بك ، كما انتصرت بك تلك البغى من ذلك الشاب . ولا نلبث على هذا القياس أن تشتبه علينا الامور فيختلط السيد بالمسود والعبد بالمعبود فكن ماشئت رءوفا بالعباد ، واجمع الى تلك الرأفة صحبة العدل، فان فى ذلك ردعا للنفوس، وعزا للشريعة وخذنى باقرارى ولا تطمع مجرما فى غير العقاب، فلكم كنت أقول لنفسى وهى تجد فى طلب الظالمين : جدى أيتها النفس فوالذى أنت بيده لئن انحرفت شعرة عن سواء السبيل لاكونن بك أول الموقعين» !

قال مادلين وقد فعلت به تلك الكلمات فعلها : «سننظر فى امرك» ثم مد يده للسلام . فتقهقر جافير وهو يقول : «عزيز على ان تصافح يدك الكريمة تلك اليد الاثيمة» ، ثم ركع أمامه خاشعا واستقبل الباب . ولما بلغه انفتل اليه ثانيا وقال : «سأقوم بشؤون وظيفتى حتى يأتى الخلف» . ثم ولى وجهه وغادر مادلين فى مكانه يلقى بسمعه الى وقع تلك الخطوات المطمئنة

لم تكن تلك الحوادث التى نسطرها للقارىء الكريم بواضحة

---

(١) اخذه بتلبيبه : جره

الاثر فى القرية التى وقعت فيها ، ولكن بعض ما علق بالاذهان من حدوثها قد ترك لها شبه الذكر فى النفوس

فلو أننا أغفلنا ذكرها لخرج الكتاب ، وفيه من الفراغ مانلام معه على عدم الاتيان بما يسده ، فها نحن أولاء نذكر ما وصل الى علمنا من خبر ذلك الاثر ، وان كان فيه بعض ما لا يحتمل الوقوع ، ولكنا نثبته هنا ارادة الوصول الى الحقيقة :

ذهب مادلين الى فانتين يعودها ، فى عصر اليوم الذى وتم له فى صباحه مع جافير ما وقع ، وكان من عادته أن يغشاها فى حجرتها فوقف فى هذه المرة ، وسأل عنها قبل الدخول ممن كانت تمرضها

وكان ببابها اثنتان من الممرضات الراهبات تدعى احداهما (بربيتى) والاخرى سمبليس وكانت الاولى من سكان الاطراف بالريف ، ثم أصبحت راهبة لا لرغبة فى الزهد أو نزوع الى خدمة الدين ، ولكن لمجرد الاحتراف بما تصيب منه الرزق ، فدخلت فى بيت الله دخول الخادم فى بيت المخدوم ، واحترفت بذلك كما تحترف سواها من النساء بحرفة الطبخ ، ولم يدعها الوجود فى الدير الى فوق ما كانت عليه من الخشونة والتقشف بطبعها ، شأن سكان الاطراف الذين لايعرفون الترف ولايألفون النعيم ، ومن قارن بين حال الراهب وعيش الفقير وجد بين تقشف الاول وخشونة الثانى نسبا قريبا وصلة غير مقطوعة ، فلو شاء الناسك أن يصبح راعيا وأراد الراعى أن يمسى ناسكا لوجد كلاهما الى قصده سبيلا ممهدا وما هو الا أن يدخل أحدهما فى ثوب صاحبه

وكانت تلك الراهبة شديدة القبض على دينها ذات لون يضرب الى الحمرة واقدام فى الامور ، وصلاح فى العمل ، دائمة التسبيح كثيرة الترتيل وحشية اللهجة ، وكان بأخلاقها بعض الشدة فهى جافيـــة الطبع تغلظ القول للمريض ، وتمزج له الادوية بتلاوة الاوراد والادعية ، وتدعو للمحتضر دعاء يمتزج

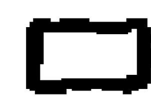
به الغضب كأنها تستعجله قبل حينه بما يرجمه فمها من ذلك الدعاء .

أما الثانية فكانت ذات لون يغلب عليه البياض ، فهي بجانب أختها كالشمعة بجانب الذبالة ، ولقد وفق (فانسان دي بول) الى وصف الراهبات في تلك الكلمة التي جمعت بين عزة الحرية وذلة العبودية ، قال :

« التواضع قناعهن ،وخوف الله شعارهن ،والطاعة حرزهن قد اتخذن البيع للتهجد ، ودور المرض للتعبد ، وللمخاوف الطرقات ، وللرياضة الحجرات »

ذكرنا تلك الكلمة الجامعة في سياق الحديث عند ذكر سمبليس ونزيد عليها فنقول :

ـ يقف الناظر الى تلك العذراء موقف الذاهل اذا سأله عن عمرها سائل ، فقد كتم وجهها سر ما ضيها . ولم يشأ أن ينم على آيتها فلم تنطق ملامحه على اثر لزوال الشباب ، ولا عن خبر لقدوم الهرم . وهي قليلة الاكتراث ، كثيرة الاناة ، قد جمعت في طباعها بين اللين والجفاء ، فانها لتلين حتى يكاد يعقدها العاقد ، وتشتد حتى يخافها المعاند . . كثيرة الصمت ، قليلة تزويق الكلام . تكره الفضول في الحديث ، فلا تنطق الا بمقدار ، وتحب الصدق حبا بغض اليها الكذب في الجد والمزاح



تلك هي صفات سمبليس وما كتبنا غير ما املاه علينا لسان فضلها ، وقد اشتهرت بذلك في عالم الدين ، حتى ضرب أحد الرؤساء بصدقها المثل في كتاب بعث به الى رفيق له فقال:

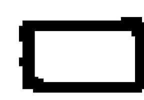
« انه ليجري على لسان أكثرنا تقى ، وأبعدنا عن المظنه شيء من الكذب ، فيحمل منه ذلك على سبق اللسان بما لم يجر به الوجدان ، ولا يدخل في باب الامكان ان تسقط من (سمبليس)

سقطه من هذا النوع ، فتكذب فى شىء كائنا ماكان ، فانها تعتقد أن الذى يمين فى الصغيرة ، لا يلبث ان يستطرد به جواد المين فى الكبيرة ، وتزعم أن الكذب من أسماء الشيطان ،فهو عندها أحد اثنين : اما ابليس ، واما الكذب »

فلعل ذلك البياض الذى نراه بوجهها هو أثر ما أودعه الله من النور فى سريرتها ، سريرة لو تمثلت لك أيها القارىء ، لرأيت لوحا من البلور لا يعلق به الذر ولا يقف عليه الغبار

تلك هى الراهبة التى كانت تمرض فانتين وتبالغ فى محاسنتها وهى التى أوصاها مادلين بالعناية بها ، وسألها عنها قبل الدخول فى هذه المرة

ولما غادرها ودخل على فانتين وجدها ترتقب رؤيته ارتقاب المقرور شروق الشمس ، فقالت حين لمحته وهى تغالب كبد الحمى ويغالبها : « أين كوزنت ؟ » . فقال وهو يبتسم : « انها قادمة على الاثر » ثم جلس عندها يلاطفها حتى استوفى عمر الساعة . وكانت لاتلوح بوجهه وهو يحادثها سيما الارتياح لما وقع فى نفسه من كلام الطبيب الذى كان ينذره بقرب حينها



ولما قضى لبانته من النظر اليها انكفأ الى حجرته ، فتناول قلمه ، وخط به فى ورقة بعض الارقام ، ثم خرج واخذ سمته الى دار رجل يكرى الخيل والعجلات فغشيه فى منزله وطلب اليه ان يكريه جوادا اصيلا ، فقال الرجل : « وما تصنع به ؟ » قال : « اطوى عليه عشرين فرسخا »

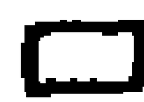
قال : «انها لشقة طويلة فلعلك تبتغيه مشدودا فى عجلة؟» . قال : « نعم » . قال : « وكم يكون ثواؤك بعد الوصول ؟ » . قال : « ربما تجشمت السفر فى اليوم التالى » . قال : « لتطوى فى الجيئة ما طويت فى الذهاب ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ان عندى جوادا كهمك ايها السيد وهو الابلق الصغير .

وقد كان صعب الشكيمة لا يستقر فوق منكبيه راكب ولا يدانيه انسان ، فما زلت به حتى رضت جماحه واسلست قياده فهو اليوم يسابق الافكار الى المقاصد ، ولكنه يرغب عن السرج ، وينزع الى الجر فمن شاء ان ينتفع به فليرغب عن ظهره الى جره »

قال مادلين : « أتراه يحسن العدو ويطيل الشوط ؟ »

قال : « انه لينهب المسافة التى تريد قطعها نهبا ويطويها خببا ، ولا يجد لذلك تعبا . على شريطة أن تنفس عنه فى اثناء ذلك بعض التنفيس ، وان يكون معك من يشارفه عند اخذ علوفته ليرد عنه غارة اولئك الخدام بالنزلات ، وان لا تحمل معك فى العجلة شيئا ثقيلا ودع رفق القائد الذى يقوده وعنايتك بالاشراف عليه . واما اجره فى اليوم فلا ينقص عن ثلاثين فرنكا . وذلك سواء فى السفر والاقامة »

قال مادلين : « قبلنا شرائطك ، فابعث به غدا عند تنفس الصباح » ثم القى اليه ثلاث قطع من الذهب . وقال : « هاك اجره ليومين » وخرج من عنده ، ولكنه ما لبث ان عقب اليه وسأله قائلا : « كم تقدر ثمن العجلة والجواد اذا ساومك فيهما مساوم ؟ » . قال : « اتنوى ابتياعهما ؟ » . قال : « بل اريد ان اقف على الثمن خشية الطوارق فى الطريق » . قال : « اربع وعشرون قطعة من الذهب » . قال : « هاكها » ثم خرج ولم يعقب ، ولبث صاحب الجواد فى مكانه يحز الودج اسفا على ما فاته من طلب المضاعفة فى الثمن ، وجعل يقول : « ليتنى طلبت اليه أكثر من ذلك القدر ، فانى لاجد منه ريح الاضطرار ، ولكنها فرصة عرضت فسرحتها عنى بوادر العجلة »



ذهب مادلين الى مخدعه فلبث فيه بعض ساعة ، ثم اخذ

مضجعه ونام وشباب الظلماء فى عنفوان . وكان له صراف يقطن فى حجرة بأسفل مخدعه ، فلما انتصف الليل أو كاد ، شعر هذا الصراف بحركة فوق راسه قد قطعت عليه نومه ، فاستيقظ وجعل يتسمع فسرى اليه صوت وقع لاقدام تقبل ، وتدبر فى الحجرة التى فوقه ، فتبينها فاذا هى اقدام سيدة ، وما وقع له قبل الليلة ان يسمع فى حجرة مادلين حركة قبل الصباح ، فعجب لوقوع ذلك فى مثل هذه الساعة من الليل ، وقال لعلها لارق نزل به ، وزاد فى عجبه ان سمع صريرا بأدراج الدولاب ، فاستوى فى سريره قاعدا وطرد من عينيه ما علق بهما من كسل النعاس

ونظر من النافذة فلمح على الجدار الذى يقابله انعكاس اشعة فترسمها بالنظر ، فاذا هى مرسنة من طاق الحجرة التى لسيده ، فأدمن اليها النظر ، فألفاها حمراء تضطرب على الجدار اضطرابا كأنما كان مصدر انبعاثها نارا تشب لا سراجا يضىء

وكانت لا تلوح بها صورة ولا يتراءى فيها خيال ، فعلم ان زجاج النافذة التى باتت تنبعث منها كان مرفوعا ، ولما تحقق ذلك اهوى برأسه الى الوسادة ، وجعل يعالج النوم من جديد

فاستغرق هزيعا من الليل ، ثم تنبه فاذا هو يسمع وقع تلك الاقدام المطمئنة ويرى تلك الاشعة ولكنها قد عرتها الصفرة وعراها السكون ، فأيقن فى هذه المرة انها لم تكن منعكسة عن غير ضوء السراج

واليك ايها القارىء ما وقع منذ الليلة فى حجرة مادلين . وما لنا لا نقول فى حجرة (جان فالجان) . وما غاب عنك اننا لا نعنى بهذين العلمين الا مسمى واحدا

كلمة في سريرة الإنسان

نظرنا قبل اليوم نظرة فى مـرآة تلك السريرة ثم صـورنا البصر ما لمحته عين البصـيرة . وها نحن أولاء ننظر فيهـا النظرة الثانية ، وان كان من وراء ذلك هـزة النفس ورجفة للفؤاد

يقف أحدكم على شاطىء البحر المحيط ، فتكبره عينه ، وتعظمه نفسه فاذا انتقل بنظره الى السماء أصغرت عينـه البحر وأكبرت نفسه السماء

وانه ليتضاءل فى عينه المشهدان ، ويصغر فى نفسه الكونان اذا ما نظر بعين الوجدان فى مرآة سريرة الانسـان ، فانك لا تجد مشهدا يحرك النفوس وتقف دونه مدارك الافهام كذلك المشهد ، فهو اذا أضاء ذهب سناؤه بالبصر واذا أدجى أعيت ظلمته الفكر ، وقل أن تستقر فيه عين البصيرة على شىء تلم بكنهه ، أو تخترق حجاب سره لامتداد أمده وفرط غموضه

فلو أنك حاولت وصفـا لأدنى سرائر البشر ، وعمدت فى ذلك الى قرض الشعر والاستعانة بالخيال لاعـوزك الوصف وأعجزك الوصول ، اللهم الا اذا نزعت الى جميع ما قيل من القصائد والاناشيد منـذ خط القلم الى أوان العدم ، وأذبت الجميع فى بودقة الفكر ، ثم استللت منها سـبيكة شـعرية يتناول حسنها ما وراء النفوس ، ويجلو رونقها صداء الخواطر

فالسريرة هي ميدان الشـهوات ، ومهبط المخزيات ، بل قارورة الغرور ، وتنور الاحلام ، وموطن المطامع ، ومسرح الأباطيل ، الا ترى أنك لو ظفرت بأحدنا وقد لاحت عليه سيما التفكير والانشـغال ، ثم نظرت فى صورته وكنت ممن يكشف لهم الغطاء عما يجول فى قرارة النفس ، وخلجان الفؤاد ، اما كنت ترى تحت ذلك السكون العميق حـربا قائمة وخيالات مشتبكة ؟!

نعم انه ليتمثل لعينك فى ضمير هـذا الفؤاد ويتراءى لك بين دفتى ذلك الحيزوم ما سطره (هومير) وذكره ميلتون ، وتوهمه دانتى . ولقـد طال بنا الوقوف أيها القارىء على ذلك المشـهد العظيم . ونحن نتهيب طرقه ونكبر الدخـول فيه ، ولكنا سنشد منا ، ونقدم على فتحه ، وموعـدنا الجزء الثانى ان شاء الله تعالى



الجزء الثاني

من البؤساء

الفصل الثالث

عاصفة تحت جمجمة
أو
((فورة))

قدمنا بين يدى القارىء ما كان من أمر (جان فالجان) منذ ابتز ذلك الغلام قطعته الفضية ، وقد رأى كيف حال (١) هذا الرجل الى رجل آخر ، وكيف فعلت فى نفسه كلمات العابد أفاعيلها فاختطفته الى المعبود . وأخرجته من مسلاخ (٢) الشرة (٢) والضغينة ، وأسكنته فى أهاب من الفضيلة

بدأ بالمبالغة فى الاختفاء والتنكر ، وثنى ببيع تلك الآنية الفضية ولم يبق منها على غير الشمعدانين (٤) . ولعله أبقى عليهما تذكرة لذلك الصنيع

وجعل ينسل فى سره (٥) من الناس من قرية الى قرية حتى مسح أرض فرنسا ، ودوخ بها كل مكان وألقى عصاه بقرية منتراى سيرمير ، وأدر الله له أخلاف (٦) الرزق فأثرى ، ثم مكن لنفسه حتى جعلها بمنجاة من المطاردة

ولبث ما شاء الله يرى أن السعادة فى يقظة الضمير . فكان كلما بضع (٧) الندم على ماضيه من فؤاده بضعة شعر فى نفسه بوفر تلك السعادة . ولقد تكفلت حسنات الشطر الثانى من حياته بغسل حوبات (٨) الشطر الاول

---

(١) تحول (٢) جلد (٣) الشر (٤) فارسى معرب (٥) أى خفاء
(٦) الثدى للمرأة والاطباء للكلبة والاخلاف للناقة (٧) قطع (٨) الحوبة الذنب

وكان راسه مضطربا لفكرتين لا ثالثة لهما : أن يخفى اسمه وأن يقف حياته على الفرار من المخلوق والرجوع الى الخالق .
وقد امتزجت هاتان الفكرتان بعقله امتزاجا حتى حالتا الى شيء واحد ، أصبح له السلطان المطلق على ارادته فاستقرتا فى قرارة نفسه وتناولتا ما وراء وجدانه ، فهما اللتان دعتاه الى الانزواء فلبى والى البر فمضى والى التقشف فأطاع

وتمر به لمحات يقع فيها بينهما العراك فتدفعه الاولى الى امر وتثنيه الثانية عنه ، ولكنه ما كان يحجم لمحة عن ايثار ثانيتهما على أولاهما ، فهو يؤثر الفضيلة وان جرت الى هتك ستره ، على طمأنينة نفسه وثلوج صدره فى اختفاء أمره

الم تر اليه كيف غامر بنفسه يوم العجلة فأنقذ (فوشلفان) (وجافير) يلقى عيه نظرات تكاد تخرق شغاف قلبه ، وكيف لبس الحداد على العابد ، وان طارت حوله فى ذلك الشبهات

فقد قام بنفسه ان أول فرض عليه انما يجب القيام به لغير شخصه . على انه لم يشهد مشهدا لهذا العراك كان اشد هولا واعظم مراسا من ذلك الذى مر به حين دخل عليه (جافير) ولفظ أمامه ذلك الاسم الذى درج فى أثناء النسيان، فاضطربت له نفسه من داخل الجسد واستخذى عند سماعه وعجب لذلك الجد الذى لا يفارقه العثار ، وهجم عليه امر لا قبل له به ، فمرت به تلك الهزات التى تؤذن بفورة النفس، فانحنى انحناء الدوحة تدانيها العاصفة أو الجندى يتهيأ للاقتحام . وهم وهو ينصت ل (جافير) أن يطرح رداء التنكر ، ويطير الى ذلك السجن الذى أودعوه (جان ماتيو) فيقتلعه منه ويحل محله ، ولكنه لم يلبث ان عاودته الاثرة ، فأكبر هذه النزعة النبيلة ، وتراجع أمام تلك البطولة .

ولو كان ممن تزكو (١) عنده العوارف لزكت عنده عارفة

---

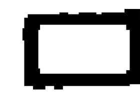
(١) زكت العارفة اى أثمر الجميل

العابد ، ولغيرت منه تلك السنون التى طواها بين الزهد والتوبة ، ولغبر (١) يمشي قدما بقدم مطمئنة وصدر مثلوج الى تلك الهاوية المفتوحة امامه فهناك عند قرارها قد ألقيت مفاتيح الجنة التى كان ينشدها

نعم كان الاخلق به ان يكون ذلك الرجل ، ولكنه لم يكنه . واليك ما كان يجول فى نواحى نفسه

« غمره عند الوهلة الاولى شعور المحافظة على النفس ، فخفض من جزعه وتصام عن نداء ضميره وأهاب (٢) بحلمه حتى اذا ثاب اليه أضمر فى نفسه وهو ينظر الى (جافير) ان يتلوم (٣) بعض التلوم فى الحكم على مصيره

ولبث سراة (٤) يومه وعلى ظاهره من السكون طلاء وفى باطنه من الجزع صلاء (٥) فلم يفكر فى ذات غيبه (٦) ولا فى الاخذ بالحيطة مما عسى أن ينزل به من العوادى . ولا بدع فقد يخونه الحزم ، وقرعه جافير بقارعة أطارت صوابه وزلزلت أركان نفسه وكان مبلغ علمه بحالته أنه أصبح تحت كلكل كارثة لا يدرى متى تفته



انكفأ الى حجرة فانتين يعودها وجلس على مقربة من فراش آلامها واطال الجلوس ، فقد كان على نية سفر لا يعرف أمده . على أنها نية مبهمة لم يضرب فيها رأيا ولم يستشر عزما ، فقد مرت به الفكر أبابيل (٧) وهو لفرط خياله لا يكاد يميز بين صورها

وما أدرى أكانت به نفسه أم كان به ذلك السجين أم تلك المحتضرة أم وليدتها المنبوذة بذلك النزل ، فكان يقول فى نفسه ما ضرنى الا أريم (٨) مكانى فأرقب مواقع القضاء فى

---

(١) مضى (٢) صاح (٣) يتأنى (٤) طول (٥) الصلاء النار
(٦) ذات الغيب المستقبل (٧) جماعات (٨) أبرح

الحادث وأنا وادع لا تسمو الى الخطوب ولا تلتفت الظنون ، وهذه عجلة (سكوفير) تحت يدى فمتى أحسست الشر ركبت عليها النجاة

حضر بعد ذلك وقت طعامه فأصاب منه اصابة مقدرة . ثم دخل مخدعه وهو مذهوب به ، فخلا الى نفسه وأنعم التفكير وجعل يقلب وجوه الرأى فتعاظمه الأمر واخذت عليه أفواه السبل وسدت مسارح النجاة

ساورته المخاوف وفاعته (١) الأوهام ، فقام الى الباب فاستوثق منه والى المزلاج فأثبته حتى ظن أنه فى مأمن من الطارق والطارىء ، ثم أقام خلفه المتاريس طلبا للمزيد فى الأمن واطفأ السراج لأنه لم يكن يسكن الى النور ثم قال فى نفسه : « الا زال مرئيا ؟ » عن أى عين يا ترى كان يريد أن يتوارى

يا ويله ! ان ذلك الذى كان يجد فى الفرار منه ويقيم فى طريقه الحوائل ويستنجد بالظلام ما زال معه فى حجرة واحدة

ذلك هو ضميره وتلك هى عينه

ولعله كان يعالج خدعة نفسه حين ظن أنه كان فى عزلة وامن ، وأن الباب والمزلاج يحولان بينه وبين ما يخشى . فجمع أشتات نفسه حتى خال أنه صار جميع (٢) الفؤاد ثم عصب رأسه بيديه واعتمد بمرفقيه على منضدة كانت امامه وانشأ يحدث نفسه :

– أين أنا ؟ وما عسى أن يكون ما أنا فيه ؟ ترى هل كذبتنى العين حين رأت (جافير) وهل خاننى السمع حين أفرغ فيه اسم ذلك الرجل (جان ماتيو) أتراه يشبهنى الى حد أن اخذوه بى ، فويل لى . لقد كنت بالأمس آمنا فى سربى ، وأرانى اليوم فى قلق لا أدرى متى ينطوى أجله

(١) فعلت فعل الافعى (٢) غير متفرق الفؤاد

فانظر على أى سيال من الألم قد بات يتململ هذا البائس الذى ضاق محيط عقله عن جولات تلك الأفكار التى تدافعت فى راسه كالأمواج حتى انه ليدافعها عنه باليدين . وكان يحاول أن ينتزع من كل أولئك يقينا يجد له بردا على قلبه ، ولكنه لم ينتزع غير الحيرة والمضض

وكاد يلتهب راسه فقام الى النافذة ففتحها ونظر الى السماء ، فاذا بها ضريرة النجم (١) ساقطة النواحى (٢) فعاد وارتمى على مقعده

ومر به قطع من الليل وهو على تلك الحال ، ثم أطافت برأسه صور مبهمة اخذت تتجمع وتتبين حتى لفتت اليها تأمله فلمحها بعين الحقيقة لمحة ألمت ببعض أطرافها فعاد الى نفسه بعض الشيء وبدأ يشهد على نفسه أن الحالة التى نزل اليها انما هى من صنع يده ، حال حقيقة باللوم لايلابسها المرىء (٣) ولا يستقر عليها العيوف

ومن نظر فى أمر هذا البائس ، وقر فى نفسه انه على زهده وتقشفه لم يأت حتى الساعة شيئا مذكورا ، اللهم الا ذلك الثقب الذى ثقبه وواد فيه اسمه ، وود لو نسجت عليه الأيام طبقات من النسيان لا ينفذ اليها شعاع من الذكرى

فكان اذا خطر له أنه سيأتى يوم يذكر فيه هذا الاسم ذاكر ، نسف ذلك الخاطر نفسه فى نهاره ، ونزف أنفاسه فى ليله ، واغرى به سهادا تقض (٤) عليه معه المضاجع ، وتطارحه الوساوس . ولطالما كان يقول لنفسه ان هذا اليوم اذا أوفى عليه ليذهبن بما يحيط به من راحة ونعيم ، حتى أنه ليشفق أن يذهب بتلك النفس الجديدة التى ربها (٥) بالتقوى وتعهدها بالاحسان

---

(١) يحجبها السحاب (٢) شديدة الظلمة (٣) ذو المروءة
(٤) تمتلىء عليه قضا وقضيضا ، أى حصى (٥) ربها بمعنى رباها

نعم لقد غمر هذا الفكر شعوره ، وشغل أرجاء نفسه . فلو أن قائلا قال له : ان هذا اليوم لا بد آت وان تلك الكلمة (جان فالجان) لا بد أن تثب من مكمنها ، وتتراءى أمامك في هيكل نوراني يهتك ستار الظلمة الذي اسدلته على نفسك . فاذا جاءك هذا اليوم فلا تبتئس به ، فلن يضيرك ان تسمع ذلك الاسم فانه سيرفع منك ، ولا يهولنك ان ترى ذلك النور فانه سيزيد في الظلمة التي تنشدها ، ولا ذلك الستار الممزق فانه سيكون اكتم لسرك ، ولا ذلك الزلزال المروع فانه سيصبح ادعم لبنائك ، فاكشف عن حياتك تبلغ مناك من كتمان امرك ، وقف أمام طيف (جان فالجان) وقفة تخرج منها انبل نفسا ، وانبه ذكرا واجمل امرا

لو ان قائلا قال له ذلك ، لنأى عنه بجانبه ، ولظن انه يعالج المستحيل . على أن الذي كان يظنه داخلا في باب الاستحالة قد دخل في باب الامكان ، وجرت به الاقدار فوقع

اخذ حلمه يتكشف رويدا رويدا واخذ هو يزداد علما بحقيقة أمره .

خيل اليه انه قد افاق من خفقة ــ وما ادرى من اى خفقة افاق ــ وانه قد راى نفسه ينزلق في جوف الليل على منحدر قد وقف به على حفاف (١) هاوية ، وانه قد حاول ان ينحرف عنها ، فأثبته الخوف وقيده الوهم . وانه قد راى تحت راية ذلك الليل خلقا (٢) اراد ان يتبينه فتنكرت له معارفه حتى انكره ، فالقى في روعه ان الاقدار قد شبه لها ذلك الخلق فظنته (جان فالجان) فأخذته به وساقته ظلما الى تلك الهاوية التي لم يكن لها بد من احد رجلين : اما هو ، واما ذلك المأخوذ به ، فعجز عن المقاومة وترك الاقدار تجرى على اذلالها (٣)

---

(١) أى حافة (٢) مخلوقا (٣) تجرى فى أعنتها

ولما تجلى له نور الحقيقة انشأ يصارح نفسه ويقول ان مكانى فى السجن لا يزال بحمد الله خاليا يطالعنى منذ ذهبت بورقة ذلك الغلام ، وانى لاشعر كأن قوة باطنة تسوقنى اليه فهو مدركى وان أمعنت فى الهرب ، ولشد ما يرمضنى (١) ان يقيموا فيه بديلا منى ، وان هو الا عاثر قد رمى به نحس طالعه فى ايديهم ، فأخذوه بى فأصبحت بفضل ذلك آمنا فى سربى ، فأنا مقيم هناك فى لباس (جان ماتيو) وانا مقيم هنا فى لباس (مادلين) ولكن ايسعنى فى مروءتى ان اترك هذا البائس يدفن فى السجن كما تدفن التوابيت دفنا لا قيام معه ، ولكن تحت جنادل الخزى والعار ؟.. أم كيف يجمل بى ان اتدلى هنا فى النعم ، وهو يتدلى هناك فى النقم ؟

وعلى اثر ذلك تحركت نفسه حركة يقعد عنها الوصف حركة لا تمر بنفس الحى فى مدى حياته غير مرات معدودات

فقد اختلجت سريرته اختلاجا بعث ما كان كامنا فى فؤاده من الهواجس . وقع ذلك على اثر مزيج قد جمع فى نفسه من الفرح واليأس والازدراء . تلك هى احدى ضحكات السرائر

قام بعد ذلك الى المصباح فأنشأه من جديد وطرح عن منكبيه رداء الفزع ، فلما سكت عنه الروع ، قال لنفسه ما لى ارانى على غير استواء وانا بمنجاة من المكروه ؟.. وكنت أفرق (٢) من طريق واحد طالما قدرت أن تدهمنى منه الدواهى ، ولكنه قد سد بحمد الله فأصبح (جافير) لايجد الى سبيلا واصبحت فى مأمن من شر ذلك الرجل الذى ركبت فيه غريزة كلب الصيد ، فكم وقفته على اثرى حتى كاد يكشف عن أمرى ، على انها قد خانته هذه المرة فجرته على أثر غيرى ، فلينقلب على عقبيه وليشتغل به عنى ، وليدعنى استروح روائح الامن ، فقد طال عهدى بها . وليقبض على

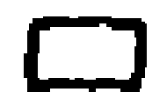
---

(١) يقيمنى على الرمضاء (٢) اخاف

(جان فالجانه) الجديد وليبرح المدينة متى شاء فكل أولئك لم اكن عنه مسئولا ، فحسبى ما كابدت من الم وعانيت من جزع ، فلو أن رائيا رآنى الساعة لما شك فى أنى قريب عهد بالافاقة من سقم ، او بالافلات من براثن حادث

واذا تأنقت الاقدار فى مكروه ذلك الانسان فتلك مشيئتها . وانى للمرء أن يدفع القدر عن غيره اذا هو أعجزه أن يدفعه عن نفسه ، وانى لا ارى مبررا لما كنت فيه من الجزع ، فان الامل الذى كنت اتنسمه طوال السنين ، والشىء الذى كان يملأ على احلامى قد ظفرت به ، ذلك هو الامن وهو بغيتى ، فمالى لا اشكر الله على تلك النعمة ، فلعله قد ارتاح (١) لى وتقبل منى ، واراد ان اجرى فى طريقى ، فقد اخذت نفسى بصحبة الفضيلة ، ورددتها الى التقى حتى قرت ، ورضتها على البر حتى سكنت ، فكيف أنسى يوم دخلت على ذلك العابد فنفضت أليه جملة ما مر بى ، فأفرغ فى اذنى كلمات وعيتها حتى الموت ، فلأمضين على هذا السنن فتلك مشيئة الله .

صحت عزيمته على ذلك بعد أن سكن خلجان سريرته ، وبعد ان كاد يستل خيط نخاعه من طول ما ساءل نفسه وفكر



لبث غير بعيد ثم قام يتمشى فى مخدعه وما شاع فى نفسه سرور ، ولا قر له قرار كما كاد يتوقع ان يكون . وما هى الا بعض الخطوات حتى عاوده ما كان فيه

والفكر كالبحر . فمن استطاع ان يرد البحر عن العود الى شاطئه ، أستطاع ان يرد الفكر عن العود الى مناطه. وعلة البحر فى ذلك يعرفها الملاح وهى المد والجزر . وعلة الفكر يعرفها المذنب وهى الندم .. فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط !

نعم عاد الى ما كان فيه من حوار نفسه ، فكان هوالمناجى.

---

(١) أى غفر لى

وكان هو المصغى . وكم حاول الا يكونهما . ولـكن قوة باطنة ساقته سوقا ، وألحت عليه بوحيها : ان فكر فى ذلك الذى سيق الى الموت قبل اليوم بألفى سنة !

وقبل ان نجرى بك شوطا بعيدا ايها القارىء ، يجمل بك ان تصبر قليلا على الاسهاب فى امر لم نر بدا من بسطه :

من المألوف ان يناجى المرء نفسه . وليس بين اهل الفكر من لم يطعم (١) تلك المناجاة ، وانها لسر من اجمل الاسرار واخفاها ينتقل فيها الحديث من الفكر الى السريرة ، ثم ترده السريرة الى الفكر . فاذا علمت هذا حلا لك ان تفهم الاسلوب الذى طال ترديده فى هذا الباب من قولنا : « ثم قال ـ ثم صاح ـ قال لنفسه ـ كلم نفسه ـ صاح فى باطنه » . وصيحة الباطن لا تقطع سكوت الظاهر ، فقد تقع ضجة فى البـاطن يتناول الـكلام فيها كل ما فى الجسم من عضو وجانحة غير الفم

تلك حقيقة من حقائق النفس وان لم يقع عليها الحس او يدركها اللمس

تساءل اين هو من الامر ؟ وما عسى ان يكون ذلك العزم الذى اعتزمه ؟ فأقر فى نفسه ان كل ما اصر عليه انما هو باطل وان الاستسلام للقدر فى هذا الموطن لمن احدى الـكبر وكبر عليه ان يدع ذلك القدر فى وهمه ، واولئك النـاس فى ضلالتهم ، وهاله أن يجمد عن الحق وهم فى الباطل يتدفقون . ورسخ فى اعتقاده ان السكوت فى مثل هذه المواطن انما هو اشتراك فى الاثم ، وان الاحجام عن المفاجأة ، خليق ان ينزل به الى احط منازل الآثام

منذ سنين ثمان لم يذق ذلك المسكين طعم هـذه المرارة ، فتزلزلت نيته التى نواها وجلس الى نفسه يحاسـبها وهو اقسى ما يكون ، وجعل يقول : « ان لـكل حى غاية يعمل على ادراك مداها . وقد كانت لى غاية ارى انى قد بلغتها ،

---

(١) يذق

فلم اخفق مرة فى التنكر وخدعة الشرطـة . ولـكنها غاية خاوية من روح الفضيلة . امن اجلها يا ترى فعلت ما فعلت ؟ لقد كان خيراً لى ان اعمل على بلوغ المقصد الاسمى فأنجو بالروح لا بالجسد ، وانزل منــازل الابرار . فلن اعق نفسى بعقوقى ذلك العابد . فمالى افتح باب الماضي على مصراعيــه وقد امرنى العابد ان اوصده ؟ فسواة لى . لقد اصبحت لصا تتعوذ منه ابالسة الشطار ، فانهم ربما سلبوا المرء متاعه ولم يختلسوا نفسه ، فكم من سليب قد نجا بحشاشته

« اما انا فقد سرقت من ذلك البائس وجوده ، وابتززت حياته وسللت راحته واغتصبت حتى مكانه تحت الشمس وما كان القاتل بدونى فى قبح الصنيع ، على انى لم احسن القتلة ، فهو اليوم فى سجنه ميت حى

« ذلك لعمرى ابشع الوان الاجرام . فمالى لا افتديه بنفسى فأسترد ذلك الاسم واعود كما كنت (جان فالجان) المجرم الاثيم

« فاذا طبت بذلك نفسا بعثت بين الخلق من جديد وخرجت من هذا الجحيم خروجا لا يعقبه رجوع . فاذا فررت منــه الى السجن ، فانما افر من جحيم الروح الى جحيم الجسد ، وشتان ما بين العذابين ، ولئن لم افعل لاكونن من الخاسرين ، وليس بمغن عنى ما قدمته بين يدى آخرتى من عمل دنياى ، اذا ما عدل بى طبعى الى الخور فحال بينى وبين ما اعتزمته

« وهذا العابد لا افتأ اراه كأنه حى وكأنه منى ادنى (١) ظلام ينهبنى بنظره نهبـا . وكأنه يؤثر ان يرانى فى لبـاس (جان فالجان) وان كان من نسج الاجرام على ان يرانى فى لباس (مادلين) وان كان من نسج التقوى ، واذا جاز على الناس تنكرى فلن يجوز عليه

« فما نظروا الا الى الوجه وما نظر الا الى الضمير ، فقــد

---

(١) اقرب شيء

استحال الا الذهاب الى (أراس) وانقاذ ذلك المكذوب عليه ، ولئن اقدمت على ذلك لاقدمن على ما يحجم عنه الناس . تلك هى المفاداة وان عزت على النفس ، وذلك هو النصر وان كان اليما . فلنخط هذه الخطوة فقد شاء القدر الا اكون نقيا فى نظر الله حتى اكون دنسا فى نظر الناس » !

رفع عقيرته بذلك وهو لا يشعر . ثم قام الى كتبه فنسقها والى وثائق ديون كانت له على بعض المعسرين من التجار ، فألقى بها فى النار ثم كتب كتابا وغلفه

ولو أن احدا كان معه فى الحجرة لاستطاع ان يقرأ هذا العنوان (مسيو لافيد بمصرفه شارع أرتو) وقام بعد ذلك الى خزانة اسراره ، فأزعج منها درجا التقط منه محفظة

ولو رأيته على تلك الحال وهو يعالج هذا العمل وقد خرج به التأمل عن حد الشعور بما يحيط به لما خفى عليك ما كان يخفيه فى قرارة نفسه ، ولرايت انه كان يحرك شفتيه وتارة يرفع رأسه ويقف بنظره على الحائط وقفة المستطلع كمن يحاول كشف سر او استجلاء غامض

ضم اليه الكتاب الذى كتبه ، والمحفظة التى التقطها وعاد الى السير فى مخدعه وفكره لم يبرح راسه ولم ينحرف عن مجراه . فكان كلما تنقل ببصره رأى امامه لوح المقدور وفيه سطر قد خط بأحرف من النور : اذهب فأمط عنك اللثام وانتسب

وعلى الاثر تراءت له الفكرتان اللتان جعلهما ملاك حياته وقد سكنتا فى هيكلين متباينين اخذا يدنوان منه تحت الليل (وما نسى القارىء ان اولاهما لم تكن غير التنكر وان ثانيتهما لم تكن غير التوبة والرجوع الى الخالق) فجعل يضاهى بينهما ويقيس ويقدر حتى خلص الى الحكم بأن الاولى انما ركبت من الاثرة (١) وحب العاجلة (٢) فهى اذن من وحى الشيطان.

---

(١) حب الذات (٢) حب الدنيا

وان الثانية انما صورت من الاحتساب وحب الآجلة فهى اذن من وحى السماء . وراى هذه وهى تنهض من الظلمة وتلك وهى تنبعث من النور فرزق التمييز بين نزعة الشر ونزعة الخير

ثم اشتبكتا امامه فى نزال فجعل يفكر فى امرهما . وانه لكذلك اذ نظر اليهما بعين عقله ، فاذا بهما قد اخذتا تربوان وتعظمان حتى صارتا كتماثيل العماليق . وفى هذه اللمحة احس فى باطنه وفى ذلك الملكوت النفسى الذى لا يعرف مداه نضالا قد قام بين ملك من الملائكة وشيطان من الشياطين وسط كتائب من الظلمة والنور . وكان يؤتى (١) اليه انه فى حراسة ذلك الملك فشد (٢) منه ان رآه من الظاهرين (٣) ومر كأن لم يكن ذلك الجازع ، وايقن ان السريرة والقدر اوفيا على ساعة الابرام فى امره

فقال فى نفسه : لقد اوضح العابد سبيلى فى الطور الاول من حياتى الجديدة . وها هوذا (شان ماتيو) يوضحه لى فى طورها الاخير

وعاودته حمى الفكر بعد ان هدات هداة فمرت براسه الف فكرة وكلها تصيح به ان امض فى عزيمتك ولكنه لم ينج فى اثنائها من خلجة شك مرت بنفسه ، فقال : ارانى متعجلا فى الامر ، وماكان (شان ماتيو) ممن يعتد بهم ، ان هو الا لص من السارقين

ثم عاد فقال لنفسه : « اذا كان هذا الرجل من السارقين كما يزعمون ، فان عقابه لا يتعدى عمر الشهر فى السجن . فما له كتب عليه ان يطوى فيه حياته ؟ فلولا انهم اخذوه بى وحل به شؤم اسمى الذى لبسه كارها ، لما حشروه فى زمرة المجرمين لانتزاعه تفاحتين او ثلاثا من شجرة لغيره ، وما كان نائب الملك ليصنع به ما صنع ، لولا ان علم ان له سوالف غير محمودة ، وانه يحمل ذلك الاسم الممقوت »

---

(١) يخيل اليه (٢) قواه (٣) الغالبين

ثم خطر له ان يذهب فيكشف عن نفسه لعلهم يمهرون هذه البطولة بالعفو عنه . دع تقديرهم لحسن سيرته وما خلف وراءه من الخيرات فى هذا البلد . ولـكن هذا الخاطر لم يلبث ان محته ابتسامة مرة قد خطفت على شـفتيه ، فقـد قال لنفسه على الاثر :

ـ ان قطعة الفضة التى انتزعتها من ذلك الغلام انتزاعا ستلبسنى ثوب المجرم العائد ، وعقابى على ذلك لا يحتمـل التأويل فهو سجن الابد

ثم نفض عنه غرور دنياه وقطع ما بينه وبين الارض واتجه الى السماء يستنزل المعونة والعزاء . وقال : « سبيلى أن اقوم بالواجب فلست اتوقع شرا مما انا فيه . فهبنى تركت الاقدار تجرى على اذلالها ، ولبثت فى القرية بين سيجان من العز والشهرة وحسن الاحدوثة التى اعلم دون غيرى انهـا متبلة (١) بالجريمة ، فأى نفس زكية ترضى بأمثال تلك النعم اذا ما علقت بها اللعنة ؟ على اننى اذا طبت نفسا بالاحتساب ، وقضيت العمر فى السجن مقيدا مغلولا فى لباس من العـار لا يستمطر رحمة القلوب ، بلغت بذلك مرتبة الرضى !

« وهذا امر قد فرغ منه القـدر ، وما خلقت لانقض فى الارض ما ابرم فى السماء . . فأنا اليوم بين امرين : اما فضيلة تحتها عار ، واما عار تحته فضيلة »

وتعاقبت عليه الافكار واطافت به الهواجس ، فما نهنهت من عزمه ولا كفت من غربه . ولـكنها كدت ذهنه وافظعته بكراتها حتى وهى عن احتمالها ، فجعلت عروقه تطرق فى صفحتى وجهه كالمطارق ، وانه لـكذلك اذ آذنت ساعة البيعة (الـكنيسـة) بانتصاف الليل ، واجابتها ساعة باحدى دور المدينة ، فجعل يعد الاثنتى عشرة دقة للساعتين ، ويضاهى

---

(١) متبلة ــ بتشديد الباء ــ أى مخلوطة بالجريمـــة ــ من تبل الطعام ــ بتشديد الباء ــ جعل فيه التابل الذى يطيبه

بين جرس (١) الجرسين فذكر على الاثر انه رأى عنـد احد باعة الفلزات (٢) جرسا عتيقا معروضـا للبيع وعليـه اسم (انطون البين)

ثم احس البرد فزاد فى نار المدفأة ، وغاب عنه ان يغلق النافذة ، ثم وقع فى ذهوله من جديد وحاول جهده أن يذكر ما كان يجول فى نفسه قبل انتصاف الليل فغمره النسيان ، ولـكنه لم ينشب ان خرج منه الى الذكر فقال : « لقد ذكرت انى عقدت النية على الذهاب واماطة اللثام » . وخطرت له ذكرى (فانتين) فلمح بين ظلمات هـذه الهواجس وميض نور لم يكن يتوقع رؤيته ، فتغيرت حـوله وجوه المنـاظر . وصاح : « ويل لى ! لقد اعمانى حب الاثرة فلم أفكر فى غير نفسى ، وارانى قد قصرت همتى على امرين اما التنكر وفيه نجاة الجسد ، واما الظهور وفيه نجاة الروح .. ولقد خاصمت نفسى الى نفسى ، فكنت قاضيا قد جمع بين العزة والهون ، وكنت مجرما قد ضم بين النبل والخسة .. وهـذا لعمر الله لون من الوان الاثرة ولو ملت الى الايثار لبدات بغيرى

« فهبنى ذهبت اليوم ، وكشفت عن نفسى فسـاقونى الى السجن وخلوا سبيل (شان ماتيو) ، فماذا يحل بعدى بهذا البلد الذى اغاثه الله بى ، فأقمت فيه المصـانع ، وايقظت الصناعة وشيدت دورا للعاملين واخرى للعاملات ، وكفلت الايتام وحبست الارزاق على الزمنى ، وكنت لهم بمنزلة الوقود من التنور واللحم من القدر .. فهم يستمدون منى حياتهم ، وانا محور تجارتهم وموئل عفاتهم ومثـابة (٣) ارزاقهم وبى اخصب عيشهم واخضرت اعوادهم ، ولم يكونوا من قبـل شيئا مذكورا !..

« دع تلك البائسـة المضعوفة التى اصبحت هامة (٤) اليوم

---

(١) الجرس صوت يجرس (٢) الحردوات أو ما ينفيه الكير من خبث الحديد
(٣) محل (٤) يقال فلان أصبح هامة اليوم أى حضر أجله

او غد بعد ان ابتذلت خدرها ، وهوت من سماء طهرها ، وانا الذى اخرجها عن افق العفة ، وكنت اذنا للسعاية بها قطرحتها من المصنع حين لاموئل ولا عائل ، فأكلت بثدييها وكنت لها من الظالمين

« وتلك الطفلة المنبوذة وقد عاهدت الام على نجاتها فما اصنع بعهدى معها اذا نزحت اليوم ، فماتت الام واصبحت الطفلة تحت رحمة الاتفاق ، يقذف بها القدر فتلقفها الغير . فلننظر ما ينجم من الضرر فى حالتى اللبث والذهاب » !

ثم وقف عند هذه النظرة فعراه ضرب من الحيرة اعقبته رعدة مرت كأن لم تكن . فتمكن من نفسه وقال : « ليذهب ذلك الرجل الى السجن فقد سرق . ومالى احسن به الظن فأدفع عنه الاثم ، فلأمكثن هنا واثمر هذا المال ، فاذا احسنت عليه القيام ولد لى فى مدى عشر سنين الفى الف انفقها فى وجوه البر ، وليس بى ان اعمل لنفسى ، فلست ممن يتربحون فى الجميل ، فاذا استبحر البلد وماج بأهله ولدت القرية مدينة وولدت الدسكرة (١) قرية واطلع العراء ضيعة (٢) فتحيا الصناعة وتنمو المصانع وتكثر المناسج ، وتسعد الاسر ، فيموت البؤس وتموت بموته الآثام ، فلا قتل ولا سرقة ولا فسق ولا فجور ، وتنعم تلك البائسة بقرب طفلتها

« لقد كنت محمقا حين قطعت بالسفر ، وما كانت آفتى فى ذلك الا الاثرة ، ولو اننى ذكرت غيرى لما هممت بركوب ذلك الخطل ، وانها لضلة قد ثنى الله عنها عنانى

« أأستحيى نفسا اثيمة ، واميت انفسا زكية ، واتوقع على هذا اجرا ؟ .. بسل (٣) على أن تموت (فانتين) وهى على ظمأ الى رؤية طفلتها ، وان تهلك الطفلة ولا تعرف لها اما

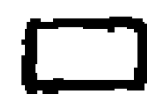
« كل ذلك من اجل مجرم لا اراه الا خليقا بما حل به من

---

(١) عزبة (٢) الارض المزرعة أو الافدنة (٣) حرام

العقاب ، ولا احسب الا انه رب سوالف فى السوء ، فلا يضيره ان يقطع المرحلة الاخيرة من عمره سجينا كان او طليقا

« ولو ان لتلك الطفلة كافلا غيرى لما جزبنى الامر . فاذا اجرمت باللبث ههنا ، فعلى اجرامي ، وان هى الا غمزات من الندم اجد لها مسا فى الفؤاد ، فلأصبرن على سعيرها ففيه نعيم لاناس ليس لهم دونى من ولى . وها انذا وطنت النفس على عيش ظاهره الرحمة وباطنه العـذاب . ذلك هو عين الاحتساب . . ! »



ثم طفق يمشي فى مخدعه وقد تبسطت فى هذه المرة نفسه ورضى عن عقباه وشحذ عزيمته على المضى فيما رسمه

انما تلتمس الحقائق فى دياجير اغوار الفكر ، فمثلها كحجر المـاس لا يلتقط الا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم وليل . خيـل اليه انه هبط الى تلك الاغوار فسلك فى اشدها حلوكة وابعدها مدى ، ثم جعـل يتحسس بيـديه فى تلك الدجية (١) حتى ظفر بحجرة من ذلك الماس او بحقيقة من تلك الحقائق ، وانه ليقبض عليها اذ تفجر منها نور كاد يعشى بصره ، فصاح : « ها انذا قد وجدتها ، وها هو ذا فى يدى مفتاح طلسمها »

« فأنا (مادلين) وسأكونه ما حييت ، فلا يسرني ان أكون (جان فالجان) . ومالى اقول جان فالجان وانا لا اعرف خلقا قد ركب عليه هذا الاسم ، فان كان حيا كما يزعمون فليتول امر نفسه ولا احسب هذا الاسم الا طائر شؤم له سبحات تحت الليل ، فاذا عن له راس قد انتواه القدر وقف فوقه فاضطرب ثم انقض عليه فطاح به »

---

(١) مفرد دجى

ثم نظر فى مرآة له صغيرة وقال : « لقد رفهت عنى هذه العزيمة ، فصرت بعدها غيرى قبلها »

ثم خطا خطوات ووقف يخاطب نفسه :

« لتصنع العواقب صنعها فقد قضى الامر ، واستحال غير الاقدام ، على انى لا ازال ارى آصرة من الولد تربطنى بهـذا الاسم فمن الـكيس قطعها . واشياء فى هـذا المخدع ربما وقفتهم على اثرى ومهدت السبيل للشك فى امرى .. وهن وان كن صوامت فانهن افصح عند الشهادة لسانا من الناطقين، فمن خطل الرأى ان ابقى عليهن »

ثم ضرب بيده الى جيبه فأخرج كيسا التقط منه مفتـاحا اولجه فى ثقب قفل لا يكاد يرى لدقته فلـكم خدع مكانه عين الناظر لـكمونه بين خطوط دكناء رسمت متناسبة الاوضاع على ورق كسى به الحائط . فانفرج الحائط عن مخبأ كانت تواريه مرآة مضللة نصبت بين زاوية الجدار وحجاب المدفأة لتصرف عين الناظر . وكان فى ذلك المخبأ اهدام بالية ومعطف ازرق وسراويل (١) رث وجراب عتيق وعصا غليظة مقمعة بالحديد . ذلك هو متاعه الذى كان يحمله يوم مر بمدينـــة (دينى) ســنة ١٨١٥ وكان يخفيه عن نظره هربا من ذكرى السجن ويظهر الشمعدانين حبا فى ذكرى العابد

ثم رمى الباب بنظرة عجلى كأنه يخشى الغرة برغم الوثوق من الايصاد ، واهوى كاللمح على ذلك المتاع دون ان يسـعده بنظرة منه فاحتضنه ، والقى به فى النار ، ذلك المتاع الذى طالما قدسه ، ولم يبال الخطر فى الابقاء عليه

وما هى الا لمحة حتى اشرق المـكان بنور احمر رقصت اشعته على الجدار الذى يسامته ، فعلم ان النار قد اتت على

---

(١) سراويل مفرد والجمع سراويلات

متاعه الا عصاه فقد بقى فيها دماء (١) دل عليه شرر كانت لا تزال ترمى به الى وسط الحجرة

وسطع ريح الجراب وهو يحترق بما فيه من الخلقان ، وظهر على اثره فى الموقد شىء لماع لو دانيته لرأيت انه لم يكن غير تلك القطعة الفضية ــ قطعة الغلام (سافويار) ــ ووقع نظره على الشمعدانين وقد اضاءتهما النار فانعكس لهما على الموقد ما ادرى اى لون من الوان الاشعة ، فصاح وهذا ايضا لامعناة (٢) للابقاء عليهما ، ثم الحقهما بمتاعه فلم يلبثا ان صهرا وحالا الى سبيكة منكرة ، ثم خطا الى الموقد فانحنى عليه واصطلى قليلا وتنفس وقال : « نعم الدفء » !

ولم يكد يحمد مغبة امره حتى شعر كأن صوتا فى داخله يصيح به : (جان فالجان) !.. فقف (٣) شعر رأسه واستطير فؤاده وكان كمن يسمع صوت الويل ، ثم اخذ يتسمع واذا به يناديه : « هنيئا لك لقد اكملت صنعك ، اتلفت الشمعدانين ــ نجوت من الم الذكرى ــ نسيت العابد ــ نسيت معه الماضى ــ سقت (شان ماتيو) الى الهلاك ــ هنيئا لك لقد نجوت ــ فكن شيخا وقورا ودع اسمك يحمل البلاء الى غيرك فيمضى فداء لك ــ كن عريض الجاه خصب الفناء ــ عل من شئت من الناس ، واكفل من شئت من الايتام . ولا تنس وانت مستقر فى الذروة من الجاه ومتدل فى الجزيل من النعم ان تذكر ذلك الذى يلبس فى السجن لباسك ويخطر فى قيودك واغلالك ، فليهنئك ما قدمت يداك »

فتفصد جبينه عرقا ووقف ساهم الوجه سادر البصر قد شدت اهدابه الى بقايا الشمعدانين . كل ذلك والصوت لا ينقطع عن مناداته : « جان فالجان ! انك لا تعدم ان ترى حولك قنابل (٤) من الناس ترتفع أصواتهم بالدعاء لك والثناء

---

(١) بقية (٢) يقال معنى الشيء ومعناته ومعنيه (٣) قف ـ بتشديد الفاء ـ شعر رأسه أى وقف (٤) جماعات

عليك ، فلا تنس وانت فى مظهر سلطانك ذلك الصوت الخفى الذى لا يحجبه عن سمع الله حجاب ، واتق دعوة تنهض من ظلمة السجن الى جوانب العرش فتجب فى طريقها دعواتهم وتقطع سبيل العروج الى السماء فتمسى ومالك غير اللعنة من خلاق (١) ولبئس عقبى الدار »

واخذ ذلك الصوت الذى كان يحدثه كالهامس فى اذنه يعلو ويعظم ، حتى صار له دوى كاد يفتق طبلتى مسمعيه ، وبعد ان كان يشعر انه صوت من اصوات الضمير قام بنفسه ان الذى يكلمه لم يكن غير حى من الاحياء تحتويه الحجرة فرمى بصره يطلبه فى اركانها ، وصاح وهو لا يعى : « من المتكلم ؟ » . ثم ضحك ضحكة من به مس ، وقال : « لشد ما وهمت فليس هنا غيرى »

وما كانت الحجرة خالية كما كذب نفسه ، ولكن الذى كان فيها لم يكن ممن تقع عليه العيون ، ثم عاود المشى بخطى رتيبة (٢) تبعث الاسى وتثير الشجن فكانت تقطع عليه سلك التفكير ، وتقطع على ذلك النائم تحت حجرته غراره (٣) فيثب من فراشه مروعا مذعورا

على ان هذا المشى كان يروح عنه ويشمله فى آن . وقد تدفع الملمات صاحبها الى الحركة رجاء ان يصيب فى طريقه من يشد عنه برأى أو ينفس عنه بنصح

وأجازت به آنة أنكر فيها نفسه ومكانه ثم نبهه فزع ملأ جوانب صدره ، فتراجع مخذولا امام كلتا العزيمتين اللتين اعتزمهما ، وبدا له قبح ما اضمر فأيقن ان لا خير فى الاولى ولا أجر فى الثانية . وقال : « ما اشأم هذا الاتفاق الذى رمى (بشان ماتيو) بين أيديهم فأخذوه بى وانظرنى ههنا حتى

(١) أى نصيب (٢) الشىء الرتيب الذى يقع متشابها على وتيرة واحدة
(٣) الغرار النوم القليل

مكنت لنفسي فملكت يومي وبلغت من الثروة ما بلغت » .
ثم التفتت نفسه التفاتة الى حاضره واخرى الى ماضيه وقال :
« اكشف عن نفسي .. قالها ونفسه تكاد تسيل جزعا —
« سلام على عيش لبسته مضطرا وخلعته كارها . فلقد آن للنفس ان تودع ما فيه ، فتستبدل (١) الاذلال بالاجلال والضيق بالسعة والنصب بالدعة ، وللعين ان تستبدل عبوس السجان ببسمات الشكر عند الاحسان ، وللأذن ان تستبدل رنات السلاسل بتغريد البلابل عند اقبال الربيع فى وشيه البديع ، وللرجل ان تستبدل الحجل فى القيود بالتنقل بين المروج والنجود (٢) وللأنف ان يستبدل ريح صدأ الحديد بأريج الزهرات والورود ، وللجنب أن يستبدل خشونة المضاجع بلين فراش المخادع ، وواها من وحشة سجن الوحدة والتقلب فى الوان الشدة ، وفى ذمة الله ايتها الدار فما كان اخصب ايامك واقصر اعوامك . وانت ايها الخادم العجوز فما كان ايمن صباحك وابرك صلاحك . وقد آن لى وانا العاثر المجدود ان استدبر عيشا اخضر ، لاستقبل عيشا اغبر ، والبس رداء احمر ، نسجته يد البلاء الاكبر ، وخاطه الشقاء لمن يسوقه القضاء . اللهم غفرا . افى مثل هذه السن وقد نيفت على الخمسين ارد الى السجن وانا اعلم الناس بما فيه من عذاب وهوان ؟.. الا انى لو كنت فى عهد الشباب لاضطلعت بخطبه . اما وقد اخذت منى الايام فلا طوق على مصابرة الشدائد

« ينهرنى الحرس ، اخاطب (٣) بالكاف ، تأخذنى سياط

---

(١) يقال استبدل الطربوش بالعمامة اذا أراد ترك العمامة فالباء تدخل دائما على المتروك قال الله تعالى :«أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير »

فى هذه الصفحة وحدها قد أضفنا كلمات من عندنا دعانا اليها حسن المقابلة فى المعانى واطراد القول

(٢) جمع نجد أى المرتفع من الارض (٣) علامة الاحتقار

السجانين ، دع عصا كبيرهم : امسى عارى القدمين فى حذاء من الحديد . امد ساقى لمطرقة القين (١) الكشاف فى الصباح والمساء ليبلو قيودها ويمتحن اغلالها ، اصبح هدفا لاعين الزوار، فكلما مر بى احدهم قالوا : « هذا هو جان فالجان الشهير الذى كان شيخا (لمنتراى سيرمير) »

« فاذا جاء الليل عادوا بنا الى السجن ونحن نسبح فى غدران من العرق ، وقد كدنا الموكلون بمذابنا ، فندخل اثنين اثنين بين ايد تعمل فى اقفيتنا وسياط تقدح فى ظهورنا فما امرها من حياة . انى اكاد اتهم القدر . اتراه تجرد من الروحانية وانغمس فى البشرية فحل فى هيكل شرير حضرت فى استنباط الاذى قريحته واقفر من الرحمة فؤاده ؟ ! »

ثم رجع الى هواجسه الاولى ووقف عند تلك العقدة التى اعياه حلها : « ايقيم هنا فيصبح شيطانا احلته الجنة ام يذهب الى هناك فيصبح ملكا احله السعير ، فتأوه وقال : « ربى كيف الخلاص ؟ »

ثم اكتنف العذاب نفسه وشاع فيه الالم واخذ فكره يختلط عليه ، فمر به ما ادرى اى صنوف البله ولعله اثر من آثار مواقع اليأس فى النفوس . وذكر وهو فيما هو فيه كلمة (رومان فيل) ، فقال : « ترى متى سمعت هذه الكلمة ؟ سمعتها منذ عهد فى اغنية صغيرة تقع فى بيتين من الشعر وانى لاحسب (رومان فيل) اسما لغاب صغير بضاحية من ضواحى باريس يؤمه العشاق من الشباب فى شهر ابريل ، يجنون زهرات الزنبق »

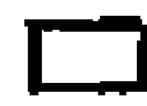
وسرى اضطراب باطنه الى ظاهره فجعل يترنح فى مشيته كأنه وليد قد خرج من الحبو الى المشى ، فترك يمشى وحده فهو لا يكاد يتماسك فجعل يكافح اشد الكفاح ليثوب اليه

---

(١) الحداد

رشده ويخرج من ذلك البله ، حتى اذا تمكن من نفسه أو كاد ، اراد ان يعزم العزمة الاخيرة . اما الكشف عن نفسه واما السكوت على حاله ، ولكنه لم يرزق التمييز

وطاحت هواجسه بثمرات فكره واخذت تصوراته المبهمة تضطرب امامه ثم تحولت بالتعاقب الى دخان تذهب به الرياح ، فأحس انه انى وقف او وقفته الضرورة فان بضعة منه هالكة لا محالة ، فعليه أن يشهد ، اما أحتضار سعادته ، واما احتضار فضيلته ، وعاوده التردد فعاد الى موقفه الاول



هكذا كانت تضطرب هذه الروح المعذبة تحت سيال من الكرب والبلاء

قبل عهد هذا البائس بثمان عشرة مائة من السنين ، هناك عند تلك الزيتونة المباركة التى كانت تعبث بها هوج (١) رياح الابد ، وتحت ذلك الفلك الحالى بالكواكب ، كان ذلك السر الغامض الذى اعجز العقول ادراك كنهه ، ذلك الذى حل فى صورة قد ركبت من الكمال والهدى ومن آلام هذا الورى ، يعاف هو ايضا شرب الكأس المرهوبة التى طالما نحاها عنه بيده ، كلما خالها تفيض بكسف من ظلمات ، تسلسلت منها ظلال تجزع عند وردها النفوس

---

(١) جمع هوجاء وهى الرياح الشديدة

الفصل الرابع

الوان الالم فى النوم

اقبـل السحر وهو لا يزال يمشى فى حجرته فاستشعر التعب ، فلقد مرت به خمس ساعات على التعاقب لم ينفس فيها عن نفسـه فارتمى على مقعد . وما هو الا ان احتواه حتى غط فى النوم ، وسنحت له رؤيا شبيهة بتلك.الرؤى التى تمثل للمهموم فى نومه ما كان عليه فى يقظته ، مغالية فى تلوين وجوه الالم . ولقد نال منه هذا الحلم ما لم تنله اليقظة فلم يكد يفيق حتى خط بيده ما كان مركوزا فى نفسه من وحى ذلك الـكابوس

وليس من الامانة ان نمر به ولا نذكره فيصبح تاريخ الليلة وهو أبتر ، ونحن مثبتوه هنا لم نخرم منه حرفا :

الرؤيا

رايت كأننى فى قفر لا نبت فيه ، وكأننى كنت بحيث لا ليل ولا نهار ، وكأن اخى كان يماشينى فى ذلك القفر ، ذلك الاخ الذى طويت معه عهد الحداثة ، ثم افترقنا وطال الامد حتى نسيته

سرنا وقد رمانا الطريق ببعض السابلة ، ثم خضنا فى حديث جر الى ذكره جارة كانت لنا فى ذلك العهد ، كانت تعمـل امام نافذة مفتوحة تطل على الطريق ، وكأننا ونحن نتحدث

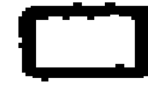
فى ذلك القفر نجد مس البرد المصبوب علينا من تلك النافذة..
وهفا بنا فارس فى لون الرماد على فرس فى لون التراب عارى الجسد اصلع الراس جميعه ، حتى أن الناظر الى جمجمته ليكاد يعد فيها فروع أوداجه . وبيده مخصرة فى لدونة فرع الكرم ، وفى ثقل عود الحديد ، هفا بنا ولم يسلم ..!

فقال لى اخى : « اعطف بنا على هذا الطريق الاجوف . وكان طريقا سماؤه فى لون ارضه لا يرى السالك فيه اجمة ولا خضراء ، وانى لاحدثه وانا لاه عنه بما انا فيه ، اذا به قد راغ روغة واختفى . ثم رفعت لى قرية فيممتها فخرصت (١) عليها انها قرية (رومانفيل) فركبت اول طريق لقينى فاذا به قفر ، عدلت عنه الى ثان فلما بلغت الزاوية التى تربطه بأخيه اذا انا برجل قائم عند حائط ، فسألته عن اسم القرية التى احلتنى فلم ينعم بالجواب .. وفتح باب دار ولج فيه ذلك الرجل فتعقبته فاذا انا برجل قائم وراء الباب فسألته لمن البيت فأعرض عنى ولم يجب ، وكان للدار بستان دلفت اليه فاذا انا برجل قائم تحت شجرة فسألته لمن البستان فأعرض عنى ولم يجب . فهمت على وجهى فى تلك القرية التى اقفرت من الانس سبلها وفتحت ابواب دورها فما رمانى الطريق بأنسى ولا احسست حركة فى دار من تلك الدور ، غير انى كنت ارى عند كل جدار وخلف كل باب وتحت كل شجرة رجلا قائما قد اخذ نفسه بالسكوت . فانحدرت الى المزارع ، فلم اكد انقل فيها بعض الخطى حتى رأيت وقد نظرت خلفى زمرة تتعقبنى ، واذا بكل اولئك الذين رأيتهم قياما قد ترسموا اثرى ، ورأيت كأنهم يمشون الهوينا ، ولكنهم على تريثهم كانوا اوسع منى خطى واخف حركة ، وما هى الا لمحة حتى لحقوا بى وتكنفونى

---

(١) اى تظنيت ، خمنت ، حزرت

وكانوا جميعا فى لون التراب ، فسألنى أحدهم واحسبه اول رجل لقيتـــه عند هبــوطى القرية : « أين تمضي ويلك ـ أولست قد مت من عهد بعيد ؟ » . وبينا اتهيأ للجواب اذا بهم قد اختفوا جميعا

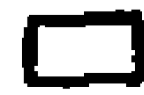


ثم هب من نومه وكأنه قطعة من الجليد وقد خمــدت نار المدفأة وذابت الشمعة الا قليلا ، وكان الليل لا يزال ليـلا فقام الى النافذة ونظر نظرة فى السماء ، فاذا بها لا تزال ضريرة النجم . وكانت النافذة تطل على فناء الدار والطريق

وبينا هو ينظر الى السماء اذا به قد سمع صوتا جافيـا وضـــجة عنيفــة على وجه الارض ، فخفض بصره فرأى نجمين احمرين يشعان اشعة تترامى فى جوف ذلك الليـل ، وكان لا يزال فى بقـــايا خياله ، فقـــال : « دفعت الليلة الى عجائب ، ترى اعافت النجوم سبحاتها فوقنا فهوت تسـبح تحتنا ؟ » . ثم قامت ضجة ثانية كان من اثرها فى نفسه ان عاد الى صوابه فنظر نظرة اخرى ، فاذا بالنجمين الاحمرين لم يكونا غير مصباحى عجلة قد شد اليها جواد ابيض ، فسأل نفسه : « لامر ما بكرت هذه العجلة ! »

وفوجىء بطرق على الباب ، فأزعجته هذه الفجاءة وصاح بصوت خشن : « من الطارق ؟ » فكان الجواب : « تلك انا ياسيدى الشيخ » فعرف صـــوت خادمه العجوز ، فقال : « وما تريدين ؟ » . فقـــالت : « انها الســـاعة الخامســـة يا سيدى » . قال : « وما شأنى بذلك ؟ » . قالت : « لقد حضرت العجلة » . قال : « اية عجلة ؟ » . قالت : « تلك التى تقدم سيدى بتهيئتها فى هذه الساعة وها هو ذا السائق يطلب لقاءك » . قال : « ويحك اى سائق ؟ » . قالت : « سائق السيد سكوفير » ، وما كادت تذكر هذا الاسم حتى

احتوته رعدة ، وكأن برقا من الذكرى قد خطف أمام عينيه . ثم سكت سكوتا طويلا . ولو رأته الخادم وهو على تلك الحال لتمشى قلبها فى صدرها من هول ما ترى . وعاوده البله فجعل يلهو وتعبث انامله بتلك الشباك التى نسجتها الشمعة من دموعها . وخاطرت الخادم بتذكيره فقالت : « سيدى الشيخ ، كيف اجيب السائق ؟ » . فقال لها : « قولى له انى سأوافيه الساعة »



وكان البريد بين اراس ومنتراى سيرمير يحمل فى ذلك العهد على عجلات ذات ترسين مطوقين بجلد اسمر وفى كل عجلة مقعدان : مقعد للسائق ومقعد للمسافر . ولم تكن تلك العجلات التى انقرض اليوم نوعها على شيء من الرواء . وقد كان ايسر عيب بها انها حدباء . فاذا لاحت للناظر عند مطرح البصر وهي تزحف تحت الافق زحفا ، حسب انها من تلك الدواب التى دقت خصورها وثقلت اعجازها . وكان البريد الذى يغادر اراس فى كل ليلة لا يبرحها حتى يوافيها بريد منتراى سيرمير

وفى هذه الليلة نفسها كان البريد الهابط الى منتراى سيرمير من طريق هيدسان قد صدم عند منعطف الطريق عجلة صغيرة قد شد اليها جواد ابيض وفيها انسان مدثر ، فرجتها الصدمة رجة اشفق معها حامل البريد على ذلك الرجل فسأله الوقوف ، ولكن الرجل قد انطلق فى طريقه وهو يركض جواده ملء فروجه (١) فقال حامل البريد : « ويل له ، لقد استطرد به الشيطان » . ولم يكن الذى مر يعدو غير صاحبنا الذى بات على حال حقيقة بالرحمة . فلو انك سألته الى اين تمضى ؟ ومالك هكذا تسرع ؟ لاجاب : لا ادرى

---

(١) أى ملء مابين أقدامه ، والمعنى أنه أسرع بجواده

انه خرج تحت مشيئة الاتفاق . فاما الى (اراس) واما الى غيرها . ومرت تهوى به العجلة فى جوف الليل وكأنها مدفوعة الى هاوية ، وكان يشعر انه قد بات نهبا لقوتين متباينتين لا قبل له بهما : هذه تدفعه وتلك تجذبه ، ولا يعلم الا الله وحده ما كان يجول فى مناحى نفسه . ومن ذا الذى سلم من ان يضل ولو مرة واحدة فى ظلمات مغاور الغيب ؟ فسار وما عزم عزما ولا وقف عند رأى رضيه ولا سكنت سريرته لامر ابرمه . فكان فى اخرى هواجسه مثله فى أولاها ، ما زال واقفا حيث كان . ثم عاوده ما كان يتمشى فى نفسه حين ركب العجلة ، فقال : « مهما كانت العاقبة فمن العجز الا آخذ بالحيطة . وليس للمرء ان يقطع بوقوع أمر من الامور، ولكن له أن يطرحه تحت نظر فكره فيستبطنه بحثا واستقراء . ومن نصب نفسه للحكم على الاشياء وهو غير مكثب (١) فقد اخطأ مواقع الرأى واطلع من الذر جبالا ، ولعلى اذا لقيت (جان ماتيو) وجدت الامر ايسر مما فى نفسى ، ورأيته اهلا لما نزل به . اما (جافير) فما كان ليكبد (٢) لى وقد صرف الله عنى عنانه وصبه على (جان‌ماتيو) فصوب اليه الظنون والشبهات ، ونعوذ بالله من عنادها ، فانها ما نزلت بصدر الا تعصى على صاحبه انتزاعها . فلا خوف اذن من ذلك الداهية ، ولا اكذب نفسى فالساعة مرهوبة ، ولكن باب الرجاء لا يزال مفتوحا ومصيرى لا يزال بحمد الله فى قبضة يدى أصرفه كيف اشاء

واشتد به بعد ذلك القلق فكان يؤثر فى قرارة نفسه أن يعود على ان يذهب . وكان كلما انقبض صدره صب سوطه على ذلك الجواد الذى كان يحضر (٣) أحضارا يطوى فى الساعة فرسخين ونصف فرسخ . وجعل كلما اندفع فى طريقه نمت عنده شهوة الرجوع

---

(١) أى قريب (٢) أى يصعب على (٣) أى يجرى جريا سريعا

ولما تنفس الصبح او كاد ، كان فى الفضاء وقد اختفت مدينة مونتراى سيرمير فنظر الى افق قد ابيضت ذؤابته ، وبرزت صحيفة وجه فجر ولدته ليلة من ليالى الشتاء ، اصباحها اشبه الاشياء بامسائها . لا تكاد ترى تباشيره ، ولكن اخيلة (١) التلال والاشجار قد اضافت الى ما كان فى نفس هذا البائس ما يعلم الله من ضروب الحزن والاسى ، وكان كلما مر بدار من تلك الدور المنعزلة على لقم (٢) الطريق قال فى نفسه : « ما لهذه الدار بد من ساكن ينام ملء جفونه »

وكان لخبب الجواد وجرس جلجله ووقع العجلة على البلاط ، ايقاع حسن ونغم متماثل يدخل الانس على نفس الخلى ويزيد فى اسى نفس الشجى

فبلغ قرية (هيدسان) وقد اضحى ، فوقف امام نزل رجاء ان ينفس عن الجواد ويعلفه . وكان جوادا كما قال عنه صاحبه من اصل بولونى عظيم السليل (٣) سحيرا (٤) ادك (٥) اهنع (٦) مفتوح اللبان . دقيق عظم الساق . صلب الحافر . فهو وان لم يكن اصيلا كان (٧) متينا . فعل فعل كرام الخيل فطوى خمسة فراسخ فى مدى ساعتين ، وما نضح كفله بماء ، ولا رمت اعطافه بحميم

وكان لا يزال مشدودا الى العجلة حين حضر غلام النزل يحمل اليه العلف ، وحانت منه التفاتة الى العجلة اليسرى ، فصاح بالرجل : « او انت على سفر بعيد ؟ » . قال : « مالك ولهذا ؟ » . قال : « هل قطعت شقة طويلة ؟ » . قال : « خمسة فراسخ » . فأجاب الغلام وهو يدمن النظر الى العجلة : « لئن كانت قد قطعت بك خمسة فراسخ ، لمن المحال ان تقطع بك ربع فرسخ آخر ، انظر الى ما حل بها من

---

(١) جمع خيال (٢) جوانب (٣) أى كبير الرأس (٤) كبير البطن (٥) عريض الكفل (٦) قصير العنق (٧) أى قوى الاعصاب

العطب » فوثب الرجل ونظر حيث ينظر الغلام . فقال الغلام وهو يحاوره : « اولى (١) لك ، فما كان اخلقها ان تطرحك وجوادك فى حفرة من حفر الطريق » . ثم اشار الى مكان العطب ، فاذا العجلة اليسرى قد اخترمها البريد حين صدمها فى منتراى سيرمير ، فقصف اصبعين من اصابعها ، وكاد محورها يفلت المحوى (٢) فقال الرجل : « ابغنى نجارا له خصيصاء بهذا العمل » . فقال : « انه على خطوتين منا » . وكان النجار على عتبة داره ، فجىء به فجعل ينظر الى العجلة وقد انقبضت اسارير وجهه كأنه مطبب ينظر الى ساق مهشمة . فقال الرجل : « اتعالج اصلاحها فى الحال ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ومتى اسافر ؟ » . قال : « غدا » . فأجاب الرجل : « غدا ؟ » وقد ملكه الدهش . فقال النجار : « ان اصلاحها يستوفى عمر النهار كله . فهل انت من امرك على عجل ؟ » . قال : « ما احوجنى الساعة الى السفر » . قال : « وددت لو تهيأ لك ذلك » . قال : « اصلحها ولك حكمك (٣) » . قال : « ليتنى استطيع ذلك فأفوز بوعدك » . قال : « انى مسوق الى السفر فاذا اعياك اصلاحها فابغنى غيرها » . ثم قال : « اهنا مركبة للكراء ؟ » . قال : « عندى مركبة يقبضنى عن اكرائها ما اراه بعجلتك من العطب ويلوح لى انك غير حريص على مال غيرك » . قال : « بعنيها » . قال : « اما البيع فلا » . قال : « انى ندى الكف وان اشتط البائع » . قال : « تحت يدى عجلة لأحد الفلاحين يستخدمها فى السادس (٤) والثلاثين من كل شهر ، فان شئت اكتريتها على شريطة الا يراك ربها وانت

---

(١) نجوت وما كدت تنجو ، هكذا شرحها لنا المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطى وهو من أمضغ العرب للشيح والقيصوم (٢) المحوى بتشديد الواو المسمار القلاووظ (٣) أى ما تشاء من الاجر (٤) مثل يضرب عندهم للمستحيل كقولنا قيام الساعة ، يريد أنه لا يستخدمها مطلقا

منطلق بها ، ولـكنها عجلة عاتية لا يستظل بها جواد واحد ، ومن لك الساعة براسين من الجياد ؟ » . قال : « من مرابط خيل البريد » . قال الرجل . « وما وجهك ؟ » (١) . قال : « مدينة اراس » . قال : « أو حتم من الحتم ان تبلغها اليوم ؟ » . قال : « نعم » . قال : « الا يستوى عندك ان تبلغها فى فجر هذه الليلة ؟ » . قال : « لا » . قال : « هل تحمل جوازا للسفر ؟ » . قال : « نعم » . قال : « انك اذا تهيأ لك ان تحصل على جوادين من مربط خيل البريد فما انت ببالغ اراس قبل الغد ، فان خيول البريد فى هذه المراحل منشورة فى المزارع ، ونحن فى ابان الحرث وهم يجمعون له الخيل انى اصابوها . فاذا لجأ سيدى الى ذلك . كان عليه ان يلبث نصف يوم عند كل مرحلة ، دع ما يعرض له من العقبات » . قال : « اسرح جوادى هذا من عجلتى وامتطيه فابغنى سرجا » . قال : « وهل يصبر جوادك على صحبة السرج ؟ » . قال : « لقد ذكرت منى ناسيا . انه لا يصبر على صحبته » . قال : « هل من سبيل الى جواد نبيل يبلغ بى اراس من غير تنفيس (٢) » . وقال : « انك لن تظفر به ، وهبك وجدته فان ربه ليضن به ولو ملأت يديه ذهبا » . فشاع السرور فى نفسه وقال : « ان للعناية يدا فيما ارى ، او ليست هى التى اتلفت العجلة ، وقطعت على السبيل ؟ وقد انذرتنى فلم يلونى انذارها عن القصد ، والتمست المخرج مما انا فيه ، فما ثنانى برد ولا قعد بى نصب ، ولا ارهقتنى نفقة ، فأصبحت وقد عدانى اللوم ، فاذا استحال على المضى فى طريقى فتلك مشيئة القدر » . ثم تنفس ملء رئتيه تنفس الحر الطليق ، وخيل اليه ان السهم الذى

---

(١) الوجه القصد ، الجهة ، السبيل (٢) أى فى مشوار واحد كما تقول العامة

ضل نصله فى فؤاده قد انتزعه منه نازع ، فوجد لذلك روحا لم يجده منذ رأى وجه جافير

وقال : « لقد علم الله انى صنعت ما يكاد يخرج عن الطوق فأخطأنى التوفيق ، فلا املك من امرى بعد هذا كله الا الرجوع على هاتين النعلين »

ولو كان حديثه مع النجار فى خلوة لما وصل الى اذن حى وللبث مكتوما ، ولكنه كان على الطريق المعبد . ومن شأن مثله ان يلفت المار الذى يستهويه حب الاستطلاع فيقف ناشرا اذنيه لتسقط الخبر ، فلا يكاد المحدث يمر فى حديثه حتى يرى حوله حلقة من الناس ، وما منهم الا من هو فارغ لذلك .

وكذلك وقع (لجان فالجان) فبينا هو يحاور النجار واذا بطائفة من السابلة قد التفت حوله ، وكان بينهم غلام لا تكاد تأخذه العين ، قد تسلل من الجماعة وطفق يعدو حتى اختفى وما كاد يهم (جان فالجـان) بالرجـوع حتى عاد الغـلام يصطحب امرأة عجوزا

قالت العجوز : « ان غلامى هذا قد نقل الى انك فى حاجة الى مركبة » . وما كادت ترمى بتلك الكلمة حتى ندى بالعرق جبينه ، وشعر كأن اليد التى سرحته منذ قريب توشك ان تقبض عليه من جديد . فلبث غير بعيد ثم اجاب : « نعم ايتها المراة الصالحة ، فأنا فى حاجة الى مركبة اكتريها ، ولكنهم يزعمون انى احاول المحال » . قالت : « لقد وجـدتها » . قال : « اين ؟ » . قالت : « عندى » . فاحتوته قشعريرة وقال فى نفسه : « كان الذى خفت ان يكون »

وكانت مركبة عتيقة من الخيزران قد علاها الوحل واكلها الصدا وفعل فيها الجو فعـله . ولم تكن بأحسن حالا من مركبته المعطوبة . ولـكنها لم تأب على ما فيها ان تقله الى اراس ، فلم يجد عنها مزحلا ، فاكتراها على حـكم ربتها وشد اليها جواده وانطلق فى سبيله . وبينما كانت العجلة تجرى

به كان يجري فى نفسه حديث غريب : « لقد احسست منذ هنيهة سرورا بعثته تلك الحوائل التى قامت بينى وبين المضى فى طريقى وارى الساعة انه سرور كاذب . الويل لى . ايسرنى الاحجام عن مقصد انا الذى وجه اليه نفسه مختارا والقعود عن سفر انا الذى حمل نفسه عليه مسوقا بارادته ؟ »

ولم يكد يمضى فى طريقه حتى سمع صوتا يهيب به ان قف ، فأوقف العربة ارتجالا وقد عرته هزة المحموم المختلج ولعلها احدى هزات الامل . واذا بغلام العجوز يناديه : « انا الذى هيأ لك الحصول على العجلة » . قال : « وما تريد ؟ » . قال : « اجرى على ذلك » . قال وقد فارقته تلك الاريحية التى طالما تهزه الى اسداء الجميل : « اغرب ولا كرامة » ثم ساط الجواد فانطلق يعدو ، واراد ان يعوض ما اضاعه من الزمن فى هيدسان ، فحط على جواده بالسوط . فلقى عناء من الجر وكان قد خرج به غب (١) سماء فكابد من الوحل وثقل المركبة ما كاد يأتى على قواه ، فلم يطو غير خمسة فراسخ فى مدى ساعات اربع حتى بلغ سانت بول . وهناك نفس عنه فى نزلها وقاده الى الاسطبل ووقف يعلفه . واقبلت ربة النزل فقالت : « الا يأكلْ سيدى ؟ » فقال : « ما احوجنى الى الطعام » . وكانت امرأة صبوحة الوجه فارهة الجسم ، واقبلت خادم ، فهيأت له الخوان وهو يسارقها النظر وقد وجد لها فى نفسه محلا فأهوى الى الخبز ، فمضغ منه لقمة واحدة وكف يده . وكان على المائدة التى بجواره سائق عجلة يأكل . فقال له : « ما لهذا الخبز مرا ؟ » وكان المانيا فلم يفقه قوله ولم يجبه . وانكفأ بعد ذلك الى الاصطبل يراقب الجواد ، فلما فرغ من علفه شده ، وانطلق به الى مدينة (تنك) وكانت

---

(١) أى عقب مطر

على خمسة فراسخ من اراس . فسار وقد غرق فى هواجسه وجعل يتأمل وجوه الشجر وسطوح الاكواخ ومناظر الخلاء التى كانت تلوح له كأنها قد وقعت فى غشية أو سبات

وأن لوجوه الارض لتسلية ترفه عن النفس وتصرفها عن التفكير ، ولكنه قد مر بألف وجه منها وما زال كاسف البال وفاته قولهم : «من سافر فقد تجدد » وما يدريك لعله كان يقارن فى نفسه بين تقلب الاجواء وذلك الوجود البشرى الذى لا يستقر فيه شيء على حال فكل ما فيه قد جبل على الفرار منا . الم تر الى الليل والنهار كيف يتعاقبان ، والى الشروق والغروب كيف يتناوبان . والمرء يرى ما يمر به فيسرع باسطا يديه ليمسكه فيفلته ، وكل حادث ينتابنا هو لية فى طريقنا لا تلبث ان تسلمنا الى الكبر ، وكلما احسسنا تلك الهزات الخفية وقف بنا النظر على باب الغد وما وراءه غير الغامض من الغيب ، دع جواد الحياة الذى يستطرد بنا زمانا ثم يقف على غرة من راكبه ، فيأتى من جوف الغيب من يرجله عنه ثم يسرحه

وطلع الشفق على مدينة تنك فى آن ، وكان النهار قصيرا فانطلق حتى اذا مر برصاف يرصف الحجارة قال الرصاف وهو ينظر الى جواده : « ارى جوادا مكدودا » ثم نظر الى الرجل وقال : « لعلك تريد اراس ؟ » . قال : «نعم» ، قال : « انك لن تبلغها على هذا الجواد » . قال : « كم بينى وبينها ؟ » . قال : « سبعة فراسخ » . قال : « ان دليل البريد لا يقول بقولك » . قال : « انهم يصلحون الطريق على مقربة منا فلا يتسنى لك المضى فيه ، وما اخلقك بالعروج على طريق آخر ، فعليك ان تتياسر ثم تركب طريق جارنس ثم تعبر النهر هناك ، فاذا بلغت كامبلان فتيامن واركب المحجة (١) الى اراس » . قال : « اخشى الضلال فى هذا

(١) الطريق

الليل البهيم » . قال : « أولست من اهل هذا البلد ؟ » . قال : « اني غريب » . قال : « عد الى تنك واقض الليلة في نزلها واستبدل بهذا الجواد الذي نزح التعب قواه جوادا يقلك الى اراس » . قال : « استحال غير السفر في هــذه الليلة » . قال : « اســتأجر جوادا ودليــلا » . فعمــل بمناصحته وقفل الى تنك وعاد يعدو بجواد جديد يصحبه غلام من النزل

وغاب في احشاء ليل قد كسر على الارض جناحيه . وكان الطريق وعرا ، والعجلة تجلجل (١) فوق نكت الارض وهو فوقها مقلقل الشخص يهيب بالغلام : « ايه ايه ولك ضعف الاجر » . فصاح الغلام : « لقد عطب العريش ، فكيف نمضي ونحن بين طريق وعر وليل خليق ان تصــد محارمه (٢) عن السرى ، فهل لك ان تعود الى تنك وانا الضمين ان تبلغ اراس عند منبلج الصباح » . فقال : « امعك حبل وســكين » . قال : « نعم » . فأهوى الى شجرة فاقتضب منها فرعا اقامه مقام العريش وانطلق في سبيله

وكان الوادي في ظلام دامس والضــباب (دان مسف (٣) فويق الارض هيدبه) ينبعث من التلال كأنه كسف من الدخان وقد شاع في سواد السحب بيــاض ، وهبت ريح البحر في جوانب الافق فكان لهبوبها اشبه الاصوات بصوت الاثاث عبث به عابث

فتمخخ (٤) البرد عظامه وكان طاويا منذ العشية ، فذكره القر والطوى تلك الليلة التي قضاها منذ سنين ثمان في ضواحي مدينة (ديني) وقد ذكرها كأنه يذكر أمس الدابر . وسرى الى سمعه جرس ساعة على بعد فقال للغــلام : « ما هــذه

---

(١) أي تتحرك مضعضعة (٢) أي مخاوفه (٣) مأخوذة من قول الشاعر: يصف سحابا قريبا من الارض :

دان مسف فويق الارض هيدبه * يكاد يدفعه من قام بالراح

(٤) تمخخ أخرج مخها

الساعة ؟ » . فقال : « انها الساعة السابعة وسنبلغ اراس فى الثامنة ، فليس بيننا وبينها غير فراسخ ثلاثة »

ونزلت براسه فكرة لم يسبق لها فى النزول ، فقال : « ويل لى ما اضيع ما جشمت نفسى فى يومى هذا من التعب أما كان الاخلق بى ان اعلم علم تلك القضية وموعد النظر فيها » ثم قدر فى نفسه تقديرا لذلك الموعد وقال : « ان الجلسات لا تعقد قبل الضحى ، والنظر فى هذه القضية لا يفتقر الى الكثير من الزمن ، ان هو الا سؤال وجواب فشهادة او شهادتان . فكلمة للمدافع . فحكم لا يتعدى التغريم ، ولعلى ابلغ الجلسة قبل الفوات »

كل ذلك والغلام يسوط الجواد فعبر النهر وجاز مدينة مونت سان الواى وقد سطعت غياهب الظلام



ولنعد بالقارىء الى « فانتين » :

فى الوقت الذى تجرى فيه هذه الحوادث كانت فانتين رضية البال ، وكانت قد طوت ليلة مذكورة ، كابدت فيها من الحمى ومزعجات الاحلام ما يهد الحيل (١)

ولما اصبحت كانت لا تزال تهذى ، وعادها الطبيب فوجدها فى فورة من النفس فطلبت اليه ان ينذرها عند قدوم مادلين

ولبثت فى تلك الضحوة كاسفة البال لا تكاد تفتح فاها . وجعلت تلهو بطى غطائها طيات مقدرة ، وتحرك شفتيها كأنها تذرع (٢) بفكرها مسافة من المسافات ، وقد غارت عيناها وجمد بصرها ، وانطفأ ضياؤه او كاد . وكانت تفتح بين الفينة والفينة عينيها عن مثل لمعة الكوكب ، ولا عجب

---

(١) الحيل والحول ، بفتح الحاء فيهما : القوة (٢) تقيس بالذراع

فاذا دنت ساعة الشدة فان مددا من السماء يملأ نفوس اولئك الذين فقدوا مدد الارض

وكانت كلما سألتها الراهبة : « كيف انت ؟ » قالت : « احمد الله ولا اطلب الا رؤية مادلين » !

منذ بضعة اشهر وفى ذلك الحين الذى ابتذلت فيه فانتين خدرها فتمزقت عفتها ، وغاض حياؤها ، كنت ترى فانتين وكأنها ظل لفانتين . اما اليوم وقد فنى جسمها فقد كنت ترى فانتين وكأنها طيف لفانتين (والظل للجسم والطيف للروح) ولقد كان لتشويه خلقها اثر فى خلقها فانظر الى تلك المرئية التى لم تشهد غير خمسة وعشرين ربيعا ، كيف هبط اكثر لحمها فتجعد جبينها ورهل خدها ، وشحب لونها ، وبرز منكباها ، وتجردت عظام نحرها ، وانبرت اعضاؤها ، واصبح جلدها وكأنما طلاه بالطين طال . ونبت شعرها الاشقر وقد نصل لونه وجالت فيه طلائع المشيب ، فأف من المرض فانه يرتجل الشيخوخة وانه لانجب مطايا الكبر

وعند الظهر عادها الطبيب فسأل عن مادلين ولما علم بغيابه حرك رأسه حركة اعربت عن الاسف

وكان مادلين يأتى فى عصر كل يوم وما تخلف مرة عن ذلك الموعد . والوفاء من شمائل الطيبة ، وقد كان الرجل طيبا

وعاودتها عند العصر فورة النفس فسألت عن ساعة زمانها عشر مرات فى مدى عشرين دقيقة ، ثم استوت فجأة فى سريرها ، تلك التى كانت لا تنبعث لها جارحة من المرض والهزال . ثم شبكت ذراعين قد انحلهما السقم ، وارسلت من صدرها تنهدا خيل معه الى الراهبة انها رفعت به عن صدرها ثقلا ، ورمت الباب بنظرة من يرقب قدوم انسان . ولكن الباب لم يرمها بأحد فلبثت برهة وهى تنظر اليه ، وكأنها معلقة الانفاس والراهبة لا تجرؤ على سؤالها . ثم

القت براسـها على الوسـادة ومرت السـاعة تلو الساعة ولم يزرها زائر

وما رآها على تلك الحال راء الا وعلم بما يجول فى فـكرها ولـكنها صابرت آلامها ، فلم تشك ولم تتوجع

وسمعتها الراهبة قبيل الغروب وهى تقول بصوت خافت : « اننى هامة اليوم او الغد ، فمـا كان اخلقـه اليوم بزورة الوداع » . ثم طفقـت تغنى ـ وكان صـوتها نفحـة من نفحات النسيم ـ اغنية عتيقة تدعى باغنية الارجوحة ، كانت تنغم بها فانتين لانعاس طفلتها فى عهدها الاول ، وقـد كان صوتها يقطر حزنا ، وايقاعها مشجيا لا يملك السامع معـه الدموع من ان تسيل ، فبكت حتى تلك الراهبة التى درجت على الزهد والتقشف

ولما اعتمت علت وجهها آيات الذهول وارسلت الراهبـة صبية تسأل عن مادلين فعادت على الاثر واسرت لها ان مادلين قد سافر وحيدا فى فجر هذا اليوم ولا يدرى خلق بالوجه الذى يريده

وقد رآه قوم على طريق اراس وزعم قوم انه قـد ركب طريق باريس وكان هو هو ، لم يلمحوا على ظاهره ما ينم على باطنه . وبينما هما يتساران على مقـربة من سريرها وقد استدبرتاه واذا بفانتين وكأن نافضا من الحمى تمازجـه حركة المعافى فى بدنه قد حركها فى سريرها . فهبت رغم ذلك الهزال المروع هزال الموت وجثت على ركبتيها واعتمدت على الوسادة بمرفقيها وارهفت للسمع اذنيها وفرجت براسـها ما بين سجفى كلتها (١) وصاحت بهما : « انكما تخوضـان فى حديث وان لمـادلين فيه لشـأنا » . ونادتهما بصـوت تخالطه البحة والخشونة ، كان من اثره فى نفسيهما ان ظننا

---

(١) الناموسية

ان المتكلم رجل من الرجال ، فالتفتتا مذعورتين فقالت لهما : « مالكما لا تنطقان ؟ » . فقالت الصبية بصوت خافت : « ان البوابة تقول انه لا يعود الليلة » . وقالت الراهبة على اثرها : « اهدئى انت ونامى » . فأجابتهما بصوت فيه رنة من الجلال ونبرة من الاسى : « انه لا يعود ، اراكما تتساران فى شيء تحاولان كتمانه عنى ، ولا بد لى من الوقوف عليه » ، فألقت الصبية فى اذنى الراهبة كلمات فاحمر وجه الراهبة وهالها ان تكذب ، ثم ترددت بعض الشيء ، وقالت فى نفسها ان انا صدقتها فى مثل هذا الموطن فقد قتلتها ، وان انا كذبتها فقد قتلت كرامتى . ثم لبثت غير بعيد ، وقالت لفانتين بصوت المتمكن من نفسه : « ان مادلين قد سافر اليوم »

فاستوت المريضة فى سريرها وسرت بنفسها عقبة من السرور ومرت بعينها خطفة من بارقة الامل وصاحت : « انه سافر ليرى كوزيت » ، ثم ضمت يديها واستقبلت السماء بوجهها واخذت تصلى . ولما فرغت من صلاتها قالت للراهبة : « الآن حلا لى النوم امضاء لامرك فلا تنزلى امرى على الجراة عليك اذا رفعت صوتى فى الحديث ، فما فاتنى ان ذلك كان خروجا عن افق الادب وانما استخفنى السرور !.. ثم اخذت مضجعها بعد ان لثمت صليبها ، وقالت لها الراهبة : « اهدئى ونامى » فضمت يديها الناديتين على يدى الراهبة التى هالها وفر العرق الناضح من جسم المريضة

وانشأت فانتين تقول : « سافر الى باريس وما كان اغناه عن ذلك ومونت فورمى على يسار ذلك الطريق فلعله يتحرى مفاجأتى بذلك النبأ السار ، فقد قال لى بالامس حين جر الحديث الى ذكر كوزيت اننى سأراها قريبا واخذ توقيعى على كتاب الى اصحاب النزل ولا احسبهم الا فاعلين وما كانوا ليحبسوا عنى كوزيت وقد وفوا اجورهم فحبسها

عني افتيات على اولي الامر ، فلا تومئي الي بالسكوت فأنا الساعة في عافية لا عهد لي بمثلها وسعادة لا حد لها .
او لست خليقة بعد اعوام خمسة ان ارى وجه طفلتي ولا احسبها وقد بلغت السابعة الا صبية حسناء ولقد صبرت على بعدها طوال السنين ، وللصبر حد ولو ان لي عمر الابد لهان ذلك البعاد

« فما اطيب عنصر ذلك الرجل الذي غامر بنفسه في ذلك البرد القارس لانقاذ طفلتي ، ولعله يعود في الغد من مونت فورمي ، وهي بلدة قد قطعت طريقها على قدمي منذ عهد طويل فكان بعيد الشقة علي وان كان يسيرا على العجلان ، فيا ترى كم بيننا وبينها ؟..

فأجابت الراهبة التي لا علم لها بتلك الشقة : « انه سيعود باذن الله في الغد » . فقالت : « سأرى بنيتي في الغد . ان الامل بلقائها قد البسني ثوب العافية ، فلست مريضة كما تزعمون ، ولكني مفتونة ، فلو اني دعيت الساعة الى الرقص لابدعت فيه »

وكانت في هذه الآونة وردية اللون قد ابتسمت قسمات وجهها ، فكنت ترى ذلك الوجه وكأنه قد جمع من البسمات وما اشبه سرور الامهات بسرور الاطفال

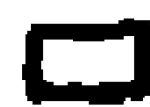
ثم القت براسها على الوسادة وجعلت تدور بعينيها في ارجاء الحجرة وقد بدت عليها سيما الارتياح ، فأطبقت الراهبة الستائر على كلتها رجاء ان يأخذها النعاس . وعاد عند العتمة الطبيب فلم يحس حركة في المكان فعزا ذلك الى نوم المريضة فخافت (١) من مشيته ودنا من سريرها وازاح الستار فرأى على ضوء الساهرة (٢) وجها هادئا وعينين لم يرنقهما النوم ، فابتدرته قائلة : « انهم سيتيمونها هنا بجانبي

---

(١) أى مشى على أطراف أصابعه
(٢) الساهرة وجمعها سواهر كلمة قد وضعناها مكان القراية عند العامة

على سرير صغير » . فعجب الطبيب من امرها وظنها تهذى فانتحى بالراهبة ناحية فنفضت اليه جملة الامر . ثم عاد الى سرير المريضة . فقالت : « اذا تيقظت بنيتى القيت عليها تحية الصباح ، واذا نامت صنع بى تنفسها الهادىء ما لا يصنعه الدواء ، فاتجه الى العافية » . فقال لها الطبيب : « يدك » فمدت يدها وهى تبتسم وتقول : « الا ترى انى نجوت ؟ » فدهش الطبيب حين جس نبضها ورأى الحياة تجرى فيه جريانا . فقال : « انه من صنع السرور الذى ادخله على نفسها الامل بلقاء بنيتها » ثم اوصى بالسكوت وامر بدواء يلطف من حدة الحمى اذا هى عاودتها فى ليلها ، وقال للراهبة عند انصرافه : « اذا اسعدها الطالع برجوع مادلين فى الغد فقد نجت »

وكائن من سرور مسح من مرض ، وانه لسر من الاسرار التى سيكشفها العلم فى مقتبل الزمان



ولما كانت العتمة ، وقف المسافر الذى تعقبناه على باب النزل (باراس) وسرح الجواد الذى استأجره وقاد بنفسه الجواد الابيض الى الاصطبل ثم عاد الى النزل وجلس فى احدى قاعاته وارتفق (١) على منضدة وكان قد استوفى عمر يوم وليلة فى سفر كان يقدر له نصف يوم ، وما كان ذلك من صنعه ولكنه صنع القدر

ولو انك قرأت ما فى نفسه لتجلت لك فيها آيات الرضى . ودخلت عليه فى هذه الاثناء ربة النزل ، وقالت : « ايرغب سيدى فى العشاء والنوم ؟ » . فأومأ اليها برأسه ايماءة الرفض ودخل على اثرها غلام الاصطبل وقال : « ان جوادك

(١) اعتمد بمرفقيه

مكدود » فابتدره قائلا : « او ليس فى طوقه السفر غدا ؟ » . قال : « انه لا يستطيع الحركة قبل يومين » . قال : « اين مكتب البريد ؟ » فقيد اليه ، فأخرج جواز السفر وطلب العودة الى مونتراى سيرمير فى نفس البريد الذى قدم معه وكان المقعد المجاور لمقعد السائق لا يزال خاليا ، فأجيب الى طلبه ودفع النفقة وانذر بالسفر قبيل السحر

ثم غادر النزل وجعل يمشى فى المدينة ويتنقل فى طرقاتها على غير هدى وكبر عليه أن يسأل المارة ، فعبر النهر وخلص الى زقاق ضيق فضل السبيل ومر به فلاح يحمل فانوسا (١) فبدا له ان يسأله عن الطريق ثم نظر الى الخلف والامام كراهة ان يسمعه انسان ، ولما امن ذلك سأله : « اين دار المحكمة ؟ » وكان الرجل من ذوى الاسنان . فقال له : « يلوح لى انك غريب فاتبعنى فان طريقى عليها » . فانطلقا حتى اذا كانا على كثب من الغرض انشأ الفلاح يحدثه : « ان كنت رب قضية فقد جئت بعد الفوت ، على انى لا ازال ارى ضوءا بنوافذ قاعة الجلسة ، ولعلها لم ترفع ، فان كنت شاهدا فقد جئت فى الوقت » . قال : « انما جئت لاستشارة محام » . فقال الفلاح : « هاك الباب فاذا دخلت فارق الدرج »

فمضى الرجل على ارشاد صاحبه فاذا هو فى قاعة فسيحة قد غصت بالناس ، وطائفة من المحامين هنا وثم يتهامسون ، وان رؤيتهم وهم فى ملابسهم السوداء لما تنقبض لها النفس ، فقل أن تخرج كلمة من افواههم يستروح منها السامع روائح الرفق او يجد ريح البر ، فلا يكاد يسمع الا نعيبا يؤذن بحلول العقاب

فاذا مررت بهم حسبت انك امام خلية دونها خلايا النحل ، خلية تطن فيها العقول طنينا حتى ليؤتى لك وقد اخذتك الوحشة انك فى معبد مظلم تعمره الارواح . وكانت القاعة

---

(١) الفانوس فى الاصل النمام وقد استعمل للشمع لانه ينم عليه

على ترامى اطرافها لا يضيئها الا سراج واحد فمشى الرجل فيها وقد شد منه ذلك الظلام الذى عجز عن تبديده السراج ، فلم يستح ان يسال اول محام لقيه : « فيم القوم ؟ » . قال : « قضى الامر » . فارتاع وقال : « قضى الامر ! »

نطقها بمرارة لفتت اليه المحامى . فقال : « العلك قرابة (١) له » . قال : « لا شأن لى ولا قرابة ، فهل حكم بالادانة ؟ » . قال : « استحال غير ذلك » . قال : « اتراه سجن الابد ؟ » . قال : « نعم » . قال بصوت لا يكاد يسمع : « لقد عرفت اذن شخصيته » . قال : « اية شخصية ؟ لقد كان الامر جليا . امرأة قتلت ولدها فحق عليها العقاب ! » . قال : « أعن امرأة تتكلم ؟ » . قال : «نعم» . قال : « ما لهم وقد فرغوا من امرها لا يزالون فى مقاعدهم ؟» قال : « انهم ينظرون منذ ساعتين فى شأن آخر » . قال : « وما عسى أن يكون ؟ » . قال : « مجرم عائد من أرباب السوالف واضياف السجون لا يحضرنى اسمه قد اخذوه بسرقة جديدة ، ولعلهم لا يتلومون فى الحكم عليه ، فسحنته سحنة الفاتك ، ولو كنت قاضيا لكفتنى النظرة اليه مؤونة التحقيق فى امره » . قال : « الا يتسنى لى الدخول ؟ » . قال : « أن القاعة مكتظة بالناس وقد رفعت الجلسة فاذا عادوا الى النظر فربما تهيأ لك الدخول فى غمار الناس » . قال : « ومن اين اخلص اليها ؟ » . قال : « من ذلك الباب الكبير »

ثم غادره المحامى وهو على غير استواء ، وكأن ابرا من الثلج ونصالا من النار قد اعتورت فؤاده وخزا وطعنا ولم يدر أكان مأتاها الالم ام السرور . وجعل يقترب من الناس وهم قنابل (٢) قنابل يتحدثون فسمعهم يقولون : « ان هذا الرجل قد سرق تفاحا ، فهو وان لم تثبت عليه السرقة فقد

(١) اى قريب (٢) جماعات جماعات

ثبت انه من المجرمين العائدين وقد انقضى استجوابه وشهدت الشهود ، ولم يبق الا دفع المحامى ورد النائب وربما استوفى ذلك من الليل نصف عمره ولا نظنه يفلت من العقاب . فالمدعى فتى ذكى الفؤاد اديب ينظم الشعر ويعرف كيف يوفى الاتهام حقه » . فدنا من الباب فوجد عنده حاجبا فسأله : « متى يفتح ؟» . فقال : « لا يفتح » . قال : « كيف والجلسة على وشك الانعقاد بعد رفعها ؟ » . قال : « قد عقدت الجلسة والقاعة قد ضاقت بمن فيها » . قال : « الا اجد فيها مكانا اصف فيه قدمى ؟ » . قال : « لا » ، ثم عطف قائلا : « ان خلف الرئيس مكانا او مكانين لايؤذن بحلولهما لغير الخاصة » . ثم ولاه ظهره فنكس الرجل راسه ومشى مشية الحائر وهبط بعض الدرج وهو من نفسه فى حرب عوان ثم اخرج من جيبه بيضاء (١) خط فيها : « مادلين شيخ مونتراى سيرمير » ثم صعد الدرج وشق الصفوف واتى الحاجب وقال له بصوت الآمر : « احمل هذه الى الرئيس » فاخذها الحاجب والقى عليها نظرة عجلى ومضى طائعا



منذ سنين سبع ومادلين نابه الذكر قد اقترن اسمه بالثناء ، وملأت شهرته جوانب الافق فجازت حدود بلده الى ما جاوره من البلدان فتعالم (٢) الناس فضله واخصب به الزمان والمكان فنمت فى عهده صناعة الخرز الاسود وكانت له يد على الصناعات ، فمد المصانع بالمال حتى حسد بلده عليه

وكان رئيس الجلسة فى اراس ممن يعظمون مادلين ويبجلونه فلم يكد يحمل الحاجب اليه رقعته حتى اذن له ، فعاد الحاجب فسلم وانحنى حتى كاد يمس الارض بجبهته وحتى تبين

---

(١) اى ورقة بيضاء (٢) اى علم

مادلين اعظامه فى حماليق عينيه ، وقالَ له : « ليدخلْ سيدى غير مأمور » ومشى امامه مشية العبد القن

ذلك الذى كان يوليه ظهره غير مكترث له ثم مد له يده برقعة الرئيس ، فتناولهـا واقترب من المصـباح وقرأ على ضوئه : « ان رئيس المحكمة بأراس يهدى تحيـة يمازجهـا الاجلال الى الشيخ مادلين »

ثم تبع الحاجب فلم يلبث ان رأى نفسه وحيـدا فى قاعة المداولة وكانت قاعة لا تسر النظر يضيئها شمعتان قد نصبتا على منضدة اقيمت على بساط اخضر . وذكر قول الحاجب عند انصرافه : « انك يا سيدى فى قاعة المجلس ، فان أدرت ذلك الزر النحاسى الذى تراه بالباب وجدت نفسك فى قاعة الجلسة خلف كرسى » ، ففعلت فى نفسه تلك الـكلمات فعلها واختلطت بما كان يدور فى رأسه من الذكريات المبهمـة التى بعثها فيه ما صادفه فى ذلك المشى وما مر به فى تلك الدرج . واوفت الساعة المرهوبة فحاول أن يجمع اشتات نفسه فلم يغن شيئا ، وتضعضع فى ساعة هو احوج ما يكون فيها الى التماسك تلقاء تلك الحقيقة الاليمة . وكم قطع فى مثلها سـلك التفكير وملكت على المرء المذاهب ، فقد كان فى الموطن الذى يجلس فيه القضاة فيدينون ويبرئون . وجعل ينظر نظر الابله الى تلك القاعة السـاكنة المروعة التى يقضى بها على ارواح العباد . وكان به وهو ينظر اليها أن اسمه سوف يدوى فى جوانبها وان المقدور عليه سوف يحلق فى سمائها

وجعل يتنقلُ ببصره بين جدرانها وبين نفسـه ويقول : « ترى ما هذه القاعة وترى من انا ؟ » وكان قد طوى يوما وليلة وفعلت فيه رجات المركبة فعلها ، ولكنه لم يستشعر الما ولم يحس جوعا ، ودنا من اطار اسود معلق على الجدار فيه رسالة عتيقة لا يعلوها زجاج ، خطها جان نيكولا (باش عمدة باريس) واحد الوزراء ، رصد فيها اسماء النواب والوزراء

الذين اقتضبوا من دورهم اقتضابا وسيقوا الى السجن ، ولو أن امرءا تفرس فيه لادرك للوهلة الاولى أن الرسالة قد اخذت من نفسه محلا ، على انه قد قرأها ثلاثا ولم يملك الفهم، ولا عجب فقد كان يفكر فى فانتين وكوزيت

وانفتل وهو فى تلك الغمرة فأخذ بصره قبضة الباب الذى يفصله عن قاعة الجلسة . فأدمن اليه نظرا هادئا ثم بان فيه الخوف ، ثم اطل من محاجره الفزع ثم تلاه الجزع فندى بالعرق جبينه ، واتى على اثر ذلك بحركة يخطئها الوصف . حركة يمازجها السلطان كأنها تناديه : « ما الذى يحملك على كل هذا ؟ » ثم انفتل ثانيا فوقع نظره على الباب الذى دخل منه فاندفع اليه ففتحه ، ونجا من تلك القاعة الى ممشى طويل جم المنعطفات كثير الليات به طائفة من النوافذ تقطعه درج للهبوط ، تضيئه سرج ضئيلة النور كأنها السواهر

فتنفس الصعداء واصغى ، فاذا هو فى سكون الرموس . فانطلق يعدو كمن يطارده مطارد ، حتى اذا غاب فى احشاء تلك المنعرجات وقف يتسمع للمرة الثانية فلم يرعه مروع ، فجعل ينفس عن نفسه كرب العدو ، فأسند ظهره الى الحائط فوجد مس البرد من حجارته ، فاعتدل مقفقفا

ولما وجد نفسه قائما وحيدا فى جوف هذا الظلام نهبا للبرد والهواجس جعل يفكر . على انه قد فكر فحمة (١) الليل وسراة النهار ، فلم يسمع غير صوت واحد يناديه : « وا اسفاه ! » . ومرت به فترة وهو على تلك الحال ، ثم امال راسه وارسل ذراعيه وتأوه آهة الرجل الحزين ، ورجع ادراجه . وجعل يمشى مشية المتثاقل كأن لاحقا لحق به فى فراره فصده عن قصده ورده الى حيث كان ، فدخل القاعة التى برحها واخذ نظره قبضة الباب الذى يفصله عن

(١) أى طول الليل والنهار

قاعة الجلسة ، وكانت من النحاس المصقول ، فبدت له كأنها كوكب من كواكب النحس فجعل ينظر اليها نظرة الشاة الى عين النمر ، واخذ يدانيها ثم اندفع وهو لا يدرى الى الباب واهوى بيده الى القبضة فأدار زرها فاذا بالباب وقد انفلق عنه ، واذا به فى قاعة الجلسة فخطا خطوة واقفل خلفه الباب ووقف ينعم النظر فيما يرى

وكانت قاعة فسيحة تربو ظلمتها على نورها ، يملأ جوانبها الضجيج وتارة يغمرها السكون قد طرحت فيها قضية جان تحوطها خطورة تشوبها المسكنة ، ويتمشى فى اثنائها انقباض فى الصدور

وفى الجانب الذى وقف فيه جلس قضاة لا تنم معارف وجوههم على شىء من الاكتراث ، عليهم اردية بالية ، وهم بين قارض لظفره ومغمض لعينيه

وفى الجانب الآخر لفيف من الناس فى اخلاق (١) الثياب وقد نثر بينهم محامون فى شتى الازياء ومختلف الاوضاع وعلى ضواحيهم (٢) احراس تهب من اردانهم ريح القسوة ويعبق ارج الشرف . وكانوا تحت سقف قد كسته الاقذار وفوق اخشاب قد بلغ منها القدم ، امامهم مناضد تكسوها اجواخ صفراء كانت فى ميعة صباها خضراء ، وحولهم ابواب قد طلاها تداول الايدى بطلاء من القار ، تضىء لهم سرج من سرج الحانات قد علقت فى مسامير مرشوقة فى الحائط تبعث من الدخان فوق ما ترسل من الاضواء

وقد نصب على كل منضدة شمعدان من النحاس اقيمت فيه شمعة

وقد كان الظلام المخيم فوق ذلك المشهد المهيب يولد فى

---

(١) الثياب البالية
(٢) أى بالقرب من أكتافهم ومناكبهم ، أحراس جمع حرس

نفس الناظر شعورين من وقار وأكبار ، شعورا بعظمة المخلوق، ومظهره القانون ، وشعورا بعظمة الخالق ، ومجلاه العدل



وقف مادلين ولم تأخذه عين فقد كانت العيون مصـوبة الى هدف واحد ، مقعد من الخشب بجانب باب صغـير فى طول الحائط على يسار الرئيس قد جلس فيه رجـل بين حارسين وشموع تزهر

وكان هو الرجل ..!

رآه مادلين ولم يجشم عينيه مؤونة البحث كأنه كان معه على ميعاد . وقد خيل اليه انه يرى فيه نفسه ولـكن فى سن عالية ، وما كان الشبه بينهما قاصرا على السحنـة ، ولـكنه كان فى الموقف والمنظر وذلك الشعر القاف وذلك النظر الشزر الذى لا يفارقه القلق ، وتلك الاهدام البالية التى كان يجول فى امثالها يوم دخل مدينة دينى يحمل فى نفســه ضـبا من الضغن (١) ويخفى فيها ذلك الـكنز الذى اقتناه فى اعوام سجنه

ذلك الـكنز الذى جمعه على بلاط السجن من وحى الشر ، لا من يتيمات الدر . فارتعد وقال : « اللهم غفرا ، أكذا تكون العقبى ؟ » وكان ذلك الرجل قد بلغ الستين او جازها يلوح عليه ضرب من البله على حواشيه جفوة واستيحاش

ولما فتح مادلين الباب صر صريرا نبه القضاة ففسحوا له مكانا ، ولفت الرئيس فحياه ، وحياه على أثره المدعى العـام فلم يكد يلمح تلك التحايا لانه وقع فى ذهول قد افترس طائر حلمه

قضاة وكتاب ، وشرط ، وجمع مشرئب الاعناق على ظماء الى الاستطلاع . انه شهد هـذا المشـهد قبل اليوم بسبـع

---

(١) أى يحقد حقدا شديدا

وعشرين سنة ، وها هو ذا يشهده اليوم

وما كان يراه من عمل الذاكرة او صنع الخيال ، ولكنه من صنع الحقيقة . قضاة وشرط وجمع من الاحياء قد ركبوا من لحم وعظم فهم يتحركون . وضح ذلك لعينيه وبرزت له صور الماضي فى ابشع الوانها واروع مظاهرها ، واشكل عليه الامر فاغمض عينيه وصاح فى اغوار نفسه ان هذا لن يكون

ولعبت به الاقدار ، وارته من تهاويلها ما زاد فى خبال عقله حتي كاد يخالط فيه . فرأى كأن هناك رجلا قد شق منه ، وقد تواطأ الناس على ان ذلك الرجل لم يكن غير (جان فالجان)

ثم راى ويا هول ما راى

راى شبه مسرح قد قام فيه شبحه بتمثيل ابشع اطوار حياته

وقد اخذت لذلك التمثيل عدته ، فكان يرى نفس المشهد فى نفس ساعة الليل التى حوكم فيها ، وكان القضاة هم قضاته وكأن الاحراس هم الاحراس ، والحضور هم الحضور الا انهم رفعوا فوق راس الرئيس صورة المسيح ، ولم تكن تزين قاعات الجلسات فى عهد محاكمته ، فحوكم لشقوته فى يوم لم تشهده عين المسيح

وسقط على كرسى كان خلفه سقوط الحجر ، فزعا من ان تقع عليه العيون . واغيث بشبه عمود من الاوراق المكدسة فوق منضدة القضاء ، فاستتر به فبلغ امنيته وجلس يرى من حيث لا يرى ثم جعل يتمكن من نفسه شيئا فشيئا حتى وضحت له الامور على حقائقها ، وخرج من الذهول الى الرشد

وكان همه ان يرى جافير فرمى بصره بين الشهود فحالت منضدة الكاتب بينه وبين ما يريد ، واعانها ذلك الظلام الذى لم ترقق من حواشيه تلك السرج

وساعة دخل كان المحامى قد فرغ من دفعه وشحد

الاسماع الى الاصغاء وقد مرت على مخاصمة المتهم ثلاث ساعات . والحضور يرون امامهم رجلا ينوء شيئا فشيئا بثقل ذلك الشبه الغريب الذى اوشك ان يحل فى لباسه . ولقد كان الرجل مجهولا ، كان احد اولئك البائسين الذين تنتشر على وجوههم طبقات من البله او من تصنع البله ، فهو اما ان يكون من اشد الناس بلها او من اوفاهم قسطا فى الذكاء

كان افقيا (١) قد اخذوه بفرع من التفاح الناضج اقتضبه من شجرة فى بستان « بيرون »

فيا ترى من هو هذا الرجل ؟

جرى التحقيق وشهدت الشهود وتألقت فجاءت من النور فى ظلمات ذلك الافق ، افق التحقيق

وقال الاتهام اننا لم نقع على سارق هين الامر ، يختلس الثمر ، او احد ابناء السبيل ، ولكننا قد ظفرنا بمجرم فار وقبضنا على شاطر عيار من قطاع السبيل وفاتك من شر الفتاك ، ذلك « جان فالجان » الذى جد الشرطة فى تعقبه منذ عهد طويل

ذلك الذى استوفى عمر العقاب فى سجن تولون ، وقطع يوم سرح منه السبيل على غلام من سكان سافواى اسمه « بيتى فيرجى » وقد دخلت جريمته تلك تحت طائلة المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، وانا لنرجىء اخذه بها حتى يثبت لنا شخصه ... وقد ركب هذا الفاتك جريمة جديدة فهو اذا ممن تعودوا الاجرام . فخذوه اليوم بجريمته الجديدة

وكانت عوامل الدهش تنتاب المتهم امام هذه التهمة وذلك الاجماع من الشهود

وتبدر منه بوادر من الحركات والاشارات تأويلها النكران . فهو وان خانه النطق ، او تعصى عليه الكلام فقد قام فى جسمه من فرعه الى عقبه خطيب ينادى : انى مأخوذ بجريمة

---

(١) يضرب فى الآفاق

غيرى ، وآفتى فى ذلك شبه غير ميمون
وقد وقف وقفة الابله بين صفوف من الذكاء كأنها جنود قد اصطفت للنزال ، وقد قبضت عليه يد لا تفلته وانشأ القضاة ينسجون له مستقبلا من خيوط الوعيد

وغبرت تمشى اليه التهمة على جسر من ذلك الشبه المشئوم ، وكان قلق الجمهور عليه اشد من قلقه على نفسه فلبثوا يتوقعون الحكم بالادانة ويطالعون له الموت من ثنايا ذلك الحكم

فيا ترى من كان ذلك الرجل ومن اية طينة قد ركبت تلك البلاهة ؟ اتنزل البلاهة بالناس الى هذا الحد ، ام كان ذلك من صنع المكر والخداع . اتراه قد جاز حدود الذكاء أم نزل الى احط مراتب البله ؟

تلك اسئلة قد شطرت الحضور شطرين ، وسرت عدوى ذلك الى المحكمين ، فقد كان من امره ما يزعج وما يشغل البال ، وما كان العجب من سوء حاله ، ولكنه كان من غموضه

جود المحامى فى الدفع وتأنق ما شاء فى تخير اللفظ وكان يخطب بلغة الاقاليم ، وهى لغة قد الفتها المحاماة زمنا طويلا تزعم انها اللغة البليغة ، وجرى المحامون عليها اجيالا فى باريس وفى ضواحيها من المدائن . وقد آلت اليوم الى لغة دراسية ولع بها الخطباء من ارباب المناصب كرجال النيابة واشباههم . راقهم منها لفظ يرن فى الاذن رنينا يمازجه الجد واسلوب يمشى الى السمع مشية تصحبها الجلالة

فكانوا اذا ذكروا الزوج قالوا : « البعل » ، والزوجة قالوا : « الحليلة » ، والملك قالوا : « رب التاج والصولجان» .. واذا ذكروا باريس قالوا : « ام الفنون ومهد المدنية » .. فالمدعى العام فى لغتهم « خطيب الاتهام المصقع » ، والمرافعة « الصيحات التى تسمعها المحكمة » ، وعصر لويس الرابع عشر « العصر الكبير » ، والاسرة المالكة « دماء ملوكنا الكريمة » ،

والقائد « الجندى العظيم » ، وخطأ الصحف السيارة « الكذب الذى تنفث سمه فى انهارها » ..

بدأ المحامي دفعه بتفسير سرقة التفاح وصعب عليه ان يمر فيه بذلك الاسلوب الرائع ، ولا عجب فقد وقع ذلك (لبوسيه) نفسه ، فقد ارتج عليه وهو يؤبن ميتا عظيما ففزع الى الاحتماء بوصف دجاجة سنحت له وخرج من مأزقه ذلك بين التهليل والاعجاب خروج الظافر

اثبت المحامي انه لم يقم دليل محسوس على سرقة التفاح لان المتهم لم تأخذه عين وهو يظهر (١) الحائط ويعالج كسر الفرع ، ولكنه فوجىء وهو يلتقط ذلك الغصين (وقال الغصين بتصغير غصن ، تهوينا للأمر) واعترف بأنه وجده مطروحا على الارض فالتقطه ، ولم تأتونا بما ينقض ذلك ، ولعل احد السابلة قد مر بذلك البستان ، فتسور الحائط واقتضب ذلك الفرع ثم احس خطرا فألقى به على الارض ، ونجا بحشاشة نفسه

لقد وقعت السرقة ولكن المتهم لم يكن بصاحبها . انكم قد اخذتموه بسابقة امره لانه ممن تعودوا الاجرام ، (وفاته ان ذلك الامر الذى سلم به فى عرض دفاعه لم يبلغ فى التحقيق مبلغ اليقين ، فجاء ذلك التسليم ويلا على المتهم) ثم مضي فى دفعه ، وقال : « انه كان مقيما فى (فافرول) يرتزق من تشذيب الشجر وحقيقة اسمه (شان ماتييه) واحسبهم قد حرفوه الى (جان ماتييه)

ثم مر بشهادة الشهود مرا ولم يدفعها ، وكان يتكىء فى اقواله على انكار المتهم حتى انتهى الى قوله : « فلو سلمنا انه هو « جان فالجان » ، فهل يقوم هذا دليلا على انه سارق التفاح ؟ ان هى الا قرينة من القرائن ، وما ابين ما بينها وبين

---

(١) يتسور

الدليل القاطع . . لقد اساء المتهم الى نفسه بذلك الانكار المطرد، فأنكر كل شيء ــ انكر جرائمه وشخصيته وكل ما صوب اليه فى ماضيه وحاضره ، ولو انه اعترف بماضيه لاكتسب بذلك عطف القلوب

نصح اليه المحامى ان يقلع عن ذلك الانكار ، فأبى واصر وظن انه يخرج من تبعة كل شيء اذا هو انكر كل شيء ولا عجب فقد كان بليد الذهن ، ومر به من صنوف البلاء فى السجن وبعد السجن ما يبلد الذهن السليم ، على ان طريقته التى جرى عليها فى الدفع عن نفسه لم تكن مبررة الحكم عليه

وختم المحامى دفعه بالتضرع الى المحكمين ان ينزلوه منزلة الفار من السجن لا منزلة المجرم والعائد

ورد المدعى العام على المحامى ردا رق مبناه وخشن معناه . شأن امثاله من المدعين ، فأثنى على صدقه واطرى منهجه وعرف كيف ينتفع بذلك الصدق ، واخذ المتهم بنزول (١) محاميه عن التمسك بانكار شخصيته ، وسجل عليه ذلك النزول ، فاضاف الى الاتهام حجة قد دعمت من حججه ، وتدرج فى قوله بلباقة حتى وقف على منبع الاجرام وانحى باللوم على تجرد المدرسة الروائية من روح الشرف . وكانت اذ ذاك فى فجر ظهورها وقد دعاها النقاد فى الصحف بالمدرسة الجهنمية ، وعزى ــ وهو على شيء من الحق ــ جريمة (جان ماتييه) او (جان فالجان) الى تأثير ذلك الادب الخلاب الذى راع العقول

وانتقل بعد ان قضى لبانته ونضبت مواد القول الى « جان فالجان » نفسه ، فأفاض فى وصفه افاضة كانت اشبه شيء بما جاء فى قصة « تيرامين » ولم يكن لذلك القول مكان فى تلك

---

(١) يقال نزل عن حقه ولا يقال تنازل عن حقه ، فان التنازل لا يكون الا فى ميدان القتال أو بين اثنين

المأساة ، ولكنه اسلوب طالما لجأت اليه البلاغة القضائية

وما زال يقرع الاسماع بتلك القوارع حتى ادخل الرعب على نفوس القضاة والحضور ، ومر المدعى فى رده بتلك الكلمات الخلابة التى استثارت فى صباح المخاصمة حماس الصحيفة الوحيدة التى كانت تظهر فى سماء تلك المقاطعة

وكان مما قال فى « جان فالجان » : « رجل شأنه ذاك طريد جوال . لا مرتزق له . تعود الاجرام ، ولم تفلح السجون فى تقويم اعوجاجه وتنقية نفسه . فلقد جنى يوم خرج منها على الغلام « بيتى فرجى »

وقبض عليه بعد ذلك متلبسا بالسرقة على قيد خطوات من الحائط الذى ظهره ، وفى يده ما سرق ، فأنكر التلبس والتسور والسرقة ، وانكر حتى شخصيته وفى يدنا مائة دليل ودليل على ذلك ولا نريد سردها — دع اربعة من الشهود على راسهم جافير كبير الشرطة ولا تسألوا عن نزاهته ، وثلاثة من اخدانه فى الاجرام ، فكيف يدفع اجماعهم على معرفة شخصه ، ان هو الا رجل جامد الشعور ، غليظ الكبد

وقد كان المدعى يخطب والمتهم ملق بسمعه وقد فغر الدهش فاه ونال منه العجب مما يسمع — وكان يحرك رأسه يمنة ويسرة كلما اشتدت لهجة الاتهام فى تلك المواطن التى تعجز فيها البلاغة عن امساك سيلها ، فيترامى بموجات من سب وتحقير ، كانت تلف المتهم لف العاصفة . وكان فى حركات رأسه تلك ، ضرب من احتجاج فصيح فى صمته بليغ فى حزنه

وقد لفت المدعى القضاة الى ذلك الموقف موقف البله الذى اخذ المتهم نفسه بتمثيله ليخدع القضاء ويستنزل الرحمة ، فلم تجز حيلته علينا وكشفت لنا عما كان يخبئه فى غور قلبه من خبث لا امد له ، وختم قوله بطلب الجزاء العادل . ثم وقف المحامى وهنأ المدعى ، وأطرى خطبته التى جازت حد الاعجاب ثم القى بكليمات حضرته وأخذ يتضعضع

حتى فقد كل تكأة له ، وحتى شعر كأن الارض تميد تحته ميدانا

وحانت ساعة انتهاء المخاصمة فأومأ الرئيس الى المتهم بالوقوف ، وسأله السؤال المألوف ، اعندك ما تقول ؟ فوقف وهو يلاعب قلنسوته بيديه وكأنه لم يسمع . فأعيد السؤال واظنه سمع فى هذه المرة ، فقد رؤى فهمه فى عينيه وكان كمن استيقظ من سبات

فجعل ينفض عنه الكسل ويدور بنظره يحدق فى الحضور حتى وقفت عينه على المدعى العام ، فانفجر بالكلام انفجار البركان ، وقد كان الكلام فى فيه يكاد يقتتل اقتتالا ، يستبق الخروج بعضه البعض :

ـ كنت عاملا فى صناعة النحاس فى باريس لدى السيد « بالو » وكان العمل شاقا . يعمل العامل طرفى النهار فى هواء طلق فى أفنية البيوت ، أو حجر مستطيلة سقوفها من الخشب ولا يتاح له أن يعمل مرة فى مصنع مقفل لا يأذن للهواء . فاذا كان الشتاء ووجد العامل منا مس البرد وتخوف على أعضائه اليبس ، نزع الى تحريكها فترة من الزمن التماسا للدفء ، فيحفظ (١) هذا أصحاب المصنع علينا ويقولون انه وقت ضائع .. وما ظنك بعامل يصهر الحديد وهو على أرض من الثلج ؟ ان هذا الا فناء عاجل . فترى العامل وقد اخلق كما يخلق الثوب ، ولبس فى صباه لباس الهرم

ولا يكاد يدرك الاربعين حتى تدركه السن فتنزف قواه ويرغب عنه ويمسى سخرية لشرار العمال ، فينزونه بأقبح الالقاب . فكانوا يدعوننى وقد طويت الثالثة والخمسين بالشيخ الابله والعجوز العاجز

وكانت وظيفتى فى يومى ثلاثين صلديا . وما حط من

---

(١) يغضب

أجرى فى دعواهم غير السن . وكانت لى ابنة تكدح هى الاخرى فى طلب العيش فتعالج غسل ثياب الناس . فكان جهدنا يفىء علينا بعصارة تمسك الحياة . تبذل يومها فى الكد ما تتقى المطر بسقف يحجبها أو ثوب يسترها ، جاثمة فى مهاب الانواء . وكان عليها أن تغسل ولو جمدت الماء . . فان من الناس من لا يجد لباسا غير جلده حين يخرج من ثوبه لغسله ، فلا يزال قائما على يديها يتنجزها فاذا أنس منها تريثا او وجد تعللا ، عدل بالثوب الى سواها . فما فتئت المسكينة تطوى ساعاتها مضطربة فى المغاسل بين الحار والبارد — دع ما كانت تعانى من مضارة زوجها لها ، حتى أتى على نفسها الشقاء

ثم امسك عن الكلام وقد كان يهدر بصوت جهير أبحاجش، وكنت تطالع فى جفوة لفظه وثورة قوله ، سلامة الضمير ونقاء الجنان

وقد انتابه فواق(١) كان يحبس أنفاسه ، فجعل يستعين على تأدية مافى نفسه بحركات كنت تخاله معها حطابا يشق جذعا من الجذوع . وما كاد ينتهى حتى اغرق الجمهور فى الضحك ، فلبث ينظر اليهم وهويجهل مثار ذلك — ومانشب ان فعل شرواهم (٢) وشاركهم فى ضحكهم ، فكان مشهدا مؤثرا تعلوه الكآبة . فصاح الرئيس وكان يقظا رحيما ، فذكر المحكمين أن السيد (بالو) الذى فزع المتهم الى شهادته لا يعلم له مقر منذ أفلس واختفى . ثم التفت الى المتهم وقال له : « أعرنى سمعك واعلم انك فى موطن انت فيه أحوج ماتكون الى التفكير ، فقد انصبت عليك الشبهات ، وقامت حولك دلائل لا تلبث أن تجرك الى سوء المصير . فأجب اجابة صريحة عن أمرين : هل ظهرت حائط البستان واقتضبت فرع التفاح ؟ هل أنت جان فالجان ؟ »

---

(١) الزغطة (٢) أى مثلهم

فحرك راسه حركة تعرب عن فهم ما القى عليه ، واتجه الى الرئيس وقال :

« اما عن الامر الاول » ثم سكت والقى بنظرة على قلنسوته ، واخرى على السقف ، فحمى المدعى العام وقال له :

« ويل لك ! مالك لاتجيب على مايلقى عليك ؟ ان اضطرابك ليدينك فلست شان ماتييه كما تحاول أن تكون ، وانما انت ذلك المجرم الفار جان فالجان . فقد ذهبت الى (افرون) وولدت فى (فافرول) وكنت بها مشذبا للشجر ، وظهرت حائط بستان ، واقتضبت منه فرعا من التفاح ، وللمحكمة تقرير مصيرك »

وكان المتهم قد أهوى على مقعده تخاذلا ، والمدعى يخطب حتى اذا انتهى من خطابه استوى قائما وصاح به :

« ما اخبثك أيها الرجل ! وهذا كلّ ما أريد أن اقوله لك ، وقد كان يعوزنى القول

« لست من السرقة ولا أنا بذلك الرجل الذى يصيب مايتبلغ به فى كل يوم . . . اننى اتيت من (الى) فخرجت اضرب فى البلاد غب سماء (١) وقد كسا الغيث وجوه الارض ببساط من الرمل الاصفر ، هاجه الحاح السيل من بطون المناقع (٢) وطمر به الزرع حتى ما تقع العين على غير اعواد دقيقة من الحشائش على عطفى الطريق . وكنت التقطت من الارض فرعا مهشوما به تفاح ــ التقطته وما كنت أدرى أننى التقط الشقاء . وقد لبثت فى السجن ثلاثة اشهر ، وأنا انقل من مكان الى مكان ، وهذا مبلغ ما عندى من القول

« انهم يرمونني بالتهم ويطلبون منى دفعها ، ويدفعنى الحارس على طيبة فيه الى الكلام ، يغرينى بذلك همسا ، وأنا لا أدرى كيف أفصح عما فى نفسى . اننى لم اصب من العلم

---

(١) أي عقب مطر (٢) المستنقعات

ولم يثقفني مثقف ، فأنا فقير الادراك ، ولكنهم قد اغمضوا العيون عن ذلك فأخطأوا حقيقة امري

« أف لكم ! لقد ذهب بكم المكر الى حد القطع بمعرفة المكان الذي ولدت فيه . على اني لا ازال اجهل مولدي وليس لكل من يهبط الى هذه الدنيا بيت يولد فيه ، ولو تهيأ ذلك للان العيش وطابت الحياة ، واكبر ظني ان والدي قد كانا من أولئك الذين يعيشون في الطرقات والمسالك

« وجل ما أذكره انني كنت أدعى وأنا حدث (بالصغير) واليوم ادعى (بالشيخ) ولا اعرف لي اسما غير هذين ، فأولوا قولي مابدا لكم أن تؤولوا

« ولا أكذب الله فقد كنت في (الافرون) وكنت في (قافرول) وليس من الختم أن من كان فيهما يكون من أهل السجون . لقد اعنتموني بترهاتكم ، فعلام يتعقبني الناس كما يتعقب الموتور واتره ؟ ! »

فاتجه المدعي العام الى الرئيس وقال :

« لقد احكم المتهم تمثيل ما اخذ نفسه به من التبله ،يحاول ايهامنا انه ابله ، ولكنه يعالج المحال بذلك الانكار ، واظن ان المحكمة لا ترى بأسا في مواجهته بالشهود مرة أخرى ، وسؤالهم على مسمع منه »

فقال الرئيس : « اني اذكر المدعي العام أن جافير وهو كبير الشرطة قد دعاه عمل من اعماله في المقاطعة المجاورة فأذنا له بعد الشهادة ، وكان ذلك بين سمع المدعي وبصره والمحامي عن المتهم شاهد غير غائب ، وما ارتفع منهما صوت بالاعتراض »

فقال المدعي : « لم يغب عني ذلك ولكني أذكر المحكمين ان جافير قد شهد قبل ذهابه شهادة لا يزال أثرها في النفوس وجافير رجل قد تعالم الناس صدقه ونزاهته واني لملق عليكم بما قال :

« لست فى حاجة الى اقامة البراهين المحسوسة أو الادلاء بالحجج الملموسة ، فانى أعرف هذا الرجل حق العرفان ، فما هو (بشان ماتييه) كما يزعم وانما هو (جان فالجان) ذلك الفتاك العيار ، والمجرم الاثيم ، سرج من السجن بعد ان انطوى اجل عقابه ، فخرج منه والعدل فى أسف على خروجه

« لقد قطع فى السجن تسعة عشر عاما عالج فى مداها الهروب مرارا . وسطا بعد ذلك على غلام صغير ثم ظهر حائط بستان، واكبر ظنى أنه سرق آنية ذلك العابد الكريم ليلة آواه فى مدينة « دينى » واذكر اننى رايته فى سجن تولون أيام كنت اقوم بعمل الشرطة هناك . فانا به أعرف من امه التى ولدته »

وفعلت تلك الشهادة فى نفوس الحضور فعلها ، والح المدعى على اثرها بطلب الشهود فألقى الرئيس كلمة على احد الحجاب فانطلق يعدو . وما هو الا ان غاب حتى فتح باب قاعة الشهود ورمى الحضور برجل بين رجلين . واذا الحاجب ومعه اثنان من الاحراس يقودان (بريفيه) أحد الشهود الثلاثة وكان من عتاة الاشرار وقد كره الحاجب أن يصحبه وحيدا فاستظهر(١) عليه بأحد الاحراس . فدخلوا وقلوب الحضور تخفق خفقة قلب واحد

وكان (بريفيه) مجرما عريقا قد جاز الستين تلوح عليه سيما الانذال وترد عليك منه سحنة المتهالكين على ذات (٢) اليد . وهما خلتان قد تكون بينهما رحم ، وقد غير منه ما كابده فى السجن من الاذى حتى قال الموكلون به انه يريغ(٣) أن يكون رجلا نافعا ، واثنى المتصدقون على خلال تعبده ولكن يجب ان نذكر ان ما ظهر من الانقلاب فى طباع هذا المجرم انما وقع فى عهد العودة ، عودة البربون

فقال له الرئيس : « بريفيه ، انك رجل قد ركبت من

---

(١) أى استعان (٢) المادة (٣) أى يحاول

المندبات ما سجله عليك القضاء ، فأصبحت غير أهل للحلف غير أنك وان جردتك من ذلك يد العدل ، فقد أبت رحمة الله أن تقفز نفسك من الشرف والانصاف ، فحبتها مزقة(١)منهما ، فأنا استحلفك بما بقي فى نفسك من ذلك الحياء ان كان له عندك كما ارجو بقية ، واريدك على ان تتبصر قبل الجواب فى هذه الساعة الحاسمة . فكلمة منك تطيح بحياة هذا الرجل واخرى منك تنير لنا منهج العدل ولا يضيرك أن تخرج من موقفك هذا اذا بدا لك أنك لم تكن على الحق »

ثم صاح بالمتهم أن قف وقال لبريفيه : « انظر اليه واجمع اشتات ذكرياتك وانطق بوحي نفسك اذا كنت لا تزال مصرا على ان هذا الرجل لم يكن غير (جان فالجان) رفيقك فى سجن تولون »

فأجاب (بريفيه) وقد القى نظرة على الجمهور : « انى أول من عرفه فهو (جان فالجان) رفيقى فى سجن تولون

« دخل فيه سنة ١٧٩٦ وخرج سنة ١٨١٥ . وقد سرحت بعده بعام واحد ، وانى اراه يتباله منذ اليوم . ولعل ذلك من فعل السن ، ولقد كان فى السجن ساهى الطرف كثير الاطراق »

فأومأ الرئيس اليه بالجلوس ولبث المتهم واقفا

وجيء بالشاهد الثانى (شنيل ديفيه) وكان لا يزال فى لباس المجرمين ، وقد أشخص من السجن للشهادة

وكان قصيرا خفيف الحركة ، ضئيلا ، كثير تجاعيد الجبهة ، أصفر اللون ، حاد الوجه اذا رأيته رأيت شبه محموم ، نحيل الاعضاء ، مضعوف الجسم قد ركبت فى راسه عينان تقرا فيهما آيات القوة ، وكان رفاقه فى السجن يلقبونه ب (أنكر الله)

فالقى عليه الرئيس تلك الكلمات التى القاها على سابقه وحين ذكره بما كان من ماضيه الذى سلبه حتى حق الحلف رفع رأسه وحدق فى وجوه الحضور

(١) مزقة اى بقية

فقال له الرئيس: « الا تزال مصرا على معرفة هذا الرجل؟ » فقهقه الشاهد وقال : كيف لا اعـرف رجلا سلكت معه فى سلسلة واحدة بضع سنين ؟! »

وجىء بالشاهد الثالث « كوش باى » وكان مجرما قـد حكم عليـه بسجن الأبد وهـو فلاح من (لورد) كان يرعى القطعان فى رؤوس الجبال ، ثم حال الى قاطع سبيل ، وكان فى معارف وجهـه ما ينطق بأنه يفوق المتهم بلها ، وهو من اولئك الذين بنيت طبيعتهم بناءة الضوارى فنبذهم المجتمع وقذف بهم فى بحور السجون . فحرك منه الرئيس بكلمات قاسية ، والقى عليه قولا ثقيلا ، ثم سأله السؤال المعهود . فأجاب المتهم : « هذا هـو جان فالجان وكنا ندعـوه لفرط منته (١) بجان لجريك »

ففعلت تلك الشهادة فعلها فى الحضور وزاد فى أثرها ذلك الوضوح الذى ألبسها لباس اليقين

فضاقت القاعة بأهلها وسرت فيها همسات الأسف على المتهم ، ثم جعلت تشـتد وتمتد كلما ألقيت شهادة من تلك الشهادات

وكل هذا والمتهم ملق بسـمعه وهـو ساهم الوجه سادر النظر ، وكان مبلغ احتجاجه على ما يسمع أن كان يحرك عند انتهاء الشهادة رأسه ، ويقول على مسـمع الحرس : « شىء حسن » . فقـال له الرئيس : « ما قولك ؟ » قال : « شىء حسن ! »

فعلا الضجيج فى القـاعة وضج حتى المحـكمون وقالوا : « هلك والله الرجل ! »

فصاح الرئيس بالحاجب أن ادع الناس الى السـكينة . وعلى اثر ذلك سرت حركة بقـرب الرئيس وارتفع صـوت ينادى : « انظروا هنا أيها الشهود »

---

(١) المنة القوة

فملك السامعين الروع وهالهم ذلك الصـــوت الجهير الذى كان ينبعث من ذلك الحلق الحزين

فالتفتوا الى مصـــدره فاذا بهـــم يرون رجـــلا قد خرج من صفوف الخاصـــة الجالسين خلف القضـــاة ووثب الى وسط القاعة . وما هو الا تراءى حتى صاح الرئيس والمدعى العام وصاح لصياحهما عشرون صوتا : « السيد مادلين ! »

وما كان الا هو وقد أضاء وجهه المصـــباح المنصـــوب على منضدة الكاتب ، فوقف وقلنسوته فى يده . وهو فى لباس لم يتطرق اليه العبث

وكان أصفر اللون قد سرت به هزة وحال لون شعره فقد دخل مدينة آراس وشعر راسه أرمد (١) فلم يكد يطوى بها ساعة حتى صاح به المشيب ، فشاب الرجل فى مدى ساعة واحدة

فاشرابت الأعناق وتطلعت النفوس وشحذ الشعور ومرت بأهل القـــاعة فترة من الحيرة ، وحق لهم أن يحاروا ، فقـــد سمعوا صرخة نفس ثائرة ، ورأوا أمامهم رجلا هادىء الطبع ساكن الجأش ، فلم يقع فى نفوسهم أن هذا الواقف المتمكن من نفسه هو صاحب تلك الصرخة المروعة

ولم يكن أجل حيرتهم طويلا فقد اتجه الرجل الى الشهود وناداهم بأسمائهم وصاح بهم : « اتنكرون هـــذا الوجه ؟ »

فعل ذلك قبل أن ينبس الرئيس بكلمة ، او يتمكن الحرس من الحركة

فبهت الذين شهدوا وأنكروه بايمـــاءه من الرؤوس . ثم التفت الرجل الى المحكمين ، وقـــال : « سرحوا هـــذا المتهم وخذونى فأنا جان فالجان »

فعلقت الانفاس وأخذت القوم رجفـــات الدهش ثم علاهم

---

(١) أى بلون الرماد

خشوع البلى ، وكأنهم عوجلوا بقارعة سماوية فملكهم الفزع الاكبر ، وكذلك تفعل جلائل الخطوب وعظائم الامور

وانتشرت على وجه الرئيس طبقـــة من العطف والحزن معا ، فرمى المدعى بنظرة عجلى وهمس فى آذان الجالسين معه للقضاء ، ثم رفع رأسه يخاطب الجمهور : « ابغونى طبيبا » وقال المدعى : « هذا السيد مادلين قـد نزل به ما نزل وانا لنجد(١) له وجدا شديدا ، ونعلم أنه نبيل القدر زكى المشاعر ، فاذا رأى الرئيس أن يأمر بحمله الى داره »

فابتدر مادلين الـكلام وقاطع المـــدعى بصوت يمازجــه السلطان ، ونطق بكلمات نثبتها هنا ولا نخرم منها حرفا ، فقد وعاها أحد من شهدوا الحادث ودونها على أثر انطوائه ، وقد مر بها اربعون عاما وهى لا تزال فى آذان من بقى حيـا من أولئك الشاهدين :

« اشكر لك أيها المدعى ، فما أنا بمجنون كما تزعمون . انـكم على وشك أن تضلوا ، فسرحوا هذا المتهم وخذونى فانا المجرم الذى تنشـدون

« وليس هنا سواى من ينظر بغير غطاء ، فهـاكم الحقيقة خالصة غير مشوبة

« انى وقفت هذا الموقف لذات الله العـلى ، وهو حسبى فخذونى . فقد طبت بذلك نفسا

« انى أردت الحسنى فتنكرت حتى أثريت ، واصـبحت شيخا لمتراى سيرمير ، وألقيت بنفسى بين الاخيـــار ، فلم يفســح لى الحظ بينهم مكانا ، فجئت وفى النفس أشـياء لا يسعنى سردها ، فلا أثقل عليكم ببسط ما صنعت فى أيام توبتى فان الغد ببسطه كفيل

« انى سرقت مولاى العابد وســطوت على ذلك الغـــلام

---

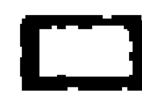
(١) أى نحزن

الصغير ، فحق لهم أن يصموا جان فالجان بأنه فاتك أثيم ، وماكان له الخطء (١) كله وان كان من الخاطئين — وليس لحقير مثلى أن يعترض على العناية أو ينصب نفسه لمناصحة النـــاس ، ولا أكذب الله ، فان العـار الذى عالجت نضحه عن نفسى كان أمرا أدا

« ولا يفوتنكم فى هذا الموطن ان السجن قد كان لى شر استاذ ، فهو يخبث النفس ، ويمزق شمل الفضيلة ، ولقد صدق من قال : « ان السجون تخلق الاشرار »

« فلقد كنت قبله فلاحا فدما (٢) فاطلع منى السجن شريرا ، وكنت عودا من الحطب ، فصيرنى شعلة ، ثم ردت الى الرحمة ما سلبتنيه القسوة ، فنجوت بنفسى ، ولكن بعد الفوت . فاذا دق عن أفهامكم ما القيه الساعة عليكم ، فهناك فى رماد المدفأة تجدون القطعة الفضية التى سلبتها من ذلك الغلام

« واليك أيها المدعى أسوق الكلام ، انى ليعرض لى انك غير مصدقى ، واقرأ ذلك فى حركات راسك ، فاناشدك الله الا تأخذ هذا المتهم . الويل لى ! أليس هنا من يعرفنى ؟ انى ليحزننى غياب جافير ولو كان حاضرا لوضح الحق »



ليس فى طوق كاتب ان يصور ما كان فى كلمات هذا الرجل من نبرات الكآبة ورنات الاسى التى كانت تصحبها عبقة من الحسنى . ثم انفتل الى الشهود الثلاثة ، وقال : « بريفيه الا تزال تنكرنى ؟ »

فاعترت بريفيه الرعدة وجعل يصعد فيه بصره ، ويصوبه ومر الرجل فى كلامه فقـال : « ياشانيلديفيه ، الست كنت

---

(١) الذنب (٢) الفدم الساذج

تدعى فى السجن بـ (انكرالله) ؟ ولى فيك آية ..حرق بكتفك اليمنى ، حاولت أن تمحو به الاحرف الثلاثة التى وسمت بها ، فلم يغن ذلك عنك شيئا ، وثبتت الاحرف فى مكانها . أرأيتك ؟ ألم أقل حقا ؟ » ... قال : « بلى ! »

ثم تحول ذلك المسكين الى القضاة والحضور وعلى فمه بسمة ما ذكرها رائيها الا وجد لها غمزا على قلبه ، بسمة قد جمعت بين حلاوة الظفر ومرارة القنوط

فذهب بأهل القاعة وحالوا الى عيون تنظر ، وأفئدة تخفق . فلم تعد ترى فيها قضاة ولا مدعين ، ولا تلمح اشراطا ولا مدافعين ، وقد نسى كل غرضه : نسى الرئيس انه جاء للرياسة ، والمدعى انه قام للاتهام ، والمحامى انه مثل للدفع ، والحرس انهم أقيموا للحراسة ، فلم ينبس خلق بكلمة ، ولم يفزع ذو سلطان الى سلطانه

ولا عجب فان للمشاهد السامية خواصا تملك على رائيها المشاعر وتحيل شهودها الى نظارة (١) يخرج بهم فرط ماهم فيه عن حد الشعور ، فلا يكادون يتساءلون حتى فى أنفسهم عن مأتى ذلك اللألاء الذى يذهب سناه بأبصارهم ، فهم فى داخلهم مأخوذون برائع ما يشاهدون فى خارجهم

وضح الصبح وتكشف ظلمة الشك عن جان فالجان فأنار ظهوره السبيل ، وكشف عن ذلك الحادث ، وأدرك ذلك الحفل الحاشد ما كان من حقيقة الامر ـ أدركه بأسرع من خطفة البارق أو نبضة الكهرباء

رجل يفتدى بنفسه رجلا آخر ـ لله ما انبل هذه النفس

ثم قال الرجل : « اننى لا اريد أن أطيل عليكم امد ما انتم فيه فقد عزمت على الذهاب لانهم يأبون ان يأخذونى ، وعندى ما يدعونى الى الرجوع ، والمدعى العام يعرف من

(١) المتفرجون

أنا ، ويعرف أين يجدنى متى حلا له ذلك »

قال ذلك وغبر يمشى الى الباب بقدم مطمئنة ، فما رفع صوت ولا امتدت ذراع لسد سبيله ـ مشى وقد حل فيه خفى من العناية ما حل فى انسان ألا تراجعت أمامه الصفوف واصطف الوقوف

فلما بلغ الباب وجده مفتوحا ، فالتفت الى المدعى وقال : « أنا رهن أمرك » . وعطف قائلا :

« أيها الحضور ألا ترون أنى جدير بالرحمة ، ولعلى كلما فكرت فى انى كنت على وشك القيام بهذا الصنيع وجدتنى حقيقا بالغبطة »

ثم خرج فصفق (١) الباب كما فتح ـ ولا يعدم صاحب العمل الجليل أن يجد له فى المجتمع نصيرا

وعاد القوم بعد فترة الى انفسهم ، فأمر المحكمون بتسريح « شان ماتييه » فخرج وهو يقول فى نفسه : « ما أشد جنون هذا الناس ! فأنا لا أكاد أفقه شيئا من جميع ما مر بى فى هذا الحادث . . »

« عود الى فانتين »

تنفس الصبح فقامت فانتين ، وكانت قد سهرت الليل كله ، ولزمتها الحمى فحمة ذلك الليل ، وكانت تلمح من خلال آلامها صورا من وجوه السعادة بقرب طفلتها ـ فانتهزت الراهبة نهزة نومها وكانت قد ساهرتها وخرجت تهيىء لها جرعة من الكينا . وبينما هى عاكفة على عقاقيرها وقواريرها وقد القى الشفق على الارض ضبابا يقصر فيه قاب العين ، واذا بها قد التفتت التفاتة أوشكت معها أن تصيح

رأت مادلين وهو منها أدنى شىء ، فصاحت : « اسيدى الشيخ أرى ؟ »

---

(١) صفق الباب أى رده

فقال : « نعم ، وكيف حال المريضة » قالت : « ليس بها الساعة من بأس وقد كنا نتوقع لها بالامس شرا » ، ثم أعلمته علمها وقالت : « ولولا أن فكرة رفهت عنها لما طلع عليها هذا الصباح ، فقد حملت غيابك على الذهاب لتفقد طفلتها »

ولم تجرأ الراهبة على سؤاله أين كان ؟ ولكنها لم يغب عنها أن ملامحه لم تكن تنطق بأنه قادم من ذلك الوجه

فقال لها : « احسنت فى تركها على زعمها » ، فقالت : « وما عسى أن تقول لها اذا رأتك وحيدا ؟ » قال : « ان الله يلهمنا الجواب »

وكان الصبح قد وضح نوره ، فرأت الراهبة فى مادلين ما راعها ــ رأت شعره الارمد ، قد حال كله الى شعر ابيض . فصاحت به : « أى خطب نزل بك فشيبك !؟ »

ثم وافته بمرآة صغيرة كان الاطباء يستخدمونها فى التحقق من الموت ، يضعونها على فم المريض فتكدرها انفاسه ان كان لا يزال حيا . فأخذها مادلين ونظر فيها نظرة ، وقال : « حسن ..! »

فجمدت الراهبة فى مكانها وعطف مادلين قائلا : « أليس من الميسور أن أراها الساعة ؟ » فقالت : « انك لم تأت بطفلتها فخير لها الا تعلم بقدومك ، ومتى جئت بها علمت من نفسها بأن غيابك انما كان لذلك ، فتنجو المريضة من آلامها وننجو نحن من نسج الكذب »

فلبث غير بعيد ثم قال بلهجة الجاد الساكن : « أريد أن أراها الساعة فربما كنت عجلا » ، فلم تفطن الراهبة لما كان فى كلمة « ربما » من المعنى الغامض الغريب فغضت من بصرها وقالت محتشمة : « ليدخل سيدى وليعلم انها نائمة »

فتقدم الى (١) الخادم باصلاح باب لم يكن مطمئنا فى مكانه ،

---

(١) تقدم الى أى أمر

كراهة أن تتأذى المريضة بصريره . ثم دخل مخدعها وهو يخـــافت من مشيته ودنا من سريرها وفرج عنها الستائر فاذا هى نائمة . وكان نفسها يشخص من صدرها شخوصا يبعث الاسى . وتلك آية ذلك المرض العضــــال التى طالما فجعت نفوس الامهات الســــواهر على أولادهن الذين ابرم فيهم حكم الموت

وكان هذا التنفس الشـاق يكدر ذلك الصـــفاء العجيب المنبسط على وجهها ـ ذلك الصفاء الذى كان يبدل فى نومها من مرأى ذلك الوجه ـ وكان اصفرارها قد بلغ حد البياض وأمست خدودها قرمزية ، وكانت أهدابها الطويلة (وهى البقية التى بقيت من جمال البكارة والشباب) لاتزال تختلج فوق ذلك الطرف الســاجى . وقد اهتز جسمها من فرعها الى قدمها ، كأن اجنحة خفية قد ركبت فيه وأوشكت أن تنشر للطيران . حتى ليخيل للناظر اليها أنه يحس ترويحها وان لم تقع عليها عينه

فلا يقوم بنفسه أنه يرى مريضة قد يئس منها ـ فهى الى من يصوع (١) للطيران أقرب منهــا الى من يتهيأ للنزول الى القبر . .

الم تر الى الغصن كيف يضطرب كلما امتــدت يد لقطف زهرة ، الا يلوح لك أن ذلك الغصن كأنه يجود بنفسه وكأنه يختلسها فى آن ، فهو يعطى ويمنع فى وقت معا ؟

كذلك الجسم البشرى فقد تنتابه تلك الهزات حتى تحين الساعة التى تمتد فيها يد الموت الخفية لاقتطاف (٢) الروح

وقف مادلين بجانب سريرها وهو كأنه بعض الانصــــاب

---

(١) صوع أى تهيأ للطيران

(٢) اقتطف مثل قطف وقد أنكرها بعضهم حتى وجدناها فى شعر الاعشى فى الجاهلية وفى شعر جرير فى الاسلام فهى عربية بدوية ، قال الاعشى :
لما أمالوا الى النشاب أيديهم ملنا ببيض فظل الهمام يقتطف

وجعل يتنقل ببصره بين المريضة والصليب كما كان يفعل منذ شهرين ، ليلة زارها للمرة الاولى . وكان المنظر واحدا فى جميع وجوهه الا أن شعره فى هذه المرة كان قد عمه الشيب ..

دخل وحده ولم تصحبه الراهبة ووقف بجانب سريرها كما ذكرنا واصبعه على فمه كأنه يأمر احدا بالسكوت . ففتحت المريضة عينيها وسألته سؤال العطيف وهى تبتسم : « أين كوزيت ؟ »

قالت ذلك وما اخذها دهش ولا استخفها فرح ، فقد كانت هى الفرح بعينه ، وعجيب أن يفرح الفرح

القت هذا السؤال : « أين كوزيت ؟ » وليس فى نفسها ظل للشك ولا فى خاطرها جولة للقلق ، فألجم اليقين المتجلى فى ذلك السؤال ، لسان مادلين فلم يحر جوابا

ثم مرت فى حديثها : « لقد كنت عالمة بوجودك رغم سلطان النوم ، وكانت عيناى تتعقبانك انى سرت .. رأيت كأنك كنت محلقا فى سماء من المجد يطيف بك نور سماوى . على انى اعاودك السؤال : « اين كوزيت ؟ لم لم تنمها بجانبى حتى اذا ما فتحت عينى فتحتها على تلك الطلعة البهية ؟ »

فأجابها بكلام لا يرتاح له العقل ثم لم يلبث أن نسيه على اثر القائه . واغاثه حضور الطبيب الذى ابتدرها عند دخوله بقوله : « اهدئى فان ابنتك هنا » . فبرقت عيناها بريقا أضاء وجهها وضمت يديها ضمة تمثل فيها أجلى معانى التضرع الى الله واحلاها . ثم صاحت : « الى بها » وكانت تظن انها لا تزال طفلة تحمل ، وهم من أوهام الامهات مبعثه العطف والحنان

قال الطبيب : « لم يحن الوقت فانك لا تزالين فى بقايا علتك ، ولا آمن عليك صدمة اللقاء . فمتى أبللت جئناك بها » . فقاطعته بحماسة : « لقد شفيت وأعيد عليك القول

انى شفيت ، فيا لله ما أحمق هذا الطبيب فانه يريد أن يحول بينى وبين ابنتى ! »

قال الطبيب : « أرأيت كيف غلب عليك الغضب ؟ وما دام هذا شأنك ، فلا سبيل الى رؤيتها أو تملكى صوابك »

فطأطأت رأسها وقالت وفى صوتها رنة من الاسف : « انها حمقة ارجو أن تغتفرها لى ، ولاتنزل أمرى على الجراة عليك فتأخذنى بما سبق به لسانى . فلقد خرج بى ما أنا فيه عن حد الرشد . فان كنت تخشى على مغبة اللقاء فأنا صادعة بأمرك ، صابرة مع الرضى ، مرتقبة ذلك الوقت الذى يؤذن لى فيه برؤيتها .. على أن رؤية ابنتى لن تحدث فى نفسى ما تتوقع أنت حدوثه ، وغايتى أن أحدثها الســـاعة بعض الحديث . لقد رأيت الليلة صورا بيضاء ولمحت أناسايبتسمون لى . وها أنا ذا أستشعر العافية وأحمد الله فقد مسح مابى من الالم . ولكنى سألبث مكانى كأنى مريضة امضاء لامرك وارضاء لهؤلياء الأخوات المقيمات هنا ، حتى اذا انسوا منى السكينة وتيقنوا من ابلالى جاءونى بابنتى »

جلس مادلين على كرسى بجانب السرير فحولت وجههـا اليه وهى تغالب كيد الالم ويغالبها لتظهر بمظهر السكينـــة وتدعو القوم الى تذليل المصاعب التى يقيمونها فى طريقها لرؤية طفلتها . ولكنها على تجلدها لم تقو على الامساك عن سؤال مادلين ، فألقت اليه ألف سؤال وسؤال

« لعلها سفرة ميمونة

« لله ما أنبل نفسك فقد انقذت طفلتى

« خبرنى بربك اكانت جلدة على المسير ؟

« اتراها تنكرنى عند اللقاء ، فقد طال عهدها بى

« ان الاطفال كالاطيار لا يكادون يذكرون فى يومهم ما رأوه بالامس

« ترى كيف كان لباسها وغذاؤها فى ذلك النزل ؟

» لقد كانت تؤلمنى ذكرى ذلك فى أيام بؤسى ، أما اليوم فقد أصبحت بفضل حدبك (١) عليها قريرة العين رخية البال

« الا يتسنى لى أن أراها الساعة ؟

« الا ترى انها جميلة

« الا تأذن لى برؤيتها ؟ وان لم تفعل فمن ذا الذى يأذن لى سواك »

فأخذ مادلين يدها بين يديه وقال لها : « ان كوزيت مثال للصحة والجمال وسترينها بعد قليل فاهدئى واسترى ذراعيك بغطائك عسى أن تخف وطأة السعال »

وكان سعالها يزحم دفاعه فى حلقها كل كلمة من كلماتها

فلم تبد فانتين شيئا من التململ خشية أن تزلزل كل آهة من آهاتها تلك الثقة التى تحاول بثهـــا فى نفوسهم ، فجعلت تفوه بأقوال لا تنم على الالم

كل ذلك ومادلين ممســـك بيدها ، ونفسه تكاد تسيل جزعا

خرج الطبيب وبقيت الراهبة فى مكانها وقد خيم عليهم السكوت ، فمزقته فانتين بصيحة : « انى أسمعها .. انى اسمعها » . ثم بسطت ذراعها تأمرهم بالاصغاء ، وعلقت أنفاسها وجعلت تتسمع

كان فى الفناء ولد يلعب ... ولد البوابة أو ولد من شئت من العاملات

تلك احدى المصادفات التى ما زال الانسان يجدها فى ثنايا الحوادث المحزنة ، كأنما هى جزء مما تهيئه يد الغيب من عدد التمثيل على مسارح تلك الحوادث

---

(١) الحدب الحنان

وكان هذا الولد صبية تذهب وتجيء وتجرى دفعا لغائلة البرد وتلمسا للدفء ، وهى تضحك وتارة تغنى ، وكذلك كان وأى شيء من الاشياء قد خلا من أن تشوبه شائبة من لعب الاطفال

تلك هي الصبية التى سمعتها فانتين وظنتها « كوزيت » وصاحت : « تلك هى بنيتى وذلك هو صوتها » !

وانقلبت الصبية من حيث اتت وغاب صوتها ، فلبثت فانتين فترة وهى ملقية بسمعها ، ثم فارق وجهها الاشراق ، وقالت بصوت سمعه مادلين : « قاتل الله الطبيب فقد حال بينى وبينك »

وبعد قليل عاودها أملها البسام ، فأنشأت تحدث نفسها ورأسها مطروح على الوسادة :

« سنصبح من السعداء ، ويكون لنا بستان جميل ، تمرح فيه كوزيت وتجرى على الاعشاب تطارد الفراش فاذا شبت وبلغت سن التناول . . (١) ولكن متى تبلغ هذه السن ؟ » ثم جعلت تعد على أصابعها ، وتقول : « انها اليوم فى السابعة من عمرها ، وبعد خمس سنين يكون لها قناع أبيض ، وتبدو فى هندام الفتاة !

« لله ما أحمقنى فانى أفكر فى الشيء قبل أوانه »

ثم اخذت تضحك . . وكان مادلين يصغى الى تلك الكلمات وكأنه يصغى الى هبات النسيم ، وقد غض بصره وغاص فكره فى تأملات لا قرار لها

وانقطعت فانتين بغتة عن الكلام فنبه ذلك مادلين فرفع رأسه فاذا بها فى صورة مروعة . وكانت لا تتكلم ولا تتنفس، وقد قامت فى سريرها نصف قومة وبرزت كتفها النحيلة من قميصها واصفر وجهها ، ووقفت بنظرها على مشهد مروع

---

(١) التناول المقدس أول حفل دينى تشهده الفتاة المسيحية لتنصيرها

فى الجانب الآخر من المخدع ، واتسعت من الرعب حدقتاها

فصاح مادلين : « ويلك ، ما بك ؟ » فلم تجب ولم تحـول بصرها ، ولكنهــــا مست ذراعه باحدى يديها وأشارت اليه بالثانية ان ينظر وراءه فالتفت ، فاذا به يرى جافير



واليك ما مر من الحوادث قبل ذلك :

خرج مادلين من قاعة الجلسة وقد انطوى النصف الاول من الليل ، وانقلب الى النزل فى الساعة التى تهيأ فيها البريد للسفر ، فأخذ مقعده فيه وبلغ منتراى سيرمير قبل الصباح. وما هى الا أن احتوته حتى أودع صندوق البريد كتابا الى لافيد الصراف ثم انطلق يعود فانتين

ولما غادر قاعة الجلسة فى أراس وعاد الحضور الى أنفسهم، وقف المدعى العام وجعل يتوجع لمادلين على ما أصابه من ذلك المس ، وأصر على طلبه ، وقال ان هذا الحادث الغريب الذى ستكشف الايام عن سره لم يزلزل من عقيدته ولم يغير وجه التهمة المصوبة الى « شان ماتييه » . ولـكن أقواله لم تنزل من نفوس السامعين منزلتها . وسقطت الحجة من يده فتلقفها المحامى وأطرد له القول فقال :

ـ لقد انقلب الامر رأسا على عقب ، وأصبـــح المحكمون لا يرون امامهم الا رجلا بريئا

وأخذ الرئيس جانب المحامى ، وانحاز له المحكمون فسرحوا « شان ماتييه »

ولم يكن للمحامى بد من أحد الرجلين : فطلب القبض على مادلين حين أفلته « شان ماتييه » ثم كتب على المـكان (١) أمر القبض ، وخلا بالرئيس لتوقيعه ، فتردد الرئيس بعض

---

(١) أى فى الحال

الشيء ، وكان على طيبة نفسه وحدة ذهنه يتعصب للملكية وقد كان مادلين ذكر أمامه يوما كلمة « الامبراطــور » ولم يذكر بجانبها كلمة « بونابرت » فغاظه ذلك وحقدها عليه . وذكر له لشقوته تلك السالفة ، فهان عليه توقيع الامر

وابرد المدعى به بريدا خصيصا الى جافير بمنتراى سيرمير وتقدم اليه بالاسراع ، وكان البريد فارسا فذهب يعدو مرسل العنان

وكان جافير قد غادر قاعة الجلسة حين فرغ من شـهادته كما قدمنا ، وعاد الى منتراى سيرمير واتفق أن هب من نومه ساعة وصل البريد . وكان البريد شرطيا من حذاق الشرطة فأنهى اليه الامر ، ووقفه بكلمتـــين على جملة ما مر من الحوادث . فقام جافير الى امضاء هذا الامر ساعة استولى عليه . ولو أن أحدا رآه وهو يلج باب الدار التى فيها فانتين ومادلين وكان ممن يجهلون نبأ هذا الرجل ، لما قام بنفسه أن أمرا خطيرا قد حركه ، ولما تبين من وجهه غير لمحتــه المألوفة (١) فلقد كان هادىء السمى ساكن النفس بادى الجد وهو يرقى الدرج

ولكن لو رآه فى هذه الساعة أحد ملابسيه الواقفين على غريب طباعه ، لذعر من رؤيته . فقد كان زر بنيقتـــه (٢) منحرفا الى جهة الاذن اليسرى بدلا من أن يكون محررا الى القفا

وكانت تلك آية على هياج غريب فى نفسه . فقد كان الرجل نظاميا فى واجبه ولباسه الرسمى ، فهو لا يترخص مع المجرم كائنا من كان . ولا فى أحكام لباسه الرسمى وتفقد أزراره من جميع ضواحيه . فانزعاج الزر من مكانه حادث لا تأذن له

---

(١) لمحة الوجه وجمعها ملامح ولا يقال ملمح الوجه ولكن ملمح النظر اى محل سقوطه

(٢) ياقة القميص

بالوقوع الا فورة فى النفس ، كانت أشبه الاشياء بالزلزال فى الارض

وكان قد اصطحب أربعة من الجند وكبيرا لهم . وأمر سائرهم بالتربص فى الفناء

ولما سأل البوابة عن مادلين لم تتردد فى أن تدل عليه ، فقد ألفت أن يسألها عنه الجنود وهم شاكو السلاح . ولما بلغ مخدع فانتين أدار المفتاح ودفع الباب دفعا لينا كأنه ممرضة تحرص على راحة مريضها أو مسترق للسمع . ثم دخل ولو احسنا القول لقلنا لم يدخل .. فقد وقف فى حزم الباب ، وقلنسوته على رأسه وأزرار لباسه الرسمي مطمئنة فى عراها، وقد علق فى أثنائها يده اليسرى ، وكان رأس عصاه مطلا من خلف مرفقه . فلبث كذلك دقيقة أو بعض دقيقة ولم يشعر به أحد ، واتفق أن رفعت فانتين عينيها فلمحته وأنذرت به مادلين

وفى اللحظة التى التقى فيها النظران ، حال جافير وهو جامد فى مكانه الى صورة مفزعة !

وما من شعور بشرى فى نفس هذا الرجل هو أقدر على التمثل فى صورة الفزع من شعور الفرح ، وقد طغى عليه فقلب سحنته الى سحناء مارد يريد أن ينقض على طريدته . وكان يقينه من القبض على جان فالجان بعد لأى . قد فضح ما كان كامنا فى نفسه وبسط على ظاهره ما كان يضطرب فى زوايا باطنه . وأصبحت الغضاضة التى كان يجدها فى نفسه حين أخطأ ترسم الاثر ، ولم يصب الشاكلة فى أمر « شأن ما تبيه » وقد محاها زهو دخل فى نفسه حين علم أن فراسته لم تخطىء وان شعوره لم يخنه فى تعقب جان فالجان . وتجلت فى جبهته الكزة (١) دمامة منظره عند ظفره ، فكان ذلك أبين ما يقرأ من آيات الشناعة فى سحنة بلغت مناها

(١) الكزة بتشديد الزاى الضيقة

وفى هذه الآونة كان جافير ، وقد رفعه الفلك وناجاه الملك، لا يشعر بحقيقة موقفه كل الشعور ، لكنه لم يخل من شعور مبهم بنجحه وضرورة الحاجة اليه

فقد كان يمثل فى ذات نفسه تلك القوات العلوية من العدل والحقيقة والنور ، وهى تعمل متساندة على سحق قوة الشر

فكان كأنه يحس أن حواليه مدى لا حد له من السلطان العقل ونفاذ الرأى والايمان باكبار حرمة القانون والقضاء المبرم والقصاص الاجتماعى ، وكل ما فى ذلك الفلك من قوة

ولا عجب فقد كان يحمى النظام ويستنزل صواعق القانون، وينتقم للمجتمع وينفذ المشيئة ، ويمضى القدر وينهض فى المجد نهوضا . ولم يخل نصره وان كان مبينا من بقية للتحدى والكفاح

وقف فى أوج السماء مشرق الوجه مزهوا وقفة جبار من طواويس الملائكة تجلت فيه بهيمية (١) دونها بهيمية البشر

وكان يشعر بسعادة فى استنكار ما يرى ، وقد وطىء باخمصيه هام الجرائم ، وقيد بعقبيه العصيان والفساد والشرور ، وكان يتفجع نورا وهو يستأصل من الفساد والشر .. وقد تجلت فى تلك النفس الطاهرة العنصر ، البشعة المنظر ، عظمة لا يختلف فيها اثنان . ولم يعلق بهذا الرجل المخيف دنس ، ولا طارت حوله دنية

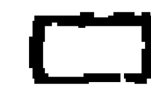
ان الاستقامة والاخلاص وسلامة الفطرة ومحض اليقين وتمثل الواجب ، كل أولئك الفضائل اذا جاد بها صاحبها عن قصد السبيل تراءت لك فى صور منكرة ، ولكنها على نكرها ودمامتها لا تزال كاسية بالعظمة

---

(١) لم نقل بهمية وقلنا بهيمية اتباعا لأئمة الكتاب فى الفلسفة والاخلاق والادب كابن جنى وابن مسكويه والجاحظ فقد نفرت أذواقهم منها كما نفرت من طبعية فقالوا بهيمية حتى أن سيبويه رأس النحاة قد قال : ان فيهما لغية وأرجو أن تصبح لغة باذن الله

فاجلال تلك الصفات طبيعة من طبائع النفس البشرية ان لكل شيء آفة ، وآفة الفضيلة العدول بها عن القصد المتعصب فى دينه وهو فى عنفوان فورته فرح شريف النزعة وان لم يعرف الرحمة ، يلازمه ما أدرى أى لألاء ، لالاء فيه جلال ولكن تمازجه الفجيعة

وكان جافير وقد بلغ مناه ، على حال يرثى لها ــ وكذلك الجاهل اذا فاز ــ فما كان لعين أن تستريح الى ذلك الوجه الذى تجلى فيه كل ما يمكن أن يكون فى طيب من خبيث



لم تكن فانتين قد لمحت جافير منذ اليوم الذى انتزعهـــا فيه مادلين من يديه انتزاعا ، ولم يقو عقلها المضعوف على ادراك شيء . غير أنها لم تخل من الشك فى أمره لغشـــيانه مخدعها . وكان أكبر ظنها أنه انمــــا يريدها . فخانهــــا العزم ولم يستطع نظرها القرار على ذلك الوجه المنكر،وأحست الحين، فسترت وجهها بيديها وصاحت بمادلين صيحةاليأس : «نجنى منه» . فأجابها بصوت يقطر سكينة ورقة : « أهدئى انت فانه انما جاء يريدنى»

ثم التفت الى جافير : وقال له : « انى لاعلم ما تريد » !

وصاح به جافير : «اذن فهيا»

نطقها بوحشية زحمت فى حلقه مخارج الاحرف وطمست على معالمها ، فخرجت وهى بالزئير أشبه منها بالكلام . ولم يجر جافير على الطريقة المألوفة فلم يفض معه فى حديث ، ولم يعمد الى ابراز أمر الاستدعاء . فقد كان يعد جان فالجـــان محاربا خفيا يفلت كل من يطارده !

قامت بينهما حرب تحت أروقة الظلام ، فلبث خمـــس سنين يجالده ويصارعه ، فلم يقو على صرعه ، ولم يكن أمر

القبض بدء ذلك العراك ، ولكنه كان الختام ــ فما زاد على ان قال له : «اذن فهيا» !

قالها ولم يخط خطوة ولكنه القى على جان فالجان نظرة كالمحجن (١) ، تلك النظرة التى اعتاد أن يجـذب بهـا اليه جذب العنف أولئك المنكودين من البائسين ، تلك النظرة التى نفذت الى نخاع فانتين قبل اليوم بشهرين كاملين

وعند تلك الصيحة فتحت فانتين عينيها ، فرأت مادلين بحيث كان ، فشد ذلك منهـا بعض الشىء ، ثم أجالت تلك المسكينة نظرا حائرا ، فلم تر فى المخـدع غير مادلين وغير الراهبة ، فقام بنفسها أنه لايريد بتلك الصيحة سواها

رأت فى تلك اللحظة شـيئا غريبا لم تكن لتراه حتى فى عنفوان هذيانها ، رأت عينا (٢) من الشرطة يلبب (٣) شريفا من سروات الناس ، والعين شامخ الانف والشريف منكس الرأس . فخيل اليها أن الدنيا قد شمرت للزوال

وكان جافير قد اخذ فى الحقيقة بتلابيب جان فالجـان فصرخت فانتين : «سيدى الشيخ» . فضحك جافير حتى بدت نواجذه ، وقال : «ليس هنا من ينادى بسيدى الشيخ» . فلم يعالج جان فالجان أو يزحزح عن خناقه يد جافير ، ولكنه قال له : «جافير» ، فقاطعه جافير قائلا : « قل سيدى المفتش» ، فقال له : « سيدى ان لى معك كلاما»

فقال له : «ارفع به صوتك ، فكذلك أكلم» . قال : «انه رجاء» . قال له : « أجهر بصوتك كما أمرتك»

قال : «انه رجاء يحسن أن لايسمعه سواك»

ثم داناه وألقى فى أذنه : « أرجئنى ثلاثا أبحث فيها عن بنية

---

(١) المحجن آلة تجذب الشىء كالخاطوف وغيره

(٢) جاسوس

(٣) يأخذ بتلابيبه أو بخناقه اى يجمع ثيابه عند صدره ونحره ويجره منها جرا

هذه المسكينة وادفع لاصحاب النزل نفقة ايوائهـــا ولك أن تصحبني اذا شئت»

فقال جافير : «أراك تمزح وما عهدتك قبل اليوم محمقا»

وسقطت تلك الكلمات الى أذن فانتين، فاضطربت في سريرها وصاحت : «ويلاه أليست بنيتي هنا كما يزعمون ؟» . ثم صاحت . « أيتها الاخت أين بنيتي ، وأنت أيها السيدمادلين» فضرب جافير برجـله وصاح بها : «اياك أن تنبسي أيتهـــا الشقية . أراني اليوم في بلد ينادى فيه المجرم بألقـــاب التسويد وتكرم فيه البغي كأنها من فضليات الحرائر»

ثم نظر الى فانتين ، ويده تزيد في تضييق الخناق على جان فالجان ، وقال لها : «ألم أقل أن ليس هنا شيخ ولا سيد ؛ وانما هنا لص مجرم وفاتك أثيم يدعى جان فالجان ؟»

فاستوت فانتين في سريرها وتنقلت بنظرها من جان فالجان، الى الراهبة ، الى جافير ، ثم فتحت فاها تريغ الكلام فلم يرم حلقها بغير الشخير ، ثم اصطكت أسنانها وانبسط ذراعاها كأنها غريق يبحث عن شيء حوله ، ثم هوت على الوسادة ، فصدم رأسها سناد الوساد ، وأسلمت على أثر تلك الصدمة الروح

فوضع جان فالجان يده على يد جافير، وهي ممسكة بطوقه، وبسط قبضتها ، وكأنها يد طفل ثم قال له : «لك الويل ، لقد قتلتها»

فصاح به جافير : «دع عنك هذا فما جئنا لنسمع ذلك المنطق ، فان لم تنطلق معي فليس الا القيد ، والا دعوة الجند»

وكان في احدى زوايا المخدع سرير عتيق من الحـــديد تستريح اليه الراهبات في السهر ، فاندفع اليه جان فالجـــان وانتزع في أقل من رجع البصر سناد الوساد رغم رسوخه في مكانه ، وأي شيء يتعصى على تلك الساعد ؟ ثم اتخذ منـــه

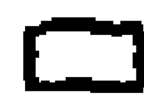
جنـــة وسلاحا ولوح به فى وجه جافير ، فتراجع مذعورا الى البــاب . ثم مشى به مشيـــة المطمئن الى سرير فانتين ولمــا بلغـــه التفت الى جافير ، وقال له : « أنصح لك الا تدانينى » !

فأوجس جافير خيفة ، وبدا له أن يذهب لدعوة الجنـد لكنه خشى أن يجد جان فالجان نهزة للفرار فأسند ظهـره الى عضادة الباب ، ونظره مصوب الى غريمه . فارتفق جان فالجان على قمة السناد ، وجعل يتأمل فانتين وهى هامدة ولبث غارقا فى تأملاته . وما كان ليفكر فى شىء من أشـياء هذه الحياة ، غير انك كنت تقرأ فى معارف وجهه أبلغ آيات الرحمة . ثم انحنى فوقها وجعل يسارها ــ ترى أى كلام كان يلقيه عليها ؟ وما عسى أن يقول ذلك الرجل الممتحن لتلك المرأة الميتة

لم يقع ما قال فى أذن الحى فهل وقع فى أذن الميت . وما يدريك لعل فى الاوهام المؤثرة شيئا من الحقائق السامية

روت الراهبة سمبليس ، تلك التى شهدت وحدها ذلك المشهد ولا مغمز فيمــا تروى ، انها قد رأت رأى العين أثناء تلك المسارة بسمة قد خطفت على فم الميتة وبريقا قد لمع فى تلك الاحداق ، التى غمرتها دهشة أهل القبور . ثم أخذ فى يديه رأس فانتين ووضعه برفق على الوسادة كما تضع الام رأس طفلها وأغمض بعد ذلك عينيها ، وقد علا وجهها اشراق سماوى ، والموت انتقال من عالم الظلمة الى عالم النور

ولما فرغ من شأنها ركع أمام سريرها وتناول يدها فقبلها ثم التفت الى جافير وقال له : «دونك ماتريد» !..



سيق مادلين الى سجن المدينة وفشا نبأ اعتقاله فى انحائها، فأقام الناس وأقعدهم ومشى بعضهم الى بعض يتساءلون .

وانحازوا عنه حين علموا أنه مجرم عتيق ولم ينشبوا أن نسوا حتى عوارفه ، وقطعوا باجرامه قبل أن يقع اليهم تفصيل ذلك الحادث بآراس . فمضى النهار وما تكاد تسمع فى منـــاحى المدينة الا هذا اللغط :

الا تدرى ؟ ، انه مجرم سرح بعد العقـــاب ، من هو ؟ ، شيخ البلد ، ويحك ما تقول ؟ السيد مادلين ؟ ـ نعم ـ لا تقل هذا ، انه لم يكن يدعى مادلين ، ان له اسما آخر لله ما أشنعه ، لقد كان يدعى ما أدرى (بيجان) ! (جووان) !

ـ وهل أعتقل ؟

ـ نعم

ـ أفى السجن ؟

ـ فى سجن المدينة ويتوقع نقله وأشخاصه الى دار المحكمة ليسأل عن سرقة قد ركبها على الطريق المعبد فى عهده الاول

ـ انى لا أسكن الى هذا النبأ ، فقد كان الرجل طيبـــا كاملا ، وكان من الزاهدين ، ألم تر كيف تأبى على وســـام الشرف يوم أنعم به عليه ؟ ألم تقع عليه عينيك وهو يوالى اسداء الحسنات ؟. فما سأله سائل الا أعطاه ، ولا مر بمعدم الا نفحه ولا بمحزون الا واساه

ـ لقد كنت ألمح من وراء تلك الاعمال ماضيا غير محمود

وقالت عجوز من المشتركين (١) فى « علم السلام (٢) » :

« لم يثر هذا النبأفى نفسى حزنا على ذلك الرجل ـ ان فى هذا لبلاغا لاولئك «البونابارتيين» (٣) »

وهكذا قد انمحى بين عشية وضحاها شبح مادلين من

---

(١) قلنا من المشتركين ولم تقل المشتركات اتباعا للافصح قال الله تعالى : « وكانت من القانتين »

(٢) « علم السلام » جريدة يومية كانت تظهر فى ذلك العهد

(٣) نسبة الى نابليون بونابرت

الاذهان ولم يبق على عهده فى المدينة كلها الا ثلاثة أو أربعة منهم بوابته القديمة

وكانت قد دخلت عند دخول الليل غرفتها وقبعت فيها كاسفة البال تفكر فيما نزل بذلك الرجل الكريم

وقد أقفل المصنع على أثر ذلك الحادث وأقفر طريقه ولم يبق فى الدار غير الراهبة (بربيتى) وأختها (سامبليس) كانتا تتناوبان السهر على تلك الميتة

وعند الساعة التى اعتاد فيها مادلين العودة الى داره قامت البوابة وأخرجت من درج لها مفتاح باب مخدعه وعلقته فى مسمار مرشوق بالحائط ، ونصبت الشمعدان فى مكانه المعهود ، كما كانت تفعل فى كل مساء ، ثم أخذت فى التفكير

فعلت كل ذلك بدافع العادة لا بدافع الارادة . ومر بها ساعتان وهى على تلك الحال ، ثم عادت الى نفسها ولم تنشب أن صاحت :

«الهى من ذا الذى علق هنا هذا المفتاح ؟»

ووقع فى نفس هذه اللحظة أن فتح زجاج النافذة • وامتدت يد من فرجته ، فالتقطت المفتاح وأنارت الشمعدان . فرفعت عينيها وهى مفتوحة الفم وقد وقفت فى حلقها صيحة .. انها تعرف تلك اليد ، ولا تنكر تلك الذراع ، ولم يكن كم ذلك الرداء عنها بالغريب

انه السيد مادلين . فمر بها بضع ثوان وهى معقودة اللسان، كما حكت عن نفسها وهى تروى ذلك الحادث ، ثم انحلت عقدته فصاحت : «سيدى الشيخ ! لقد ظننتك ..» ثم أمسكت عن الكلام كراهة أن يبدر منها ما يكون فيه تحقير لذلك الرجل الذى كان لايزال عظيما فى نفسها

فأسرع مادلين وأتم لها جملتها فقال : « فى السجن ..

نعم كنت فيه فكسرت احدى عوارض النافذة وهبطت من على سطح هنـالك ، وها أنذا كما ترين أعود الى مخدعى ، فاذهبى انت الى الراهبة «سامبليس» وقولى لها أنى فى حاجة اليها !»
فانطلقت العجوز تعدو ، ولم يوصها بشىء ، فقد كان يعلم أنها عليه أحرص منه على نفسه .

ولا يعلم خلق كيف خلص هذا الرجل الى ذلك الفناء ، وهو لم يعمل فى الباب الكبير مفتاحا .

لقد كان يكون معه المفتاح (القلابة (١) الذى يستخـــدم لفتح أبواب الجـوانب . لكن من الحتم أن يفتش السجين عند دخوله فى السجن وينزع منه مايحمل من اداة . فهل عمى الموكلون بسجنه عن ذلك المفتاح ، لقد لبث هذا الامر غامضا .

صعد فى الدرج الى مخدعه ثم ترك الشمعدان على الدرجة العليا ، وفتح المخدع بلا تحرج فصر الباب صريرا ، ولـكنه لم يباله ، وولج فى الظلام

وجعل يتقرى بيديه ويتلمس النافذة حتى أصابها فأغلقها وأحكم اغلاقها . ثم عاد فحمل الشمعدان وأنار المخدع

وكان من الحزم أن يأخذ بتلك الحيطة فقد كانت النافذة مطلة على الطريق . ثم القى نظرة عجلى على ما فى ذلك المخدع من متاع فكان على غاية من النظام ، ولم يبق فيه ما يدل على أثر تلك الليلة غير قطعة الغلام وقد اسودت من النار وغير بقايا عصاه

فأخذ وريقة بيضاء خط فيها هذه الكلمات :

ــ هاكم بقية عصاى وقطعة الغلام الفضية التى ذكرتهـا أمام المحكمة

---

(١) القلابة كلمة عامية يعبرون بها عن المفتاح الصغير الذى يفتح جميع الابواب واخترت هذه الكلمة لانطباقها على المعنى المراد ، فكلمة قلابة تفيد أنها تقلب جميع الاقفال

ثم لفها فى تلك الوريقة ووضعها بحيث تأخذها عين الداخل

ولف بقايا الشمعدانين فى خرقة وجعل يحزمها وهو أهدأ مايكون نفسـا . وكان يمضغ كسرة من الخبز الاسود ولعله حملها معه حين فر من السجن . وقد وجد منها فتاة على بلاط المخدع ، وجده المحققون حين حضروا لمعاينة داره بعد اختفائه

طرق عليه البـاب فأذن للطـارق ، فدخلت الراهبة «سامبليس» وهى صفراء اللون محمرة الحدق

ولا يسلم المرء وان كان جلدا صبورا من أن يتسرب اليه الوهن أمام بأس الاقضية والمقادير

وكانت حوادث ذلك اليوم المشهود قد ردت الراهبة الى طبعها من الضعف والخور فجزعت وبكت ، وكذلك تبكى النساء

فمد لها جان فالجان يده بورقة ، وقال لها : « أيتهـا الاخت أرجو أن تحملى هذه الورقة الى القس» وكانت الورقة مطوية ، فألقت عليها الراهبة نظرة ، فقال لها : «لك أن تقرئى مافيها»

فقرأت : «أرجو سيدى القس أن يقوم على ماخلفته هنـا من المال ، وأن ينفق على دفن المرأة التى قضت فى هذا اليوم ، وأن يرصد ماتبقى للفقراء والمساكين

حاولت الراهبة أن تنطق فخانها النطق ثم تمكنت بعـد الجهد من أن تقول :

«الا يريد سيدى الشيخ أن يتزود من تلك البائسة بنظرة الوداع ؟»

فأجاب مادلين : «انهم على أثرى وربما أدركونى هناك فعكروا عليها صفو نومها الابدى ! »

وما هو الا أن قالها حتى سمعوا ضجة ووقع اقدام على الدرج . وسرى اليهم صوت البوابة وهى تقول :

«أقسم بالله أن أحدا لم يدخل ، واننى لم أرم مكانى من

الباب بياض النهــــار وسواد الليل» وسمعوا صوت رجل يقول : «وما هذا النور بالمخدع ؟» ، فعرفوا منه صــوت جافير

وكان باب المخدع يوارى عند فتحه الزاوية اليمنى من ذلك المكان فأطفأ جان فالجان شمعته واختبأ فى تلك الزاوية

وسقطت الراهبة علي ركبتها بجوار المنضدة ، وفتح الباب وظهر جافير على العتبة ، وجعلت الراهبة تصلى وكانت قد نصبت شمعتها على المدفأة ، فلمح جافير على ضوئها الضئيل تلك المصلية ، فسمر فى مكانه

وجافير كما تعهد ، بما بنى عليه طبعه وبما كسبه من البيئة التى يعيش فيها والمضطرب الذى يتقلب فيه ، كان على جانب عظيم من أكبار السلطة فى شتى مظاهرها . فهو يعظم سلطان الدين كما يعظم سلطان القوانين ، وينزل الراهب منزلة المعصوم من الخطأ ، والراهبة منزلة المعصومة من الخطيئة

تلك أرواح مسورة فى هذه الدنيا بسور له باب واحد ، لايفتح الا لتخرج منه كلمة حق

ولما لمح جافير الراهبة ، هم عند الوهلة الاولى بالانصراف، ثم ذكر واجب مهنته فوقف وتجاسر على سؤالها وهو يعلم أنها امرأة صدق ، ومكانها من نفسه مكانها : «أيتها الاخت ، هل أنت وحدك فى هذا المخدع ؟»

فرفعت عينيها ، وقالت : «نعم» . فقال جافير : «اعذرينى على هـــذا الالحـــاح .. ألم ترى رجلا فى هذه الليـــلة ، فانى أتعقب مجرما يدعى جان فالجان قد فر من السجن » . قالت : «لا !»

فانحنى جافير وسلم ، وعاد من حيث أتى وهو بها أوثق مايكون

كذبت الراهبة ثم كذبت : كذبت مرتين على التعاقب

ايه أيتها العذراء الطاهرة . انك لم تكوني من أبناء دنيانا..
وقد مر بك سنون وانت تلابسين الطواهر من اخواتك العذارى، والاطهار من اخوتك الملائك ، ولسوف تسألين عما جرى على لسانك من الكذب ، ولكن في دار النعيم

وبعد هذا الحادث بساعة أو شيعها (١) رؤى رجل يهرول بين الشجر ، وقد ركب طريق باريس ولم يكن غير جان فالجان وقد ارتدى رداء عامل ولم ندر من أين أتى به ، ولعله رداء العامل الذى مات فى المصنع منذ أيام

وقد آن لنا ان نشيع فانتين بكلمة :

«ان لنا أما واحدة

«هى الارض

« وقد أرجعوا فانتين الى أمها .. »

وقال القس :

«ليس من البر أن أنفق من مال هذا المجرم على دفن تلك البغى ، ولكن البر أن أرصده للنفقة على الفقراء والمساكين»

ثم تجوز (٢) فى دفن تلك البائسة والقى بها فى مقابر الصدقة، فاختلطت عظامها بذلك الرفات : رفات من سبقها ومن يلحقها من الاموات

وغابت فى غياهب تلك الحفرة التى لم تكن لاحـــد وهى لكل أحد

وذهبت روحها الى مقرها ومستودعها . وسبحان من يعلم وحده أين ذلك المستقر

وهكذا أنيمت فانتين فى ظلمة تلك الحفرة ، وانطوت فى رماد تلك الامشاج ، فكان لحدها أشبه شيء بسريرها

---

(١) قريبا منها

(٢) تساهل

فهرس

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢

(الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio Nº 3
3º Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL.

هذا الكتاب

اختصت سلسلة كتاب الهلال بطبع ونشر هذا الكتاب بتصريح خاص من ورثة حافظ ابراهيم

أما التأليف ، فهو لأديب فرنسا الأشهر فيكتورهيجو ، الذى أودع فيه من أدب براعته ، وفن براعته ، وجمال روايته ، وسمو بلاغته ، وقوة نقده ، ودقة تصويره ما يسحر ويمتع ، ويأخذ بالنفوس والالباب ، ويدفع القارىء الى الاسى والاشفاق على هؤلاء البؤساء الذين يعيش معهم فى هذا الكتاب

وأما الترجمة ، فهى لشاعرالنيل محمد حافظ ابراهيم . وحسبنا به أديبا نابغا ، وشاعرا عبقريا ، تزهو به مصر فى تاريخها الحديث،فقد أودع ترجمته نفسه وروحه ونبوغه ، فكانت ذخيرة أدبية ، تذكر له الى جانب ديوانه البليغ. وقد تسمو فى تقديرها الى أن تقف مع ديوانه فى كفتى ميزان ... أحدهما يدل على عبقرية حافظ الشعرية ، وثانيهما يدل على عبقريته النثرية ومقدرته فى علم اللغة وصناعة الكلام

كتاب الهلال

أخلاق للبيع

تأليف

فتحي رضوان

العدد ٧٩

قروش ١٠

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٧٩ ــ ربيع الاول ١٣٧٧ هـ ــ اكتوبر ١٩٥٧

No. 79 — October 1957

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ــ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ــ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ــ السعودية والعــراق والاردن وليبيــا ١٣٠ قرشــا صاغا ــ الامريكتين ٥ر٥ دولارت ــ فى ســـائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



أخلاق للبيع

تأليف

فتحي رضوان

مقـــدمة

لست ممن يؤمنون بمقدمات الاعمال الادبية ، سواء أكانت قصة ، أم مسرحية ، أم ديوان شعر . فالعمل الفنى ، حينما يفرغ منه صاحبه ، يصبح كيانا كاملا قائما بذاته ، يفسر نفسه للناس بنفسه ، ويعرض نفسه عليهم بنفسه . وكل محاولة لشرحه ، أو تفسير غرضه ، أو تحديد مراميه ، أو الكشف عن معانيه ، عمل فنى آخر ، مستقل عن ذلك العمل الذى تم استقلالا تاما . فكاتب المسرحية وهو يكتبها ، يحيط به جو خاص ، هو جو المسرحية ، يتفاعل فيه مع شخصياتها، ويتبادل معهم الاحساس والشعور ، حتى اذا فرغ من تسجيل خواطره ، واطمأن الى الصورة التى تم بها هذا التسجيل ، وقبل أن يعرضها على الناس ، فارقه الشعور الخاص الذى تكون وتكامل وهو يؤلف المسرحية ، وينظم حوادثها ، وينسق الحوار بين أبطالها ، وملأه شعور آخـــر ، هو الشعور الذى يستولى على الانسان وهو يكتب المقال . والجو الذى تولد فيه فكرة المقال ، ويحرر فيه ، غير الجو الذى تولد فيه فكرة المسرحية ، او القصة الطويلة أو القصيرة ، أو القصيدة ، أو الحوار التمثيلى ، الذى لا يكون مسرحية كاملة

ومؤلفو « الدراما » الذين اعتادوا أن يكتبوا لمسرحياتهم مقدمات طويلة ، وقد يستنفد طولها من الحجم ، أكثر ممـا تستنفده المسرحية ، لا يشرحون بمقدماتهم هذه المسرحيات، ولا يعينون القارىء على فهمها ، وانما ينتهزون فرصة ظهور

المسرحية ، وتقديمها الى القراء ، ليقوموا بعمل فنى آخر ، هو هذه المقدمة الطويلة ، التى يبسطون فيها آراءهم الفلسفية، ويعرضون جانبا آخر من مواهبهم الادبية . وقد يألف الناس أن يقرأوا مقدمات هؤلاء المسرحيين المتازين ، وأن يستمتعوا بها ، قبل استمتاعهم بالمسرحية المقدم لها ، أو اكثر من استمتاعهم بها ، ولكنهم لا يفعلون ذلك على أن المقدمة تكمل المسرحية ، او أن المسرحية تكمل المقدمة ، بل هم يشعرون فى الاغلب الاعم من الاحوال ، انهم يظفرون من ذلك الكاتب بعملين أدبيين فى وقت واحد ، لكل منهما طابعه ومذاقه، ومتعه ولذائذه ..

واكاد اقطع بأن مؤلف المسرحية قد يكون غامضا فى بعض اجزاء مسرحيته ، أو فيها جميعا ، فاذا حاول أن يبدد هذا الغموض فى مقدمه ، بدا واضحا ، ومع ذلك فانه بهذا الوضوح، لا يعين القارىء المتمعن المتفحص كثيرا ، لانه ينسيه ان افكار المقدمة ، وان قربت من افكار المسرحية ، الا أنها لا تكررها ، ولا توضحها ، بل تنفصل عنها ، وتأخذ صورة جديدة ، وهى بين يدى الكاتب الذى ترك اسلوب الحوار المسرحى ، الى أسلوب الكاتب المسترسل

فالاعمال الادبية اذن ، ليست كالقوانين التى يضعها المشرع ، ثم يضع الى جوارها مذكرة شارحة ، أو مذكرة « ايضاحية » ، فالعمل القانونى عمل عقلى بحث ، لا شأن للعاطفة والانفعال فيه ، بينما العمل الادبى عمل انفعالى أولا وقبل كل شىء ، وجوانبه العقلية هى انفعالات ذهنية ، ومن ثم فلا سبيل الى توضيحها الا بنفسها ، لا بوسيلة أخرى تغايرها طبيعة ، واسلوبا وغاية

ولهذا فأنا مقر بعجزى عن أن أفسر شيئا من مسرحيتى « اخلاق للبيع » و « عشر شخصيات يحاكمون مؤلفا » . وليس معنى هذا أننى لا اعرف الى اى شىء هدفت من كتابة هاتين

المسرحيتين ، وكل ما عنيته من كل حرف كتبته فيهما ، وانما اريد ان أقرر ثانية ، انني لو أردت تفسيرهما ، فلابد أن اكتب مسرحيتين اخريين ، تقومان بهذا التفسير ، والا فسأكتب مقالا لاينقل الى القارىء الا افكارى ، منفصلة عن الانفعال الذى يستطيع أن يؤديه الحوار المسرحى ، بكل قوته ، وبكل ضعفه.

فلكل أسلوب أدبى مزاياه ، وعيوبه . فللشعر مثلا موسيقاه ، واوزانه ، وجمال وقعه ، ولكن كل من يكابد الشعر ، ويعالجه ، يعرف قيوده التي مهما ثرنا عليها ، فهي قائمة ولازمة ، حتى يبقى للشعر جماله وحلاوته ، ومزاياه وخصائصه

كذلك للمسرحية مزاياها ، وقيودها ، التى تصب الافكار فى قوالب « الحركة المسرحية » ، سواء أكانت هـذه الحركة عنيفة حارة ، أم كانت بطيئة فاترة

على أن المؤلف المسرحى ، يسىء الى عمله ، ويسىء الى قراء هذا العمل ، ان هو حد خيالهم بمقدمة يكتبها ، ولابد لـكى يعوض الناس عن هذه الخسارة ، أن تكون مقدماته طـرازا عاليا فى الادب ، ونموذجا رفيعا فى الكتابة ، أما ان لم يبلغ هذا المبلغ ، فالخير كل الخير ، أن يدع عمله فى رعاية من خيال قرائه الممدود ، يكملون له ما نقص ، ويجملون ما قبح ، ويوضحون ما غمض

غير انه مهما بلغ بى الزهد فى كتابة مقدمة لهاتين المسرحيتين ، فانه لن يبلغ الى الحد الذى يصرفنى عن أن أقول كلمة عن الهدف الاكبر منهما ومن شقيقتيهما « دموع ابليس »

ان هذه المسرحيات الثلاث ، هى اعلان متكرر عن ايمـانى بالانسان . . فقد يبدو جبانا ، مترددا ، اومندفعا متهوسا ، او بخيلا لا يكاد يطيق مفارقة المليم ، أو مسرفا لا يبقى على شىء تطوله يداه . قد يظهر غبيا لا يفهم ، أو مختلا لا اتزان عنده ، فيحكم الناس عليه فى هذه الحالة ، حكم اليائس منه . فاذا ما صبروا ، وتابعوه ، ورأوه فى ظل الحوادث التى يأتى بهـا

الزمن ، والتطورات التى تحوذ بها الايام ، وجدوا انساناجديدا، يكاد يكون مقطوع الصلة بالانسان الذى عرفوه ..

على أن مفتاح شخصية الانسان ، والمصباح الذى يكشف عن قواه المدخرة ، وكنوزه المخبوءة ، هو ايمانه بنفسه ،وثقته فيها ، واحتفاله بالبحث عما ينطوى عليه عقله وقلبه ، من نفائس مطمورة ، ومواهب مدخرة أو محجوبة . وقد تنقدح شرارة هذا الايمان ، ويضىء مصباحه ، لمجرد الوعظ والكلام ، فلابد من قوة ، أما أن تنبعث من داخل الانسان ، وهـذا هو الاغلب ، واما أن تقع خارجه ، فتلفت نظره ، وتضع يده على حقيقته ، وقوته المضيعة

فهذه المسرحيات اذن ، دعوة الى الايمان بالانسانية ، واطمئنان الى مستقبلها ، والارتفاع عما نشكو منه ، الى مانؤمل فيه ، وتجاوز ما نراه الى مالا نراه .. فمستقبل الانسان حافل بأشياء رائعة ، وأمجاد رفيعة

وبعد ، فلم يبق الا أن أقول أن بعض القراء سيرون فى مسرحية « أخلاق للبيع » ملامح لبعض حوادث يعرفونها ، والى هؤلاء احب أن أقول اننى لم احاول تصوير أشخاص بعينهم ، ولا حوادث بذاتها ، وانما هى مجرد تأثرات ، خلطت خلطا ، باعد بها عن أصلها مباعدة كاملة

فتحى رضوان



الاستاذ فتحى رضوان

الفصل الأول

المشهد الاول

فى حجرة انتظار بعيادة دكتور

شابة فى مقتبل العمر ، طويلةنوعا ، أنيقة ، ترتدى ثوبا يكشف عن صدرها ، وذراعيها ، وفى يدهاسيجارة ، تنفض عنها رمادها فى حركة عصبية ، وتاخذ منها انفاسامتلاحقة . تضع رجلا على الاخرى فى بداية المشهد . تهـز الرجل اليسرى الموضوعة على اليمنى هزا يدل على الاضطراب والانفعال . يجلس الىجوارها رجل فىمنتصف العمـر ، دب الشيب الى فوديهدبيبا خفيفا ، يلبس منظارا تبدو من خلف زجاجتيه عينان هادئتانصافيتان ، وعلى شفتيه ما يشبه الابتسامة الساخرة التي لا يتبينهاالناظر الا اذا كان متأملا غـير متعجل . تبدو على ثيابه الاناقةالبسيطة والنظافة بصفة خاصة ، والترتيب : ويظهر الفارق الشديدبينه وبين الشابة التى تجلس الى جواره ، من فرط هدوئه ، ومن انعدام مظاهر الانفعال فى صـوته وتقاطيع وجهه ...

تبدأ السيدة الحديث بطريقة تقصد منها لفت نظره ..

السيدة : اسمع .. اسمع .. قلت لك أنا مضطربة .. أنا مضطربة جدا

السيد : لا داعى للاضطراب يا عزيزتى ...

السيدة : بعصبية شديدة ــ أرجوك ، غير لهجة حديثك ..

السيد : مرتبكا ومأخوذا ــ كيف .. ؟

السيدة : لا أعرف كيف ، وانما غيرها ، لانى لم أعد أطيق

السيد : أنا آسف .. يا عزيزتى

السيدة : آسف .. آسف .. هذا ما اتجرعه منذ خمسة عشر عاما . لقد شبعت ياسيدى شبعت جدا من تأسفاتك ..

السيد : الحق أنها مدة طويلة . .

السيدة : تعدل وضع جلستها ، وتخرج من حقيبة يدهاعلبة سجائرها ، وتخرج سيجارة بعصبية وهى تقول : مدة طويلة . يا سبحان الله . . لم يعد باقيا الا هذا . !

السيد : أكثر ارتباكا ـ يا حبيبتى . . خمســة عشر عاما تتجرعين فيها تأسفاتى ، لاشك أنها مدة طويلة

السيدة : حسنا . . هذه طريقتك المفضلة ، تقول الحقيقة ، فاذا ضبطت متلبسا بها لم تلبث حتى تحرف فيما تقول . . . فى الاصل تعنى أن خمســة عشر عاما قضيتها معى فى حيــاة واحدة ، وتحت سقف واحد ، مدة طويلة جدا . .

السيد : والله ما قصدت شيئا من هذا . . . المهم ، كيفانت؟ ارجو أن تهدئى من نفسك . .

السيدة : وكأنما يئست منه أو من شيء مجهول ـ لا فائده على اية حال . . اهدؤ نفسى اولا اهدئها

السيد : كانما يحاول أن يقنعها ـ كيف تقولين ذلك،وموعدنا مع الدكتور لم يبق عليه الا دقائق ؟

السيدة : ضاحكة فى سخرية ـ الدكتور وموعدنا معه . . . كلام فارغ

السيد : مندهشــا ـ كلام فارغ . ؟ كيف ؟ اذن ما فائدة مجيئنا الى هنا ؟

السيدة : أفضل من الذهاب الى السينما او الاوبرا

السيد : وقد زادت دهشته ـ اوبرا . . سـينما . . ؟ ! ما هذا الذى تقولين يا حبيبتى ياثريا

ثريا : ما هــذا التحول العظيم . . أتذكر أنك كنت تقول منذ لحظة ، ياحبيبتى ؟

فهمى : وكأنما صدم التحول موضوع الحديث ــ وماالغريب فى هذا ؟

ثريا : الغريب فى هذا انك لا تعرف عادة كيف تنطق هذين اللفظين

فهمى : مصابا بخيبة أمل ــ اتظنين ان هذا مكان الحديث فى هذا الموضوع ... ياثريا

ثريا : العودة السريعة الى الرسميات .. نعم يا دكتور فهمى ، ليس المكان لائقا لان اتحدث معك حديثا عاطفيا ... لقد اخطأت .. نحن قد جئنا الى عيادة الدكتور من أجل عملية جراحية . ولكن ماهو هدف هذه العمليةالجراحية ؟ لماذاأسلم نفسى لمشرط الجراح ؟ لماذا أتحمل آلام المخدر التى لا أحتملهـا أبدا ، والتى أعـرف ، وتعـرف انت ، كم كابدت منها حينما اضطررت الى تناول ذلك المخدر لاجراء عملية وضع متعسر ..

فهمى : وكأنما يتذكر ــ حقيقة نحن جئنا لعمليةجراحية .. عملية عاطفية

ثريا : وما كان أغنانى عن ذلك ، لو لم تـكن انسانا غير عادى ، أو لو لم أكن أنا امراة شاذة .. ! الحـــق انا خجله من نفسى

فهمى : انا السـبب ... واسمحى لى أن أقول متأسف هذه المرة باذنك

ثريا : منفجرة ، وقد ألقت بعقب سيجارتها على الارض بعنف ــ قلها هذه المرة ، أو قلها للأبد ، ماذا يهم .. انا سيدة تعسة محكوم عليها بأن تجرى عملية جراحية لكى تستطيع أن تعيش مع زوجها .. من يصدق ذلك ؟ !

فهمى : (مرتبكا ، يقترب منها وهو يحاول أن يهدئهـا) ــ الناس ... يا حبيبتى .. يا ثريا .. الناس تسمع ...

ثريا : لا تقتلنى بالحديث عن الناس .. الناس يسمعون .

الناس ينظرون .. الناس يعتقدون .. من هم هؤلاء الناس ؟ وماذا يساوون ؟ ان الناس ياســيد فهمي حينما أحـزن لا يستطيعون أن يعطونى سعادة .. حينما امرض لا يعطوننى صحة .. حينما اشعر بالوحشة والوحدة والكآبه ، يتركوننى ويفرون منى . فبأى حق يتدخلون فى شئونى ، ويحدون من حريتى ، ويملون على ارادتهم ؟ ..

فهمي : ياعزيزتى ...

ثريا : (محدقة ، وكأنما اكتشفت شيئا) يا عزيزتى .. يا حبيبتى .. عرفت السر ..

فهمي : (مَتلفتا) السر ؟ أى سر .. ؟

ثريا : سر شقائى .. سر افلاس حياتنا الزوجية

فهمي : حياتنا الزوجية غير مفلسة

ثريا : اذن ، لماذا جئنا الى هنا ؟

فهمي : كأنما يتذكر شيئا ضاع منه ــ صحيح .. لمــاذا جئنا الى هنا ؟

ثريا : اقول لك السر أولا ..

فهمي : مقبلا عليها ، مقتربا منها ــ ماهو هذا السر ؟

ثريا : وهذا دليل جديد على أننى اكتشفت حقا السر ..

فهمي : ثريا .. ماذا جرى ؟ (يمسك بيدها) . هــل انت مضطربة . ؟ اعنى مضطربة أكثر قليلا من المألوف

ثريا : ضاحكة ضحكة عالية جدا ــ تريد أن تقــول اننى جننت .. لا ، اطمئن يا سيد فهمى .. اطمئن ، ان زوجتــك عاقلة ، عاقلة تماما .. لن تتعرض لفضيحة . لن يتحدث عنك الناس . ولن تنشر الجرائد صــورتك .. انت الذى تخشى الناس .. وتحسب حساب كلامهم .. وتخاف من نظــرات عيونهم ، وهمسات شفاههم ، واشارات ايديهم .. انت الذى تعبد الها جبارا قاسيا لا يرحم .. هو المجتمع .. المجتمع

الذى احتقره واكرهه ، لانه قادر على أن يشقى ، عاجز عن ان يسعد .. ماهر فى أن يضاعف من قدرة الاقوياء ، فاشل جدا فى أن يمد يده لضعيف أو لفقير

فهمى : طوال هذه المدة متلفتا حـول نفسه ـ وبعـد .. وبعد .. يا ثريا . ما الذى حدث ؟

ثريا : الذى حدث اننى اكتشفت اكتشافا هاما اخرجنى عن طورى واسعدنى ، فأصبحت خطيبة وفيلسوفة فى وقت واحد

فهمى : يمد يده نحوها ـ ويقول : تعالى .. تعالى نخرج

ثريا : واقفة وقد وضعت يديها فى خاصرتها وهى تقول :

ـ لماذا ؟ وماذا يقولعنا الممرض ونحن ننصرف قبلان نرى الدكتور .. ماذا يقول السائق ، سائق السيارة ، اذا رآنانعود ولم يمض على صعودنا الى العيادة بضع دقائق ، واذا علم اننا دفعنا « فوزيته » لم نستفد بها ؟ أليس لهؤلاء جميعا ، ولآرائهم وأحكامهم علينا ، اهمية فى حياتنا .. من اين لك الشجاعة لتواجه هؤلاء جميعا ، ولا تكترث بارائهم ..

فهمى : وهو يهز راسه ـ أنا أعرف سر كل هذا الانفعال . !

ثريا : مرحى . ! مرحى . ! لقدعرفت سرا ، وعرفت انا سرا .. قل لى سرك ، وأقول لك سرى .. فسرا بسر !

فهمى : فى حنو ظاهر ، وهو يمسك بيدها ويربت عليها ـ ياعزيزتى الصغيرة . !

ثريا : أيها الرجل ! اقتصد .. انك دللتنى فى اقـل من عشر دقائق ثلاث مرات . وهذا امر لا يتصور .. لقد أصبت بشىء فى عقلك .. خبل ، اضطراب ، أى شىء ، الا أن تـكون أنت بعقلك ... هذا هو الذى كشفته الآن .. (تقف وتضـع يدها على كتفه كأنما تتحدى) ان عواطفك كعواطف اى رجـل عادى ، ليس بك نقص .. لسانك يعرف الفاظ التلطف ، أو

قل الغزل ، ولكنك فى حاجة الى شىء يخيفك .. الى انفعال عظيم . فلما حدث الانفعال فى هذه العيادة ... ان الخوف من الناس أصبح بالنسبة لك شيئا مالوفا .. فانت فى حاجة الى خوف من نوع جديد .. الخوف من العملية مثلا .. عملية مجهولة غريبة لم يقدم عليها احد . عملية مزدوجة ..

فهمى : مقاطعا ـ وانا كشفت انك تخافين هذا الخوف ولنفس السبب .. انت ايضا خائفة من هذه العملية .. خائفة وخجلة .. ولذلك فلسانك لم يكف عن الكلام

ثريا : اذن لنعترف لانفسنا باننا خائفان .. فلننصرف



المشهد الثانى

يفتح الباب ، ويدخل المرض فى مريلة ، بيضاء ، وطاقية بيضاء ، رجل متوسط العمر ، يبدو عليه انه مجرب ، وانه « شاطر » يعرف كيف يستفيد من العملاء ، وكيف يسرى عنهم

فهمى : يسرع فى اتخـــاذ وضع عادى ، ويدعو زوجتـــه ـ باشارات من يديه ، ووجهه ـ الى الجلوس ، والتظـاهر بانهما فى حالة عادية

المرض : صباح الخير ـ ينظر الى ساعته ـ الدكتور سيأتى حالا .. انه تأخر عن موعده قليلا ، انه سيكون هنا الساعة ١٢ بالضبط !

فهمى : ان موعدنا معه الساعة الحادية عشرة والنصف ..

المرض : الدكتور لا يتأخر ابدا الا لسبب مهم وخطير .. انه كالساعة ، « مضبوط » !

فهمى : وما سبب تأخره اليوم ؟

المرض : أنا لا اعرف ، ولكنه لابد ان يحضر حالا ...

فهمى : أعانه الله ، على كل حال الاعمال كثيرة

المرض : فى الماضى كانت أكثر ، ولكنها الآن أصعب

فهمى : باهتمام شديد ، بينما يبدو على زوجته عـــدم الاكتراث والانصراف عن متابعة الحديث ـ نظرها يتجه الى نافذة وبعد قليل تتجه نحوها وتطل منها ـ قل لى بصفة أخويه ، هل العمليات تنجح دائما ؟

المرض : تنجح فقط ؟ انها تحقق معجزات .. اشياء من وراء العقول

فهمى : يزداد اقبالا عليه ـ أرجوك الا تؤاخذنى .. اعطنى امثلة

المرض : امثلة ؟ .. لماذا . ؟ سترى بنفسك الآن حينما يأتى الزبائن

فهمى : مندهشا غاية الاندهاش ـ النجاح يبدو عليهم ؟ !

المرض : يضع يده فى جيبه ، ويحدث صوتا بسلسلةمفاتيح فيه ـ ستراهم وستحكم بنفسك ..

فهمى : كيف يظهر عليهم ؟ الذى سمعته أن العمليات التى يجريها الدكتور تحدث تغيرات باطنية ، تغيرات فى الاخلاق والامزجة والطباع . مسائل داخلية . وقد فهمنا نحن منه ذلك . فكيف تظهر على مرضاه نتائج العمليات ؟ ..

المرض : كل الذى تقوله مضبوط ، ومع ذلك تستطيع أن تحكم بنفسك .. (يتوقف) ولا تنسى أن هذه المسألة مسألة اسرار أيضا ، ولا يجوز أن اتكلم ...

فهمى : لك كل الحق . أسرار العيادات يجب أن تصان . والا فقل على المجتمع السلام ..

ثريا : تدير وجهها من ناحية النافذة ، وتوجه القول الى زوجها من مكانها ـ المجتمع العزيز .. يصاب بكارثة !

فهمى : يا عزيزتى . ! ـ ينظر الى المرض مرتبكاـ ويقول له : الا تدخن سيجارة ؟ يخرج من جيبه علبة سجائره ، ويقدم له سيجارة

المرض : ينظر الى العلبة ولا يمد يده ـ ويقول : متشكر . !

(يدق جرس ، فيسرع ناحية باب الغرفة)

ثريا : تقترب من السيد ـ وتقول له بصوت خافت نوعا :

ـ انك رجل تحسب حساب كل شيء حتى السجارة .. فلم تقدمها للرجل الا حين احتجت اليه ..

فهمي : يا ثريا .. انت دائما تسيئين الظن بى . تصرفاتي على طول الخط متهمة عندك

(يدخل شخصان احدهما رجل فى نحو الخمسين من عمره ومعه شاب فى نحو الثامنة عشرة ، ويأخذان مكانا فى الحجرة)

فهمي : يبدأ فى التحديق فيهما ، ثم يقترب من زوجتـــه ويقول لها فيما يشبه الهمس ـ أيهما المريض ؟ . تأملى فيهمـا جيـــدا ..

ثريا : انا غير مستعدة ان اتأمل فى احد ولا فى شيء . لقد قررت أن اسلم نفسى لمشرط هـــذا الجـراح ولو كان فى ذلك موتى .. ماذا يهم الموت ، اذا كانت الحياة أفظع منه ..

فهمي : يتأمل فى الشخصين اللذين دخلا وهو لا يســـمع ما تقول ـ اظن ان اكبرهما هو المريض

ثريا : يا سيدى لا تضيع وقتك ، الجميع مرضى . من يظن نفسه سليما فى هذا المجتمع العزيز الذى نحبه ونخشـاه ونتملقه ، لابد أن يكون مريضا . مريضا الى أبعد حد .. لابد أن يكون مجنونا من الدرجة الاولى

(يدخل الحجرة « مراد » وهو شاب طويل ، رفيع ، يبدو على وجهه آثار احتقان ، وتدل طريقة اندفاعه فى دخـــول الحجرة ، انه عصبى لا يستطيع أن يضبط أعصابه

مراد : يضحك مقهقها بطريقة تلفت نظر الاربعة الموجودين فى الحجرة ، لاسيما الدكتور فهمى ـ ماهذه الكآبة التى تعـلو وجوهكم ؟ . ما هذا الصمت الذى يقيد السنتكم ؟ أين الضحك اين المرح ؟ الضحك والمرح .. هما الحياة ، والتفاؤل سر الوجود والامل هو جوهر هذه الدنيا .. ضحك .. وتفاؤل ...

(يقترب من الدكتور فهمى الذى يبدو عليه ما يقرب من الفزع)

وأنت ماهذا الرعب الذى يعلو وجهك كانك ستساق الى المشنقة أو الكرسى الكهربائى .. هل فقدت زوجتك وعائلتك ، أم خسرت أموالك فى البورصة ؟

(يقهقه بشدة ، ويجلس وهو يضع رجلا على رجل فى اهتزازات واضحة)

غيرغددكايهاالسيد. فأنتلستالاغدة . . الناسجميعاغدد،هذه هى خلاصة العلوم والتجارب الطبية .. هذا آخر ما وصل اليه العقل البشرى .. (يقهقه ويعلو صوته ، ثم يضرب ركبتيه بيديه ويقول موجها الكلام الى الشخصين اللذين جاءا بعد فهمى وثريا)

وانتما لماذا تتداخلان بعضكما فى بعض ، وكأنكما ارتكبتما جريمة قتل ... مرح ... ضحك .. تفاؤل .. أمل . هذا هو الجوهر والسر والهدف (يقهقه بشدة)

(يدخل المرض ، فينهض مراد ويصافحه بشدة ، ويهز يده هزا عنيفا متواليا متصلا ، ثم يعانقه ويقبله من وجنتيه)

مراد ــ أهلا .. أهلا .. بصديقى وحبيبى !

(يعاود معانقته ، ثم مصافحته بنفس الطريقة)

(المرض يترك له يده بطريقة آلية ، الجميع ينظرون اليهما فى دهشة)

مراد : أهلا .. أهلا .. بالصديق العزيز !

المرض : ماذا حدث ؟

مراد : الذى حدث أننى مشتاق اليك . هل فى هذا شىء غريب ؟

(يوجه الكلام الى الحاضرين وكأنه يخطب) اسمعوا أيها

السادة ، هذا الاخ يمثل عندى الانتصار .. يذكرنى بالصحة . بالامل .. بالتفاؤل .. (يقهقه قهقهة عالية جدا) هذا بالضبط ما تذكرنى به يا سيد بهيج .. !

المرض : محتجا ـ بهيج ! .. بهيج .. ماذا تعنى ؟

مراد : أعنى أنك ياسيد بهيج ، تبهجنى حينما أراك . ولو اننى الآن مبتهج على طول الخط . مبتهج بلا انقطاع ولا كسل.

المرض : ولكن اسمى عباس !

مراد : هذا خطأ .. الآباء يخطئون حينما يطلقون الاسماء التى تحلو لهم على أولادهم . يجب أن يكون لكل منا مطلق الحرية فى اختيار اسمه حينما يكبر .. أو قل كل بضع سنين. فالانسان ينمو ، وينضج

المرض : وهل فى اسمى ما يضايقك ؟

مراد : عباس .. عباس .. لماذا العبوس ، ولماذا الحزم والعزم ؟ انها البهجة هى التى نريدها .. (يخاطب الحاضرين) اليس كذلك أيها السادة ؟ (يقهقه قهقهة عالية)

المرض : وبهيج هل هو الاسم المناسب لى ؟

مراد : قل انت ولا تجاملنى .. قل الحقيقة ولا تخف شيئا .. بهيج اسم ضاحك يدخل الى القلب السرور والسعادة .. فانت بالنسبة لى تمثل البهجة والسعادة .. (يتجه نحو ثريا التى يبدو عليها الاهتمام) سيدتى التى تفهمنى من كل هؤلاءالسادة، أنت وحدك التى تبدو عليها المشاركة ، والتتبع . لك عيون لامعة ، تخطف ببريقها الابصار

ثريا : (تبتسم ، وتقول بلهجة الاحتجاج) يا سيدى !

مراد : متجها نحو زوجها ـ معذرة يا سيدى ! لقد تكلمت بهذه الجرأة ، دون أن أحسب لوجودك حسابا . (يقهقه قهقهة عالية) والله ما قصدت الاساءة الى أحد ، وانما اردت فقط

ان اتجاوز الحدود المعروفة ، وانا اعبر بصراحة عما فى نفسى .. هذا هو واجبنا .. تجاوز الحدود .. ان لم تفعل انتهت هذه الحضارة واصبنا جميعا بالجنون ... (يقف فجأة ، ويحدق فى وجه الدكتور فهمى) ياسيدى أنت تعانى من عقدتين نفيسيتين على الاقل .. (يقهقه)

الدكتور فهمى (مرتبكا ، وقد احمر وجهه ، ووضع يده فى جيب بنطلونه بحركة عصبية .. واخرجها فارغة

مراد : هذه وقاحة ، انا أعرف .. ولكن واجبى الآن بعد أن شفيت ان اكون وقحا ، هذه الوقاحة هى ما يحتاج اليه المجتمع ، لانى بها اكشف للناس ما فى نفوسهم ، فيتم الشفاء ، وعلى الاقل يبدأ العلاج .. (يقهقه)

الدكتور فهمى : انا لا افهمك ياسيدى .. عقده .. عقدتان عقدتان نفيسيتان .. ماذا تعنى ؟

مراد : (مقهقها) انت لا تعرف ماهى العقدة النفيسة ... اذن انت لا تعيش فى القرن العشرين . العقدة النفسية هى الحضارة الحديثة . هى الحلقة المفقودة فى حياة الانسان بعد آلاف السنين من الحضارة ..

ـ (موجها الحديث الى ثريا) وانت يا سيدتى لا تعرفين ايضا ماهى العقد النفسية .. هل تظنين انك تعيشين بدونها كالسيد المحترم زوجك ؟ (مقهقها) تكلمى بحرية ، لا تخافى منى ، ولا تخافى من زوجك .. الخوف هو الد اعدائنا .. هو اخطر من الموت ، ومن المرض ، ومن الفقر .. انه اب الموت واب الآلام الاخرى (يقهقه قهقهة عالية ، ويرتمى على المقعد كانما انهكت قواه)

(ينظر الى الرجل والشاب اللذين يجلسان فى ركن من الحجرة)

ـ ايها السيدان لا تظنانى فيلسوفا .. ولا تحسبانى مجنونا .

انا مجرد رجل طبيعى .. كل العيب انى طبيعى فى مجتمع قائم على التصنع والنفاق والكذب . !

(يقف ، ويتجه نحوهما ، ويحدق فيهما معا ، ويوجه القول الى الرجل) : انت والد هذا الشاب ؟

فؤاد : من اين عرفت .. ؟

مراد : (يضحك وهو يدفع فؤاد بيده فى كتفه) من الكآبة العجيبة التى تظللكما .. انتما كئيبان .. انت ضحية عقد ..

فؤاد : (بغلظه) لا أسمح لك ان تكلمنى هـكذا .. من انت ياسيدى حتى تتهمنى بانى مريض ..

مراد : انا ياسيدى رجل بلا عقد .. وبلا كآبه ، وبلا احزان، وبلا مخاوف .. وبهذا الحق وحده ، وهو حق لو تعلمـون عظيم ، يمكننى ان اواجهكم ايها البؤساء بحقائق نفوسكم ، وان ادلكم على طريق الشفاء والسعادة والقوة ... (تضحك ثريا ضحكة رنانة)

ــ (يلتفت اليها ، ويسرع نحوها ، ثم ينحنى) اسمحى لى يا سيدتى ان احيى هذه الضحكة الرنانة ، التى تدل على الصحة والسرور .. ان هذا ما نريده

ثريا : من منا لا يريد أن يضحك ؟

مراد : الناس جميعا يخافون السعادة .. الا ترينهم حينما يضحكون يخافون من ذلك ، ويقولون اللهم اجعله خيرا

ثريا : (تضحك ، وهى تغالب نفسها) وتقول : اللهم اجعله خيرا

مراد : ولماذا يجعله شرا ؟ .. اتظنين ان بين الخالق وبيننا ثارا ؟ اتظنين انه خلقنا لنبكى .. لنمرض .. لنموت ؟ نحن الذين فعلنا ذلك فى أنفسنا

(ينظر فجأة الى عباس المرض ، ويقول له)

ـ يا سيد عباس سابقا ، يا سيد بهيج حاليا .. أين السيد الدكتور .. اريد أن أراه ..

فؤاد : لماذا يا سيدى تريد ان ترى الدكتور وانت رجـل سليم ، توزع السعادة على الناس ؟ !

مراد : هذا سؤال يليق برجل يتصور أنه يعيش بلا عقـد نفسية

فؤاد : محتدا : احفظ أدبك .. انا لا اقبل الاهانة من احد

مراد : مقهقها ـ وهل اهنتك ؟ . هل لو قلت لك انك حى ترزق . أو ان لك عينين ورجلين ويدين وقدمين .. هل لو قلت ان لك رأسا وأنفا وفما .. هل لو ذكرت لك كل هـذه الحقائق ، أكون قد اهنتك ؟ .. انت يا سيدى مصاب ببعض العقد النفسية ! هـــذه تساوى تماما ان لك عينين وقدمين وساقين

فؤاد : انت تهذى .. انا لا اعرف شيئا عن العقد

مراد : اذن انت ميت .. الحيـاة هى العقـد النفسية .. الحضارة والتقدم هما ثروة من العقد النفسية

ثريا : ولكن السؤال الذى وجه اليك يحتاج الى جواب ، لماذا جئت الى الدكتور ؟

مراد : من اجل هذه البهجة التى يشعها صوتك .. من اجل هذه العيون البراقة الجميلة .. أناأجبته فقط على هذا السؤال. لقد جئت يا سيدتى لاشكر الدكتور .. لقد أصبح صديقا .. كما أصبح السيد عباس .. متأسف .. السيد بهيج صديقى. لقد أحببت الدكتور وممرض الدكتور .. وعيادة الدكتور .. حتى هذا المتاع .. هذه الكراسى .. هذه السجادة .. هـذه الصورة المعلقة على الجدار والتى لاتعنى شيئا انا مدين لهـم جميعا بالشفاء

(شكيب (الشاب) يقف فجأة ، ويصرخ فى عصبية)

اطردوا هذا الرجل .. ان أعصابى ستتمزق .. ضحك وصراخ وهياج وحركة ..

مراد : (يقهقه قهقهة عالية) العقد تحركت !

شكيب : اسكت والا حطمت عنقك

مراد : (مرتبكا قليلا) حبذا لو فعلت

شكيب : (يتجه نحوه) أنت لا تريد أن تقصر الشر .. سألقى بك من هذه النافذة ..

مراد : (يجلس فجأة على المقعد) أنا معذور .. انا رجل بلا هموم .. بلا أحزان .. انا فى حاجة الى علاج . انا مريض .. انا أكثر مرضا منكم جميعا واسوأ منكم حالا ..

شكيب : (يتجه نحوه ، ويضع يده على كتفه مواسيا) لا تؤاخذنى ! هل أسأت اليك ؟

مراد : أنت ياسيدى رجل سعيد .. أنت تتمتع بالكآبه .. أنت تعرف الحزن .. اما انا فرجل مسرور .. رجل متفائل.. رجل مقبل على الحياة (يضحك ولكن بطريقة يبدو فيها خيبة امل)

ثريا : انت تشكو من السعادة ؟

مراد : (متجها نحوها) تمام .. لقد سئمت السعادة ! لقد اصبحت اشبه شيء بطياره بلا مثقلات تربطها بالارض .. فهى تطير وتطير .. ولا تهبط

ثريا : طر يا سيدى .. طر .. مادمت تبعد عن هذه الارض!

مراد : حذار أن تقعى فى نفس الخطأ الذى وقعت أنا فيه .. الانسان بلا هموم .. وبلا أحزان ، بالونه افلتت من يد طفل ، وذهبت فى الهواء ، تعلو على غير هدى تتقاذفها الرياح بلاهدف . انا لم اعد اهتم بأحد

ثريا : هل انت ياسيدى حزين من فرط السعادة ؟

مراد : ماذا تقولين ؟ .. حزين ! ياليتنى .. انا سعيد .. سعيد .. سعيد (يقهقه)

المشهد الثالث

يدق الجرس

مراد : (موجها الحديث الى الحاضرين) الدكتور حضر ...
(ينطلق نحو الباب وعندما يصل اليه يلتفت الى الحاضرين ويقول) انا سأسبقكم اليه .. انا رجل سعيد ، والسعداء يتقدمون التعساء

(فترة صمت طويلة ... ينظر خلالها الجالسون بعضهم الى بعض)

ثريا : (توجه الحديث الى زوجها بصوت يمكن أن يسمعه الشخصان الآخران) رجل ظريف ! (تخرج سيجارة من علبة سجائرها التى تخرجها من حقيبتها ، ويبدو عليها ان حديث مراد ابهجها)

فؤاد : من مكانه ــ ظريف ! اى ظرف فيه ؟ لقد كسر رءوسنا

الدكتور فهمى : انه مجنون !

شكيب : انه تعيس !

ثريا : تعيس ؟ ! . . انه يقول انه أسعد السعداء .. أن شكواه هى أنه سعيد أكثر مما يجب ، واكثر مما يحتمل (تضحك ضحكة رنانة)

فهمى : ينظر اليها وهو متضايق لان اعصابها لم تتأثر من حديث مراد الجنونى) هل هذا كلام عقلاء ؟

ثريا : من الذى يحكم ؟ نحن فى رأيه مجانين !

شكيب : (يقف وهو متصلب ويقول لوالده) لماذا جئت بى الى هنا ؟ انا صدرى منقبض. .أنا اريدالدكتورالذى أحضرتنى اليه لانشب اظافرى فى عنقه . .

فؤاد : ماذنب الدكتور ؟

شكيب : ما ذنب الدكتور ؟ ! . . أتظن ان الذنب ذنبى انا . . اليس هو الذى أشعل نار هذه الثورة فى بيوت الناس ؟ الم يخدعنا جميعا اذ أوهمنا انه بعملية جراحية فى الغدد يمكن ان يغير اخلاقنا ؟

فؤاد : من الذى قال لك انه دجال ؟

شكيب : (متصلب الجسم ، محدقا فى والده بصورة مرضية) الم تر احد مرضاه ؟ الم تر هذا المجنون ؟ الم تر هذه البالونة التى كانت تقفز الآن امامنا . . هذه عينه . .

فؤاد : انه سعيد !

شكيب : هل تحب ان تكون سعيدا مثله ؟

ثريا : (ضاحكة) الحق انه ظريف !

شكيب : ايتها السيدة ! نحن نتكلم جادين . . استظرافك اياه لا يهمنا

ثريا : (غير غاضبة) اذا استطاع الطبيب ان يحول الثقلاء الى ظرفاء ، فانه لا يسعدهم فقط ، بل يسعد المجتمع !

شكيب : (مستنكرا) كما اسعدنا هذا المجنون ! لقد كدت اصاب بنوبة صرع من هذيانه ، وقهقهاته الهستيرية . . لقد حطمه الدكتور الذى سأحطم عنقه

ثريا : لست من رايك ايها الشاب ! . . ان يكون الانسان سعيدا حتى ليكاد يطير ، لهو امر لم يكن ليتحقق الا فى الخيال، فالطبيب الذى يحوله الى حقيقة . . جدير بأن . .

شكيب : جدير بأن يقتل !

ثريا : أهكذا أنت حريص على كآبتك وانقباضك ؟

شكيب : انا حريص على عقلى وانسانيتى .. انا ارفض ان اتحول الى آلة خربه كهذا المعتوه ..

فؤاد : ولكن أن تبلغ الكآبه والحزن بالانسان أن يعتزل الناس، وان يرى بهم دائما العيوب .. أن يكرهم ويخاف منهم ، فهذا ايضا ...

شكيب : هذا هو الطبيعى .. ما الذى يعجبك فى النـاس .. خذ هذه السيدة مثلا ترى رجلا جن .. أصبح يضحك لسبب ولغير سبب .. أصبح سـعيدا لدرجة الصراخ والعـواء من فرط سعادته ، فتقول عنه أنه ظريف .. !

ثريا : وانت ايضا ظريف . ! (تضحك ضحكة رنانة)

شكيب : لولا أدبى لكان لى رد آخر .. ولـكن الخطأ ليس خطاك. انما هو خطأ زوجك الذى يسمعنا ويرانا ، وكأنه يطل علينا من المريخ

فؤاد : (منزعجا ، وواقفا على قدميه) شكيب .. شكيب . عيب .. !

ثريا : وما الذى ادخل زوجى فى الموضوع ؟

شكيب : اولا أريد ان اعرف ايكما سحب الآخر الى هـــذه المستشفى .. الى هذا المكان الذى يفقد الانسان فيه نصف عقله قبل ان يرى الطبيب ، والنصف الثانى بعد تمام العلاج !

ثريا : (تضحك بسرور شديد) انه مكان مبهج للغاية !

شكيب : اذن فلنسمك « بهيجة هانم » !

الدكتور فهمى : (منذرا او محتجا) أرجوك . !

شكيب : (ضاحكا فى هزء) اخيرا . !

فهمى : للصبر حدود . !

شكيب : هازئا ــ وهل وصلنا الى آخر حدود صبرك ؟

فهمى : موجها الحديث لفؤاد ــ دع الامور تمر فى سلام !

ثريا : مندهشة ـ لقد ثرت . ! هذا عجيب .. انت اليـوم اسرع غضبا من المعتاد

شكيب : ضاحكا بطريقة هستيرية ـ الم اقل لكم أن هـذا المكان به جراثيم فتاكه للجنون .. الرجل الهادىء أصبح عصبيا .. وزوجه تستظرف أمامه رجلا مجنونا . وانا لاادرى لماذا جئت الى هنا .. وابى يظن نفسه العاقل الوحيد بيننا .. تعالوا نخرج والا سأدخل الى هذا الطبيب لاقتله

(يدخل مراد وهو يقهقه قهقهات متوالية ، ثم يجلس على مقعد ويأخذ فى ضرب (ركبتيه بيديه وهو يقول) : لا تقتله انت .. انا الذى سأقتله

(شكيب مأخوذا بهذا التصريح ، ومقتربا منه)

شكيب : السعداء لا يستطيعون ان يقتلوا ..

مراد : ولكن سعادتى من نوع غريب .. سعادة تدعو الى القتل .. والى الانتحار .. والى التخريب .. والعجيب انها لم تعد قابله للنقصان .. محكوم على بأن اكون سـعيدا .. سعيدا جدا ، محكوم على بأن اضحك .. اضحك من اعماق قلبى .. وانا ارى فى كل شىء ما يبهـج .. ارى المصائب مسرات ، والاحزان متعا ولذائذ .. لقد أصبحت وحشا كاسرا وضع فى قفص وأصبح لا يتحرك الا داخل هذا القفص .. قفص من السرور والابتهاج والانشراح

ثريا : بودى أن اصبح أنا هذا الوحش .. !

مراد : يضحك ويضرب ركبتيه حتى تدمع عيناه ـ طبيعى ، فالمرأة تحب أن تكون وحشا لتثأر لسنوات طويلة من العبودية والانقياد .. يا سيدتى كنت أود أن اضـع سـعادتى تحت قدميك ، لولا انها معلقة فى رقبتى ، ولا سبيل الى التنازل عنها لقد قلت للدكتور اننى فى حاجة الى شىء من الهموم .. شىء من

الاحزان شيء من الخوف من المستقبل .. فقال لى انه لا يستطيع ان يجرى عمليتين متعاقبتين

الدكتور فهمى : بصفة أخوية ، أخبرنى لماذا انت ثائر على هذه السعادة ؟ .

مراد : « بصفة أخوية » هذه تستحق ضحكة خاصة .. (يقهقه بطريقته) اسمع يا محترم . لقد كنت فى وظيفة فطردت ..

الدكتور فهمى : لانك سعيد ..

مراد : بالضبط .. بصفة أخوية أخبرك بأن التجربة اثبتت ان تعليمات الحكومة تقضى بالا يكون الانسان سعيدا وموظفا فى وقت واحد ..

الدكتور فهمى : بصفة اخوية أخبرك بانى لم أفهم ..

ثريا : الحديث أصبح شائقا جدا ..

الدكتور فهمى : بقلق — هل تحسين بالسعادة ؟

ثريا : أكثر من سعادة !

الدكتور فهمى : بقلق أكثر — الامر يقتضى الاحتياط !

ثريا : لا تخف على ياعزيزى ..

الدكتور فهمى : أخبرنا يا أخى بموضوع الوظيفة ..

مراد : موضوعها بسيط جدا لقد طردت ...

فهمى : والسبب ؟

مراد : السبب أننى لم أعد أقدر المسئولية ، ولا اهتم بها ، هكذا قالوا لى .. ورقة تضيع ، فى داهية .. رد خطاب لا يصدر فى الميعاد ، غير مهم .. موظفون لا يحضرون ، أحسن .. العمل يتأخر ، يتقدم .. يقوم ، يقف ، ينقلب راسا على عقب ، كل ذلك عندى أسباب تدعو الى الضحك .. الى الانبساط .. الى البهجة ..

ثريا : تضحك من اعماق قلبها ـ وماذا فعلت بك الحكومة ؟

مراد : ماذا تنتظرين ان تفعل ؟ هل تضحك مثلما تضحكين ، ومثلما اضحك انا ..؟ ! لقد طردونى (يضحك ضحكة عابرة) ولم ينسوا ان يعطونى تعويضا .. واعتزمت ان اعمل اى شيء .. بقالا مثلا .. ممرضا عند هذا الدكتور العجيب .. سائق سيارة .. ولكن احد اصدقائى قادنى الى محام لنرفع دعوى ضد الحكومة .. وقد قبلت لانى سمعت ان فى المحاكم ما يضحك اكثر من اى مكان .. و

شكيب : أيها السيدة .. هل هذه القصة مسلية ، حتى تفرضى علينا جميعا أن نسمعها ؟

فؤاد : يا ابنى ، الموضوع محزن جدا

شكيب : محزن .. امن حقك أن تسميه محزنا ، اذا كان صاحب الشأن يقول انه مضحك مضحك جدا .. أنتم جماعة من المجانين

مراد : لك حق .. أنا أقول ان الامر مضحك ، وقيل لى انه كان يمكن ان يكون اكثر اضحاكا فى المحكمة .. ولكنى لم أذهب الى المحكمة

ثريا : لماذا ؟

مراد : وكيل المحامى قبض مقدم الاتعاب ، ورسوم التضية بلا ايصال ، اختلسها مع مبالغ أخرى من المكتب وهرب .. ورفض المحامى أن يعترف لى بما دفعت ..

الدكتور فهمى : وما الذى حدث ؟

مراد : ضاحكا ـ ضحكت .. الامر مضحك فعلا .. ارفت لانى سعيد .. وقضيتى لا ترفع لانى سعيد ..!

الدكتور فهمى : وماذا تنوى أن تفعل ؟

مراد : أصبحت فى حاجة الى شيء من الهموم .. شيء من

اهتمام .. شيء من القلق .. ولهذا جئت الى الدكتور أطلب اليه أن ينقص سعادتي ..

شكيب : وهل رفض هذا الدجال ؟

مراد : منفجرا في الضحك ــ المضحك انه رفض ..

فؤاد : اني خائف .. خائف على عقلي .. تقول انك تريد شيئا من الحزن .. وتريد أن تدفع في هذا الحزن ثمنا ؟

مراد : معي أكثر من مائتي جنيه

فؤاد : ولا تستطيع أن تشترى بهذا المبلغ هموما وأحزانا

مراد : بالنسبة لي ، تساوى الاحزان ثمنا اعظم ..

شكيب : وهو يهتز من الغضب ــ اروني هذا الدجال ... اروني هذا الطبيب لاحطمه تحطيما ..

مراد : ماذنب الدكتــور .. انه لا يستطيع ان يشفينا من المرض ، ويشفينا من الشقاء .. !

شكيب : كلام فارغ .. انه دجال .. انه يضحك علينا

مراد : كلام فارغ ، هذا حق ، ولكنها الحياة التى تستحق هذا الوصف .. فلم أكن اعرف أننا لا نستطيع ان نعيش .. ان نحيا ، الا بشيء من الكآبة والتعاسة والحزن .. (موجهــا الحديث الى ثريا) شيء مضحك .. اليس كذلك يا سيدتي ؟

ثريا : لك كل الحق .. مارأيك يا فهمي (موجهة الحديث الى زوجها) .. لماذا نبحث عن الســعادة ، اذا كانت نتــائج السعادة كما ترى ؟

فهمي : كأنما يستيقظ من نوم ــ كلام يديرالرأس..انما..

ثريا : انما ماذا ياسيدى ؟ .. (تمد يدها نحوه ، وتقوده) لنبق بهمومنا أفضل .. على الاقل نوفر نقودنا

فهمي : لا يريد أن يقوم

ثريا : لماذا .. الا تريد أن تذهب ؟

فهمى : لابد ان نرى الدكتور أولا .. عيب أن نحدد ميعادا معه ، ثم نذهب دون مقابلته

ثريا : حقا ان المجتمع يضحك منا لو فعلنا ذلك .. والمجتمع اهم من سعادتنا .. صديقك المجتمع هذا ، يأكل السعادة ويكرهها ، ويبغض السعداء

فهمى : المسألة مسألة أخلاق

ثريا : هلَ الاخلاق ياسيدى أن نحكم على انفسنا بالشقاء ، ليصفنا الناس بأن اخلاقنا جيدة ، ونحن نعلم اننا نحافظ على المواعيد ، ونتظاهر باحترام شعور الناس ، لاعن اخلاص ، بل عن خوف .. انا سأخرج وسأذهب الى اى مكان آخر ، ابحث عن تسلية افضل من رؤية الدكتور العجيب الذىاخترته ليعالج سعادتنا ، ويبيع لنا اخلاقا جديدة . !!

مراد : (متدخلا فى الحديث ، ومقتربا منها) اسمحى لرجل سعيد ، لا يجد هموما ، ولااحزانا ان يقدم لك اعجابه .. انا اعلم ، او على وجه ادق ، كنت أعلم فى الماضى ، انه لا يجوزلرجل ان يبدى اعجابه بجمال امراة رجل آخر .. ولكن كان ذلك فى الماضى ، اعنى فى ماضى الايام ، اما اليوم فأنا لا تهمنى النتائج.. ولذلك فأنا اعلن ان زوجك يجب أن يكون رجلا سعيدا ، فهذا الصوت الجميل، الموسيقى ، وهذا القوام الفارع ، ثم هذه الجراة ، وهذه الثقة بالنفس .. والذكاء .. يا سيدتى أن المراة الذكية الجميلة ، بل متوسطة الجمال اجدى فى رايى من علاج ثلاثين دكتورا .. بل من مائة دكتور .. (ينظر الى الدكتور فهمى ثم يقهقه) .. هل أنت متضايق منى .. خذنى كما انا. انا رجل سعيد فى مجتمع حزين .. يعنى أنا رجل مجنون .. رجل محكوم عليه بالاعدام ، لان السعيد بين الاشقياء ، عدو لهم ، يكرهونه ، ويجب أن يقتلوه ، وسيقتلوننى ان لم يكن اليوم فغدا .. غلطتى أننى أصبحت سعيدا وحدى ، وتركت الباقين تعساء .. العملية الجراحية التى أجريت لى ، كان يجب ان تجرى

المجتمع كله ، وليس لى وحدى .. !

ثريا : وقد مدت اليه يدها تصافحه ـ كم اسعدتنى كلمات الثناء التى وجهتها الى .. فهى كلمات ترضى كبرياء اية امرأة، والمهم فيها ، أننى استطيع ان اتقبلها بحجة انها صادرة عن رجل يصف نفسه بالجنون ..

مراد : يصفق بيديه ويهتف ـ مرحى ! مرحى ! هذا هو الذكاء بعينه .. هذه هى حيل المجتمع التعيس ليجد طريقه الى السعادة ! يذكرنى ذلك (يتخذ هنا لهجه الخطابة) يذكرنى ذلك ايها السادة برجل دين شاب ، جميل الطلعة ، كانت النساء تغازله علنا ، ويرد على غزلهن بمثله ، وبأحسن منه ، وكان الجميع آمنين .. فان ثوبه الكهنوتى كان يقيهن تهمة الوقوع فى الخطيئة ، وكان يقيه هو مظنة الخروج على الاخلاق ..وفى ظل الدين كان الجميع يجدون السعادة .. !

شكيب : (منفجرا ، مقتربا من مراد فى شكل هجومى) ان لم تذهب من هنا .. سأقتلك انك المرض نفسه .. انك لست مجنونا فحسب ، وانما انت رجل فاسد .. انك تهاجم الدين، ورجال الدين علنا ، وتحرض على الفسق ، وتغازل امرأة امام زوجها .. وتدعى انك سعيد .. تبا لهذه السعادة ، وسحقا للسعداء من أمثالك ..

مراد : فى هدوء تام ـ انا لا استغرب منك هذا ، فانا وانت نقيضان .. انا سعيد جدا ، وانت تعيس جدا .. ولابد لاحدنا ان يقتل الآخر .. ولما كان السعداء لا يؤذون احدا ، فلا بدان تقتلنى .. وانا ارجوك ان تفعل .. فالسعيد يستحيل عليه أن ينتحر ايضا ، فخلصنى من حياتى ، لاغمض عينى وانا نشوان بكؤوس السعادة التى تجرعتها .. ولتزداد انت شقاء وكآبة ..

(شكيب يقترب من مراد ، ويضع يديه فوق عنقه يجرى الدكتور فهمى نحوهما ويتدخل ، ويتدخل أيضا فؤاد والد شكيب)

شكيب : يدفع الدكتور فهمى دفعا الى الوراء ــ الا تخجل أيها الرجل .. لقد كان يغازل امرأتك علنا ..

فهمى : دعه .. دعه .. الا ترى انه مجنون ؟

شكيب : ونكبتك انت انك عاقل !

ثريا : (ضاحكة ، تتجه الى مراد) نحن مدينون لك جميعا بالشكر ... لولا طرافة أسلوبك لما دبت الحياة فى هذه القاعة.. ولما قضينا هذا الوقت الجميل ..

شكيب : ضعى لسانك بين شدقيك أيتها السيدة . ! لقد أسكرك مديح هذا المجنون !

فؤاد : عيب ... عيب يا ابنى !

ثريا : اننا ــ زوجى وأنا ــ نضع أقدامنا على عتبة المجهول ، سندخل الى حجرة هذا الطبيب الغريب ، ولا ندرى على اية صورة سنخرج .. اننا جئنا لنشترى أخلاقا جديدة .. لاندرى هل سنحسن اختيارها ؟ نحن البشر نعتبر انفسنا قادرين على اختيار اخلاقنا كما نختار الملابس .. هل هذا صحيح ؟ هاهو ذا انسان أراد أن يكون سعيداً ، فاعتبرناه مجنونا ... وما دمنا سنلقى بأنفسنا فى احضان الغيب ، فمن حقنا أن نتزود بشىء جميل .. تماما كالمحكوم عليه بالاعدام ، يأخذ نفسا من سيجارة قبل اعدامه

شكيب : (مقاطعا) أنتم تستحقون الجلد والرجم والشنق . انتم وباء يجب أن يحاصر ، ويكافح ...

مراد : (يقفز الى منتصف المسرح ، ويصفق ثم يقهقه بطريقته الخاصة) ويقول : نحن سعداء .. نحن أعداء المجتمع .. الموت لنا ، والبقاء للتعساء الذين يفرحون بالهموم

(يقهقه قهقهة تشاركه فيها ثريا)

ســـتار

الفصل الثاني

المشهد الاول

فى حجرة الطبيب . وهى حجرة متوسطة المساحة ، بها نافذة فى اقصى اليمين من الضلع المواجه للنظارة ، تبدو منه ابنية بعيدة ، وفى نفس الجدار باب . وفى الركن الواقع بين الجدار الايمن والجدار المواجه للنظارة يوجد مكتب متوسط الحجم ، عليه تليفون وبعض الكتب ، والمكتب موضوع بانحراف . والى جوار المكتب بمحاذاة الجدار الايمن سرير للكشف . وبين نهاية السرير والمكتب ، باب آخر ، يؤدى الى داخل العيادة

عباس الممرض ، يتكلم فى التليفون ــ الدكتور موجود ... لا يا فندم موجود ... لا هو مع مرضى فى غرفة الأشعة

يفتح الباب ويدخل شاب فى نحو العشرين من عمره يبدو عليه انه يتحفز لعمل شىء ــ يدير رأسه فى أنحاء الغرفة كمن يبحث عن انسان ، وفى يده مطواة مفتوحة ــ والشاب عادى المظهر والطول

عباس ــ (يترك السماعة فجأة) ــ ما هذا ؟ ... وماذا تريد ؟ ... ما الذى بيدك ؟

شكرى ــ أين الدكتور ؟

عباس ــ الدكتور ؟

شكرى ــ نعم أين هو ؟ أنا أريد أن أذبحه بهذه .. !

عباس ــ (يحاول اختطاف المطواه من يده) .. أنت مجنون !

شكرى ــ نعم أنا مجنون

عباس ــ اللهم اخزك يا شيطان

شكرى ـ اى شيطان ؟ الشيطان هنـا ، فى داخل هـذه الحجرات ...

عباس يجرى نحو الباب الفاصل بين حجرة المكتب وداخل العيادة ويقفله بالمفتاح ، ويضع المفتاح فى جيبه

شكرى ـ لماذا تريد انقاذ رجل يؤذى الناس من أجل المال .. يخرب بيوتهم ، ويفسد حياتهم ...

عباس ـ انت تظلمه يا سيد شكرى ..

شكرى ـ اظلمه .. اجلس وسأروى لك ما حدث لى

يدفعه الى سرير الكشف ، فيجلس عباس ، وعيناه تنظران الى المطواة ، وتروح تتابعانها صعودا وهبوطا

شكرى ـ أبى جـاء بى الى هنا . وقال للدكتـور ، ابنى يكذب دائما .. نريد أن نعالج فيه هذه العادة ، انه سليم فى كل شىء الا فى هذهالنقطة ، انه محب للناس ، ودود ، خدوم، وهو بصفة خاصة شجاع لا يتهيب ولا يتردد ، فلا يعيبه الا انه يكذب ... يكذب أحيانا بلا مبرر ، كأن الكذب متعة .. والحق أن الكذب شىء لذيذ لا تستطيع أن تتصور مدى ما فيه من سعادة ...

(يقرب المطواه من وجه عباس) الم تكذب أبدا ؟

عباس ـ (يبدو عليه الذعر) ... ابدا ..

شكرى ـ هذه آخر كذبة لك أيها الكذوب .. قل الحق..

عباس ـ (خائفا متلعثما) الـ ... الحق .. انى اكذب

شكرى ـ كم مرة فى اليوم ؟

عباس ـ كم مرة ... كم مرة ..

شكرى ـ (مهددا بالمطواة) قل .. قل سريعا

عباس ـ والله .. والله أنا لا أعد

شكرى ـ (مقربا المطواه من انفه للمرة الثانية) لنفـرض

ان المطواه لم تكن فى يدى ، ماذا كنت تفعل .. تفعل بى أنا ؟

عباس ـ ولا شىء ..

شكرى ـ (واضعا يده على كتف عباس كمـن يتهيأ لذبح ذبيحة) كبر على نفســك ، وتشــهد ، فأنا أكـره الكـذب والكذابين ...

عباس ـ فى عرضك ... سأقول الحق

شكرى ـ قل الحق ..

عباس ـ كنت سأمسك بك وأخرجك من الحجرة

شكرى ـ (مقربا المطواة) لا ينفع معك الادب ·· ولا تنفع مع أمثالك حسن المعاملة

عباس ـ لا يليق أبدا يا سيد شكرى أن أقول الحق ... ان الحق ...

شكرى ـ (يربت على كتف عباس بشدة فيهتز عبـاس خوفا) قل · الحق مر ، هذه هى الحقيقة التى من أجلها أريد أن أصفى حسابى مع الدكتور ... قل أولا ماذا كنت تفعل بى لو لم تكن معى هذه المطواة ؟

عباس ـ (يتراجع أمام المطواة) ... كنت سأمسكك من قفاك ...

شكرى ـ جميل ...

عباس ـ ثم ..

شكرى ـ (ملوحا بالسلاح) ... ثم .. أكمل

عباس ـ أعطيك قلمين ..

شكرى ـ جميل ..

عباس ـ كفى ...

شكرى ـ ستضربنى قلمين ، ثم تبقينى فى الحجرة ؟

عباس ـ أبدا ... وانما الباقى يمكنك أن تتصوره ...

شكرى ــ لم يعد فى عقل .. لم يعد فى أمكانى أن أتصور شيئا ...

عباس ــ تحت أمرك ... ثم أضربك من الخلف بحذائى

شكرى ــ جميل جدا .. جميل للغاية ..

عباس ــ ثم أدفعك الى الباب .. واقفل الباب خلفك

شكرى ــ كل هذا يتم ، وأنت صامت ؟ ... الا تختلط هذه العملية بأشياء أخرى ؟

عباس ــ (متظاهرا بعدم الفهم) أشياء أخرى ؟

شكرى ــ (ملوحا بالمطواه) لا تتغابى ... انت فاهم وأنا فاهم

عباس ــ شتائم .. شتائم .. هذا ضرورى .. الضرب لا يمكن تصوره بغير شتائم ..

شكرى ــ كلام مضبوط تماما ... الآن دعنى أجلس الى جوارك

عباس ــ (متهللا) تفضل ... تفضل بكل سرور

شكرى ــ (فى تثاقل) أشكر لك هذه الحفاوة ... (يضع ساقا على ساق وفى يده المطواة فى صورة تشعر كانه نسيها) ...انظر كم يبلغ الفرق بين ماكنت ستترويه لى وما رويته فعلا بفضل هذه (ينظر الى المطواه وكأنما تذكرها فجأة) ... فقطعة من الحديد تفعل فى الحياة الشىء الكثير ... تخرج من الحقائق ما لا تخرجه آلاف المواعظ والدروس.. أليس كذلك؟

عباس ــ (مشغولا بالتفكير فى الخروج من المأذق الذى وقع فيه ، فينتبه فجأة ، نعم ... ماذا ؟.. هو كذلك بالضبط

شكرى ــ فى أى شىء شرد ذهنك ؟ ..

عباس ــ (مأخوذا) .. نعم .. فى المطواه !

شكرى ــ (يربت على كتفه بشدة) هــذا أحسن ، لقــد تعودت الصدق ، ولا بد أنك تود بأى ثمن أن تنجو منى ..

عباس ــ فى الحقيقة ... هذا ما أريده

شكرى ــ حسنا .. حسنا جدا .. لقــد تعلمت أن تكون صادقا معى ، هذا يؤكد أن الصفات يمكن أن تنتقل بالعدوى

عباس ــ الصفات الطيبة

شكرى ــ (ممسكا بالطواه ممدودة أمامه) ماذا ؟ .. هل سنعود الى الكذب

عباس ــ أبدا .. أبدا ..

شكرى ــ أسمع يا سيدى ، لقــد كنت اكذب .. وكنت أستمتع بهذا . فالــكذب هواية تحتــاج الى ذكاء .. فلا تصــدق أن الأغبياء يســتطيعون أن يكذبوا . انهم يكذبون اكاذيب صــغيرة مفضــوحة . أكاذيب سمجة ثقيلة الظل . لا يطيقها أحد . أما الأذكياء فهم الذين يجملون حياة الناس وحياة انفسهم بمفاتن الخيال ... هل تتصور الحياة من غير قصاصين وشعراء وكذابين عظماء ؟

عباس ــ هذا كلام أكبر منى

شكرى ــ طبعا ... أنت مستواك مستوى أكاذيب الدرجة الثالثة

عباس ــ الدرجة الرابعة أو الخامسة ...

شكرى ــ لقد أراد أبى أن يجعلنى ولدا صادقا ... هل تظن أنه فعل ذلك حبا فى الصدق ، وايمانا بالفضيلة ؟

عباس ــ (مستسلما) والله لا أعلم ..

شكرى ــ انه مجرد كبرياء ، يريد أن يتصور أنه ربى ولدا نموذجيــا ليباهى النــاس بذلك ، وهــو جالس على المقهى يتحدث ، أما الصدق نفسه فلا يساوى هذا التعب ، وأبى نفسه ، كغيره من الناس ، لا يكف عن الكذب

(يبدأ فى التمشى فى الحجرة والمطواة فى يديه ، خلف ظهره)

وقد بدأ يكذب على أنا منـذ شببت عن الطوق . لما ولد أخى الذى يصغرنى سألته من أين جاء . فأجاب على الفور ، انهم وجدوه على باب بيتنا ، وأن القطة أحضرته .. وقد كان يصر على أن افهم انا وأخوتى أن لديهم حجرة مظلمة بها فئران، سيرموننا فيها اذا لم نكف عن شقاوتنا .. ولما كبرنا قليلا حدثونا عن (أبو رجل مسلوخة) وهى أكذوبة اشتركت فيها والدتنا مع السرور والرضا .. وكان أبى وأمى يضـعان على أفواهنا أكاذيب لا أول لها ولا آخر ، كلما احتاجا الى الاعتذار لدائن عجزا عن سداد الدين له ، أو أرادا التخلص من ضيف ثقيل ، أو اقتراض شىء من عائلة مجـاورة .. أكاذيب فوق اكاذيب ، نسمعها ونرددها ، ونتظاهر بتصديقهـا . وفجأة يطلب الينا أن نكون صادقين .. صادقين جدا ... (يقف فجأة ويتجه نحو عباس) .. هل هذا ممكن يا سيد عباس؟ قل الحق ..

عباس ــ الحق اننى أرجوك أن تدعنى أخرج ... لقد جف حلقى !

شكرى ــ احمد الله ..

عباس ــ الحمد لله ... الحمد لله رب العالمين ...

شكرى ــ كان يجب أن أذبحك أنت أولا ...

عباس ــ (فى هلع) أنا .. أنا .. ماذا فعلت ؟

شكرى ــ (يقترب منه ، ويمسك بخناقه) أنت شريك هذا الدجال ...

عباس ــ رحماك .. رحماك . !

شكرى ــ (يدفعه الى السرير فيقع على ظهره فوقه) كلكم هذا الرجل . أقوياء أمام الضعفاء ، ضعفاء امام من يفضلكم ولو بمطواه ، قد لا تذبح فرخة !

عباس ــ (ترتفع معنويته) ماذا يا سيدى !

شكرى ــ (ضاحكا) لقد شجعك قولى أن المطواه لا تذبح يمد يده ويزيح طرف سترته عن ذراعه كانما يتهيأ للذبح تعال نجرب على كل حال !

عباس ــ (مذعورا) أبدا .. أبدا ..

شكرى ــ (يستأنف حديثه) لقد أراد والدى أن يجعل منى صادقا ، ليقول انه قدم للمجتمع شابا نموذجيا كأنما صنعنى على يديه . وكأننى لست ثمـرة هـــذا المجتمع ، بنقائصه وسخافاته .. وقبلت أن أحضر الى هنا ، ليعبث هذا الدجال فى غددى . قبلت الحضور لمجرد الرغبة فى تجربة جديدة .. بل قل مغامرة جديدة .. وحب المغـامرات فى دمى ..

لم اكن اقوى على منع جموح خيالى ، وهو يصور لى أن فى استطاعتى أن أشترى أخلاقا جـديدة ! « أخـلاق للبيع » فكرة رائعة .. بمجرد عملية جراحية صغيرة ، لا أفهم كنهها ، أتحول الى رجل لا يقول الا الصدق

عباس ــ (ناسيا نفســه ، مندمجا فى الحديث) الحق أن الدكتور معجزة

شكرى ــ (يقـرب المطواه من عبـاس) لا تحـدثنى عن دكتورك هذا ..

عباس ــ (مطيعا) أمرك .. أمرك ...

شكرى ــ لم أكن مللت حياة الكذب ، فقد كانت عنـدى بضعة مغامرات لم أستطع أن أحققها فى الواقع ، فكنت أحققها فى الخيال. كانت كل كذبة مغامرة جميلة، وكنت اتلذذ واستمتع بمـرأى إثر اكاذيبى فى النـاس ... كيف كنت انتزع منهم الاحترام والتبجيل والملق ، لما كنت انسبه لنفسى من صفات أو صلات . أو ما أدعيه من سلطة أو ثروة أو نفوذ .. كنت

اراهم يسـيرون ورائى ، ويتحـدثون عن ذكائى ، لمجـرد تصديقهم انى ابن رجل كبير فى الحكومة ...

عباس ـ (أكثر اندماجا فى الحديث) شيء لذيذ ...

شكري ـ (يجلس الى جواره على السرير) ما ألذ ذلك ! لا تستطيع يا اخ عباس أن تتصور كم كان قلبى يقفز داخل صدرى فرحا ، وأنا انتقـل الى عالم المآسى والأحزان . اذ اصف للناس كوارث نزلت بى ومصائب حلت بشخصى ، فأرى الدموع، وأتلقى المواساة.. وجملة القول ياحضرة الدكتور..

عباس ـ (مقاطعا ، متصنعا الأدب) دكتور ، عفوا .. ! عفوا .. !

شكري ـ (متوددا) لا داعى للتـواضع ، فأنت تعلم أن دكتورك لا يسـاوى الكثير من غيرك .. المـرض يلعب دورا هاما فى حياة العيادة التى يديرها أو ينتسب اليها .. (يتوقف عن الحديث فى تنهد) .. المهم أن صلتى بهذا العالم الجميل الجذاب المتجدد ، عالم الأكاذيب والخيالات ، عالم الخلق والابتكار قد انتهت ، لقد طردت من جنته الى عالم جاف جدا .. عالم لا يستدعى تفكيرا ولا تصورا ، عالم الصدق . وانى لأغمض عينى جزعا من تصور الدنيا ، وقد اختفى منها كبار الكذابين، الذين يضعهم المجتمـع فى مقـدمة صفوفه ... الفنـانين ، والقصاصين ، والشعراء ، والأدباء ، والمصلحين !..

عباس ـ المصلحين !

شكري ـ هؤلاء هم الزعماء يا سيد عباس فى دنيا الكذب

عباس ـ بالطبع ليسوا كلهم ...

شكري ـ ان بعضهم لا يجـدون حلا للمشـكلات التى يتصـدون لها ، فيقدمون للنـاس خيالات ، أكاذيب جميلة تسـليهم وتخفف آلامهم ، وتخلق فى صـدورهم أمـلا فى

المستقبل . كثيرون منهم لا يجدون حلا لمشكلاتهم ، فيتسلون باللعب فى مشكلات الناس ..

عباس ـ يا سيد شكرى .. أنت متعب ..

شكرى ـ لك الحق .. أنا شديد التعب .. أنا غير قادر على احتمال الحياة الجديدة التى دخلت اليها .. أريد أن أفتح بابا لحياة أخرى أكثر امتاعا ..

(يدق الباب ، الذى يفتح باب العيادة)

عباس ـ (كأنما انتبه من حلم) ... الدكتور عاد مع مرضاه

شكرى ـ إفتح لهم ... لقد جاءتك نجدة !

عباس ـ (ينظر الى وجه شكرى مترددا) اظن أن لا داعى لاحداث شوشرة فى العيادة ..

شكرى ـ (هادئا) لا تخف ..

عباس ـ (متسائلا) والمطواه ؟

شكرى ـ هأنذا أضعها فى جيبى ! (يضعها فى جيبه)



المشهد الثانى

يخرج عباس المفتاح من جيبه ، ويفتح الباب .
يدخل الدكتور ومعه ثريا وزوجهـــــا فهمى

الدكتور يلبس مناظير فوق عينيه ويبدو عليــه هـــدوء عميق . وتبدو حركاته بطيئة ، ثقته بنفسه تظهر فى حديثه الذى ينطق عباراته بصوت هادىء ، ومع الضغط على مخارج الالفاظ . والتحديق فى وجه محدثه

شكرى يسرع نحوه ، وقد أخرج المطواه ...

يبـدو انزعاج شـديد على وجـه فهمى ، وتتوقف ثريا كالمأخوذة .. اما الدكتور فلا يبدو عليه اى انزعاج... مجرد دهشة للمفاجأة

الدكتور ــ ما هذا ؟

شكرى ــ استعد لأنى سأقتلك !

الدكتور ــ كفى لعبا ...

شكرى يقترب منه ، فيمـد الدكتور يده ويأخـذ المطواه ويلقيها على الارض .. يسرع عباس المرض فيضع قدمه عليها .. وينحنى شكرى لالتقاطها . فيتجه الدكتور نحـوه بهدوء ، ويقوده من ذراعه ويجلسه على مقعد

شكرى يجلس على المقعد وينخـرط فى بكاء عميـق ... الدكتور يقف الى جواره ويربت على كتفه . ثم يدور حول المكتب ، ويجلس على المقعد الموضوع خلفه

ثريا وفهمى كل منهما واقف فى مكانه .. لا يدريان ماذا يفعلان

الدكتور ــ (فى هــدوء وبلا انفعال) يجب أن تبكى ... (ينظر الى ثريا وفهمى) .. تفضلا . اجلسا

(ثريا وفهمى ، يسحب كل منهما مقعــدا ، وعلى وجهيهما علامات تساؤل كبير)

شكرى ــ (منفجرا) لماذا أخذت منى السكين .. يجب أن تذبح .. يجب .. يجب (يضرب المكتب بيده عند نطقه كلمة يجب ، ثم يعود الى البكاء)

الدكتور ــ (موجها الحديث الى ثريا فى هدوء متجاهلا وجود شكرى) القرار الذى ستصدرينه ليس بالقرار البسيط ... انكما ستغيران به حياتكما ، فيجب التريث والصبر .. ليس ضروريا أن يصدر قراركما اليوم ..

شكرى ــ (يتوقف فجأة عن البكاء) قرار .. قرار؟اجريمة اخرى سترتكب .. ! عملية جديدة من هذه العمليات التى ترتكبها ، تحت سمع البوليس والنيابة والقضاء (يندفع الى ثريا) اسمعى يا سـيدتى .. اسمعى ، انا احـذرك .. انا انذرك ...

ثريا ــ اشكرك يا سيدى على هذه المساعدة ، ولكن تحذرنى من ماذا ؟

شكرى ــ احذرك من الاستماع الى الدكتور .. عملية فى الغدد تغير الاخلاق .. عبارة بسيطة ليست سوى فتح باب لجحيم يتلظى .. انه يلقى الناس فى النار ، وكأنه يلقى حطبا فى مدفأة بيته

ثريا ــ الامر يحتاج الى تفـاهم .. فهــلا ضبطت نفسك وتكلمت بهدوء ؟

شكرى ــ (اكثر انفعالا) بهدوء .. ! هدوء .. ! (يلوى

شفتيه فى ازدراء وسخرية) من أين آتى بالهدوء ؟ الهـدوء أمر يستمتع به الدكتور فقط ، لان ضحاياه لاتهمه فى قليـل أو كثير .. هو يقبض مالا ، ويجرى تجارب ..

فهمى ــ (وكأنما نفد صبره) هـلا خبرتنى ياسـيدى مم تشكو ؟ فانا اراك سليما معافى

شكرى ــ (فى غلظة) هل قلت لك ياسيدى أن الدكتـور قطع لى رجلا أو فقأ لى عينا .. ان الفساد الذى يحـدثه فى مرضاه ، هو فساد داخلى ..

فهمى ــ (فى هدوء) فساد داخلى ؟ ! ميكروبات ؟ . .

شكرى ــ (مقاطعا) لا . . لا ليس فى الامر ميـكروبات ولا أمراض ، وانما هو اضطراب .. اضطراب فى نفس الانسان ، أو ان أردت الدقة ، هو اضطراب فى علاقة الانسان بالمجتمع الذى يعيش فيه

فهمى ــ وبالنسبة لك ، ماهو الاضطراب الذى أصابك ؟ اذا لم يكن ذلك تطفلا منى

شكرى ــ (ضاحكا ضحكة قصيرة فى سـخرية) تدخـلا وتطفلا . . لم أعد أفهم هذه الالفاظ التى صنعها المجتمع ، فقد انفصلت يا سيدى عن المجتمع ، ولم أعد أفهم منطقه ، ولااحترم اسلوبه .. بينى وبين المجتمع فجوة هائلة ..

فهمى ــ وسبب ذلك كله أن الدكتور اجرى لك عملية . .

شكرى ــ نعم ــ ولكنها عملية فى الاسلاك الموصلة بينى وبين المجتمع ، فلم أعد أفهم كلامه ، ولم يعد يفهم لغتى ... نحن غريبان .

فهمى ــ لكننا من المجتمع ، وها نحن أولاء نتبادل الحديث ، ونتفاهم معا

شكرى ــ (يضحك بمرارة) انت تفهم الفاظى ولكن لا تطيق معاشرتى ، ومع ذلك فان مظهركما يدل على انـكما شخصان

غير عاديين .. انكما مريضان .. والدليل على ذلك انكما فى هذا المكان المخيف ... فى عيادة الدكتور !

(ثريا تضحك ضحكة رنانة)

شكرى ــ (يلتفت اليها باهتمام) .. أشكرك يا سيدتى على هذه الضحكة ، فأنا رجل يعيش فى وحشة مطبقة .. وأنا فى اشد الحاجة الى شىء يبهج ، شىء يدعو الى السرور ، وهذه الضحكة كأنما هى نور عظيم فى ظلام كثيف (يتوقف كأنما اكتشف شيئا جديدا) .. ثم .. ثم هذا الجمال مع هذه الصراحة التى يفيض بها وجه يعلن أن صاحبته لا تخاف الناس .. (يتوقف أيضا ويتأمل فى وجه فهمى) .. ما أعجب الفرق .. وما أعظم .. (يوجه الحديث الى فهمى) .. مالك يا سيدى منكمش متداخل فى نفسك . أخائف أنت .. خائف ممن ؟ من المجتمع ..

الدكتور ــ (متدخلا فى هدوء) لا شأن لك بالدكتور فهمى .. لا .. لا .. لا يجوز لك أن تخاطب الناس بهذه الصورة ..

شكرى ــ (متجها الى الدكتور) مرحى ؟ . مرحى ! حتى انت ! حتى انت يا سيدى لم تعد تطيق آثار عملك . انك خلقت منى رجلا صادقا يقول الحق دائما ، ولكل الناس ، وفى كل الظروف .. الحق وكل الحق ولا شىء غير الحق .. انظر ماذا كانت النتيجة ؟

ثريا ــ (مهتمة ، ومقتربة منه) اننى مشتاقة الى سماع قصتك .. !

شكرى ــ (مبتهجا) وأنا فى أشد الحاجة الى انسان ذكى يفهم مأساتى ، وليس فى هذه الحجرة سواك انت يستطيع أن يفهم ..

فهمى ــ (متأففا) أوه .. !

شكرى ــ قولى يا سيدتى كيف تستطيعين العيش مع هذا المتأفف الهارب من الناس ؟

ثريا ـ كن لطيفا .. أنت لا تستطيع ان تحكم على الناس دون أن تعرفهم

شكرى ـ انت تكذبين ..

ثريا ـ (ضاحكة فى تسامح) المهم ، ماهى قصتك ؟

شكرى ـ ماهى مأساتى ..

ثريا ـ كما تحب ..

شكرى ـ انا رجل لا يقول الا الحق . لا يعرف الكذب . اذا سألتنى عن صحتى ، لاأرد عليك كما يفعل الناس ، بقولى الحمد لله .. لابد أن اخبرك عن تفاصيل ما احس به .. فان كان عندى صداع او امساك او اسهال او تلبك .. الخ .. الخ .. ذكرت لك تفاصيل كل ذلك وان سألت عن الحال ، حدثتك فى اسهاب عن الافلاس الذى أعانيه .. وعن القرف الذى أكابده .. وهكذا ، فأنا رجل بلا عقل ... رجل بلا عقل اجتماعى .. و

ثريا ـ لست ارى فى هذا بأسا

شكرى ـ البلاء الاكبر اننى لا ارى عيبا الا قلت عنه ، انا لا اجامل احدا ، ولا أنافق أحدا ...

ثريا ـ هذا فظيع ..

شكرى ـ نعم هذا فظيع .. لقد اغضبت الذين اكبر منى والذين اصغر منى ، وزملائى ، والناس جميعا

كم من مرة أوقف سائق الاوتوبيس اوتوبيسه وأخرجنى منه ، انقاذا لحياتى

ثريا ـ (ضاحكة) لم أكن اتصور أن الناس لايطيقون الصدق الى هذه الدرجة

شكرى ـ لقد اصبحت ضمير المجتمع الذى يحدثه بصوت مرتفع ، وعلى مشهد من الاغراب والاجانب .. فلم يعد هناك الا حل واحد ، أن أقتل نفسى ، أو يقتلنى الناس وهذه ثمرة أعمال الدكتور .. (متجها الى الدكتور) لماذا تصمت ؟

لماذا تصمت ؟ لماذا تضع هذا النقاب على وجهك ؟ نقـــاب الهدوء . أهو جزء من أدوات الشغل ؟ . .

(عباس المرض وبيده المطــواه ، من غير أن يلقى باله الى وجودها فى يده ، يتدخل فى الحديث)

عباس ــ يا سيد شكرى ، انتظر قليلا . . ولا تعطل السيدة وزوجها

شكرى ــ (يلتفت اليه كمن يود أن ينقض عليه) لم تعــد تخاف منى . . !

عباس ــ (كمن يهم بالفرار) أبدا . . أبدا . . حد الله . . حد الله . .

ثريا ــ (موجهة الحديث الى شكرى) اسمع يا سيدى ، عندى فكره . !

فهمى ــ (مندهشا) فكره . . ما شأننا به ؟

شكرى ــ (موجها الكلام الى فهمى) الخوف يكاد يقتلك . . الخوف منى . . أو من أى شىء آخر

ثريا ــ (لزوجها) لا تشتبك معه . . . (لشكرى) أنت رجل مجرب

فهمى ــ جرب . . ماذا ؟

ثريا ــ جرب هذا الذى جئنا من أجله . . لقد اختار لنفسه اخلاقا ، ونحن نريد ان نغير اخلاقنا . . نحن لا نعرف شــيئا عن هذه التجربة ، التى خاض غمارها ، فلنعرض عليهمشكلتنا، ولنستفد من نصائحه

شكرى ــ ان أكبر نعم الله عندى على الانسان الذكاء . الذكاء يا سيدتى يصنع جمالا . . ويصنع فتنة ، ويصنع شجاعة . . واسمحى لى أن اقول لك انك سيدة ذكية . .

ثريا ــ ولى أن استنتج ان ذكائى ، صنع شيئا من هذا لى .

شكرى ــ (ضاحكا) صنع هذا كله ، وأكثر منه

الدكتور ــ اجلس واستمع الى مشكلة هذه الاسرة

شكرى ــ (غاضبا) منك لا أتلقى أوامر ..

فهمى ــ لا تضيع الوقت !

شكرى ــ كلام محفوظ .. تردده بلا أى غاية .. ماهو الوقت الذى تخاف من ضياعه ؟ وماهو العمل الذى ينتظرك ؟. مجرد كلام نقوله لنبدو مهمين .. المهم

فهمى ــ (همسا لثريا) أية نصيحة يمكن أن نحصل عليها منه ؟

ثريا ــ على الاقل نتسلى بوجوده

شكرى ــ ماذا تقولان ؟ الوقت من ذهب .. لا تضيعى وقت السيد المحترم .. المشكلة .. تفضلوا ..

ثريا ــ المشكلة اننا أسرة شقية ..

فهمى ــ (متدخلا) الاصح اننا اسرة تبحث عن السعادة

شكرى ــ (مقهقها) تبحثون عن السعادة هنا .. فى هذه العيادة ، وعند هذا الدكتور ؟

فهمى ــ اى شىء غريب فى هذا ؟

شكرى ــ الم أقل ان الذكاء اكبر نعم الله ..

فهمى ــ مادخل الذكاء هنا ؟

شكرى ــ يا محترم .. الا ترانى ؟

فهمى ــ أراك .. وصراخك صدع رأسى

شكرى ــ (يتقدم ويهز يده مصافحا بشدة) أهنئك .. هذه أول كلمة فيها شىء من الشجاعة والصراحة .. هذا أول خروج على آداب المجتمع .. لنرجع الى الموضوع .. اقول الا تتعظ بحالتى ؟ الا ترانى دليلا على أن هذا الدكتور لا يسبب الا الآلام والمتاعب ؟

ثريا ــ على كل حال سنبحث الموضوع من جميع جوانبه ..

شكرى ــ لا .. لا ، أنا غير موافقَ على أنكم أسرة شقية .. انكم بالعكس سعداء .. نماذج للسعادة .. السيد الزوج يبدو عليه انه لا يجد فى العالم ما يشغله .. والزوجة يطفح وجهها بالسرور ، فماذا تطلبان ؟

ثريا ــ هذا هو سر شقائنا .. !

شكرى ــ سر شقائكم ؟ انك جميلة وذكية ، ويفيض جسمك بالشباب ويطفح وجهك بالسرور ، اما صوتك فيعدى الناس بالسعادة

ثريا ــ (تشير بيدها الى زوجها ، وتهم بالكلام)

شكرى ــ (مسترسلا) أما السيد .. فلا يبدو عليه أنه يشكو شيئا ..

ثريا ــ هذا صحيح ..

شكرى ــ اذن .. فيم مجيئكم الى هـذا المكان المحفوف بالمخاطر والمكاره ؟

ثريا ــ انتظر ..

شكرى ــ اسمعى كلامى .. وخذى زوجـك ، وانجيـا بنفسيكما ..

ثريا ــ اسمع .. انتظر .. الا ترى بيننا اختلافا ؟

شكرى ــ (بلا تردد) كالفارق بين السماء والارض

ثريا ــ هذا هو سر شقائنا . ليس لدى ما أشكو منه من زوجى ، مما قد يكون عادة محل شكوى الزوجات ، فليس هو بالمتغطـرس الشديد ، ولا بالبخيـل المقتر ، ولا بالموسوس المتشكك ..

شكرى ــ قد يكون غيورا

ثريا ــ لا يعرف الغيرة ولا يسمع عنها

شكرى ــ (وقد هدأ) اذن .. هو لا يحبك

ثريا ــ لا اطلب شيئا الا وأجابني اليه ..

شكري ــ عجيبة .. لا أرى مبررا للشكوى بعد ذلك ..

ثريا ــ ومع ذلك فكلانا لايحس بالسعادة .. على الاقل انا أحس انني ضيفة فى منزل فهمى . الحفاوة الرسمية . والضيافة التقليدية . الحرص على شعورى والرغبة فى قضاء حاجاتى ، والمسارعة الى تنفيذ أوامرى . ولا شىء أكثر من ذلك ..

شكري ــ ماهو الاكثر من ذلك ؟

ثريا ــ الاكثر من ذلك ان اكون شيئا فى حياة زوجى . أن تتشابك العلاقات

شكري ــ تتشابك ؟ الا تعيشان تحت سقف واحد ؟ اليس لكما أولاد ؟

ثريا ــ المجاورة الجسمية ، والمشاركة المادية ليست شيئا فى الحياة الزوجية ليست شيئا أساسيا ، مالم يكن هنـــاك مشاركة وجدانية ..

شكري ــ انا لا استطيع ان افهم ..

فهمى ــ وانا كذلك لم افهم ..

ثريا ــ ولانك لم تفهم ، ولم ترد أن تفهم ، جئنا الى هنا

فهمى ــ قد تنقصنى القدرة على التعبير عن عواطفى . عن اهتمامى

ثريا ــ هذا ليس سوى عرض للمرض . ليس الا مظهرا خارجيا لما أشكو منه .. دعونى أشرح لكم . لى صديقة دائمة الشجار مع زوجها . هى تبدو تعسة ، قليلة الحظ من الهناءة ، ومع ذلك فأنا أحسدها ، ففى حياتها الزوجية حرارة وتجدد . عتاب يؤدى الى مشادة ، والمشادة تؤدى الى مقاطعــة ثم عتاب ثم عودة الى الصفاء ، وعندها يحسان انهما فى شهر عســل جديد ..

فهمي ـ اذن ما ينقص حياتنا هو الشجار والمقاطعة . .

ثريا ـ تماما . . ما ينقص حياتنا هو الاهتمام من جانبك . . انت تثق فى . .

فهمي ـ وهل انا اخطأت فى هذا

ثريا ـ نعم ، هذا هو عين الخطأ ، فهذه الثقة مع الزمن تصبح عدم مبالاة . . دعنى أعترف لك . . لقد تعمدت أن أتأخر فى العودة الى المنزل فى المساء ، فجأة وبلا سبب ، ليلة بعد ليلة . . كنت أطيل المكث فى منزل أخواتى وقريباتى ، حتى أستثير فضولك ، فلم اجد الا صمتا وموافقة ، وعدم اكتراث

فهمي ـ (ينظر الى الدكتور) أليس هذا طبيعيا . . مادامت محل ثقتى ؟

الدكتور ـ (ينظر اليه ولا يجيب) . .

ثريا ـ أردت أن الفت نظر زوجى الى تأخرى المبالغ فيه . فقلت عند عودتى فى احدى الليالى من الخارج ، كم الساعة . . ان ساعتى غير مضبوطة . . فنظرت الى ساعتك وقلت انها الثانية عشرة ، فتظاهرت بالدهشة وقلت : «ياه» لم أكن أعرف انى تأخرت الى هذا الحد . . فقلت ببساطة : لا بأس ما دام للتأخير اسبابه ، ومادمت قد عدت الى بيتك بالسلامة . . كدت ليلتها أثور ولكننى ضبطت اعصابى ، وان كانت أعصابى هذه قد تمزقت من نظرتك الى وكأنى شىء من متاع المنزل . لم أعد اطيق هذه النظرات الهادئة الخالية من كل شىء . .

فهمي ـ ماذا تعنين بأنها خالية من كل شىء ؟

ثريا ـ انها عيون صامتة ، متسامحة ، لا يلمح فيها بريق الغضب . ولا شىء يعبر عما فى نفسك . . انها كالحاجز الزجاجى الذى يفصل بين جزءين من حجرة واحدة . نحن نعيش فى عالمين ، متجاورين ولكن لا يتكلمان لغة واحدة ، ولا ينتسبان الى جنس واحد

فهمي ــ أنا حزين اذ أسمع أن هذا احساسك وشعورك ..

ثريا ــ وأنا اشد حزنا لانك لم تكشفه ولم تسمع به ، الا حينما سمعت بأمر الدكتور ، ودعوتك الى ان تعرض حالتنا عليه ، وتطلب منه أن ينقذ حياتنا التى كادت تتداعى

شكرى ــ اذا جاز لى أن اشخص حالتكما ، فهى فرط حساسية من جانب ، ومبالغة فى التحفظ من جانب آخر ..

الدكتور ــ اسمع يا سيد شكرى .. سنتكلم عنك أنت اولا ..

شكرى ــ (وقد بدأ يعود الى الانفعال) أنا ... ما دخلى انا بموضوعهما ..

الدكتور ــ (فى هدوء) لكى نفهم حالتهما ، يجب أن نفهم حالتك اولا .. جئت مع والدك وقلتما معا الاعيب فيك الا انك تكذب . تكذب فى الصغيرة والكبيرة .. بمناسبة وبغير مناسبة، وأمنت على كلام والدك وقلت أن الكذب أكبر هواياتك .. ووافقت على أن أجرى لك العملية التى تجعل منك رجلا صادقا لقد القيت عليكما محاضرة صغيرة ، افهمتكما فيها أننى اومن بأن الغدد فى جسم الانسان هى التى تكون شخصيته ، وقد استطعت أن أصل الى حقيقة علمية ، جعلت كلا منا قادرا على أن يختار لنفسه الاخلاق التى تعجبه ، والشخصية التى تحلو له .. حقيقة أننا لا نزال فى المراحل الاولى من تطبيق هذه النظرية ، ولكن النتائج الاولى أثبتت صحتها ، فقد نجحت كلها تقريبا

شكرى ــ (مقاطعا) نجحت .. كيف تقول نجحت ؟

الدكتور ــ (بهدوء) أرجوك .. ارجوك أن تدعنى أكمل كلامى .. ان حالتك دليل على نجاح هذه النظرية .. دليل عظيم

شكرى ــ (هائجا) لا تطير عقلى من راسى

الدكتور ـ (هادئا أيضا) حلمك .. حلمك .. لا تتعجل . ما الذى فعلته انا ؟ الم أجر عملية جراحية صغيرة لك

شكرى ـ (مسايرا فقط) نعم !

الدكتور ـ ما الذى نتج عن هذه العملية الجراحية ؟ نتجعنها انك لم تعد تكذب .. أصبحت تقول الحق فقط .. هل تظن ان قول الحق ، هو مجرد عملية آلية ؟

شكرى ـ تسألنى انا .. سل نفسك

الدكتور ـ هأنذا أسأل نفسى واجيب .. لقد كنت تكذب ، وترى فى الكذب متعة عظيمة ، كنت تراه هواية ، والآن انت تقول الحق ، ويجب أن تقول الحق بنفس الحماسة ، وبنفس الاستمتاع والسرور .. أيام الكذب كنت تتعرض لمهانات ، فلا تحفل بها ، وتمر فى ظروف محرجة ، فتضحك منها ومن الناس ، فلماذا تحفل من متاعب قول الحق ، ولماذا لا ترى فى المتاعب التى يجرها عليك قول الحق ، أسبابا للسعادة والسرور

شكرى ـ (شارد الفكر) انا لم أفكر فى شىء من هذا أبدا ..

الدكتور ـ (بنفس الهدوء) انا واثق أنك لم تفكر . ولو فكرت لما أثرت هذا الضجيج كله .. لقد أصبحت متمتعا بقوة عظيمة ، تلك هى القدرة على ان تواجه الناس بحقائق وجودهم وحياتهم ، ان الناس يريدون الحق .. لا تظن انهم يحبون الحقائق المزيفة ـ أو انهم يريدون أن يعيشوا فى عالم أساسه الغش والتزوير ... قلة صغيرة تجد فى الكذب فائدتها . وهى قلة قوية دائما ، لانها تكسب الكثير جدا من الكذب بأصنافه . ومن هذه المكاسب تنشىء لنفسها أسلحة عديدة . تصدر القوانين ، وتخرج الصحف ، وتشترى الاقلام ، وتزيف الافكار أما مجموع الناس ، وصغارهم ، فلا يجدون فائدة من هذا الغش المسلح ، الغش المنظم ، الغش الذى يستخدم القوانين والبوليس والسلاح والمال ..

فأنت رجل موهوب ومحظوظ . وهبك الله شيئا يحتاج

اليه الناس ولا يجدونه الا نادرا ... فالرجل الذى يقول الحق فى اى مجتمع ، هو رجل يشبع حنين الناس الى الحقيقـة ، ويقودهم الى اشياء جديدة لم يكونوا ليعرفوها ، لو لم يبعث فى صفوفهم من يبين لهم الطريق اليها . وبعبارة أخرى هو رجل قوى لا يعهد

شكرى ــ انك تدير راسى ..

فهمى ــ هذا كلام أحس بوقع الفاظه فى أعماق قلبى،انه يرن فى نفسى رنين الاجراس

ثريا ــ صحيح يا فهمى انك سعيد بهذا الكلام

فهمى ــ (يمسح عينيه بيده كأنما يستيقظ من نوم عميق) انه اشبه شىء بكلام أسمعه فى حلم

ثريا ــ (تضع يدها على كتف زوجها ، وقد اتجهت نحوه ، ووقفت الى جواره) أمتأثر أنت به الى هذا الحد ؟

الدكتور ــ أنا سعيد اذ استمع فهمى الى ، فانه فى واقع الامر موجه اليه ، واليك أنت (مخاطبا ثريا) أكثر منه الى شكرى..

فهمى ــ (كالحالم) صحيح ؟

الدكتور ــ نعم ، فأنت تعانى شللا

فهمى ــ (متسائلا) شلل ؟

الدكتور ــ شلل اجتماعى .. انك اقوى مما تتصور . انك اقوى من ثريا . وان كان الناظر اليكما يتصورانها أقوى منك.. اقوى اعصابا واعظم جلدا ، واقدر على مقاومة النـاس ، ومجابهة المجتمع

فهمى ــ انها لا تكف عن السخرية بالمجتمع .

الدكتور ــ كلاكما يخـاف المجتمع ويحسب حسابه ، ويتقى حكمه .. كلاكما بعبارة اصح يطلب رضاء المجتمع .. أنت تتحاشى المجتمع وتبعـد عن مواجهتـه ، وتخبس آراءك فى صدرك ، وتخفى مشاعرك فى باطنك خوف التورط فيما يغضب

المجتمع ، ومع الزمن أصبحت لا تعبر عن شيء من احساساتك ومشاعرك .. أصبحت تخاف الناس ، حتى زوجتك ..

ثريا ــ يخافني . !

الدكتور ــ يخاف معارضة أى انسان ، وقد كنت بالنسبة له المجتمع الذى يعيش فيه كان يرى فى حياتك ونشاطك وجراتك على الناس ، وسهرك ما يعوضه عن عجزه هو ، وسكونه وجموده وانكماشه

ثريا ــ كأنما تضع يدك على خراج فى قلبى ..

فهمى ــ بل انه يخرج القيح والصديد من جرح متعفن فى صدرى

الدكتور ــ المطلوب منك أن تنهض وتقف على قدميك ، يجب أن تقاتل ..

فهمى ــ (مأخوذا) اقاتل ؟ !

الدكتور ــ نعم ، يجب أن تقاتل ، هذا هو العلاج

فهمى ــ اقاتل من ؟ .. اقاتل كيف ؟

الدكتور ــ قاتل نفسك أولا .. انك عدو نفسك ، انك تكتم انفاس شخصيتك بحبك السلامة ، والبعد عن مواطن العراك ..

فهمى ــ هذا مستحيل ..

الدكتور ــ اذكر انك خلبت لب زوجتك حينما طلبت يدها منذ عشر سنوات . كانت حيويتك هى التى اخضعتها لك ، وقد كانت فتاة جموحة ، متقلبة ، لا يرضيها أحد .. ثم لم تلبث أن القيت سلاحك فلم تعد تفعل شيئا . وانطفأت نار شخصيتك تحت رماد من الخوف والمسالمة .. حينما تقاوم تعود اليك صفاتك الباهرة

ثريا ــ (مقاطعة) الا تذكر يا فهمى منذ ساعة واحدة

فهمى ــ (كالحائر) اذكر ماذا ؟

ثريا ـ أتذكر حين كنت تناديني يا حبيبتى ، يا عزيزتى ، حينما كنت موشكا أن تدللنى على غير عادتك فى التحفظ .. فى حجرة انتظار الدكتور .. لقـد أسـتوقفنى هذا التغير ، وقلت لك ...

فهمى ـ حقا ! لقد قلت لى ...

ثريا ـ (مكملة) انك عند الانفعال ينطلق لسانك ..

الدكتور ـ بالضبط هذا ما أعنيه . حينما تجيش نفسـك حينما .. حينما تخلع ثيابك التى تقيدك لتحارب ، يتدفق الدم فى عروقك أولا .. ثم يندفع الى قلبك والى عقلك والى لسانك .

فهمى ـ (يتراجع فى كرسيه كالمنهار ، ويدع ذراعيه يسقطان الى جانبيه) هذا مستحيل

ثريا ـ (تجلس الى جانبه وتضـع يده بين كفيها) ما هو المستحيل ؟

فهمى ـ مستحيل .. مستحيل !

ثريا ـ لاتقل ذلك !

فهمى ـ هذه هى الحقيقة ..

ثريا ـ لاتنس أننى معك .. اننى الى جوارك

فهمى ـ انك لم تكونى معى أبدا ... لم تكونى معى طوال هذه السنين

ثريا ـ لقد أبعدتنى عن نفسك ..

فهمى ـ أعترف أننى كنت وحيدا ..

ثريا ـ (منفعلة) ما أشقانى .. ما أتعسنى ..

الدكتور ـ لقد كنتما تعيشان لنفسيكما ، وفى نفسيكما ، لم يكن لوجودكمـا معنى ، لم ترزقا الاولاد ، فكنتما كغريبين حكم عليهما أن يعيشا فى سجن واحد ..!

ثريا ـ (تنفجر باكية) كفى ...

الدكتور ـ لقد كان هـدفك أن تبحثى عن سعادة تملأين بها فراغ حياتك ٠٠ سعادة المديح الرخيص الذى يبـذله لك الطامعون فى جمالك ٠٠٠

ثريا ـ (محتدة) قلت كفى ٠٠!

فهمي ـ لا ٠٠ لا ليس يكفى أن نعرف هذه الحقيقـة ، لابد أن نعرف طريقنا ٠٠ يجب أن نهتدى الى ماعسانا نحن فاعلون

الدكتور ـ هذه مهمتى ٠٠ أنت فى حاجة الى شىء من الثقة بالنفس ٠ الى شىء من الاستجابة للعالم الخارجى ٠٠ الى الدنيا الواسعة ٠٠ وهى فى حاجة الى قليـل من الحيـاة فى عالمهـا الباطنى ٠٠٠ شىء من التأمل فى قلبها

شكرى ـ وهل أنت قادر على أن تحقق لهما ذلك ؟

الدكتور ـ العلم هو الذى سيقودنا الى هذه الغاية ٠٠يجب أن نثق بالعلم ونطمئن اليه ٠٠ أن الغدد التى فى أجسامناهى التى تخلق شخصيتنا ٠٠

شكرى ـ ستجعل من هذا الخائف مقاتلا ، ومن زوجته امرأة تستطيع أن تصمت قليلا وأن تفكر ٠٠ ٠٠؟!

الدكتور ـ أنا وحدى لا أستطيع ٠٠المشرط لايكفى٠العملية الجراحية ستضعهما فى أول الطريق ٠٠٠

شكرى ـ وعلى أنا أن أتحمل المتاعب بصبر وسرور ٠٠

الدكتور ـ بضعة أيام فقط ، وبعدها ستصبح عادة ٠٠

شـكرى ـ (يضـع يديه فى جيوب بنطلونه ويتمشى فى الحجرة جيئـة وذهوبا) شىء لطيف ٠٠ الضرب ٠ والركل ٠٠ والشتم والسب ٠ أسباب جديدة للسعادة والسرور ٠٠٠ على أن أضحك اذا سال دمى من رأسى ٠٠ أما اذا بصق الناس على وجهى ، فلا بد أن أحمد الله ، لأطلب المزيد ٠٠ (يتوقف فجأة ويتجـه الى الدكتور) أيها الدجال ٠٠!٠٠ أيهـا الحاوى ٠! ستضحـك علينا بكتاكيتك ٠٠ التى تخرجهـا من أنوفنا ٠٠ محال أن تنطلى على هذه الاحابيل ٠!

(يذهب ويضع يده فى ذراع فهمى ويمـــد يده الى ذراع ثريا ٠٠)

شكرى ــ تعالوا نخرج من هذا « المورستان » ٠٠

ثريا ــ (لاتستجيب الى دعوته) دعنى ، أنا أريد أن أبيع حياتى القديمةبأىثمن ٠٠

شكرى ــ ولو كان الثمن نصف عقلك

ثريا ــ بل لو كان الثمن كل عقلى٠٠ماذا كان يساوى عقلى فى القديم ؟ لقد كان مجموعة من المخاوف والافكار العفنة ٠٠!

فهمى ــ أنا أريد شيئا عظيما أقاتل فى سبيله ٠٠

الدكتور ــ الشىء العظيم موجود ٠٠أنت دكتور فى أىشىء؟

فهمى ــ فى الاقتصاد ٠٠

الدكتور ــ لماذا تعلمت ؟ أنت غنى ، أو على الاقل ميســور الحال ، فلماذا هذا العلم كله ٠٠؟ من أجل هذه الدروس التى تلقيها فى أحد المعاهد فقط ؟٠٠ هذه الدروس التى لاتستنفد كل طاقتك ٠٠

فهمى ــ جميل !

الدكتور ــ أنك غير راض عن الاحوال فى البلد ٠٠الاحتلال يأخذ نصف أرزاق الناس ، والفســاد بأنواعه يأكل النصف الثانى ٠٠ أنت تقول هذا بينك وبين نفسك ٠٠ لماذا لاتقوله للناس ؟

فهمى ــ هل قرأت لى شيئا ؟

الدكتور ــ هل نسيت أنك كنت معى منذ نصف ساعة فى هذه الحجرة تحدثنى عن نفسك ؟

فهمى ــ آه ٠٠!

الدكتور ــ أنا أكرر كلامك ٠٠

ثريا ــ (تتجه الى زوجها ، وتنهضه) ماذا ترى ؟

فهمى ــ ليفعل الدكتور ما يشاء ٠٠! متى سنجرىالعملية؟

الدكتور ــ غدا ان شئت !

فهمى ــ غدا

المشهد الثالث

يهمان بالانصراف .. حتى اذا ما كادت ثريا وفهمى أن يصلا الى الباب ، يهتف بهما شكرى)

شكرى ــ قفا ٠٠ أين أنتمـا ذاهبـان (يدير فهمى وثريا رأسيهما اليه دون أن يغيرا وضعهما من الباب)

فهمى ــ ذاهبان الى دارنا ، بعد هذا اليوم الحافل بالمتاعب ٠٠ وبالمفاجآت

شكرى ــ وأنا ٠٠؟

فهمى ــ وأنت ٠٠؟!

شكرى ــ نعم وأنا

فهمى ــ وأنت تذهب الى دارك مثلنا

شكرى ــ أى دار ؟ ليس لى دار ٠ ليس لى فى هـذا العالم مكان آوى اليه ٠٠ أنا غريب لا يطيقنى أحد ، ولا يحبنى أحد

ثريا ــ (تعود اليه) لا تستسلم لهذا اليأس

شكرى ــ (يشد قامته وكأنه ينوى أن يلقى خطابا) لست يائسا يا سيدتى ٠٠ ولكن لايوجد من يفهمنى فى هذه الدنيا ! لايوجد من يفهم مأساتى سواكم ٠ فلا تتخلوا عنى ٠٠

ثريا ــ هذا كلام يوجع القلب

فهمى ــ (مندفعا اليه) أنت صاحبنا ٠ أنت منا تعال معنا

شكرى ــ (يمسك يدى فهمى بيديه) أصادق أنت فى هذا

الكلام .. هل أنا حقا صديقكما .. هل أعتمد على مودتكما .. على تسامحكما

فهمى ـ (فى حماسة) أنت أخى .. تعال بين ذراعى .. (يعانقه)

ثريا تجلس على مقعد بجوار الباب ، وتمسح دموعها التى انسابت على خديها بمنديل)

(يسمع صراخ فى الخارج)

عباس الممرض ـ انتظر الدكتور معه زبائن .. الدكتور مشغول

مراد ـ دعنى .. أريد أن أرى الدكتور

عباس ـ هذا غير ممكن .. انتظر دقيقة .. دقيقة واحدة

(يبدو ظهر عباس على الباب المؤدى الى حجرة الانتظار .. ويظهر رأس مراد من فرجة بين جسم عباس والباب

مراد ـ يا دكتور .. يا دكتور .. كلمة واحدة ! أرجوك

(ثريا تتوقف عن البكاء ، وتطل عليه مندهشة .. ينفصل فهمى عن شكرى وينظران الى الباب)

مراد ـ (مستمرا فى الصياح) أرجوك .. كلمة .. كلمة لا أكثر والله ..

الدكتور ـ (من مكانه فى هدوئه) تفضل ..

مراد ـ شكرا شكرا يادكتور .. أناجئت لاقول لك أننى فكرت فيما قلته لى .. فكرت فيه وسأنفذه تماما .. لقد أصبح عندى كمية من السرور والتفاؤل أكثر مما يلزمنى .. كانت هذه الزيادة سببا فى اختلالى .. كنت كشخص يحمل أكثر مما يطيق ، فتهتز سيقانه ويقع .. لقد قررت أن أوزع سرورى على الناس .. قررت أن أعلم الناس التفاؤل والمرح ..

سـأحارب الخوف ٠٠ لن أضحك وحـــدى ، ســيضحك معى الآخرون ٠٠٠

هـل أنا مجنون ٠؟ هـل أنا عاقل ؟٠٠ لا أدرى ٠٠ كيف سأوزع على الناس الضحك ؟٠٠ كيف سـأحارب فى قلوبهـم الخوف ٠٠٠ لست أعرف قل لى بالله لانى لا أعرف،قل يادكتور ٠٠ هل أنا عاقل ؟٠٠ أنامجنون ؟٠٠ لا أريد أن أضحكوحدى ٠٠أريد أن يضحك معى الناس ٠٠ ألم تقل لى ذلك يادكتور ؟ اذن تعالوا نضحـك معا ٠٠ تعــالوآ نضحك ٠٠ نضحـك ٠٠ اضحكوا ٠ اضحكوا مثلى

(يقهقه ٠٠ يقهقه طويلا ٠٠)

(ستار)



الفصل الثالث

المشهد الاول

حجرتان متجاورتان بينهما فاصل بعضه من خشب ووسطه من زجاج . وامام الحجرتين طرقه . باولهما من اليمين بالنسبة للنظارة مكتب صغير يبدو عليه القدم . ومن خلفه كرسى فى مثل قدمه . والحجرة الاولى من اليمين بالنســبة للنظارة ايضا مكتوب عليها « الادارة » وعلى الحجرة الثانية « التحرير » . وفى كلتا الحجرتين مكتب صغير وبضعة كراسى قديمة ويشاهد فوق المكتبين أوراق ، وفى اركان الحجرة الاولى مجموعة عالية من مجلات .، كما يوجد على أرض الحجرة صحف ملقاه بغير نظام . وفى الحجرة الثانية على المكتب تليفون ، والى جواره على اليمين واليسار كنبة من الجلد

يشاهد فى الحجرة الاولى « رشاد » يلبس قميصا أبيض باكمام قصيرة وهو شاب فى الخامسة والعشرين عارى الرأس ، وحوله على الكراسى ثلاثة اشخاص،احدهم هوالمعلم مدبولى ، ويلبس « لاسة » وجلبابا بلديا وحذاء برقبة فستقى اللون من جلد « جلاسيه » ـ أما الحجرة الثانية فيجلس فيها خلف المكتب الدكتور فهمى

فهمى ـ يا رشاد . . !

رشاد ـ (يرد من حجرة الادارة) نعم يا أستاذ

فهمى ـ ما أخبار المعلم مدبولى ؟

رشاد ـ (يخاطب المعلم مدبولى) تعالَ تكلم الدكتور . .

(رشاد يخرج من خلف المكتب ويحمل فى يده بعض الاوراق ويبقى المعلم . . والمعلم مدبولى فى منتصف العمر ، ليس فى وجهه ولا فى شكله ما يميزه عن بقيــة أبناء البلد من طبقــة المعلمين)

يدخل الى حجرة التحرير

فهمي ــ (موجها الحديث الى رشاد) ما الاخبار ؟

رشاد ــ الاخبار أحسن ، ولكن لا يزال البيع فى حدود اربعة، خمسة آلاف

فهمي ــ وما العمل ؟

رشاد ــ (يهز كتفيه) لست أعرف . لابد من نجدة من السماء

فهمى ــ يبدو أن السماء لا ترانا جديرين بهذه النجدة . لقد تسلمت حتى صباح اليوم ثالث « بروتستو » .. انذار عن دين شركة الطباعة ، وانذار لدين تاجر الورق ، وانذار من شركة الاعلانات .. كيف نستمر ؟

رشاد ــ عندى فكرة ..

فهمى ــ (فى عدم تحمس) أية فكرة ؟

رشاد ــ خالى ..

فهمى ــ (بنفس الفتور) خالك ؟

رشاد ــ نعم . خالى الشماشرجى بك . هو مستأجر ارض الوالدة ، ووكيلها فى ادارة عماراتها وفى ذمته لناالكثير . والمحكمة قد أمهلته طويلا ليقدم الحساب ، والجلسة فى الاسبوع القادم . وهو فى مثل هذه الظروف يجب ان يسترضينى « بقرشين »

فهمى ــ وهذين « القرشين » حقك انت .. نصيبك الخاص ..

رشاد ــ ما بين الخيرين حساب ! نسير امورنا فى الجريدة الآن .. وعندما يأتى الفرج ، تدبر على أحسن حال

(رشاد يمد يده ناحية التليفون)

فهمى ــ ستكلم من ؟

رشاد ــ أسأل عن خالى ...

فهمى ــ لا فائدة .. !

رشاد ــ دعني ولا تعقد الامور يا دكتور ..

فهمي ــ الحرارة مقطوعة عن التليفون منذ يومين

رشاد ــ وانا لا اعرف ؟ الى متى تتحمل وحدك المتاعب . الى متى تخص نفسك بأسوأ الاخبار .. ان الناس لا تتصور انني الى جوارك ، فى حجرة ملاصقة ، بل جزء من حجره ، ولا اعرف أن التليفون مقطوعة عنه الحرارة .. والله أنا تصورت انه معطل .. ان الناس قد ملوا من كثرة السؤال عنا . منعبارات التشجيع والتأييد التى لا تجدى

فهمي ــ ماذا اخبرك المعلم مدبولى ؟

رشاد ــ رأيه القديم .. الرجل معنا بكل قلبه . يفعل المستحيل . انما هو متعهد صغير والضغط شديد ، وهو يرى ان جريدتنا بهذه الصورة لا يمكن أن تكسب قراء جددا

فهمي ــ يقترح أبوابا جديدة .. صورا انسانية .. مسائل شخصية . اشاعات . احاديث المجتمع ..

رشاد ــ الرجل نظيف ووطنى .. انا احبه من كل قلبى .. هو يقول هذا هو طريق النجاح السريع .. ولكنه هو نفسه ينصحنا أن نتحمل . أن نصبر

فهمي ــ (كأنما يحدث نفسه) نتحمل ، ونصبر ... اننا لم نفعل الا هذا .. نتحمل ونصبر .. (يطرق براسه)

رشاد ــ (مقبلا عليه) هل يئست يادكتور ؟

فهمي ــ (متنهدا) يا ليتنى أستطيع أن أيأس . ان اليأس احدى الراحتين ، ولكنى محروم حتى من هذه النعمة ..

رشاد ــ ما العمل ؟

فهمي ــ الجريدة لا يجب أن تتوقف . ان صوتنا وان كان اضعف مما نريد ، الا أنه فى آذان أعدائنا اقوى مما نطمع . اقوى مما يحتملون . وسكوت هذا الصوت هو وحده غاية القصد وبلوغ المراد من رب العباد (ضاحكا ضحكة مغتصبة) ...

(ويصمت ثم يستأنف الحديث فجأة كمن تذكر شيئا) كم الساعة ؟

رشاد ــ الساعة الثانية عشرة والنصف !

فهمي ــ لقد نسينا عامود الطعام .. يجب أن نذهب حالا الى شكرى فى سجن مصر

رشاد ــ بل فى سجن الاستئناف

فهمي ــ نقلوه من سجن مصر ؟ لماذا ؟

رشاد ــ لم أكن أريد أن أخبرك ، لولا انه لا فائدة من اخفاء ذلك عنك . لانهم سيحضرونه اليوم الى هنا

فهمي ــ سيحضرونه من السجن ؟

رشاد ــ نعم ! فمدة الحبس التى حكم عليه بها فى القضية الاخيرة ، أوشكت أن تنتهى ، فبدأت الحكومة تبحث فى أوراقها القديمة ، فعثرت على مقال ، معنون « افسحوا الطريق للثورة » فقررت أن تحقق معه فيه . وقد استدعته النيابة أمس مساء، وبدأ التحقيق . وسيكملون التحقيق هنا اليوم ..

فهمي ــ « افسحوا الطريق للثورة » انقضى الآن أكثر من ستة شهور على نشره ؟

رشاد ــ ان المثل المعروف « التاجر لما يفلس، يفتش فى دفاتره القديمة »

فهمي ــ وشكرى لم يكتب هذا المقال .. فأنت تعلم أننى كاتبه

رشاد ــ ولكنه تحمل مسئوليته ، ولما قابلته أمس فى التحقيق، قال ان القبض عليك أنت سيوقف الحركة تماما

فهمي ــ كفانا فدائية ، يجب أن يتحمل كل منا نصيبه ، انا كاتب المقال فيجب أن احاكم أنا ، وأحاسب عليه أنا

رشاد ــ قلت لشكرى ذلك ، فقال انك لو فكرت فى أن تتحمل مسئولية هذا المقال فانه يعتبر ذلك فرارا من الميدان

ان السجن راحة ، وبعد عن المسئولية ، أما المشقة ففى العمل خارج السجن . فى ظل ظروف تهدد الحياة ، وفى فقر مدقع ، ووسط دسائس وسقوط خلقى لا نهاية له

فهمى ــ والتحقيق هنا ، ما الغاية منه ؟

رشاد ــ مجرد استيفاء .. .. سؤال بعض المحررين ..

فهمى ــ ان الجريمة ثابتة بالمقال ، وشكرى تحمل المسئولية

رشاد ــ لعلهم يطمعون فى أن يقول أحد أنك كاتب المقال ، أو انك تذكر ذلك فيقبض على كليكما

فهمى ــ لا تحاول أن تتخابث على .. ليقبض على كلينا .. لا يهم . لتأخذ انت وشكيب وبقية الزملاء نصيبهم فى هـذا العمل !

رشاد ــ (ضاحكا) والله أنا أتكلم بمنتهى البراءة

فهمى ــ أنا عارف .. أنا عارف



المشهد الثانى

يدخل الطرقة شاذلى افندى ، وهو رجل طويل ، يغطى شفتيه شارب كثيف غير منتظم ، غلب عليه الشيب ، يلبس مناظير غليظة ، ويحمل فى يده عصا .. ويخرج من جيب سترته جريدة طواها جيدا .. يقف عند باب الحجرة ويصفق

شاذلى افندى ــ (يصفق) يا ادريس .. يا ادريس !

(يخرج اليه أحد الشبان من حجرة الادارة)

سامى ــ افندم ..

شاذلى ــ الدكتور موجود ؟

سامى ــ موجود .. أى خدمة ؟

شاذلى ــ قل له شاذلى ..

(رشاد يسمع هذا الحديث فيقف على باب الحجرة)

رشاد ــ أهلا .. أهلا .. اهلا

شاذلى ــ (يتجه نحوه مادا يده) أهلا بك .. سلام عليكم

رشاد ــ عليكم السلام .. لقد جئت فى الموعد المناسب تماما

شاذلى ــ (متهللا) الله يبشرك بالخير .. أحضرتم الايجار ؟

رشاد ــ (مبتسما) تفضل .. أدخل

(يدخل الحجرة ، فيقف فهمى محييا)

فهمى ــ أهلا وسهلا ..

شاذلى ــ (يقرب وجهه ناحية فهمى ، ويحدثه عبر المكتب) صباح الخير .. الف صباح الخير

رشاد ـ (يخرج علبة سجائر من جيبه ويقدمها لشاذلى) سيجارة ياسيد شاذلى

شاذلى ـ (يجلس على الكرسى المجاور للمكتب ويضع يده فى جيب صديريته) النشوق أفضل .. النشوق أرخص أيضا .. واقل ضررا

فهمى ـ (مبتسما) أرخص .. اهم ..!

شاذلى ـ لا والله يادكتور .. الجرائد هذه الايام تتحدث عن اصابات السرطان بسبب الدخان . كم فى المئة يصابون بسرطان الرئة من المدخنين . نسبة كذا يصابون بهذا المرض اذا كانوا من مدخنى العلبتين ، ونسبة كذا ممن يدخنون علبة .. نسب .. نسب .. والله وحده أعلم بالحقيقة .. اذا أردت الجد ، هذه الاحصائيات «الامريكانى» لاتنزل لى من زور ..

فهمى ـ فنجان من القهوة ..!

شاذلى ـ والله ماتتعبوا أنفسكم ! (مسترسلا فى الحديث) والذى يحير العقل ، هذه الامراض التى لم نكن نسمع عنها .. سرطان .. سرطان (يقلب يده فى الهواء) لا أظن أن اجدادنا سمعوا عنه أو ماتوا به ، والادهى ما طلعوا علينا به من ذبحة صدرية ، وجلطة دموية .. وسكتة قلبية .. وتصلب شرايين، وضغط .. أين كانت هذه الامراض ؟ هل هذا ماكسبناه من التعليم والحضارة .. كان اجدادنا يعيشون ببساطة ، ويموتون ببساطة ، كانت الحياة هينة مبروكة

فهمى ـ (مداعبا) ولم تكن فى تلك الايام صحافة !

شاذلى ـ (متبينا المداعبة) الله الله على الجرائد و«الجرنالجية» باب وحده طويل ! لكن الامر هذه التشكيلة العجيبة من الامراض الجديدة .. يامبارك «كومبلكس» « ينطقها بالباء الخفيفة» كومبلكس فى كل مقالة . وكل كتاب ، وكل محاضرة ، وكل اعلان .. أنا لا أفهم فى موضوع الكومبلكس شيئا .. الله يرحم

أهلنا .. عاشوا وماتوا ، وربنا لم يكتب عليهم الكومبلكس.. المهم «القرشين» جهزوا ..

فهمى ـ عادتك ياسيد شاذلى أنِ تكلمنا بالتليفون قبل التشريف ..

شاذلى ـ والله لا تؤاخذنى ، من يومين وانا اطلب نمرتكم ، ولا رد .

فهمى ـ (مبتسما) التليفون ياشاذلى افندى الحرارةمقطوعة عنه

شاذلى ـ (غير متبين غرض فهمى) التليفونات عليها ضغط شديد .. الاعطال كثيرة ..

فهمى ـ لا ياشاذلى افندى . التليفون مقطوعة الحرارةعنه، لاننا لم ندفع الاشتراك

شاذلى ـ علامة سيئة .. يعنى !

فهمى ـ يعنى نحن مضطرون الى الاعتذار هذه المرة أيضا

(يدخل ادريس فراش الجريدة وبين يديه صينية ، عليها فنجان قهوة ، وكوب ماء)

شاذلى ـ (يتأمل فى الصينية باحثا عن الفنجان بجهد ثم يمد يده نحو الصينية) لا داعى للقهوة . المهم الايجار .. أنتم الآن فى الشهر الثالث . ماذا أقول للدائرة .. ماذا أقول لنيازى بك وكيل الدائرة ، جميع من فى العمارة والعمارات الاخرى التى احصل ايجارها دفعوا .. صحيح بعضهم مكسور عليه ايجار شهر . شهر واحد . ولكن أنتم متأخرون فى ثلاثة شهور . انا مانع المحامى من اتخاذ الاجراءات .. حجز لا..اخلاء لا.. انذار لا .. لكن لم يعد لى فى الامر حيله . (يرشف القهوة ثم يضع الفنجان على المكتب ، ويخرج علبة النشوق من جيبه)

فهمى ـ (كأنما يواجه الخطر) ياسيد شاذلى ، جميلك نحن نعترف به ، جميلك فوق رأسنا . ولكن الاحوال كما ترى . تليفون معطل .. انذارات من المطبعـــة .. وتاجر الورق .

وشركة الاعلانات .. نحن فى أزمة. الحكومة تلاحقنا بالمصادرات الرقابة تمنع أى كلام يهم القراء . وزملاؤنا فى السـجون . شكرى بعد أن انتهت مدة حبسه عن الخطبة التى ألقاها فى طنطا ، يحققون معه فى مقال نشر منذ ستة شهور

شاذلى ـ (يهز رأسه . وعلى وجهه علامات أسى) الله يجازيهم .. الله ينتقم منهم .. (ثم ينتبه فجأة) ولكن الدائرة ، ووكيل الدائرة ، سعادة نيازى بك .. لايهمه شيء من هذا . المهم الايجار . ألا يمكن تدبير ولو ايجار شهرين ؟

رشاد ـ (متدخلا فى الحديث) مهلة ثمانية وأربعين ساعة أخرى .. أو أربعة وعشرين سـاعة .. أنا ذاهب الى خالى الشماشرجى بك .. سأحضر لك الايجار .. سأوصله لك لغاية مكتبك فى الدائرة

شاذلى ـ نعم .. الشماشرجى بك خالك ..

رشاد ـ نعم .. والايجار ..

شاذلى ـ (مهتما بموضوع الشماشرجى بك) خالك لزم ؟

رشاد ـ نعم .. شقيق والدتى .. والايجار ؟

شاذلى ـ الشماشرجى بك خالك .. أنعم وأكرم . من أخيار الناس .. عين أعيان المديرية .. من الاجاود أهل الاصل . مجد أب عن جد .. صورة جميلة .. وحديث أدب وحجى وكرم .. كرم ماله أول ولا آخر .. متى ستراه ؟

رشاد ـ سأراه اليوم أو غدا ، من أجل الايجار

شاذلى ـ والله السلام أمانة .. قل له شاذلى عبد المغيث يقبل الايادى .. هو يعرف أنى من محاسيبه .. محاسيب المرحوم والده

رشاد ـ والده لم يمت

شاذلى ـ (مسترسلا ، لم يلتفت الى تصحيح رشاد) .. الف رحمه .. تقول يسرى باشا لم يمت .. الحمد لله ..

السن له أحكام .. صحيح لك حق .. سرى باشا هو الذى توفى . أما يسرى باشا ، فله طول البقاء . أطال الله حياته .. (يتوقف) والله ياسيد رشاد ، مسألة صغيرة فيها رذاله ..

رشاد ــ (مبتهجا) أبدا .. أى مسألة .. أؤمر ..

شاذلى ــ شقيق الجماعة مقدم طلب لايجار ثلاثين فدان من الاوقاف ، والاوراق كلها جاهزة . لاينقصها الا امضـــاء الوكيل .. والشماشرجى بك كما تعلم صديقه.. صديقه الذى لايفارقه .. لهما ركن خاص فى قهوة «هافانا»

رشاد ــ (مرتبكا) والله ..

شاذلى ــ (يخرج ورقة وقلما ، ويقرب وجهه من المكتب ، ويأخذ فى كتابة مذكرة ، ويعطيها لرشاد ، ويقول) الله يبقيك لنا .. ويبقى الشماشرجى بك .. قبل لى يديه .. وان شاء الله ربنا ينجح المقاصد .. اسمحوا لى أنا .. لقد أطلت عليكم .. أشكركم .. أشكركم . نراكم بخير

(يصافحهما ، ويبدو عليهما أنهما أنقذا على غير توقع للفرج ، ويشيعانه بنظرات الدهشة والسرور)

رشاد ــ فرجت .. لثمانية وأربعين ساعة على الاقل .. لاسبوع ! مالك ؟ ألست فرحا بهذه النجاة ؟

فهمى ــ وما الفائدة ؟ هذه مسكنات ! .. ثم انظر كيف تفعل المصالح

رشاد ــ (مقاطعا) أرجوك ..! وفر علينا هذه المثاليــــة ، واخرها لمدة أسبوع .. فان المثالية والديون اذا اجتمعا علينا انتهينا ..

(يدخل مدبولى عليهما)

فهمى ــ (يقف محييا) مرحبا بالمعلم مدبولى

مدبولى ــ (مصافحا) ياصباح الانوار ..

فهمى ــ اجلس يامعلم ..!

مدبولى ــ تشكر ..
فهمى ــ كيف الاحوال ؟
مدبولى ــ رضا .. (يقبل يده ظاهرا لباطن)
فهمى ــ واخبارنا عندك ؟
مدبولى ــ معدن .. الناس راضيه عنكم .. والقلوب داعية لكم .. وربنا يعينكم ، الهى بحق جاه الرسول يزيح الغمة
فهمى ــ ولكن المرجوع كتير يا معلم مدبولى
مدبولى ــ ياسيدى الدكتور المسألة معروفة . الناس تحب «التفاريح» . وانتم جد .. جد فى جد ..!
فهمى ــ ورأيك اننا نخفف الجد ؟
مدبولى ــ تحب الصراحة ؟
فهمى ــ طبعا ..
مدبولى ــ البلد لازم لها جريدة جد .. الناس شبعت اشاعات وخفايف ولطايف .. البلد على فم بركان .. لازم لها لسان جرىء . انا بصفتى متعهد جرائد صغير ، أحب أن جريدتكم تبيع اد كده ميت مرة .. ولكن لابد من الصبر .. وربنا يعوض صبرنا خير .. كل ماقربتم برقابكم من المشنقة ، «الجرنال» يمشى زى «القشاط» .. والحمد لله انتم مش ناقصين وطنية .. كلها يومين والحال تتحسن والدنيا تتعدل .. خدها كلمة وهى حكمة من واحد جاهل .. مافيه حلاوة من غير نار ..
فهمى ــ متشكر .. متشكر جدا
مدبولى ــ الشكر لله ،اللهم لك الف حمد وشكر .. كوننا نقول كلمة الحق فضل من الله ونعمة .. اللهم لك الشكر .. السلام عليكم .. (يخرج)
(فهمى يرتمى على المقعد كأنما يستريح من عناء شوط طويل جراه)

فهمي ــ يارشاد .. لست تعرف كم يؤثر علىهذا الكلام.. انا انتشي به .. أنسى كل همومي . انه يثبت قدمي ، ويؤكد لى انني على الطريق الصحيح

رشاد ــ ليس هذا كلام المعلم مدبولى فقط ، انما كلام اكثر الشعب . انه كلام الناس الذين لا تؤثر مصالحهم على آرائهم

(يدخل مراد مندفعا من باب الطرقة الايمن الىحجرةفهمى)

مراد ــ (كأنما يردد كلاما حفظه عن ظهر قلب) أنا متفائل .. متفائل جدا ، الاخبار عظيمة وسارة ..

فهمي ــ (مبتسما) الا تحيينا أولا ياسيد مراد ؟

مراد (مستجيبا للفت النظر) السلام عليكم .. أنا راجعمن المحلة . اخواننا هناك قبض عليهم جميعا . وفى المحلة سمعت ان زملاءنا فى الاسكندرية قبض عليهم كذلك..وأخذ البوليس يبحث عن كل شخص يشترى جريدتنا . كان قراؤنا يخفونها او يمزقونها ..

رشاد ــ (بابتسامة عريضة) وانت متفائل ؟

مراد ــ (مكملا) جدا ..!

فهمي ــ واحب ان اكمل لك أسباب التفاؤل..تسلمنا ثلاثة انذارات ، من المطبعة ومن تاجر الورق، ومنشركة الاعلانات.. ثم جاءنا محصل الدائرة ليطردنا من هنا ..

مراد ــ (متحمسا) جميل .. جميل للغاية..واللهأنا متفائل

فهمي ــ وأزيدك تفاؤلا ، شكرى كان يجب أن يفرج عنهيوم الخميس القادم اى بعد ستة أيام تقريبا ، فبحثوا له عن مقال قديم .. مقال «افسحوا الطريق للثورة» وسيحققون معهفيه، وسيحضرونه الينا اليوم لسؤال بعض المحررين . وقد تسأل انت ..!

مراد ــ اذن سنراه .. هذا خبر سار . وأنا والله متفائل

فهمى ـ اهدأ قليلا وافهمنى أسباب هذا التفاؤل،لاشاركك فيه ..

مراد ـ نظريتى القديمة . ان هذه الضربات المتوالية ، هذه الضربات هنا وهناك . لاتدل على ضعفنا ، بل على قوتنا ، على خوف أعدائنا منا . وكلما اشتد الضرب فينا ، كلما كان ذلك دليلا على أننا أقرب الى الهدف .. صدقنى

فهمى ـ أنا أصدقك لان تاريخ الثورات .. (مبتسما)

مراد ـ (مقاطعا) نعم .. لان تاريخ الثورات يثبت ذلك . ففى الثورات الكبرى كان وصول الظلم الى أقصى الغاية دليلا عاى قرب انبلاج الفجر

فهمى ـ لقد حفظت عنك هذا الكلام ، فلا تتعب نفسك فى تكراره ..

مراد ـ يا دكتور أنت تحفظه ولكنك لا تؤمن به ..أرجوك أن تكون متفائلا .. أرجوك أن تكون مبتهجا ..

فهمى ـ أنا مبتهج ومتفائل وسعيد.ولكن الجريدة ستتوقف عن الصدور ، وسنطرد من هنا ، ولست أستطيع أن أتصل بأحد لأن التليفون معطل ... وشكرى الذى كنت أعتمد على الافراج عنه فى الكثير سيحبس من جديد

مراد ـ (يفرك يديه ابتهاجا) والله كل ذلك خير .. أن توقف جريدتنا سيكون أوجع لأعدائنا من صدورها .. أنت لا تعرف يا سيدى ما تنطوى عليه الشعوب من ادراك وفهم وتقدير . المهم أن نكون صادقين ومخلصين وثابتين ، وبعد ذلك دع الباقى للظالمين . انى أحب يا دكتور كلمة فولتير،ان من يعمل للحرية ، أو يعمل ضدها ، فهو يعمل لها ... كلام عظيم . كلام عظيم ، وأنا متفائل وأنت ؟

فهمى ـ متفائل طبعا

مراد ـ هذا هو المطلوب .. أن نكون أقوياء ومخلصين ، ودع الباقى للظالمين ..

المشهد الثالث

(يدخل ادريس فراش المكتب مسرعا)

ادريس ـ يا دكتور .. الاستاذ شكرى قادم ومعه ضابط بوليس ..

(يدخل شكرى من الباب وفى يديه أغلال . يبدو شاحبا نوعا . قد نبتت لحيته قليلا)

(يخرج فهمى من حجرته ، ويستقبله فى منتصف الطرقة ، ومن خلف شكرى ضـابط . ويقف على الباب رجـلا بوليس ملكيان يرتديان ملابسهما المدنية ، أحدهما يلبس ثيابا أفرنجية والثانى يلبس ثيابا بلدية . وطاقية وجلبابا)

فهمى ـ شكرى ..!

شكرى ـ فهمى ..!

فهمى ـ كيف حالك ؟

شكرى ـ شديد !

فهمى ـ (يربت على ذراعه اليمنى) أنا متأكد ..

(الضابط يفك الاغلال عن يديه . فيصافح فهمى ثم يعانقه . يتقدم اليه مراد ويعانقه طويلا . ثم يعاود معانقته . ويقبله . ويصافحه ، ويقبله فؤاد كذلك . والشبان الآخرون موجودون فى حجرة الادارة . وأخـيرا يتقدم ادريس فراش المـكتب . ويهز يده)

ادريس ـ الحمد لله على سلامتك

شــكرى ــ متشــكر ياعم ادريس • متشكر • لعل الاولاد بخير ••

ادريس ــ بخير يا سيدى بخير

فهمى ــ تحقيق جديد ؟

شكرى ــ نعم فى المقال الذى كتبته منذ ســتة أو ســبعة شهور •• مقال « افسحوا الطريق للثورة »

فهمى ــ ولكنك لم تكتب أنت هذا المقال

شكرى ــ (يضع اصبعه على فمه وينظر الى الضابط) أنا كتبته ، وكنت فى الواقع معجبــا به ، وقــد كنت أنتظر من الحكومة أن تعجب به مثلنا ، ولكنها احتاجت ستة شهورلتتبين مزاياه ••

(يتجهون نحو حجرة التحرير •• يأخذ الضابط مقعدا من الحجرة المجاورة ، ويجلس فى الطرقة)

شكرى ــ يا دكتور فهمى •• أى فائدة فى أن يحبس كلانا، فى ذلك الوقت كنت أنا رئيس التحرير • فلو قلت أنت أنك كاتب المقال ، سنحبس سويا ، ولا فائدة • الامور فى خارج السجن تحتاج اليــك •• أنا فى الســجن مستريح ، أفكر ، أراجع أعمالنا ، أفكر فيما أخطأنا فيه • وفى هذا فائدة كبيرة لاتستطيع أن تقدرها • وأنا أكتب الكثير • وأقرأ الكثير • فقد كنت بحاجة الى هذا كله • كانت الدوامة تدور بنا ، ولا تدع لنا فرصة نتأمل فيها نفوسنا • وهذا أخطر مايصيب الحركات

فهمى ــ لاتحاول أن تقنعنى بأن أراك تتحمل مسئولية عمل عملته أنا • لقد كان أسلوبى الذى أكتب به خطأ كله • لقد كان أسلوبا تهييجيا لانفع منه • وقد خجلتم أن تلفتوا نظرى الى ذلك • أنا الذى يجب أن يتحمل وزر ماعملت

مراد ــ يا سيد شكرى ، الامور تسير سيرا حسنا •• أنا متفائل ••

(الحاضرون يضحكون فى صوت عال معا)
شكرى ـ يا سيد مراد ، اشتقت الى تفاؤلك ٠٠
فهمى ـ هل سمعت ٠٠ ان اخواننا فى المحلة قبض عليهم، وكذلك زملاؤنا فى الاسكندرية ٠ جريدتنا أصبح احرازها جريمة ٠٠ الظلم يخبط خبط عشواء ٠٠ ماذا ترى فى هذا ؟
شكرى ـ (ضاحكا) أرى أننا يجب أن نتفاءل
مراد ـ تمام ٠٠٠ مضبوط !
شكرى ـ التفاؤل قوة
مراد ـ ثم ان من يعمل للحرية ، أو يعمل ضدها ٠٠٠
شكرى ـ فهو يعمل لها ٠٠
(يضج الجميع بالضحك)
شكرى ـ (ينتبه) يا حضرة الضابط ٠٠ تفضل معنا
(الضابط من مكانه فى الطرقة)
ـ لا تضايقوا أنفسكم بوجودى ٠ أنا مستريح هنا
مراد ـ (يخرج له) انضم الينا نحن يسرنا وجودك معنا ٠ أن يوجد فى البوليس ، فى هذه الايام ، ضابط بهذه الدماثة، أمر يدعو الى التفاؤل
الضابط ـ الامر لا يستدعى مراقبة الاستاذ شكرى٠ مجرد توصيله الى هنا ، وانتظار حضرة وكيل النيابة ٠ انها جريمة صحفية ٠٠٠
(يتقدم الى الحجرة ، ويوجه الحديث الى شكرى)
الضابط ـ أنا خجل من مسألة « الكلبشات» ٠٠ الواقع انه لم يكن هناك أى داع ٠ وفى العادة لا ينتقل الصحفيون من مكان الى مكان و « الكلبشات » فى أيديهم ٠ ولكن القلم السياسى ، أبلغنا أن الامر مقصود هذه المرة
مراد ـ (مصفقا بيديه) ألم أقل لكم أنها النهاية ٠ مجرد

تنكيل • مجرد اشعارنا بالاهانة •• على الرحب والسعة ، نحن كما يقول المثل العامي « أدها وأدود »

الضابط ــ الواقع أنا أحسدكم على هذه الجلسة المرحة ، كأنما الاستاذ شكرى قادم من نزهة وعائد الى نزهة ••نحن في عملنا لا نستمتع بجلسة أخوية كهذه ، لقد بذروا بيننا بذور الشكوك والمخاوف ، وأصبح كل منا رقيبا على زميله ، وعدوا له ••

مراد ــ لم يبق الا أيام ••

الضابط ــ الله يبشرك بالخير • الواقع أن ماتقولونه على ألسنة الجميع • لم يعد أحد خائفا من شىء • الجميع يقولون ليحدث ما يحدث • لاتظنوا أيها السادة أن من السهل أن أقول لكم هذا الكلام ، وأنا ضابط ، ووآجبى وشرفي ، يقضيان على أن أنفذ الاوامر بدقة وأمانة وأن أكون فى خدمة الدولة ظاهرا وباطنا ، الا أنه اذا تحول رؤساء الدولة الى قطاع طريق ، فانه من الصعب علينا أن نحمى اللصوص ، وأن نكون دروعا للمرتشين والمزورين ، وأن يتخذ منا القانون ستارا للمحاباة والمحسوبية ••

مراد ــ هل يتحدث زملاؤكم فى شىء من هذا ؟

الضابط ــ كان الحديث همسا ، وأصبح الآن صياحا • ولست أدرى ما الذى أصاب آذان الحكام • انه صمم عجيب • فكل من فى البلد يسمع هذا الصراخ الا هم ••

فهمي ــ أنا أشكرك على أنك كشفت لنا عن نفسك، وأفضل أن تبتعد عنا فوكيل النيابة لا يلبث حتى يحضر ••!

الضابط ــ لاتشغل بالك بى ، فالتغيير أصاب البلد كلها• لم يعد هناك من يقبل أن يكون سوطا فى يد جلاد يأبى حتى أن يتستر فى جرائمه

فهمي ــ (ينظر فجأة الى شكرى) شكرى ! ماذا أصابك ! هل تشكو شيئا ؟

شكرى ــ (يخرج منديلا من جيبه ويمسح دمعة انحدرت على خده) لاشيء ٠٠ لاشيء !

فهمى ــ أنت تبكى

شكرى ــ نعم ٠٠ أنا أبكى ٠٠ لم أستطع أن أمنع نفسى من التأثر من كلام هذا الضابط لقد تذكرت يوم بدأنا ٠٠ تذكرت الظروف التى تعارفنا فيها ٠٠ أتذكر كلام الدكتور ؟

فهمى ــ نعم ، أذكر ذلك ، أذكره دائما ، وأعجب كيف تستطيع كلمات قصيرة سريعة فى بعض الاحيان ، أن تغير فى الناس الكثير

شكرى ــ قال لى فلتجعل قول الحق هوايتك ٠٠ ان الناس يودون أن يسمعوا كلمة الحق ٠ جرب ان تقول لهم ٠ وقد كان ٠٠ لقد كنا وحدنا ٠٠ وكان الناس يضحكون منا ، ويهزأون من ضعفنا ٠٠٠ من كان يصدق أنه ستكون لنا جريدة ؟ وأن جريدتنا ستشغل بال الاصدقاء والاعداء معا٠٠من كان يصدق أنه بعد أقل من عشر سنين سنسمع هذا الكلام من ضابط ؟٠ ضابط بوليس ٠!

مراد ــ ألم أقل لكم اننى متفائل ٠٠ واننا يجب أن نتفاءل جميعا ٠٠

شكرى ــ (يمد يده نحو مراد ويربت على كتفه) أنت على صواب ، لابد أن نطوى صدورنا على أمل كبير ٠٠

(يقوم البوليس الملكى من باب الطرقة حتى يصل الى الضابط فى حجرة التحرير ويحييه)

البوليس الملكى ــ البك وكيل النيابة ٠٠!

(الضابط يقوم ويتجه ناحية باب الشقة)

(يدخل وكيل النيابة ، ومن خلفه كاتب التحقيق ، ويبدو من خلفهما عسكرى بوليس بثيابه الرسمية ومعه بندقية ٠ وكيل النيابة شاب فى مثل عمر فهمى ٠ يبدو عليه نشاط وحزم وصرامة ٠٠

وكيل النيابة ـ يقطع الطرقة فى خطوات سريعـة ويتجـه ناحية حجرة التحرير

فهمى ـ (يقوم محيياومقدما نفسه) فهمى ثابت رئيس تحرير الجريدة

وكيل النيابة ـ السلام عليكم

جميع الحاضرين ـ عليكم السلام ورحمة الله

وكيل النيابة ـ أرجو ألا تكون هذه الزيارة مزعجة لكم ، ولو أننى أعلم أن استقبال هـذه الزيارات أصبحت جزءا من عملكم اليومى (يضحك)

فهمى ـ (متأدبا) لقد تشرفنا يا سيدى النائب

(وكيل النيابة يتجه نحو المكتب ، ويستدير خلفه ويجلس على مقعد فهمى ، فى الوقت الذى يترك فيه فهمى المقعد)

وكيل النيابة ـ لقد فضلت فتح المحضرهنا ، لاننا قدنحتاج الى بعض أوراق نجدها عندكم ..

فهمى ـ تحت أمرك .!

وكيـل النيابة ـ (مشـيرا الى كاتب التحقيق) اجلس . افتح المحضر

رشاد ـ فنجان قهوة ؟

وكيل النيابة ـ شكرا .. شكرا شربت الآن ! هل هـذه ادارة الجريدة .. كل الادارة ؟ لقد كنت أتصور مبنى شاهقا وحجرات كثيرة . لم أكن أتصوركم ..

فهمى ـ (مبتسما) بهذا الفقر . أن تسمع بالمعيدى خـير من أن تراه..

وكيل النيابة ـ (مبتسما) ومؤمنا برأسه على كلام فهمى) .. (يصمت قليلا ثم يقول) .. نحن نريد استيفاء التحقيق ببضعة أسئلة صغيرة عن مواردكم المالية

فهمي ـ مواردنا المالية ؟

وكيل النيابة ـ نعم ٠٠ الحكومة تشتبه فى هذه الموارد

فهمي ـ (فى هـدوء وثقة) أنا تحت الامر على كل حال ٠ دفاتر الجريدة ، ومراسلاتها موجودة ٠ وأظن البوليس يعرف عنها أكثر مما نعرف

وكيل النيابة ـ نتكل على الله ٠٠ الاسم والسن والوظيفة ٠٠ بقية البيانات

فهمي ـ اسمي محمد فهمي ثابت ، مولود فى أسيوط ، وسنى ٤٢ سنة ، وصناعتى رئيس تحرير جريدة ٠٠

وكيل النيابة ـ هل الجريدة ملكك شخصيا ؟

فهمي ـ أنا صاحب امتيازها ، ولكنها تعبر عن رأى جماعة ، وهى التى تنفق عليها ، وتصدرها ٠ ولكنى مسئول قانونا عن التزاماتها الادبية والمادية

وكيل النيابة ـ هل الجماعة كونت شركة من نوع ما ٠ شركة قانونية ٠ مساهمة أو توصية أو غيرهما لاستثمار المجلة والانفاق عليها ؟

فهمي ـ المجلة ليست مشروعا ماليا ٠٠ انها عمل أدبى ٠ وليست هناك شركة بالمعنى القانونى ٠ فأنا مسئول عن كل شيء ، واخوانى يساعدوننى بالمال كل على قدر استطاعته

وكيل النيابة ـ كم تطبعون وكم تبيعون ؟

فهمي ـ ارقام متواضعة نحن نطبع عشرين الفا ، ونبيع احيانا كل هذا العدد واحيانا لا نبيع نصفه ٠٠ وفى احوال كثيرة يصادر العدد

وكيل النيابة ـ الموارد كلها من مبيع الجريدة ؟

فهمي ـ اشتراكات قليلة ٠ واعلانات أقل ومساعدات لا قيمة لها ٠٠

وكيل النيابة ـ مساعدات ٠٠ مساعدات ممن ؟

فهمي ـ من مواطنين أحسن منا حالا يدفعون بين الحين والحين مائة جنيه ·· خمسين ، عشرين ·· على كل حال ، لا يدفع لنا مليم الا ونثبته في دفاترنا · ولولم يأخذوا ايصالا بما دفعوا ·· نحن لانخفي شيئا ·· وليس من مصلحتنا أن نخفى شيئا

وكيل النيابة ـ أهـذه الموارد تكفى للانفاق على الجـريدة وادارتها

فهمي ـ في الحقيقة لاتكفي ، ولو أن أكثر المحررين متطوعون، وأكثر الموظفين متبرعون كذلك

وكيل النيابة ـ اذا كانت الموارد لاتكفى فكيف تواصـــل الجريدة الظهور

فهمي ـ بالديون ·· نحن مثلا اليوم تلقينا انذارات ، والى حضرتك ··· (يقف) هل تسمـح لى أن آخـــذها من درج المكتب ؟

وكيل النيابة ـ تفضل بكل سرور

فهمي ـ (يلف حتى يصل الى الدرج ، فيفتحـه ، ويفتش على الادراج ويسلمها لوكيل النيابة)

وكيل النيابة ـ (يتصفحها ، ويؤشرعليها بالقلم،ويسلمها للكاتب) ·· أتتركها لنا ؟··

فهمي ـ كما ترى ··!

وكيل النيابة ـ وأنت مم تعيش ؟

فهمي ـ أنا لى موردخاص يكفينىضروريات الحياة،ولزوجتى مورد مثله ·· موارد متواضعة ·· واذا أردت حضرتك اقرار المال وقسائم العوائد ، فأنا أحضرها وأقدمها غدا أو بعد غد

وكيل النيابة ـ هذا أفضل بكثير ·· أين الدفاتر ؟

فهمي ـ في الحجرة المجاورة ··

وكيل النيابة ـ اننا نفضل أخذها ، والاطلاع عليها ، واذا اقتضى الحال الى استكمال التحقيق · أعدنا سؤالك

فهمى ـ تحت أمركم
وكيل النيابة ـ (يقوم ، ويخرج من المكتب ، وهو يقول لكاتب التحقيق) اقفل المحضر الآن ، (موجها الكلام لفهمى) اتفضل وقع •• نسوى الدفاتر ونثبتها ••
(فهمى يسبقهما الى الحجرة المجاورة ، ويأخذ وكيل النيابة فى استلام الدفاتر ويقلبها واحدا بعد واحد ، وملفات يتأمل فيها ، ويضعها جانبا)
فهمى ـ (وهو يسلم وكيل النيابة ملفا) هذا ملف خاص بأوراق المطبعة •• وهذا خاص « بالبروتستات » • وهذا خاص بمراسلات المحامين
وكيل النيابة ـ (يمد يده الى دفتر فى وراقة من الخشب ملتصقة بالجدار) هذا دفتر أسماء المشتركين
فهمى ـ لقد نقلته الحكمدارية ، وأجرت فيشا وتشبيها لهم جميعا ••
وكيل النيابة ـ (يضحك) وهل استمروا بعد ذلك يقرأون الجريدة ••
فهمى ـ القليل منهم تبرأ منا ومن جريدتنا ، وبعضهم أصبح عضواً فى جماعتنا لما اضطهد بغير سبب الا مجرد اشتراكه فى الجريدة
وكيل النيابة ـ (مداعبا) اذن اشكرونا ••نحن نساعدكم
فهمى ـ لنا زميل لايكف عن القول بأن من يعمل للحرية أو يعمل ضدها فهو يعمل لها ••
وكيل النيابة ـ (مداعبا وضاحكا) أين هو لنقبض عليه ! (مخاطبا كاتب التحقيق) اثبت هذه الدفاتر فى المحضر ، واعط لكل دفتر رقما ، ولكل ملف رقما ••• (متجها الى فهمى) لننتظر فى المكتب حتى ينتهى عبد السلام افندى من اثبات الدفاتر ••

(يدخلان الحجرة)

وكيل النيابة ـ والآن قد انتهى عملي الرسمي أريد أن أسألك سؤالا شخصيا ..

فهمي ـ تفضل ..

وكيل النيابة ـ هل تذكرني ؟

فهمي ـ (مبتسما) طبعا ... أنت الاستاذ محمد فهمي كامل

وكيل النيابة ـ عجيبة .. لم يبد عليك أبدا أنك تعرفني!

فهمي ـ لست أعرفك فقط .. بل أذكر مقعدك المجاور لمقعدي في الامتحانات العامة ، فأنا محمد فهمي ثابت ، وأنت محمد فهمي كامل ..! (يضحك)

وكيل النيابة ـ (يضحك) ولكن لم يبد عليك أبدا أنك تعرفني ، وقد دهشت ، وتضايقت من ضعف ذاكرتك ، ولكن لم يكن في وسعي أن أذكرك بنفسي أمام الناس .. يا فهمي أنا سعيد جدا بأني رأيتك بعد هذه السنوات الطويلة ، وسعيد بأن تنبؤاتنا لك تحققت .. فقد كنا جميعا نحس بتفوقك ، لا في المدرسة فقط وانما بأخلاقك أيضا .. كان صمتك وخجلك وبعدك عنا ، لا يثيرنا عليك ، ولا ينقص من حبنا لك ..

فهمي ـ (وهو يغالب نفسه من التأثر) يا فهمي .. أنت لاتعرف أن كل كلمة تقولها الآن ، تؤثر في نفسي أشد التأثير .. منذ دقائق كان ضابط البوليس ، ونحن لانعرفه ، يقول لنا كلاما مشجعا ، والآن أنت تعيد لي ذكريات صبانا .. ذكريات أكثر من عشرين سنة مضت في وقت تشتد فيه علينا الضربات ونفلس ، ونطارد من الدائنين ومن الحكومة .. ان هذه الكلمات كجرعات من دواء مقو لانسان في أشد الحاجة الى مايقويه ويثبته ..

وكيل النيابة ـ ان واجبي الرسمي الذي أحترمه واقدره والتزم حدوده يمنعني من أن أخاطبك بوصفك السياسي ،

ولا ان اثنى علي العمل الذى تقوم به ، والذى يعرضك الى الاتهام والمحاكمة . ولكن باعتبارى الشخصى ، باعتبارى زميل صباك ، واخا من اخوانك ، اسمح لى أن اهنئك ، اسمح لى أن اقول لك اننا فخورون بالجهاد الجاد الوقور الذى تقوده ، وتتحمل متاعبه ، وتدفع ضرائبه ..

فهمى ـ (يمد يده اليه ويصافحه بحرارة) اشـكرك .. اشكرك .. انك لاتدرى ماذا تفعل ، وأنت تقول هذا الكلام . انك كمن يدفع الى فقير مفلس يائس من العثور علىعشاء يومه كيسا من الذهب ..!

وكيل النيابة ـ (وهو يبتسم) لاتبالغ .. لاتبالغ .. هـذا كلام الادباء ..

فهمى ـ بل كلام الذين يحتاجون الى العون .. ويتلهفون على كلمة تشجيع مخلصة ..

(يدخل الكاتب وفى يده المحضر)

الكاتب ـ ترى سعادتك أن يوقع الاستاذ على كل دفترمعنا

وكيل النيابة ـ سأوقع أنا على الدفاتر

(الكاتب يحضر لوكيل النيابة الدفاتر فيوقع عليها واحدا بعد واحد)

وكيل النيابة ـ الآن تنصرف .. واذا احتجنا اليكسنطلبك باشارة تليفونية ..

(للاستاذ شكرى) أما الاستاذ شكرى فلم نر داعيا لسؤانه ، ويعاد الى السجن (للضابط) اسمع ياحضرة الضابط .. لاداعى «للكلبشات» ..

الضابط ـ حاضر يا افندم

(شكرى يتقدم من فهمى ويصافحه ، ثم يصافح الجميع ، حتى يصل الى مراد)

مراد ـ (يعانقه) تفاءل ٠٠ لاتفقد شيئا من تفاؤلك أرجوك
(يضج الجميع بالضحك)
رشاد ـ نحن متفائلون
شكرى ـ (مداعبا) لأن من يعمل للحرية
مراد ـ أو يعمل ضدها ٠٠
الجميع ـ فهو يعمل لها ٠٠ (يضحكون)
(يخرج وكيل النيابة ووراءه شكرى ومن خلفه الضابط ، وكاتب التحقيق ثم البوليسيان الملكيان)
فهمى ـ (عائدا الى الحجرة) كنت أظن أننى أستطيع أن آخذ اجازة ، كنت أتوقع أن يسألونى عن مقال الثورة ٠٠ ولكن ليس لى فى الراحة نصيب
(يصل الى مكتبه فى الحجرة ، فيجلس وراء المكتب)
فهمى ـ الآن يا اخوانى تستطيعون أن تنصرفوا ٠ دعونى وحدى قليلا أرتب أوراقى وأنصرف على مهل ٠٠ وأنت يارشاد، مر على فى الصباح مبكرا ٠٠ ومراد يسافر الى الاسكندرية ليسأل عن زملائنا هناك
مراد ـ فى الفجر سأسافر ، وسأعود فى المساء
فهمى ـ شكرا ٠٠
(يبدأ الجميع فى لبس ستراتهم ، وفى جمع أوراقهم ، ويخرجون الواحد فى اثر صاحبه)
فهمى ـ عم ادريس (يصفق)
ادريس الفراش ـ نعم !
فهمى ـ وأنت أيضا دعنى ٠٠ أريد أن أبقى بمفردى قليلا ٠٠ اقفل الباب خلفك وانصرف ٠
ادريس ـ حاضر يا افندم ٠٠ (ينصرف)
فهمى يسند رأسه الى المكتب ، ويحيطه بذراعيه ٠٠ وينقضى بعض الوقت)

فهمي ـ (يرفع رأسه محدثا نفسه) يارب ٠٠ أنا فى أشد الحاجة الى الايمان والثقة ، فان المتاعب التي تحيط بنا أكبرمنا بكثير ٠٠ لاقبل لنا بها ٠٠ كيف نستمر ؟٠٠

هذا هو السؤال الذى يتردد فى صدرى ، وأكتمه عن الجميع لأنهم لن يعرفوا كيف يجيبون عليه ، ومع ذلك فان مجرد سماعهم له سيزلزلهم ٠٠

(يدق جرس الباب)

فهمي ـ (لنفسه) من يكون الطارق ؟٠٠ لن أفتح فان هذه الخلوة لازمة لى

(يشتد دق الجرس)

فهمي ـ أيكون البوليس ثانية (يقوم ويفتح شرآعة الباب ٠٠ ويهتف) أنت ٠٠؟!٠٠ أية عناية من السماء بعثت بك فى هذا الوقت ؟

(يفتح الباب ، وتدخل ثريا وهى تحمل فى يدها لفافة من ورق فاخر)

فهمي ـ أهلا !٠٠ (ويمسك يديها بيديه ويقف متأملا فى وجهها) كم كنت فى حاجة اليك ٠٠

(يحنى رأسه ويسندها الى ظهر يده)

كنت متعبا ٠٠ شاعرا بأنى رجل مضيع ٠٠

(ثريا ـ تضع ذراعها حول كتفه وتقوده الى حجرته)

ثريا ـ (فى صوت تتكلف فيه حتى يشبه صوت أم تدلل طفلها) وماذا أيضا ؟

فهمي ـ وماذا أيضا ؟ الا أن تهبطى على ، كما تهبط رحمة الله على عباده الاشقياء ٠٠

ثريا ـ أيها الشاعر !٠٠ أيها الاديب الحالم !

فهمي ـ لم يعد فى حياتى مكان للشعر ، ولا للادب ولا للاحلام ٠ أنا أعيش بين حساب المطبعة ، وطلبات التحرير ،

ومشـكلات الورق ، وتحقيقـات النيابة ، وطلبات البوليس والرقابة ٠٠ومراقبة التليفونومراقبة البريد ومراقبة شخصى فى كل مكان !

ثريا ـ ومع ذلك ، فان ما تكتبه وما تقوله للناس ليس آلا شعرا ينسيهم حاضرهم ، ويحملهم على أجنحة ألفاظك الجميلة، الى مستقبل بهيج أخاذ ٠٠!

فهمى ـ (يمسك بيدها ويقبلها) ما أشد حاجتى الى هـذا الكلام !

ثريا ـ وهل تشك فى أنه دائمـا فى قلبى ، وان لم يكن دائما على لسانى ؟

فهمى ـ فى بعض الاحيان أحب أن أمسـك ذراعى بيدى ، لأتأكد من وجودى ٠٠ اما لفرط السعادة ، واما لفرط الاسى ٠٠ فأنا معك أشعر بأننى منتصر ، وأن أعدائى جميعا سلموا، وفروا ٠٠ وأنا وحدى فى أحيان كثيرة أتساءل ، لماذا وضعت نفسى على رأس هذا الطريق ؟٠ لماذا سلكت هذا الدرب ؟

ثريا ـ وكيف تجيب على نفسك حينماتسألها هذا السؤال؟

فهمى ـ اذا أردتالحقيقة ، أنا لا أجدجوابا ، الا اذا تذكرتك وتذكرت ما يفيض به وجهك من الايمان بى ، وبرسالتى ٠٠ ٠٠ وعندها أخجل من نفسى ٠٠ أخجـل من أن أخيب رجاءك ٠٠ فأواصل السعى ، وأحتمل ، وأصبر ٠٠!

ثريا ـ ما أبرعك!٠ ما أبرعك فىقلب الحقائق ! فأنا أستمد الايمان بك منك ٠٠ وانى لا أكاد أتصور كيف تصبح حياتى من غير هذا الامل الذى ينبعث منك !

فهمى ـ أخشى أن يكون ايمانى قد نفد ٠٠ أخشى أن أكون غير لائق بهـذا العمل الكبير ٠٠ أنا أصـغر منه ٠٠ يجب ألا أخـدع الذين حولى ٠٠ يجب أن أخـلى الطريق لمن هم أقوى وأفضل ٠٠

ثريا ـ يأبى الله •• يأبى الله !•• ان هذا كفر ••! ان هذا تجديف !

فهمي ـ كفر بنفسى ، ومن حقى أن أكفر بشخصى ، بقوتى، بقدرتى !

ثريا ـ لا •• انه كفر بالله •• وكفر بالرسالة التى تدافع عنها ••!

فهمي ـ لا تصعبى الامر على •• لاتضيقى الخنـــاق •• لا تخاطبينى كرسول ••

ثريا ـ (تضع يدها على مؤخر رأســه ، فى حنــو ظاهر) يا صديقى العزيز !•• ما أعظمك !

فهمي ـ ثريا •• ثريا يا حبيبتى ، لاتخدعينى عن حقيقــة نفسى

ثريا ـ (تقبل جبينه) لاتصدق وساوس الشيطان ، ان العظماء وحــدهم ، والمؤمنين وحــدهم ، هم الذين يطوف بهم طائف الشك •• أما الطامعون فى جاه الدنيا ، والراغبون فى سلطانها ، والمتكالبون على متعها ، هم وحدهم الذين لايجدون مكانا فى حياتهم لصيحات الضمير •• انك تئن من فرط ثقل ايمانك على جسمك ، وعلى نفسك ! لكن يجب أن تثبت ••

فهمى ـ ان ما تقولين حق •• ولكنه حق مرير •• يجب أن أثبت • هذه وظيفتى •• هذا عملى •• يجب أن أباشره ، لأن أحدا من الذين حولى لن يسمح لنفسه أن يسمع كلمة تخالفه••!

ثريا ـ لا فرار••

فهمى ـ نعم لا فرار ••

(ينظر فجأة الى اللفافة التى تحملها بين يديها)

فهمى ـ ما هذا ؟ أفستان جديد ؟!

ثريا ـ نعم فستان •• تعال نلق عليه نظرة ••

(تفتح الورقة)

فهمي ـ (يصرخ ضـاحكا) يا له من فستان !٠٠ فستان « ضانى » وريحته فايحه ٠٠

ثريا ـ ما رأيك فى هذه المفاجأة ؟٠

فهمي ـ لذيذة ٠٠ لذيذة جداً (يأخذ من الورقة قطعـة من اللحم المشوى ٠٠ ويقطع من الرغيف قطعة كبيرة ، ويملأ فمه بالاكل)

ثريا ـ يجب أن تغذى الحركة ٠٠! (تضحك)

فهمي ـ وأى غذاء ؟ ان رائحة اللحم سـتوقظ عم ادريس من حجرته فوق السـطح ! ليته كان هنـا ! وليت الزملاء لم ينصرفوا (يأخذ قطعة من اللحمويعطيها لزوجته) انابتكارآتك لاتنتهى ٠٠ من الذى أوحى اليك بهذه الفكرة ؟

ثريا ـ محاولاتك غير الناجحة فى اخفاء الحقيقة عنى٠٠!

فهمي ـ أية حقيقة ؟

ثريا ـ انك تحاول أن تنكر أنك منذ الصباح لم تأكل ٠٠ ٠٠ القروش التى كانت فى جيبك أعطيتها للفراش وللبواب، ليأكلوا ، وبقيت أنت متظاهرا بأنك ملأت بطنـك مأكولات فاخرة ٠٠! لماذا تتلذذ بتعذيب نفسك ؟ لماذا تتمتع بالحرمان ٠٠ وحدك ؟

فهمي ـ (يضحك والاكل ملء فمه) لطيفة هذه الفكرة!٠٠ سأمتعكم جميعا بالحرمان معى !

ثريا ـ ومتعة الوقوف معك،فى ظل مبدأ عظيم ٠٠ متعة ٠ أننى فى كل مكان يشار الى ، لأنى زوجة رجـل عظيم وهب نفسه لبلاده ٠٠ متعة أننى أناولك من حين الى حين قطعة من الطوب ، لتضعها فى البناء الشاهق الذى تبنيه٠٠أنتلاتعرف أننى أحبك !

فهمي ـ (يقترب منها ، ويضع يده على كتفهـا ، ويجلسا سويا على كنبة بالمـكتب على يمينه بالنسبة للنظارة) ٠٠ ان

الذى يقلقنى ويعذبنى ، أنى أعلم أنك تحبيننى ولا أستطيع أن أرد على هذا الحب ، الا بمتاعب وآلام ومخاوف ·· حبس بعد اعتقال ·· واعتقال بعد حبس ·· ومصـــادرة بعد حجز على منقولاتنا ، وحكم بالبيع بعد فترات طويلة من الترقب والخوف

ثريا ـ ومع ذلك ، فانها حياة لذيذة ·· انى أذكر يوم أن كنا اثنين لا عمل لهما الا أن أصرخ فى وجهك ، والا أن تتغاضى عنى، وتشيح بوجهك ·· لقد كنت تكرهنى !

فهمى ـ كنت أكره نفسى ··!

ثريا ـ ان دين الدكتور فى أعناقنا لا ينتهى ··!

فهمى ـ انه رجل عظيم

ثريا ـ لست أنسى يوم أن قال لك يجب أن تقف على قدميك ·· وأن تقاتل ·· وأذكرك يومها ، لقد أرخيت ذراعيــك الى جانبيك وقلت مستحيــل ··· مستحيل ! ولكنه كان يعرف مواهبك التى ينطوى عليها صدرك ·· قال لك انك أقوى من ثريا ، انك استوليت عليها بقوتك ·· ووقفت على قدميك ، وبدأت تقاتل ، بدأ صراعك ضعيفا ، كأنما تجرب قدميك فى أرض لاتعرفهــا ، ثم ثبت على الطريق ، وعرف الناس فيــك مقاتلا لا يضعف ··· وانتصرت ، وتوالت انتصـــاراتك ·· والتف الناس حولك ، وارتفع صــوتك ·· ونفـذ الى القلوب نداؤك ··

(تقف) ·· والآن أنت للناس أمـل وأنت للناس بشـير بمستقبل عظيم !

ستار

الفصل الرابع

المشهد الاول

(مائدة طعام ، من طراز « ستيل » من خشب الارو ، تتكون من مائدة واثنى عشر مقعدا . وفى اليمين بوفيه ــ تفتح الحجرة على شرفة فسيحة ، تبدو من ورائها اشجار حديقة تطل عليها الشرفة ــ ويفصل بين الحجرة والشرفة باب زجاجى ضخم ، ذو ضلفات متعددة

ثريا تبدو اكبر سنا ، مع بعض الشعر الابيض يتخلل وسط راسها وان كانت محتفظة بجمالها ، ترتدى ثوبا ازرق ، وعند رفع الستار ، تشاهد وهى تنظم بعض الزهور فى آنية موضوعة على منضدة صغيرة ، عليها عدد من الاوانى المعدة لوضع الزهور بها ، والزهور ملقاة على المنضدة ..

ادريس يلبس قفطانا ابيض ، ويلف حول وسطه حزام اخضر ، ويشتغل فى جانب من البوفيه بوضع واعداد شطائر فى اطباق متعددة

ثريا تردد فى صوت خافت ، انغاما ، وهى تنسق الزهور فى الآنية

ثريا ــ عم ادريس ! ناولنى هذا المقص !

ادريس ــ افندم !

ثريا ــ المقص عندك على طرف المائدة .. (تشير باصبعها) هنا .. تمام

ادريس ــ يتجه ناحية المقص باحثا عنه ..

ثريا ــ هنا .. الم تره ؟

ادريس ــ لا .. لا .. وجدته (يقدمه لها)

ثريا ــ (تمسك بالمقص فى يدها وتلتفت نحو ادريس ، وتطيل النظر فيه) عم ادريس !

ادريس ــ (بأدب) نعم !

ثريا ــ كم أنت جميل فى هذا القفطان !

ادريس ــ كله من خيركم

ثريا ــ (تجلس على المقعد المجاور للمنضدة ، وفى يدها بعض فروع الزهر الذى كانت تنسقه ، وتضـــع ســاقا على ساق ، وتسند ذراعهــا الى ركبة الساق العليا منهمــا) أنت لا تعرف كم انا سعيدة اليوم ؟

ادريس ــ الله يسعدك ويسعد الدكتور ..

ثريا ــ الله يسعدنا جميعا ..

ادريس ــ جميعا باذن الله ..

ثريا ــ هل تعرف ياعم ادريس لماذا انا سعيدة ؟ لماذا انا سعيدة بفهمى ، وبنفسى ، وبك ، وبكل ما حولنا .. ؟

ادريس ــ السبب ظاهر .. نجاحنا ، وانتصارنا

ثريا ــ أبدا ..

ادريس ــ (يصمت مفكرا)

ثريا ــ لا تتعب نفسك ياعم ادريس فى يوم عيد .. انا أذكر السبب . لقد انتصرنا

ادريس ــ الحمد لله !

ثريا ــ (مكملة) انتصرنا ، ولكن بدون خسائر ..

ادريس ــ خسائر ؟! كيف يا هانم ؟ المرحوم مصطفى ضربوه بالرصاص ومات شاب .. وكمال اغتالوه

ثريا ــ (مسترسلة) مصطفى ضربوه ، وكمال اغتالوه وفوزى حكم عليه بالاشغال الشاقة ، وكثيرون سجنوا ، ورفتوا ، وطردوا من وظائفهم ، وبارت تجارتهم ، ولكن ليست هذه خسارة ، هذه مكاسب .. هذه انتصارات .. يجب ان أقول يا عم ادريس ، ان الحياة الحلوة ، الخالية من المتاعب ، البعيدة عن الآلام ، ليست حياة انسانية ، وهى لا وجود لها .. هى خيال مريض . والسعداء الذين لا يجدون فى حياتهم الا آمالا تتحقق ، ورضاء من كل الناس ، ومن أنفسهم ، يســأمون

السعادة ، ويضيقون بها ، الحياة السعيدة يا عم ادريس ، هى الحياة التى يجد الانسان فيها شيئا يتعب من أجله وبسببه ، ويجد فى التعب سرورا وارتياحا ونشاطا ..

ادريس ــ والله صحيح .. !

ثريا ــ الام التى يوقظها ابنها من أعذب الاحلام ، لترضعه ثديها ، قد تشكو ، ولكنها سعيدة فى أعماق نفسها ، سعيدة بكل كيانها بهذا التعب ..

ادريس ــ (فى مرارة) ارادة الحكيم العليم

ثريا ــ لا تظن يا عم ادريس اننى تعيسة لاننى حرمت الاطفال .. كان ذلك فى أول حياتى .. كنت كالنمرة المفترسة، أبحث عن شىء انشب فيه أظافرى ، لانها كانت حياة خالية من أى غرض . كنت كالبهيمة التى تأكل وتنام ، ولا تعمل شيئا .. أما الآن فالجريدة جريدتنا ، ابنتى ، والمحررون والموظفون جميعا أولادى .. حتى أنت يا عم ادريس .. !

ادريس ــ (يطرق خجلا ، ويمسك بشاربه) الحمد لله على حسن الختام !

ثريا ــ لاتغضب منى ، فأنا أعرف قدرك ، وأحترم سنك .. ولكن أنا اليوم فى عيد ، ولابد أن أطلعك على احساساتى كلها .. أتذكر يوم أن نقلوك الى مستشفى الحميات ، لما مرضت بالتيفود ؟

ادريس ــ الله لا يرجعه يوم !

ثريا ــ لقد بكيت يومها ، وفى الليل ، لاحظت أن فهمى يتقلب فى فراشه ، ولا يجد سبيلا الى النوم .. ظننت أن هناك متاعب سياسية أو مالية جديدة .. فسألت ما الخبر ؟

فقال : عم ادريس .. يا ثريا !

ادريس ــ (متأثرا ، موشكا أن يبكى) جميلكم على راسى .. جميلكم على راسى طول العمر ..

ثريا ــ (تمسح دمعة فوق خدها ، وتقوم وفى يدها فروع الزهر ، وتتجه نحو حافة المائدة ، وتواجه الجمهور ، وتبسط ذراعيها ، وتقول) هذا عيد .. عيد بحق .. لقد انتصرنا بدون خسائر .. لم يقع فى الطريق واحد منا .. لم يكن فى صفوفنا خائن واحد .. ولم يتول أحدنا الفزع ، ولم يركبنا الغرور ، ولا الطمع ..! كنـا أسرة ، ولما كبرنا ، أصبحنا أسرة أكبر وازددنا حبا بعضنا لبعض .. لم نكن أبدا حزبا .. !

ادريس ــ والله كلامك صحيح ..

ثريا ــ اسمع يا عم ادريس. لابد أنك تعرف أن دورك معنا كان عظيما . أنا لا أنسى ، وفهمى مثلى لا ينسى ، ان البوليس حاول معك الكثير .. حاولوا أن يشتروك ، وأن يجعلوا منك عينا تنقل لهم أخبارنا . فرفضت ، حاولوا أن يجعلوك فى قضايا الاغتيال ، وقضايا الوثائق التى كانوا يزورونها علينا ، شاهد ملك .. أموال كـثيرة .. كثيرة جدا ، عرضـوها عليـك ، ورفضتها ..

ادريس ــ (محاولا منعها من الكلام) يا ست هانم .. عيب ، عيب أنا منكم .. أنا خدامكم ، لحمى من خيركم . وعملكم وتعبكم لبلدى ولولدى ، ولشرفى ولعرضى ..

ثريا ــ (منفعلة ومتدفقة) أنت رجل عظيم يا عم ادريس . ومن حقك أن تضع رأسك بجانب رأس أكبر رجل فى الحركة تماما كفهمى وكشكرى وكرشاد وكفؤاد ..

ادريس ــ العفو .. العفو .. أنا شخص منكسر ، وبسيط

ثريا (هائجة) اياك أن تقول هذه الكلمة مرة أخرى ، منكسر وبسيط .. بسيط أقبلها لاننا جميعا بسطاء ، ولكن أن تقول منكسر ، فهذا هو المنكر الذى قامت حركتنا لتقاومه وتقضى عليه ، هذه الذلة المهينة ، هذا الاستسلام للاقوياء ، للاغنياء ، لذوى السلطان ، هو سر البلاء وسبب المصائب

المشهد الثانى

يدخل فهمى . يبدو عليه أنه متعب ـ يظهر فى شعره كثير من الشيب ـ مع ترهل قليل

فهمى ــ ثريا .. وعم ادريس . كالعادة ، لا يجتمعان الا وقام « محدث » جامد .. ماهذا الانفعال ؟ أكنت تخطبين فى حفلة انتخابية ؟

ثريا ــ (تسرع اليه وتمسك يديه بيديها ، بعد أن تلقى الزهور على مائدة الطعام) مبروك .. مبروك يا فهمى ، نحن اليوم فى عيد .. !

فهمى ــ (فاترا) مبروك .. صحيح نحن فى عيد ؟ (بلهجة التساؤل الخفيف)

ثريا ــ (مصدومة ومأخوذة) هل تسأل . أم توافق ؟

فهمى ــ أسأل طبعا

ثريا ــ (محتجة) تسأل ؟ الا تعلم أننا نحتفل بعيد ميلاد صحيفتنا الخامس عشر ؟

فهمى ــ (يجلس فى اعياء ويقول لادريس) عبد الباسط يرتب المقاعد فى الحديقة ، أرجوك أن تساعده ، فلم يبق وقت كثير على مجيء اخواننا

لا يكاد ادريس ينصرف حتى يبدأ فهمى فى الكلام

فهمى ــ ثريا .. أنا حزين ! صدرى منقبض ! لا أكاد أطيق هذه السخافة التى نشغل أنفسنا بها

ثريا ــ (يمتقع وجهها ، وأعواد الزهر التى كانت قد عادت

فأخــذتها من المـائدة تسترخى الى جانبهــا) تقول انك حزين ومنقبض الصدر . ماهذا النبأ الفاجع . . فى يوم عيدنا ؟

فهمى ــ (فى صوت أكثر خفوتا ، وراسه تكاد تنحنى على صدره) اى عيد ؟

ثريا ــ (تتجه نحوه وتضع يدها فوق جبهته وتمسك يديه بين يديها) هل أنت مريض ؟ هل تشكو شيئا ؟

فهمى ــ (يدفعهــا بيده بخفة لتجلس ، ويستمر صوته خافتا) ليتنى كنت مريضا ؟

ثريا ــ (تجلس مشدودة القامة ، ووجهها لا يزال ممتقعا) هل تود أن تقتلنى ؟ أفى الساعة التى ارتفع فيها الى قمة السرور ، تريد أن تقذف بى الى أعماق خيبة الامل . . بلا مبرر . . ولا مقدمات ؟!

فهمى ــ المبررات أكثر من أن تعد . . والمقدمات كانت تتوالى أمام أعيننا ، ولكننا كنا كثور معصوب العينين ، يدور ويلف ولا يرى شيئا . . ولو رفع القناع عن عينيه لتوقف وأصيب بالدوار

ثريا ــ ما هذه المعميات ؟ ما هذه الاحاجى والالغاز ؟

فهمى ــ لقد انتهت أعيادنا . . لقد انتصرنا . . لقد اصبحنا من ذوى النفوذ فى البلد . أصبحت جريدتنا أكثر الجرائد رواجا . . بطاقة من أى منا يحسب لها حساب . . خصومنا يرحبون بها ، ليخففوا مافى نفوسنا عليهم من موجدة وبغض . . . وأنصارنا يودون أن يجيبوا سؤلنا ، ويحققوا رغائبنا . والمتجرون والمرتزقون ، والمضاربون فى حلبات السياسة ينظرون دائما الى المستقبل . .

ثريا ــ أنت مريض . . أنت تهذى (تعود اليه وتحاول الجلوس على مسند المقعد الذى يجلس عليه . . . ويسند رأسه اليها)

فهمى ــ انا آسف .. آسف لانى أصدمك فى يوم فرحك .. أنت التى اقترحت اقامة هذا الاجتماع .. اقترحت ان نجتمع فى بيتنـــا . وأن نقضى بعض الوقت فى اســتجمام وترويح عن النفس .. لقد رتبت كل شىء .. اشتريت الزهور ، اخترت أنواع الاطعمة .. دعوت الاوركسترا الذى يعزف لنا .. بطاقات الدعوة كتبتها بيدك الجميلة (يمسك يدها ويقبلها)

ثريا ــ ماذا وراء هذا كله ؟ هل مات احد ؟ هل قبض على احد ؟ أوقعت فضيحة مفاجئة ؟ هل اكتشفت مؤامرة ؟

فهمى ــ المؤامرة قديمة ، أراها تتجمع ، وتنضج كل يوم ، بل كل ساعة

ثريا ــ (تبتعد عنه فجأة وتقف أمامه) أنت تخيفنى .. ! اتقول مؤامرة ؟

فهمى ــ لا تنزعجى ، نعم مؤامرة .. لقد كنت دائما مصدر ايمان لى ، ومبعث ثقة فى الظروف الحالكة ، فما الذى حدث ؟

ثريا ــ لم أسمع يا فهمى شيئا من هذا القبيل طوال حياتنا. كنت أتلقى أنباء متاعب وآلام .. كوارث سياسية ، ومصائب مالية .. ولكن لم أرك ابدا تتكلم بهذا الصوت الحزين ، وهذا الاستسلام اليائس ..

فهمى ــ يا عزيزتى أنت محقة ، فكل الذى مر بنا كان جزءا من كفاحنا . كنا نستعد له ، ونواجهه . بل كنا نتوقعه ونرحب به .. لانه ما من شر نزل بنا الا وكان يحمل لنا فى طياته خيرا .. الا هذا الذى نواجهه الآن ..

ثريا ــ (متوسلة ، وتكاد تبكى) أرجوك ! ... أرجوك ... دع هذه الالغاز .. قل لى بصراحة ، ماذا هنالك ؟ أخيانة ؟ ..

فهمى ــ نعم .. خيانة . خيانة عظمى

ثريا ــ (تكاد تصرخ) خيانة .. (تضع يدها فوق فمها) من هذا الخائن ؟

فهمى ــ أنت . .

ثريا ــ (مقاطعة) أنا . . أنا . . أنا

ثريا ــ (تندفع نحوه ، وتقف أمامه) هل جننت ؟

فهمى ــ أنا فى تمام عقلى ... أنت ، ولكن الذى يخفف المسئولية أننا جميعا شركاؤك . . أنا وشكرى ومراد ، ورشاد ، وفؤاد . . !

ثريا ــ (تجلس على مسند المقعد ، وتأخذ رأسه بين ذراعيها) يا حبيبى . . ! أنت مريض . . !

فهمى ــ (يخلص رأسه من ذراعيها ، ويقف . . ثم يروح جيئة وذهابا ، مطرقا لا يتكلم ، وهى تتابعه فى صمت ، ولا يسمع فى هذه اللحظة الا وقع أقدامه تدق ارض المسرح دقا منتظما ، ثم يتوقف فى منتصف المسرح ، ويتكلم فى صوت اعلى)

ــ انه النجاح . . ! ألد أعدائنا ! لقد انتصرنا ، فزال هذا الاكسير البديع . . الاكسير الذى كان يجمعنا . . الخوف ، الخوف من الفشل . الخوف من الاعداء . الامل فى الانتصار كنا نضحى لان التضحية فى ذلك الحين ، كانت الميدان الوحيد المفتوح لنا . لم يكن أمامنا سوى أحد أمرين . اما التضحية ، واما الخيانة ، ولم يكن من السهل على أحد منا أن يخون . . فكنا مضطرين لان نضحى . . كنا فى طريق طويل ، ضيق ، الزمنا عدم اتساعه ، أن نقف الواحد وراء الآخر ، فى مثل صفوف الجيش . . لم يكن فى وسع الواحد منا أن يرجع الا اذا داس على جثث اخوانه . .

ثريا ــ يا حبيبى ، أنت واهم . عاودتك أوهام الماضى ، ووساوسه ، عاودك الحنين الى الانكماش والعزلة

فهمى ــ كنت اتوقع انك ستقولين هذا ... ومع ذلك فمن يدرى ربما كان ما تقولينه صحيحا . . ان الاخلاق التى

اشتريناها ، استطاعت أن تعمل بجد ، ومثابرة ، وبلا راحة ، اكثر من خمسة عشر عاما وما من جهاز يباع ويشترى الا ويبلى ، ويستهلك . فلا بد لنا أن نطلب من الدكتور ترميمها أو استبدال غيرها بها ..

ثريا ـ (تجلس وقد وضعت يديها فى حجرها كأنما هى مذهولة) شيئا من الشفقة .. ان المجال لا يتسع لمزج المزاح بالجد ..

فهمى ـ (يتجه نحوها ، ويضع يده فوق كتفها) انه جد .. جد خالص .. جد مرير .. !

ثريا ـ أنا لا أعى شيئا .. انا لا أرى شيئا .. !

(فهمى يضع يده فى جيبه ، ويخرج بضعة خطابات ويسلمها لثريا ، الواحد بعد الآخر)

فهمى ـ خذى يا سيدتى .. خطابات اعتذار عن حضور الحفلة .. اعتذارات رسمية .. هذا من عبد الرحمن ، وآخر من سمير .. وثالث من رياض .. اعتذارات رسمية ، كأننا لا نعرف بعضنا بعضا . وكأنهم ليسوا جزءا منى ... ليسوا اخوانى .. كأن هذه الحفلة ليست حفلتهم . وكأنك أنت لست أختهم ، وأمهم ..

ثريا ـ (تمسك الخطابات ولا تقرأها)

فهمى ـ اقراى .. اقراى .. لتفهمى ..

ثريا ـ (تقع الخطابات منها على الارض ، فينحنى فهمى لاخذها) ..

فهمى ـ انك لا تلاحظين شيئا ، أما أنا فقد كنت الاحظ الكثير وأسكت ، وأخفى عنك ما الاحظ ، لانى أعلم انك تودين ان يجتمع الكل الليلة مع زوجاتهم واخواتهم ، كنت أتصورك تستقبلينهم ، وتقبلين زوجاتهم ... كنت أسمع بأذن خيالى ضحكاتك الرنانة ..

ثريا ـ ولن يحدث شيء من هذا ؟

فهمي ـ سيحدث .. ولكنه لن يكون عيدا .. سيكون مأتما ، نضع فيه على جثة الميت ثوبا من القماش الزاهي ، لنرقص حوله ونغني !

ثريا ـ لماذا كل هذا ؟

فهمي ـ الادهى والامر ، ما نشر فى جريدة الوطن منذ يومين، ولم انتبه اليه .. (يخرج من جيبه قصاصة) ويقرأ : علمنا ان الدكتور عثمان درويش أحد أعضاء حزب الكفاح القومى ، قد تلقى دعوة من معالى وزير المالية لقضاء يومى الخميس والجمعة القادمين بمزارع معاليه بالصعيد وأن الدكتور قد قبل الدعوة وسيسافر مساء الاربعاء ، والمظنون أن السياسيين الكبيرين سيتناولان بعض الشئون التى تهم البلاد ، وتشغل بال افراد الامة هذه الايام ..

ثريا ـ (كمن يحاول أن يفهم شيئا لا يفهم)

فهمي ـ هل سمعت ؟

ثريا ـ (تهز راسها فى اسى عميق) ماذا كنت تقرأ ؟

فهمي ـ كلام مكتوب فى جريدة منذ يومين .. هل تعرفين شيئا عن هذه الاعمال الهامة التى تشغل بال الامة ؟ منذ متى كان عثمان يطيق ، أو يقبل ، مجرد فكرة رد التحية لهذا الطراز من الحكام ؟ .. ألم يكن نموذجيا .. مثاليا .. متطرفا ؟

ثريا ـ (منهارة) فهمى .. انا لا أفهم .. انا لا ابصر .. لا اسمع .. لا أحس ، ان الارض تميد تحت قدمى ..

فهمي ـ لا .. يجب أن تتشجعى !

ثريا ـ (ساخرة) اتشجع ؟ .. أتشجع من اجل اى غرض؟ كنا نتشجع فى الماضى لنهزم الشرور المحيطة بنا .. وببلدنا .. والآن اتشجع لنهزم من ؟ أنفسنا ؟ ..

فهمي ـ (يجلس على المقعد ، ويأخذ بدوره راس زوجته

الى صدره ويقبل جبينها ويقول) لقد قلتها .. لنهزم انفسنا !
ثريا ـ لا قدرة لى على ذلك .. لا رغبة لى فى القتال..
فهمى ـ (يضحك) اذن جاء دورى لارد لك الجميل .. !
ثريا ـ لا تمزح .. بربك .. لا تمزح !
فهمى ـ هل نسيت أنك قلت لى منذ خمسة عشر عاما ، فى عيادة الدكتور ، اننى يجب أن اقف وأقاتل .. ؟ هل نسيت اننى قلت يومها ، مستحيل . ؟ هل نسيت أنك لم توافقى على أن هناك مستحيلا ؟ والآن أنا أمد يدى نحوك ، وأقول لك قفى وانهضى .. !
ثريا ـ لم أقل لك يومها شيئا . قال لك ذلك الدكتور
فهمى ـ وانت قد أمنت على قوله ..
ثريا ـ كان ذلك من باب المشاركة .. مجرد مجاملة ..
فهمى ـ بل انت المسئولة عن سيرى فى هذا الطريق الطويل المحفوف بالمكاره .. لولاك ما بدأته .. ولو بدأته من غيرك لما سرت فيه .. أنت التى دفعتنى حتى هذا الموضوع من حياتنا .!
ثريا ـ حسنا .! ماذا تطلب منى ؟
فهمى ـ أن تقفى على قدميك ، وتقاومى .!
ثريا ـ أقاوم ؟! .. أقاوم نفسى .. ونفوس الآخرين ؟. كلام لا طعم له .. ولا معنى ..!
فهمى ـ ولكنه الكلام الذى يجب أن نعيه ، وان ننفذه ..
ثريا ـ يارب .. ما الذى حدث ؟
فهمى ـ حدث اننا بعد أن انتصرنا أصبح مطموعا فينا ، نستطيع أن نجازى ونثيب .. نمنع ونمنح .!
ثريا ـ هل النجاح خطيئة ؟
فهمى ـ اسمعى يا ثريا .. هل تذكرين الفاكهة التى نراها على شجرتها ؟

ثريا ـ نعم !

فهمى ـ نحن نرويها ونسقيها . نمدها بالسماد وبالعناية . . وفى كل يوم نمد يدنا نحوها فنجدها جافة صلبة ، لا تؤكل . . ثم تنضج ، فماذا يحدث ؟

ثريا ـ (لا تجيب)

فهمى ـ ارجوك أن تتابعيني . . حينما تنضج الثمرة ، تصبح اكثر استعدادا للعطب ، تسقط احيانا الى الارض من تلقاء نفسها ، وقد ندوسها بالاقدام دون أن ندرى ، مع أن عيوننا تعلقت بها شهورا متتابعة . . وقد تصيبها حموضة او عفونة !

ثريا ـ اذن ماذا كان يجب علينا أن نفعل . . أن نستمر فى كفاح ، كالحلقة ، لا نعرف له نهاية

فهمى ـ لا . . لقد نجحنا ، . . فكيف نحتمل متاعب النجاح؟

ثريا ـ اعذرنى ، أنا لا اعى شيئا . . !

فهمى ـ لقد كنا نضحى فى الماضى . . أما الآن فقد دخلنا فى دور توزيع الاسلاب .! الكثيرون منا لا يرون أنهم فىمكانهم اللائق بهم ! . . الكثيرون يشعرون أنهم اليوم بضاعه مطلوبة فىالسوق، يحسب لها حساب ، ويدفع فيها ثمن . مجرد يومين فى مزارع وزير الماليه يقضيهما عضو منا ، تشرف الوزير حقا ، وتمنع عنه أقاويل كثيرة ، وتخفف عنه حملات شديدة . . . لقد أبتعد عنى بعض زملائى ، لم أعد أراهم الا فى الاجتماعات الرسـمية . . وبعضهم يأتى ليقضى معى فى المكتب وقتا قصيرا ، يسـأل عن الاحوال وينصرف . ! لقد أصبحت أعيش فى ثلاجة . . !

ثريا ـ ماذا قررت أن تفعل ؟

فهمى ـ قررت أن أقف أمام هذا الانهيار ، اشد صلابة منى امام حملات الاعداء ودسائسهم . لقد افهمت الجميع اننى لن أساوم ، ولن أوزع أسلابا . . كل يجب أن يبقى فىمكانه سنتقدم

ونتأخر ، لا لارضاء الغاضب ، ولا لتقريب المبتعد ،ولا لاستدرار عطف المغاضب . . !

ثريا ــ هل تظن أن هذا هو الاسلوب الامثل ؟

فهمى ــ (فى حزم) انه الاسلوب الاوحد . .

ثريا ــ وماذا تتوقع . . ؟

فهمى ــ سيعود الجميع الى صوابهم . . طبعا لن يخلو الامر من بعض الخسائر . . . ولكن سيبقى جوهرنا سليما . . وبناؤنا متماسكا . . (يدخل عبد الباسط ، وهو « سفرجى » نوبى ، من الباب الاوسط)

عبد الباسط ــ كوثر هانم وعليه هانم شرفوا . . !

ثريا ــ حاضر . . أنا قادمة . . (ينصرف عبد الباسط)

ثريا ــ (تسأل فهمى) كيف سأقابل الناس ؟ كيف سأتكلم معهم ؟

فهمى ــ لا تنزعجى . . كل شىء سيسير على ما يرام . . ! يجب أن تبتسمى وتظهرى فى أحسن حالات السرور

ثريا ــ (تقف متثاقلة) الا تحضر . . ؟

فهمى ــ لا . . دعينى وحدى قليلا . . ابعثى لى مع ادريس شيئا مثلجا . . (ثريا تخرج . . وفهمى يضع يديه فى جيبى بنطلونه ، ويروح يذرع الحجرة ، مطرقا يفكر . . يدخل شكرى من باب الحجرة فى خطوات متثاقلة ، حتى يقترب من فهمى وفهمى لا يشعر بقدومه)

شكرى ــ أية أفكار هذه التى استولت عليك . . وفى يوم عيد؟

فهمى ــ (منتبها) شكرى !. . أهلا . . مرحبا. . (يتصافحان)

شكرى ــ هل يجوز أن تشوه يوم عيد بهذه الافكار ؟

فهمى ــ (متصنعا السرور) انها مجرد قلة ذوق . . !

شكرى ــ (ضـــــاحكا) لعل قلة الذوق اننى قطعت عليك افكارك ؟

فهمى ــ لقد رددتنى الى بهجة العيد . .! العيد . . (يتوقف وينظر الى شكرى) أليس كذلك ؟ أليس هو عيدا بحق ؟

شكرى ــ (متضاحكا) انت تسألنى ؟ عيد بحق . لماذا هذا السؤال ؟

فهمى ــ نعم انا أسألك ، لانى فى الحقيقة ، اسأل نفسى . .!

شكرى ــ ولماذا هذا السؤال ؟ غريبة (بشىء من الجفاف) غريبة حقا (أشد جفافا)

فهمى ــ ها أنتذا قد غضبت ! وهذا ما أريد أن أصل اليه . . اريد أن أصارحك بأنى لا اجد فى نفسى السرور الذى كنت اجده فى مثل هذا اليوم من السنوات الماضية

شكرى ــ (أشد جفافا) أنت فى هذه الايام مغرم بالتحقيق ، بالتحقيق فى الصغيره والكبيره . ما من حركة أو خطوه ، أو حتى اشارة ، الا وتسأل نفسك والناس والذين حولك ماذا يعنى ذلك؟ وماذا يقصد فلان من هذا ؟ . . انت تتعب نفسك .

فهمى ــ (مكملا أو مستدرجا) . . والناس . .!

شكرى ــ (مرحبا بالفرصه) ان أردت الحق والناس أيضا . . أنت تتعب الذين حولك بلا مقتض !

فهمى ــ (يدعو بحركة من يده الى الجلوس على كرسيين متجاورين) حسنا . . هانحن أولاء نقترب من الحقيقة شـــيئا فشيئا . . (يجلس فهمى ويبقى شكرى واقفا ونصف وجهه الايمن الى الجمهور)

شكرى ــ الحقيقة . . ؟ ما الذى تقصده ؟ انك فى حالةعجيبة ! انا لا افهمك

فهمى ــ (متجاهلا) اعذرنى . .! قد اكون فعلا فى حالة نفسية غير جيدة . . قد اكون مخطئا اذ اثير هذه المباحث المعتمة ، فى

مناسبة جميلة ، ولكن بما اننا بدانا فالخير أن نتم ما بدانا ..

شكرى ـ (يجلس ويضع ساقا على ساق ،ويخرج سيجارة ويشعلها ، ويلقى عود الثقاب بشىء من الضيق) .. نبدا ماذا ؟ ونتم اى شىء ؟

فهمي ـ هل تحس فعلا ياشكرى باننا فى عيد ؟ هل تحس بانك سعيد وفرح .. سعيد وفرح بهذه المناسبة ، وبأن ترانى وترى ثريا .. وترى الجميع ؟

شكرى ـ (وقد لوى شفتيه وتمهل فى الاجابة) ان اردت الحقيقة ..

فهمي ـ (مرحبا) نعم اريد الحقيقة

شكرى ـ بالعكس .. انا حضرت فقط لكيلا يتحدث الناس، لاسيما أن الاحاديث والاقاويل كثرت !

فهمي ـ دعك من الاحاديث والاقاويل ..!

شـــكرى ـ (محتجـــا فى تجهم) كيف أدعنى من الاحاديث والاقاويل .. ان الاكاذيب والتخرصات لاتهم ، أما الاحاديث التى تروى حقائق ووقائع ، فلا بد أن تهتم بها .. !

فهمي ـ ما هى هذه الحقائق والوقائع ؟

شكرى ـ (متحرشا) أرجوك الا تتجاهل ؟ هذا أمر لايطاق

فهمي ـ (أكثر برودا) أقسم لك أننى لا أتجاهل شيئا ، بل انى أريد أن أعرف كل شىء .. وأن نتكلم بصراحة ..!

شكرى ـ (يبتسم هازئا) بصراحة .. صراحة .. مامعنى هذه الكلمة ؟ على كل حال ليست الليلة هى الليلة المناسبة لمثل هذه الصراحة التى تطلبها

(يدخل ادريس ومعه كوب عصير مثلج ، ويضع الصينيةجانبا بعد أن يتناول فهمي الكوب ، ويسرع ادريس نحو شـــكرى ويصافحه)

ادريس ـ كل عام وانتم بخير .. كل عام وانتم فى أحسن حال ..!

شكرى ـ (يصافحه فى شىء من الاهتمام) متشـــكر .. متشكر ياعم ادريس ، كل سنة وانت طيب !

ادريس ـ ان شاء الله مجموعين كل سنة ، بخير وصحة ..

شكرى ـ (لايلتفت الى ادريس فينسحب هذا ومعـــه الصينية)

فهمى ـ أتشرب شيئا مثلجا ؟ .. ياعم ادريس .. عصير برتقال لشكرى

ادريس ـ (وهو عند الباب) حاضر ياسيدى !

شكرى ـ أنت تعرف أننى لا أحب اللف والدوران

فهمى ـ وهذه أكبر مزاياك ..!

شكرى ـ (منفعلا) أرجوك أن تكف عن الحديث عن المزايا والمواهب . لقد شبعت من هذا الكلام

فهمى ـ (هادئا) لقد أثقلت عليك بالحـــديث عن مزاياك ومواهبك !

شكرى ـ (محتدا) اسمع يا فهمى ! لا تجرب أساليبك البارعة ، أساليب كسب الناس فى .. أنت تعلم أننى لم أعد أطيقك .. اننى لم أعد أحبك ..

فهمى ـ (غير مندهش) انك أصبحت تكرهنى !

شكرى ـ اذا كان يسرك ان تعلم ذلك ، فلتعلم ان هــذا بالضبط شعورى نحوك .. نعم ، أنا أكرهك (يقف وهو منفعل) اكرهك .. اكرهك

فهمى ـ (فى مقعده لايتحرك ، وفى هدوء شديد) لاتصرخ ياشكرى .. فأنا أستطيع أن اسمعك !

شكرى ـ (وقد ابتدأ يبتعد عن المقعد ، ويتجه نحو الطرف

الآخر من المسرح ــ يتوقف وينظر الى فهمى) أنا أريد أن أصرخ لانى أريد أن أسمع نفسى .. أريد أن أسمع نفسى .. اريد ان اسمع اننى اكرهك .. اكرهك !

فهمى ــ ها أنذا قد سمعت .. وها أنتذا قد سمعت ايضا ..

شكرى ــ حسنا .. ماذا تريد ؟

فهمى ــ أريد (فى هدوء ، وقد بدأ يقوم من مقعده ، ويتحرك نحوه) أريد الكثير جدا .. فنحن عضوان فى حركة .. شريكان فى عمل .. والعمل لايخصك وحدك ، ولايخصنى وحدى فاذا كنا نكره بعضنا بعضا الى هذا الحد ، فلابد أن يعالج الامر !

شكرى ــ (واضعا يديه فى جيبى بنطلونه ، وهو يهزساقيه من شدة الانفعال) .. تفضل .. عالج ..

فهمى ــ وحدى .. لا أستطيع !

شكرى ــ (يأخذ مقعدا فى الطرف الذى انتهى اليه. ويجلس) ماذا تطلب منى ؟

(يدخل ادريس ومعه كوب عصير ــ لا يدخل مباشرة بل يقف على عتبة المدخل ، مما يشعر النظارة أنه سمع طرفا من الحديث ــ يقدم الى شكرى الكوب ، فيأخذه شكرى بلا اهتمام)

فهمى ــ اتركها للاستاذ شكرى

(ادريس يخرج ويبدو للمتفرجين أنه عند انصرافه وقف قريبا من الباب الموصل بين الحجرة والشرفة)

فهمى ــ أريد أن أعرف بالضبط منذ متى بدأت تكرهنى..

شكرى ــ هذه الامور لا تعرف بالايام والساعات .. المهم ان ما كنت أحمله لك من محبة واعجاب وثقة .. كله انتهى ..

فهمى ــ (هادئا كانما يناقش موضوعا علميا) حسنا ! هل تعرف ما الذى وقع منى ، ولم أكن أفعله من قبل ، فباعد بيننا

شكري ـ هذا هو الاسلوب الذى تخلب به الباب الناس والذى لم يعد ينطلى على هذا الهدوء المصطنع ،والترفع المتكلف عن كراهية الناس ، والرد على اتهاماتهم . ياسيدى فى كلمة واحدة ، لقد نذرت أن أقول الحق ، والا اكذب ، وقد كنت انت اكبر اكذوبة فى حياتى ، بل أكبر اكذوبة اشتركت مع غيرى فى صنعها وتقديمها الى الناس ..

فهمي ـ لاتتصور اننى سعيد اذ أسمع اننى أكذوبة من صنع اناس فى مقدمتهم واحد حسبته اقرب الناس الى ، واحبهم الى نفسى . لاتصدق ماتوهمك به كراهيتك لى ، اننى أضبط نفسى من الغضب . ولكن الحزن الذى يحيط بى ، لايدع لى مجالا للغضب . ولايليق معه ان يأخذ أحدنا بتلابيب الآخر.. ولكن الذى يشغلنى هو ما الذى انتويته لتحذر النـــاس من استمرارهم فى تصديق هذه الاكذوبة ..!

شكري ـ يكفى أن نتخلى نحن عنها حتى تفقأ ، كما يفقأ منطاد كبير ملىء بالهواء .. ان الناس ستجد يديها خلوا من كل شىء . ماذا صنعت للناس ؟ وبعبارة ادق،ماذا صنعنا لهم ؟ كلام ، كلام ، كلام . هذا ما أخذوه منا .. أنظر ماذا اخذنا نحن من الناس ، كنا مجهولين ، فأصبحنا مشهورين .. لاندخل مكانا حتى يشار الينا بالبنان.. ولا نحضر اجتماعا صغر أو كبر، الا وجرى المصورون من خلف ومن أمام . كنا فقراء فأثرينا ، كانت لنا وريقة نسميها زورا وبهتانا جريدة ، فأصبحت لنا جريدة ضخمة ، تطبع مئات الالوف من النسخ ..! ماذا جنى الشعب من هذا كله ؟ الانجليز لايزالون فى بلادنا ، الفســـاد والرشوة والاتجار بالنفوذ .. لايزال كل ذلك باسطا جناحيه على البلاد . ومع ذلك فأنت بطل مغـــوار .. ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ..

فهمي ـ ولكن فيم كان سكوتك هذه السنوات الطويلة على هذه الكذبة ، حتى كبرت واصـــبحت على هـــذا القدر من

الضخامة ؟ لماذا لم ينطلق صوت الحق الذى نطق الآن ، والذى يود أن يدوى دوى الرعود ، ليرفع عن أعين الناس هذه الغشاوة ؟

شكرى — كانت الاكذوبة ، ككل الاكاذيب ، عذبة ، ومغرية ، ولذلك كنا نخدع أنفسنا ، لنحافظ عليها ، ونطيل بقاءها ، كنا نقول أن فجيعة الناس ستكون أكبر من أن نعالج آثارها ، فيما لو كشف الناس حقيقتك ، وحقيقتنا ، فيما لو عرفوا أننا ككل حركة سياسية فى التاريخ . مجموعة من ذوى الاطماع ، المغامرين ، يجمعون حولهم مجموعة أكبر ممن سدت فى وجوههم أبواب الرزق .. محامون بلا قضايا وأطباء بلا مرضى ، وطلبة مدارس بلا دروس ولا كتب ، ولا أمل فى النجاح .. ثم مجموعة من الوعود والعبارات المختارة . والزعماء يتحدثون عن تضحية أتباعهم والاتباع يتحدثون عن مواهب زعمائهم . ويتم اخراج المسرحية على أحسن وجه ..

فهمى — ما الذى حدث حتى نزعت من قلبك الرحمة بالناس ، فجرؤت على احداث خيبة أمل لهم ؟

شكرى — لابد للضمير المضلل أو المخدر أن يتحرك يوما ما ، وقد اختار هذه الايام موعدا لتحركه

فهمى — وماذا نويت أن تفعل ؟

شكرى — أتخاف على مصيرك .. أتريد أن تعرف منى امسح هذه المساحيق التى صنعناها بأيدينا عن وجهك ؟

فهمى — أظن أن هذا أقل مايحق لى من حقوق .. لقد خلقتمونى من غير أن تستأذنونى ، فلا أقل من أن أعرف متى أنتهى ..

شكرى — (مقهقها) صورة لاتتناسب الا مع السخف الذى كنا نعيش فيه ، فممتع وفكه للغاية ، أن يتفق الجلاد والمحكوم عليه بالاعدام على ساعة التنفيذ ، وطريقته ، فى مودة وإخاء

فهمى — وهكذا .. أنت تعترف بنفسك ، انى أيسر لك مهمتك ، وأدعو لك بالتوفيق

شكري ـ (منفجرا) وهذا أسلوب آخر من أساليبك المفضلة، اسلوب انكار الذات ، والتسليم بالعجز، ورفض كل متع الحياة. وقد كنت أنا أحد ضحايا هذه الاساليب المتقنة ، كنت أتحدث عنك كواحد من الحواريين . ولكن كان كل هذا سذاجة منى ، وقلة تجربة . . والآن لم يعد لى مكان ، يا سيدى ، فى هذه الحفلة ، فدعنى أنصرف بهدوء ، لنحصر الفضيحة فى أضيق حدودها . .

(يهم شكرى بالانصراف)

فهمي ـ (يقوم ليستوقفه) قف . . تعال . . كيف نحصر الفضيحة فى أضيق نطاقها ؟

(يحاول شكرى الخروج ، فتتصدى له ثريا ـ التى ترى قادمة من الباب المؤدى الى الشرفة)

ثريا ـ الى أين أنت ذاهب ؟

شكرى ـ (يطرق ولايتكلم)

ثريا ـ ما الذى حدث ؟ لقد سمعت بأذنى ماقلته ، انى لم اصدق أن الصوت صوتك ، وأن الكلام كلامك (تجلس منهارة على اقرب مقعد ، وتنظر طويلا الى شكرى ، ثم تقف وتشير الى نقطة فى منتصف المسافة بين شكرى وزوجها) الكراهية. .! هل بلغ الامر أن نتحدث عن الكراهية ؟ ما الذى جد ؟. . ثم يحدث هذا ونحن نحتفل بهذا العيد ! يالها من سخرية عجيبة . . (تتجه الى زوجها ، وتوجه اليه الكلام) ما الذى حدث منك؟ اى سر دفين أخفيته عنى وعرفه شكرى ؟ (تنتقـــل بنظرها بينهما) لماذا هذا الصمت ؟ . .(تتجه الى مقعد وتجلس عليه)

فهمي ـ ما فائدة الكلام ؟ لقد انتهى كل شيء . . شـــكرى قد كشف اننى اكذوبة . . اكذوبة صنعتموها أنتم،وادخلتموها على الناس ، وهو يريد أن يصفى هذه الاكذوبة ، وأن يريح ضميره من وزر المثابرة على خداع الناس بها . .

(يقف ويتجه نحو ثريا) ماذا فى هذا ؟ انه أصغر وأبسط مما تتصورين ، فالوزر كما ترين ليس وزرى بل وزركم انتم ؟ انا لم اخطىء فى حق الناس، ولم اخدعهم ، ولم اضحك عليهم.. لم يكن حصول ذلك ممكنا لو تركت وحدى ، انما أنتم الذين منحتم الاكذوبة أثوابها الزاهية البراقة ، وأعطيتموها لسانا تتكلم به ، وتخلب الباب الناس ، وقدمين تسعى بهما وتتحرك عليهما .. بصوت مرتفع (ولقد أجدى هذا التعاون) واثمر ثمرته ، فأصبح لنا جماعة ، وجريدة ، وامتلأت جيوبنا بالذهب .. اشترينا المزارع والضياع .. و ..

ثريا ــ (تخفى وجهها بين يديها ، ثم ترفع وجهها ، وتجرى الدموع من عينيها منهمرة) مزارع ..! ضياع ..! أين هى ؟

فهمى ــ (ساخرا) هل تسألينني أنا؟ اسألى شكرى ياسيدتى، هو الذى يعرف حقائق حياتنا ..

ثريا ــ ما هذا الذى تقوله ياشكرى ؟! اجاد أنت ؟

فهمى ــ (أشد انفعالا) ثم ماذا نحن ؟ لسنا الا مجموعة من الفاشلين الطامعين ، متأسف ، لقد اخطأت ، مجموعة من ذوى المطامع والطموح ، جمعنا حولنا خليطا من الفاشلين والمرتزقة محامين بلا قضايا ولا مكاتب ، أطباء بلا عيادات ولا مرضى ، طلبه بلا دروس ولا كتب .. ومن الطموح والطمع والفشل والارتزاق ، تكونت جماعتنا .. ماذا أعطينا للناس ؟

شكرى ــ (متحديا) نعم ماذا أعطينا للناس ..؟

فهمى ــ (يسير على المسرح ، وهو يبسط ساقيه فى فى السير ، ويرفعهما الى أعلى قليلا ، علامة على الامتعاض وخيبة الامل) ماذا أعطينا الناس ؟ الانجليز فى بلادنا لم نلق بهم فى البحر بعد ، الفساد لا يزال هو هو .. كل الذى فعلناه أننا تكلمنا .. خطبنا وكتبنا .. لم نفعل شيئا يمسك باليد

ويرى بالعين ، لم نلق بالانجليز مثـــلا فى البحر ، لم نبن مستشفيات ولا مدارس

ثريا ــ (كأنما تهم بالصراخ) ــ لا .. لا .. شــكرى لا يمكن أن يقول ذلك

فهمى ــ (متجها نحوها ، بعد أن يملأ رئتيه بهواء كثير) لماذا لا يقول ذلك ، أليس هو الحقيقة المطلقة المجردة ؟

ثريا ــ (تجرى نحو شكرى) أحقيقة انت تقول ذلك ؟ احقيقة أنك تود أن تهيل التراب والعار على رأس شهدائنا الذين ماتوا ، وأبطالنا الذين لا يزالون فى الســجن ؟ ماذا سنقول للامهات والزوجات وقد ثكلن أو ترملن ، فقـدن الازواج أو ثكلن الاولاد ، وفلذات الاكباد ؟ لماذا كان أعداؤنا يخافون من كل كلمة نقولها ، اذا كان ما نعمله ليس سوى كلام فى الهواء !

فهمى ــ محال أن يرد للكذبة اعتبارها .. لقد كنــا نعيش فى الكذب ، ويجب أن نبدأ حياة جديدة فى النور ، فى الفضيلة .. كفانا دعارة سياسية ، وتجارة وطنية !

ثريا ــ (تنفجر صارخة) اسكت ! اسكت !

فهمى ــ هل يكفى وأنا رأس الاكذوبة .. أن انسحب انا .. اختفى ؟

شكرى ــ (بعد صمت طويل) تنســحب انت ! بعد أن جعلناك مقدسا ، وأصبح الناس لا يتصورون حياتهم بدونك، انهم سيتهموننا بأننا ارتكبنا فى حقهم جريمة ؟

ثريا ــ وهل كل الناس يضلون عن الحقيقة ؟

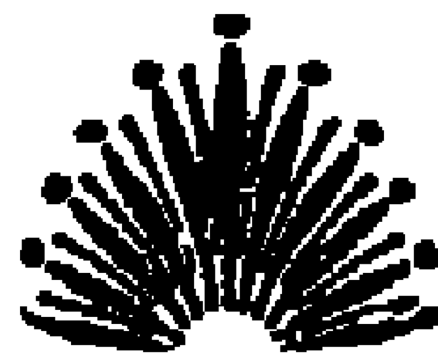
شكرى ــ أهى محاكمة ؟ هل انا احاكم الآن ، واسال عن رأى أبديته وأومن به ؟

فهمى ــ أبدا .. أنت تستطيع أن تقول الذى تريده ،

وتدعنا نتخبط فى الظلام .. لقد أرضيت ضميرك بكلمة ، وبعدك الطوفان

(يسمع من الخارج تصفيق)

ثريا ـ ما هذا ؟ (يستمر التصفيق ويشتد . يسمع هتاف) لقد حضر الدكتور (تنظر الى ساعة يدها) انها الآن الساعة الحادية عشرة ! لقد اتلفتم فرحة العيد



المشهد الثالث

يدخل الدكتور ، يبدو عليه التعب ، كما يبدو عليه تقدم السن ، ويبدو عليه ايضا الابتهاج والسرور
يدخل ومن ورائه عدد غير قليل من الرجال والسيدات بعضهم فى متوسط العمر ، والبعض الآخر من الشبان ، تلمح منهم رشاد ومراد والمعلم مدبولى موزع الصحف
مع الدكتور « شكيب » الذى عرفناه فى الفصل الاول ، وثريا نجرى نحوه

الدكتور ــ كل عام وانتم بخير ، كل عام وانتم بصحة !

ثريا ــ اهلا وسهلا .. كل سنة وانت طيب ، لقد تأخرت علينا كثيرا يادكتور ، الساعة الآن بعد الحادية عشرة

الدكتور ــ (يتجه نحو فهمى ويصافحه ويعانقه ، ثم نحو شكرى فيصافحه ويعانقه أيضا ، ثم يقف فى منتصف المسرح بينهما) ماذا هنالك ؟ (يتأمل فى وجهيهما) أنا لا افهمكما .. لماذا أنتما هنا ؟ ولماذا تقف ثريا هناك ؟ لماذا لا تجلسان فى « الفيراندا » أو فى كشك الحديقة ، الجو هناك ممتع ..نحن اليوم فى يولية ، وتاريخ اليوم ٢٢ يولية .. أليس كذلك ؟

(الرجال والسيدات وبقية المجموعة التى حضرت خلف الدكتور تصفق ، ويسمع من افرادها صيحات متفرقة)

ــ لقد تركونا وحدنا منذ جئنا

ــ نحن نحتج !

ــ كيف تعقد الاجتماعات السياسية الطويلة فى يوم عيد ؟

(يتجه اثنان احداهما شابة نحو فهمى ، ويحاولان دفعه

ناحية باب الحديقة .. ويتجه اثنان أو ثلاثة نحو شكرى)

احد افراد المجموعة ـ لن نترككم أبدا .. الى الموسيقى

آخر ـ الى الهواء الطلق .. الى الحديقة

شابة ـ المداولات ممنوعة !.. الى الهواء الطلق .. الى الحديقة

(الدكتور يقف ويفتح ذراعيه الى جانبيه ، ويوجه الكلام الى افراد المجموعة التى جاءت وراءه)

الدكتور ـ لقد انتظرتم حتى هذه الســـاعة ، فانتظروا بضع دقائق اخرى ، اذهبوا حيث كنتم ! تمتعوا بالحديقــة .. والجو جميل .. وسنلحق بكم حالا

(يخرجون متدافعين)

(الدكتور يسحب مقعدا ويجلس ثم ينظر الى ثريا ،والى فهمى وشكرى)

الدكتور ـ (موجها الحديث الى ثريا) قولى لى انت ، ماذا حدث ؟

ثريا ـ (تترك ذراعيها يسقطان الى جانبيها) خراب شامل

الدكتور ـ يرفع حاجبه الاعلى ويميل براسه الى اليمين على صورة من سمع كلمة كبيرة من طفل صغير

ثريا ـ نعم . خراب شامل

الدكتور ـ (مازحا) انا لا اصدقك . كيف ؟ وهل اجرؤ؟ (موجها الكلام لشكرى) وهل توافق على هذا الكلام ؟

شكرى ـ ليس لدى استعداد لان اتكلم ، ولا ان اسمــع كلاما

الدكتور ـ (مواصلا اسلوبه فى الدعابة) يبدو أن الامر صحيح كله ! (موجها الكلام الى فهمى) وانت يا سيدى ، ما رأيك ؟

فهمي ـ ماذا يكون رأيى يا سيدى وأنا المتهم باحـداث هذا الخراب الشـامل ؟

الدكتور ـ اسمعوا أيها الاولاد ! لقد شبعت اليوم رمحـا حتى عثرت على شكيب ، لذلك لم يعد عندى بقية من قوة لاحتمال شغبكم وشقاوتكم .. ولذلك لا يهمنى هذا الخراب الشـامل الذى وقع ، لانى جئت لاكشف لكم سرا ، وانصرف . لاكشف لكم سرا هاما

فهمي ـ كفانا أسرارا !

الدكتور ـ سر واحد لا أكثر .. اسمع يا سيد شكرى ، هل تذكر يوم تقابلت مع فهمي وثريا عندى ؟

شكرى ـ (بعدم اكتراث) طبعا !

الدكتور ـ وهل تذكر علام اتفقنا ؟

شكرى ـعلى اجراء ثلاث عمليات ، لكل منا عملية !

الدكتور ـ عظيم ، وأنتم تعرفون أننى أجريت العمليات الثلاث فعلا

شكرى ـ نعم ، نعلم ذلك

الدكتور ـ ولكن الحقيقة أننى لم اجر عمليات لاحد

(الثلاثة فى صوت واحد ، ومتجهين بأنظارهم الى الدكتور)

ـ لم تجر عمليات ؟!

الدكتور ـ (فى أقصى حالات الهدوء) أبدا

(الدكتور يقف ويشير بيده نحو فهمي وشكرى وثريا)

الدكتور ـ اقتربوا منى ، تعالوا ، نظرية الغدد نظـرية صحيحة تماما ، ولكن الاصح منها أن الانسان منجم عظيم

شكرى ـ (فى هزء) منجم ؟!

الدكتور ـ نعم منجم ، هل يدهشك أن تسمع هذا .. منجم ، وهذا الكشـف الذى وفقت اليه ، طبقته عليكم فكان نجاحه عظيما .. عظيما جدا

ما هو المنجم ؟ هو مكان فى الارض ، تجرى فيه حفـــرا فتجد فيه معادن مخبوءة لم تكن مستغلة ، كذلك الانسان ملىء بالمعادن بعضها نقى ، وبعضها مختلط بأشياء اخرى .

المهم ان تجد هذه المعادن من يبحث عنها وآخر من يبحث عنها هو الانسان نفسه .. الكسول منا والخجول ، والمنـــدفع والمنكمش ، وغيرهم وغيرهم ، يحسبون جميعا أنهم خلقوا هكذا وسيموتون هكذا .. لا ، لا .. هذه جريمة الانسان فى حق نفسه لا يجب أن يعتبر الانسان نفسه كتابا مغلقا كملت صفحاته ، كل منا كتاب مفتوح ، قابل للاضافة اليه ، والحذف منه ، والتعديل فيه ، الى آخر يوم فى حياته . وقد عرف الناس اننى أبيعهم أخلاقا من عندى ، والحقيقة أننى وجدت أن الطريق الاقصر ، أن أضع يد كل من يقصدنى على مواهب نفسه التى لا يعرفها ، فكانت النتيجة انتصارا باهرا .. انتصارا باهرا للانسان على نفسه !

شكرى ــ اذن ، كنت اعيش هذه السنوات الطويلة بأخلاقى أنا ؟

الدكتور ــ (يضع يده على كتف شكرى) نعم ، بأخلاقك انت !

شكرى ــ انا رجل صادق بفطرته ؟

الدكتور ــ كل انسان صادق بفطرته .. وفهمى كان رجلا مقاتلا من الطراز الاول ولكنه كان يحسب نفسه خلق ليعيش بينه وبين نفسه بعيدا عن الناس !

ثريا ــ أما أنا ، فقد كان ينقصنى هدف أعيش له .. امل اجرى وراءه

الدكتور ــ هذا هو الحق الخالص .. (يبتعد عنهم ، ويبسط ذراعيه على شكل نصف دائرة) ها أنتم قد رأيتم كيف استطعتم ان تخلقوا مجموعة تفيض حياة وقوة ... انظروا ماذا فعلتم !

فهمي ـ ماذا فعلنا ؟ اننا لم نفعل شيئا ، ضحكنا على الناس ، كما ضحكت أنت علينا !

الدكتور (يقترب من فهمي ، ويضع ذراعيه فوق كتفه وكتف شكري معا ، ثم يقول مدللا) كيف تقول انكم لم تفعلوا شيئا ؟ ان الحياة فى بلادنا تغيرت .. انها وقفت على قدميها وقررت ان تقاتل .. لقد نزعت الخوف من قلبها . وقررت أن تحاصر أعداءها

فهمي ـ لقد كنا نبيع للناس كلاما .. كلاما فحسب !

الدكتور ـ (يضحك) ولكن هذا الكلام يقودكم الى السجون والى المشانق .. هذا الكلام كانت الدولة تعد له التشريعات وتصدر له القوانين ! لا تبخسوا أقدار أنفسكم

شكري ـ (فى صوت خافت نوعا) ولكنه على أية حال كان كلاما

الدكتور ـ (يمسكه من اذنه) اذهب وسل الذين يصنعون أعمالا مادية ، بل الذين يبنون المبانى ، وينشئون السدود ، والجسور ، والطرق ، انهم يحسدون الذين لا يعملون الا فى بذر الافكار ونشرها . فالفكرة لا تلقى فى مكان الا وتطير منه هنا وهناك ، للفكرة أجنحة غريبة سريعة ، تطير من فم صاحبها وتعيش بعد ذلك أجيالا طويلة، تختفى وتظهر، تنهزم وتنتصر ولا تموت . لقد تهدمت الهياكل ، وبادت المدن أما الافكار فقد عاشت كما عاشت الاقوال التى سجلت هذه الافكار . أيها السيد ان ما يعيش الانسان عليه هو الكلام .. الكلام بضاعة الناس المفضلة ، وزادهم الاكبر كلام .. الكلام هو الذى يصنع حياتهم ، ويضع لها القوالب ، ويختار لها الازياء والالوان .. فليهنأ من تفتحت الآذان لكلامه ، وليعلم انه بنى شيئا أكبر من القصور ، وأثبت من الصخور

ثريا ـ ما أشد حاجتنا جميعا الى كلامك ، لقد كنا فى يأس من أنفسنا حتى هممنا بالانتحار !

الدكتور ـ وأنتم فى قمة الانتصار ؟

ثريا ـ بل بسبب الانتصار ؟

الدكتور ـ صفة أخرى من صفات الانسان ، يبحث دائما عن الراحة وعن السرور ، فاذا ما وصل اليهما . وبدأ يشبع منهما ، أخذ يحس بالخطيئة ، ويشعر انه ارتكب جرما .. فعدو الانسان الاول هو نفسه ، انها تعكر عليه سعادته ، وسروره، انها تستكثر عليه راحته وخلوباله ، انها له بالمرصاد، انها تقول له دائما ، حذار أن تشبع ، حذار أن تمتلىء ، حذار من السرور الكثير ، ومن الاكل الكثير ، ومن الانتصار الكثير وهى لا تلح الا على من تأنس فيهم الطيبة ، والاستعداد لسماعها

ولكن أيها الاولاد الاشقياء . هل نحول هذا الاجتماع السعيد فى هذه الليلة السعيدة الى حفل فى قاعة محاضرات ؟ آه .. لقد نسيت أن اقدم لكم شكيب ! لقد كان فى العيادة يوم أن حضرت ، هل تذكرينه يا ثريا ؟

شكيب ـ أما أنا فمازلت أذكر ضحكاتها ، انها لا تزال ترن فى أذنى ..! لقد كانت هذه الضحكات أسعد ما بقى فى ذاكرتى من ذلك اليوم

ثريا ـ نعم ، اذكره . لقد كان يود أن يقتلك ، وهم بأن يضرب مراد ، وأن يضرب فهمى .. كان كقنبلة حان موعد انفجارها !

الدكتور ـ وقد ظل خمسة عشرة سنة ، قنبلة توشك أن تنفجر

شكيب ـ وللاسف .. لم تنفجر

ثريا ـ الحمد لله !.. لماذا الانفجار ؟

شكيب ـ لاستريح أنا ، أو يستريح الناس

ثريا ـ وما الذى يتعبك ؟

الدكتور ـ لقد رفض يومذاك أن يستمع الى . كانت نظرته الى الناس : انهم مجمـــوعة من الحشرات لا يعيشون الا فى القاذورات ، ولا يرتفعون عنها ، كان كل شىء جميل فى حياة الناس ، فى رأيه ، قناعا يخفى شيئا قبيح المنظر ، نتن الرائحة .. كانت الحياة عنده امرأة جميلة غاية الجمال ، ولكن خلف هذا الجمال الفاتن احشاء وامعاء ، وتحت غلاف الوجه الاخاذ عروق وشرايين ، يتقزز الناس من مرآها عارية .. كذلك دعته آداب المجتمع وحفلاته الساهرة ، وأضواؤه الباهرة ، دسائس ، وأكاذيب ، وشهوات .. كان يرى كل عظيم حيوانا يدب ، يود لو أن يظفر بقطعة لحم ، قد تكون هذه القطعة امرأة جميلة أو منصبا كبيرا ، أو صفقة ضخمة . وبلغ به كفره بالانسان انه قرر أن يبيع نفسه للشيطان !

شكرى ـ فكرة طريفة ! ولكن هل دفع فيك الشيطان ثمنا غاليا ؟

شكيب ـ ان الشيطان أسوأ مساوم ، انه يغرر بك أولا ، فاذا قبلت أن تتعامل معه لم تظفر بشىء .. قررت أن أظفر بالمال وبالنفوذ وبالراحة بأى ثمن .. كنت مستعدا أن أكون جاسوسا أو مزورا .. وبلا أدنى فكرة عن الشرف

فهمى ـ ياله من اعتراف

شكيب ـ نعم اعتراف يقف له الشعر فى بدن الشرفاء ، وفى بدنى أنا الآن ، ولكن كم كانت خيبة الامل عظيمة !

ثريا ـ يادكتور انه تغيير مفاجىء فى سياق المأساة التى كدنا نصل الى ختامها

الدكتور ـ (ضاحكا) انه فصل من فصولها

شكرى ـ (مقبلا) انها تجربة طريفة

شكيب ـ قد كنت أحسب أن عالم الشيطان ، عالم الكذب والسرقات والتزوير ، عالم الخيانة والخسة والدناءة ، عالم

الجرى وراء لذائذ البدن والمال ، عالم لا يخضع فيه الانسان الى نظام ، ويصفو باله من المخاوف والوساوس .. ولكم كان الظن بعيدا عن الواقع .. ففى عالم الشرور سادة متحكمون ، لا يصلون الى نفوذهم الا اذا أرهبوا وقذفوا الرعب فى القلوب . وعلى الصغار ، وعلى الجدد فى عالم الشرور أن يستسلموا للسادة وأن يقبلوا الاحتقار والاذلال اذا ارادوا أن يعيشوا .. دع عنك ويلات الحرب بين عصابات الشر .. انها لا تنتهى ، وعليك أن تحتمى دائما بكثير من أعوان الشيطان والا ضعت !

شكرى ــ هذا هو المستجير من الرمضاء بالنار

ثريا ــ اذن ما الذى خرجت به من هذه التجربة ؟

الدكتور ــ علمت أنه سينتحر .. قرر أن يتخلص من الحياة

شكرى ــ حسنا فعل !

شكيب ــ الحرية فى هذه الدنيا هدف مستحيل ، فأنى ذهبنا نحن مقيدون ، اما بقواعد من الاخلاق وقيود المجتمع ، واغلال القوانين ، وما نفرضه على أنفسنا من نفاق ، واما نحن خائفون من بطش المنافسين الذين يسفكون الدماء ، ويطيحون بالرؤوس .. أين المفر ؟

الدكتور ــ لقد وصلت اليه ، وهو يعد لنفسه حبلا ،ويهيىء منضدة يصعد اليها ، ليتدلى منها الى عالم الغيب .. الى الحرية

شكيب ــ نعم ، لقد قضيت وقتا فى اختيار طريق السفر من هذا العالم ، مسدس أو حبل . أو سم . أو الوثوب الى نهر أو بحر . أو الاختناق بالغاز .. قلت اذا لم تكن لى حرية فى الحياة ، فلا اقل من أن يكون لى حرية اختيار طريقة الموت

شكرى ــ وحتى هذه لم تتمتع بها !

شكيب ــ نعم ، لقد جاء الدكتور وتدخل فى حريتى ، ولكنه قال لى شيئا طريفا ، مثيرا للاهتمام

شكرى ــ ماذا قال لك ؟

شكيب ــ قال لى ، تعالى معى أريك جماعة سعيدة ، فهمت الحرية ، وعملت لها ، فهمت أن الحرية ليست هى أن يخبط كل منا فى هذه المدينة كالاعمى ، وأن يعيش بلا هموم ولاآحزان ولا مشاغل ولا مشكلات .. ولا أن يبحث عن سعادة شخصية منفصلة عن سعادة الناس .. فسألته وهل هم سعداء ؟ فقال تعال لترى بنفسك! ولم أكن أعرف أنى سارى زملائى فى العيادة منذ خمسة عشر عاما !

شكرى ــ (متهكما) وهاأنتذا قد رأيتنا سعداء

شكيب ــ (دون أن يلحظ التهكم) بلا جدال انكم سعداء ، ان الوجوه التى رايتها فى الحديقة تفيض سرورا .. انأصواتهم تملأ النفس بهجة . ان تكونوا قد استطعتم أن تعيشوا معا هذا العمر ، وأن تحققوا فى البلد هذا الذى حدث

شكرى ــ ما الذى حدث ؟ مجرد كلام

شكيب ــ لا .. لا .. لقد كنت أكثر منك تشاؤما ، ولكن هذه الدقائق التى عشتها معكم غيرت رأيى فى الناس .. قلبى يحدثنى بأن وراء ما تقولون وما تفعلون شيئا اعظم !.. ان فى الحياة شيئا يستحق ان يعيش له الناس

المشهد الرابع

يتدافع المدعوون من الحديقة بشكل يدل على وصول مفاجاة سارة اليهم . تختلط أصواتهم . هتاف مع ضحك مع كلام . يمتلىء المسرح بهم

عم ادريس ـ سمعت يا سعادة البك ! سمعت .. الجيش .. الجيش !

مراد ـ الم أقل لكم انه يجب أن نتفاءل .. تفـاءولوا أيها السادة

(يقترب من سيدة من الحاضرات) تفاءلي ياسيدتى واضحكى

سيدة ـ لقد انتصرنا !..

الدكتور ـ ما الامر .. تكلموا .. قولوا

عم مدبولى ـ الجيش ياسعادة البك .. الجيش !

فهمى ـ (يشق لنفسه طريقا) الجيش ! ما الذى حدث؟

رشاد ـ قص علينا عم ادريس شيئا عجيبا .. خرج ليشترى حاجة له وعاد يقول لقد تحرك الجيش من ثكناته ، وانه الآن فى طريقه الى قصر عابدين وقصر راس التين ، وان الاذاعة قد وقعت فى أيدى الثوار

ثريا ـ هل هذا حلم ؟!

فهمى ـ يا شكرى ، هل هذا مجرد كلام ؟

شكرى ـ لا أصدق

شكيب ـ بل أنا أصدق .. ان ايمانى كايمان الدكتور ، ان

الانسان كتاب مفتوح لا يغلق أبدا ، اننا نستطيع دائما أن نصنع المعجزات

شكرى ــ (هازئا) دائما

شكيب ــ نعم ، لو آمنا بأنفسنا

الدكتور ــ (لشكرى) كنت تستقل شأن الكلام .. اليك عهدا من العمل .. فلترنا الاعمال العظيمة يا بطل (يتجـــه نحوه ، ويضع يده فى ذراعه)

مراد ــ أيها السادة ، لقد أصبح العيد عيدا بحق . أصبح من حقنا أن نتفاءل وأن نضحك من أعماق القلوب . تفاءلن أيتها السيدات ، وتفاءلوا أيها السادة الرجال ، تفاءل وتفاءلى ، وتفاءلوا وتفاءلن ! (ضحك . يذهب الى عم ادريس) قل ياعم ادريس ، ماذا وجدت فى الشوارع ؟

عم ادريس ــ فرح ، فرح ، شىء من وراء العقول

مراد ــ (يكاد يدور حول نفسه) فرح .. فرح .. هــذا هو الطبيعى ، من حق الشعب أن يفرح ، وأن يضحك ، وأن ينتقم من الهم والغم . ماذا ترى ياعم مدبولى ؟

عم مدبولى ــ موزع الجرائد ــ شىء عظيم .. فتــوح من عند سيدك !

مراد ــ (منتشيا) كلام تمام .. تمام .. فتوح من عند سيدك ، فتوح من السماء ، اذن افرح يا عم مدبولى !

رشاد ــ ولكن ياسيدمراد نسيت شيئا !

مراد ــ لا تذكرنى بشىء ، اريد أن أنسى كل شىء الا أن نفرح ونتفاءل ، نتفاءل ويتفاءلان ، ويتفاءلون ، ويتفاءلن

رشاد ــ لا ، لا ، اسمع ، اسمع

مراد ــ قلت لك لا تذكرنى .. لا اسمع شيئا

رشاد ــ نسيت أن من يعمل للحرية ...

(الجميع يضجون بالضحك ويقولون فى صوت واحد كأنما يرتلون أغنية ملحنة)

فريق يقول ـ ان من يعمل للحرية

فريق يرد عليه ـ او يعمل ضدها

الجميع ـ فهو يعمل لها

(يضحكون ، ويتعانق شكرى مع فهمى ، وشكيب مع الدكتور . ثم يبرز من خلف الصفوف مراد ومعه مدبولى على اليمين . وادريس على اليسار . وذراعيه على كتفهما والجميع يضحكون)

ستار



المسرحية الثانية

عشر شخصيات
يحاكمون مؤلفا

الفصل الأول:

المشهد الاول

حجرة بها بضعة كراسى ذات مساند ، وفى وسطها منضدة مستديرة عليها اناء زجاجى مما يعد لوضع الورود ، ومع ذلك لا يوجد بها شىء منها ، وعلى الجدارين الايمن والايسر لوحات زيتية وصور فوتوغرافية تمثل طيورا او آدميين او زهورا ، بالحجرة نافذة فى الجدار المواجه للنظارة ، وبابان احدهما بالجدار الايمن والثانى بالجدار الايسر . على ارض الحجرة سجادة عادية ليست بالغالية ولا بالرخيصة كما يضيؤها مصباح كهربائى عادى. بالركن الايمن للحجرة بالنسبة للنظارة منضدة ذات رفوف صغيرة ، عليها تليفون ، وفى الرفين الاسفلين منها بعض كتب ومجلات

عند رفع الستار تشاهد شابة جميلة فى نحو الثلاثين من عمرها ، تطل من نافذة الحجرة ، الشابة رشيقة أنيقة تلبس ثوبا زاهى اللون . وفى نفس الوقت يقف أمام احدى اللوحات شاب صغير ، بين العشرين والخامسة والعشرين ، يلبس بذلة لا تلحظ عليها شيئا من العناية بالهندام ، ومع ذلك فهى ليست بالقذرة ولا بالممزقة . فى الركن الايمن على مقربة من التليفون يجلس شيخ يلبس مناظير ، وفى يده جريدة ، وهو كلما أراد أن ينظر الى شىء أو الى شخص حدق فيه من فوق مناظيره ، بالصاق ذقنه بصدره .. وهو فى الجملة نحيف ، يبدو على تقاطيع وجهه شىء من الصرامة ، مع بعض مظاهر الخوف التى تبدو وتختفى فى وجهه وحركاته

فى الركن الايسر ، يجلس شاب أنيق غاية الاناقة ، يرتدى بذلة زاهية اللون ، ويحلى عروة سترته بوردة ضخمة ، ويضع على احدى عينيه « مونوكلا » ويحمل فى يده عصا صغيرة ، وعلى وجهه علامات الضيق والتأفف ، تؤكده جلسته التى يضع فيها ساقا على ساق ، مع اهتزاز عصبى ظاهر فى الساق العليا ، يدل على نفاد الصبر

وعلى مقربة من هذا الشاب ، سيدة متوسطة العمر ، ليست بالجميلة ولا بالقبيحة ، وليست بالانيقة ولا بالمهملة لثيابها ، فى يدها ((شغل ابرة)) تعمل فيه ، تنظر بين حين وآخر الى الذين حولها فى استغراب واستيحاش

وفى الجانب الايسر من المسرح ، يجلس رجل بادى القوة ، ذو عضلات يكشف عنها القميص ذو الاكمام القصيرة الذى يرتديه ، وشعره الطويل غير مرجل ، ولا منظم . يجلس على طرف المقعد مادا الرجل اليسرى الى الامام قليلا ، والرجل اليمنى الى داخل أسفل المقعد قليلا ، وهو بصفة عامة ، يبدو كشخص متحفز ، لا يعرف شيئا عن المكان الذى يجلس فيه ، وينظر متلفتا حوله

عند رفع الستار ، يسود المسرح بسكوت عميق . لا يقطعه الا صوت الجريدة التى يقلبها الشيخ فى سعال متقطع .. ثم اقدام الشابة التى تحركها اثناء نظرها من النافذة .. وضرب الشاب الانيق طرف حذائه بعصاه ..

يستمر الصمت بضع لحظات ، ثم تلتفت الشابة الى الشاب الذى يتأمل اللوحات .. وتقول له :

الشابة ــ سيدى .. هل لى ان اقطع عليك تأملك فى هذه اللوحات ، وان اسألك سؤالا بسيطا ؟

الشاب ــ (يلتفت اليها دون أن يغير وضع جسمه ، التفاتة غير المكترث) نعم !

الشابة ــ هل تعرف اسم صاحب المنزل الذى نحن فيه ؟

الشاب ــ (يعود الى تأمله فى اللوحة) سؤال غريب !

الشابة ــ (تتجه نحوه) نعم ، هو سؤال غريب ، ولكن كل الظروف تدعو اليه ، فانا فى منزل لا اعرف صاحبه . بل لا اعرف لماذا انا هنا !

الانيق المتغطرس ــ (يغير وضعه فجاة ، وتبدو عليه دهشة عجيبة ، ويصدر عنه صوت يعبر عن هذه الدهشة) وانت ايضا ؟ !

الشابة ــ (متجهة اليه) وانا ايضا ؟ ماذا تعنى ياسيدى ؟

الانيق المتغطرس ــ وانت ايضا لا تعرفين لماذا جئت الى هنا ؟

الشـــابة ــ (مقتربة منه) ماذا تقول ياســـيدى ؟(فى دهشة) هل انت ايضا ؟

الانيق المتغطرس ــ (لاويا شفتيه) بكل اسف .. نعم ، انا ايضا ..

الشيخ ــ (يرفع نظره عن الجريدة ويقول بعد سـعال غليظ) ما هذا ؟ هل نحن جميعا .. (يعاوده السعال) هل نحن جميعا فى بيت لا نعرف صاحبه ؟ (يعاوده السعال)

المصارع ــ (فى ضيق شديد كأنما يود ان يتشـــاجر) من هو الحيوان الذى ضحك علينا وجمعنا فى هذا المكان بلا سبب ؟ !

الشـــاب الذى كان ينظر الى اللوحات ــ انا هو الحيوان الذى تشرف بدعوتك ..!

المصارع ــ (بلا ادنى تحرك او ارتبــــــاك) وما الذى اخرسك كل هذا الوقت .. هل تظن اننا خدم ابيك ؟ هــل تظن اننا لا نجد عملا نضيع فيه وقتنا ، غير الانتظار فى هذا المــكان الـكئيب ؟

الشـاب ــ (يلتفت اليه وهو يضع يديه فى جيبى بنطلونه ، ويتكلم بغير اكتراث) كفى .. كفى .. (يضحك ضحكة قصيرة فى سخرية) هل تظن ياسيدى اننى لا اعرفكم واحدا واحدا ، واعرف عمــل كل منكم . واعرف البطــالة التى تعيشون فيها ، وتشكون منها ؟

المصارع ــ (يهيج هياجا شديدا ، ويقف فى حالة من توتر الاعصاب تنذر بمعركة يذهب ضحيتها الشاب) من انت ايها الصعلوك ؟

الشاب ــ انا الانسان الوحيد الذى يعرفك جيدا ..!

المصارع ــ (يندفع نحوه ، ويجمع قبضتيه على هيئة من اعتزم ان يحطم شيئا او انسانا) اسكت أيها الحشرة..! اسكت والا سحقتك تحت حذائى

الشاب ــ (منفجرا فى ضحكة طويلة) انت ..! انت ..! (يدفع المصارع بيده فى صدره) اجلس ..! واهدأ ..! انت لا تعرفنى ايها المسكين ، وحينما تسمع اسمى ، وتعرف سر دعوتى ، ستهدأ هدوءا شديدا ، وستخجل من نفسك ، كما اخجل من نفسى ، وكما تخجلون جميعا .. انا جمعتكم لخيركم .. ودفاعا عن شرفكم ..

المصارع ــ (يذهب الى مجلسه ، وقد أضعفه هدوء الشاب ، والجميع ينظرون اليهما فى دهشة)

المتغطرس ــ (يتكلم من طرف انفه ، وهو يقرع جانب حذائه بالعصا القصيرة التى يحملها فى يده) ان غرور هذا الشاب يفجر المرارة ..!

الشاب ــ (متجها اليه ، ضاحكا ضحكة طويلة جدا) ما اشبهك بنفسك ، وما اليق كلامك بدورك .. لقد أشبعت الناس ضحكا هذه السنوات العشرين الاخيرة ومن حقنا عليك أن تضحكنا نحن ايضا زملاءك واخوانك فى المحنة ..

المتغطرس ــ (يشير باصبعه الى جانب رأسه الايمن) مسكين .. فى دماغك شىء ما ..!

الشاب ــ فى دماغى انا ؟ (يضحك ويجلس على طرف مقعد مجاور) اسمعوا .. انا لا اريد ان أطيل عليكم الكلام، ولكن اجتماع اليوم والحديث الذى سيدور بيننا لابد له من مقدمة .. والمقدمة لحسن الحظ ليست طويلة .. المقدمة تتلخص فى كلمتين ..

الشابة ــ (قد استدارت منذ مدة من النافذة ، واتجهت الى الجالسين ، ومع ذلك فلا يبدو عليها انها محتفلة بالحديث)

ياسيدى ، لا تطل علينا المقدمات .. فلقد نجحت فعلا فى أن تثير الاهتمام

الشاب ــ لاينفد صبركم هكذا سريعا .. المقدمة هى اننى واحد منكم .. اننى مثلكم تماما !

السيدة ــ (وهى لا ترفع راسها عن شغل الابرة الذى بين يديها) من نحن ..؟

الشاب ــ هذا السؤال العاقل فى كل هذه المشاجرة .. المشكلة هى اننا نريد أن نعرف من نحن ! هل نحن موجودون فعلا ؟ هل من حقنا أن نشكو ، وان نفرح .. ام اننا أشباح وطيوف ..؟

المصارع ــ ايها المجنون ..! انا سأدق عنقك ، وسأخرج الى الهواء لأتنفس ..!

الشاب ــ (يضحك مرة اخرى) تخرج الى اين ايها المسكين ؟ قد تخرج ، ولكننا سنكون جميعا معك ! واذا بقيت فنحن جميعا معك .. لقد كتب علينا ان نعيش فى عالم واحد .. لا يفارق احدنا الآخر .. نرحل سويا .. ونقيم سويا .. نحن شىء واحد ..!

الشيخ ــ (يسعل اولا) ومع ذلك فأنا لم اتشرف برؤيتك قبل اليوم ..

الشاب ــ ذلك يرجع اولا الى انك مشغول بنقودك التى تجمعها ..

الشيخ ــ نقودى ..! كل شىء الا قلة الادب !

الشاب ــ (يضحك) كأنك لم تسمع هذا الكلام الا منى ، والا هذه اللحظة ..!

الشيخ ــ (يسعل وينظر الى المصارع) هل ترى ؟

المصارع ــ (يتهيأ مرة اخرى للوثوب على الشاب) العجيب اننى لم ادق بعد عنق ابن الـ ....

الشاب ـ انا لن اجرى منك .. لانى اعرف انك لاشىء! انك كالنماذج التى يقيمها مهندسو الديكور فى السينما .. مجرد مظهر .. قصر من خشب الابلكاج ..! ثم انك لم تؤذ احدا الا نفسك .. ! وزوج هذه المسكينة (مشيرا الى زوج السيدة التى تعمل فى شغل الابرة)

المصارع ـ (متخاذلا) ايها المغرور الثرثار ، ارحنا وقل من تكون ؟..

الشابة ـ انا اعرفه ..! (تتقدم نحوه وتصافحه)

الشاب ـ (يصافحها) هذا طبيعى ! انا وانت كنا طوال حياتنا معا ، كنت مصدر متاعبك .. وكنت سبب شقائى .. وهؤلاء جميعا كانوا ضحايانا ..!

الشابة ـ (تضع ذراعها فى ذراع الشاب) ولكن اين الباقون ؟

الشاب ـ (يجلسها فوق مقعد ويقف امامها فى حفاوة وشوق) كعادتهم ابدا منهم من لم يحضر .. لانه يفضل ان يفر من المسئوليات ، ومنهم من سيحضر متأخرا .. ومنهم من لا نفع من حضوره ، لانه لا يتكلم اذا حضر ..

السيدة ـ (وهى لا ترفع رأسها عن شغل الابرة) ايها الصغيران لقد تعارفتما ، الا تعرفان الحاضرين بنفسيكما ؟..

الشابة ـ لقد اوحشنا هذا الصوت الهادىء ، الذى يخفى وراءه متاعب الدنيا كلها ..! والله انا مشتاقة اليك (تتجه الشابة نحو السيدة وتقبلها من وجنتيها)

السيدة ـ (تتأمل فى الشابة طويلا) كأنى قد رأيتك من .. متى .. متى .. ؟ (تجهد ذاكرتها)

الشابة ـ سأعرفك بنفسى .. لقد فررت مع صاحبى هذا ، وسببت لك تعبا .. وفضائح !

السيدة ـ (تتوقف عن شغل الابرة) آه ..! ولكننى حين رايتك نسيت كل شىء !

الشابة ـ لقد كنت تحبيننى دائما ..!

السيدة ـ حقا ..! لكم حذرونى من هذا الحب ، ولكنى لم استطع .. من منا يستطيع يا ابنتى ان يقاوم الحب ؟

المصارع ـ حب ! لم يكن ناقصا الا هذا .. اجئنا الى هذا المكان التعس لنرى هؤلاء المخرفين ، ولنسمع حديثا عن الحب ؟

الشاب ـ (يقترب من المصارع ويضع يده على كتفه) اسمع يا صاحبى موضوع الاجتماع فى كلمة ، هل انت راض عن قسمتك ونصيبك ؟

المصارع ـ من تكون لتسأل هذا السؤال ؟

الشاب ـ قلت لك اننى زميلك فى الرواية

المصارع ـ الرواية ؟

الشاب ـ هذه هى المأساة . فأنت لست كائنا حيا ، انت لا تملك لنفسك ضرا ولا نفعا . انت لست حرا فى أن تقول ما تشاء ولا فى ان تفعل ما تشاء .. انت مجرد بطل فى الرواية خلقتك مخيلة مؤلف .. ثم تركك بعد ذلك لتلقى مصيرك .. يضحك منك المتفرجون أحيانا ، ويصفقون لك احيانا ، ولكنك فى نهاية الامر مجرد صورة . الحياة التى تدب فيك هى الحياة التى اودعها المؤلف فى شخصيتك ودورك

المصارع ـ (ينظر الى عضلات يديه ويحركها ، ولا يتكلم)

الشاب ـ (مبتسما) نعم عضلات ..! وصوتك يخيف ، وقامتك قامة بطل ، ولكن للأسف كل هذا من صنع المؤلف

(تقترب الشابة ، والشيخ والسيدة ، ويلتفون حول المصارع والشاب)

المصارع ـ هل سمعتم هـذا المجنون ؟ (مشـيرا الى الشاب)
الشابة ـ ماذا يقول ؟
المصارع ـ يقول اننا .. اننى مجرد صورة .. وهـذه العضلات ... ؟
الشابة ـ (تضع اصبعها على عضلاته وتخرج من فمها صوتا علامة الاعجاب الشديد بالعضلات) شيء مهول ..!
المصارع ـ واذا لزم الامر ، آتى بالمعجزات
الشابة ـ (مبتسمة ابتسامة من يفهم الامر ويخفى ذلك) اذن لماذا تقول انه مجرد صورة ؟ (متجهة الى الشاب) الا ترى هذه العضلات ؟.. الا تلمسها (تمسك يده وتقربها من عضلات المصارع)
الشاب ـ (يفلت يده من يدها) عضلات .. وقامة .. واكتاف .. وصراخ وصياح .. وضرب بالايدى وبالارجل.. خنق عند الضرورة ..
المصارع ـ لقد خنقت بالفعل رجلا ..!
الشاب ـ كلنا نعلم .. انه زوج هذه السـيدة (يشير الى السيدة صاحبة الشغل)
السيدة ـ (تنظر الى المصارع)
المصارع ـ (مرتبكا) انا لم اكن انوى أن اجدد الذكرى
السيدة ـ انا لست غاضبة
الشابة ـ هل سامحته ؟
الشاب ـ انكم تتكلمون كأنكم احياء ..!
المصارع ـ لا تعد الى الهذر ، والا ..
الشاب ـ (يرفع يديه الى اعلا) كل واحد فى مكانه .. كل واحد فى مكانه ..
يذهب الجميع الى اماكنهم

الشـــاب ــ انني صـــاحب الفكرة فى دعوتكم ، فلا بد ان اشرح لماذا دعوتكم .. ليس لدينا وقت نضيعه ، فان صاحب هذه الدار ، لا يلبث حتى يحضر ، وسيفاجأ بوجودنا عنده ، وباحتلالنا منزله دون أذن منه ، وحتى دون اخطاره

الشيخ ــ لست انت صاحب المنزل ؟ !

الشـاب ــ لا .. لا .. ابدا ، هذه اولّ مرة اضع فيهـا قدمى هنا

الشيخ ــ (يسعلّ) لامبرر للدهشة اذن ، فلم يســأل عنا احد ، ولم يقدم لنا شيء ..

المصارع (مقهقها) لا يشغلك الا أن تقدم أشياء الك

الشيخ ــ الواجب واجب .. والحفاوة بالضيوف واجب .. لا اقل من فنجان قهوة

المصارع ــ (موجها الـكلام للشاب) اين القهوة والشاى والمشروبات والمرطبات ؟

(مقهقها) كان يجب أن تسطو على مخزون صاحب المنزل

الشاب ــ (يرفع يديه الى اعلا) ارجوكم .. ارجوكم .. انا اخشى ان يحضر صاحب المنزل قبل ان نتفاهم ونتفق

الشـــابة ــ نتفاهم ونتفق .. الا يعرف كل منا اولا من نحن ؟

الشـاب ــ تمام .. تمام .. هذا بالضبط واجبنا الاول .. واجبنا الاول ان نعرف اننا لا شيء !

المصارع ــ (متمالـكا نفسه بصعوبة) بحق السماء لاتعد الى هذا السخف ..

الشـاب ــ (مسايرا) معذرة .. معذرة ! الوقت ضيق ولا داعى لاضاعته فى المشاجرة .. تذكرون رواية « اسرة تجن » ؟

السيدة ــ هذه رواية قديمة ..

الشيخ ـ (يسعل) هل دعوتنا لتقص علينا رواية ؟

الشاب ـ ما اعجب فعل الخيال ، وما اعظم سحر الفن .. هذه الرواية هى روايتكم وروايتنا .. فأنا وانتم ابطال هذه القصة ..

السيدة ـ (وشغل الابرة فى يدها لا تنصرف عنه) نعم ، هذه هى قصتى ..

الشاب ـ (مصفقا) انت اول من يعود الى الحقيقة . اول من يفر من الخيال ، او يغلبه ويقهره ، لقد هبط وحى هذه القصة على القصاص الفنان « عصام رشيد » ونجحت القصة نجاحا عظيما ، فصنع منها مسرحية ، ثم صنع منها كاتب آخر فيلما سينمائيا . ثم صاغ من موضوعها الموسيقى « عمر ابو بكر » أوبرا .. ثم ترجمت للغات .. فى كل مكان .. من الشرق والغرب ، عرفت وقائع حياتنا ، واسماؤنا ، واصبحنا شيئا فى حياة الناس .. ظن الناس اننا حقيقة . وليس هذا هو المهم ، انما المهم اننا صدقنا اننا احياء ، واننا حقائق ولسنا خيالات ..

المصارع ـ (مقاطعا) ألا تكف ..

الشيخ ـ دعه .. دعه

الشاب ـ (اشبه شىء بانسان يود ان ينهى مهمته بسرعة) اشكرك .. الوقت ينفد سريعا .. اذن اصبحنا مخلوقات فى ذهن الناس ، وتصوراتهم ، ولكن هذه المخلوقات لم تصنع جيدا

المصارع ـ (محتجا) تصنع ؟ !

الشيخ ـ (موافقا ومؤيدا) تصنع هذه ، ليست كما يجب ..

الشاب ـ (يقصد انهاء المناقشة) تخلق .. اعنى تخلق

الشيخ ـ (يعاوده السعال) هذه احسن !

الشاب ـ اتفقنا .. لم تصنع .. (مصححا نفسه) لم تخلق كما يجب .. والاستاذ عصام معذور ، فقد كان فى ذلك الحين شابا لايجاوز الخامسة والعشرين ، بل لعله لم يكن قد بلغها حين صنعنا .. اعنى خلقنا .. وكان فى الوقت نفسه ، يعانى من حب شديد عنيف .. الحب الاول

الشابة ـ (مقبلة عليه ومهتمة) ومن اين عرفت هذا كله ؟

الشاب ـ لا تتظاهرى بالجهل .. ان الذين كتبوا عنا ، كتبوا عنه ، لقد تناول النقاد ومؤرخو الادب ، واساتذة الجامعات ، شخصياتنا بتشريح كامل .. فأنا وان كنت امثل الطيش والنزق وحب الحياة ، فاننى فى الواقع امثل جزءا من حياة الاستاذ عصام ، وانت التى استجبت الى وكنت بطلة مغامراتى .. ومغامرات شبان آخرين ، تمثلين سميحة .. بطلة حياته

الشابة ـ لا تتحدث عنى هكذا فى حضور السادة .. !

الشاب ـ السادة يعرفون كل شيء عنك ، وعنى ، وعن كل واحدة فى هذه الاسرة التى جنت

المصارع ـ ما اسخف هذا العنوان .. اسرة تجن .. انا لم اجن على الاقل ..

السيدة ـ ولا انا .. لقد كنت دائما مثالا للعقل والهدوء والعفة ..

الشاب ـ (كأنما لدغ) العفة ؟ !.. ماذا تقولين ؟ .. العفة ؟..

السيدة ـ (تتوقف لاول مرة عن شغل الابرة) ماذا ؟ اتنكر على ان اقول العفة ؟ هل تصدق ؟

الشاب ـ (مصفقا بيديه كأنما عثر على شيء يطلبه) هل اصدق من ؟ تريدين ان .. هل اصدق مؤلف قصة حياتنا؟ هذه هى المسألة .. ومن اجل ذلك دعوتكم ..

الشيخ ـ (تاركا مكانه وفى يده الجريدة التى كان يقرأ فيها اكثر الوقت) لا تؤاخذنى .. انا لم افهم ماذا تعنى بالضبط ، اهو اجتماع للاحتجاج على المؤلف ؟ (يعاوده السعال)

الشاب ـ لا .. ليس احتجاجا .. انما هو

الشابة ـ (متبرمة) هذا شىء انقضى وقته من زمن بعيد .. محاولة غير منتجة .. انى ذاهبة

الشاب ـ (يجرى نحو الباب ، ويقف فى طريقها اليه) اين تذهبين ؟ انتظرى ..

الشابة ـ (تحاول ان تتخلص منه ، لتخرج) لا ... لا فائدة ..!

الشاب ـ كيف لا فائدة ؟..

الشابة ـ لقد خلقنا .. وانتهى الامر .. لقد خرجنا من نطاق ارادته .. أصبحنا أقوى منه

الشاب ـ تعالى نتكلم .. تعالى نتفاهم

المصارع ـ (يقف ويبسط طوله وكأنما يتمطى ، واضعا ابهاميه فى حزامه) حقيقة انتم من عائلة جنت ؟

الشاب ـ (مصححا) اسرة جنت .. عائلة .. اسرة.. لا فرق !

الشيخ ـ هذا اسمنا الرسمى ..!

المصارع ـ (ضاحكا فى سخرية) لاشك انك من هذه العائلة

الشيخ ـ وانت .. السنت منها ؟

الشاب ـ (متدخلا) ايها الاخوان .. ايها الزملاء .. صاحب المنزل اوشك على الحضور ، ونحن لم نتفاهم ..

الشابة ـ نتفاهم على اى شىء .. تريد منا ان نحتج .. أن نرجو .. ان نطلب .. ممن ؟ من مؤلف قصتنا ؟ نطلب منه اى شىء ؟ ان يعيد تكويننا ، خلقنا .. ان يحسن سيرتنا

بين الناس .. لا اعتراض لى على الطلب ، ولـكنه مستحيل!

السيدة ــ كيف يا ابنتى ؟ انه هو الذى كتب عنا هــذه الـكتابة المؤذية المسيئة ..

الشاب ــ مضبوط .. تمام .. ثم انه فعل ذلك وهو شاب غير مجرب .. وهو الآن كاتب مشهور .. انه الآن أحسن مؤلف مسرحي .. ان الشخصيات التى صنعها فيما بعد .. متأسف ، خلقها ، احسن بكثير من شخصياتنا .. متقنة ، مصبوبة فى قوالب واضحة ..

الشابة ــ انت تريد ان يؤلف قصة جديدة ؟

الشاب ــ ابدا .. ابدا .. نفس قصتنا يعاود كتابتها ، بنفس الاسماء ، وبنفس الوقائع

المصارع ــ اذن ما الفائدة ؟

الشاب ــ انكم تقاطعوننى ، ولا تدعوننى اشرح لكم فكرتى، ولو انتظرتم لاعجبتم بها ، ولوافقتم عليها ..

المصارع ــ قل .. اسرع

الشابة ــ فكرته مفهومة ..

الشيخ ــ والله انا لم افهم شيئا ..

السيدة ــ الفكرة جميلة ..

المصارع ــ جميلة ..! (هازئا) جميلة .. جميــلة .. انهوا هذه السخافة ، ودعونى اذهب ..

الشاب ــ ستذهبون .. حالا .. الاستاذ عصــام حينما سيعيد كتابة قصتنا بنفس الاسماء ، بنفس الوقائع ، سيتبين بعد خبرته الطويلة ، وقراءاته ، وفهمه للناس ، انه اخطأ .. اعطانا اسماء غير اسمائنا ، وصفات غير صفاتنا .. قال عنى نزق طائش . قال عنك (مشيرا الى الشابة) مستهترة ، جريئة ، اتهم السيدة فى اعز ما تملك .. نعم فى عفتها

السيدة ــ (كأنما لدغت) اوه ..! شيئا من الاحتشام

الشاب ــ (معتذرا ومندفعا) معذرة .. الوقت لايتسع للمجاملات .. يجب ان ننتهى سريعا ، فأنا اظن انه لابد ان يكون قادما.. وقال عنك (مشيرا الى المصارع)

المصارع ــ (مقاطعا) لا تتكلم عنى !

الشاب ــ وما فائدة عدم الكلام ؟ ان الملايين ممن قرأوا قصتنا ، وشاهدوها على المسارح مئات المرات بل الوف المرات .. ثم الملايين الذين رأوها على شاشة السينما ، يعرفون عنك .. ويتحدثون .. لقد شبعوا عليك ضحكا ..

المصارع ــ اسكت ..

الشاب ــ اذهب الى اى سينما .. اطلب كتابا من اى مكتبة .. وانظر الى صورتك ..

المصارع ــ (يتجه نحوه منتويا أن يمسك به) يا مجرم .. يا طائش .. يا حقير ...

الشاب ــ (محاولا الفرار منه) لقد حفظت جيدا الكلام الذى وضعه على لسانك .. ولو استمعت الى

الشيخ ــ (محاولا أن يتدخل ، فيدفعه المصارع الى الوراء فيكاد يقع) لاحول ولاقوة الا بالله ... (ويشتد عليه السعال)



المشهد الثانى

يفتح الباب ، ويدخل منـــه خادم الاستاذ عصـام فيرى المجتمعين ، فيقف ماخوذا لا يتحرك . . يتقدم نحـــوه الشــاب ، ويصافحه ، ويقول : اهــلا وسهـــلا . . .

الخادم ــ (وهو لا يزال شارد الذهن) اهلا . . من أنتم ؟

الشاب ــ لا تنزعج

الشابة ــ لسنا لصوصا . . (تضحك ضحكة رنانة) نحن اصدقاء السيد صاحب الدار . نحن أولاده . . نحن مخلوقاته . !

الخادم ــ لصوص . . ! أولاده . . ! ان سيدى . .

الشابة ــ (تعاود ضحكتها الرنانة) ان سيدك لم يتزوج . . ليته تزوج . !

الخادم ــ هل اتيتم لتزوجوه ؟

الشابة ــ (فى حالة ظاهرة من المرح) هل يصلح أن يكون زوجا ؟ ما شكله . . ؟ كم سنه ؟

الخادم ــ ماهى الحكاية ؟

الشابة ــ هل أنت مستعجل ؟ الحكاية اننا الاسرة التى جنت . . !

الخادم ــ (يبدو عليه الذعر) جنت ؟ !

الشابة ــ الا تلاحظ علينا مظاهر الجنون ؟

الخادم ــ (يكرر الكلام بلا فهم) الجنون ؟

الشابة ــ ثم اننا لا نزال فى البداية ، سنريك الآن اشــكالا والوانا . . !

الخادم ـ (يتجه نحو الباب ليجرى)
(تسرع الشابة وتقفل الباب الايمن ، وتسند ظهرها اليه)
(يسرع الخادم الى الباب الايسر ، فتمسكه من يده ..)
(وهى تضحك ضحكا متواصلا ...)

الشيخ ـ (بعد سعال طويل) اسمع يا حضرة الاخ .. نحن لسنا غرباء ، وحينما سيأتى الاستاذ عصام رشيد سيفرح بنا فرحا شديدا ..

الخادم ـ (متسائلا فى دهشة وذعر معا) سيفرح بكم ؟!

الشابة ـ (تعاود الضحك موجهة الحديث الى الخادم) تريد أن تقول اى شىء ، يفرح ..

الشيخ ـ اذا عرفت من نحن تتغير الامور تماما .. ولكن من الصعب أن تفهم .. هل تقرأ ايها الاخ ؟ هل تقرأ روايات السيد عصام

الشاب ـ الم تسمع عنا فى الجرائد ؟ ألم تذهب الى السينما؟ الم يدعك السيد يوما الى المسرح .. نحن الذين أعطينا سيدك الثروة والشهرة ..

الخادم ـ (باحثا عن فكرة للخلاص) تفضلوا .. تفضلوا .. سأخبر سيدى ..

الشابة ـ هل هو موجود ؟

الخادم ـ (بأدب ظاهر .. ومبالغ فيه) لا يا افندم ...
(متداركا) انما سيأتى حالا ... دقائق .. استريحوا ... اسمحوا لى أن أحضر لكم ..

الشاب ـ لا تخف منا ... نحن أشباح .. !

الخادم ـ (وقد ازداد ذعره) اشباح .. !

الشابة ـ (تنفجر فى الضحك) تعقدت المسألة .. اشباح .. وليس عفاريت .. أشباح من صنع سيدك .. !

الخادم ــ (مسايرا لمجرد التخلص منهم والنجاة) فاهم .. فاهم .. اسمحوا لى .. سأخرج وأعود حالا

الشابة ــ والله انك لست فاهما شيئا .. هل تفهم أن سيدك هو الذى صنعنا نحن الاشباح

الخادم ــ (فى قلق متلفتا يمينا ويسارا) سيدى لا يصنع اشباحا

الشاب ــ اذن ماذا يصنع ؟ هذه صناعته الوحيدة ..وهى صناعة مريحة جدا .. ومربحة أيضا

الخادم ــ (فى استعطاف) فى محله .. فى محله ولكن ماذنبى انا ؟

المصارع ــ (مسرورا بحالة الانزعاج التى بدت على الخادم) ذنبك انك تشتغل عند صانع أشباح .. من جاور الحداد اكتوى بناره أو شراره

الخادم ــ والله ما سمعت قبل اليوم عن هذه الصناعة

المصارع ــ (مقتربا من الخادم ممسكا بأعلى ثوبه من الخلف) الا تراه يكتب ؟

الخادم ــ (فى هلع) انه لا يترك القلم

المصارع ــ الا تراه يسرح. يشرد ذهنه .. ينظر الى الفضاء؟

الخادم ــ (وقد اندمج فى الحديث قليلا فذهب عنه القلق واخذ يعترف) انه لا يكف عن التفكير .. يبحث عن الاشياء وهى فى يده ، واذا مادق جرس الباب قال « آلو » .. يدخل الحمام وعلى رأسه طربوشه .. ويقابل الضيف أحيانا ببرنس الحمام بدلا من الروب دى شامبر !

المصارع ــ وبعد ذلك تقول انه لا يحضر الارواح ، ولا يصنع الاشباح .. هل تريد جنونا أكثر من ذلك ؟

السيدة ــ كم عمره الآن ؟ ما شكله ؟

الخادم ــ لقد تعبت .. هل تسمحوا لى بالجلوس ؟ أريد كوبة ماء

الشابة ــ سأحضرها لك .. أخبرنى أين اجد الماء ..

الخادم ــ (منتبها) العفو .. ! العفو .. ! سأحضرها بنفسى

الشابة ــ نحن فى خدمتك الآن .. كلنا فى خدمتك .. !

الخادم ــ (مستسلما) من هذا الباب (مشيرا الى الباب الذى على يسار النظارة)

هناك طرقه تؤدى الى « الاوفيس » !

(تخرج الشابه من الباب)

السيدة ــ لقد طال الاجتماع بلا فائدة ... اذا كان فى النية عمل شىء اعملوه ... ودعونا ننصرف

الشيخ ــ لقد أصبحت مشتاقا الى رؤية المؤلف .. أن أراه، وأن اتحدث معه ، وأن اسأله عن امور كثيرة .. سأسأله أولا لماذا وقع اختياره علينا .. علينا نحن بالذات ..

المصارع ــ هل تظن ان الرجل الذى يقابل الضيوف ببرنس الحمام ، ويدخل الحمام بالطربوش

الخادم ــ والذى يغمس مبسم السيجارة فى المحبرة .. ويدخن قلم الحبر . !

المصارع ــ هل تظن أن مثل هذا الرجل يمكن أن يفيدك الحديث معه .. ؟

الشاب ــ انه لابد أن يكون انسانا مسليا جدا ، يكفى انه صنع .. اقصد حلقنا ..

السيدة ــ خالق صغير ..

المصارع ــ الذى يصنعنا لابد أن يكون خالقا كبيرا جدا(يشير الى عضلاته ويعرضها) ..

السيدة ــ صحيح ! عضلاتك هذه تحتاج الى مجهود

الشيخ ــ وأزواجك الثلاثة ؟

السيدة ــ (محتجة) ارجوك .. !

الشيخ ــ (معتذرا) أنا لم أقلْ شيئا .. ولكن.. حقيقة لم يحضر أحد منهم .. ألم تدعهم ؟ (موجها الحديث الى الشاب)

الشاب ــ لم أرد أن اعقد المسائل .. الشاب الذى خنقه اخونا (مشيرا الي المصارع) لم ارد ان ادعه ، لانه لابد ان يخشى من مقابلة خاصة مع صاحبنا ... اما الآخران فقد اعطيتهما موعدا متأخرا بعد أن ننتهى نحن اولا الى راى ..

السيدة ــ (منفعلة) دعوت الاثنين ؟

الشاب ــ نعم ، سيحضران .. بعد قليل

(تدخل الشابة ومعها ثلاثة كتب ، ولا تكاد تدخل حتى تنفجر ضاحكة .. وتستمر فى الضحك ، ثم تجلس على احد المقاعد ، وتضع الكتب على ركبتيها ، وتضربها بيدها ضربا متواليا ، وهى تضحك ، وتكاد الدموع تنزل من عينيها ...)

المصارع ــ (متسائلا وعلى وجهه علامة اشمئزاز) ماالحكاية

الخادم ــ والماء ؟

الشاب ــ (متجها نحوها وآخذا الكتب منها) ما هذا ؟ كتاب بالصينى ، ماالذى يضحكك ؟ كتاب بالصينى ، لست فاهما !

الشابة ــ (متوقفة عن الضحك فجأة ، ومتجهة الى الحاضرين) أيها السادة ! .. ان خيبتنا أكبر مما تصورنا

الجميع ــ خيبتنا ؟

الشابة ــ نعم خيبتنا !

الخادم ــ أنا عطشان ! دعونى أشرب !

المصارع ــ ستشرب حالا ، حينما نعرف المسألة

الشابة ــ أيها السادة ، هذا الكتاب (ترفع فى يدها احد الكتب الثلاثة) هو الطبعة الخامسة والعشرون لقصة اسرة جنت ، خمسة وعشرون طبعة لقصة .. لقصتنا ما اعظم شهرتنا ، وما أكثر اهتمام الناس بنا .. بى انا .. وبك(مشيرة الى السيدة) وبك انت وبعضلاتك (مشيرة الى المصارع ، فينظر الى عضلاته) غرامياتى معروفة لكل شابة . والشابات يقلدننى طبعا ... والشبان يقلدونك انت أيها الشاب النزق الطائش ، والآباء يلعنونك ..

الشيخ ــ والكتابان الآخران ؟

الشابة ــ (يعاودها الضحك) أحدهما بالصينية ..

الجميع ــ بالصينية .. !

الخادم ــ انا عطشآن .. !

الشابة ــ والثالث ، هل تعرفون بأية لغة ؟

السيدة ــ بأية لغة ؟

الشابة ــ خمنوا .. فكروا .. اجتهدوا قليلا .. ان الامر يحتاج الى شىء من المجهود .. وهو يستحق

الشاب ــ بالارمنية مثلا . ؟

الشابة ــ أبدا ..

الشاب ــ بالسنسكريتية ؟

الشابة ــ ابدا

الشيخ ــ قولى .. لا تتعبينا ، (يعاوده السعال)

الشابة ــ بالتنجابيلية .. هل سمعتم عن لغة بهذا الاسم ؟

الشيخ ــ بالتنجـ .. تقولين بماذا ؟

الشابة ــ تنطق الكلمة ببطء شديد .. بالتنـ ... جا .. بيليه .. !

الشيخ ــ ما هذا .. أهذه لغة ؟

الشابة ــ لابد أن تكون لغة ، لان فى صدر الكتاب بضعة سطور بالعربية تقول أن قصتنا قصة الاسرة التى جئت .. ترجمت اليها عن العربية

الشيخ ــ خيبتنا كبيرة !

الشابة ــ اليس كذلك ؟

الشاب ــ العالم كله يعرفنا ويضحك علينا ويهزأ منا ، يتحدث عن فضائحنا ، والسيد المؤلف يجمع من هذا نقودا ، ويشترى تحفا ، ويقضى الصيف على اجمل الشواطىء ، ومع اجمل النساء ، وفى أحسن الفنادق ، ونحن لا نكسب من هذا كله الا الفضيحة والسخرية والهزؤ

الشيخ ــ (منفعلا) هل سيحضر الآن ؟

الشاب ــ (هازئا) أتريد أن تقاسمه بعض الارباح .. ؟ موضوع الارباح اثار اهتمامك ... طبعا ، الست بخيل الرواية ؟

الشيخ ــ هو يهزأ من بخلى ، ويجمع الاموا ل..

الخادم ــ انا عطشان ..

المصارع ــ أين ذهب سيدك ؟ (يتجه نحوه وهويهم بضربه) عطشان . عطشان . عطشان .. ! ونحن ماذا نفعل بهذه الفضائح .. قل لنا ماهى اللغة التن .. التن .. التنج .. ما اسمها ؟

الشابة ــ التنجابيليه

المصارع ــ (ينظر الى الخادم) هل سمعت .. التنجا ..

الخادم ــ والله ماسمعت عنها ابدا .. انا عطشان .. !

المصارع ــ سمعنا .. سمعنا .. (يهزه) من اين يحضر سيدك هذه اللغات ؟

الخادم ــ والله انا لاذنب لى .. !

الشابة ـ الم تحضرها من السوق له .. مع الملوخية والبامية ؟

الخادم ـ (مبالغا فى الاعتذار) أنا ؟ أنا ؟ ؟ .. ابدا ..

الشيخ ـ ما العمل ؟

الشاب ـ حينما يحضر هذا المؤلف ، سنسأله لماذا خلقنا على هذه الصورة ؟ لماذا شوهنا الى هذا الحد ؟ . لماذا وسع نطاق فضيحتنا الى هذا القدر ؟ ..

الشيخ ـ ما الذى سنكسبه من هذا التحقيق ؟

السيدة ـ سيخنقه .. سيخنقه بضغطه واحدة على العنق.

المصارع ـ (فرحا بالاقتراح) سأنفخه يطير .. !

الخادم ـ ياناس .. حرام .. حرام عليكم .. !

المصارع ـ ماهو الحرام . ياحشرة .. أليس حراما أن يشهر بنا ، وأن يضحك الناس علينا ، فى أركان العالم الاربعة ، بدون اذن منا ، ولا حتى اخطار .. ثم بدون أية فائدة لنا

الشيخ ـ حكاية الفائدة مهمة فى الموضوع .. (سعال خفيف)

الخادم ـ أنا عطشان .. !

المصارع ـ كف عن هذا المواء ، والا القيت بك من النافذة . (مشيرا بيده الى النافذة)

الخادم ـ (منزعجا) حاضر .. حاضر .. ولكن سيدى رجل طيب ، وضعيف ، ولا يحتمل الضرب .. !

المصارع ـ عندما يحضر .. سترى

السيدة ـ (مبتهجة) هل سنراه ، وأنت تلعب به لعب القط بالفار .. ؟

المصارع ـ منظر جميل .. هيه ؟

السيدة ـ جدا ..

الشابة ــ ما الذى سنطلبه منه بالضبط ؟

الشاب ــ الاقتراح حاضر ، سنطلب اليه أن يعيد تأليف القصة

الشابة ــ لا .. هذا اقتراح غير عملى

الشاب ــ غير عملى ! كيف ؟

الشابة ــ لقد انطبعت صورتنا فى أذهان الناس ، وجرت أسماؤنا على ألسنتهم . فاخراج قصة بأسمائنا ، بحوادث أخرى ، لن يمحو اسماءنا ولا صفاتنا القديمة . كل ماقى الامر ، ستعتبر قصة جديدة ، وسيصبح لكلٍ منا اسمان ، ودوران ، وشخصيتان ، وقد تعتبر الشخصيات الجديدة منفصلة عنا ، فلا نستفيد شيئا ..

الشيخ ــ فكرة .. !

الشاب ــ ما الذى تقترحينه اذن ؟

الشابة ــ اقترح أن يؤلف حلقة جديدة لنفس القصة ،يروى بها خاتمتنا ، وبقلمه الذى ازداد مرانا ، وبتجربته التى اتسعت نطاقا ، وباسمه الذى علا شهرة ، سيعيد الينا اعتبارنا ..

الجميع ــ (متهللين ومصفقين) عالٍ .. عال .. ! فكرة ممتازة ..

الشيخ ــ ونتفق معه على الجوانب المالية ايضا ..

الخادم ــ انا عطشان ..

المصارع ــ انك تثير اعصابى (يتجه نحوه ، فيتداخل الخادم فى نفسه)

الشابة ــ ولكن هلْ عرف كل منا ماذا يريد من المؤلف .. ؟ ماهى الشخصية التى تعجبه ، ماهى الحوادث التى ضايقته فى الرواية ..

الشيخ ــ (وقد فاجأته الفكرة) صحيح .. !

المصارع ــ هلا تريد أن تكون بخيلا ؟
الشابة ــ وانت هل تريد أن تتخلى عن عضلاتك .. ؟
الشاب ــ (للسيدة) وانت ماذا تريدين أن تكون عليه علاقاتك مع أزواجك الثلاثة ؟
السيدة ــ أكل شيء يتوقف على ارادتنا ؟
الشاب ــ هذا ما سنفرضه على المؤلف .
المصارع ــ (متهللا) سنفرضه بالقوة ..
الشيخ ــ قد نصل معه الى اتفاق بالتفاهم
المصارع ــ (يسير فى عرض المسرح هازا ذراعيه وهما الى جانبيه) التفاهم لا يجدى ..
الشاب ــ المهم أن نتفق نحن اولا .. كل منايختارالشخصية التى تعجبه
الشابة ــ بشرط ..
المصارع ــ لانريد شروطا .. نحن نريد الحرية .. الحرية الكاملة
الشاب ــ الحرية المطلقة غير موجودة
الشابة ــ هو شرط بسيط جدا ..
المصارع ــ قولى ماهو ..
الشابة ــ ان نتفق على ان تبقى علائقنا بعضنا ببعض !
المصارع ــ لا .. لا .. ماذا فعلنا اذن
الشابة ــ هلا تريد أن تعرفنا جميعا
المصارع ــ لقد شبعت منكم .. لقد حملتمونى على القتل والخنق.والضرب .. أنا اريد أن أبدأ حياة اخرى
الشاب ــ وعضلاتك ؟ !
المصارع ــ لا شأن لك بها .. انا سأتفاهم مع المؤلف مباشرة ، بدون تدخل أحد منكم ..

الشابة ــ ومع ذلك فهذا الشرط اساسى وضرورى
المصارع ــ كيف ؟
الشيخ ــ لا .. ليس ضروريا
الشابة ــ اذا طلب كل منا طلبا مستقلا ، وانقطعت صلاتنا بعضنا ببعض ، اختفينا ، ضعنا وضاع وجودنا ، فنحن موجودون لاننا أبطال هذه القصة ، لاننا عرفنا بعضنا بعضا ، لاننا تعاونا بضعة سنين على تمثيل رواية واحدة ، تارة على المسرح ، وتارة على شاشة السينما ، وثالثة فى الاوبرات . فأنا لا أعرف الا بك ، وانت لا تعرف الا بى ، فانا موجودة لانك أنت موجود . فاذا لم تكن الرواية ، لم نكن نحن . ولكى نستمر يجب أن ننتقل الى رواية أخرى . ينقلنا اليها المؤلف نفسه . فهو وحده صاحب الحق فى التصرف فينا
المصارع ــ (هائجاً) من الذى أعطاه هذا الحق ؟
الشابة ــ هو .. !
المصارع ــ من هو ؟
الشابة ــ هو الذى تلقى فكرة وجودنا .. من الوحى ، فصنعنا ، وأتقن صنعنا ، حتى أحبنا الناس .. أو احبوا موضوعنا
الشيخ ــ (هازئا) اتقن صنعنا .. والله صحيح .. !
الشاب ــ (وعلى شفتيه ابتسامة) ألا تعجبك صورتك ؟ الاموال التى جمعتها ، وحرصك الشديد على القرش والمليم .
الشيخ ــ (مستسلما) الحمد لله على كل حال .. (منتبها) ولكن أين الاموال .. لقد اتضح أن الذى جمعها هو المؤلف .. جمعها كما يقول العوام ، « على قفانا » .. !
المصارع ــ هذا الشرط لا يعجبنى
الشيخ ــ ولكن الظاهر أنه لا مفر منه .. (سعال خفيف)
المصارع ــ سنبقى مقيدين بحبل واحد الى ..

الشابة ــ (بلهجة تمثيلية) الى الابد .. !
المصارع ــ الى الابد الى الابد .. ليكن مايكون
الشاب ــ (يسير فى المسرح من اليمين الى اليسار وبالعكس، مطرقا كأنما يفكر فى شىء) بقيت مسألة واحدة ..
المصارع ــ شروط جديدة
الشاب ــ أبدا .. ولكن ارجوكم ان تفهمونى . فالموضوع الذى سأتكلم فيه خطير جدا ..
الشيخ ــ خطير .. ؟
السيدة ــ خطير .. ؟
الشاب ــ نعم
الشابة ــ (مهتمة) ما هو ؟
الشاب ــ يجب أولا أن ندع هذا المسكين يشرب قليلا من الماء ، فانه يبدو كمن يوشك على الاغماء
(ينظرون الى الخادم ، فيجدونه مغمض العينين ، أعياء)
السيدة ــ (تتجه نحوه ، وتهزه) قم .. قم اشرب
الخادم ــ (يفتح عينيه منتفضا) ماذا .. ماذا .. نعم (يتلفت) ..
السيدة ــ لا تخف ، قم واشرب
الخادم ــ صحيح .. ؟
السيدة ــ صحيح .. قم واشرب
الشاب ــ على شرط أن تعود الينا ..
المصارع ــ والا احضرتك من آخر الدنيا ...
الخادم ــ (يقوم وهو يتلفت) سأعود حالا والله .
الشاب ــ (يستأنف حديثه) الموضوع .. هو أساس الاجتماع فى الواقع ، وخلاصته هل نحن نستطيع أن نطلب من المؤلف شيئا . ؟

المصارع ـ طبعا .. على الاقل نطلب ..

الشاب ـ لا تتعجلْ .. ليس البحث هل نطلب ام نأمر .. انما البحث هل نستطيع ان نقول أى شيء .. للمؤلف

المصارع ـ (يتجه نحوه ، ويعقد مابين حاجبيه مفكرا)ماذا تعنى ؟ أنا لا افهم

الشيخ ـ (يسعل) والله .. ولا انا

الشاب ـ الحقيقة ، أنا الف قليلا حول الموضوع .. وانا معذور

(يدخل الخادم مذعورا)

الخادم ـ عفاريت .. عفاريت .. !

الشيخ ـ عفاريت .. !

الخادم ـ ذهبت لاشرب ماء ، فاذا بى أجد فى المكتبةانسانا. من أين جاء ؟

الشاب ـ لابد انه جاء كما جئنا .. لابد ان يكون واحـدا منـا ..

الخادم ـ (فى غاية الذعر) منكم ؟

الشاب ـ نعم ، منا .. لا تنزعج . (ينظر الى زملائه) ليذهب أحدكم لاحضاره ..

السيدة ـ سأذهب أنا لاحضاره .. (للخادم) دلنى على الطريق

المشهد الثالث

تخرج السيدة والخادم ، وبعد لحظة يعودان ومعهما رجل طويل نحيل ، ذو شوارب مدلاه ، ومناظير غليظة . يحمل عصا ويبدو عليه الضعف ، ضعف الصحة ، وضعف النظر ، وضعف الشخصية ، وما يكاد يدخل حتى تجرى نحوه الشابة وتعانقه

الشابة ـ أبى .. أبى .. !

الرجل ـ ابنتى .. أين كنت ؟

الشابة ـ (تقبله من وجنتيه ، ويبدو عليه أثناء ذلك الارتباك) لماذا تأخرت ؟

الرجل ـ تأخرت ؟ (مستفسرا) أنتم لم تحددوا موعدا

الشاب ـ (مقاطعا) ايه .. (صوت يدل على الاستنكار مع التسامح) قل أنك نسيت كعادتك

الرجل ـ نسيت ، نسيت . المتسامح كريم . . ولكن ماسبب الاجتماع ؟

الشاب ـ (يقدم الضيف الجديد الى الخادم) زوج السيدة . . الزوج رقم ١

الخادم ـ (مندهشا) رقم ١ .. !

الشاب ـ نعم ، رقم ١ ، هناك رقم ٢ ، ورقم ٣

الشابة ـ رقم ٢ خنقه هذا (تشير الى المصارع)

الخادم ـ وسيحضر !

الشاب ـ نعم سيحضر ؟

الخادم ــ مع أنه خنق .. !

الشاب ــ لا بأس .. انه بطل قصة .. انه ليس انسانا مثلك من لحم ودم ، طوبة تقضي على حياته .. انه مثلى ومثلها (مشيرا الى نفسه والى الشابة) لا نموت أبدا ..

الخادم ــ (متسائلا) أبدا ؟

الشاب ــ أبدا ..

الخادم ــ (مستوليا عليه فزع) أرجوك .. دعونى .. دعونى أرجع لاولادى ..

الشاب ــ ألم تألفنا بعد ؟ اننا كما ترى لا نؤذى ، اننا خيالات .. اننا لاشيء ..

الخادم ــ (مقاطعا) ومع ذلك ..

الشاب ــ (مكملا) ومع ذلك لا نموت ..

الخادم ــ يارب استر .. !

الشاب ــ (موجها الحديث الى والد الشابة) لقد جئت فى الوقت المناسب .. لقد اتفقنا على أن نطلب من المؤلف أن يرد الينا اعتبارنا .. أن يؤلف جزءا جديدا من القصة ، نكون فيه أحسن صورة ، واكمل شخصية ، واليق بالاحترام

الرجل ــ عظيم .. عظيم ..

الشاب ــ ولكن الذى اعترض طريقنا .. امر كنت اود أن أحدث اخواننا فيه .. وقد خشيت الا يفهمونى

الرجل ــ (مقتربا منه ، مدققا النظر فى وجهه) اتكلّ على الله ..

الشاب ــ هل نحن موجودون ؟

الخادم ــ ياناس .. ارحمونى .. ارحمونى

الشاب ــ نعم ، هل نحن موجودون أم نحن مجردتصورات خلقها المؤلف فى رؤوس الناس ، وفى قلوبهم ؟

الرجل ــ والله أنا شخصيا لا أعلم . الناس تعاملنا كأننا أحياء وأن وجودنا معترف به ، ولكن فيما عدا ذلك ، لا أرانا موجودين ..

المصارع ــ ماذا تريد أن يحدث لك لكي تكون موجودا .. تؤلف عنك الكتب ، وترسم لك الصور ، وينتقدك النقاد ، وتؤثر في حياة الناس ، وتبقى هكذا سنة بعد سنة وجيلا بعد جيل

الشاب ــ هذا كله صحيح ، ولكن هل لنا حياتنا الخاصة .. ثم اننا لا ننمو ولا نتطور ، علاقتنا محدودة بعالم القصة التي نمثلها .. ولحل المشكل يحسن ان نسأل انسانا غريبا .. لنسأل صاحبنا (مشيرا الى الخادم)

الخادم ــ اعمل في معروفا ، ودعني أذهب لاولادي

الشاب ــ (يربت على كتفه مهدئا) لا تخف .. لا تخف .. تصور انك في حلم جميل ترى فيه أبطال القصص التي رأيتها على المسرح .. انك مع هاملت وعطيل وفاوست .. ألم تسمع عن هذه الاسماء ؟

الخادم ــ (مستسلما) سمعت

الشاب ــ هل تظن أن هؤلاء موجودون ؟

الخادم ــ والله ليس بي عقل يفكر

الشاب ــ لماذا كل هذا الفزع ؟ هل امتدت لك يد بالاذى ؟ الاننا ابطال قصة من قصص سيدك ، تكاد تموت .. تشجع يا صديقي ، واشترك معنا في الحديث .. فانه موضــــوع مهم

الخادم ــ امرى لله .. تفضل .. مر

الشاب ــ أبطال القصص التي تراها على المسرح وتحبها ، هل تنتهي حياتهم بانتهاء المسرح .. أم أنهم يعيشون ويبقون ؟

الخادم ــ ان اردت الحق ، اننا نحن الذين نمثل على المسرح. خذني مثلا .. انا مجرد ممثل في رواية .. رواية ، اذا سمحت

لى ، قلت لك ، رواية سخيفة ، مملة ..

السيدة ــ مملة .. !

الخادم ــ رواية متشابهة ..

الرجل ــ انا لم أفهمك ، كيف تكون ممثلا فى رواية ؟ الم تتزوج ؟ اليس لك اولاد ؟ الا تأكل وتنام وتمشى فى الاسواق؟

الخادم ــ كل هذا يا سيدى يجرى كما تجرى الحوادث على الشاشة .. لقد كنت منذ يومين انظر الى صور سيدى المعلقة هناك (يشير بيده الى جدار من جدران الحجرة) فرأيته وهو طفل صغير لا يستطيع أن يجلس الا اذا سنده شخص أوشىء، ثم رايته وهو صبى . ثم شابا صغيرا بلا شارب ولا لحية ، ثم رجلا مكتمل الرجولة ... أين ذهب كل هؤلاء الاحياء ؟ أين الطفل الصغير ؟ اين الشاب الذى تفيض الحياة من جوانبه ؟ . اختفوا .. انهم لن يعودوا .. انهم ماتوا .. !

الرجل ــ شارد اللب .. ماتوا ؟

الخادم ــ نعم ماتوا .. ان كل دقيقة تمر على هى موت جديد .. موت جديد لشخص ... وحياة جديدة لنفس الشخص .. !

الشابة ــ لقد وقعنا مع فيلسوف .. !

الخادم ــ انتم اكثر حياة من هؤلاء الناس الذين يعيشون خارج القصص .. خارج المسرح .. الناس الذين يقولون انهم من لحم ودم

الشاب ــ ما هذه الافكار الناضجة ! ؟

الخادم ــ أنا صوت سيدى .. لقد كان سيدى يكلمنى فى هذا أمس .. أمس فقط كان يقول لى : « لكثرة ما أكتب القصص لكثرة ما اعيش مع ابطال خياليين ، اصبحت لا اعرف ما هى الحقيقة ، وماهو الخيال .. » كان يسألنى هل انا خادمه حقا ، ام انه يرى مسرحية تمثل ؟ !

الجميع ـ (يضجون بالضحك) برافو .. برافو .. !

الخادم ـ كان يقول ليتني اجتمع بأبطال قصة ، كلهم دفعة واحدة ، وأن أجلس معهم ، لاعرف بالضبط ، الفرق بين مانسميه الخيال وما نسميه الحقيقة

ان هذا الفاصل زال فى نفسه وراسه . واصبح يخشى على عقله ..

الشاب ـ معذور .. فالناس كما لاحظتهم ، يعيشون فى تصوراتهم وخيالاتهم ، اكثر مما يعيشون فى حقائق وجودهم . ان ابطال القصص تؤثر عليهم ، أكثر مما يؤثر عليهم الاحياء الذين يعيشون معهم .. انهم لا يعرفون التاريخ من الكتب وانما يعرفون التاريخ من القصص .. انهم يعرفون يوليوس قيصر ونابليون وصلاح الدين ، من شعر الشعراء ، وقصص القصاصين . اننا نحن الذين نعلمهم ، ونكون عقولهم ، ونفوسهم

المصارع ـ (متضايقا) وآخرة هذه الخطبة .. نحن أفضل من الناس .. عرفنا ذلك ، وحمدنا الله .. لكننا لم نأت الى هذا المكان لنسمع خطبا . لقد جئنا لنطلب من المؤلف طلبا محددا .. لنطلب منه أن يصلح الخطأ الذى وقع فيه عندما كان صغيرا .. أن يكفر عن اخطائه ، أن يعيد تكويننا ، ويرد لنا اعتبارنا .. اليس هذا هو الغرض الذى جئنا له ؟

السيدة ـ تمام .. هذا هو القصد .. ولكن هل اتفقتم على الصورة الجديدة .. مثلا أنا زوجنى ثلاثة رجال ، ولو أحسن الاختيار لى لزوجنى واحدا ..

الرجل ـ (ينتبه ويمد عنقه ليرى أين موضعها) هيه !

السيدة ـ بالطبع .. لقد ابتلانى بالرجل .. وراء الرجل

الشابه ـ (متدخله وتتكلم بدلال ، بعد أن تذهب الى ابيها وتضع يدها على كتفه) أبى ليس بليه .. !

السيدة ــ نحن نتكلم بصراحة ، اليس كذلك ؟

المصارع ــ الصراحة واجبة ..

السيدة ــ ابوك كما ترين رجلَ طيب ، ولكنه لم يكن يصلح لشيء .. لقد فقد نصف نظره .. ونصف سمعه .. ونصف عقله ..

الرجل ــ (متلفتا وباحثا عن مكانها) ماذا تقولَ ؟

الشابة ــ (وهى لا تزال بجواره ، ويدها فوق كتفــه) لا تشغل بالك .. انها تحبك .. تحبك جدا ..

السيدة ــ المهم ، هل سَيكون لنا حــرية أختيار أدوارنا الجديدة ؟

المصارع ــ هلَ هى أدوار جديدة ؟

الشاب ــ هى تعديل فى الادوار القديمة .. هى اعادةتصوير تلك الادوار ، بقلم أكثر خبرة

الشابة ــ (تترك أباها وتذهب الى الشاب ، وتمسك يده بيدها) مثلا .. لقد كنت سعيدة بحبنا ، فهلَ سيستمر هذا الحب ؟

المتغطرس ــ كلام فارغ .. شغلَ حقير

الشاب ــ أوه .. اين انت من زمان .. ! ما الذى أسكتك كل هذا الوقت ؟

المتغطرس ــ انت مجنون .. أنت تسأل هذا الخادم عن مشاكلنا ، وتدخله فى أمورنا (يتظاهر بالبصق ويضرب بعصاه طرف حذائه) ماذا يعرف هذا الصعلوك ؟

الشاب ــ يا سيدى المتغطرس .. اننا سنغير كلَ شيء ، فتواضع قليلا لكى نتفاهم ..

المتغطرس ــ أتواضع .. (يهــم بالوقوف) ماذا تعنى ؟ (ينظر الى الخادم) ايها الخادم ارنى الطريق .. !

المصارع ـ يعنى انك سعيد بهذه الغطرسة ، ولا تريد أن تتنازل عنها ..

المتغطرس ـ (ينظر اليه وهو واقف من طرف عينيه ، ويتظاهر بالبصق ، ويتحرك فى اتجاه الباب الايمن ، واضعا يده فى وسطه ، والجميع ينظرون اليه)

السيدة ـ الظاهر أننا لن نتفق ..



المشهد الرابع

يفتح الباب ، ويدخل ثلاثة رجال .. أولهم شاب طويل ، يلبس جاكتة فاقعة اللون ، ضيقة جدا ، وبنطلونا من لون آخر فاقعا ، ويلبس طربوشا يميله الى جانب راسه ، وفي يده عصا . ويسير متبخترا معجبا بنفسه

والثاني رجل ضخم ، ذو شوارب ، سوداء داكنة كثيفة ، وكتفين عريضين اشبه شيء بقاطع طريق ، حركاته غليظة ، وصوته أجش

والثالث المؤلف عصام رشيد ، وهو رجل في نحو الخمسين من عمره ، نحيل عصبي المزاج ، خط الشيب فوديه ، يبدو عليه الذكاء ، وان كان شارد الذهن قليلا مع تردد في بعض حركاته

السيدة ـ (تسرع الى الشاب الاول، وتهتف) أهلا حبيبى ، أهلا زوجى

المصارع ـ (يمسك الرجل الثانى) وهذا .. هل نسيته ؟ اليس هو زوجك أيضا ؟

السيدة ـ (بصوت خافت) أهلا ..

الخادم ـ (مشيرا الى الثانى) هل هذا ؟

الشاب ـ نعم ، هذا هو الزوج الذى خنقه صاحبنا .. !

الخادم ـ (ينظر الى وجهه متأملا ويسأله) كيف الصحة ؟

الزوج رقم ٢ ـ كما ترى ..

الخادم ـ هل مت ؟

الزوج رقم ٢ ـ طبعا ..

الخادم ـ (مبتعدا عنه) ولكنك على مايرام ..

الزوج رقم ٢ ـ نحن نموت على طريقتنا ..

الخادم ـ ما أسعد حظهم ..

المؤلف ـ ايها السادة ، لا تحسبوا أن زيارتكم كانت مفاجأة لى ، لقد كنت أعلم بها . وانا ارحب بكم ، ولقد فرحت اذ قابلت هذين السيدين فى المصعد .. فى طريقهما الى هـذا الاجتماع .. انا تحت أمركم .. مستعد أن اسمع طلباتكم ، وان اقف امامكم موقف المتهم ، لا اطلب منكم رحمة ولاشفقة. انى لا اطلب الا الحق وحده

(يلتف الحاضرون حوله شيئا فشيئا على شكل حلقه ..)

السيدة ـ اريد أن أعرف لماذا زوجتنى هـؤلاء الرجال الثلاثة ؟

المصارع ـ وأريد أن اعرف لماذا جعلتنى قاتلا ؟

الشابه ـ وانا لماذا جعلت حبيبى (مشيرة الى الشاب الذى يكون فى هـذه اللحظـة قريبا جدا منها) سبب النكبات للأسرة ؟

الشيخ ـ لماذا سخرت من بخلى ـ واضحكت النـاس عليه ؟

المتغطرس ـ (بطريقته) ولماذا جمعتنى بهذه الحثالة من الناس ؟

الشاب ـ ولماذا .. ؟

الرجل ـ ولماذا .. ؟

المؤلف (وقد ضاقت عليه الدائرة) لماذا ، ولماذا ، ولماذا .. أريد أن اعرف انا ايضا لماذا اصبحت مؤلفا ؟ لماذا فكرت فيكم ؟ لماذا خلقتكم على هذه الصورة ؟

الجميع ـ انت لا تعرف .. !

المؤلف ـ ستعرفون حالا ..

الجميع ـ وستخلقنا من جديد

المؤلف ـ نعم .. !
المصارع ـ بوجوه اجملَ ؟
المؤلف ـ نعم ..
الشيخ ـ اذن لنبدأ
المؤلف ـ ليس هنا ..
الرجلَ ـ أين ؟
المؤلف ـ فى المسرح
الجميع ـ اذن الى المسرح
الخادم ـ اما انا فذاهب الى اولادى ببقية عقلى ..

ستار



الفصل الثاني

المشهد الاول

كواليس مسرح . المصارع بنفس ملابس الفصل الاول . واقف فى وسط المسرح ، امامه السيدة والمتفطرس ، وأزواج السيدة الثلاثة. الجميع بملابس الفصل الاول

فى الناحية اليمنى بالنسبة للنظارة « المؤلف » ومعه « الشاب » و « الشابة » و « الشيخ » ومعهم رابع هو النـــــاشر . وهو رجل فى منتصف العمر ، ملىء ، ليس فيه شىء مميز ملفت للنظر. عند رفع الستار يظهر أن المصارع مشغول بعمل مسرحى ، توزيع ادوار أو اخراج منظر . وفى أطراف المسرح وعمقه ، يروح عمـال المسرح ويغدون ، ينقلون اجزاء مناظر . وفى هذه الاثناء يبدو الاهتمام الشديد على وجوه المجموعة المحيطة بالمصارع

اما المؤلف فيظهر انهماكه فى الحديث مع الاربعة الذين ذكرناهم

المؤلف ــ لقد اخترت المسرح مكانا لاجتماعنا الثانى . فانه يليق بالمهمة التى اجتمعنا من أجلها .

الشاب ــ وقد رأيت أن ادعو معنا « الناشر » فان العمل لايتم بغير وجوده

المؤلف ــ (لا يبدو عليه الارتياح لذلك) أخشى أن يكون فى هذه الدعوة ما يعطله أو يضيع وقته بلا فائدة . .

الناشر ــ اجتماعى بكم شرف . ولكن صدقنى أنا لا اعرف المطلوب منى

الشـاب ــ وأنا لم ارد ان اشرح الامر لك قبل مجيئك فانه من الصعب شرحه

الناشر ــ (غير مدرك لمعنى هــــذا الكلام) صــعب شرحه .. !

الشـاب ــ أعنى أن من الافضل ان تحضر معنا ، وان تشترك فى الحديث ، بلا رأى سابق

الناشر ــ الموضوع ؟

المؤلف ــ اسمع يا صديقى ، هل تذكر مسرحية « أسرة جنت »

الناشر ــ بالطبع .. كيف لا اذكرها .. لقد كانت بداية السعد

المؤلف ــ اما أنا فقدكدت انساها ، اعنىانسىالتفاصيل،فقد كانت عملا قديما ، واستطيع ان اقول انه عمل ناقص ، غير ناضج ، ولكنه عمل نجح ، فقد كان النقاد لا يعرفون عنىشيئا، فتنافسوا فى تشجيعى ، ليكون لكل منهم فضل تقديمىوابرازى وبعد ذلك ، تنافسوا فى هدمى وتحطيمى ، ولكن بعد فوات الاوان .. المهم أن ابطال هذه المسرحية اجتمعوا فى بيتى ، وقرروا أن يحتجوا على ، فقد أسأت تصويرهم ، وبالغت فى الصاق صفات سيئة بــكلّ منهم . وقدتهم الى الجنــون بلا سبب مفهوم لهم ..

الناشر ــ (تبدو عليه دهشة شديدة لهذا الكلام) ماذا تقول يا سيدى .. ابطال المسرحية ؟ انت تمزح ..

المؤلف ــ هذا السيد ــ أحد ابطال المسرحية ..

الشـاب ــ (يمد يده نحو الناشر) يسرنى أن اقدم نفسى اليك ..

الناشر ــ (لا يصافح اليدالممدودة) أنتتعبث بى ياسيدى.. (يهم بالانصراف) ..

الشاب ــ (يمسك بالناشر) لا تتعجلّ .. فالامر جديد .. لم يسبق أن حدث شيء من هذا القبيل . ولكننا نعيش فيعهد يتم فيه كل شيء بالتفاهم والتراضي ، لامكان الآن للقهر،وفرض الارادة ..

الناشر ــ (للشابة) وأنت يا سيدتى من تكونين أيضا ..

الشابة ــ انا صديقة هذا الشاب ، احدى بطلات هــذه المسرحية الذائعة الصيت

الناشر ــ (يهم بالوقوف) يفتح الله .. ! دعوا لى عقلى ، فأنا غير مستعد أن أتنازل عنه ..

(يسمعصوت المصارع ، وهو يلقىأوامره للسيدة وأزواجها)

المصارع ــ ليس الامر متروكا لك تماما ، يمكنك أن تختارى أحد الازواج .. زوجين على الاكثر .. ولكن ليس فى الامكان ان نختار لك زوجا خارج الرواية . يمكنك أن تتزوجى الشاب ان قبلَ ..

الزوج رقم ١ ــ وهلَ يمكننى أن أتزوج هذه الشابة ؟ .. (يشير اليها من بعيد)

المصارع ــ (يبدو عليه الارتباك) فى هذه الحالة اريد أن أعرف كيف تسير وقائع الرواية ؟ يجب أن نحتفظ بعناصر تؤدى الى جنون الاسرة

الزوج رقم ٢ ــ بهذه الصورة تزيد اسباب الجنون ... فالسيدة التى تجاوزت الاربعين تتزوج شابا دون الثلاثين .. ورجل كالببغاء فى مظهره وجوهره ، يتزوج شابة كالديناميت

الزوج رقم ١ ــ ماذا تقول ؟ ببغاء .. ! ديناميت .. !

الناشر ــ ومن يكون هؤلاء السادة ؟

المؤلف ــ بقية ابطال القصة . . !

الناشر ــ عالِ . . عال . . اسمحوا لى بالانصراف

الشيخ ــ صبرك . . صبرك يا اخى . !

الناشر ــ مادخلى انا بهذا الموضوع . هــذا هو المؤلف وحضراتكم المؤلفون (١) ، اتفقوا كما تشاءون.فالامر أمركم ، والشأن شأنكم

الشاب ــ ولكن اتفاقنا يؤثر على حقوقك . . فأنت صاحب حقوق الطبع والنشر

الناشر ــ انتم ستؤلفون رواية جديدة

الشاب ــ لا . . لا . . نفس الرواية ، بنفس الاسم ، ونفس الابطال ، وربما نفس الوقائع ، مع تعديل صفات الابطال ،وتغيير بعض العلاقات التى تربطهم بعضهم ببعض . . باختصار ، سنستفيد من تجارب هذا القلم الذى ازدادت معرفة صاحبه بالنفوس والاساليب

الناشر ــ الناس لن تعرف الا القصة الاولى ، ولن تقــرأ غيرها

الشاب ــ اذن الامر لا يهمك فى قليل او كثير . .

الناشر ــ ابدا . . السلام عليكم (يهم بالانصراف)

الشاب ــ انتظر ، سأخبرك بشىء يجب أن تفكر فيه . هذا الاجتماع الذى شهدته ، والذى ترفض الاستمرار فى حضوره ، سينشر ، وسيذاع نبؤه ، وسيكون ذلك اعلاناعظيما للرواية الجديدة . .

---

(١) المؤلفون ، اسم مفعول ، اى اللام مفتوحة

الناشر ــ (وقد وقف وصمم على الانصراف) لن يصدق أحد حرفا مما ستنشرون

الشاب ــ ولكن المؤلف نفســـه هو الذى سينشر ذلك . سيروى كل مادار بيننا وبينه

الناشر ــ (ضاحكا من الاعماق) سيقولون هذه المرة ان الجنون قد انتقل من الاسرة الى المؤلف ..

الشابة ــ الا تظن أن هذا فى ذاته اعلانا مثيرا

(المصارع يعاود الصراخ مع السيدة وأزواجها)

المصارع ــ اسالى المؤلف .. نحن لانؤلف رواية جديدة .. نحن نريد أن نحسن صورتنا .. نحن لا نريد أن يضحك الناس علينا بلا مبرر ..

السيدة ــ حينما تتغير أخلاقنا ، تتغير كلّ تصرفاتنا ، وبذلك تتغير الرواية ..

المصارع ــ المهم انك تريدين زوجا رابعا .. ساخنقه لك ، لتستريحى ..

السيدة ــ زوجى هذه المرة ، سيكون مروض سباع .. سيقضى عليك بركله من قدمه ، أو لكمة من يده

المصارع ــ (يثور) ركلة من قدمه .. لم يوجد الرجل الذى يستطيع أن يقترب منى

السيدة ــ البركة فى الاستاذ (تشير من موضعها الى عصام رشيد) انه يخلق مالا تعلمون ..

(تستمر السيدة والمصارع ومن حولهم فى حديثهم بصوت غير مسموع من النظارة)

الناشر ــ انا أعرف ما الذى دهاك .. ان هذه الخيالات

ستخرب بيتى وبيتك ، اذا استمعنا اليهم . الروايات لاتؤلف بناء على طلب أبطالها

الشابة ـ (ساخرة) بل تؤلف بناء على طلب الناشر

الناشر ـ الناشر يمثل الجمهور ، يمثل المجتمع ، يمثل الذين يدفعون الثمن ، فمزاجهم يجب أن يراعى والا فمن حقهم ان يضربوا عن قراءة الكتاب الذى لا يعجبهم . وبذلك يتحول المؤلف الى مجنون يحدث نفسه ، ولا يسمعه أحد

الشابة ـ ومن أجل سواد عيون الجمهـور يمسخ المؤلف شخصياتنا ، ويبرزنا فى صور مهلهلة ليضحك هذا الدكتاتور المتجبر

الناشر ـ ليست مؤلفات الكتاب كلها سخرية وضحكا ، ان فيها مآسى تدمع لها العين ، ويتمزق لها الفؤاد

الشاب ـ ولكنها مآسى مما يروق للجمهور أن يأسى لهـا ويحزن ، مآسى لابطال يحبهم أو يشفق عليهم ، أو يحب أن يتظاهر بالشفقة عليهم ..

الناشر ـ أنتم تريدون أن تجعلوا من التأليف عملية ديموقراطية لا تصدر رواية الا بعد أن يتشاور المؤلف مع ابطاله ، ويوزع عليهم ادوارا يقبلونها ، ويرتضونها ..

الشابة ـ ابدا . نحن لانريد أن يشعر المؤلف أنه حر .. يخرج من كمه ، كما يفعل الحاوى شخصيات ما أنزل الله بها من سلطان ، وتبقى هذه الشخصيات وتخلد ، ويموت هو ، ويترك من ورائه أبطاله ، يلقون الهوان ، ويـكابدون الآلام ، وهو قانع بأنه خلق عملا خالدا

المؤلف ـ تريدون من المؤلف ، أن يتقيد بقيود

الشاب ـ بقيود المنطق والمعقول والتجربة ..

الناشر ـ ماهو المنطق والمعقول .. المعقول عندك مرفوض عندى ..

الشاب ـ اتظن ان المعقول هو القرش .. الموضوع الذى يربح أكثر .. هو الاكثر حظا من المعقولية

الناشر ـ (غاضبا) أيها الشاب ، لا تطل لسانك على ، ان الكتاب الذى يقرأ هو الكتاب الذى يحتاج اليه الناس .. اما الذى يريد أن يحدث نفسه ، فلا يؤلف كتبا

الشابة ـ أنت تريد من كل من يجد ورقة وقلما ، أن يكتب، فان راج كتابه كان ذلك دليلا على فائدته .. خذ كتابنا مثلا ، لقد كان الاستاذ المؤلف فى ذلك الحين ، شابا غير مجرب .. لم يكن رأى امرأة ، ولاعرف ماهو الزواج ، ولا ماهو الحب ، ولا ماهى العائلة ، واخذ يلعب بقلمه ، كما يلعب الطبيب غير المتمرن بمشرطه فى جسم مريض فقير .. وهولا يعلم أن الآلام التى يسببها القلم غير المجـــرب أكثر من آلام المشرط غير المدرب .. !

المؤلف ـ أعترف أننى كنت فى ذلك الحين غـــرا غير مجرب .. !

الناشر ـ لا تقل ذلك عن نفسك .. التجربة فى حياة الموهوبين لاتساوى شيئا . فكم من فنان شاب موهوب يعرف عن حقائق الحياة ، مالا يعرفه الشيوخ المجربون ..

الشاب ـ لا تجادل فى حقائق مادية .. انظر الينا .. هل تعجبك هذه المجموعة ؟ اننا اشباه تماثيل من صنع نحات لايزال يتهجى

الناشر ـ بالعكس ، اراكم مخلوقات كاملة . لقـــد اثرتم الاهتمام فى كل مكان . لقد مثلت الرواية شهورا متتابعة ، عند أول ظهورها ، ما من ناقد الا وكتب عنها ، مشجعا ، مرحبا ، مهنئا ، ثم طبعت المرة بعد المرة .. طبعات انيقة

فالية ، طبعات رخيصة شعبية .. ثم حدث ما لم يكن فى الحسبان ..

الشاب ــ (متظاهرا بالاهتمام) ماذا حدث ؟

الناشر ــ حدث ان ترجمت المسرحية الى كل اللغات ، الالمانية ، الروسية ، الاسبانية ، الانجليزية ، والبرتغالية

الشاب ــ (مكملا) الصينية ، الاوردية ، الارمنية ، المجرية ، التشيكية ، واخيرا التنجابيلية

(يمد الحروف فى الاسم الاخير)

الناشر ــ التنج ... (يعجز عن اكمال الكلمة)

الشاب ــ التنجابيلية .. الم تسمع بالاسم من قبل ؟

الناشر ــ عندى فى المكتب أوراق وعقود كل هذه الترجمات

الشاب ــ والمكاسب لمن ؟

الناشر ــ لنا .. له الثلث .. (مشيرا الى المؤلف) ولى الثلثان ، فأنا الذى اتحمل مصاريف وتكاليف المراسلات ، وعقود المحامين ، والاشراف على الطبع .. عمليات شاقة ومرهقة

الشيخ ــ ونحن ابطال القصة ، ماذا كسبنا ؟

الناشر ــ اسمكم فى كل مكان .. صورتكم فى كل صورة .. انتم موضوع لاينضب معينه من الافكار والخواطر والانتقادات .. ماذا تريدون اكثر من هذا ؟

الشيخ ــ نحن محل السخرية فى كل مكان .. كل ذلك بسبب شاب يريد أن يشتهر .. وناشر يريد أن يجمع المال .. أنظر الينا ، اننا كضحايا حرب .. مشوهين ، ممسوخين .. ليس لنا معنى ولا طعم .. (يتجه الى المؤلف منفعلا) قل لى بحق السماء ياسيدى المؤلف ، كيف استبحت لنفسك

ان تهزا بخلق الله على هذه الصورة دون أن يؤنبك ضميرك. ان عملية الخلق ليست بالعملية الهينة ..!

المؤلف ـ لا تحملني اوزار غيري

الشيخ ـ اوزار غيرك ، كيف ؟ هل كتب معك هـــذه المسرحية احد غيرك ؟ هل اشترك معك في خلقنا ، وصنع وجوهنا ، وصب اخلاقنا ، مؤلف آخر ؟

المؤلف ـ (يبدي حركة ياس بذراعيه) انكم لا تعرفون !

الشيخ ـ (مقبلا نحوه) لا نعرف ماذا ؟

المؤلف ـ ان المؤلف آخر من يحق لومه او عتابه .. انه يؤلف المسرحية ، فيتلقفها منه المخرج ، فاذا به يشكلها على هواه ، فاذا بها شيء آخر ، لم يفكر فيه المؤلف ، ولم يخطر على باله ، ثم ياتي دور الممثلين فيلبس كل منهم الشخصية التي يصورها ، الثوب الذي يعجبه ثم ياتي النقاد ، فيفهم كل منهم المسرحية ، بالطريقة التي تعجبه .. ولذلك فأنا لا استطيع ان اقول اني اعرف شخصيات مسرحياتي ، فلكل شخصية منها على الاقل ، عشرون صورة .. وجاءت الترجمة فزادت الطين بلة .. فالرواية في كل لغة بلون . فاصبحت كالرجل الذي ابتعد عنه اولاده ، فلم يعد يعرف حتى وجوههم واذا لقى احدهم في الطريق لم يحيه ، او يقترب منه ، الا ان يتوسط شخص يعرف الاب بالابن ، فيقدم كلٌ منهما الى الآخر .. وليس في هذا شيء غريب فالسيد المسيح في بلاد اسكنديناوه ، طويل ، اشقر اللون ، ذو عينين زرقاوين وهو في كنائس الحبشة ، اسمر اللون .. ولا بد ان يكون في كنائس الزنوج ذو ملامح افريقية ..

الشيخ ـ انت تريد ان تنفض يدك من عملك ..!

المؤلف ـ ان العمل هو الذي يريد ان ينفض يده مني .. كل من يتصل بعمل المؤلف ، يرى ان من حقه ان يضع على

لسانى كلاما يعجبه هو ، ويضع فى رأسه افكارا ترضيه هو ، وعلى ان اسكت ..

لقد اصبحت فيلسوفا صاحب نظريات لم تكن تخطر على بالى ابدا .. ولا استطيع شرحها بل لا استطيع فهمها .. وكانت الجامعات تمنحنى درجات شرف ، على الافكار العظيمة التى يزعمون انى بشرت بها ، فاقبل هذا كله ، لا طمعا فيه ، بل خجلا من ان اخيب امل الذين وثقوا بى اكثر مما يجب !

الشاب ــ اذن حياة الفكر تزييف مستمر

المؤلف ــ المفكرون ضحايا المجتمع ..

الشاب ــ اذن من الذى نطالبه بتصحيح الموقف بالنسبة لنا ؟ من الذى يجبر هذه الكسور المشوهة فى شخصياتنا ؟ من الذى يقوم هذه العيوب التى ابتلينا بها ؟

المؤلف ــ اقترحوا ، وانا تحت الامر

الشابة ــ كان يجب ان تقدر مسئولية هذه الجريمة قبل ان ترتكبها ..

المؤلف ــ انا لا ارى الجريمة التى تتحدثين عنها ..

الشابة ــ هل تريد اكبر من هذه الجريمة ، ان تخلق اناسا وتتخلى عنهم ؟

المؤلف ــ لم اتخلَ عنهم ابدا .. لقد احببتهم من كل قلبى

الشابة ــ الم تقلْ لنا الآن ، ان المخرجين ، والممثلين ، والمترجمين ، والنقاد ، اخذوا يتجاذبون مخلوقاتك يمينا ويسارا ، صعودا وهبوطا ، وانت مكتوف اليدين لا تفعلْ شيئا ..؟ الا تحمى مخلوقاتك ؟

المؤلف ــ ومن يستطيع ان يحمى صنع يديه ، بعد ان يخرج من المعمل او المصنع ؟ ان عظماء الرجال ، المصنوعين من لحم ودم ، يجرى عليهم اكثر مما يجرى عليكم ..

الشابة ــ دعنا من عظماء الاحياء . وانظر كيف تختلف حظوظنا عن حظوظ الاحياء .. الاحيــاء يولدون صــغارا ، ويكبرون ، يبدأون اطفالا ثم صبيانا ، ثم شبانا ، ثم رجالا ، ثم كهولا ، ثم شيوخا .. لهم فى كل مرحلة من مراحل الحياة خصائص وفرص .. اما نحن ، فنولد فى اغلب الاحوال تامين، ناضجين .. المجرم منا مجرم منذ ولد ، ومجرم الى الابد . الملاك الطاهر منا ، يبدأ حياته فى اثواب الطهر ، والنقــاء ، ويبقى هكذا ، على مر الازمان والحقب .. نحن اشياء جامدة

المؤلف ــ (يصرخ) جامدة ..! لا تقولين هذا ..

(يأتى المصارع مسرعا ، ومن ورائة السيدة)

المصارع ــ لا تقولين هذا ..!

المؤلف ــ من التى تقول هذا ؟

المصارع ــ السيدة ..

المؤلف ــ من تكون السيدة ؟

المصارع ــ الا تعرفها ..؟

المؤلف ــ دعنى اتذكر ..!

المصارع ــ (مستهجنــا) ادعك تتذكر ..! تتذكر ماذا يا محترم ؟ اتتذكر ما صنعته يداك انها ليست بالشيء القليل .. انها سيدة كبيرة .. تزوجت ثلاث مرات ، على يديك وانجبت هذه الشابة ..

المؤلف ــ (مستكثرا) ثلاث مرات ؟

المصارع ــ نعم ، ثلاث مرات ..!

السيدة ــ (متدخلة) اكثير ثلاث مرات ؟ انك كما ترانى ، فى مقتبل العمر

المؤلف ــ (مقتربا منها متأملا فيها) على العموم لابأس !

السيدة ــ (منفعلة) لابأس فقط .. الا اعجبك ؟ الا يعجبك عملك ..

المؤلف ـ عملى ؟ (متبرئا) عملى انا ؟

السيدة ـ لا .. عملى انا ..! هل انا التى اخترت هؤلاء الازواج ؟ هل انا التى مسختهم بهذا الشكل ؟ .. انك لم تجد على برجل يملأ العين ..

الازواج الثلاثة ـ (يجتمعون حولها ، كأنما يهددون)

السيدة ـ لا تجروا نحوى هكذا ، فأنا لم اعد اخاف منكم

المصارع ـ (موجها الحديث للمؤلف) السيدة تقترح اساسا عجيبا للصلح بينك وبينها

المؤلف ـ تفضل ..

المصارع ـ تقترح ان تتزوجك انت ..!

المؤلف ـ تتزوجنى انا ؟

المصارع ـ انت شخصيا ..

المؤلف ـ (مرتبكا) الامر يحتاج الى تفكير

المصارع ـ فكر .. لم يمنعك احد من التفكير !.. انما يجب ان نعرف الجواب حالا

المؤلف ـ (يحك ذقنه بيده) ولكن ايكون هذا ممكنا ؟

الشابة ـ انها فكرة بارعة .. ان يتزوج المؤلف احدى بطلاته ..

الشاب ـ خصوصا اذا كانت لها ابنة جميلة كهذه الشابة

المؤلف ـ هل هذه ابنتك ؟

الشابة ـ نعم ، هذه أمى

المؤلف ـ يبدو انه لا اعتراض لك على هذه الامومة ..!

الشابة ـ انا ..! كيف ارفض ان اكون ابنة لأم ممتازة كامى .. لقد تزوجت ثلاثة رجال ، فأصبحت لها تجربة كبرى فى الحياة ، ومع ذلك لم تفقد ايمانها بالرجل ، ولا ثقتها فيه ..

المؤلف ـ وتقترحين ان تعيشى مع امك ، اذا تزوجتها ..

الشابة ـ اذا تفضلت انت .. اما انا فأكاد اطير من الفرح اذ اتصور اننى سأعيش تحت سقف واحد ، مع مؤلف عبقرى

المؤلف ـ ماذا تقولين ؟ عبقرى !

الشابة ـ اتستغرب ذلك ، انك عبقرى فعلا

المؤلف ـ ولكن الذى فهمته انكم ثائرون على ، لانى صنعت شيئا ناقصا ، وقد كنت تتهيمنني منذ قليل بانى كتبت مسرحيتكم وانا شاب غير مجرب ..

الشابة ـ من منا يرضى عن حظه ، هؤلاء الاحياء ، كل منهم يتصور نفسه احق بما عند غيره .. ونحن اولى بهذه الغيرة

الشاب ـ لقد بدأت تتخلين عنا ، لما عرفت انك ستعيشين مع المؤلف وستصبحين بذلك مصدر وحيه



المشهد الثانى

المؤلف يذرع المسرح امام ابطال الرواية جيئة وذهابا والجميع ينظرون اليه ... يتوقف ثم ينظر الى الناشر

المؤلف ـ ما رأيك انت ؟ مؤلف المسرحية ، بعد ان يفرغ من تأليفها ، وبعد ان تعرض وتشاهد ، وينتهى قول الناس فيها نقدا وتعليقا ، يتزوج المؤلف بطلة القصة او احدى بطلاتها ..

الشابة ـ ان اردت الحق ، انا بطلة القصة ، انا التى سببت كوارث العائلة ، وانا التي بعثت الحركة والحياة ، فى كل فصولها .. بغيرى كانت الرواية تفقد امتاعها .. راجع اقوال النقاد ..

المؤلف ـ ولكننى كما ترين .. انا رجل قد تجاوز الخمسين !

الشابة ـ ان حياة رجلَ الفكر لا تقاس ابدا بالسنين ، انه لا يعيش بجسمه ، ان جماله فيما يقول .. فى نزواته .. فى غرابة اطواره ، وفى تقلبات روحه ونفسه !

المؤلف ـ (يضع يده على كتفيها ويضمها اليه قليلا) انك تصلحين حقاً زوجة لاديب او فنان

الشابة ـ الست صنع يد فنان ؟

المؤلف ـ ما اجمل المجاملة ..!

الشابة ـ (ضاحكة ومتمايلة نحوه) مجاملة .. لا .. لا تقل ذلك ، انها الحقيقة ..

(المصارع يضع يديه فى جانبيه ويقف فى وسط المسرح)

المصارع ــ الله .. الله .. لقــد جئنــا نشكو المؤلف ، فوقعنا فى حبائله ، لقد اصطاد احسن ما فى المجموعة ..

(موجها الحديث الى السيدة) والآن ماذا تقولين ، والمنافسة بينك وبين ابنتك ؟

السيدة ــ لم يبق الا هذا ..

المؤلف ــ ما رأى السيد الناشر ؟

الناشر ــ (متهللا) ان اردت الحق . الفكرة جميلة جدا.. اتنبأ لها باستقبال عظيم . عليك ان تترك هؤلاء .. (مشيرا الى ابطال المسرحية) وتذهب لتعمل ..

المؤلف ــ وحدى ..

الناشر ــ نعم ، وحدك كالعادة

المؤلف ــ (مشيرا الى الشابة) ولــكن ..

الناشر ــ لا تضيع وقتك ، انك خلقت لتعيش وحدك ..

المؤلف ــ شيئا من الرحمة ، لقــد ضقت بهذه الوحــدة الموحشة . اريد ان احطم هذا القفص . اريد ان اعيش مع الناس ، لا ان انظر اليهم من وراء قضبان حديدية من الافكار والتخيلات .. تعالى ايتها الشابة ..

الشاب ــ لقد دمغتها بسوء الطالع . ما من احد اتصل بها الا واصابه مكروه ..

المؤلف ــ هذه تخيلات مؤلف ..!

الناشر ــ ومع ذلك فان الناس تؤمن بما تقول ..

المؤلف ــ هذا من حسن حظك انت ، ومن سوء حظى انا

الشاب ــ ازاهد انت فى ثقة الناس بك ؟

المؤلف ــ ثقة الناس فى اول الامر ، امل عظيم ، ثم لاتلبث انتصبح قيدا فى العنق ، فالمؤلفلا يستطيع ان يغير آراءه ،

حتى لو كشف زيفها او بطلانها ، والا اتهمه الناس بالذبذبة ورجموه بالطوب

الشاب ـ ان صـــحبتنا لك يومين ملأتك كفرا بعملك ورسالتك .. يجب أن نتركك وحـدك ، وأن نحتمل نصيبنا بصبر

المؤلف ـ ان مصيركم احسن مما تتصورون

الشاب ـ ليكن ما يكون

المؤلف ـ اذا كنتم اليوم شخصيات تدعو الى الضحك ، فسيأتي اليوم الذى تفهمون فيه على صورة اخرى . انالناس تتغير اذواقهم وافهامهم من جيل الى جيل.. العبارة السخيفة فى يوم ، تعتبر حكمة بالغة فى يوم آخر .. لا تزال امامكم سنون طويلة

المصارع ـ هـــذا كلام لا اقبله ، انه مجرد ضحك على الذقون . لقد خلقتنا خلقا عجيبا ، ولم يعـد فى امكانك ان تصلح ما افسدت . لقد اصبحنا بعاهاتنا ، وانحرافاتنا ، اعزاء عليك .. واعزاء على السيد الناشر . ولذلك تود ان تصرفنا بكلمة تطيب بها خاطرنا . ونحن لا ننصرف الا اذا تغيرنا وصلح حالنا . انا مجرد عضلات ..! عضلات بلا عقل ..

الشيخ ـ احمد ربنا .. لقد اعطاك اضراسا تطحن بها الصخر ، ومعدة تفتت الحديد ، وشهية تتسع لجمل صغير ، ولعدد لا يحصى من الزوجات والخليلات

المصارع ـ انت لايرضيك المال الذى جمعته ؟

الشيخ ـ حامد شاكر .. ان رائحة القرش تسكر، اشمها من اميال بعيدة .. القرش ياسيدى هو الحياة كلها ..

السيدة ـ ولـكنك لم تفعل بحياتك شيئا الا جمع المال !

الشيخ ـ (يغمض عينيه) جمع المال ..! هل هناك فى الدنيا شيء اجمل من جمع المال . ان بعض المعاتية يجمعون

طوابع البريد ، او السجاجيد ، او العملة . اما انا فاجمع القرش الى جانب القرش ، واتأمل الاكوام وهى ترتفع ، وترص بعضها الى جانب البعض .. هذه هى الهواية المعتبرة .. هذه هى هواية العقلاء ..

السيدة ـ وماذا بعد الاكوام ، والتلال ؟

الشيخ ـ الجميع يعلمون ان وراء ثيابى القديمة ، ووراء شيخوختى الضعيفة الوفا والوفا من الذهب ، يتبركون بالجلوس معى ، ويتشرفون بالسير ورائى .. يلعوننى من خلفى ، ولكنهم امامى ، يتنافسون فى كسب رضاى .. القاب تكريم ، ونعوت احترام ، وسمع وطاعة . فاذا ظهر من جيبى طرف جنيه ، او سمع منه رنين ريال ، اصاب الناس تخدير يسقط عنهم الوقار ، فيظهرون على حقيقتهم عبيدا للقرش سيد السادة

المصارع ـ (متضايقا) انته ، الخلاصة انك راض عن دور البخيل ..!

الشيخ ـ (بعد تفكير) كان الامر يكمل ، لو تفضل على السيد المؤلف ، ببعض الصحة ، بعض الاضراس .. ومعدة اقوى قليلا ..

المصارع ـ (ساخرا) اشتر بجنيهاتك والوفك ، معدة وصحة ..!

الشيخ ـ (مسلما) الا هذا ..! القرش يعطينى كل ما اشتهى ، الا الصحة ..!

الشابة ـ وحب الناس ..

الشيخ ـ حب الناس لا يهم ..! حب الناس يمكن ان يشترى بالمال ، او بكلمة لطيفة

الشابة ـ (متسائلة) حب الناس تشتريه بالمال ؟.. لابد ان يكون حبا زائفا ..

الشيخ ـ يا ابنتى لاتدخلينى فى هذه المآزق .. ما هو الحب الصادق ؟ انا لا اعرفه .. ما من انســان الا وخــانه اقرب الناس اليه ... وللناس الف حجة وعذر ، اذا ما خان بعضهم بعضا .. اعطنى مالا وصحة ، وانا الكفيل بالباقى.. من السوق اشترى حبا .. اشترى صحبة الجمال المؤنسة !

الشابة ـ انت تهيننا ..!

الشيخ ـ انا الوحيد العاقل فيكم .. كلـكم مجانين .. الذى يجرى وراء الحب ، سيحصـد منـه الحسرة والاوجاع والشكوك .. والذى يجرى وراء السلطان ، سيجد ان السلم المؤدى اليه هو الدرهم والدينار .. والذى سيبحث عن ..

المصارع ـ عن الصحة ..؟

الشيخ ـ هذه وحدها لا تباع ولا تشترى .. ولو تفضل على المؤلف بمعدتك واضراسك لـكانت الحياة جنة ..

المصارع ـ اعطنى شيئا من مالك ، وخذ بعض عضلاتى !

الشيخ ـ لا .. لا ياسيدى ، لو اعطيتك قرشا فسدت معدتى ، وامعائى ، ولم تنفعنى عضلاتك ولا أضراسـك .. دعنى بمرضى وقروشى

الناشر ـ هل يمكن ان انصرف ؟

المصارع ـ تنصرف دون أن نتفق على شىء ؟

الناشر ـ لا امل فى الاتفاق ..

المصارع ـ لن يذهب المؤلف الى بيته حتى يفسر لنا لماذا جعل منا حديقة حيوانات أو مستشفى مجاذيب

الناشر ـ الدنيا هى حديقــة حيوانات ، تنهش بعضـها بعضا ، ومستشفى مجاذيب ، كل من فيها يجرى وراء خيال مضحك

المصارع ـ كل الناس على شاكلتنـا .. ! اذن لماذا يضج الناس بالضحك كلما ظهرت شخصية منا على المسرح .. هل

يضحك الناس جميعا بعضهم على بعض ، كما يضحكون علينا ؟

الناشر ــ نعم ، ان الناس يجدون عزاء فى هذه السخرية ، ولولا ضحك الناس بعضهم من بعض لفسدت الارض .. !

السيدة ــ اكل النساء يتزوجن مثلى .. كل واحــــد بخلقة لا نظير لها بين الرجال ؟ اليس بين الرجال رجل وسيم، وغنى ، وله لسان يسلى ، ويبعد عن امرأته سأم الحياة

الزوج رقم ١ ــ ما العيب فى ؟ ان زواجنا انتج هـــذه الشابة ، لقد اوقعت فى حبائلها كل من رآها ، لقد احبهــا حتى المؤلف !

الزوج رقم ٢ ــ وليس الرجــال بالمظاهر .. الرجــال لايعرفون الا عند المعاينة ، وبالمعاشرة .. من يبهرك ظاهره ، قد يخيب املك باطنه .. الصدق والاخلاص والذكاء مواهب ليست لها علامات خارجية ..

السيدة ــ صدقت ، كانت حياتنا معا سعيدة .. لم يكن ينغصها الا اننى لم اكن احبك ..!

الزوج رقم ٢ ــ الحب .. الحب .. هذا الوباء الجــديد الذى اجتاح النساء والرجال ، وهم لا يعرفون معناه .. ان امهاتنا وجداتنا تزوجن وانجبن الرجال ، ولم يسمعن عن هذا الحب ..! .

الشابة ــ لقد ورثنا الحب عن امهاتنا .. ان الحب ولد مع آدم وحواء

الزوج رقم ٢ ــ انا رجلٌ علمي محــدود ، ولــكن الذى اعلمه ان الله امر آدم وحواء ، الا يقربا الشجرة اى نهاهما عن الزواج ، فتزوجا ، فعرفت آلام الحمل ، وعرف هو متــاعب كسب قوته بعرق جبينه

المؤلف ــ تفسير لطيف ..

الزوج رقم ٢ ــ (متشجعا) ياسيدى ، ان الناس تفقد

سعادتها بسبب ما يسمونه بالحب .. وهو « موضة » أؤكد لك اننا بعد خمسين سنة لن نسمع عنها .. ان الزواج الناجح ، كما يلد اولادا صالحين فالحين ، يلد مودة تحتمل من الصدمات أكثر مما يحتمل الحب ، وتنفع الازواج ..

الشاب ــ انها القاعدة المعروفة ، من لا تصل يده الى العنب ، قال عنه حصرم ..!

الزوج رقم ٢ ــ عنب ، وحصرم .. لقد كنت زوجا ناجحا من جميع الوجوه ، سل السيدة ، انها لم تكن تشكو من شيء حتى خنقني هذا الثور .. لانه كان يتصور ان السيدة تحبه .. ومنذ هذه اللحظة ، بدات زوجتي تشكو من حياتي معها ، لان اعترافها بالسعادة معي ، كان يكلفها حدادا طويلا، ويؤخرها عن زواج ثالث ..

الشاب ــ اذن كان بينكما حب ؟

الزوج رقم ٢ ــ انا لا اعرف هذا التشنج ، الذى تسمونه حبا .. انا اعرف حقائق الحياة .. وكلما ساورتني نفسي ان العب هذا الدور ، دور المحب ، أوشكت ان احضر بعض الكلمات المحفوظة ، التي يرددها الناس ابا عن جد ، وشاعرا بعد شاعر ، وجيلا بعد جيل ، خجلت من نفسي وقلت ، لماذا نضيع الوقت الثمين في هذه السخافات .. نحن نأكل بحمد الله وننام ، لدينا طعام جيد ، وبيت لطيف ، ولسنا نشكو علة من العلل ، فما حاجتنا الى هذا الوهم الذى يسمونه حبا ؟

المؤلف ــ فالحياة عندك طعام ، ومسكن ، وصحة جيدة ..

الزوج رقم ٢ ــ الحياة عند الجميع هي هذه ، ولكن اكثر الناس يكذبون .. انا اعرف شاعرا ماتت حبيبته ، فأخذ ينظم شعرا جميلا في رثائها ، وكان الظن انه سيعيش ابد الدهر على ذكراها ، ثم ظهر ان هذه الاشعار ، هي حبائل لاصطياد امرأة جديدة

الشاب ـ ان النـاس فى نظرك ديدان .. حشرات .. حيوانات

الزوج رقم ٢ ـ انا استطيع مثلك ايها الشاب ان اتحدث عن المعانى العليا فى الحياة .. وان اضحك على ذقون الآخرين، ولـكنى لا افعل ذلك مع اخوانى واهلى وعشيرتى .. اننـا لا نبيع بعضنا لبعض كلاما .. .. انت تحزن حينما اقول لك ان الانسان حيوان .. ولـكن اذهب الى الغابة ، تجـد السباع والضباع تنهش فرائسها ، والدم يسيل علىافواهها ، فتنفر منها .. ثم تجلس انت على مائدة ، يبســط عليهـا مفرش جميل ، وتزين بالزهور ، وتصف عليها الملاعق والشوك والسكاكين الفضية ، وتعزف من خلفك الموسيقى ، ويقوم على خدمتك رجال فى اثواب بيضاء ناصعة ، وسوداء انيقة ، وتقدم لك فريسة كالفريسة التى كان يأكلها اخوانك السباع والضباع فى الغابة ، فتستمتع بالاكلة ، وتتلمظ ، وتملأ الفراغ ، ما بين كل قضمة وقضمة بنكات ودعابات ، ثم تقول لنفســك انك انسان راق .. انك حيوان منافق ، يعرف كيف يغطى عيوبه فقط ، وكيف يستر علاقته بأخيه الحيوان ..

المصارع ـ (يقوم) اذن لا داعى لاضاعة الوقت .. نحن جئنا للمؤلف ، ليختار لنا قوالب جديدة يصبنا فيها منجديد. فأفهمنا صاحبنا ان الناس حيوانات ، وان اخواننا السبـاع والضباع ، افضل منا . ففيم الجهد ؟ ولم نشكو من ســوء الحال ؟..

الزوج رقم ٢ ـ اظن انك آخر من يحق له ان يعارضنى. فلقد انشبت فى اظافرك ..!

المصارع ـ (يطرق خجلا) ليس الذنب ذنبى !.. انه ذنب هذا الاديب الذى شاء لى ان اكون مجرما .. ويعلم الله انى اطيب الناس قلبا ..

الزوج رقم ٢ ـ (يتجه نحوه ، ويمسك ذراعه بيده ،

ويخاطبه فى لهجة المواسى) ياسيدى ما فات مات .. ان حياة ابطال الروايات ، كحياة ابطال الحيـاة ، مجرد خيـالات على شاشة تختفى وتظهر ، وصدقنى يا صاحبى اننى اعرف ان كثيرين ممن تشبه شراستهم شراسة الحيوانات ، اطيب قلبا من الناعمين ، الذين اتقنوا صناعة النفاق ..

المصارع ــ (فى لهجة ندم واستغفار) هل صحيح انك عفوت عنى ؟

الزوج رقم ٢ ــ فى الحال ... فكل منا خلق ليمثل دورا

المصارع ــ عفوت عنى لانك تعلم ان الاختـيار وقع على لأمثل معك دور القاتل ..

الزوج رقم ٢ ــ لا .. لقد عفوت عنك بوصفك قاتلا ، وبوصفى قتيلا .. ! فلا فرق بينك وبين امثالك فى الحياة .. الناس ايضا يمثلون ادوارا .. ولا تظن ان جميع الناس ترضى عن الادوار التى تمثلها فى الحياة .. بعض الاشخاص من الاحياء تقتضيهم ادوارهم ان يكونوا غلاظا ، متجهمين ، وهم بطبيعتهم باسمين ، متسامحين ، وآخرون تقتضيهم ادوارهم ان يكونوا متقشفين ، متطهرين ، وليس اثقل على نفوسهم من التقوى والورع .. ياسيدى نحن احسن حالا من الناس ..

المؤلف ــ انكم تؤلفون رواية جديدة .. انكم تؤلفون رواية ابدع من التى وضعتها ، وظننتها آية الآيات

الزوج رقم ٢ ــ نحن لن نغير روايتنا .. لقد انتهى ذلك، واصبح من العبث محاولة الرجوع فيه ، نحن سنؤلف رواية نقابل فيها بين حياتنا نحن وحياة الناس

الشابة ــ من الذى سيضيع وقته معك فى هـذا .. انا لا اريد فلسفة .. انا اريد ان اعيش محترمة .. اريد ان اعيش مع هذا الشاب ، دون ان يشير الينا الناس بأصابعهم كأننا ارتكبنا جريمة ..

المؤلف ـ عندى اقتراح ..
المصارع ـ اخيرا ..
المؤلف ـ لقد وافقتكم على كل ما طلبتم .. لقد كنت مستعدا ان اؤلف لكم قصة جديدة ، وان اعدل لكم قصتكم القديمة ..
الشاب ـ (ساخرا) يا لضمير المؤلف ..!
المؤلف ـ المسألة ليست مسألة ضمير ، فلقد اصبحتم اعزاء على .. اجزاء من حياتى .. باسمكم ، وعلى اكتافكم ، صعدت الى الشهرة ، واثريت .. وقد جئتم تشكون الى ، وسقتم حجة مقنعة . قلتم لى انني كنت عندما خرجتم الى الحياة ، شابا صغيرا ، قليل التجربة ، واقدمت على موضوع خطير .. وكان يجب ان اؤجل هذا العمل الضخم . فأثرت فى الفكرة ، وقبلت ان اعاود التجربة ..
الشاب ـ وفى هذه الاثناء ، رأيت ان تكسب حب هذه الشابة (مشيرا اليها)
المؤلف ـ من اجلكم ايضا قبلت الفكرة ، فقد رايت ان ذلك مما يعين على تفجر ينابيع الاحساس فى نفسى . فالشابة بطلة هذه القصة ، فتاة ملهمة ، انها ليست جميلة فحسب ، وليست ذكية فقط ، انها اولا مغامرة ، وثانيا واثقة من نفسها ، كارهة للقيود ، مجددة ..
الشاب ـ مرحى ! مرحى !.. انه الغزل علنا ..
المؤلف ـ لا تسرع الى سوء الظن . فان الفكرة لم تعرض على نفسها الا الآن . والحب لايولد فى دقائق ..!
الشاب ـ ولا حتى مع بطلات القصص ؟
المؤلف ـ ابطال القصص وبطلاتها قد يحبون بعضهم بعضا حبا صاعقا ، بلا تمهيد ولا تدبر . ولكننى لست من ابطال قصتكم ..

الشاب ــ (مقاطعا) انت ربنا الاعلى ..!

المؤلف ــ لا تخطىء ثانية .. صـــــانع الافكار ، وخالق الصور ، ليس حرا . انه عبد ابطال وبطلات قصصه . فهو لايكاد يصنع هياكلهم ، حتى تدب فيهم حياة ، منبعثة من اعماقهم ، فيتصرفون من تلقاء انفسهم . ويسير المؤلف وراءهم مغمض العينين

الشاب ــ هذه بشرى طيبة لك (ناظرا الى الشابة) فانك اذا عشت مع المؤلف ، كنت سيدته ، ومليكته

المؤلف ــ (ناظرا الى الشابة) كيف تحول مجرى الحديث؟ الم يكن الاصل أن أتزوج ؟

الشابة ــ (مصححة) كان الاصل فى الاقتراح ان تتزوج امى .. ولـكننى اولى بوجودى معك ، نصنع هؤلاء الاشخاص من جديد ، صناعة متقنة ..!

المؤلف ــ هل هذا مهر الزواج ؟

الشابة ــ اتكره ان اعاونك فى عملك ؟

المؤلف ــ اكره أن تصفى عملى بالنقص

الشابة ــ يا لغرور اهل الفكر ، وصلف الفنانين ..!

المؤلف ــ اتحبين أن تعيشى مع رجل يعمل عملا ناقصا ؟

. الشابة ــ دور المراة أن تكمل عمل الرجل .. العمل الذى يعمله الرجل وحيدا ، هو عمل ناقص ..!

المؤلف ــ وا ضيعة عمرى ..! وا حسرتاه ..! لقـــد قضيت حياتى بلا امرأة ..

الشابة ــ لا تصدق اوهامك . لقد كنت دائما مع النساء ، فان من يقرا قصصك ، يعرف انك خبير بدنيا المراة ..

المؤلف ــ خبرة التأمل والتمنى والتصور .. لقد هربت من المراة بعد اول معركة معها ، لقد رفضتنى ، فعشت حيـاتى

اخشاها ، واخاف منها .. واحبها ..!

الشابة ــ ماذا يجنى الرجل من المرأة اكثر من ذلك .. انها ليست لقمة تؤكل وتمضغ .. انها ليست ثوبا يلبس ويبلى .. انها تمنيات ، واحلام ، وصور ، انها شكوك وعذاب ، وخواطر وافكار ..

المؤلف ــ ماذا بقى اذن ، لكى اعرفه معها ، او لكى اناله بقربها ؟

الشابة ــ فى هذا السن، وبعد طول الوحشة ، سيمنحك الاقتراب من المرأة ، احساسا جديدا بها . وسيرهف شعورك بمفاتنها ، ومعانيها ، وبمتاعب الحياة فى ظلها ، ومتاعب الحياة بعيدا عنها ..

الشاب ــ وهل هو قادر على تحمل هذه التجربة فى هذا السن ؟

المؤلف ــ دع عنك الغيرة .. انك تسدى جميلا الى ، انك تطوق عنقى بجميل لن انساه

الشاب ــ (فى مرارة) لست قادرا ان اتبرع بحبى وعواطفى ، ولا ان اتنازل عنها ، على سبيل الاحسان والشفقة

المؤلف ــ (وقد بدا عليه شيء من الخوف) انا اريد حياة هادئة ، لا ازيد ان اعيش فى ظل التهديد ..

الشاب ــ (يقترب منه ويربت على ظهره) لاتخف ياسيدى ان المرأة التى تتزوج رجلا فى مثل سنك ، لمجرد اجراء تجربة ، لايمكن ان يكون عملها هذا حبا !

المؤلف ــ لماذا تنغص على احساسى بهذه السعادة ؟ لماذا تفسد على فرحى بهذا الامل الجديد ؟

الشاب ــ هذا هو القدر المصاحب للحب .. كل قطرة من قطراته المسكرة مصحوبة بقطرات من سمومه المهلكة ..!

المؤلف ــ كأنى قلت شيئا من هذا القبيل ..

الشاب ـ هذا كلامك انت ..!

المؤلف ـ كلامى انا ..؟

الشاب ـ على لسانى انا ..!

المؤلف ـ كان ذلك قدر علمى بالحب منذ خمس وعشرين سنة ..

الشاب ـ هذه حقائق ندركها ، ونحن نضع اقدامنا على عتبة الشباب . وهى دائما حقائق خالدة . لا نحتاج لكى نكشفها ونعرفها الى سن او تجربة . انها حقائق حياتنا التى ولدت مع امنا العزيزة حواء ، وابينا المحترم آدم ..!

المؤلف ـ اذن فيم شكواكم من نقص عملى ؟

الشاب ـ الا تشكو انت من هذا النقص ؟ لقد كتب علينا، ان نفخر بما نعمل ، وان نبرأ منه فى وقت واحد .. ان نرى آثارنا اجل من ان تزول ، واحقر من ان ترضى طموحنا ..

المؤلف ـ كأنى قلت شيئا فى هذا المعنى ..

الشاب ـ بل هو كلامك انت ..!

المؤلف ـ فى اية رواية ؟

الشاب ـ فى رواية « اسرة جنت » ، وعلى لسانى انا ايضا !

المؤلف ـ اذن فأنت انا ..!

الشاب ـ هكذا قال الذين قرأوا كتابك ..!

المؤلف ـ ففيم الغيرة منى ، وانا انتزع من بين احضانك ، صديقة صباك ؟ انها ستدخل فى أحضان نفسك .. !

الشاب ـ يا سيدى ، انا اغار من نفسى ! فأنا شبابك ، وانت شيخوختى . انا العواطف والخيالات .. وانت الحقائق والمادة .. لقد كان هذا الحب لى ، خيالا ، وأملا ، حينما كانت حياتك خيالات ، وآمال ، وهو لك الآن ، بعد ان اثريت وكبرت، واستقر قدمك ...

المؤلف ــ (مقتربا من الشاب ، وآخذا بيده) لا تكن آسفا.. لا تحزن

الشاب ــ لقد انتهيت ياسيدى ولا أمل فى بقائى ، اناشبابك، ولا تستطيع أن تستبقينى . انما تستطيع ان تتذكرنى ، وان تتأمل فى صورتى ..

المؤلف ــ والعجيب أن الشباب هو الذى يغار من الشيخوخة .. !

الشاب ــ ان الغيرة هى مزية الشباب ، أما الشيخوخة فانها لاتغار وانما تحقد .. الشباب يغار ولأيلبث أن ينسى ، لان حياته لا تزال مفتوحة امامه ، أما أنتم ايها الشيوخ ،فتحسدون وتحقدون

المؤلف ــ لكم أتمنى أن أعيد تأليف قصتكم .. قصتى .. فلقد عرفت الشىء الكثير ..

الشاب ــ (ينادى بأعلى صوته) أيها الزملاء .. ايها الاخوان لقد قبل المؤلف أن يعيد النظر فى قصتكم .. أن يخلقكم خلقا جديداً

(يتدافع ابطال وبطلتى القصة نحوه)

الشاب ــ اشكروا الحب .. ! انه جدد نفس مؤلفناالشيخ، وجعله يعود الى سابق شبابه . انه فى نوبة من نوبات كرم الاقوياء ، فلتتقدموا اليه بطلباتكم

الشيخ ــ اريد معدة واضراسا . أريد أن آكل الحديد .. لا الثريد

السيدة ــ اريد وجها اجمل .. وزوجا اكثر احتراما ،واكثر صحة ..

المصارع ــ اريد مع العضلات .. بعض العقل ، وبعض المال .. ! عضلات فقط لاتنفع

المؤلف ـ (مادا ذراعيه ، باسطا كفيه) واحدا واحدا .. انا سأترك لكم العمل . اتفقوا على الرواية ، وتعالوا بها،وسأوقع عليها ، واقدمها للناس باسمى وتحت مسئوليتى ..

الزوج رقم ٢ ـ ليس هذا حلا .. نحن سنختلف . !

المؤلف ـ ستكون المسئولية ، مسئوليتكم

الشابة ـ نعم ، سيكون الذنب ذنبنا ..

المؤلف ـ اختاروا لكم احدى حجرات المسرح الفسيحة . اذهبوا الى المكتبة مثلا ، وفكروا فى هدوء ، وانى فى انتظاركم هنا ..



المشهد الثالث

يتدافعون . ويبقى الشاب والشابة فى المؤخرة . يتابعها المؤلف فتجرى نحوه ، فيقبلها ،ثم يشابكبين ذراعها وذراع الشاب
يبقى المؤلف مع الناشر يجلس الناشر على مقعد بطرف المسرح الايمن بالنسبة للمتفرجين ، ويقف المؤلف فى وسط المسرح
فترة صمت .. الناشر يتأمل فى وجه المؤلف .. المؤلف يحرك عضلات وجهه ، كأنما يريد أن يعبر عن أسف أو خيبة أمل

الناشر ــ هل انت حزين ؟

المؤلف ــ هذا هو حصاد حياتى .. خيالات .. خيالات .. خيالات .. اذا أردت أن أؤنس نفسى ، دعوت خيالاتى القديمة، فاختلطت بخيالاتى الجديدة ، فأجد نفسى تائها بين الاثنين .. لماذا كتب على أن أروى حياة الناس ، وان اصف مشاعرهم ، والا تكون لى حياتى الخاصة ؟ لماذا اعيش فقط متأملا فيما يأكله الناس ، وفيما يقولونه ، وفيما يحسون به ؟

تبا له من عمل .. ! وتبا لها من حياة .. ! انها قشرة ، لا تستأهل أن يعيشها الانسان ، أو أن يأسى لها ، او ان يحفل بها ... اريد حياة من لحم ودم .. !

اريد اطفالا يسعون بين يدى .. !

الناشر ــ (يسرع نحوه) ما الذى اصابك ؟

المؤلف ــ الذى أصابنى هو انكم تعيشون ، وانا اتفــــرج عليكم .. واكتب لكم صور حياتكم ..

الناشر ــ ما هذا الكفر ؟

المؤلف ــ كفر .. ! بأى شىء ؟ بهذه الاعصاب المهتزة ، بهذه

الحساسية المفرطة التى تجعل منى طفلا كبيرا ..

الناشر ـ اخرج ياسيدى الى الشوارع ، ترى فى كل مكان اعلانا من رواية لك تمثل ، فى مسرح أو سينما .. اذهب الى الاسواق ، ترى كتبك فى أيدى الباعة . وفى واجهات المكاتب .. اذهب الى قاعات الجامعات ، وندوات الادباء ، ومعارض الصور والمتاحف ، ترى اسمك يتردد ، وصورك يقف أمامها الالوف ، الاطفال يسألون الامهات والآباء عنك،والتماثيل يتأملها الفنانون. يتأملون جبهتك ، وتقاسيم وجهك ، ويستقرئون معـــانى شخصيتك .. أدر مفاتيح الراديو،تسمع الاحاديث والمحاضرات تلقى فى تحليل أعمالك ، منها من يهاجمك ، ومنها من يدافع عنك .. ولكن الجميع مقرون بفضلك ، معترفون بعبقريتك . وفى الشوارع والطرقات ، الاغانى والالحان التى نظمت ووضعت مستوحاة من قصصك ، مرددة أسماء بطلاتك وابطالك ..لقد خلقت احياء يعيشون بين الناس .. فما اعظم بطرك لو انك لم تعتبر هذا كله مجدا باذخا ، ونعيما مقيما ، وسعادة ما بعدها سعادة ..

المؤلف ـ هل انتهيت ؟

الناشر ـ لم أنته ، ولكنى لا اراك مقرا بشىء مما اقول .. أراك غير سعيد به ولا قانع !

المؤلف ـ انت تتحدث عن الشهرة ، عن المجد .. انت تتحدث عن الانسان النورانى ، عن الكائن الروحانى..عن المعدة التى تتغذى بالاقوال الجميلة . بالمقالات والصور والتماثيل والاناشيد .. وأنا اتكلم عن هذا الانسان البائس المسكين الذى وضعته الشهرة فى قفص والذى حكمت عليه بالسجن الانفرادى الى آخر العمر .. انا وحدى .. انا اتكلم عن الكائن الحى ... الكائن الذى خلق من لحم ودم .. انا اكلم نفسى .. انا أعيش تحت مجهر مكبر ، تسلطه على الصحافة ومجالس الادب ، وندوات الفن .. لقد اعتبرت آلها ، ورفعت الى هذا المستوى

على الرغم منى .. انا أريد أن أعيش عيشة الناس .. آكل كما يأكلون ، واشرب كما يشربون ، واشتهى كما يشتهون . ولكن الناس يرفضون الا ان يجعلوا منى عبقريا .. عبقريا فى الاكل والشرب ، وفى السعال ، والبكاء ، والمرض . لقدحطموا حياتى، وأضاعوا معناها على ، وأتلفوا أعصابى ، وأفسدوا ذوقى .. لقد شبعت شهرة ، ومجدا ، وصورا ، وتحفا ، وخطبا ، ومقالات . لقد عشت أيها الناس وحيدا ، مع كثرة القلوب حولى .. انما هذه القلوب ، لا تتقابل معى ، الا رسميا .. فاذا أحببت اعتبر هذا الحب من لوازم الصنعة ! لم يبق يا سيدى الناشر الا ان أعيش مع الناس الذين صنعتهم بخيالى . وقد ظننت أننى سأستطيع ان اعيش معهم فى سلام وهدوء ، فاذا هم غير راضين عنى ، واذا بهم ساخطون على مصيرهم ، هائجون لانى لم احسن صنعهم .. ! فاين المفر ؟

الناشر ــ أيها الرجل العظيم ، هذه ضرائب العظمة .. !

المؤلف ــ (مقاطعا ، ومحتدا) اسكت .. اسكت .. لا اريد أن أسمع شيئا من هذا الهراء .. عظمة .. عظمة .. !

الناشر ــ (متلطفا ، ومحتملا) يجب أن تذهب الى مكان هادىء وبعيد .. جزيرة مثلا . وتعيش فى سلام . !

المؤلف ــ لا تهزأ .. لقد شبعت من الهدوء . وفى الجزيرة ماذا سأعمل ؟ سآخذ معى كتبا .. وسأضع فوق رأسى قبعة ، وفوق عينى مناظير وسأغير ثيابى .. سأتحول الى بهلوان ، كبهلوانات رواياتى ، وسأخرج متلصصا ، وسأدخل الىالفندق متلصصا . كأنى ارتكبت جريمة ، ثم يلمحنى صحفى معه آلة تصوير ، وأنا أكلم خادمة الفندق ، فيلتقط الصورة ، وفى اليوم التالى ، تنتشر اشاعات وتفاهات عن غرام جديد وقعت فيه .. وتضطرب الخادمة ، اما غضبا ، ان لم يعجبها شكلى،واما فرحا اذا طمعت فى شهرتى ومالى .. !

الناشر ـ سافر الى خارج البلد .. الى كينيا أو أوغندا ، فهناك المناظر أجمل من سويسرا ، والصحافة لن تلحق بك فى هذا الموضع النائى

المؤلف ـ انا مجرم .. لقد ارتكبت جريمة فى حق الناس . ! لقد اعطيتهم كلاما أتلف معتقداتهم . لقد روجت هذا السحر الاعظم .. الفن .. والقصة .. ! فجوزيت من نوع عملى .. فأصبحت أعيش فى جو ملىء بالاوهام والتخيلات حرمت على لقمة العيش الهانئة .. واصبحت اسطورة من الاساطير .. انا نفسي لا اومن بها ، ولا أصدقها .. ! (يسكت ويطرق ويطول صمته) ..

الناشر ـ (يقترب منه فى هدوء ، ويطيل التأمل فى وجهه) هل تبكى ؟

المؤلف ـ (يرفع راسه اليه بهدوء عميق) ماذا قلت ؟

الناشر ـ قلت هل تبكى

المؤلف ـ ليتنى استطيع .. ! ولكن منظر الدمعة الجميلة ، لا يتفق مع هذا الوجه الذى غضنته آلام التفكير فى لا شىء ..

الناشر ـ اعذرني .. أنا لا استطيـــع أن أفكر فى نوع المساعدة التى يمكن أن اقدمها اليك !

المؤلف ـ المساعدة .. ! ان أمثالى حين يتدحرجون الى اعماق الهاوية ، التى اسمها الشهرة او المجد .. يقف الناس فوق حافة الهاوية ، ينظرون اليهم ويتأملون فيهم .. وقد يبكون من اجلهم ، ولكن لا يجرؤ أحد على الهبوط اليهم ..

الناشر ـ (محدثا نفسه) انه .. انه الجنون .. !

المؤلف ـ ارفع صوتك .. ! اسمعنى هذه الكلمة .. انك ان قلتها تحرق شفتيك ، ولكنها تريح نفسى ! انه الجنـون !

ولكنه الجنون الذى لا تستغنى عنه الانسانية ، لتنسى أحزانها وآلامها .. لتسير فى هذا الدرب الطويل الذى هو الحياة .. انه يدفعها الى الامام .. وآخر ما نلقاه ، فى خاتمة المطاف .. أن نكون ..

الناشر ــ مجانين .. !

المؤلف ــ (ينهض بعزم) لا نفع من هذا .. اذهب فابحث من اخوانى ، وزملائى .. ابحث عن بطلات وابطال مسرحية « أسرة جنت » .. ! انظر ماذا حققوا لانفسهم من العقـــل ، حينما تركوا وحدهم ، دون أن يتدخل أحد فى خلقهم

(الناشر ، يذهب مسرعا ، ويبقى المؤلف ، وحده ، يذرع المسرح ، ذهابا وايابا)

(يدخل أحد عمال المسرح .. فيسأله المؤلف ..)

هل رأيت بضعة أشخاص خرجوا منذ بعض الوقت من هنا؟

عامل المسرح ــ لا احد ياسيدى فى المسرح منذ الصباح . !

المؤلف ــ لقد كان معى هنا أكثر من عشرة أشخاص .. منهم فتاة رشيقة ، وشاب جميل الطلعة،وآخرمفتول العضلات، وسيدة ، وثلاثة رجال ، وشيخ ..

عامل المسرح ــ (مندهشا) يا سيدى .. ! المسرح اليوم مغلق لم يفتح أحد بابا من أبوابه الا انا .. الباب الخلفى ..

المؤلف ــ ولم يخرج الآن .. رجل من هنا .. الناشر الذى يتولى منى نشر الكتب وطبعها ، والمحاسبة عليها ..

عامل المسرح ــ (وقد بدأ يخاف) ياسيدى .. !ماذاتقول.؟ كان هنا رجل وخرج .. خرج من أين والى اين ؟

المؤلف ــ خرج من هذا الباب (مشيرا الى ناحية فى المسرح)

العامل ــ لايوجد هنا باب على الاطلاق ..

المؤلف ـ اذن ، دعني أبحث عن زملائى .. دلنى على طريق الخروج ..

(المؤلف يختفى قليلا ، ثم يسمع صوته ..)

ـ الابواب مغلقة .. لا احد .. من أين جاءوا . ؟ واين ذهبوا ؟ انا وحدى .. انا وحدى .. (يعلو صوته) اناوحدى كالعادة .. الجميع تركونى .. الجميع فروا منى ، وتخلوا عنى .. لاعيش مع المجد والعبقرية

(يضحك ضحكة عالية ..)

ستار



فهرس

صفحة

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thome,
Pateo Do Colegio N° 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

هذا الكتاب

يسر سلسلة كتاب الهلال أن تقدم الى قرائها مسرحيتين من قلم الاستاذ فتحي رضوان، الذى عرفناه أديبا بارعا وصحفيا قديرا قبل أن يكون وزيرا

والمسرحيتان تدعوان الى الايمان بالانسانية، والى الاطمئنان الى مستقبلها . والسمو عن الشكوى منها ، وتجاوز ما نراه الى ما لا نراه وما تخبئه لنا هذه الانسانية الرفيعة ،وتفاجئنا به الحين بعد الحين

وتدور المسرحيتان حول فكرتين رائعتين ، الاولى ان فى الانسان قوى كامنة ، ومواهب مدخرة قد تكون محجوبة حتى عن صاحبها ، ثم تأتي قوة ، اما أن تنبعث من داخل الانسان، وهو الاغلب الاعم ، واما من الخارج ، فتكشف عما استتر من هذه القوى وتلك المواهب

أما الفكرة الثانية ، فهى أن الانسان يتطور مع الايام ، ومع مرور الزمن يصبح انسانا آخر مقطوع الصلة بالانسان القديم حتى ليكاد ينكر شخصيته الاولى

انهما مسرحيتان رائعتان من قلم أديب فنان

كتاب الهلال

لا شيوعية ولا استعمار

بقلم
عباس محمود العقاد



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٨٠ ــ ربيع الثانى ١٣٧٧ ــ نوفمبر ١٩٥٧

No. 80 — November 1957

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشــــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ــ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ــ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ــ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا ــ الامريكتين ٥ر٥ دولارت ــ فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

لا شيوعية ولا استعمار

بقلم

عباس محمود العقاد



الاستاذ عباس محمود العقاد

مقـــدمة

لا شيوعية ولا استعمار

عنوان هذا الـكتاب هو خلاصة موضوعه فى اربع كلمات ، وهو النتيجة التى ينتهى اليها البحث فى الـكتاب . فموقف الشرقيين بين الشيوعية وبين الاستعمار انه لا شيوعية ولا استعمار

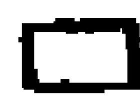
ولمن شاء ان يوازن بين الخطرين ، ولـكن الموازنة بينهما ليست من اغراض هـذه الرســالة . فكلاهما خطر وكلاهما حقيق بالحذر والاجتناب ، وقـد يشتـد الخطر من مرض ويهون الخطر من مرض ، ولـكن الطب لا يبحث الامراض ليوازن بينها وان عرف مبلغ الخطر من كل منها ، وانما يبحث الامراض ليمنعها جميعا ويعالج كلا منها بالعلاج الذى يناسبه ويحتاط لـكل منها بالحيطة التى تدفعه ، ومن كان يعلم ان الزكام اهون شرا من السرطان فهو لا يعلم هذا العلم ليختار الزكام ويدفع السرطان . اذ لا يصاب المريض بالداء الا على اضطرار لا خيرة فيه

ولا حيدة بين مصيبتين ، ولا انصاف فى الموازنة بين شرين .

فان الحيدة والانصاف عمل القضاء الذى يتساوى لديه الطرفان، واما المهدد بالمصاب فلا حيلة له فيما يهدده غير العداء والمقاومة . فان فعل غير ذلك فهو واقف من الشر موقف الغريب ، بل هو واقف موقف الغريب من نفسه ومن وجوده ، كأنه ينظر الى وجود لا يعنيه

قلت فى مقدمة كتابى عن هتلر : « فى هذا الكتاب ما انا بقاض ولا يسرنى ان اكونه ، لاننى لا احسن التسوية بين الخصمين فى قضية الطغيان والحرية الانسانية ، واحمد الله اننى خصم قديم فيها منذ نيف وثلاثين سنة »

واكرر فى الكلام على الشيوعية والاستعمار ما قلته عن النازية ودين الغصب والقسوة . فلا قضاء هنا بل عداء . ومن كان يعلم الشيوعية والاستعمار حق العلم ثم ينظر اليهما نظرة الغريب الذى لا يعنيه امرهما فهو مجرم ، ومن كان يجهلها فهو احجى الا يقف منهما موقف القضاء ولا موقف العداء



ويأبى علينا الموازنة بين الشيوعية والاستعمار شىء آخر ، وهو ان الشيوعية استعمار يحيط بعيوب الاستعمار كله ، وليس استعمارها طارئا من طوارىء الضرورة الموقوتة تخضع له اليوم وتنبذه بعد فترة تقصر او تطول . بل هو اساس من اسس المذهب الشيوعى لا فكاك منه فى اول الطريق ولا فى آخر الطريق ، فانه المذهب الذى يقرر لاصحابه ان السيطرة على ثروة الامة شرط لازم للسيطرة على ازمة السياسة

فيها ، فمن رفع يديه عن ثروة بلد من البلدان فلا بقاء لسلطانه فيه !

فالشيوعية والاستعمار — من ثم — لا يتناقضان ولا موازنة بينهما على هذا الاعتبار ، واذا جاز ان تنعقد الموازنة فانما تكون بين جهد الكفاح للشيوعية وجهد الكفاح للاستعمار ، او بين الخطر المقبل والخطر المدبر ، وسيكون هذا مدار البحث فى الفصول التالية لينتهى الى نتيجة واحدة وهى اننا لا نختار فى مقاومة الخطرين الا بمقدار ما نستعد للمقاومة بسلاحها النافذ فى جميع الاحوال

عباس محمود العقاد



الجزء الأول

الشيوعية

- * الشيوعية من الوجهة العلمية
- * قيصرية
- * واستبداد
- * وعنصرية
- * مع العالم
- * اكثر من دعوة واكثر من دولة

الشيوعية من الوجهة العلمية

كان الشيوعيون يسمون مذهبهم بالفلسفة المادية ، او بالاشتراكية العلمية ، او بالاشتراكية التقدمية ، ويريدون بذلك ان يميزوا فلسفتهم من الفلسفات التى تقوم على المبادىء الروحية او تبنى الاشتراكية على الدين والعاطفة وترجع بها الى قواعد الاخلاق المقررة فى العرف والعقيدة

وكانت هذه الاسماء تسوغ فى الاسماع عند المناداة بها فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، قبل اكثر من مائة سنة

كانوا يومئذ يحسبون ان « المادة » شىء ملموس مفهوم غنى عن التفسير صالح لتفسير كل شىء بحقائقه ومقاييسه

وكانوا يومئذ يظنون ان العلم قادر على كل معضلة ، كاشف لكل سر ، واصل الى كل حقيقة

وكانوا يومئذ ينكرون العاطفة الانسانية والمطالب المثالية ، كأنها ضلالة مسلمة لا تكون حيثما كانت الا مناقضة للعقل والرأى القويم ، مسترسلة مع الاهواء الكاذبة والاوهام الخادعة.

وكل اولئك اليوم سخف لا يستند اليه صاحب رأى ولا يقنع احدا من الماديين او المثاليين

فالمادة نفسها غير مفسرة وغير مفهومة ، فهى من باب أولى لا تفسر ما عداها ولا تزال سرا من الاسرار يتطلب منا الفهم ولا يدنينا من فهم غيره

كان « المادى » قبل مائة سنة يخبط الارض بقدمه

ويقول : « هذه هى الحقيقة التى تستند اليها ، واما ماعداها من الآراء المثالية والعقائد الروحية فهى خيال او ضلال »

فاليوم يعلم أن مادة الارض التى يخبطها بقدمه أبعد حقيقة واعسر فهما من كل ما يقال عن الروحيات والمثاليات

ما هى هذه المادة ؟ هل هى لون ؟ هل هى جسم ؟ هل هى ثقل ؟ هل هى امتداد ؟

لا .. ان اللون عارض من عوارض النور والنظر يتغير على حسب الاضاءة وعلى حسب العين التى تراه

والجسم كله ذرات تنشق فتتحول الى اهتزاز فى الاثير ، ولا يدرى احد ما هو الاثير ، لانه شىء لا طعم له ولا جرم ولا حركة ولا فرق فى المدلول عند عارفيه بين كلمة الاثير وكلمة الفضاء

والثقل لا وجود له خارج نطاق الجاذبية ، والامتداد شىء لا يفهم لانه لا يتناهى فى القصر ولا يتناهى فى الطول ، سـواء نظرنا الى امتداد الزمن او امتداد المـكان

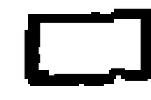
فالمادة اخفى من الروح

والفيلسوف الذى يدق الارض بقدمه ويتوهم انه وضعها على حقيقة الحقائق ليس له رأس اصح من تلك القدم فى فهم حقائق الاشياء

اما « العلم » فقد ذهبت عنه فتنة الغرور الاولى واضطر ـ راغما ـ الى التواضع فى دعواه ، فغاية ما يدعيه اليوم انه يصف ويسجل ، وان مجموعة العلم كله انما هى مجموعة علوم وتسجيلات ، وان ما كان يعرفه علماء العصر الذى نشأت فيه الاشتراكية العلمية لا يفسر ظاهرة واحـدة من ظواهر

زمنه فضلا عن تفسير الظواهر الطبيعية والتاريخية والنفسية عامة تامة من مبدأ الخليقة الى آخر الزمان

اما الزراية بالعاطفة الانسانية فيقابلها فى العصر الحاضر افراط فى التعويل على خفاياها وتخريجاتها ، ودراسة لكل سر بمسبار العاطفة حتى « الفلسفة المادية » وبواعثها من نفوس الماديين



ولا محل لبيان التناقض بين دعوى « التقدمية » وبين الرجوع فى كل رأى الى فكرة انسان عاش فى اوائل القرن التاسع عشر ، كائنا ما كان نصيبه من العلم والذكاء

وقد يجوز قبل مائة سنة ان يقال عن دعاوى الفلسفة المادية انها مقررات علمية تنظر الى الوقائع المحسوسة ولا تنبىء عن نتيجة من نتائج الاطوار الاجتماعية الا كانت حقيقة من حقائق الرياضة التى لا تقبل الاختلاف بين حاسب وحاسب ولا بين حين وحين

فلعل هذا كان جائزا قبل مائة سنة ... اما اليوم فكل الحقائق المحسوسة التى انبأ بها كارل ماركس فهى اباطيل محسوسة لا يمترى فيها ماديان ولا مثاليان

كان يقول ان امم الصناعة الكبرى هى الامم المعرضة لظهور الشيوعية فيها ، فاذا بالامر ينقلب من النقيض الى النقيض ، واذا بالشيوعية تظهر بين الامم على قدر خلوها من الصناعة الكبرى

وكان يقول ان الغاء راس المال يقضى على اسباب الاستبداد

ويمنع تعدد الطبقات ، فاذا بالغاء راس المال فى روسيا ينتهى الى استبداد يتحكم فى السياسة والثروة العامة والخاصة ويتحكم فى الارواح والاقدار ، ويخرج للمجتمع طبقة من الحكام اقوى من الطبقة المعاصرة لها فى كل امة من امم راس المال

وكان يقول ان الثروة تتجمع ولا تتوزع ، فاذا هى تتوزع وتنتشر حتى يعد الشركاء فى المصنع الواحد بالالوف

وكان يقول ان المطبعة والورق والبارود والمدن التجارية هى عوامل التاريخ فى الحضارة الاوربية ، فاذا بهذه العوامل جميعا قد وجدت فى الصين قبل وجودها فى الغرب بألفى سنة ، وبين حضارة الصين وحضارة الغرب ابعد ما يكون من فارق بين حضارتين

كذلك لم يظهر من حركات الشيوعية فى العصر الحديث انها حركات خاصة بالصناعة الكبرى او بحالة دون غيرها من الحالات الاقتصادية او الاجتماعية ، فان هذه الحركات قد ظهرت بين زراع سبرطة وبين عمال رومة وبين طوائف الزنج فى البصرة ، ولم يكن لها من سبب فى جميع هذه الحالات الا ازدحام المتذمرين فى مكان واحد واغتنامهم للفرصة من ضعف الدولة على اثر هزيمة حربية او كارثة داخلية . فما حدث فى روسيا بعد الحرب العالمية الاولى كان يصح ان يحدث فيها قبل الف سنة كما حدث فى غيرها ، وما كان حدوثه فى روسيا لانها بلاد صناعية ، ولا لانها تطورت بالاطوار الاجتماعية التى قررتها الفلسفة المادية ، ولكنه حدث لان الجيوش المنهزمة ثارت فاستولت على زمام الثورة فيها طائفة منظمة كالطائفة التى استولت على حركات النازيين والفاشيين بين الالمان والايطاليين

ونكاد نعتقد ان حركات الثورة التى نشبت فى روسيا وما ماثلها كانت تنشب فيها بعنوان من العناوين غير الشيوعية لولم يولد كارل ماركس ولم ينتشر بين اتباعه مذهب يسمى بالفلسفة المادية او الاشتراكية العلمية . فما كان حتما لزاما ان يشيع فى روسيا مذهب رجل ولد فى المانيا ودرس مذهبه فى انجلترا وجمع مؤتمراته فى سويسرة او بلجيكا او بلاد الشمال ، وكل عنوان صالح لالصاق اسمه بالحركة الثورية متى هزلت الحكومة وتجمع الثوار المتمردون فى مكان واحد ، فاذا كانت للشيوعية مزية فى هذا الباب على سائر الدعوات فمزيتها انها غنية عن المجهود العقلى فىاقناع المتمردين المتذمرين بالاستماع اليها ، فانه مامن مذهب من المذاهب الثورية الا وهو فى حاجة الى بعض المجهود العقلى لتعليم المبادىء وبث العقائد وتقرير الآراء الا الشيوعية ... فهى على نقيض ذلك لاتحتاج الى مجهود للاقناع بل الى اسقاط كل مجهود واعفاء الذهن من كل اقناع ، فلا وازع ولا عرف ولا رياضة للفكر او للخلق على سنة متبعة ولا مبدأ مرعى ولا صفة مطلوبة . بل المطلوب كله نكسة الى حالة البهيمية السائمة او الى شر من حالة البهيمية السائمة ، لان البهيم فى القطيع يدين ببعض الموانع ويحجم عن بعض الدوافع ، وليس للشيوعى مانع يمنعه ولا دافع يحجم عنه ، الا أن يكون مانع القيد ودافع السوط والعصا

والمجتمعات الانسانية منذ كان لها نظام متبع فى عهد القبيلة تنشىء العادات والشرائع وتروض النفوس على سنن الاخلاق والآداب ، وتهديها الفطرة الى ضرورة الوازع لجمحات الجهل والشباب ، وتنقضى الاحقاب بعد الاحقاب ولا يزال الجهل

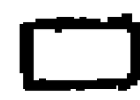
والشباب بحاجة الى وازع جديد يعزز ما تقادم عليه العهد من وازع قديم . وهذا هو العمل الانسانى الدائم الذى لايستغنى عن جهد العقول ورياضة النفوس ، وهذا هو السد الذى يصد التيار الجارف ويسوسه للرى والخصب بدلا من اطلاقه للخراب والبوار . ومامن مذهب من مذاهب الثورة والاصلاح يستغنى عن رياضة ذلك التيار بشىء من التوجيه والتنظيم ، الا الشيوعية التى تعلن أن الخراب مطلوب وأن الوازع مكروه ، وأن الجهل والشباب مما لايحتاجان الى وازع ولا رياضة ، ولا يمنعهما مانع ان يستبيحا كل محظور

ما حاجة هذا المذهب الى مجهود ؟ انما يحتاج الى اعفاء النفس من كل مجهود ، ولا صعوبة فى ذلك على مخلوق جاهل مغلوب على هواه .

فالشيوعية هى مذهب الطفل الممسوخ الذى يفهم أن الذنب على ابويه وعلى البيت وعلى المدرسة وعلى الامة وعلى الخلق والخالق ، ولكنه هو لا ذنب له فى أمر من الامور ، ولا حرج عليه أن يقعد عن كل عمل ويكسل عن كل واجب ويطالب بكل حق ، ويسىء الى كل انسان

والشيوعية هى بالايجاز « أفيون الشعوب » الرخيص وخمرتها المبذولة ، يبلغ من سخفها أنها تصم الدين بهذه الوصمة وتذهل عن حقيقتها هى عن غباء مفرط أو عن لجاجة فى المكابرة والانكار : « وهذا القول الهراء عن الدين آخر وصف يمكن أن ينطبق عليه وأول وصف ينطبق على مذهب كارل ماركس بجميع معانيه . فالشعور بالمسئولية والمسكرات نقيضان ، وما من دين الا وهو يوقظ فى نفس المتدين شعورا

حاضرا بالمسئولية فى السر والعلانية ويجعله على حذر من مقارفة الذنوب بينه وبين ضميره ويوحى الى الفقراء والاغنياء على السواء أنهم لن يستحقوا أجرا بغير عمل وبغير جزاء . وشتان هذا وقول القائلين أن الدين يخدر المرء كما تخدره المسكرات وعقاقير الافيون . انما المسكر حقا هو مذهب كارل ماركس من جميع نواحيه ، لانه يرفع عن الضمير شعوره بالمسئولية ويغريه بالتطاول والبذاء على ذوى الاقداروالعظماء. انه يرفع عن الضمير شعوره بالمسئولية لانه يلقى بالمسئوليات كلها على المجتمع ويقول ويعيد للعجزة وذوى الجرائم والآثام انهم ضحاياه المظلومون وان التبعة كلها فى عجزهم واجرامهم واقعة عليه ، ويتمم عمل السكر بحذافيره حين يطلق ألسنتهم بالاتهام على كل ذى شأن ينظرون اليه نظرة الحسد والضغينة ويعز عليهم أن يساووه بالعزيمة والاجتهاد . ولو أنك نظرت الى فعل السكرة فى المخمور لم تجد لها فى نفسه شهوة تستهويه غير هذا الشعور باسقاط المسئولية وهذا التطاول على أعظم عظيم كما يقول كل سكران غابت به السكرة عن حقائق الاشياء . وما كان للماركسية من سحر يستهوى السفلة اليه غير هذا السحر الذى يبذلون فيه الدراهم ويجدونه فى الماركسية جمعا بغير ثمن ، وعليه المزيد من التغرير بالعقول وشفاء أدواء الحسد والانتقام (١) »



ومن الخطأ المتواتر ان يقال ان الشيوعية مذهب الطبقة العاملة أو الطبقة الفقيرة . لانها فى لبابها مذهب طباع وأخلاق.

---

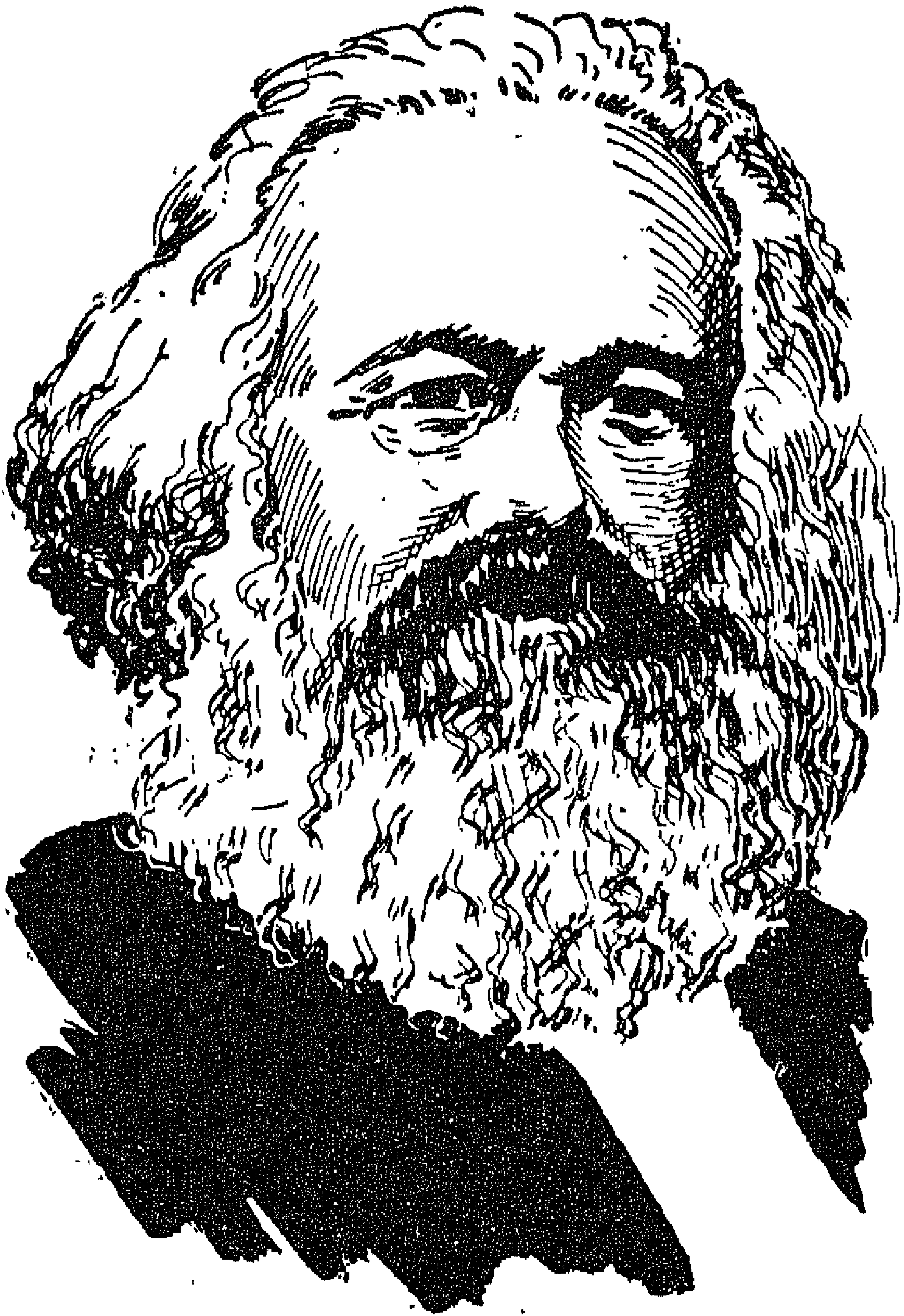
(١) من كتاب « أفيون الشعوب » للمؤلف

يتقبله كل من تلوثت طبائعه بلوثة اللؤم والانانية واسقط عن نفسه تبعة العمل ومؤنة التكليف وغلبت فيه الكراهية والحسد على محبة الخير للناس ، ولا يتقبل الشيوعية فقير محروم برئت نفسه من هذه اللوثة واستقر فى طبعه صدق الايمان بالجد والكفاية ، وانما يتقبلها المحروم اذا خامرته مع الحرمان رذيلة الحسد والكسل وسولت له الانانية أن يطمع فى جميع الحقوق ويسقط عن كاهله جميل الفروض والتكاليف ، ومن كان كذلك من الاغنياء فهو شيوعى واذ لم يكن من العاملين باليد أو من ضحايا الحرمان

وقد اسس الشيوعية اثنان لم يكونا من أبناء الطبقة العاملة ولا الطبقة الفقيرة . فكارل ماركس من الطبقة الوسطى وفردريك انجلز من الطبقة الغنية ، ولكنهما من المستعدين للشيوعية بالطباع والاخلاق ، وكلاهما نموذج للطبع الممسوخ فى اتجاهين متقابلين

كان كارل ماركس كما يقول أبوه « انانيا » لا يربطه بأسرته الا اعتقاده انها « مخلوقة من الذهب » تعطيه منه كل مايبتغيه، وكانت أمه تقول له انها تخشى أن يظل طوال عمره عالة عليها ، وكان صديقه وصفيه « انجلز » يصفه بجمود العاطفة وحب التعالى على أصحابه بهذا الجمود ، وعاش داعية « العمل » زهاء ثلاثين عاما لم يعمل فيها ما يكفى لقوته عاما أو بعض عام

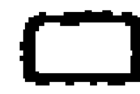
ولم يكن انجلز عالة على الناس فى رزقه ولا احتاج أن يكون عالة عليهم فى أمر من أمور المعاش ، ولكنه كان عالة عليهم بطبع مؤنث مدخول يلقى زمامه لكل من عاشره ولو كان من النساء ، ويحب الثورة كما تحب الطبائع المؤنثة مناظر العنف وسورة الغضب والهياج



کارل مارکس

واقطاب الشيوعية من تلاميذ ماركس وانجلز يجذبهم الى « المذهب » طبع فاسد قبل أن يجذبهم اليها رزق محـدود أو عيش مكدود . كان لينين فى طفولته يتلهى بكسر أجنحة الطير وتهشيم الحيوانات الاليفة ويقول فى شرح برنامجه مع مخالفيه أن أسلوبه معهم أسلوب السحق والإبادة ولا شأن له معهم بالمناقشة والاقناع ، ويكتب الى صاحبه جوركى فيقـول ان فناء ثلث العالم الانسانى لا يعنيه وانما يعنيه أن تستقر الشيوعية على أساس

وكان ستالين مجرما مشوه الخلق لا يتورع أن يرمى مركبة البريد بالقذيفة المتفجرة ليسطو على مرتبات الموظفين المنقولة فيها ، ويقضى صباه بين التجسس للقيصر والحماسة للثورة ، ثم يتولى الحكم فيبيد من أساتذته وزملائه أضعاف من أبادهم القياصرة من آل رومانوف



وباب النجاة من وباء الشيوعية فيما نعتقد أنهـا مذهب لا يقوم على آرائه ولا على أخلاقه مجتمع صالح للبقاء والتعمير . اذ كانت فى صميمها « سلبية » هادمة لا يقام عليها بناء من مادتها ولا تصلح مادتها بحال من الاحوال للبناء ، ولو خلص المجتمع الروسى ـ بعد الثورة ـ للشيوعية على حقيقتها لما تماسك ولا انتظم خلال هذه السنين الاربعين ، وانما يتماسك المجتمع وينتظم هناك بمقدار المخالفة بينه وبين الشيوعية لا بمقدار المطابقة والتوفيق . فكل ما قامت الشيوعية لهدمه فهو موجود يتمكن مع الزمن ولا يؤذن بالزوال . ونظام« رأس المال » لم يتغير منه الا أن رءوس الاموال بحذافيرها قداجتمعت فى أيدى الدولة فتولت ادارتها لتثبيت أقدامها على الرغم من

مشيئة كل ذى مشيئة فى البلاد ، ولا عبرة بمن يعيشون ويموتون فى كل وطن منساقين منقادين بغير مشيئة للموافقة ولاللانكار . . فأمثال هؤلاء سواء فى طاعة السادةمن الشيوعيين والسادة من الفاشيين والنازيين وأصحاب رؤوس الاموال ، ولا يعدم نظام راس المال طاعة كطاعتهم فى مجتمعات الحرية او مجتمعات الاستبداد

ولا مذهب الآن بعد الايغال فى الابتعاد عنه كلما استحال تطبيقه على مبادئه النظرية ، بل تقوم الدولة اليوم مقام المذهب وتود لو تخلصت منه ما استطاعت ، ولكنها لا تستطيع . لان بقاء المذهب هو حجة البقاء للدولة وحجة النظام الذى تستند اليه . وهذه هى « النقيضة » التى ستقضى على المذهب او على الدولة فى النهاية ، فلا بقاء لهما مجتمعين

يقول الماركسيون ان نظام « راس المال » نظام تقضى عليه نقائضه التى لا تقبل التوفيق

ونقائض راس المال لم تقض عليه حتى الآن ، ولكن الخلاص من نقائض الشيوعية يجشمها من متاعب الحيرة مالم يتجشم رأس المال

فالسلام فى العالم جو لا تعيش فيه الشيوعية لان طلب القرار وطلب الفتنة نقيضان

والسلام فى العالم حالة لا تستغنى عنها الدولة لانها لا تقوى على محاربة العالم بمذهب يفقد حجته فى بلادها، ولا يستطيع ان يخلق له حجة غالبة فى خارجها

لا امان مع السلام ولا بغير السلام

ولابد فى النهاية من زوال المذهب أو زوال الدولة

وقد زال نصف المذهب الى الآن ، وما بقى منه فالدولة حائرة فيه ! هل تتشبث به وتبقيه أو تتخلص منه وتلغيه ؟

قيصرية

تنسب القيصرية الى قياصرة الروس ، ويراد بهـا فى العرف السياسى كل حكم يتغلب فيه حب التسلط وتوسيع الدولة واعتبار السيادة الحكومية سيادة شخصية ينفرد بها صاحب الامر ولا يتقيد فيها بالشورى ولا بشعور المحكومين

وتوصف « روسيا الحمراء » بأنها دولة قيصرية لا تزال كما كانت فى أيام القياصرة على سبيل المشابهة بين العهدين فى جمع هذه الخلال ، ولكن التشبيه أحرى أن ينقلب عنـد المقارنة بين القيصرية والشيوعية ، فلا تكون القيصرية مضرب المثل فى مظاهر التسلط وتوسيع الملك واستبداد الحاكم بأمره فى شئون الدولة ، بل تكون الشيوعية هى مضرب المثل فى جميع هذه الخلال

ذلك أن الدولة القيصرية لم تبلغ فى عهد من عهودها المظلمة مبلغ الدولة الشيوعية فى كثرة البلاد التى تحكمها ورهبـة الجبروت على محكوميها واستطاعة الحـاكم فيها أن يصنع بالإرواح والاموال مابدا له متسترا بنصـوص القوانين أو مستبدا بالرأى جهرة غير مكترث لنص أو لقانون

فأوسع القياصرة ملكا لم يزد ملكه على نصف البلاد التى تشملها الدولة الشيوعية اليوم من أواسط اوربة الى شواطىء المحيط الهادى فى آسيا الشرقية ، ولا يدخل فيها تعـداد البلاد التى يحاولون أن يحكموها ويتسلطوا على حكوماتهـا وشعوبها بالطوابير الخامسة والمؤامرات المتفق عليهـا بين حكام الكرملين وحكامها المحليين

وربما خضعت للقياصرة بلاد لا تميزها صفة من صفات الاستقلال السياسى التى اصطلح عليها فقهاء العلوم السياسية فى العصر الحديث ، فهى بلاد تابعة للقيصر خاضعة لعرشه وكفى . الا اننا اذا نظرنا للواقع رأينا أن الخانات الوطنيين فى تلك البلاد كانوا على نصيب من الاستقلال الواقعى أوفر من نصيب الامم الحديثة التى تخضع للدولة الشيوعية ، وان القيصر القديم لم يكن فى وسعه أن يتعرض لتفصيلات الحكم فى الشعوب التى تدين بالطاعة لخاناتها الوطنيين ، لانها فيما عدا الشئون الخارجية وحصة الاتاوة المفروضة على البلد لم تكن تشعر بحكومة غير حكومة الخان ، ولم يكن قيصر الروس عندها الا شبحا مرهوبا من بعيد

وعلى غير هذه الحالة تقوم العلاقة بين القيصرية الحديثة والبلاد التى خضعت لسلطانها ، على تعدد العناوين المصطلح عليها فى عرف فقهاء السياسة

وقد تنقسم البلاد الخاضعة للقيصرية الحديثة الى قسمين: قسم مستقل صاحب سيادة يسمى بالملحقات أو بالكواكب التى تدور فى فلك الدولة Satellites

وقسم آخر داخل فى اتحاد الجمهورية الشيوعية على درجات من الحكم الذاتى وحرية التصرف فى العلاقات الخارجية

الا انها جميعا بين ملحقات وتوابع أو ولايات لا تخرج من نطاق الحكم الذى يفرضه الكرملين ، ولا تعرف لها « شخصية قومية » بمعزل عن سياسة الكرملين فى وجهتها العامة ، ولا يستطيع أكبرها استقلالا أن يخالف تلك السياسة فى مسألة عالمية تقررت فيها خطة الكرملين أمام الدول الاخرى .. اما

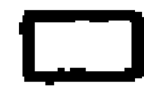
ان تجترىء احدى الملحقات على مناقضة السياسة التي يمليها الكرملين فى المسائل العالمية فذلك من وراء الحسبان

وقد كشفت ثورة بولونيا وثورة المجر مدى الطغيان الذى تفرضه القيصرية الحديثة على أمم الملحقات المستقلة ، وبولونيا والمجر اوفرها نصيبا من الاستقلال فى عرف السياسة الدولية

فما هو الا أن بدرت من الشعب المجرى بوادر التذمر من طغيان القيصرية الشيوعية حتى صدر الامر الى حكومة المجر الوطنيـــة بالضرب على أيدى المتـــذمرين واعتقـــال قادة الحركة بغير هوادة وبغير تسويف ، وانتظر سادة الـكرملين هنيهة فلم يجدوا من الحكومة الوطنية ذلك النشاط الذى يريدونه فى قمع كل حركة تجترىء على الشكوى من طغيان القيصرية الخانق ، فصدر الامر فى هذه المرة الى الجيش الروسى بالزحف على عاصمة المجر واسقاط حكومة « ناجى » واقامة حكومة اخرى من صنائع الكرملين ، وتولى الجيش الاحمـر ما عجزت عنه الحكومة الوطنية من فظائع البطش والتنكيل والارهاب ، فامتلات الطرقات بجثث القتلى وامتلات مركبات السكة الحديد وسيارات النقل بالالوف من المعتقلين المبعدين الى الاطراف الروسية تنفيذا لخطة « النفى بالجملة » وتبديل السكان بالسكان من غير أبناء البلاد ، ومعظم هؤلاء المعتقلين شبان فيما دون العشرين ، يختــــارونهم من هذه السن « لتعليمهم » أو صبغهم بالصبغة الحمراء بين أندادهم مــن الروسيين ، فان لم يتيسر لهم أن يصبغوهم بالصبغة المطلوبة ابادوهم أو قطعوا ما بينهم وبين أوطانهم مدى الحياة .

ولم ينج من هذا البلاء الواصب الا من اعتصم بالجبـال ، واستطاع الهرب الى خارج البلاد ، ويبدو من عدد الهـاربين

أن الامة المجرية كلها كانت خليقة أن تلوذ بالهرب من بلادها لو انها استطاعت . لان عدد الهاربين بلغ نحو ربع مليون من الرجال والشبان ، وهم بطبيعة الحال أقدر على الهرب من الشيوخ والنساء والاطفال ، وحسبك من بلاء لا نجاة منه للامة كلها بغير الهرب لو تستطيع !



واذا كانت القيصرية الحديثة قد استفادت فنا من فنون الحكم لم تمارسه القيصريات الغابرة فلا نرى انها استفادت شيئا فى فن اخفاء المظالم وسترها بالمعاذير والتهم التى يتعلل بها الظالم للعدوان على المظلومين . فقد كان قياصرة الروس يسترون مظالمهم بألوان من المعاذير تقبل التصديق وتكسبهم تأييد « المحايدين » من أمة الروس والامم الاجنبية ، فكانوا يتعللون تارة بجشع اليهود وتارة بمؤامرات الفوضويين وتارة غير هذه وتلك بالغيرة على الكنيسة أو على شعائر الاماكن المقدسة ، ولم تكن تعوزهم فى مجزرة من المجازر علة من امثال هذه العلل

أما القيصرية الحديثة فكل ماتفتقته الحيلة لها من أمثال هذه المعاذير أن ثورة العمال فى المناجم وثورة الشبان الناشئين من الخامسة عشرة الى العشرين انما هى تدبير من تدابير الاقطاع او سماسرة رأس المال فى الخارج . وطالما اعتقل الروس الاقدمون اشخاصا معروفين بأسمائهم ومذاهبهم تلصق بهم تهمة الفوضوية أو الاحتكار أو غيرها من التهم التى يعتمدونها لتسويغ المجازر او تسويغ الاهمال فى قمعها واتخاذ الحيطة لها قبل وقوعها ، اما القيصريون المحدثون فيذكرون

الدسيسة الاقطاعية الف مرة ولا يذكرون فى مرة منها فردا واحدا تحيق به التهمة ويدينه التحقيق ، ولو كان تحقيقا من قبيل تحقيقات المحاكم المعروفة فى حركات التطهير

واغرب التهم حقا ان يكون الناشىء من ابناء الخامسة عشرة الى العشرين ضحية للاقطاعية التى اخذت فى الزوال منذ الحرب العالمية الاولى ، وان يكون عمال المناجم معتصمين فى مناجمهم بتدبير أصحاب الاموال ، وان تسقط حكومة وتقام حكومة والجيش الاحمر فى البلاد « يتفرج » كما يقال ولا يتدخل لاسقاط معارضيه واقامة صنائعه ومؤيديه

ويتم الشبه بين الحجج القيصرية وحجج الاستعمار فى هذه المعاذير كلما قابلنا بين دعواها ودعواهم على الشعوب التى تحاربهم بالثورة ويحاربونها باختلاق التهم عليها

فالامة المصرية ثارت على الاحتلال البريطانى بعد الحرب العالمية الاولى واستخدم المحتلون كل ما وسعهم من بطش فى قمع ثورتها ، ثم احسوا حرجهم امام العالم واحتاجوا الى العذر المقبول امام شعوب الحضارة ، فبماذا اعتذروا ؟ اعتذروا بأنهم لا يقمعون ثورة قومية ولا حركة طبيعية ، ولكنهم يحبطون فتنة خبيثة دبرها الترك والالمان المنهزمون ، وعجزوا كما عجزت القيصرية الحمراء عن تقديم شخص واحد تجوز عليه تهمة التحريض على الفتنة من قبل الترك والالمان ، وكان من اغرب الدعاوى حقا ان يستطيع الترك والالمان المنهزمون أن يثيروا فى هزيمتهم فتنة لم يقدروا على اثارتها وهم منتصرون، ولكنها ليست باغرب من دعوى الاقطاعية على عمال المناجم أو ناشئة الجيل الذى لم يشهد فى بلاد المجر دولة من دول الاقطاع

على أن أسباب الثورة فى المجر وبولونيـا وبلاد الملحقات والتوابع فى القارة الاوربية اثبت وأقوى من ان يجدى فيهـا الانكار او تجدى فيها براعة الدعاة فى فن الاخفاء والاختلاق

أسبابها أن القيصرية الشيوعية تحاول جهدها أن تقبض بكلتا يديها على أزمة السياسة الاقتصادية فى كل مكان تحرص على النفوذ فيه ، وماذا تجدى الدعاية أو الاختلاق فى انكار هذه الحقيقة ؟

هل تنكر القيصرية الشيوعية قواعد مذهبها الاولى والاخيرة .. هل تنكر ايمانها بأن السيطرة السياسية تابعة للسيطرة الاقتصادية ؟ وهل هى ــ مع ايمانها بهذا ــ تطمع فى بقـــاء نفوذها حيث تريد النفوذ دون أن تملك أزمة الثروة والاقتصاد؟ هل يوافق مذهبها فى أساسه ان تترك توجيه الثروة لغيرها فى مجتمع من مجتمعات ملحقاتها وتوابعها ؟

فالتبرؤ من التحكم فى ثروات الامم دعوى تقبل من كل قيصرية قبل أن تقبل من القيصرية الشيوعية

وقد تكذب الاخبار والاشاعات ولكن هذه الحقيقة لا تكذب ولا تقبل الانكار

فاما أن تكون القيصرية الشيوعية مسيطرة على أزمةالثروة فى البلد ، واما أن ترحل عنه ولا تهتم بأمره ، وكل ما يقال غير ذلك فهو انكار لمذهب القوم من الاساس ، وليس قصـــاراه انه انكار لخبر أو تكذيب لدعاية

وكل ما يذاع من أخبار تلك البلاد المغلقة فى وجه العالم فهو تطبيق طبيعى للمذهب الذى يقوم على تسخير الوســـــائل السياسية للوسائل الاقتصادية

وبجدع الانف تفرط الشيوعية القيصرية فى زمام من أزمة



لينين

الاقتصاد تستطيع أن تقبض عليه فى بلد تعمل على ابقاء نفوذها فيه

ولهذا فعلت فعل المستعمرين فى معاملة شعوب الملحقات والتوابع فأخذتهم بذنب النازية التى كانت مسلطة عليهم برغم انوفهم ، وتعللت بمبادىء الغرامات والتعويضات لاستيفاء حصتها من شعوب اوربة الوسطى واوربة الشرقية التى كانت خاضعة للنازيين ، ولم تستوف حصتها ــ بالبداهة ــ من هتلر وجورنج وجوبلز وهيس وريبنتروب ، ولكنها استوفتها من الشعوب التى تبكى عليها من ظلم السيادة الاجنبية وظلم الاقطاع

وبدأت بعد الحرب العالمية الثانية بنزع المصانع والآلات الضخمة من البلاد المغلوبة التى حقت عليها الغرامة أو التعويض ، ولم تعد الى تلك البلاد شيئا مما نزعته الا على شريطة « الادارة المشتركة » التى يتساوى فيها الروس والوطنيون ويتولاها مدير يرضى عنه الكرملين ، ولن يكون هذا المدير الا اداة مطواعا لامر سادته واصحاب الفضل عليه فى ترشيحه وتغليب كلمته على معارضيه ، ولن يكون « وطنيا » محليا فى سياسته ولو كان من الوطنيين المحليين ، وله عذر حاضر يحمى به وجهه أمام ناقديه من قومه وغير قومه ، وهو عذر الانفة من الوطنية التى تقدم العصبية على مصالح الطبقة ومصالح الحزب الشيوعى أو الاحزاب الشيوعية ، وكلها ينبغى أن تكون على راى سواء فى جميع الاوطان



وعلى الجملة تتلخص العلاقة بين القيصرية الشيوعية واتباعها

فى كلمتين : الاستغلال والاكراه ، فلا يخضع شعب من الشعوب لطغيان القيصرية الا وهو عاجز عن المقـــاومة الحكوميــة او الشعبية ، ولا يخف طغيـان القيصرية فى بلد من البلدان الا بمقدار الخوف من مقاومته وانتقاضه ، ولا حساب هنا للحرية ولا لرعاية الحقوق

وتقول الدعاية هنا ماتقول فالواقع أن قيام السلطة القيصرية على القمع والاكراه بين الامم التابعة لها أمر ملموس فى مجامع الدول لا تجدى فيه المكابرة ولا تلفيق المعاذير . فان الاستعمار الذى يتكلم عنه الشيوعيون كما يتكلمون عن الغول أو الافعوان لم يرهب اتباعه كما ترهب القيصرية الحمراء اتباعها فى أهم التوابع والملحقات ، وأيسر مقارنة هنا بين مواقف كندا والهند وزيلاندة الجديدة ومواقف بولونيا والمجر وفنلندة تدل على الفارق البعيد بين طغيان القيصرية الشيوعية وطغيان الاستعمار المنعوت باستعمار رأس المال . فبينما تجترىء كندا مثلا على منابذة انجلترا والوقوف فى صف معارضيها فى هيئة الامم المتحدة ننظر الى الدول التابعة للقيصرية الشيوعية فلا نرى دولة منها تجترىء على « الحياد » فى مسألة من المســـائل العالمية التى تفترق فيها الخطط والسياسات ، وقل منها من تجترىء على اجتناب التصويت عند احتدام الخلاف

واذا كان هذا نصيب الدولة ذات « الكيان السياسى فليس من المعقول أن تكون الشعوب التى لا كيان لها أعظم نصيب من استقلال الراى وحرية الارادة ، فان هذه الشعوب « تندمج » فى الاتحاد الشيوعى ولا يزيد رايها فيه على صوت واحد من أصوات الكثرة الغالبة فى القرارات النهائية ، وهى على هذا لا تملك صوتها الواحد مستقلا عن طغيان الكرملين ،

لان دساتير الشعوب المحلية تنص على المساواة فى الحقوق السياسية بين الروس وأبناء تلك الشعوب . ومعنى ذلك ان الحقوق كلها للروس فى الحكومات المحلية ، لانهم أعضاء فى حزب واحد منظم يقابلهم شتيت من الوطنيين المتفرقين لايقبل احدهم فى الحزب ما لم يكن مرضيا عنه مضمون الموافقةقبل انتظامه فيه ، ومتى كان المرجع الاخير الى حزب منتظم فى الادارة المحلية يؤيده حزب منتظم فى الدولة الحاكمة فلاحرية ولا استقلال ولا وجود للصوت الذى يطلب الحرية والاستقلال لانه سرعان ما يتعرض لتهمة الخيانة والانشقاق حين تبدر منه المخالفة فى مسألة واحدة ثم تتكرر فى مسألتين او ثلاث ، واذا كان أقطاب المذهب من أمثال مولوتوف ومالنكوف وشبيلوف يتعرضون لهذه التهمة فى المجلس الاعلى فى بلاد الروس نفسها فما بالك بالعضو التركمانى المسكين اذا اجترأ على مخالفة خطة متفق عليها بين سادة الكرملين ؟ وما ضمانه من الدستور او الرأى العام اذا كان هذا الضمان معدوما فى مجالس الاقطاب والاعلام ؟

ان بناء قنطرة فى بلاد البشكير يحتاج الى التصديق من سادة الكرملين ، وان مد انابيب الماء أو سكة « الترولى » فى نالشيك Nalchick لا يتم بغير الموافقة من أولئك السادة ، ولا يتكلف القوم مداراة ذلك لانه من المنشورات الرسمية فى الصحف الكبرى ، وما أشرنا اليه هنا منشور فى تاريخ واحد من صحيفتين كبيرتين هما صحيفة برافدا Pravda وازفستيا Izvestia الرسميتين « ١٨ يونية سنة ١٩٥٠ »

ويقاس على حقوق الحكم الذاتى فى مد السكك والانابيب حق الامة فى حرية التعليم ، أوحرية الاعتقاد او حرية الاتصال

بالبلاد الخارجية . فانها كلها مكفولة بمثل هذه الكفالة التى لا محصل لها فى النهاية الا انها كفالة حروف وكفالة نفاق

هذه قيصرية الشيوعية ، وتلك قيصرية الطغاة المستبدين. اذا اختلفتا فانما تختلفان لان القيصرية الشيوعية تستبيـــح كل منكر تتعلل له بحقوق الشعب وتستهين فيـــه بجميع المحظورات ، ولكن القيصرية الغابرة كانت تعرف المحظـــورات وتحتال لها بالفتاوى الشرعية كلما اندفعت فيها بغير روية ، وقلما كانت قادرة على اختراع تلك الفتاوى لكل محظور



واستبداد

والقيصرية فى حكم الرعايا الوطنيين ليست بأهون ولا أرحم من القيصرية فى حكم الشعوب الغربية من بلاد الملحقات أو أعضاء الاتحاد ، فهذه وتلك قائمة على الاستبداد المطلق من قيود الشريعة والاخلاق ، فلا قيود لها غير قيود الضرورة القاهرة التى لا يقدر عليها ولاة الامور

ان الروسيين الذين أبادهم الحزب الشيوعى يعدون بالملايين، كان يكفى أن يكون أحدهم من ملاك الارض ليباح دمه بغير محاكمة وبغير سؤال ، وكان يكفى فى بعض الاحوال أن يأكل الفلاح وآله ذبيحة من البقر أو الضأن ليستباح دمه ويقال عنه انه معطل لمشروع المزارع الجماعية ، يتعمد أن يذبح الماشية لكيلا تؤخذ منه للمشاركة فى مشروع من تلك المشروعات بل كان يكفى لاستباحة الدم والحرية ما هو أيسر من هذه التهم الكبار كتهمة الكسل فى الزرع أو التقصير فى تسليم الحصة المفروضة على المحصول ، وجريمة هؤلاء جميعا تدخل فى عداد جرائم التعطيل والتثبيط التى تعاقب بالاعدام

ولا يقل ضحايا الحزب الشيوعى عن عشرين مليونا ذهبوا ضحية للقتل الجزاف او للحرمان والجوع أو النفى والتشريد فى مجاهل سيبيريا ومعاقل قطب الشمال . ويبلغ من استخفاف دعاة الثورة الحمراء بدم الانسان انهم يحسبون كلمة الثورة مسوغا كافيا لاستباحة دماء الملايين كأنها الوسيلة الوحيدة لنجاح ثورتهم أو اجراء هذه التجربة فى سبيل النجاح ، ويقول

لينين بغير مواربة فى خطاب منه الى الكاتب جوركى أن ابادة ثلث الجنس البشرى ليس بذى بال ، وانما المهم ان تنجح الشيوعية باية حال

لكنه عذر لا يستر طبيعة الضراوة بالشر فى نفوس هؤلاء الطغاة ، فان أعضاء الحزب أنفسهم لا يسلم المقهور منهم من شرور المنتصرين عليهم فى التنازع على مناصب الجاه والجبروت وقد عمل الشيوعيون على الثورة فى عهود ثلاثة من قياصرة آل رومانوف ، فلم يقتل القياصرة الثلاثة عشر الذين قتلهم ستالين وحده من كبار الزعماء بله الصغار المجهولين ، وخليفة ستالين نفسه هو الذى يقول : « انه من بين المائة والتسعة والثلاثين الذين انتخبوا فى المؤتمر السابع عشر ثمانية وتسعون اعتقلوا واعدموا رميا بالرصاص خلال عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على الخصوص .. ولم يكن هذا مصير أعضاء اللجنة المركزية فحسب ، ولكنه كان مصير اكثر المندوبين الذين اشتركوا فى المؤتمر السابع عشر .. فمن ١٩٦٦ مندوبا كانوا يملكون حق الاشتراك فى الاقتراع أو يتمتعون بحقوق استشارية القى القبض على ١١٠٨ أشخاص بتهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة »

ومضى ستالين فلم يسلم كبار الزعماء من استبداد القادرين على الاستبداد ، ولم يتهم احد من هؤلاء الزعماء بتهمة اقل خطرا من تهمة الخيانة العظمى وعداوة الشعب والمروق من مبادىء الثورة واشباه هذه التهم التى لا تقل العقوبة فى احداها عن الموت مع التشهير والتحقير ، ولا يتطلب الامر لاثبات هذه التهم واستحقاق العقوبة عليها أكثر من الاقتراع مع القلة فى مجلس من مجالس الحزب العليا أو فى هيئة من

هيئات الصناعة التنفيذية ، فاذا قال تسعة ان زيادة المصنوع من الجرارات غير لازمة وقال عشرة انها لازمة لا غنى عنها ، فالتسعة خونة معادون للشعب مارقون على عقيدة الثورة ، دليل ادانتهم انهم أقل فى العدد بواحد من زملائهم المخالفين ، واذا كان من رأى مولوتوف وملنكوف وكاجنوفتش وشبيلوف واثنين أو ثلاثة معهم ان السياسة الخارجية تفرط فى اللين او تفرط فى الشدة وكان من رأى الفريق الآخر انهم مخطئون فهم مخطئون خطأ الأبد الذى لا علاج له غير الموت البدنى أو الموت المدنى ما دام القائلون بخطئهم يزيدون عليهم بواحد او اثنين

ولو كان هذا الاختلاف محرما على الكبار والصغار فى أول عهد الثورة لجاز أن يقال أن الخوف على الثورة يبيح ما لايباح من فرط الشدة والقسوة جمعا للشمل ومنعا للشقاق ، ولكنه يحرم بعد أربعين سنة ، ويستكثر على أكبر القادة الزعماء من ذوى المبادىء والآراء ، وما يحرم على زعيم نيف على الستين وهو فى خدمة الثورة والدولة وارتفع فيهما الى مكان القيادة منذ ثلاثين سنة لن يكون مباحا لفرد من الافراد محجوب عن أسرار الدولة وبرامجها فى السر والعلانية ، مفروض عليه أن يصدق كل اتهام وان يؤيد كل انتقام ، مادام المتهم من المنكوبين المنكودين والمنتقم من الظافرين المتحكمين

وسواء صدق هؤلاء الظافرون أو كذبوا فى اتهامهم لخصومهم فالثورة على الحالين أحقر ماعرف الناس من ثورات فى تواريخ الاقدمين والمحدثين

فليس أحقر من ثورة يخون مبادئها مئات من زعمائها متطوعين بغير داع للخيانة وهم فى مراكز القيادة والرعاية

وليس أحقر من ثورة تدين المئات من زعمائها ظلما وتفترى عليهم تهم الخيانة واحدا بعد واحد وهم مستسلمون بغير نصير ولا شفيع

وليس أحقر من استبداد يجرى مجراه على هذه الوتيرة بعد أربعين سنة من قيام الثورة سواء جرى فيها لضرورة او لغير ضرورة

فالثورة التى تضطر الى الاستبداد ولا تستغنى عنه بعد أربعين سنة هى كارثة بلاء واصب وليست بحركة اصلاح مأمول

والثورة التى تصطنع هذا الاستبداد وتقترف آثامه وموبقاته لغير ضرورة هى مؤامرة اجرام لا أمان فيها للمحكومين ولا للحكام ..

ولا أمان فى نهاية الامر لمن يصاب بهذا الاستبداد أو لمن يشهد المصاب بعد المصاب وهو معفى من نكباته لهوان شأنه على سادته ومسخريه ، فكل من هلك أو سلم فهو من ضحاياه، ولكن الهالكين يخرجون بالموت من سلطانه الغاشم وتبقى الامة « الناجية » بمصاب أفدح من مصاب الهالكين ، لانها تبقى وهى ملغاة العقول والضمائر تصدق عن فئة من أبنائها بعد فئة انهم أبطال الشرف والنجدة وانهم شياطين الخيانة والدمار ، فان لم تصدق هذا فهى لا تبالى ما تصدق وماتكذب لانها لا تحفل العدل والظلم ولا تعرف الغضب للمظلوم ولا الغضب على الظالم ، ولا تعدو أن تكون كالماشية التى تساق منها البهيمة بعد البهيمة للذبح وهى لا تسأل عن شيء غير الجوع والظمأ ، او تكون من بنى الانسان فى حال كحال السجناء من أراذل الخلق لا يحسبون للحرية ولا للسمعة حسابا مادام فى السجن مسكن وملبس وغذاء

وعنصرية

فى القارة الاسيوية بضع عشرة امة صغيرة يتراوح عددها من مليون الى خمســـة عشر مليونا أو نحو ذلك ، وكلهم فى الاصــل ترك طورانيون يدينون بالاسلام على المذهب السنى ويتكلمون لهجات من اللغة التركية يفهمونها جميعـا بكتـابة واحدة ولا يصعب على أحدهم أن يتفاهم بها مع أبناء الاقاليم الاخرى ، ولا شك أنها تتوحد كما توحدت الفرنســية أو الايطالية بين لهجـات الاقاليم فى بلادها ، اذا اسـتخدمت فى الكتابة والاحاديث العامة كما تستخدم اللغات القومية

ولـكن القيصرية الشيـوعية ـ باسم رعاية الحقــوق واحترام الاستقلال الذاتى لتلك الشعوب تمزقها فى حدودها وانظمة حكمها أجزاء مبعثرة لايجتمع جار منهـا على جار ، ولا يقبل من احدها أن يذكر له أصلا جامعا ينتمون اليــه باللغة والسلالة

« ... والعمل على محو معالم القومية فى هــذه الشعوب وقطع كل علاقة بينها وبين تراث اللغةوالتاريخ ـ فيها ـ هو زبدة المبادىء التى تعلنها قرارات الحزب وتذيعها الصـحف الرسمية ويشرحها فى الــكتب والمنشورات علماؤها المجندون لتنفيذ برامجها الثقافية . وما من كتـاب يؤذن له بالخروج من المطبعة فى أرجاء روسيا الا وهو بمثـــابة الامر الحكومى المفروغ من تحضيره ومراجعتــه وتطبيقـــه على مشروعات السنين كما تقررها نظم الدولة بعد أن تفرض العقوبةالصارمة على من يخالفها

« ولقد سلك المستعمرون الحمر مسلك جميع المستعمرين في تخدير ضحاياهم بالوعود الكاذبة وتغريرهم بزخارف الاباطيل ومحرجات الايمان على نية الحنث بها من اللحظة الاولى . فأعلنوا في أوائل أيام الانقلاب الشيوعي بلاغا طنانا وجهوا فيه الخطاب الى الشعوب الاسيوية الاسلامية بصفة خاصة وأكدوا فيه لكل شعب منها أنه آمن بعد اليوم على حريته التامة في معتقداته وشعائره وعاداته ومقومات العرف واللغة بين عشيرته وأهله ، وآذنوه بزوال الحكم القيصري وزوال عهد الحجر والطغيان بزواله الى غير رجعة ، وما هو الا أن هدأت الثائرة واستقرت الدولة الجديدة في مراكزها حتى عادت القيصرية في أشنع صورها وحل الخوف محل الامان في كل وعد من وعود الحرية والطمأنينة ، وقال قائل من أمناء تلك الشعوب المهاجرين في حديث يمتزج بالسخر الاليم : « ان المخدوعين المساكين كانوا اذا أرادوا أن يعرفوا مواضع المصادرة المنتظرة رجعوا الى بقية الشعائر التي وعدوهم باحترامها فعلموا انها هي الهدف المقصود بالضربة التالية ... » ولم يكن هذا الساخر مازحا فيما وصفه من تقدير قومه وان ساقه في مساق التهكم والسخرية . فان الشعائر المقدسة قد أصبحت في الواقع مرادفة للجرائم المحرمة على تلك الشعوب ... حتى الشكوى من القيصرية في أبان طغيانها أصبحت دليلا على التشبث بالنعرة القومية ، فوجب اتهام المجاهرين بها والقضاء على دعاتها . وتساوى في هذا الاضطهاد جميع الشعوب الاسلامية من كان منهم في أقاليم أوربية ومن كان منهم في أقاليم آسيا الغربية أو آسيا الوسطى . فصدر الامر في القرم بتقسيم اللغة التي يتكلمها

القرميون الى ثلاث لهجات وضبط كتابتها على حسب الابجدية الروسية لا على حسب الابجدية العربية ، ونادى وزير المعارف — الكسندروفتش — فى المؤتمر الشيوعى السابع عشر بوجوب تطهير هذه اللهجات وادخال الكلمات الروسية فى موضع الكلمات المحذوفة منها ، وشاعت سياسة التشتيت والتمزيق فى اللهجات ، بل فى فروع اللهجات ، ليتيسر محوها وتصعيب استخدامها فى مقاصد العلم والثقافة وتعجيزها عن الثبات — من ثم — أمام اللغة الروسية التى اجترفتها جميعا فى معاهد الدراسة ودواوين الحكومة ومنشورات المصالح والمجالس السياسية . وقد كان ستون مليونا من أبناء الشعوب الاسيوية يقرأون صحيفة «ترجمان» التى كان يصدرها المصلح الكبير أسماعيل غصبرالى المعروف فى القاهرة ، وكانوا على اختلاف لهجاتهم يفهمونها ويتداولونها ، فأمر المستعمرون الحمر — أنصار حرية الشعوب — بمصادرة كل صحيفة من قبيلها واعتبارها داعية الى النكسة والرجعية والتشبث بالنعرة الوطنية وصادروا مع مصادرتها كل سيرة من سير البطولة يتغنى بها أبناء الشعوب المغلوبة . لان ثورة الابطال الوطنيين فى وجه القياصرة انما كانت ثورة على الامة الروسية التى ساقت الحضارة والمعرفة الى تلك الشعوب ..

« وحاقت اللعنة بالادباء الذين يذكرون أوطانهم بالثناء ويفخرون بالانتماء اليها ، فاتهم الشاعر التركمانى جمعة مرادوف بالنكسة الرجعية لانه نظم قصيدة عنوانها « بلدى تركمانستان » عابتها صحيفة الحزب « تركمانسكايا اسكرا » فى عددها الصادر فى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر

سنة ١٩٥١ وقالت فى انتقاد الشاعر: «انه لايختص التركمان السوفيتية بالكلام بل يعمم القول على جميع بلاد التركمان ويصورها كأنها جنة على الارض ... وانما ينبغى على الشاعر أن يتحدث عن تركمان السوفيتية لانها احدى الجمهوريات الاخوات فى داخل الاتحاد السوفييتى العظيم »

« وسيقت الامم غير الروسية الى عقد مؤتمر تعلن فيه ولاءها للدولة المستعمرة وسخطها على دعاة التجديد والاحياء فى الحركة الوطنية ، فخطب باجيروف نائب الرئيس بذلك المؤتمر قائلا : « ان رئاسة اتحاد الكتاب السوفيتيين رات حوالى سنة ١٩٤٨ أن تعقد فى موسكو اجتماعا لتنظيم المناقشة فى مسألة القومية التى ينتمى اليها الكتاب السابقون ومؤلفاتهم غير مستثنية من ذلك أمثال ذلك الكتاب الرجعى الذي ينطوى على عداوة الشعب وتسميم الافكار بسموم الجامعة الاسلامية نعنى كتاب ديدى كركوت Dedakorkyt

ولكن هذا الراى قد تقرر رفضه فى لجنة الحزب المركزية وعرفنا بفضل هذه اللجنة طوايا الكتاب السيئة وان نميط اللثام عن حقيقة الرجعية

« وتعقب النقاد الرسميون أناشيد البطولة والوطنية فى الامم الخاضعة للدولة المستعمرة فوصموها بخبث النزعة وسوء الطوية وقال باجيروف المتقدم ذكره فى عدد يوليو سنة ١٩٥٠ من مجلة بولشفيك وهو يتحدث عن « شامل » بطل القوقاز الذى اشتهر بثورته على القيصر قبيل منتصف القرن التاسع عشر : « اننا اذا أردنا أن نفهم فكرة صميمة عن حركة شامل هذه فلنذكر انها كانت حركة دينية وانها اشد اعراض الجامعة الاسلامية نكسة وعداوة

وقالت مجلة كومونست فى عدد يناير سنة ١٩٥٣ : « ان المؤلف جعفروف الذى كان يظن سنة ١٩٤٤ أن الحركات القومية التى ثارت على روسيا خلال سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩١٦ كانت من حركات التحرر الوطنى قد عاد فأدرك خطأه وكتب فى سنة ١٩٥٢ انها كانت حركات اقطاعية متعصبة »
... ومضت المجلة تقول : « ان هذا الكتاب ـ اى كتاب جعفروف ـ يتعمق فى البحث عن جذور العلاقة الودية بين أمم آسيا الوسطى وبين الامة الروسية العظيمة ويلفت النظر على نحو خاص الى الدلالة التقدمية التى يدل عليها ضم هذه الامم الى الحظيرة الروسية ... فان هذا الضم قد اتاح لها فرصة المساهمة فى ثقافة روسيا العظيمة .

« وصحيفة الدولة ـ برافدا ـ تردد هذه الاقوال وتصرح فى السابع من أكتوبر سنة ١٩٥٢ ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعى تمنع سموم الجامعة الاسلامية ... ثم تصرح فى الثالث عشر من فبراير سنة ١٩٥٣ بأن المؤرخ سليمانوف مضلل كاذب لانه يزعم أن الشعوب التركية تجمعها ثقافة مشتركة ، وتصرح صحيفة الدولة الاخرى ـ ازفستيا ـ قبل ذلك فى الثانى من سبتمبر سنة ١٩٥١ ببطلان الدعوة التى يجنح اليها مجمع العلوم ببلاد الازبك لاحياء كتب السلف الاسلامية وادخار مخطوطاتها ومتفرقاتها

« وقد بدأت هذه السياسة منذ الايام الاولى التى افاق فيها سادة الكرملين من شواغل حربهم الداخلية ، ولكنهم كانوا يراوغون فى تنفيذها بين المصانعة والخديعة أو بين القمع والحيلة ، حتى كشفوا القناع عنها حوالى سنة ١٩٣٠ فدفعوا اذنابهم الى المؤتمر الذى سموه بالمؤتمر التاريخى فى سمرقند

ليعلنوا البراءة من الوحدة القومية ... أو ليعلنوا بعبـــارة أخرى أنهم ـ أبناء آسيا الوسطى ـ اشتاتمتفرقون وليسوا بالعنصر الواحد فى الاصل ولا فى اللغة ولا فى التراث القـديم وقد اجتمع المؤتمر سنة ١٩٣٥ وأصـدر قراره ـ العلمى ـ بوجوب تصحيح النظر الى تلك الوحدة المزعومة بين القازاق والتركمان والجرغيز والازابكة وجيرانهم الآخرين .. ولسنا ندرى كيف يطمع دعاة الاستعمار الاحمر فى تصديق هـذه الاضحوكة عن اناس طائعين مختارين يشـدون رحالهم الى بلد واحد ليسوغوا للغاصب تمزيقهم وانكار اصولهم وابتلاعهم بعد ذلك اشتاتا مبعثرين

« ويجوز تصديق هذه الاضحوكة لو كانت المسألة هنـا مسألة مبدأ فى المذهب الماركسى يطبقونه على جميع الاوطان وبين جميع الشعوب ... او لو كان الشـعور الوطنى على مذهبهم شعورا بغيضا لديهم يحرمونه على الامم الحاكمة كما يحرمونه على الامم المحكومة ، ولـكن الواقع فى الامبراطورية الروسية على نقيض ذلك من طرفيه . فان العصبية الوطنية مفروضـة مشـكورة فى ورسيا حيث تكون مذمومة مدحورة فى البلاد الخاضعة لسلطانها ، وكلما اشتد ولاة الامر فى تحريم العناية باللغة والتراث القومى فى قطر من الاقطار الاسـيوية قابلوا ذلك بالحماسة الروسية للعنصر واللغة والثقـافة فى اضيق حدودها ، ولم يصنع النازيون والفاشيون فى تهوسهم المرذول بالمفاخر المحتكرة للجنس الآرى والمآثر الموقوفة على الجرمان واسلافهم دون سواهم من أمم العالم بعض ما صنعه دعاة العظمة السلافية ـ بل عظمة الجنس الروسى على حدة ـ بين سائر أجناس السلاف الحاضرين والغابرين . فانهم ردوا

الى هذا الجنس فضلا واحدا لا منازع لهم فيه ، يدعون به السبق الى كل اختراع والانفراد بكل فكرة قبل انتشارها بين بلاد الحضارة الحديثة

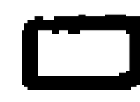
« ففى سنة ١٩٤٠ منح مجلس الوزراء جائزة الدولة للمؤرخ ريباكوف Reybecov لانه زعم فى كتابه عن صناعات روسيا القديمة ان روسيا كانت مصدر المعارف الصناعية التى انتقلت منها الى الغرب واستفادت منها بولونية وبوهيمية وما جاورهما

« وصحيفة الدولة تحيى قصة كاترين الثانية فى الصور المتحركة فتعيد قصيدة شاعرها الذى وصف ذلك العهد بأنه عهد الظفر القاصف والغلبة الجانحة والعبقرية الروسية فى ميادين القتال . وقادة روسيا الذين خدموا القياصرة تعاد ذكراهم المئوية أو الخمسينية لكل مناسبة عارضة أو لغير مناسبة على الاطلاق غير أرقام التواريخ فيشيد كاتبهم شاتاجين Shatagin فى شهر مايو سنة ١٩٥٠ بذكرى انقضاء مائة وخمسين سنة على وفاة القائد سفيروف Suverov ويحيى هذه الذكرى الخالدة بمقال مسهب استغرق أكثر من عشر صفحات فى العدد التاسع من مجلة البولشفيك « والدولة هى التى تتولى نشر كتاب كوفاليف Kovalev الذى يعيد معظم المخترعات الى سابقة روسية ، ويقول فيه ان لومنسوف الروسى سبق لافوازيه الى قانون بقاء المادة والطاقة ، وأن بتروف سبق جميع العلماء العالميين فى كشوف الصناعة الكهربية وأن ليتز وياكوبى سبقا المخترعين والكاشفين الى استطلاع اسرار المغنطيسية الكهربية وان بلزنوف سبق واطس الى اختراع القاطرات البخارية وان يابلخوف ولوديجين

سبقا المخترعين الى الاهتداء لنور الـكهرباء بأكثر من ثلاثين سنة وان بوبوف هو مخترع جهاز الاذاعة حوالى سنة١٨٩٥ وأن برويجين سبق الفلكيين الى رصد حركات المذنبات ، وأن لوباشفسكى هو صاحب الآراء الحديثة التى جدد بها علوم الرياضة وانشأ بها هندسة تنافس هندسة اقليدس القديمة، وان علماء الروس بالايجاز قد سبقوا جميعالعلماء والمخترعين فى ميادين الصناعة العصرية والعلم الحديث

« وكلما اجتمع مؤتمر المعلمين الذى يوحى بسياسةالتعليم الى المدارس كافة فى أنحاء الامبراطورية نادى بوجوب تعليم الدروس جميعا باللغة الروسية ... وصحيفتهم المخصصة لاذاعة هذه السياسة هى التى نشرت خلاصة هذه القـرارات فى السابع من شهر ابريل سنة ١٩٥٤ فقـالت فى الفصـــل الافتتاحى « ان الاكرانيين وابناء روســيا البيضاء واللاتفيين والاستونيين والقازاق والازابكة والشراكسة والارمن والتتر الخ ألخ .. يدرسون بجد وشغف لغة أختهم الـكبرى الامة الروسية العظيمة

وهذه الصحيفة هى التى نشرت فى الثـلاثين من شهر يونيو سنة ١٩٤٣ برنامج التعليم فقالت انه من اللازم فى السنوات الباكرة أن يتعلم الاطفـــال محبــة كل ماهو وطنى من تربة الوطن ... وأنتغرس فى نفوســهم الفكرة التى تجلب دموع الفرح الى أعينهم عند الاشارة الى هذه الامم الكبرى وتسرى بالقشعريرة الىالدم كلما مربالذهن خاطر يهددنا بفقدها (١) »



فالمبادىء التى يروجها سماسرة الاســـتعمار الاحمر غن

---

(١) مقدمة كتاب الاستعمار الاقتصادى من سلسلة الناقوس

الوطنية البغيضة والعنصرية البرجوازية واشباه هذه المحفوظات المبتذلة انما هي بضاعة تصدير لمحو جميع العناصر وبقاء عنصر واحد يسودها ويرغمها على التغني بمفاخره والاشمئزاز من مفاخرها ، وهذه سياسة عنصرية لم تبلغ مبلغها سياسة مرسومة فى عهد من عهود الاستعمار مما سبقت به دول العصور الوسطى أو لحقت به دول الاستعمار الحديث الى القرن العشرين

فالمستعمرون حتى هذا القرن . لم يعملوا ولا حاولوا أن يعملوا على ابتلاع السلالات وهضمها فى سلالة واحدة تحيط بالامم المغلوبة وتخرجها عن أصولها وتقتلعها من جذورها وتسوقها الى عقد المؤتمرات ووضع برامج التدريس لهجر لغاتها ودفن تراثها التنكرى لماضيها ومستقبلها ، وغاية ما ترامى اليه أمل المستعمرين فى محو معالم القومية بين الشعوب الخاضعة لهم انهم كانوا يجعلونهم بالمنزلة الثانية فيما يتعلق بالحكم وولاية الامور العامة . فأما هذه السياسة التى تجعل القومية جريمة ومفخرة فى وقت واحد وتفرض على المغلوب أن يتغنى بمفاخر سادته ويزرى بمفاخر قومه فتلك خاصة من خواص هذه القيصرية الحمراء لم يسبقها سابق فى تاريخ الاستعمار

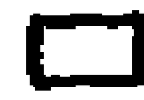
مع العالم

الشيوعيـــة دولة ومذهب ، أو دولة ودعوة ، ولا تبرأ سياسة الدولة ــ ذات الدعوة ــ من دسائس النفاق والمراوغة

فهى اذا كفت عن الدعوة فى الامم الاخرى خانت مبـادئها وتنكرت لرسالتها وتراءت فى ظاهرها بغير ما تضمره فى باطنها

وهى اذا نشرت دعوتها لتشجيع الفتنة بين شعوب الدول الاخرى خانت قضية السلام واصطنعت الغش فى قواعــد المعاملة الخارجية بينها وبين حلفائها واعدائها

ولابد من باطن غير الظاهر فى الحالتين ، ولابد من فقدان الثقة فى سياسة الداخل والخارج ، وهى أساس كل علاقة صالحة ..



وقد تقرر بالتجربة المتطاولة أن « الموقع الجغرافى » يتحكم فى سياسة الدولة فتمضى فى وجهة واحدة ، وان تغيرت فيها النظم والحكومات ، ويسمون هـــذا الرأى فى علم السياســة الحديث « بالجيوبولتيك » أو السياسة الجغرافية

ويصدق هذا الرأى على وجهة السياسة الروسية من عهد قياصرة رومانوف الى عهد قياصرة الشيوعيين ، فكل ماطمع فيه آل رومانوف من الفتوح أو منـاطق النفوذ فهو مطمع للساسة الشيوعيين ، وقـد كان آل رومانوف يقولون انهم يريدون فتح الآستانة لاســتعادة كنيسة « ايا صـوفيا » واقصاء آل عثمان عن عاصمة الـكنيسة الشرقية القديمة .

فانقضى عهد آل عثمان وقام بالامر فىالآستانة وموسكو اناس ينظرون الى الدين بغير نظرة القياصرة والخلفاء ، ولكن سادة الكرملين يطلبون الآستانة ويطلبون البوسفوروالدردنيل كما كان يطلبها قياصرة الحرب وقيصر السلام

سياسة الامس وسياسة اليوم فى الدولة الروسية علىاتفاق فى الوجهة العامة ، وتزيد سياسة اليوم بالدعوة الى مذهب الدولة والاتجاه بها الى اشاعة القلق والخراب فى كل مكان ولا سيما بلاد المشرق التى يتطلع اليها « الرفقاء » الحمر كما تطلع اليها من قبلهم أصحاب التيجان

ولنضرب مثلا من أمثلة كثيرة بمسالة معروفة فى البلاد الشرقية وهى مسألة البترول

أى غرض لسياسة الشيوعية فيها غير سياسة الشغب والتخريب ؟

هل تقوم هذه السياسة على مصلحة العالم ؟

هل تقوم على مصالح البلاد الشرقية ؟ هل تريد أن تعطل انتاج البترول من جميع الابار ؟ هل تريد أن تستولى هى على الآبار بعد تعطيلها ؟ هل تريد ان تبقى تلك الآبار مدفونة أو فى حكم المدفونة بين أناس يجهلون صناعاتها ولا يملكون أدواتها ؟..

ليس فى غرض من هذه الاغراض مايدخل فى تقدير دولة ، ولكنها أغراض تدخل فى تقدير الدعاة الذين يعملون للقلق والتخريب ولا يبالون فى سبيلهما مصلحةالعالم ولا مصالح البلاد الشرقية ، فان مصلحة العالم ومصالح البلاد الشرقية لا تتحقق باهمال البترول فى آباره ، والدولة الروسية لاتترك

البترول فى بلادها مهدرا ولا تقترح وسيلة لاستخراجه من البلاد الخارجية أصلح من وسائله الحاضرة ، وهذه سياسة واحدة من سياسات كثيرة تجرى عليها الشيوعية ولا نتيجة لها غير القلق والفساد

واذا كان فى العدوان الدولى ماهو شر من طمع الاستعمار فذاك هو العدوان الذى يستوفى الطمع ويزيد عليه سعاية السوء لاثارة النقمة واشاعة البغضاء بين الامم . فلا يزال بكيد الساسة والدعاة يلبى مطالب الدولة بالطمع ويلبى مطالب الدعوة بالنقمة والخراب

وقد يدل « الموقع الجغرافى » ايضا على طبيعة الشيوعية فى عملها بالقوة وعملها بالاقناع ، فمما يدل على أن عملها بالقوة اكبر من عملها بالاقناع أن « سلطتها » أنجح ماتكون فى البلاد التى تصل اليها بالسلاح والمال أو معونة المرافق المالية . فان سلطتها فى الهند أضعف من سلطتها فى الصين وكوريا الشمالية ، وسلطتها فى الصين وكوريا الشمالية أضعف من سلطتها فى البلاد الاسيوية الاسلامية التى تقع الى جوارها ، ولا توجد اسباب غير اسباب السلاح والمال تجعل الشعوب المتساوية فى الثقافة وطبقة المعيشة متفاوتة الاثر بالنسبة اليها ، كما تتفاوت أسبانيا وبلاد البلقان ، أو كما تتفاوت أمريكا الجنوبية وآسيا الوسطى ، او كما تتفاوت جميع البلاد المجاورة لمصادر القوة الروسية وجميع البلاد التى تبتعد عن جوارها

ولاكثر من سبب واحد كانت الشعوب الاسلامية فى آسيا الوسطى أوفر من سواها قسمة من وطأة الدولة والدعوة فى آونة واحدة . فهنا يعمل الجوار الجغرافى والجوار التاريخى عملين متسابقين فى تعجيل الاخضاع ونشر المذهب والسلطة

بكل ما تملكه الدولة والدعوة من قوة وتأثير ، فان قسمة البلاد الاسلامية الاسيوية من « عناية » الشيوعية تزداد بازدياد العداوة المتأصلة بين أجناس المغول والسلاف وازدياد وقائع الفتح والاستعمار من أقدم عهود القياصرة ، وليس مما يضعفها على الزمن اشتداد المقاومة التى يلقاها المستعمرون عامة من اتباع الديانة الاسلامية ، وليس مما يضعفها فى الزمن الحديث خاصة ان الاسلام دين يشتمل على نظام اجتماعى وفكرة خلقية تنافس الفلسفة المادية فى كل معرض من معارض المعيشة ومقاييس الاخلاق

واذا صح فى أمر الشيوعية مع الامم جميعا انها لا تقبل التوسط على سلام فهو أصح من ذلك بين الشيوعية والاسلام . فلا بقاء للشيوعية فى بلاد تدين بالاسلام ولا بقاء للاسلام فى بلاد تدين بالشيوعية ، وكل سياسة تقوم على دعوة السلام والوفاق بين الشيوعية واصحاب العقائد المخالفة لها فهى دعوة قائمة على نفاق وعلى تربص كمين كالتربص بين الاعداء المتسترين

« ان معسكر الشيوعية لا يأمن على نفسه مع بقاء الديمقراطية ، وان معسكر الديمقراطية لا يأمن على نفسه مع بقاء الشيوعية ، وكلاهما على حذر من الاخر لا خفاء به ولا نكران له ولا شك فيه .

« ولكنهما مع ذلك مختلفان ابعد اختلاف

« فاذا علمت أن أحدا يعقد العزيمة على هدم دارى واهدار دمى فتربصت له فكلانا على هذا متربص بصاحبه ناظر اليه نظرة الحذر والعدوان ولكننا لا نلام على خطأ واحد ولا

نطالب بعمل واحد عند من يريد الانصـــاف أو ينظر نظرة السواء ..

« وقيام الشيوعية على هـــدم المجتمعات التي تخالفهـا وايمانها بأن الخير كل الخير فى تفكيك أوصالها وتعجيل زوالها حقيقتان لا تقبلان المغالطة ولا يكون المتجاهل لهما الا مغرضا من البداءة وهو يدارى الغرض متشيعا جد التشيـــع تحت سربان العدل والمساواة

« واذا قال الشيوعى انه يؤمن (بالتعايش السلمى) فمعنى ذلك انه يكف عن تنفيذ مذهبه أو انه يرتاب فى صـدقه ولا يؤمن ضربة لازب بانهدام المجتمعات العالمية فى وقت قريب ، ولا أمل له فى نجاح الدعوة من قبله مالم يكن قد عدل حقا عن الـكيد لمن يعايشهم معايشة سلميـة والتربص بهم تربص الوارث بمن يترقب موته ، ويعامله على هـذا الاساس ، وما هو بأساس صالح للمعايشة السلمية بل هو أساس المعـاملة بين من يعيش ومن يموت ، أو بين الوارث والموروث المطموع فيه

« ونحن لا نستبعد أن يكون المؤمنون بالشيوعية قد شكوا فى قواعد المذهب التى يبنون عليها نبوءاتهم عن مصير مجتمعات الامم الى الدمار العاجل . فان لم تبلغ شكوكهم هـذا المبلغ فلعلهم قد شكوا فى سرعة الوقت الذى يتم فيه الدمار المحتوم ورتبوا على التمهل فى الانتظار سياسة توافقه غير السياسة التى تتعجل الوقعة الحاسمة بين المعسكرين ، ولـكن قضية السلام العالمى لاتناط بهذه الشكوك فى قواعد المذهب ولا فى طول الامد المقدور لتحقيق نبوءاته ، وانما تناط قضـــية السلام العالمى بقوة العوامل التى تتعلق به وترجوه ، كما تناط بخشية الخطر من اهوال الحرب وســوء عقبـــاها مع قلة

جدواها . فاذا انتصرت هذه العوامل ونجحت فى المقـــاومة والمطاولة ـ جاز أن يتبدل خلال هذه الفترة كثير من القواعد والعقائد وان تلوح للمشكلات المعقدة وجوه من الحل المرضى ميسورة فى ظلال التعاون والسلام (١) »

والامر ـ بعد ـ رهين برجحان هذا الرجاء فى المستقبل ، ولـكنه من العبث أن تنخدع الامم بدعوة السلام من قبـــل الشيوعيين ، فان دعوة السلام نفاق من كل نظام يعلق رجاءه فى المستقبل على تخريب المجتمعات القائمة ، وأضيع الآمال فى « التعايش السلمى » أمل يقوم على سياسة لم تعـــرف « التعايش السلمى » بين أقطابها سنة واحدة منذ قامت الدولة الشيوعية ، فلا علاج لاختلاف الرأى بينهم الا أن يقتل القادر منهم من يعجزون عن مقاومته ، ويتعقبهم بالتهمة والمذمة وهم فى جوف التراب



---

(١) مقدمة المؤلف لكتاب التعاون الاقتصادى من سلسلة الناقوس

أكثر من دعوة
وأكثر من دولة

من ابرز معالم الطريق التى تشير الى مصـــير الشيوعية وضع « الصين الشعبية » دعوة ودولة بعد الحرب العالميـة الثـانية ..

فعلى حسب العناوين اللفظية تعد الصين الشعبية فتحـا عظيما للشيوعية وامتدادا واسعا لدعوتها ولدولتها ، لانهـا ادخلت فى المذهب أربعمائة مليون انسان وضمت الى الدولة « ملحقا » سياسيا حربيا يتبعها فى الازمات وفى الحروب

وعلى حسب النتيجة العملية تعتبر الصين على وضـعها الجديد هدما للدعوة الشيوعية ومنافسا شديد الخطر للدولة الروسية لا يؤمن جواره لانه جوار نظيرين لا يطول العهـد بالتناظر بينهما على وئام

ان ثورة الصين تقـوم على الاعتراف بالملـكية الارضية ، وعلى توزيع الارض بين الاسر من صغار الفلاحين ، ومستقبلها اذا نجحت مستقبل أمة تؤمن بالاسرة وتحـافظ على مبدا الملك فى أثبت أشـكاله وأشدها استعصاء على التغيير . وما من احد فى الصين يعتقد انه تتلمذ فى هذه الثورة للشيوعية الروسية أو شيوعية سواها . لان مبادئها تقررت فى الصين قبل ثورة الروس الاخيرة بعدة سنوات ، ودستورها مشروع فى برنامج « سن ياتسن » الذى يقول منذ نشر مبادئه الثلاثة عن الديمقراطية والوطنية والاشتراكية : « أما الاشـتراكية فبرنامجى لها ما يأتى : اولا ــ تقسيم الارض على اســاس النسبية . وقد حاولت أيام مقـــامى بنانكنج اذ كنت اتولى

الرئاسة الموقتة ان انفذ هـذا البرنامج فلم أستطع لانني لم افهم » ...

وهو الذي يقول في شرح من شروحه الكثيرة لهذه الاشتراكية : « ان المشكلات الاجتماعية تنشأ من التفاوت بين الغني والفقير . فماذا نعني بالتفاوت او قلة المساواة ؟ لقد كان الفارق موجودا بين الغني والفقير في الازمنة الغابرة ولكنه لم يكن فارقا حاسما كما نراه اليوم . اذ يملك الغني الارض كلها ولا يبقى للفقير حتى القليل منها . وعلة هذا التفاوت اختلاف اساليب الانتاج . فقد كان قاطع الخشب مثلا يستخدم الفئوس والمدى وما اليها ولكن المكنات تحل محل هذه الادوات في العصر الحاضر ويستطاع الحصول على محصول كبير بعمل بدني قليل . ولنضرب مثلا آخر من اعمال الزراعة ، ففي الازمنة الغابرة كان المعول كله في هذا المجال على الجهود الانسانية ، ثم نشأت المحاريث التي تجرها الخيل والبقر فزادت سرعة العمل وقلت الجهود البدنية . ثم استخدمت القوة الالية اليوم في اوربة وامريكا فاصبح من المستطاع حرث الفي فدان وزيادة في اليوم الواحد وامكن الاستغناء عن الخيل والبقر ، فنجم من هذه الحالة فارق هائل يعبر عنه بنسبة الف الى واحد ، فاذا انتقلنا من هذه الامثلة الى وسائل المواصلات رأينا ان الوسائل الحديثة كالبواخر والسكك الحديدية قد جعلت النسبة اكثر من الف الى واحد عند المقابلة بين هذه القوة والقوة الانسانية

« ولنتكلم أولا عن اشتراكية الارض . فنظام الارض مختلف بين اوربا وامريكا ، ولا يزال نظام الاقطاع قائما في انجلترا من حيث اصبحت الارض مملوكة للاحاد في الولايات المتحدة ..

« الا ان برنامجى يدعو الى التقسيم النسبى أتقاء لشرور المستقبل التى بدرت اليوم بوادرها . ولنضرب مثلا بما حدث تحت أعيننا منذ انشىء المجلس البلدى فى مدينة كانتون . فان المواصلات تقدمت واخذت أثمان الارض على الجسر وعند مزدحم السكان ترتفع ويباع « المتر » الواحد بعشرات الالوف من الريالات ، وهـــذه كلها يملـكها آحاد يعيشـــون بجهود الآخرين ، وان نظام الارض القديم فى الصـــين يوافق بعض الموافقة نظام التقسيمات النسبية . فاذا أردنا أن نطبق هذا النظام وجبت ملاحظة هذه الشروط وهى فرض الضريبـــة على حسب قيمة الارض ، والتعويض على حسب القيمـــة العرفية . وقد اتبع التقسيم على ثلاث درجات الى اليوم فى البلاد الصينية ، ولـكن قيمة الارض لم تكن فيما مضى بهذا الارتفاع لنقص وسائل المواصلات وأدوات الصناعة . فلما تقدمت المواصلات والادوات الصناعية مع بقـاء التقسيمات العتيقة نجم من ذلك ارتفاع غير متناسب مع قيمة الارض . . وعلى هذا ينبغى اذا أردنا اتقاء شرور هذه الحالة ان نفرض الضرائب بنسبة واحد فى المائة من قيمة الارض . . أما مسألة راس المال فقد نشرت أخيرا كتابا عن تنمية الصين الدوليـــة بحثت فيه مسألة الاستعانة برؤس الاموال الاجنبية لترقية صناعة الصين وتجارتها . . »

فالثورة فى الصين دعوة لم تصدر من المذهب الشيـــوعى ولم تطبق على حسب مبادئه ، ولم يكن للمـــذهب الشيوعى أثر فيها غير أثر « التسمية » بعد شيوعها ، فلو لم توجد فى روسيا دعوة شـيوعية لقـــامت دعوة « سن ياتسن » على قواعدها وجرى تطبيقها كما شرحها مؤسسها قبـــل تيفه

وخمسين سنة واعاد شرحها مرة بعد مرة عقب نشوب الثورة في روسيا دون أن يغير حرفا واحدا من برنامجه الاول

وليس الفـــارق بين الدعوتين من الفوارق التى تزول او تضيق بعد التنفيــذ والتطبيق . فان كثرة المنتفعين بحق الملكية الزراعية لايهدر هذا الحق ولا يحول دون سريانه على انواع من الملكيات الاخرى . وقد يكون الملك الذى ينتفع به مليون فى أمة تعد بمئات الملايين مهددا بالزوال أو التغيير ، ولكن الامة التى كلها من الملاك لا يوجد فيها من يثور على حق الملك الا أن يكون من طلاب الزيادة فيه

فالصين لاتواجه امم العالم بمذهب يناقض نظاما من نظمها الاقتصادية فى أساسه ، وثورتها لاتسمى « بالشيوعية » الا من قبيل التسميات المرتجلة التى تتساق مع ألفاظ العناوين ، ووجود الدعوتين منفصل فى النشأة ، منفصل فى الاساس ، منفصل فى النتيجة ، لعله أقرب الى التناقض منه الى التعاون والاتفـــاق ..

على أن التعاون بين الدولتين أعسر — على طول الامد — من التعاون بين الدعوتين .

فنحن لانفهم شيئا من عبر الماضى والحاضر ان لم نفهم ان التنافس حتم بين الدولتين الكبيرتين فى جوار واحد ، وربما كان أهون من ذلك خطرا ، وحتما ، لو تنافستا مع اختلاف الدعوتين ، فأما أن تطيق دولة تناهز مائتى مليون أن تخلق الى جانبها دولة تناهز ضعفيها عددا ولا تقل عنهـــا موردا وعدة وثروة فهذا من خوارق العادات فيما كان وفيما سيكون

وكل مابدا حتى الان من سياســـة الدولتين يتمشى مع « تقاليد » الماضى قبل ثورة الروس وثورة الصين . فلمـا

اتفقت الدولتان على معاهدة (٥ فبراير سنة ١٩٥٠) كان الخطر المشترك عندهما هو ذلك الخطر « التقليدى » الذى عرفته روسيا والصين فى حروب الشرق الاقصى من عهــد القياصرة وأبناء السماء . فلاتتقيد احداهما بالمعونةالعسكرية للاخرى الا اذا وقع عليها الاعتداء من اليابان على انفراد أو فى حلف من الاحلاف ، ولو ابرمت هذه المعاهــدة فى فبراير سنة ١٩٠٠ لمــا نظرت فىالسياسةالدولية الى عداوةمشتركة غير عداوة اليابان ومن يحاربون فى صف اليابان !



ومن الفوارق التى ترتبط بنظام الدولة فى روسيا والصين ان الولاء للمذهب الماركسى شرط من شروط الولاء للدولة فى جميع الاقطار التابعة لاتحاد الجمهوريات السوفيتية ، يعاقب الخارج على المذهب بعقوبة الخيانة العظمى ولا يقبل منه عذر من اعذار حرية الرأىاذا اجترأ على مناقضةمبدأ من مبادىء المادية الثنائية فى أصولها أو فروعها

وهذه قداسة لا يعرفها الصينيون لمــذهب كارل ماركس ولا لمذهب من المذاهب الفلسفية « المستوردة » من الخارج كما كانوا يقولون عنها فى مطلع الثورة منــــذ أواخــر القرن التاسع عشر ، وقد يكون « الصينى » ماديا ثنائيا مطلعا على فلسفة كارل ماركس فى مصادرها وشروحها ، ولكنه لايخرج بذلك من وراثته العريقة التى توحى اليه ان حكمة الصين هى حكمة الاولين والآخرين ، وأن واردات الغرب فى العلم كوارداتها فى الصناعة ، تؤخذ بما لها من قيمة موقوتة ولا تحسب من تراث الحكمة الخالد فى امة تتوارث ادب السلوك وهـــداية

الحياة من الاسلاف الى الاعقاب ، وقد يناقض طبيعة الصينى ـ أصلا ـ أن ينطوى على « ايمــــان عام » يلازمه فى الرأى والشعور ومسائل السياسة ومسائل المعيشة ، فهو يعرف الايمان « مفرقا » ولا يعرفه جملة واحدة محتويا لجميع عناصر الرأى والعقيدة

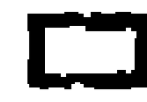
وفى شهر فبراير (سنة ١٩٥٧) تكشفت فى الصين وثيقة هامة كتبهــــا « ماوتسى تونج » الى مجلس الحكومة الاعلى « ليعرض فيها خلاصة تجارب الثورة خلال سنواتها الثمان. فقال فى تلك الوثيقة « ان الماركسيــــة الآن ليست من الازياء القومية الشائعة » وان السيــــاسة الصينية يجب أن تعنى بنشر المبادىء والنظريات ولـكن على غير الاسلوب الخشن العتيق ، بل يجب على الساسة أن يسلموا وجود الاختلافات المقبلة ما داموا يعتقدون أنها اختلافات وليست باضداد يقف بعضها لبعض بالمرصاد

ويرى ماوتسى تونج فى تلك الوثيقة أن الحكومة يحق لها أن تتولى تنظيم الاعمال القومية فى خطوطها الواسعة دون أن تلغى حق المجتمــــع فى تنظيم شـــئونه ولا حق الجمـــاهير فى الابتداع والانشاء

ولا يمنع الرئيس الصينى وجود الطوائف والجماعات فى الامة الواحدة ، ولـكنه يقسمها فى مجموعها الى قســـمين متقابلين : أحدهما تتفق مصـــالحه ومصالح الامة ، والآخــر ينفرد بمصلحة خاصة تستغل المصالح العامة لمنافعها الضارة بغيرها ، ولا مانع من تعدد الطوائف مع اتفـــاقها فى الوجهة العامة ، ولـكنها اذا اختلفت وتناقضت لم يكن للمشكلة من حل غير الثورة الجانحة وتعذر تدبيرها على أساس التعاون بين الحكومة والمحكومين

ولا نخال أن وثيقة من وثائق الاتهام فى روسيا قد اشتملت على « مروق » اشد من هذا المروق من دستور الشيوعية المقدس فى عرف الماركسيين ، ولا ان « المدعى العام » هناك بحاجة الى سند اقوى من هذا السند للمطالبة بتوقيع اشد العقاب على اسوأ الخيانات

وسوف تقترب الدعوات وتبتعد فى المستقبل الى اليمين والى اليسار ، ولكن الدعوة الروسية والدعوة الصينية تقتربان الى التنافس على كسب الميدان العالمى وتحرص كل منهما على كسب استقلالها والاحتفاظ بكيانها فى وقت واحد، وفى هذه الحالة لاتغتبط الدعوة بأن تصبح دعوتين ولا الدولة بان تقوم الى جانبها دولة تشاركها فى رسالتها ، فان دعوة واحدة فى هذه الحالة أسلم من دعوتين ودولة واحدة أقوى من دولتين !



ان تجربة الصين أضخم التجارب فى أمم العالم لضخامة البلاد التى وقعت فيها ، ولكنها ليست بادل تلك التجارب على الخلل المتأصل فى جذور المذهب الماركسى ولا على العوائق العملية التى تحول دون تطبيقه فى مجتمع من مجتمعات العصر الحاضر فى المشرق والمغرب فربما كانت تجربة يوغسلافيا على صغرها ـ بالقياس الى الصين ـ أدل على ذلك الخلل وأولى منها بالتذكر فى معرض البحث عن عيوب المذهب وبطلان نظرياته وتقديراته

تلك التجربة التى تسمى الآن « بالتيتية » منسوبة الى « تيتو » زعيم يوغسلافيا ـ قد سبقت تجربة الصين بالزمن

وبالدلالة . وقد نشأت فى أول أمرها تمردا على استبداد الرفيق ستالين وتمردا على استبداد المذهب فى شئون الملكية الزراعية واجور العمال والموظفين ، ثم ابتعدت من المذهب طورا بعد طور وسنة بعد سنة حتى اقترنت فى الزمن الاخير بالثورة الصريحة على أصول المذهب وزعمائه المؤسسين لقواعده من ماركس الى لنين . فليس موضع الانتقاد عند فلاسفة يوغسلافيا الماديين ان فلسفة ماركس ولنين تحتاج الى التعديل عند التطبيق أو أن التطبيق ينتهى بها الى التصحيح فى طور من أطوارها المرجوة فى المستقبل ، ولكن الانتقاد اليوم قائم على هدم المذهب من أصول قواعده وعلى القبول الجازم بأنه ينشىء الطبقة المستغلة ولا يزيلها أو يزحزحها عن مكانها . . . وشارح هذه الفلسفة الحديثة ملوفان دجيلاس Milovan Djilas وزير الدعوة السابق فى بلاده ينقل تعريف الملكية من القانون الرومانى القديم وهو انه « حق الحيازة والتمتع والتصرف » ويقول أن هذا التعريف يصدق حرفا على حق الطبقة المسيطرة على بلاد الشيوعيين فى الاستيلاء على مرافق الدولة واحتكار رؤس أموالها مع التمتع بها والتصرف فيها كما يفعل المالك بملكه ، وله كتاب مطول باسم الطبقة الجديدة يقيم الادلة على صدق هذا الرأى بالاحصاءات والشواهد المستمدة من مصادر الحكومات والدواوين والمصانع والشركات ، ولا يعتقد المؤلف ان المذهب الماركسى يصلح لعمل نافع فى علاج مشكلات العصر الا ان يكون هذا العمل تعجيلا منظما لحركة التصنيع فى البلاد التى تخلفت فيها الصناعة وغلبت عليها عيوب البداوة فى أساليب الزراعة ونظم الاقطاع

الجزء الثاني

والاستعمار

* مبدأ الاستعمار
* أسباب الاستعمار
* سباق الاستعمار
* أنواع المستعمرات
* آداب الاستعمار
* نهاية الاستعمار
* النموذج الجديد
* وبعد

مبدأ الاستعمار

ان تنازع الامم لتغليب أمة على أمة وتسخير الاضعف منها فى خدمة الاقوى بالانفس والاموال ـ ديدن قديم فى التاريخ

وهو قديم ايضا فى التنازع بين الشرق والغرب منذ عرفت هذه التفرقة فى تقسيم الامم الى شرقية وغربية ، ولاشك أن هذا التنازع قديم سابق لعصور التاريخ . لان البقايا الثابتة التى بقيت لنا مما قبل التاريخ تدل عليه ، ومن هذه البقايا وجود اللغات الهندية الجرمانية التى صدرت من أرومة واحدة سكنت زمنا فى البقاع الوسطى بين القارتين الاسيوية والافريقية ثم اتجهت طائفة منها شرقا وجنوبا واتجهت طائفة أخرى غربا وشمالا فى مواقع شتى تمتد من اقصى الهند الى أقصى الجزر البريطانية . فهذه الاصول الهندية الجرمانية هى فى الوقت نفسه أصول التنازع والتغالب على رقعة واحدة من الارض لم تتسع للنازلين بها من سلالة واحدة أو من عصبة لغوية واحدة ، ولا تكون هذه أول سلالة فى هذه الرقعة ، مع قيام السلالات من حولها بين سامية وكوشية وطورانية وغيرها من الفروع أو الاصول المجهولة

فالتنازع اذن قديم بين الامم ، وهو قديم كذلك بين الشرقيين والغربيين أو بين من كانوا يوما من الايام شرقيين أو غربيين ..

ولكن ليس هذا هو الاستعمار الذى يعنيه المؤرخ الحديث منذ القرن الثامن عشر ، لان الاستعمار عند المؤرخ الحديث

انما يطلق على حركة اجماعية ترمى الى غرض مشترك تحقيقا لدعوى واحدة تدعيها أمم متعددة فى فترة محدودة ، لهـا عواملها وأسبابها التى لم تجتمع قط لحركة اجماعيـة من قبلها . فلا استعمار بهذا المعنى قبل الاستعمار المعروف فى القرون الاخيرة ، بل لم توجد بين الامم حركات اجماعية من قديم الزمن ، فكل ماظهر من هذه الحركات فى التاريخ فانما ظهر بعد عصور التاريخ القديم ، ولم يكن فى الوسع أن يظهر قديما لانه مرتبط بمرحلة من مراحل التاريخ العالمى لا يتهيأ لها أن توجد قبل الاوان

وهذه الحركات الاجماعية فى العصور المتأخرة متـداخلة مشتبكة لا تنفصل احداها من الاخرى بفاصل حاسم يقطع الصلة بينها ، بل لا تخلو حركة اليوم كل الخلو من عوارض أمسها وغدها على صورة واضحة لا التباس فيهـا . فمن كتب عن حركة اجماعيـة فى القرن العشرين لم يتيسر له أن يفهمها حق فهمها دون الرجوع الى الحركة الاجماعية التى مهدت لها فى القرن الثـامن عشر ومهدت لهـا قبل ذلك فى القرون الماضية

وحركة الاستعمار أحدى هذه الحركات ، لانفهمهـا حق فهمها مالم نرجع قبلها الى حركة الحروب الصليبية ، ولعلها أول حركة اجماعية قامت بدعوى واحدة فى التاريخ العالمى منذ وعيناه والممنا بالجوهرى من دعاواه ودواعيه

وينبغى أن نفرق بين الحركات الاجماعية التى تحدث من جراء التحالف بين دول عدة وبين الحركات الاجماعيـة التى تحدث من شيوع دعوى واحدة بين أمم متفرقة ، فانمايحدث ذلك التحالف لانه خطة من خطط القتال فى أقدم الميـادين

واحدثها على السواء ، ولا تحدث الحركة الاجماعية للاتفاق فى دعوى واحدة الا لانها مرحلة فى التـــاريخ العالمى شاملة للحكومات والشعوب مرتبطة بميادين القتال وبغير تلك الميادين

والحروب الصليبية هى أكبر الحركات الاجماعيـــة بين الغرب والشرق ، ولعلها أولها ومصدرها

والاستعمار هو الحركة الاجماعية التى تليهـــا وتستعيد الكثير من دعاواها ودواعيها

لابد لهذه الحركات من « دعوى » مشتركة أو من حجـــة عامة ، وهذا هو الفارق بينها وبين الحركات التى لاترجع الى شىء غير توازن القوى واتمام العدة للهجوم أو الدفاع

وقلما خلت دعوى من أثر يبقى فيها من آثار سابقتها كما تقدم ، وقد تجتمع الدعويان فى وقت واحد الى حين

وقد كانت دعوى الاســـتعمار قائمة على « رسالة الرجل الابيض » أو على الامانة التى اضطلعت بها الحضارة الاوربية لاصلاح أمم العالم

وما كان فى وسع القوم أن يخترعوا هـــذه الدعوى لو لم تسبقها دعوى مثلها من القارة الاوربية ترمى الى غاية كهـــذه الغاية فى زمانها ونعنى بها دعوى الحروب الصليبية

ولقد مضى اليوم على آخر الحملات الصليبية نحو خمسة قرون ولا يمكن أن يقال انها اختفت من ميادين السياسة أو الدعاية ، ولا تزال لها رجعات تتردد طوعا أو كرها فى تصريحات الساسة وتعليقات المؤرخين ، كما تتردد حينـــا بعد حين فى مساعى الجماعات والآحاد .

يقول المؤرخ الهندى سردار بانيكار Panikkar فى كتابه « آسيا والسيطرة الغربية » بعد تمهيـــد وجيز عن عصر

الامتداد الاوربى : « انه من الضرورى لفهم الدافـــع الدينى الاقتصادى السياسى وراء هذا الحلم وهذا المسعى أن نعرض بايجاز لبعض النزعات فى التـــاريخ الاوربى خـلال القرنين السابقين . فمن عهد صلاح الدين الذى استرد بيت المقدس من الصليبيين أصبح الاسلام من قاعدته فى مصر منظمة قوية حائلة بين القارتين الاوربية والاسيوية ، وانتهت الى غيرطائل تلك الانفجارات الملتهبة من الحماسة والغـيرة والحركة التى جاشت بالعالم المسيحى فى الحملات الصليبية الثلاث ، واذا بالنصر الذى أحرزه صلاح الدين كما يبدو من وجهة النظر التاريخية أثناء العصور المتأخرة قد أصـــبح عاملا من اقوى العوامل الحاسمة فى تاريخ العالم ووطد السيادة الاسلامية على سواحل سورية ومصر لعدة قرون مقبلة ، ولم تخف هذه الحقيقة عن ساسة الغرب كما يؤخذ من توجيه الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ - ١٢٢١) الى مصر نفسها »

الى أن يقول : « واذا كانت البرتغال قد أصبحت وريثة (جنوا) فى الرحلات البحرية فقد أصبحت كذلك فى القرن الخامس عشر وريثة المسيحية فى وجه الاســلام ، ولم تسر روح الحملة الصليبية الى الجزيرة الاندلسـية وحسب بل أضافت اليها وقدة من الحمية والنشاط فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد . اذ بينما كان الاسلام فى رأى الممالك الغربية الاخرى خطرا بعيدا كان هـذا الخطر مرهوبا مخيفا على الابواب فى رأى أبناء قشتالة وأراغون وبرتغال »

وليست هذه وجهة نظر هندية شرقية أوحاها الشـعور الهندى الشرقى ، الى كاتب يمثلها من ناحية القومية ، بل هى وجهة نظر المؤرخ حينما نظر الى الموقف من جميع نواحيه .

وفى كتاب « أوربةوالدنيا الواسعة بين سنتى ١٤١٥ و١٧١٥ » يقول المؤلف الاستاذ بارى Parry : « ان خطة البرتغاليين نحو الشرق لم تكن قط مجرد خطة من خطط التزاحم على التجارة ، وما خطر لهم قط ان يضاربوا العرب والبنـــادقة بأسعار يخفضونها وبضائع من الابازير يغرقون بها الاســواق الاوربية ، وما كان فى وسعهم أن يفعلوا ذلك لو ارادوا . وانما كان الموقف بين البرتغاليين والعرب من البداية موقف قتال عنيف ملأته العصبية بالمرارة

ويقول وليام كارلتون من جامعة فلوريدا فى كتابه عن تطور السياسة الخارجية الامريكية : « ان الحرب الاسبانية الامريكية سنة ١٨٩٨ ـ هى التى أدت الى العدول عن مذهب القــارية الامريكية ، وكان من نتائج هذه الحروب أن أمريكا ارتبطت بالفلبين على بعد سبعة آلاف ميل فى قلب الشرق الاقصى ، وكانت حجج الاحتفاظ بها متعددة ، ومنها حكم القدر وامانة الرجل الابيض وفرصة تنصــــير الوطنيــين وتوفيق الحظ بالاستيلاء على مكان الى جوار ارض القارة الاسيوية »

وتراخى الزمن ولم تزل دعوة الدين ودعوة السيــــاسة تتمــاشيان معا بعد ان دخل الاستعمار فى اخر أطواره بالقارة الافريقية ، فكان دعاة الدين والسياسة يختلفون لانهم مختلفون فى المذهب الذى ينتمون اليه كما يختلفون على الدولة التى يعملون لضم البلاد المستعمرة اليها . وقال بارنز Barnes فى كتابه الامبراطورية أو الديمقراطية: «ان المسيحيين فى أوغندة من اتباع الكثلكة والكنيسة البروتستانتينية ظلوا يتقاتلون بينهم ويسمى الآخرون فى لغة أهل البلاد ـ وانجليزا ـ والاولون بتلك اللغة وافرينسا ـ وكم من مرة ضجت بينهم عداوة الجنس والدين »

وكل من المؤرخين الشرقيين والغربيين يكتب تاريخه فى النصف الاول من القرن العشرين وهو يستمع الى خطب القادة الغربيين الذين تكلموا عن غزو فلسطين فى الحرب العالمية الاولى فوصفوها بانها الحرب الصليبية الاخيرة ، وبعد انتصاف هذ القرن يتناول تاريخ العالم ثلاثة من المؤرخـــين هم هايس Hayes ومون Moon ووايلاند Wayland فيلخصون أسباب الاســتعمار العصرى فى أربعة هى (١) رغبة أصحاب الحماسة الوطنية فى اضافة املاك الى أوطانهـــم (٢) رغبـــة أصحاب الاعمال فى فتح الاسواق وحماية التجارة (٣) فـــكرة الاستيلاء على بعض المواقع لضرورة الدفاع (٤) الرغبـــة فى تمـــدين الامم المختلفـــة أو تنصيرها

وأولى الامور بالملاحظة فى هذا الصراع أنه يتكرر فى بقـــاع الارض بعد فصل الدولة والكنيسة فى البلاد الفرعية ، وأن الدولة تعترف بالدعوة الدينية خارج بلادها لانها تعتبرها دعوة سياسية تستعين بها على خصومها فى مجال السياسة الدولية



ومن هذه البداءة نعلم كيف انتهت أوربة الى رسالة الرجل الابيض عنوان الاستعمار الحديث وميسمه الظاهر بين حركات التاريخ الاجماعية

فما استطرد الاوربيون الى هذه النتيجة الا من تلك المقدمة، وما كانت رسالة الرجل الابيض وامانة الحضارة الاوربيـــة الا النسخة المنقحة من رسالة الخلاص الروحى وامانة الاصلاح وتطهير الارض من مفاسدها



صلاح الدين الايوبى

ولم يتحول الاوربيون الى هذه الدعوة الا لان هذا التحول ضرورة قاسرة تفرضها مجاراة الزمن على أنصار الكنيسة ومعارضيها ، فقد كان القرن السادس عشر وما بعده فترة متسمة بالانشقاق بين اتباع الكنيسة والثورة على سلطانها ، فتحول المستعمرون الى النداء بأمانة الرجل الابيض لانه النداء الذى يعطى الاوربيين ما يدعونه من حقوق الفتح والسيادة ولا يلجئهم الى الاعتراف بالسلطة الدينية والتسليم بما تميز به بعض المستعمرين على بعض من حقوق التبشير والولاية . ولم يرفض أنصار الكنيسة هذا النداء الجديد . بل قبلوه وكرروه لانه نداء يؤيد الدعوة الدينية فى بعض معانيه ولا يستلزم حتما أن يلغيها أو ينقصها ويسقط حقوقها ، ولعله كان وسيلة منتظرة للتوفيق بين روح الزمن الماضي وروح الزمن الحديث زمن الثورة العلمية والتبشير باسم الثقافة الانسانية . فمن أراد من المستعمرين ان يجارى العصر ولا ينشق عن الماضي امكنه أن ينادى رسالة « الرجل الابيض » كأنها كلمة مرادفة لرسالة القارة الاوربية تشمل بدعواها كل ما شملته دعوى هـذه القارة قبـل عصر الاستعمار بعدة قرون ، فان حجة الرجل الابيض انما هى حجة القارة الاوربية فى جميع عصورها ، ويزداد عليها بعد عصر الحروب الصليبية انها امتدت الى الرجل الامريكى الذى صبغ الاقطار النائية فعلا بالصبغة البيضاء ، وحقق له السـيادة على الاجناس الحمراء والسوداء

ولا نحسب أننا نفهم سر انتقال الدعوة الصليبية الى الدعوة البيضاء الا اذا فهمنا أن الرسالة الجديدة جاءت لتحل محـل الدعوة الصليبية كما جاءت لتمتد بها وتستفيد من سوابقها ، فنحن لا نفهم سر هذا الانتقال على حقيقته اذا فهمنا أن رسالة

الرجل الابيض نسخة مكررة من الحروب الصليبية فى جميع تفصيلاتها ، ولا نفهمه على حقيقته اذا فهمنا ان اللاحق من الدعوتين يلغى السابق فى جميع تفصيلاته . وانما القـــول الفصل بين الامرين أن هناك اختلافا كثيرا وهناك اتفاقا كثيرا بين الدعوة التى سلفت والدعوة التى حلت فى محلها . وكذلك يكون الحال فى كل شيئين حل أحدهما محل الآخر ... ليست سيارة اليوم مناقضة لمركبة الخيل بالامس ، وليست هذه بتلك فى جميع أجزائها ومنافعها ، ولكنهما ـ بعد ـ شيء واحد فى الغاية وشيئان مع اختلاف الزمن فى الصنعة والتركيب



أسباب الاستعمار

كل حركة كبيرة مشتركة فى تواريخ الامم لابد أن ترجع الى اسباب كثيرة ولا تنحصر فى سبب واحد بالغا ما بلغ من التشعب والاتساع

وكل سبب واحد ينتحل لتفسير حركة من هذه الحركات يقصر عن تفسيرها فى النهاية ، ولا يصلح لتحقيقها فى التاريخ مالم تقترن به أسباب مصاحبة له أو بعيدة منه فى مبادئها وعواقبها

والاستعمار حركة من هذه الحركات المشتركة فى تواريخ الامم الشرقية والغربية ، كل سبب فريد يذكر لها يقصر عن تفسيرها ، ويحدث مثله فى فترة من فترات التاريخ فلا يؤدى الى مثل نتائجها

قيل كثيرا ان سبب الاستعمار هو اغلاق الطريق على تجارة الهند والبلاد الشرقية

ولكن تجارة الهند والبلاد الشرقية كانت متصلة من طريق غير طريق البحر الابيض المتوسط ثم أغلقت بعد فترة من الزمن ولم تنشأ من اغلاقها حركة ترمى الى السيطرة على تلك الطريق المغلقة

كانت فى روسيا طريق للتجارة الشرقية تسلكها الشركات الهولندية والبريطانية وشركات الموانىء على بحر الشمال ، وكان قياصرة الروس يشجعون هذه الشركات ويرحبون بها ويغنمون منها الاتاوات والهدايا فى ذهابها وايابها ، ثم أغلقت

الدولة الروسية هذه الطريق على الشركات الهولندية والبريطانية بعد استيلاء تلك الدولة على الشواطىء الاستونية ، لانها ارادت ان تحتكر الغنيمة كلها لنفسها وتشرف على سير القوافل من داخلها ، ولم تحدث من جراء اغلاق هذه الطريق على التجارة الشرقية حركة من قبيل حركة الاستعمار

وقيل كثيرا أن حركة الاستعمار نشأت من زحام السكان فى القارة الاوربية ونزوعهم الى الهجرة والتعمير فى البلاد النائية

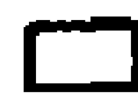
ولا يصدق هذا التعليل على بلد واحد من البلاد الشرقية التى اتجه اليها المستعمرون فى الخطوات الاولى من حركة الاستعمار . فان جملة النازخين الى الشرق من الاوربيين لا يكفون لتعمير قرية واحدة ، وكل من هاجر الى الشرق فانما كان يرتاده زائرا متاجرا ليعود الى وطنه ويستقر فيه بعد رحلة أو بضع رحلات ، وانما يصدق ذلك التعليل على المهاجرين النازحين الى القارة الامريكية ، سوء كانوا من البريطان والهولنديين أو من الاسبان والبرتغاليين ، وسواء قصدوا الى الشمال أو قصدوا الى الجنوب ، ولم تلبث هجرتهم أن تحولت الى اقامة دائمة فاتخذوا من مقامهم الجديد وطنا يملكونه دون أبنائه الاصلاء ودون الوافدين اليه على السواء

وقيل كثيرا أن كشف الطريق الى الشرق كان سبب الاستعمار الاول ، وهو قول لا يمنع السائل أن يسأل ! وما سبب الكشف عن ذلك الطريق ؟ ولكننا ندع هذا السؤال وننتهى مع الطريق المكشوف الى غاية مداه . فهل كان يكفى أن يكشف الاوربيون طريق الشرق ليستولوا عليه ؟ هل كانوا يصلون اليه مستعمرين لو انهم كشفوه قبل ذلك بمائة سنة

او مائتين ؟ وهل كان من المستطاع أن يتم الاستعمار لو لم تصاحبه بواعث الحروب الاندلسية ونزاع المذاهب الدينية وبحوث العلماء عن الجغرافية والفلك وتقدم الملاحة فى الغرب مع تقدم الصناعة وتقدم التسليح ؟

وكل اولئك هل كان يكفى لنشأة الاستعمار لو لم يكن حكم الرجل الابيض للرجل الابيض فى القارة الاوربية قد وصل الى نقطة من نقط التحول التى لابد — بعدها — من التغيير

فما كان الرجل الابيض ليفكر فى دعوى الامانة على حكم الدنيا وهو مسخر للحكم أو قابل للتسخير ، وقد كان هذا الرجل الابيض مغلوبا على أمره فى عهد الامبراطوريات الاوربية التى دانت لها بالطاعة شعوب أوربية متعددة الاجناس واللغات ، ثم تمزقت هذه الامبراطوريات وخرج منها أمراء الاقطاع بفتات من السلطة والاستقلال ، ثم تجمعت الاوطان التى تدين بالطاعة لابنائها وتأبى الخضوع للحاكم الاجنبى عنها ، ثم نبتت أمانة الرجل الابيض حين نبت الرجل الابيض المستقل بحكم نفسه عن غيره من ابناء جنسه ، ولهذا تأخر فى ميدان الاستعمار اولئك الاوربيون الذين وجدوا فى قلب القارة من يحكمونهم ويقنعون بحكمهم ، ولعلهم لو استقلوا جميعا بحكم أنفسهم قبل عهد الحضارة الحديثة التى اشتهرت باسم الحضارة الاوربية لما تخيلوا لهم رسالة انسانية يحسبونها معلقة فى عنق الرجل الابيض ، ولوقفوا عند حد الرسالة الدينية التى اندفعوا اليها زمنا فى حملات الصليبين



وربما اكتملت فى قوم من الاقوام جميع البواعث والاسباب

التى تحسب من بواعث الاستعمار وأسبابه، ولكنهم لايتحركون لاستعمار قطر من الاقطار قبل أن يتم لهم كيـان دولى او شخصية سياسية ، وكذلك كانت حال ايطاليا فى عهد الاستعمار قبل استقلالها وبعد اتحاد أجزائها فى دولة مستقلة ، فان أطوارها الاجتماعية والاقتصادية قبـل الاستقلال لم تـكن تختلف فى شيء جوهرى عن الاطوار المعهـودة فى اسـبانيا والبرتغال مما كان سببا فى رأى المؤرخين لدخولهما فى حومة الاستعمار ، ولكن ايطاليا ـ غير المستقلة ـ لم يكن فى وسعها بطبيعة الحال أن تدخل الحومة كما دخلها الاسبان والبرتغاليون ولابد لها من السيادة القومية أولا قبل أن تفكر فى بسـط السيادة على غيرها. فلما ظفرت بهذه السيادة لم تكن أسبابها الاجتماعية أو الاقتصادية هى الحافز لها على استعمار الاقطار الشرقية ، ولم تكن لها رءوس أموال تثمرها فى خارج بلادها ، ولا معامل صناعية كبرى تحتاج الى المستعمرات لتصريف مصنوعاتها أو جلب خاماتها ، وانما كانت مسألة الاستعمار فى لبابها مسألة « وجاهة دولية » ومناظرة بينها وبين الدول اللاتينية التى سبقتها الى المضمار وأصبحت فى عداد الدول الكبرى لانها فى عداد الدول التى تملك المستعمرات وتحـكم الشعوب

فعلى خلاف الشائع عن ضرورة الاستعمار لتثمير الاموال فى الخارج كانت شركات ايطاليا فى الخارج الى سنة ١٨٨٠ تصفى رءوس أموالها وتسلم أعمالها للحكومة لتديرها باشراف موظفيها . ففى سنة ١٨٧٠ أسست الشركة الملاحية الكبرى ـ شركة روباتنيو ـ مرسى لها فى ميناء عصب على البحر الاحمر ولم تمض عشر سنوات على تأسيسه حتى كانت قد باعت سفنها

واسلمت مرساها للحكومة خوفا من اشهار افلاسها . ولما حاولت الحكومة أن تستفيد من هذه السفن ــ بعد الاستيلاء على ميناء مصوع أيام حرب الدراويش ــ تحرجت العلاقات بينها وبين أمراء الحبشة وتعذر الاتفاق بين الطرفين على نقل الصادرات والواردات بوساطة القوافل أو السفن الايطالية . ولم يكن عند الدولة الناشئة فضل مال تنفقه على الحرب لارغام امراء الحبشة على قبول معاملتها ، ولم يكن لها فضل من التجارة تروجه فى خارج بلادها ويكفى لاستخدام سفنها فى البحرين الابيض والاحمر . بل كانت معاهدتها التجارية مع فرنسا قد انقطعت فى تلك الآونة لحنق فرنسا من مسايرة وزارة كريسبى للسياسة الالمانية فى أوربة الوسطى ، فلم تكن عند الايطاليين أموال يديرونها يومئذ فى الصناعة أو التجارة ويطلبون من أجلها ادارة المستعمرات ، ولولا البواعث النفسية ـ بواعث الوجاهة الدولية ــ لما شعر الايطاليون بضرورة قط تلجئهم الى الدخول فى حومة الاستعمار

ولعل هذه البواعث النفسية كانت فى الحرب الايطالية الحبشية الاخيرة أظهر منها فى الحرب الاولى التى اعقبت أزمة سنة ١٨٩٦ وانتهت بالهزيمة النكراء فى عدوة . فان العظمة الرومانية التى حاول موسلينى أن يبنى عليها مجد ايطاليا الفاشية كانت ضربا من الخيلاء الخاوية أمام شبح الهزيمة النكراء فى الحرب الحبشية الاولى ، وقد أراد موسلينى فى الواقع أن يغزو بلاده بالدعوى والدعاية حين أقدم على غزو الحبشة بعد اربعين سنة من العار وسوء السمعة العسكرية ، وأراد أن يغزو أوربة بالدعوى والدعاية بعدما افتضح من ضعف ايطاليا وتسليمها فى الحرب العالمية الاولى . ولو أن الحملة

الايطالية على الحبشة صفيت من جميع هذه البواعث النفسية لما بقى لها باعث اقتصادى أو سياسى يغرى الحاكم المسئول بالتصدى لمشكلة الحرب وما يتبعها من سوء السمعة وسوء العلاقة بالدول الاخرى

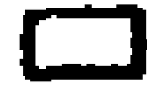
وكم تقلب من أسباب الاستعمار بين رحلات البرتغال فى القرن السادس عشر وبين غزوات الايطاليين من أواخر القرن التاسع أى أوائل القرن العشرين ؟ فهل يخطر على البال أنها اسباب واحدة عملت فى ثلاثة قرون وعملت فى رومة كما عملت فى مدريد ولشبونة وعملت فى هذه جميعا كما عملت فى لندن وباريس وبرلين وبروكسل وامستردام ؟

انما هى حركة التاريخ كله بما احتواه من عوامل الحياة المشتركة بين الامم والحكومات ، وكل اختزال لهذه العوامل فهو اختزال للحقيقة فى فهم كل حركة كبيرة من الحركات العالمية

وأوجز ما يمكن من التلخيص لهذه العوامل المتغلغلة فى جوانب الحياة الانسانية ان نثوب بها الى شطرين كبيرين يقتسمان بينهما تلك العوامل فى تفصيلاتها ، وهما شطر العوامل النفسية وشطر العوامل الاقتصادية ، وأول الشطرين أرجحهما وأقواهما على الدوام فى جميع الحركات التاريخية الكبرى ، ومنها حركة الاستعمار

لهذا كانت البرتغال اسبق من انجلترا الى المضمار ، ولو لم تكن للعوامل النفسية قوتها الراجحة فى هذه الحركة لكانت انجلترا أولى بالسبق اليها . اذ كانت عندها السفن وعندها الخبرة بالملاحة وعندها الحاجة الملحة الى التجارة الخارجية

وعندها بوادر الصناعة الحديثة وأدواتها وعندها الشركات التى ترتبط بكل مكان فى القارة الاوربية



ولا حاجة الى الاطالة فى سرد المسائل التى تنطوى فى شطر العوامل النفسية ، فهى تتلاقى بجملتها فى الدين والعنصر والافكار العلمية

ولا حاجة كذلك الى الاطالة فى سرد المسائل الاقتصادية . فهى تتلاقى بجملتها فى التجارة والصناعة واحوال المعيشة

اما عامل الدين فتكفى نظرة اجمالية فى تاريخ اوربة منذ القرن الثانى عشر الى مفتتح عصر الكشوف لنعلم أن الشواغل الدينية كانت تغمرها فى مشرقها الى مغربها فلا يتأتى ان تصدر عنها حركة عامة دون أن تمتزج بالدين فى ناحية من نواحيها ان لم تمتزج به فى جميع نواحيها . ففى عصر الصليبين شملتها الدعوة الدينية من القسطنطينية الى الجزر البريطانية ، ثم انقسمت القارة الى ثلاثة معسكرات فى الشرق والوسط والمغرب ، لم يكن معسكر منها يخلو من مشكلة حيوية لها علاقة وثيقة بالدين . فكانت أوربة الشرقيةمشغولة بمدافعة الترك العثمانيين عن حدودها ، وكانت أوربة الوسطى مشغولة بمقدمات حرب الثلاثين وجرائرها فضلا عن المنازعات بين الكنيسة وطلاب الاصلاح ، وكانت أوربة الغربية مشغولة بأمثال هذه المنازعات مع اشتغالها ببقايا الفتن المتخلفة فى حروب الاسبان والبرتغال والمغاربة

ففى مثل هذا الجو الذى تغمره الشواغل الدينية لا يتأتى

ان تصدر عن القارة حركة عامة بمعزل عن البواعث الدينية فى تدبيرها أو تنفيذها

وليست مسائل العنصر بأقل من مسائل الدين شأنا فى امتزاجها ــ تدبيرا وتنفيذا ــ بأسباب الحركات العامة

ويبدو لنا أن المؤرخين الاوربيين لم يولوا مسائل العنصر حقها فى تقدير الحوادث السياسية بل فى تقدير الحوادث الدينية التى نشأت من تنازع السيادة بين العناصر القومية ، فما من مشكلة دينية خلت من مشكلة عنصرية تسبقها او تصاحبها ، وما من خلاف على المعتقد خلا من آثار الخلاف بين طبائع الاقوام التى تتألف منها شعوب القارة الاوربية ، وهى فى مجموعها شعوب اللاتين وشعوب الجرمان والثيوثون وشعوب الصقالبة أو السلاف

لم كان اللاتين جميعا الا القليل منهم تابعين للمذهب الكاثوليكى والكنيسة الرومانية ! ؟

ولم كان الجرمان والثيوثون جميعا الا القليل منهم تابعين لمذاهب لوثر وكلفن وغيرهما من الخارجين على مذهب الكثلكة ؟

ولم كان الصقالبة جميعا الا القليل منهم خارجين على المذهبين ؟

بل لماذا بقيت الكثلكة حيث اجتمعت السيادة العنصرية وسيادة الامبراطورية المقدسة فى الدولة النمسوية ؟

ليس أدل على تغلغل هذا الباعث العنصرى فى كل علاقة بين شعوب الغرب من بقاء آثاره فى علاقات المستعمرين خارج القارة كما حدث فى علاقات الانجليز والهولنديين والاسبان والفرنسيين

لقد اختلف هؤلاء المستعمرون وتصارعوا على الاملاك

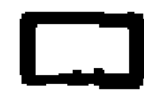
والاموال فى القارة الاسيوية ولكن الانجليز والهولنديين تفاهموا على المساومة حيث تعذر هذا التفاهم بين الانجليز والفرنسيين وبين الانجليز والاسبان ، فى أوائل عهد الاستعمار . فكان الخلاف بين الجرمان واللاتين حيث كان خلاف محو واستئصال يقابله خلاف التفاهم والمساومة كلما اختلفت امتان من عنصر الجرمان والثيوثون

ولم يزل هذا التنافس بين العنصرين اللاتينى والجرمانى قويا الى أيامنا هذه فى القرن العشرين ، ولكنه كان على أشده فى أيام نشأته عند نهاية القرون الوسطى ، قبل قيام الدول الجرمانية الكبرى ووقوع التنافس بينها على السيادة العالمية ، كما تنافس الالمان والانجليز حتى لجأ هؤلاء الى محالفة الفرنسيين ولجأ أولئك الى محالفة الطليان

وقد بدأ التنازع بين العنصرين على السيادة العالمية فى قلب القارة الاوربية ، ثم امتد الى القارات الاخرى عند اتجاه الاوربيين الى الاستعمار فى الشرقين الاقصى والادنى ، فلم ينعزل هذا التنافس قط بين العنصرين فى خطوة من خطوات الاستعمار الاولى ، سواء ظهرت فى صورة الخلاف بين مذاهب الكثلكة والمذاهب البروتستانتينية ، أو فى صورة الخلاف على مزايا الحكم أو مصالح التجارة والسياسة

ولا مندوحة من الالتفات الى هذه الدعوة العنصرية فى كل مرحلة من مراحل الاستعمار منذ نشأته الى أيامه الاخيرة قبل الحرب العالمية الثانية . فان هذه الدعوة العنصرية لم تختف قط من جو السياسة العالمية على ضيعة من الغميع ولمناسبة طارئة بعد مناسبة مدبرة ذهب أوانها . فلما اتفق الجرمان واللاتين والصقالبة على الاستعمار ظهر شعار الرجل

الابيض مقتبسا ولا شك من أصول الدعوة العنصرية ، ولما خيف أن يختلف المستعمرون من الجرمان واللاتين والصقالبة ظهرت صيحة « الخطر الاصفر » لتوحيد الدول المستعمرة فى وجه الامم الشرقية الثائرة ، ولما انقسمت أوربة انقسامها الحاسم بين الحربين العالميتين كانت الدعوة الآرية اجهر الدعوات المترددة فى جوانبها وانتشرت مع الدعوة الارية دعوة مصاحبة لها تفرق بين الاريين الاصلاء والاريين الدخلاء وتقسمهم الى طبقات تتفاوت فى حقوق الحكم والسيادة على غيرها من الشعوب من بيض وصفر وسمر وسود



اما الافكار العلمية التى كان لها أثر فى نشأة الاستعمار فأهمها فكرة « استدارة الارض » وامكان الوصول الى مشرقها من الاتجاه الى آفاقها الغربية

وهذه الفكرة ، فى أسلوب تأثيرها على الحوادث ، نموذج لسائر الافكار العلمية فى خضوعها لدواعى المصلحة وفى اخضاعها لتلك الدواعى بالمشيئة والاقناع

فالاوربيون الغربيون كانت لهم مصلحة تضطرهم الى البحث عن طريق للتجارة مع الشرق غير طريق البحر الاحمر وما جاوره من بلاد العرب والترك العثمانيين ، وكانت فكرة استدارة الارض توافق البحث عن الطريق المقصود وتؤدى الى تحقيق المصلحة المطلوبة ، ولكن هذه المصلحة لم تخلق فكرة الارض الكرية ولم تكن وحدها كافية للقيام بالرحلة الى الآفاق الغربية . بل اجتهد كولمبس سنوات لاقناع أصحاب المصلحة بمصلحتهم ، ثم اقنعهم بها فلم يصل الى ما أراد



کریستوف کولمبس

ولا الى ماارادوا من جميع رحلاته ، وجاءت خطته فى الكشف خاضعة لفكرته العلمية ولم تكن فكرته العلمية خاضعةلخطته. اذ لولا ايمانه باستدارة الارض لطلب الكشف من طريق آخر كما طلبه البرتغاليون من طريق الطواف حول القارة الافريقية

ولعل الفكرة العلمية أفادت كولمبس وأفادت عصره كله من ناحيتها العامة التى بعثت فى النفوس حب البحث والاستطلاع وجعلت الوقوف على كرية الارض بالتجربة العملية مطلبا مستحقا للبحث عنه مع ما فيه من النفع والمصلحة ؛ ولولا حب الاستطلاع لكان اهتمام التجار بالكشوف والرحلاتمقدما على اهتمام الرحالين والمغامرين ممن يخدمون التجارة وليسوا من ذويها ، فلم يقم كولمبس بالرحلة لانه تاجر أبرع من زملائه ولا لانه تاجر أحرص منهم على الربح والثراء ، ولكنه قام بها لانه مغامر علمى يحفزه التطلع الى المجهول قبل كل حافز من الكسب والغنيمة

اما شطر العوامل الاقتصادية فى نشأة الاستعمار فقوامه كما هو معلوم تجارة المشرق فى أصناف الابازير والانسجة والطيوب ، وقد تكررت الاشارة الى هذه التجارة فى كل حديث عن اسباب الاستعمار حتى خيل الى الناس انها هى السبب الوحيد للحملة على المشرق وانها كانت كافية وحدها لابتداء هذه الحملة والمثابرة عليها ، ولكنه ظن مبالغ فيه واشاعة من قبيل الاشاعات التى تثبتبالتواتر ولا تثبت علىالتمحيص والاستقراء ، فما كانت تجارة المشرق كافية بغير العوامل الاخرى لخلق حركة الاستعمار فى حينها ، وهى — سواء دارت على الابازير والانسجة — لم تكن مما يهم القائمين

بالاستعمار خاصة بين الاوربيين ولم تكن ممـــا يعيبهم أمر الحيلة فيه ..

فالابازير كانت لازمة على الاكثـر لعـلاج الاطعمة وحفظ اللحوم فى البلاد الباردة التى تحتاج الى اللحوم المحفوظة خلال اشهر الشتاء ، وليست بلاد الاسبان والبرتغـــال من هـذه البلاد ولا هى من الاقاليم التى يعييها تدبير غذاء الشتاء بغير علاج الابازير . وقـد مضى على ابناء أوربة الوسطى واوربة الشرقية زمن طويل تعودوا فيه أن يقنعوا من هـذه الابازير بما يصل اليهم من طريق القوافل الروسية والبلقانية ، فـلم يكرثهم ان يفقدوا مواردها من غير تلك الطريق

والانسجة كانت من مطالب الترف التى يقدر عليها أصحاب الثروات الواسعة ويملكون وسائل استيرادها فى طريق البر والبحر فى بلاد الفرس والترك العثمانيين ، وقد كانت للشركات الانجليزية « مكاتب توكيل » فى البصرة وحلب وســـواحل فلسطين عملت فى نقل التجارة بعد انتظـام الطرق البحرية حول القارة الافريقية ، وكان فى الوسع قبل ذلك تعميم هذه المكاتب والوكالات على طول المسافة بين ســـواحل الخليج الفارسى وسواحل فلسطين ، كما كان فى الوســـع أن تذلل عقبات السفر والاتجار فى بلاد الترك العثمانيين بالامتيـازات الاجنبية التى اخذوا فى السماح بها من عهد سليمان القانونى فالذين يذكرون التجارة الشرقية ويحسبونها سبب الاسباب فى نشوء حركة الاستعمار يبالغون ـ بل يفرطون فى المبالغة ـ ولعا منهم بتعظيم شأن المسائل المادية فى توجيـــه حركات التاريخ وغراما بتهوين شأن البواعث النفسية التى تمتزج على

الدوام بتلك المسائل المادية كلما اتسع نطاقها وتناولت مختلف الامم فى مختلف الظروف

وقد كان سوء المعيشة فاشيا فى أرجاء متفرقة من القارة الاوربية يوم توجهت الكشوف الاولى للبحث عن طرق التجارة الشرقية ، ولكن سوء المعيشة هذا كان على أشده فى أرجاء أوربة الشرقية وأوربة الوسطى ولم يدفعهم الى الاتجاه نحو المشرق القريب منهم بل دفعهم على نقيض ذلك الى الاتجاه نحو المغرب كما فعل قياصرة الروس وعواهل الدولة النمسوية ، وما كان سوء المعيشة فى مرده الى أصوله الا نتيجة للازمات النفسية التى أثارت الشعوب تارة لطلب الاستقلال السياسى وتارة لطلب الحرية الدينية وتارة أخرى للتنازع على السيادة العنصرية ... فلما تفرقت الاقاليم المستقلة واختل النظام فى الاقطار الواسعة بعد تمزيق شملها وتفتيت مواردها بين صغار الامراء وولاة الاقطاع تجمعت تلك الحالة السيئة واضطربت معيشة الملايين من ابناء القارة فى مشرقها ومغربها ، وكان قصارى مابلغ سوء الحال بتلك الملايين انه استفزها الى الثورة فى أوطانها أو رسم لها القبلة التى تنتقل اليها اذا خطر لها أن تهجرها ... ومثلها فى ذلك مثل الالمان يوم شاعت بينهم دعوة الاتجاه الى المشرق وتصايحوا بشعارهم المشهور « من برلين الى بغداد ، ومن بغداد الى الهند » ثم بقى الالمان فى بلادهم وبقى هذا الشعار « قبلة مرسومة » عند أهل السياسة قلما يتعدى دواوين الحكومة والشركات . وكذلك حدث يوم ضاقت بالاوربيين سبل العيش فى القرن السادس عشر وما بعده على أول عهدهم بحملات الاستعمار ، فقصارى ما بلغ الحنق بهم يومئذ انه جعل

الاتجاه الى الخارج أمرا قريبا من التفكير ، ولكنهم لم يفارقوا أوطانهم جماعات جماعات ليسلكوا طريق التجارة وينعموا بالانسجة والابازير ، وانما فارقوا أوطانهم جماعات جماعات بعد ان علموا أن السفر للاقامة الطويلة وانهم يسافرون الى الهند الغربية لا الى الهند الشرقية وينازعون الهنود الحمر ولا نزاع لهم مع هنود الانسجة والابازير

وعلينا ــ بعد ــ ان نذكر أن عوامل الاستعمار مابين مادية أو نفسية ــ تتناقض فيما بينها ولا تطرد على نهج واحد فى جميع الحوادث والاوقات ولا فى جميع الدول الغالبة والشعوب المغلوبة ، وهى لا تكون طبيعية معقولة الا اذا عرض لها هذا التناقض ووقع فيها الاستثناء كثيرا أو قليلا على حسب الاحوال . اذ كان الاستعمار قد استغرق من الزمن عدة قرون ومن المكان عدة اقطار ، وتقلبت فيه الحوادث وطرأت عليه المفاجآت من آونة الى آونة ومن بقعة الى بقعة ومن قبيل الى قبيل ، ومحال أن يكون هذا كله قد دخل فى حساب المستعمرين من الوهلة الاولى ، ومحال أن يكون للاستعمار حساب مختوم ينتهى بانتهاء الطبقة الاولى أو الطبقات التالية من أصحابه القائمين عليه . فاذا اصطدموا على ممر الزمن بمشكلة لم تدخل فى تقديرهم ولم تكن فى مقاصدهم فلا مناص لهم من مطاوعة الضرورات ومناقضة الفرض الذى كانوا يتوخونه يوم رسموا سياستهم لليوم والغد المعلوم أو المجهولة . ولاعجب اذن أن نرى البنادقة والمماليك يتحالفون على البرتغاليين وأن نرى البرتغاليين والمسلمين يتحالفون على المغول ، ولا أن يكون بين الهولنديين والعرب حلف وبين الهولنديين والاسبان عداء . فهذا كله من اختلاف الاتجاه فى عرض الطريق مع الثبات

فى النهاية على الطريق الاخير ، وقد يساعدنا على تصور هذا الاختلاف الموقوت ان نذكر أن السفينة تسير فى الجنوب الى الشمال ــ مثلا ــ ولا يمنع ذلك أن يكون على ظهرها من يسير من الشمال الى الجنوب ، بل لايمنع ذلك ان تعرج السفينة غربا وشرقا وفى كل اتجاه تضطرها عوارض الجو الى اتخاذه ريثما تعود فتنتظم فى طريقها المقصود من الجنوب الى الشمال

وفى تاريخ الاستعمار الشرقى أعمال متفرقة تحسب من النتائج الباكرة لتلك العوامل المادية والنفسية التى اجملناها فيما تقدم ، ولكننا اذا أردنا أن نميز بينها عملا واحدا ترتبط به جميع النتائج اللاحقة فى استعمار الشرق لم نجد بينها ماهو أحق بالتمييز من استيلاء البرتغال على ميناء « سبتة » فى سنة ١٤١٥ لانه كان فاتحة المعرفة بالطريق وفاتحة الاعمال « المنفذة » فى وقت واحد ، واحرى بنا أن نرجع فى سرد مقدمات هذا الحادث الى مؤرخى الغرب لننفى عن الخاطر مظنة الانقياد للشعور الشرقى فى مسألة ترتبط بالعداء القديم بين الاستعمار وضحاياه

تناول الاستاذ بارى Parry مقدمات هذا الحادث فى كتابه عن « أوربة والدنيا الواسعة » وهو أوجز المؤلفات وادقها فى هذه الموضوع فقال فى الفصل الثانى من الكتاب :

« ان الاستيلاء على سبته وضع البرتغاليين فى موضع يهيىء لهم معرفة وافية بالقارة الافريقية لم تكن متهياة لغيرهم من الاوربيين . فان الامير هنرى الملاح قد سمع فى سبتة ــ ولا ريب ــ بالقوافل التى ترحل فى الصحراء الى تمبكتو وتعود منها بالعاج والتبر مقايضة على البضائع من زنوج وادى النيجر ، ولعله سمع هناك بالطريق التى تتجه شرقا



هنرى الملاح

الى غانة محققة بذلك رجاء من يرجو أن تكون افريقية شبه جزيرة خلافا لما قرره الجغرافى بطليموس ، ولعله قد سمع أيضا من المصدر نفسه بمصبات بلاد صنهاجة والنيجر التى قد يتبين لمن يتتبعها انها اما أن تكون بواغيز متصلة بالبحر الهندى أو أنهارا تنبع فى جبال القمر التي شاع فى الاخبار المتناقلة انها منبع الانهار فى وسط القارة الافريقية وغلب الاعتقاد بأنها منبع نهر النيل

« وفى سنة ١٤١٩ ــ وهى السنة التالية لبعثته الثانية الى سبتة ــ قبل الامير هنرى منصبه الشرقى بولاية الجرف أقصى ولايات البرتغال فى الجنوب ، فاعتزل البلاط الملكى وشواغل السياسة واخذ فى اقامة مستقره الصغير على « سجر » فوق رأس سان فنشنت هضبة البرتغال الصخرية الى الجنوب الغربى منها . وبقى ثمة يرقب المحيط الاطلسى بين حاشيته الصغيرة التى معظمها من أناس ركبوا البحر أو عناهم أمر التجارة والرحلات على متنه ، بين ملاحين وفلكيين وبناة سفن وراسمى خرط وصانعى أدوات وآلات تستخدم فى الملاحة ، وكان كثير منهم ايطاليون دعاهم الامير هنرى للعمل على نفقته وتحت اشرافه ، وطفق فى سنة ١٤٢٠ يبعث من ميناء لاجوس القريب سلسلة من البعوث للكشف عن السواحل الافريقية واستطلاع الطريق الى الهند ، وهى بلاد كانت معروفة بمحصولاتها وان لم يكن عند الاوربيين خبر عنها غير أخبار القصص والاشاعات ، ويفهم من يوميات (ازورارا) ان الامير هنرى كان يفكر فى وجود الطريق الشرقية ويتوق الى فرصة سانحة لتحويل الامم الزاخرة من أبناء الهند الى الديانة المسيحية ، ويرجو فى الوقت نفسه أن يتمكن

من عقد محالفة تجارية حربية بينه وبين مملكة الحبر حنا Prester John ذلك الشبح البعيد الذى كان يومئـذ يشبه اشباح الاساطير . أما أساس أخباره من الواقع فهو ولا ريب قائم على مملكة الحبشة المسيحية التى يحيط بها الاعداء من المسلمين ولا تزال للقبط كنيسة بها على جرف من الثبات . فاذا تسنى للبرتغاليين أن يصلوا الى مملكة الحبر حنا فقد بات المسلمون فى أفريقية الشمالية محصورين بين سدود محكمة من المسيحيين ، ولعل البرتغاليين واصلون اذن الى مجرى من الماء فى غربى أفريقية يبلغ بهم الى منابع النيل حيث ينحدرون معه ويدهموا المغاربة من خلفهم ، فان لم يتحقق امل من هذه الآمال فحسبهم أن يعلموا أن القوافل ترحل من شمالى أفريقية للاتجار مع الزنوج على أطراف الصحراء ، ومتى اهتدى البرتغاليون بحرا الى بلادهم فهنالك يفتتحون معهم سوق التجارة الرابحة ويدخلون الكثير منهم فى الديانة المسيحية ، ومن الجائز ان الامير هنرى كان له نصيب من ولع الاستطلاع العلمى الذى شاع بين الخاصة من ابناء عصره الى جانب هذه المقاصد التجارية العسكرية الدينية

« وكان التقدم فى السنوات الاولى بطيئا شديد البطء فلم تتمكن سفينة أوربية من تجاوز رأس بجادور الى الجنوب الا بعد أربع عشرة سنة ، وكان ميناء بجادور هذا أول معالم الطريق الى الغرب من أفريقية والعقبة المخيفة أمام السفن التى تتلمس مجراها عند سواحلها ، يصد الملاحين عنها تلك الرهبة من بحر الظلمات التى ورثوها من العرب وذلك الخوف من الامواه الغالية تحت شمس المدار بأشعتها الملتهبة التى وقع فى أوهامهم أنها تصبغ من يصلاها بصبغة الزنوج السود .

الا أن الامير هنرى كان منأولى الصبر والعزم وكان من اعوانه فتى ناشىء يسمى جيل ايانيس خرج فى رحلة تطوف حول رأس بوجادور فثبت له ان البحر الى جنوبها والى شمالها متشابهان وتتابعت رحلات الكشوف بعد سنة ١٤٣٤ على نسق أسرع واهدأ مما كان قبل ذلك

« وكانت العقبة النفسية الاخرى التى كان عليهم تذليلها اعتقاد بعضهم ان الرحلات الافريقية لا طائل تحتها ولا منفعة من ورائها ، فظهر خطأ هؤلاء فى سنة ١٤٤١ حين عادت احدى البعثات من الساحل الذى يقع قريبا من جنوب رأس بوجادور بكيس فيه تبر وجماعة صغيرة من أسرى الزنوج ، وقد بلغ عدد العبيد الذين جاءت بهم السفن البرتغالية بعد ذلك الى سنة ١٤٤٦ نحو الف عبد بين مأسور ومشترى من زعماء السواحل من رأس بوجادور الى رأس برانقة التى كشفها الرحالون سنة ١٤٤٢ . وقد عومل هؤلاء العبيد معاملة رفيقة فى عرف تلك الايام . اذ كان سادتهم يعنون عناية دقيقة بتعليمهم عقائد المسيحية ويستخدمونهم أحيانا للترجمة فى البعثات التالية ، واتسعت تجارة الرقيق بعد ذلك فبنى الامير هنرى معقلا ومصنعا مخصصين لها على جزيرة ارجيوم ، فكان هذا المصنع اول معهد أوربى للاتجار وراء البحار

« ولما رأى الامير ان الكشوف التى أشرف عليها عادت ذات قيمة تجارية مجدية حصل على رخصة من الملك اخيه باحتكار التجارة مع سواحل غانة وأراد مع ذلك ان يجعل لمغامرات غانة صفة دينية محبوبة فحصل من البابوات المتعاقبين على براءات الغفران لكل من عمل فى الكشوف الافريقية كما حصل على امتياز منهم بحق التبشير بالديانة

المسيحية بين الزنوج : وقد كانت عادت الالتجاء الى البابوات فى مسائل الكشوف وراء البحار تقليدا دبلوماسيا هاما من تقاليد ذلك العصر أسفر فيما بعد عن مآزق مضحكة يوم اشتركت اسبانيا وغيرها من الامم فى هذه الكشوف البحرية ، وانتفع بها الامير هنرى فى تحقيق برنامجه الاساسى الذى كان يبتغى به اخراج البرتغال من مشاكل السياسة فى شبه الجزيرة الاندلسية وفى القارة الاوربية برمتها ، كى تشتغل بما هو أوفق لابنائها الملاحين بناة السفن وأحرى أن يتيح لهم السبق على امم أكبر منهم وأقوى »

ووصل المؤلف أخبار هنرى الملاح بأخبار أقدر الكشافين بعد وفاته وهو بارتلميوديياس Bartholmeu فقال : « ان المعروف عن دياس جد قليل ، فليست له صورة محفوظة ولم تبق من رحلته أخبار مفصلة ، ولعله كان من أصل وضيع كما كان أكثر الملاحين فى زمنه ولكنه كان ولا ريب ملاحا عظيم القدرة والبراعة لان فاسكو دا غاما Vasco de Gama حرص بعد عشر سنوات أشد الحرص على الاهتداء فى رحلته بهداية ارشاده ووصفه ، ونحن نعلم اليوم أن تجاربه كان عليها المعول فى تركيب اسطول داجاما وتزويده بمعدات الملاحة

« .... وكان لدياس نصيبه من يمن الطالع كما كان له نصيبه من القدرة والبراعة . فانه كان على خط عرض خليج والفش Walfisch حين هبت على سفينته عاصفة قذفت بها بعيدا من مرأى الارض ثلاثة عشر يوما حاول بعدها ان يقتفى أثر الميناء ليقترب من ساحل افريقية الغربى فاذا به يرسى على خليج موصل فى المحيط الهندى المنشود ، وهم أن يتابع رحلته لولا أن رجاله تعبوا وملوا وبدت عليهم بوادر الشغب

والتمرد ، ورأى أن سفينتيه أصغر وأضعف عدة وزادا من أن يدفع بهما الى المغامرة فى المجهول ، وكان قد ترك أزواده فى خليج والفش فوافقهم على العودة اليها للقفول من ثم الى الوطن ، وكانت رؤيته للراس الكبير الذى خرج للبحث عنه عرضا فى أثناء الطريق ، وسماه كما قال مؤرخه باروس Barros رأس الاعاصير ، وانما كان الملك هو الذى غير هذا الاسم وسماه رأس الرجاء بعد أوبة دياس

وتستطرد الاخبار من قصة دياس الى قصة أكبر الكشافين بعده فاسكو دا جاما Vasco de Gama صاحب العبارة التى لخصت أغراض الرحالين الاوربيين فى كلمتين : « ابازير ومسيحيين . ويقول المؤلف فى استطراده من حيث انتهى الى رأس الرجاء : « انها قضى لها أن تظل راس الرجاء المجتنب بضع سنوات . لان طرق الهند قد بدا انها مفتوحة ولكن الرحلات اليها ليست مما تقدم عليه الممالك الصغار بغير روية وتدبر ، وكان الملك قد شغل بالمتاعب السياسية ومنازعات الوراثة ، ثم ازدادت المشكلة تعقيدا بعودة السفينة ــ نينا ــ سفينة كولبس الى نهر التاجوس فى شهر مارس سنة ١٤٩٣ وركابها يزعمون أنهم بلغوا بها الى الشرق الاقصى من السواحل الاسيوية ، فاذا صدق كولبس وجماعته فقد ذهب الشطر الاكبر من رحلات البرتغاليين فى نحو قرن كامل سدى على غير جدوى ، وافلتت الغنيمة التى لاح للبرتغاليين انها فى قبضة أيديهم فآلت الى أيدى الاسبان . وهى الحرب اذن لا محالة ... ولكن البرتغاليين لم تخدعهم رواية كولبس حقبة طويلة بل شغلتهم بمحاولات شحيحة يرمون بها الى الحيلولة بين الاسبان والاسترسال فى الكشوف ، ولم تنعقد عزائمهم على

تسيير اسطول الى الهند قبل سنة ١٤٩٥ ولم يخرج الاسطول فى رحلته الا فى سنة ١٤٩٧ وهو أسطول فاسكو داجاما الذى كان يتألف من سفن أربع ، ثلاث منها من ذوات الشراع المربع والرابعة من مراكب السفر معدة للكشف وحمل البضائع التجارة »

ويقول المؤلف بعد ذلك « ان داجاما مر بأماكن عدة على الساحل الشرقى من القارة الافريقية لتموين السفن بالماء والوقود والتقط فى ميناء (ملندى) الملاح المسلم ابن ماجد الذى شاء الحظ أن يكون من نوابغ عصره فى فنون الملاحة الفلكية فاستطاع بمعونته أن يعبر المحيط الهندى الى ميناء قليقوت أحد المراكز المشهورة لتجارة الابازير فقوبل هنالك مقابله لاتبشر برجاء كبير ، وكانت حمولته من الحلى الصغيرة والانسجة الصوفية بضاعة مزجاة فى الاسواق الهندية ، ووجد حاكم قليقوت قليل الرغبة فى التخلى عن علاقاته المجدية بالعرب الذين كان منهم عنده جالية من التجار بذلت غاية جهدها لاقناعه بالاعراض عن مطالب البرتغاليين . ولكن داجاما قد استطاع بعد الالحاح والمشقة أن يجمع مقدارا من الفلفل والقرفة عاد بها الى بلاده وبدأت من ثم قصة الدسائس الاوربية الطويلة مع أمراء الهند الوطنيين ، واستغرقت رحلة داجاما سنتين قضى منها ثلثماية يوم على متن البحر وفقد مايزيد على ثلث بحارته على الارجح من اصابتهم بداء الاسخربوط »

يقول المؤلف بعد بيان حاجة الاوربيين الى الابازير : « ان انتشار تجارة الابازير فى القرن الخامس عشر كان على اتصال وثيق بانتشار الاسلام غربا وشرقا منافسا للمسيحيين والهنود

اذ كان الترك العثمانيون يفزعون أوربة الشرقية وكانت قبائل أخرى من أواسط آسيا تزحف على الهند حيث قامت اسر متتابعة على عرش دلهى وتفرقت على الساحل الغربى الى مدينة (جوا) عدة ممالك يحكمها السلاطين المسلمون فلم تثبت من بقايا الدول الهندية غير مملكة (فيجاينجار) الى الجنوب، وكان الاسلام يمتد بحرا فى تلك الآونة وتستولى الجاليات من أبنائه على مراكز التجارة فى أفريقية الشرقية الى (موزنبيق) فى الجنوب . وراح التجار المسلمون ينشرون ، ديانتهم فى الهند الشرقية ويؤسسون ثمة امارات تعمل فى التجارة يستوى فيها على العروش أمراء من أمة الملايا بالنسب ومن المسلمين بالعقيدة يشتغلون بتجارة الابازير فى أهم الجزر التى تخرجها ، وحينما ذهب المسيحيون الاوربيون شرقا وجدوا المسلمين سبقوهم هنالك حتى لم يبق من تجارة الابازير الى سنة ١٥٠٠ شيء فى غير أيدى المسلمين

ثم يستطرد المؤلف الى ابتداء الغزوات البرتغالية فيقول بعد اشارة مجملة الى رحلات المبشرين فى الشرق الاقصى :

« ان القائد «البوكرك» لما ذهب فى رحلته الاولى الى الهند سنة ١٥٠٣ لم تكن للبرتغاليين محلات يترددون عليها غير خانات ينزل بها عمال الملك أو وكلاء الشركات التجارية لشراء الابازير من الاسواق الساحلية ، ويعود اليهم بين عام وعام اسطول مسلح يبحر من لشبونة ليجمع منهم ما حصلوه خلال العام، وعلى أمراء تلك الجهات يتوقف بقاء تلك الخانات ونجاحها فلا مناص للبرتغاليين لتحويل تلك المواقع المتخلخلة الى معاقل ثابتة ودول مسيحية واسعة من الاعتماد على اسطول ثابت فى المحيط الهندى ، ولا مناص لذلك الاسطول من مقر بحرى

موفور الوسائل لتموين السفن واصلاحها وتزويدها بالملاحين والصناع الذين يحلون مع الزمن محل من يهلك من زملائهم بآفات الجو والمرض ، ولا مناص لهم مع هذا وذاك من حصون تعززها طوافات تسيطر على مداخل المحيط ومسالكه ، وعليهم ان يحولوا تجارتهم القائمة على قاعدة لشبونة البحرية الى سلسلة من المؤسسات التجارية والملاحية تغطى الشرق الاوسط من اقصاه الى أقصاه ، وكانت هذه هى الخطة الجيئة الطموح بتكاليفها الفخام التى فرضها البوكوك على حكومته الشحيحة بعد أن أصبح فى سنة ١٥٠٩ خلفا للقائد الميدا almeida فى الولاية على تلك الجهات »



الى هنا يمكن أن يقال أننا رأينا أمامنا أسباب الاستعمار الواقعة فى دور التنفيذ بين الاحجام والاقدام والمثابرة على الخطط أو العدول عنها بحكم الطوارىء والمناسبات

وهذه الاسباب الواقعة فى دور التنفيذ أولى بالالتفات اليها من الاسباب النظرية المستخلصة من الواقع حسبما يراه الباحث المتفلسف تطبيقا لمذهبه أو رأيه فى مجرى التاريخ

فكثيرا ما تضللنا الاسباب النظرية عن النتائج العملية ، لانها تعطينا عن الحوادث صورة غالطة تجعلنا نتوقع ما لا يتوقع ونستغرب مالا غرابة فيه ، وتليح لنا أن فى الامر تناقضا حيث ينبغى أن نرى الامر على استقامة وسواء مع مايقتضيه الواقع والتفكير الصحيح

والاسباب النظرية التى ينتحلها المتفلسفة لمعظم الحركات الكبرى كحركة الاصلاح أو كالثورة الفرنسية أو رحلات

الـكشف أو انقلاب الصناعة توهمنا أن هناك شخصا يعيش ثلثمائة أو اربعمائة سنة ويباشر العمل فيها جميعـا لغرض واحد يعلمه منذ البداءة وينبغى أن تكون أعماله كلها علىاطراد مع ذلك الغرض ، والا وجب أن نشك فى الحوادث أو نشك فى النتائج والمقدمات

فهذه الصورة المغالطة لاسباب الاطوار التاريخيـة تضللنا عما كان وعما يكون ، بل تضللنا عما هو واقع بين أيدينـا بالقياس الى مايشبهه من الاطوار الغابرة

ولو اعتمدنا على هذه الصورة الغالطة فى تعليل أسـباب الاستعمار لتمثلنا امامنا « تجارة الابازير » شخصية متيقظة متربصة تسوق الناس أمامها سوقا الى تحقيق مرامهـا فى مدى قرنين أو ثلاثةقرون فلايملك الناس امامها ارادةيصيبون فيها أو يخطئون ولا يحتاجون الى تفكير المفكر ولا اقناع المقنع أمام تلك الشخصية التى تقودهم قهرا على حسب البرنامج المرســوم ..

أما الاسباب الواقعة فى دور التنفيذ فنحن نعلم منها عمل الارادة وعمل الضرورة متجـاورتين متساويتين فى كل حادث كبير أو صغير ، ونعلم منها انه مامن حادث يتم على وجه من الوجوه الا ومن الممكن أن يتم على وجه آخر لو سارت الامور مسيرا آخر فى بقعة قريبة أو بعيدة من الـكرة الارضية

وما تقدم من قصة الاستعمار البرتغالى كاف لبيان أسباب الاستعمار الشرقى بين فعل الضرورةونقل الارادة وبين الاصابة بالمصادفة والاصابة بالتقدير ، ولـكن هذا كله لم يكن حتما لزاما لتحقيق وجود الاستعمار لولا ظروف اخرى لا عمـل فيها لاحد من هؤلاء العاملين الفعالين فيما يبدو من قريب

ماذا لو وصل البرتغاليون الى الشرق والاساطيل التجارية الشرقية اقوى من أساطيلهم بتركيب السفن وبما تحمله من عدة وسلاح

وماذا لو انهزمت الاساطيل الشرقية مرة ثم عاودت الكرة فانتصرت فى الكرة الثانية ووقفت محاولات البرتغاليين فى خطوتها الاولى أو نكصت على عقبيها عند منتصف الطريق ؟

كل أولئك كان من الممكن القريب لولا اختلاف يسير هنا واختلاف يسير هناك لا يأتى من تدبير العاملين الفعالين ولا من وحى تجارة الابازير

ان وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى كان فى الواقع مرحلة مشكوك فيها من مراحل الاستعمار ولم يجعله مرحلة حاسمة ناجحة غير أمرين بعيدين من تسلسل الاسباب فى هذا السياق .

أول هذين الامرين أن السفن البرتغالية كانت اقوى بتركيبها وسلاحها وخبرة ملاحيها وأقدر على القتال من سفن التجارة الشرقية بين سواحل الهند وسواحل القارة الافريقية

وثانى هذين الامرين أن سفن المماليك التى كانت قادرة على مساجلة السفن البرتغالية قد خرجت من الميدان بعد هزيمتهم فى مصر أمام الدولة العثمانية ودخول مصر فى حوزة تلك الدولة . فان سلاطين الترك لم تشغلهم تجارة البحر الاحمر كما شغلتهم حروب القارة الاوربية ولم تحفزهم البواعث العاجلة الى بناء الاساطيل خاصة لمحاربة البرتغاليين فى المحيط الهندى ايثارا منهم للغلبة على البنادقة فى البحر الابيض وهم أعداء البرتغاليين وأعداء الترك العثمانيين على السواء

ان مقدمات الاستعمار فى الشرق قد تمت يوم وصل البرتغاليون الى المحيط الهندى واعتمدوا على القوة فى حماية طرق الملاحة وموانى التجارة ، ولكنها تمت من جانب واحد هو جانب الغرب ، وكان من الجائز أن تنقطع عن نتائجها لو انها صادفت فى الشرق قوة تصدها وتثنيها على عقبيها

الا ان الاحوال التى صادفها البرتغاليون فى الشرق لم تكن خليقة أن تصدهم عن سبيلهم أو تكف غيرهم من المنافسين لهم على اللحاق بهم ، فاتصلت المقدمات بنتائجها على النحو المعروف لنا فى التاريخ

لقى أمراء الشرق طلائع الكشافين بالريبة التى يلقى بها كل غريب مجهول المقاصد والاسرار ، وعرفوا مقاصدهم التجارية والدينية فلم يحفلوها ولم يروا بينهم وبين تجار العرب وملاحيهم من فارق الا انهم خبروا هؤلاء ولم يخبروا أولئك الطارئين من الغرب البعيد

فلما ظهر أولئك الطارئون بقوتهم فى البحار وانكشف من اغراضهم انهم لايقنعون بما دون السيطرة والاحتكارتنبه الامراء الغافلون وسعى ملك قليقوت ـ أقربهم صلة بالبرتغاليين ـ الى التحالف عليهم مع أعدائهم من مماليك مصر ورؤساء البندقية ، وكان هؤلاء يسعون مثل سعيه ويحذرون الطارئين الواغلين مثل حذره ، فاسفرت مساعيهم عن استعداد المماليك بأسطول كبير ساعدهم البنادقة فى بنائه لمنازلة أسطول البرتغال ، والتقى الاسطولان عند بمباى فكانت الغلبة فى هذه المعركة للمماليك ، ثم تجددت المعركة وجمع لها البرتغاليون كل ما استطاعوا من السفن الممتازة بأجهزتها واسلحتها وخبرتها بالبحار المختلفة فانهزم المماليك فى هذه الجولة

هزيمتهم الاخيرة (سنة ١٥٠٩) لانهم فقدوا ملك مصر بعدها حين افتتحهـــا السلطان سليم الاول العثمانى بعـد تسع سنوات (١٥١٧)

ولقد كان من المتوقع أن يعاود المماليـــك الـكرة لانتزاع السيادة على المحيط الهندى من ايدى البرتغاليين فـلا تتم لهم الغلبة عليه لولا ما أصاب المماليك من هزيمة لم تقم لهم من بعدها قائمة ، بل كان من الجائز أن يتصدى العثمانيون لمنازعة البرتغاليين لو كانت ملاحة المحيط الهندى تعنيهم كما كانت تعنى المماليك ، ولـكنها مصادفات التاريخ التى لا تقع للغـــالبين ولا للمغلوبين فى حسبان ، وهـــذه احدى تلك المصـــادفات ..

وما هو الا أن ظفرت دولة غربية بالسيادة على طريق الهند حتى بدأ بين الدول الغربية ذلك السباق الذى تعاقبت اشواطه شوطا بعد شوط زهاء أربعة قرون ، وانتهى الى مداه أو كاد فى منتصف هذا القرن العشرين



سباق الاستعمار

من السهل أن نتخيل صدى الخبر الذى شاع فى أوربة عن عودة الاسطول البرتغالى بالبضائع الشرقية بعد طوافه حول القارة الافريقية واهتدائه الى طريق الهند التى دام البحث عنها زهاء عمر انسان من المعمرين

لقد أوشك أن يطلق الحكومات والبيوت التجارية فى سباق طائش الى الهند الموعودة بغير قيد ولا ضابط . فاذا كان هذا السباق الطائش قد ثاب الى شىء من التؤدة فما كان ذلك عن حكمة ولا روية ، ولكنها شواغل الفتن الداخلية والحروب العامة والمنازعات على كشوف الاميركتين قد أرجأت ذلك السباق الى حين وصرفت القوم الى الخطر القريب اضطرارا فصبروا حقبة أخرى عن الامل المنظور الذى اقتربوا منه بعد طول اصطبار ..!

وقد كان السباق بين الدولتين الرائدتين فى ميدان الكشوف خطبا يسيرا من أول أمره الى نهايته ، لان هاتين الدولتين ــ وهما اسبانيا والبرتغال ــ كانتا فى كنف الرعاية البابوية تأتمران بأمرها وتستمدان النفوذ منها فى الخلاف بينها وبين الدول الاوربية الاخرى . فاجتهد الفاتيكان اجتهاده فى التوفيق بينهما وقسم المواقع التى تنكشف لهما حصتين محدودتين على قاعدة الكشف التى اعتمدت عليها كل منهما ، فجعل لاسبانيا جميع المواقع التى تنكشف على قاعدة السفر غربا للوصول الى الهند والصين ، وجعل للبرتغال جميع المواقع

التى تنكشف على قاعدة الوصول الى الهند فى طريق الطواف حول القارة الافريقية ، وتلحق بها البرازيل ، وأقيم بين الدولتين خط فى وسط المحيط الاطلسى ملحوظ فيه ذلك التقسيم

ثم انتهى السباق بين الدولتين بتوحيد العرشين ، فانزوت البرتغال من مجال الكشف والاستعمار وآلت السياسة الاستعمارية كلها الى العاصمة الاسبانية

ثم دارت الدائرة على أسبانيا بعد هزيمتها البحرية فى معركة « الارمادا » المشهورة ، فكانت هذه الهزيمة احدى المراحل الحاسمة فى تاريخ الاستعمار ، بل فى تاريخ العصر الحديث ، وبرزت فى المجال ثلاث دول أوربية لم يكن لها شأن فيه الى ذلك الحين

استقلت هولنده من سيطرة أسبانيا فنازعتها السلطان فى التجارة وفى التبشير ، لان التجارة الهولندية قبل الاستقلال كانت مسخرة للدولة الغالبة فانطلقت من قيودها طامحة الى السيادة فى ذلك المجال المشترك الذى عرفته يوم كانت مسخرة فيه ، واملى لها فى طموحها انها كانت تنازع السادة الاسبان فى العقيدة كما تنازعهم فى السيادة الاسبانية ، لانها كانت تدين بمذهب « كلفن » وتنكر مذهب الكنيسة البابوية وتنكر معه حق الانفراد بالدعوة المسيحية

واكبر من هذا الاثر فى مجال الاستعمار ظهور الدولة الفرنسية فى مكان الزعامة بين دول القارة الاوربية بعد خروج هذه الزعامة من ايدى الدولة الاسبانية ، فان فرنسا أصبحت اكبر دول القارة مستعمرات فى آسيا وافريقية مع مستعمراتها فى أمريكا الشمالية ، واصبحت كذلك وريثة الاسبان فى قيادة

الـكتلة العالمية ولم تزل تتشبث بهذه القيادة فترة غير قصيرة بعد فصل الدولة والـكنيسة

وأكبر من هذين الاثرين معا فى مجال الاستعمار ان الجزر البريطانية انفردت بالسيادة على البحار بعد هزيمة الاسبان البحرية ، فلا مبالغة اذا قيل ان بريطانيا العظمى قبضت على زمام السياسة الاستعمارية فى العالم منذ معركة « الارمادا » الى مابعد الحرب العالمية الثانية فى منتصف القرن العشرين

وكانت بريطانيا العظمى تنافس فرنسا القوية ولا تنـافس هولندة الصغيرة ، بل لعلها ــ لولا بعض الخلافات العارضة ــ قد اخذتها تحت جناحيها لتعمل باسمها كلمـا دعا الامر الى مقابلة الدعوى الفرنسية بدعوى أمةاخرى من الامم الاوربية ، ومن ذاك انها استولت على الاملاك الهولندية فى الشرق بعـد احتلال الفرنسيين لهولندة أثناء حروب نابليون ، لانها كانت تحارب الفرنسيين وتحالف الهولنديين

على أن هولنده ــ مع صغرها بالقياس الجغرافى والعسكرى ــ توضع فى الصف الاول بين المستعمرين الاسـبقين ، وتعتبر خطتها فى التسلل الى المستعمرات بمثابة التجربة التى استفاد منها اللاحقون بها فى الزمن ، ومنهم الانجليز

ومن فكاهات الحوادث ومناقضات الصروف أن دعاة الانجليز الى الاســـتعمار انما كانوا يأتمون بكتاب ألفه الهولنــدى لنشوتين linschoten (سنة ١٥٩٦) يصف به كشوف البرتغال ويقول مترجمه الى الانجليزية : « عسى أن تعمل هذه الترجمة الحقيرة عملها فى أمتنا الانجليزية فتبعث فيها رغبة فى مزيد من شرف الاستعلاء بين الامم بالسيادة العالمية بفضل مابنيه من الجدران الخشبية » ... يعنى الاساطيل

وتعتبر هولندة على صغرها شيخة المستعمرين فى كثير من وسائل الاستعمار وتمهيداته من قبيل التبشير والاستشراق واستخدام المعاهدات والمحالفات فى كسب الحقوق الشرعية ، وهى التى سنت للمستعمرين اللاحقين بها تحويله من عهدة الشركات الى عهدة الدولة ، فأنشأت مجالس الحكم الى جانب مكاتب الادارة ثم جعلته نظاما حكوميا تغلب الصفة الرسمية فيه على صفة الاعمال الشعبية

وانما التجأ الدول الى انتزاع العمـــل من ايدى الشركات انها احتاجت الى الاعتماد على القوة لاكراه أبناء البلاد الشرقية على قبول معاملتها كما احتاجت الى القوة فى منافسة بعضها لبعض وحماية الطريق بين مناطق النفوذ ، وقد اضطرتهـــا طبيعة الاحتكار التى لا تفارق الاستعمار الى كف الشركات عن التنافس فيما بينها على رفع اثمان الشراء وخفض أثمان البيع مما ذهب بربح التجار وربح الدولة وكاد أن يقضى على الحركة فى مهدها بعد فترة الرواج والازدهار الاولى ، وقد اثار هذا الرواج حسد الحاسدين بين ابناء الامة الواحدة فهب فريق منهم يطلب من الحكومة أن تضع ايديها على شركات التجارة الخارجية واعانه على ذلك سوء السمعة الذى فشا حول أثرياء التجارة الجديدة وضجة الشكاية من مظالمهم فى معاملة ابناء الشرق ومعاملة ابناء بلادهم العاملين فى شركاتهم ، وهب فريق آخر الى مزاحمة أولئك الاثرياء بزيادة الاثمان التى يشترون بها بضائع الشرق وخفض الاثمان التى يبيعونها بها فى أسواق أوربة وغيرها من الاسواق ، فلم يبق فى الدول المستعمرة من يعارض تحويل النظام بجملته من عهدة الشركات الى عهـدة الحكومات ، وكانت سوابق هولنده أول تجربة لحكومات الغرب فى هذا التحويل

وسرعان ما اطردت الدول الثلاث ـ هولنده وفرنسا وبريطانيا ـ فى سباقها الاستعمارى حتى أدركتها على أعقابها كل دولة اوربية ثبت لها كيان قومى فى محيط السياسة العالمية ، فلم يتخلف عن هذا المضمار غير الدول التى شغلتها مسألة الوحدة الداخلية فى طور التكوين ، وكل دولة أوربية كانت مشغولة بمسألة من هذه المسائل بعد الشوط الاول من أشواط الاستعمار

ومن ثم اختلطت صبغة الفخر ، وصبغة المظهر ، بهذا السباق كما تختلط بكل سباق ، فأصبحت المجاراة فيه مطلوبة لذاتها غير مشروطة بالمنفعة المرجوة منها ، وأصبحت حيازة الارض المستعمرة علامة من علامات المساواة بين الدول الكبار ، تتطلع اليها كل دولة ناشئة ملكت سيادتها وقرنت بينها وبين السيادة على سواها ، وسرت العدوى الى كل دولة نشأت فى أوربة أو فى احدى القارات الاخرى ، فما هو الا أن تم لالمانيا وايطاليا كيان قومى حتى توثبت كلتاهما للدخول فى المضمار ، وكذلك صنعت الولايات المتحدة فى الامريكتين ، وكذلك صنعت اليابان فى آسيا وجعلت من فخرها الاسيوى أن تكون أحق بالقارة العريقة من الاوربيين والاسيويين

وظلت غايات السباق تكثر كلما كثر المتسابقون حتى استنفدت الشرق كله من أقصاه الى أوسطه الى أدناه ، وكاد الزحام على الشرقين الاوسط والادنى أن يغطى على الزحام الاصيل الى الهند والصين وجزر الملايا التى اشتهرت باسم الشرق الاقصى بعد تقسيم الشرق كله على حسب المسافات ، وتعاظم اهتمام المستعمرين بالشرقين الاوسط والادنى لاغراض شتى تستوعب جميع أغراض الاستعمار

« أولا » لان الشرقين الاوسط والادنى لازمان لحماية الطريق الى الشرق الادنى

و « ثانيا » لانهما فى أول الامر كانا قبلة الطامعين لم يبحثوا عن قبلة غيرهما الا لعجزهم عن الاستيلاء عليها . فلما تألبت مطامع الاستعمار على الشرق كله عادت اليهما أنظار الناظرين من قديم وجديد ، ولا سيما المتأخرين فى سباق الاستعمار ممن دخلوا فى الحلبة بعد فراغ السابقين الاولين من تقسيم غنائم الهند والصين والجزر الشرقية

و « ثالثا » لان أقطار الشرق الادنى وبعض أقطار الشرق الاوسط كانت كلها بقايا تابعة للدولة العثمانية التى اصطلحت الدول الكبرى على تسميتها باسم « الرجل المريض » المتفق على تقسيم تركته حلا لما سموه يومئذ بالمسألة الشرقية ..

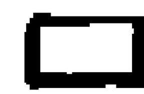
و « رابعا » لان بلاد الشرقين الاوسط والادنى اسواق صالحة لترويج المصنوعات الحديثة ، مذ كانت بلادا عمرتها الحضارة عدة قرون وعودت أهلها اقتناء اللوازمات والكماليات من مطالب الامم المتحضرة ، فهى بهذا الاعتبار أنفع لدول الصناعة من مستعمراتها فى القارة الافريقية وبعض مستعمراتها فى القارة الاسيوية

و « خامسا » لان الحصول على خامات المواد الصناعية ميسور فى بلاد الشرقين الاوسط والادنى ، وتشاء المصادفات أن تظهر فى هذه البلاد ينابيع النفط الذى يعول عليه أصحاب المصانع وأدوات المواصلات

و « سادسا » لان الدول التى تنتحل الدفاع عن مذهب من المذاهب تجد الذرائع ممهدة لديها للتدخل فى شئون

الشرق الادنى باسم الدفاع عن أبناء مذهبها أو الدفاع عن الاماكن المقدسة ، ويكفى لبيان سعة النطاق الدولى الذى تعمل فيه هذه الذرائع أن نذكر ان حرب القرم التى اصطدمت فيها روسيا وانجلترا وفرنسا وتركية وسردينية بدأت بخلاف على رعاية معهد من معاهد بيت المقدس يدعى الروس حق الاولوية فى رعايته والاشراف عليه

و « سابعا » أن الرقعة الوسطى بين القارات الثلاث موقع من أخطر مواقع الدفاع والهجوم فى الحروب الكبرى ؛ وهذا هو الموقع الذى تقيم فيه أمم الشرقين الاوسط والادنى وتتألب حوله كل تلك المطامع والتعلات



ويبدو من مراجعة هذه الظروف المتشابكة ان بلاد الشرقين الاوسط والادنى أوفر مواقع الارض حظا من المطامع التى تغرى بالاستعمار والتعلات التى يتذرع بها المستعمرون للإقدام عليه ، فلو لم تكن لهذه الظروف المتشابكة ظروف أخرى تكافئها وتدفع شرورها لكانت مهمة الاستقلال اشق المهام على طلاب الاستقلال من الشرقيين فى تلك البلاد

الا أن الواقع ان الظروف من الجانبين تتكافأ وتتعادل ويرجح منها جانب الاستقلال على جانب العدوان كلما تقدم الشرقيون واشتد النزاع على بلادهم بين المستعمرين.

وفى الكرة الارضية بلاد مستعمرة كثيرة تسكنها امم على درجات متفاوتة من التعلم والاستعداد للحكم المستقل وعراقة النسب الى الحضارات الانسانية ، وليس بينها امة أحق بمبدأ تقرير المصير من أمم الشرقين الاوسط والادنى. فاذا اضطرت

هيئات الامم العالمية الى الاعتراف بمبدأ تقرير المصير فلا سبيل لها الى حرمان الامم الشرقية من حقوقه ومستلزماته فى عرض العلاقات العالمية ، كائنا ما كان باعث الاعتراف من نية الصدق والوفاء أو نية الختل والنفاق

وانه لمن الهين على ضمائر المستعمرين أن يمجدوا كل حق من حقوق تقرير المصير ومستلزماته لو لم تكن ثمة ضرورة اخرى تقسرهم الى الاعتراف بها الى جانب ضرورة الاعتراف بالحقوق والمستلزمات

ولكن الضرورة الاخرى قائمة على الرغم من الضمائر والرغبات ..

وتلك الضرورة الاخرى هى خطر النزاع بين المستعمرين من الكتلتين الشرقية والغربية وخطر النزاع بين اعضاء كل كتلة على حدة ، فلا توجد مصلحة لدولة مستعمرة توازن الخطر على الدول جميعا من صدمات النزاع المتجدد وكوارث الحرب العالمية وتفاقم النذر باشتعالها فى كل ازمة من ازمات القضايا الوطنية أو كل مشكلة من مشاكل السياسات المتعارضة فى المعسكر الواحد أو فى المعسكرين المتناجزين ، وأهون من ذلك أن تستقل امم الشرقين الاوسط والادنى وان توكل مسائلها الى حيلة الساعة أو وحى المصلحة العاجلة لحظة بعد لحظة على حسب الطوارىء والمناسبات

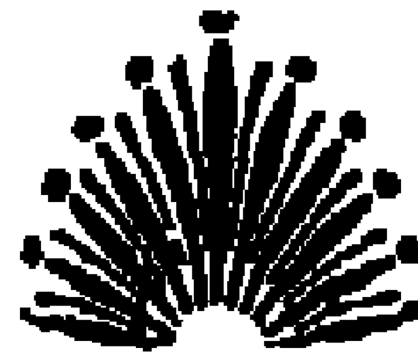
وغنى عن القول ان « حيلة الساعة » لاتعطى المستعمرين طمأنينة الى الشرقين الاوسط والادنى يستقرون عليهما . فغاية ما فى حيلة الساعة انها تعطيهم طمأنينة ساعة ، وكأنهم بحثوا عن حيلة طويلة الاجل تسعفهم عند الحاجة بطمأنينة

مثلها فلم يجدوا أنفع لهم من دولة يصنعونها بأيديهم ، ولا يزالون على ثقة من حاجتها اليهم ، فهم يعطونها قرارها وهى تعطيهم مايفتقرون اليه من قرار

وكانت دويلة اسرائيل

وكانت هذه البدعة آخر شوط من سباق الاستعمار فى الشرقين الاوسط والادنى

فما أعجب هذه الوريثة النابية لمملكة اورشليم الاولى قبل سبعة قرون !



أنواع المستعمرات

من المعروف اليوم أن المستعمرات انواع

وانما جرى البحث فى انواع المستعمرات عندما شعر المستعمرون انهم لايستطيعون أن يعاملوا البلاد المغلوبةمعاملة واحدة فقسموها الى درجات وكان معنى التقسيم الىدرجات انها تزيد أو تنقص فى بعض الحقوق

فكان الاعتراف بأنواع من المستعمرات بمثابة الاعتراف الصريح بأنواع من الحقوق

اما فيما عدا ذلك فقد كان كل مايعرف للارض المستعمرة أنها بلاد مملوكة لسيد مسلط عليها قادر على التصرف بها وبأبنائها تصرف السيد بالعبيد ، لا يحاسبه أحد فى شأن من شئونهم ان لم يحاسب نفسه عليه

نعم ان المستعمرين عاهدوا بعض المستعمرات ولم يعاملوها معاملة البلاد المفتوحة بالسيف ، ولكنهم فى معظم الاحوال عاهدوا تلك البلاد ليتخذوا من حقوق العهد حجة يقصون بها المزاحمين لهم من المستعمرين الاخرين ، أو اكتفوا بمعاهدتها لانهم لم يشعروا بالحاجة الى فتحها ، لانهم يرعون لها حقوقا يحترمونها ويحترمون أصحابها

وحدث فى بعض المستعمرات الاولى أن ذوى الرأى بحثوا فيما يحق للرعية الوطنية من المعاملة الشرعية تحديدا لسلطان الولاة أو تحديدا لسلطان الملوك والامراء

غير أنهم نظروا فى هذا الامر لان حقوق الملوك كانت فى القرون

الوسطى محل بحث بين الفقهاء بالنسبة الى حقوق الله ، ولان الرعايا الاوربيين هم الذين نقموا من الملوك اطلاق سلطانهم وطغيان جبروتهم على نبلاء قومهم وعامتهم ، فلما وجد لهؤلاء الملوك رعايا من غير الاوربيين فى الامريكتين بحث الفقهاء فى حقوق هؤلاء الرعايا وتساءلوا : هل يسرى عليهم مايسرى على الرعية الصالحة من الاوربيين أو أن لهم حكما خاصا يجيز للملوك والولاة فى معاملتهم ماليس يجوز للراعى الصالح فى معاملة الرعية الصالحة؟

وجاء البحث « أولا » من فقهاء الدين لانهم نازعوا الولاة سلطانهم فى معاملة ابناء البلاد الاصلاء ، وأرادوا أن توكل اليهم سياسة أولئك القوم لهدايتهم وتبشيرهم وادخالهم فى زمرة « الرعية الصالحة » التى تجب لها رعاية حق الدم وحق المال

واتفقت آراؤهم بعد الخلاف الطويل على أن التدين بالمسيحية شرط لاستحقاق صفة الرعية الصالحة ، فاذا عومل الوطنيون غير المسيحيين بشىء من الهوادة فانما هى الهوادة التى يستحقونها فى سبيل اقناعهم بقبول التبشير

وبديهى ان هذا البحث انما كان فرعا للبحث الاصيل عن حقوق الرعية الصالحة ، ولم يكن له باعث من النظر فى انصاف المغلوبين ، وبخاصة من كانوا مغلوبين منهم بقوة السلاح

فالاستعمار قد نشأ ولا محل فيه للاعتراف بحقوق أو مبادىء متفق عليها لمعاملة المستعمرين ، ولكنه كان يضطر الى التسليم بشىء من حقوقهم كلما تبين له ان معاملتهم على سواء لا تتأتى من الوجهة العملية ، وقليلا ما دخلت القيم الانسانية والاخلاق المثلى فى حسابهم يوم اخذوا فى التمييز بين اتباعهم ، وانما كان المرجع فى ذلك الى النعرة العنصرية التى

قادتهم الى اختراع امانة « الرجل الابيض » تسويغا لحكم الشعوب واغتصاب البلاد ... فكان نظام الدومينيون - ارقى النظم الاستعمارية - قسطا محتكرا للبلاد التى يسود فيها الرجل الابيض من جنس الدولة الحاكمة ، وكان بعد المسافة شفيعا آخر للسماح بنظام الدمينيون وتخويل الحكومات المحلية ضروبا من السلطة فى المسائل الحاضرة التى لا يتيسر الرجوع فيها الى راى الدولة الحاكمة فى العاصمة الكبرى ، وكان خطر الانفصال شفيعا مهما مع هذين الشفيعين لزيادة نصيب الدومينيون من حقوق الاستقلال

ويلى الجنس الابيض فى حقوق الاستقلال وحدوده اجناس السمر والصفر والسود على ترتيب درجاتهم من مظاهر الدولة فى ماضيهم البعيد او القريب

فالامم التى كانت لها عروش مؤسسة وحكومات قائمة كانت تظفر منهم بنصيب من الحكم الذاتى يستبقى العروش لامرائها والحكومة لرؤسائها حيثما تيسر استبقاؤها بغير خطر على نفوذ الدولة المستعمرة

ومن لم تكن لهم دول وحكومات خولوهم طائفة من مناصب الرئاسة فى الحكومة على قدر نصيبهم من الحضارة والقدرة على ولاية المناصب المأمونة ، ولا يفوتهم بذلك أن يجتذبوا اليهم زمرة المرشحين للولاية حيث لا حاجة بهم الى اجتذاب جمهرة الرعية

فاذا كانت البلاد المغلوبة خلوا من الدولة القديمة ومن الطبقة المرشحة لمناصب الرئاسة فغاية ماينالة ابناؤها أن يتولوا مناصب المرؤسين على كثرة او قلة حسب انتشار الوظائف فى نظام الحكومة العصرية ، ومن غلبت بينهم نظم القبائل والعشائر

تركوا لهم رئاستهم الموروثة وكسبوا بذلك ولاء الرؤساء وسهولة الطاعة والانقياد من المرؤسين

وسار المستعمرون سيرهم البطيء فى توسيع هذه الحقوق وترقية هذه النظم ، فلم يرفعوا مستعمرة من مستعمراتهم درجة الا على اضطرار وبعد جهاد وانكار

ولكن بلاد « الرجل الابيض » كانت تظفر على الدوام بالقسط الاوفى من توسيع الحقوق وتوفير معالم الاستقلال، فأصبح من حق الدمينيون بعد الحرب العالمية الاولى ان توفد السفراء عنها الى الدول الاجنبية وان تعلن الحيدة فى الحرب او تعلن الاشتراك فيها باختيارها ، وازداد نصيب المستعمرات الاخرى على نسبة الزيادة فى حقوق الدومينيون الخارجية والداخلية ، فندرت بينهن أمة بقيت على ما كانت عليه قبل الحرب العالمية

الا أن الجديد فى نظام الاستعمار هنا انما هو الجديد من جهة المبدأ لا من جهة الزيادة فى عدد الوظائف ودرجات الحكومة الذاتية ..

ان الحرب العالمية الاولى كانت حدا فاصلا بين عهدين واضحين فى تاريخ الاستعمار ، لانها ازالت الاستعمار من حيث « المبدأ » وابقت ما بقى منه على أساس جديد ينكر دعوى الملك ولا يعترف لدولة من الدول بحق تدعيه لنفسها فى حكم مستعمرة متقدمة أو متأخرة ، مالم يكن ذلك بالوكالة عن الامم الانسانية ..

وكذلك قام ميثاق الامم بعد الحرب العالمية الاولى على بطلان الاستعمار واحترام حق تقرير المصير ، ومعنى تقرير المصير ان الاستقلال حق طبيعى لكل أمة تحكم نفسها أو

تحكمها غيرها . فمن كانت من الامم مستقلة معترفا لهـــا بالاستقلال فهى صاحبة السيادة على نفسها ولا سيادة لاحد عليها ، ومن كانت سيادتها بيد غيرها أو كانت موقوفة لعلة عارضة تحول بينها وبين ولاية حق السيادة فيها فهى فى ذمة الانسانية تختار لها من يحكمها الى أن تملك زمام سيادتها ، وليس للدولة المختارة لحكمها حق فى تسخيرها واستغلالها او مزية تمتاز بها على الدول الاخرى ، وانما تعطى الدولة الحاكمة من حقوق الولاية بقدر ماتحمله من المسئولية أو بقدر مايمكنها من النهوض بأعباء ولايتها

واستحدثت للنظام الجديد اسماء تناسبه غير الاسماء التى سلفت فى أيام الاعتراف بحق الاستعمار ، فحل الانتـــداب والوصاية محل الحماية ، وتركت الحمايات السابقة باسمائها الى أن تتفاهم الدول الحامية والبلاد المحمية على وضع من الاوضاع الحديثة ، وبات مفهوما بين أعضاء الميثاق ان العدوان على وطن من الاوطان انما هو خرق لميثاق الامم جمعاء ينبغى أن تمنعه الامم جمعاء ولا تنفرد بمنعه دولة حامية أو دولة محمية . فلا يتفق مع روح الميثاق ان تنفرد احدى الدول بحماية وطن من الاوطان الضعيفة ولو كان موكولا الى ولايتها

واتضحت الحدود على هذا النمط بين أنواع المستعمرات . فالانتداب للامم التى تملك السيادة ناقصة وينتظر أن تملك السيادة كاملة بعد فترة وجيزة ، والوصاية للامم التى تملك السيادة موقوفـــة الى زمن بعيـــد أو لا تبلغ مبلغ السيادة لقصورها عن الحكم الذاتى واتقاء الخطر من اضطراب فيها

وتكفلت عصبة الامم بالاستماع الى شكاية الشاكين وتحقيق ما يحتاج منها الى التحقيق ، وامتنع على دولة أن تتعـــرض

لولايات دولة أخرى الا ان يكون تعرضها من قبيل المطالبة بالتحقيق فى خلل ادارتها وظلم ولايتها

وتم هذا كله من حيث المبدأ والعقيدة

وشتان بين المبدأ أو العقيدة وما يجرى فى الواقع ويعهده الناس بين الحاكمين من الاقوياء والمحكومين من الضعفاء

فقد بقيت المستعمرات وبقى الاستغلال وبقيت مظالم الحكم واستبيحت الاوطان عنوة وعجزت عصبة الامم عن حماية وطن واحد مستباح أو عقوبة دولة واحدة تتحداها جهرة وتستبيح ما حرمته فى الميثاق واقرها على تحريمه المعتدون

الا انه من قصور العقل فيما نعتقد أن يقال — مع هذا كله — ان تقرير المبدأ والسكوت عنه سواء ، وان العالم لم يستفد شيئا من النظام الجديد ولا يرجى أن يستفيد منه بعد حين . فما زالت المبادىء تخالف الوقائع فى تكاليف بنى الانسان من أمم أو آحاد ، وقديما عرف الناس ضياع اليتامى فى ذمة الاوصياء وعرفوا حيل المحتالين على القاصرين والمحجور عليهم من مستحقى الحجر أو غير مستحقيه ولكن محاسبة المختلسين والمحتالين على الرغم من هذا كله مبدأ مطلوب وتقريره فى المجتمعات غنم مكسوب ، والغاؤه بعد تقريره جريمة لاتفر من عقباها ولا تصلح الفساد المحذور بل تزيده وتغرى من يتجنبه بأن يجترىء عليه .

ولا يخفى ان المبادىء التى تتصل بعلاقات الامم كثيرا ما تظهر فى أوانها دليلا على اتجاه الوقائع الى تأييدها وتطبيقها وزاجرا لمن يخالفها ونذيرا له بما يصيبه من مخالفتها

ومصداق ذلك فى هذا المبدأ أن البلاد التى استبيحت خلافا

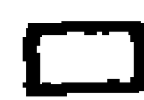
له واجتراء عليه لم يبق واحدة منهـا فى أيدى أصـــحابها المعتدين عليها

فالبلاد التى اقتحمها النازيون والفاشيون ودعاة السطوة الحربية من اليابانيين قـد خرجت جميعـــا من أيديهم ولم يحصلوا منها على غير الخسارة والهزيمة وسوء القالة ، ولم يحصل مثل ذلك للدول التى قبلت المبدأ ولو بالاحتيال عليه

ولا يقال ان النازيين والفاشيين ودعاة السطوة الحربية قد اصابهم ما اصابهم لانهم مهزومون ساء بهم الحظ فأصـابهم جزاء القانون

فمن دلالات الواقع وتعزيزها للمبدأ أن تطبق الهزيمة على جميع من خالفوه

ومن دلالات الواقع فى جانب المنتصرين انهـم ـ بعـد انتصارهم ـ لم يقدروا على انكار حقوق مستعمراتهم ولم تبق مستعمرة منها لم تنتفع بالمبدأ فى تسويغ مطلب او تعزيز صفة من الصفات الدولية التى تحرص الامم عليها ، ولم يكن المبدأ وحده هو منصف الهند والباكستان وبلاد النيجر واوغنده وما اليها من الشعوب الافريقية ، ولكن لولا المبدأ لما تم فى الواقع أن ينال كل شعب من هذه الشعوب درجة فوق درجته بين البلاد المحكومة ، لان المبدأ ينطبق على جميع هذه البـلاد ولا يجمعها الواقع فى حالة متفقة وفى زمن واحد كائنـــا ما كان



على أن الشعور الانسانى مقياس صحيح يعتمد عليه فى بيان الفارق بين دعوى الاستعمار بالامس ودعواه اليوم ،

ونحسب ان هذا المقياس أولى أن نعتمد عليه من مقياس مبادىء الرأى أو وقائع العيان

واليوم يعاب السياسى بأن يقال عنه انه من زمرة الاستعماريين أو المستعمرين ، ويعتبر نسبته اليهم وصمة يبرأ منها ويحاول أن يموهها بانتحال أسماء للاستعمار غير اسمه الصريح

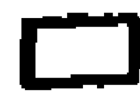
ولا يستغرب الناس فى عصرنا خجل الساسة من نسبتهم الى زمرة الاستعمار ، لانهم يقرنون هذه النسبة باثارة الحروب واغتصاب الحقوق والعدوان على الانفس والاموال والاستكبار على الناس فى غير موجب للكبرياء . ولكننا نعود الى ابطال الفتح والتوسع أو الى ابطال الاستعمار والسياسة الامبراطورية فى التاريخين القديم والحديث فلا يشق علينا أن نتخيل دهشتهم من هذا الخجل بما يشرفهم فى أعينهم وأعين السادة والعبيد فى أزمنتهم . ولا نظن أن اسكندر المقدونى ، بل نابليون وسسل رودس ـ يستطيعون أن يتخيلوا وجود ذلك الانسان الذى يخجل من فتح الممالك والسطوة على الملوك والشعوب ، وربما تخيلوه فتخيلوا أنه لا يكون الا واحدا من أولئك المتفلسفة المتحذلقة الذين يتفيهقون على الناس بغرائب الآراء ونوادر الاقاويل ، ولكننا لا نحسبهم يفهمون أن يكون الخجل من الاستعمار حديثا يتردد فى الصحف ويدور على الافواه وينادى به فى المحافل والاسواق . ومن أين يخطر هذا الخاطر للفتى الذى كان يتنهد أسفا لان أباه فتح ممالك العالم المعمور فلم يدع له مكانا يفتحه وأوشك أن يبتليه بالتفكير فى فتح السماء

وجاء نابليون بعد الاسكندر بأكثر من عشرين قرنا فلم يبد من فعله أو من قوله انه كان يكره أن يكون نسخة فرنسية

من تلك النسخة المقدونية ، أو يأبى ان يفخر بشيء كان يفخر به صاحبه القديم

وجاء سسل رودس فى عصر بعد عصر نابليون فكان توسيع الامبراطورية أشرف عمل يعمله بل أشرف امنية يتمناها ، ولحق به اناس من بنى قومه الى أيام الحرب العالمية لايتورعون ان يحسوا كما أحس أو يعملوا كما عمل او يقولوا كما قال

وانه لمن انكار الواقع ـ لامن انكار المبدأ فحسب ـ أن يغفل الباحث عن معنى هذا الشعور المختلف فى الدلالة على الفارق بين دعوى الاستعمار بالامس ودعواه اليوم ودعواه فى الغد القريب



و « التواضع الاستعمارى » آية أخرى من آيات الحكم على الاستعمار بمقياس الشعور

ففى العصور الغابرة كان الفاتح يصول على الامم ليستعلى بينها بشرف الفتح ويرفع قدره واقدار قومه مكانا عليا يعفو له أبناء الوطن المفتوح ولا يتطاولون الى مساواته فيه ، وماكان من شأن فاتح أن يفتح بلدا ليقول لابنائه اننى معكم على سواء وأن حقى وحقكم شرع فى الدستور والقانون

فلما بطل فخر الاستعمار ظهر « التواضع الاستعمارى » قبل أن تظهر المبادىء العامة فى السياسة الدولية ، وما زال المستعمرون من أوائل القرن العشرين يتقربون الى رعاياهم بمساواتهم فى حقوق المواطنة ويعبرون عن هذه المساواة بما طاب لهم من الصيغ الدستورية أو صيغ العرف الشائع بين الديمقراطيين المحدثين

فالانجليزى سمح للهندى أن يساويه فى حق الترشيح للنيابة فى العاصمة الانجليزية

والفرنسى يقول ان الجزائر وطن للفرنسيين وان فرنسا وطن للجزائريين

والروسى يقول للترك الاسيويين ان صعاليك الامم قاطبة مشتركون فى حقوق الاوطان

والامريكى يقول لابناء الفيلبين قبل تعديل الدستور الاخير ان رعايا الولايات المتحدة ورعايا الجزر الوطنيين سواء فى حقوق المواطنة

وهذه دول متفرقة تباشر دعاوى الاستعمار على اشكال والوان ، ولكنها تصطنع التواضع الاستعمارى لان « الفخر الاستعمارى » قد أصبح فى خبر كان ، ولا يغير من هذه الحقيقة أن يكون المستعمرون مخلصين او مخادعين ، فانما الحقيقة من وراء الاخلاص والمخادعة أن الشعور بالفخر الاستعمارى غير مقبول فى العصر الحديث

ان تقسيم المستعمرات الى انواع كان نقطة الانتقال الاولى فى سبيل الاعتراف لكل نوع منها ببعض الحقوق

اما النقطة الاخرى ــ ولعلها الاخيرة ــ فهى اضطرار الدول الى النص فى ميثاقها على بطلان مبدأ الاستعمار واحترام مبدا « تقرير المصير »

آداب الاستعمار

تعود الناس من الاستعمار قلة الصدق وكثرة الـكذب ، والفوا منه نقض المواثيق وخلف المواعيد ، وتسايرت الامثال بهذه الخلة فيه حتى شهد بها زبانية الاستعمار كما شهد بها ضحاياه ، ولكنهم يشهدون بها اضطراراً ليقولوا انها واسطة تبرر الغاية وانها حيلة معيبة فى سبيل مصلحة محمودة ،وربما غلا بعضهم فى دعواه فزعم أنها مصلحة للمغلوبين ومصـلحة للغالبين ، وانها فى امر المغلوبين كمصلحة الطفل القاصر الذى يساق الى نفعة ولا يقدر على أدراكه

والاستعمار على اتفاق الاقوال كذوب،الا أن الكذب خليقة نفسية يوصف بها الانسان ولا توصف بها الحركات الاجتماعية او حركات الامم والحكومات ، وأصح من ذلك أن يقـال ان الاستعمار مستغل يقوم على الاثرة ، وان آدابه كسياسـته فى هذه الخلة ، فما تواضع عليه من آداب فهو آداب استغلال، وما تواضع عليه من سياسة فهو سياسة استغلال



انه يستغل الرذيلة كما يستغل الفضـيلة : يستغل الجبن والخسـةوالحرص على المنفعة العاجلة كمايستغل المبادىءالكريمة والخلائق المحبـوبة ، فلو جمع ما قيـل فى الدعوة الى الحرية والسلام والرقى والحضارة لوقعت حصته الكبرى فى جعبـة المستعمرين ، وما انقضت فترة قط فى العصور الاخيرة على غير « رسالة انسانية » جميلة يترنم بهـا دعاة الاستعمار

من أصحاب السيف والنار الى أصحاب الاقلام والافكار
الا اننا نتبرع للاستعمار بالشرف الاكبر اذا قلنامع القائلين انه يخلق تلك الدعوات ويخترع رسالاتها اختراعا من عنده ليدرك بها مأربه ويخدم بها قضاياه

وفى بعض المفسرين الماديين للتاريخ ولع باسناد الرسالات الانسانية منذ القدم الى سماسرة الاستغلال من الساسة وأصحاب الاموال ، فلا غيرة فى رأيهم على حرية الارقاء ولاعلى قضية السلام ولا على أمثالها من القضايا لولا المآرب التى يعمل لها المستعمرون والمستغلون ويحاربون من أجلها من يحاربون ، أو يسالمون من يسالمون.

عدو جاهل ولامراء ، ولو قال هؤلاء الماديون ان آداب الاستعمار زائفة وان نياته غير خالصة وأنه يستغل المبادىء بعد وجودها واصطلاح الناس على اكبارها وتأييد العاملين لها لصدقوا وبلغوا ما يريدون من كشف النيات والتحذير من الخدع والاضاليل ، ولكنهم يصيبون الانسانية بكذب اقتل لها من كذب الاستعمار فى أخبث دخائله حين يجحدون على الانسانية قدرتها على التقدم وينوطون فضائل التقدم كلها بأكاذيب المنافقين وأباطيل المكرة الخادعين

فالاستعمار أعجز من أن يسبق الانسانية قيد شعرة الى فضيلة لا تحسها ولا ترتفع بآدابها اليها ولا تكون فيها المنفعة للعديد الاكبر من أبنائها ، فتصلح من ثم للاحتيال بها على بلوغ المطامع وتدليس العقائد أو الدعوات . وقد حمل الاستعمار علم الحرية والدفاع عن الرقيق وفعل ذلك لاستعباد الشعوب الحرة لا لاطلاق الارقاء المستعبدين ، وقد أرسل المستعمرون أساطيلهم ترود البحار وترصد السواحل وتعترض السفن

وتقتحم الموانىء وتستبيح المواقع فى الاقطار المستقلة بحثا فيما زعموا عن النخاسين والارقاء ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك الا بعد ان أصبح « الفتح » منكرا يحتاج الى المعاذير ، وبعد أن أصبح تحرير الرقيق مأثرة يدعيها المدعى ويرشو بها الضمائر فتقبل الرشوة خالصة النية أو متواطنة على الخداع ، أما قبل ذلك فقد كان هذا الاستعمار يرسل أساطيله علانية ليقود حملات النخاسة وينقل الشحنة بعد الشحنة من الارقاء المغتصبين بغير ثمن أو المبيعين بأبخس الاثمان ، سلعا لا سعر لها فى سوق البغى غير سعر الصيد المباح

وما من داعية سياسى يحتاج فى أيامنا هذه الى الاطناب فى تبشيع النخاسة والاتجار ببيع الآدميين ، ولكن الدعاة الذين قامت شهرتهم على تحرير الرقيق كانوا الى ما قبل مائة سنة يبحثون عن سبب آخر غير سبب المروءة لاقناع اتباعهم بوجوب تحريم النخاسة ، لان الآداب الانسانية لم تكن قد ارتفعت الى المرتقى الذى يجعل تحريمها من البديهيات لغير سبب آخر سوى البشاعة البينة التى لا تحتمل الآن اطالة للجدال ، فكان ابراهام لنكلن داعية التحرير الاكبر يضيف سبب الغيرة على الوحدة الوطنية الى سبب الغيرة على الكرامة الانسانية كلما اراد أن يقنع نصيرا له يحرص على اقناعه ، وكتب قبل شهر من اعلان التحرير الى هوراس جريلى Greley « أن هدفى الاعظم فى هذا الكفاح أن انقذ الوحدة الوطنية لا أن انقذ الشرق ولا ان اقضى عليه . فاذا استطعت أن احافظ على الوحدة دون أن أحرر عبدا واحدا فعلت ، واذا استطعت ذلك بتحرير جميع العبيد فعلت ، واذا استطعته بتحرير فريق منهم وابقاء فريق منهم فى العبودية فعلت ... »

ودور الاستعمار فى قضية السموم والمخدرات كدوره فى قضية الرقيق : دور المستغل التابع لا دور المخترع المتبوع .
فان الدول التى اقامت المؤتمرات فى جميع القارات لمصادرة السموم المخدرة ومطاردة العصابات القوية التى تخصصت لتهريبها لم تتورع فى القرن الماضى عن حماية هذه السموم واكراه الصينيين على استيرادها وتشجيعهم على تعاطيها ، وهل كانت حرب الافيون ــ أو حروب الافيون ــ التى اشتعلت فى القرن التاسع عشر مما تجترىء عليه دولة من الدول لو قامت مشكلتها فى هذه الايام ؟ ان سياسة الدول لم تختلف من قبل ومن بعد لانها تزهد اليوم فى كسب كانت ترغب فيه بالامس ، ولكنها اختلفت لان العقبات الاخلاقية التى تصد عن تجارة السموم كانت مذللة للاستعمار ممهدة تحت قدميه فأصبحت فى العهد الاخير مخيفة له أو عسيرة عليه



وقضية السلام من القضايا العالمية التى نرى فيها نوعا من الاستغلال لكل نوع من الاستعمار ، ولا نرى لها صورة من الصور يكون فيها دور الاستعمار دور اختراع وابتكار

فالمستعمرون الذين شبعوا من الاستعمار ينصرون السلام لان الحرب اما ان تكون ثورة عليهم من المغلوبين المطالبين بحقوقهم ، أو منازعة لهم من الاقوياء الطامعين فى تراثهم ، وفى كلتا الحالتين يغنمون من السلم مالا يغنمونه من القتال

والمستعمرون الذين تأخرت بهم القافلة ــ كالنازيين والفاشيين ــ يستغلون قضية السلام على منهجين متعارضين .
فهم فى سياستهم الداخلية يشعرون بأن دعوة السلام فى العصر



ابراهام لنكلن

الحديث قوة لا يستهان بها فيحاربونها من أجل هذا ويمثلونها لرعاياهم على غير حقيقتها ، لانهم يحتاجون الى فلسفة الحرب فى تربية الصغار وتلقين جماهير الدهماء ولا ينتفعون بفلسفة السلام فى هذا المجال ، ولكنهم فى سياستهم الخارجيةيشعرون بقوة الدعوة الى السلم فى العصر الحديث فينهجون فىاستغلالها منهجا غير منهجهم فى السياسة الداخلية ويحاولون جهدهم ان يتهموا اعداءهم باحراجهم واضطرارهم الى مجاراتهم فى عدد القتال وخطط المقاومة ، ومنها تدريب الناشئة على الحرب وتلقين الجماهير صيحات النخوة والحمية ، ولو لم تسبقهم قضية السلام على الرغم منهم لما كانت لهم مصلحة فى اختراعها فى كلتا السياستين

وامانة « الرجل الابيض » - وهى قضية الاستعمار الاولى - احق القضايا ان يخترعها المستعمرون لو كانوا يملكون الاختراع فى دعوة من أمثال هذه الدعوات ، ولكن الرجل الابيض قد عاش زمانا فى القارة الاوربية ضحية للاستعمار من الرجل الابيض الذى يجاوره أو ينتمى الى عنصره وقبيله ، وما التفتوا الى طلب السيادة على السمر والصفر والسود ولهم بقية من الامل فى السيادة على البيض من صميم الاوربيين !



فالاستعمار لا يخلق للأمم آدابا تروج بينها وتتلقاها منه خدمة لمصلحة او ايمانا بعقيدة ، وانما تنشأ الآداب الانسانية وتبلغ مبلغ القوة والرهبة قبل أن تصبح صالحة للاستغلال والادعاء فى سياسة المستعمرين ... وهذه الحقيقة جديرة

ابدا أن تتقرر فى أذهان الامم المبتلاة بمطامع الاقوياء . لانها هى الخاسرة اذا لم تفرق بين دعوات المستعمرين ونيات المستعمرين . فلا مصلحة للعالم فى احباط الدعوات الانسانية التى ينتحلها المستعمرون ، وانما مصلحة العالم أن يتكشف النفاق عما وراءه ، وأن تبقى دعوات بنى الانسان لبنى الانسان وراء كل نفاق واستغلال



نهاية الاستعمار

أخذ الاستعمار فى الزوال لانه مرحلة من مراحل التاريخ التى لاتوجد للدوام ولا بد أن تنتهى بانتهاء دورها عند زوال أسبابها ووصولها الى غاية مداها . ومن اسباب زوال هذه الادوار انها تجربة من تجارب الامم فى عالم المجهول ، وأنهـا تنطوى على كثير من الاغلاط والمساوىء كما تنطوى على كثير من الخطأ فى التقدير ومن سوء الحساب عند القائمين بهـا والعاملين عليها

الا ان هذه المرحلة ـ مرحلة الاستعمار ـ كانت بدعة بين المراحل التاريخية بكثرة ما فيها من مزالق الاقتحام ومفاجآت المجهول ، وكانت أشواطها كلها كأنها خطوات معتسفة يبتدىء بها السالك طريقه ويتوسطه قبل ان يعلم انه قد ضل الطريق . ثم يقف بين الحيرة والعناد ، ويصر على العناد لانه لا يستطيع الرجوع ولا يستطيع التسليم بالضلال

وقد قيل ، بحق ، ان مرحلة الاستعمار الحديث قد بدأت فى وقت واحد مع عصر الاستكشاف او عصر البحث عن الطريق المجهول

وكانت فى الواقع بحوثا كثيرة وطرقا متعددة . فمن ذاهب الى الغرب ليصل الى الشرق من طريق مجهول حول الكرة الارضية ، ومن ذاهب الى الجنوب ليصل الى الشرق من طريق الطواف حول القارة الافريقية ، ومن ذاهب الى الشمال ليصل الى الشرق من ناحية القطب خلال الاقطار الروسية ، ومن

ذاهب الى البحر الاحمر يريد أن يصل بينه وبين بحر الروم بسكة من سكك البر او مجرى من مجارى الماء

كانت بحوثا كثيرة عن طرق كثيرة

وكذلك كانت بحوث الاستعمار التى افتتحت مع بحوث الاستكشاف فى عصر واحد : كلها كانت من المغامرات وكلها كانت من المقامرة على المجهول ، ولهذا كان خطأ الحساب وسوء التقدير اكبر اسباب الخيبة التى اصابت الاستعمار فى منتصف الطريق أو قبل منتصف الطريق ، وتقترن بهذه الاسباب الكثيرة اسباب اخرى من اخطاء المستعمرين ومن نقائض الاستعمار نفسه فى صميم تكوينه ، وهى ليست بالشىء القليل

مصادفة الموقع الجغرافى

فمن الاسباب العرضية التى دفعت ببعض الامم الى ميدان الاستعمار ـ ان هذه الامم كانت فى موقع جغرافى يسوقها الى الميدان وما استعدت له غير هذا الاستعداد ـ العرفى ـ الذى جاء من طريق المصادفة

لماذا تكون البرتغال وهولندة وبلجيكا بين دول الاستعمار التى ملكت من المستعمرات مالم تملكه كثير من الدول الكبار ؟

لا سبب لذلك غير انها كانت تقيم على شواطىء البحر الاطلسى وكان البحر الاطلسى هو طريق الماء الوحيد المفتوح للبحث والتجربة بعد امتناع التجارة فى بحر الروم أو البحر الابيض المتوسط

وهذا سبب كاف لابتداء التجربة والمحاولة ولكنه غير كاف

للاستمرار والبقاء فى الميدان ، وبخاصة بعد انكشاف المجهول وتطور الاغراض التى من أجلها بحث الباحثون عن الطـرق وابتدأوا خطواتهم الاولى فى تجارب الاستعمار

ولنضرب المثل ببعض هذه « التطورات » فى أمة واحـدة لعلها هى أسبق الامم الى هذا الميـــدان ــ ونعنى بها امة البرتغال

فهذه الامة قليلة العدد قليلة الموارد الصناعية قليلة العلاقة بالامم الاخرى فى القارة الاوربية ، وكان همها الاكبر أن تعثر على الطريق الذى ترسو عليه السفن وأن تتغلب على السفن المنافسة لها فى البحار المقصودة

ومن المصادفات أن الدول التى كانت تزاحمها كانت يومئذ فى شاغل عن مزاحمتها ، لان الدولة الاسبانية كانت تســيطر على شواطىء هولنده وبلجيكا وكان الكشافون الاسبان متجهين الى البحث عن طريق الهنـد فى البحـار الغربيـة على آثار « كولمبس » المشهور

اما السفن التى كانت تزاحم سفن البرتغال فى البحـار الشرقية فلم تكن مستعدة بالاسلحة الحديثة التى استعدت بها سفن البرتغال ، ولم تكن فى تركيبها صالحة لجميع اغراض الملاحة أو اغراض الحروب البحرية ، فلم تقدر على مقـاومة السفن البرتغالية فى هذه المنافسة الهوجاء

وما كادت هذه الدولة السابقة الى الميدان أن تظفر بالغلب على طريق الملاحة حتى تبين لها أن نقل التجارة وحده لايكفى لاجتناء الغنائم المنتظرة من هذا الطريق . فانها لم تكن دولة صناعية ولم تسـتطع أن تنافس الدول التى توافرت لديهـا ادوات الصناعة الكبرى ، وقد أخذت هذه الصناعة الكبرى

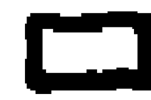
يومئذ فى الظهور وأوشكت دول الصناعة أن تستولى على الاسواق كما استولت على المعامل والصناعات

نقص الموارد المنتظرة

والدول الصناعية الكبرى ما شأنها فى هذا الصراع الذى انهزمت فيه البرتغال ؟ هل سلمت من أخطاء التقدير ومن سوء الحساب ومن اختلاف الاغراض بين خطوات الاستعمار فى بداءتها وخطواته بعد التقدم الى منتصف الطريق ؟

كلا !

ان المشكلة جاءت هنا من اجتماع الصناعة والتجارة فى يد واحدة . فلابد للدولة المستعمرة من موارد تحتكرها للحصول على الخامات ، ولا بد لها من أسواق تحتكرها لتصريف مصنوعاتها بغير مزاحمة ، ولابد لها مع هذا وذاك من حراسة الطريق ومن حراسة الموارد المحتكرة لجلب الخامات والموارد المحتكرة لتصريف المصنوعات



والبرتغال انما هى مثل واحد استحقت التقديم لانها كانت فى طليعة السباق العالمى الى الاستعمار ، ولكنها لم تنفرد بالمفاجأة بين الدول الكثيرة التى خرجت معها أو لحقت بها فى هذا السباق . اذ كانت هذه الدول جميعا قد فوجئت بعد حين بما أخلف حسابها فى أمر من الامور ، ولم تمض عليهن أعوام معدودات حتى علمن أن الغرض الاول الذى خرجن للبحث عنه لا يغنى زمنا طويلا فى هذه المهمة ولا يكفل لهن الثبات والنجاح بعد انكشاف الطرق المجهولة التى خطر لهن

فى بادىء الامر أن العثور عليها هو القبلة المقصــودة وخاتمة المطاف

كان الغرض الاكبر من حملات الاستكشاف أن تنتهى الى طـريق الهنــد من الغــرب أو من حول القــارة الافريقيــة ، وكان الرجاء المأمول ــ أو الرجاء الصالح ــ كما وصفوه يومئذ ان يعثر الرحالون على الموانىء التى ترسو عليها السفن فى أمان لتفرغ وسقها وتعود بوسق جديد من خيرات الشرق وذخائره بعد امتناعها من طريق البحر الابيض المتوسط وما اليه

فلما تحقق هذا الغرض ووجدت الموانىء الصالحة للتبادل المنشود ظهر أولا أن بضائع أوربة غير مرغوب فيها بين الشرقيين، ثم ظهر أن التنافس بين الرحالين المستكشفين يوشك ان يصعد بأثمان السلع الشرقية صعودا لا يقل عن صعودها من جراء الحجر عليها فى طريق البحر الابيض المتوسط وما اليه ، وظهر بعد ذلك أن النزول فى الموانىء لا يكفى لتحقيق البيع او تحقيق الشراء ، بل لابد معه من سيطرة على داخل البلاد لضمان الاحتكار وصد المزاحمين وقمع المقاومة من جانب الشرقيين أبناء البلاد ومن جانب الغربيين المنافسين فى التجارة والاستكشاف

ولما تقدمت معامل الصناعة الكبرى فى القارة الاوربية ظهرت مشكلة جديدة لم تكن فى الحسبان ، وهى مشكلة الحصول على الخامات وتصريف البضائع المصنوعة فى أسواق محمية من مساومة المنافسين ومناظرة المخترعين والمبتدعين ، وتفاقمت هذه المشكلة بعد أن أصبحت للغرب مصنوعات يرغب فيهــا الشرقيون ، وقد كانت المصنوعات الاوربية مزهودا فيها بينهم

قبل تقدم المعامل والآلات الصناعية الحديثة ، لان مصنوعات الايدى فى الشرق كانت أدق وامتن من مثيلاتها عندالاوربيين، وكانت مع دقتها ومتانتها اجمل منظرا ومخبرا على الاقل فى أذواق الشرقيين كما تعودوها على اشكالها المأنوسة منذ مئات السنين

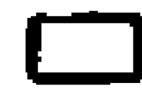
واختل الحساب فى كل مستعمرة من المستعمرات بلااستثناء من هذه الناحية : وهى ناحية الجمع بين طلب الخامات وتصريف البضائع المصنوعة ، فلم يتفق قط أن يتم الجمع بينهما فى مستعمرة واحدة تؤخذ منها الخامات وتباع فيها المصنوعات، وكثيرا ما وجدت الخامات فى بلادلاتنتفع بها صناعة مستعمريها، وكثيرا ما وجدت المصنوعات حيث لا توجد الاسواق ، وكثيرا ما اصطدمت المطامع والسياسات من أجل ذلك حتى وقعت الحرب غير مرة بين الدول المستعمرة وتبين منها – حتى فى ذلك العهد – ان خسارة الاستعمار أكبر من جدواه ، وانه لابد من الاتفاق على تقسيم الغنائم على وجه من الوجوه ، والا فلا غنيمة لاحد من المتنازعين على جميع الوجوه

وفى هذا الشوط ضمنت الدول الصغيرة أن تستبقى ماملكته على ضعفها منعا للنزاع عليه بين الدول القوية الطامعة فيه ، وتراضوا جميعا – جهد ما استطاعوا – على ترك كل نصيب لصاحبه واجتناب المنازعات الدولية فى هذا الميدان ، اكتفاء بالمنافسات التجارية أو بمناورات السياسة التى لاتنتهى الى الصدام او تجريد السلاح

الاحتكار

وتيسر الاحتكار بموافقة الجميع بعد أن كان احتكارا

مغتصبا أو مختلسا فى غفلة الآخرين ، فمن استولى على جهة من الجهات فهى له بأسواقها وأسعارها وخاماتها وبضائعها يرفع منها ما يرفع ويضع منها ما يضع كما يشاء ، وقد كان الاحتكار منذ البداءة ضرورة لا محيد عنها لكل من المستعمرين فيما استولى عليه ، ولكنه كان فى الوقت نفسه جرثومة الداء التى كمنت فى احشاء الاستعمار حتى قضت عليه بعد قرن واحد ، وانتهت به الى الباب المفتوح فى أواخر القرن التاسع عشر ، ذلك الباب الذى أريد به أن يفتح ليدخله المستعمرون جميعا فاذا به الباب الذى يخرجون منه تباعا ، ولا يزالون يخرجون !



لقد كانت حركة الكشف عن طريق التجارة المجهول أشبه شىء — كلها — بمحاولة التاجر أن يكشف عن سر الصناعة المجهول ليحتكرها ويذود المنافسين عليها . فكانت كل سفينة تصل الى بقعة من الارض تبادر الى رفع العلم عليها وتسجيلها باسم الدولة وباسم الكنيسة كأنها حوزة مغلقة فى وجوه الطارئين عليها من أصحاب الرحلات المتتابعة ، واستطاعت البرتغال واسبانيا ان تتفقا من مبدأ الامر على الاحتكار لانهما سلكتا فى الاستكشاف طريقين لا تنازع بينهما ، فاتجهت كشوف البرتغال الى الطواف حول افريقية واتجهت كشوف اسبانيا الى الطواف حول الكرة الارضية ، وكانت كلتا الدولتين من اتباع الكنيسة البابوية فحرصت الكنيسة على التوفيق بينهما وسد ذرائع النزاع التى اوشكت أن تشجر بينهما على اثر الرحلات الكشفية فى مجاهل الارض والماء ، وبلغت قسوة

الاحتكار أشدها فى الجهات المتفق على تركها لدولة من الدولتين ؛ فصدر أمر الملك حنا الثانى البرتغالى فى منتصف القرن الخامس عشر باغراق كل سفينة يلقاها عمال الدولة على سواحل غانة أو الاستيلاء عليها بغير سؤال ، ومتى استولت الدولة على سفينة غريبة وجب القاء من فيها من الربابنة والنواتية فريسة للقروش وحوش البحر المشهورة فى تلك المياه ، ولما اشتركت فى ميدان الاستعمار دول الغرب التى لا تدين بالطاعة للكنيسة البابوية ـ كانجلترا وهولنده ـ سلكت فى الاحتكار مسلكها الذى يوافق نظام الحكم فيها ؛ فأصدرت انجلترا عدة قوانين لتنظيم المعاملات الاستعمارية أشهرها القوانين الثلاثة التى اشتهرت باسم قانون الملاحة (سنة ١٦٦٠) واسم قانون التصدير (سنة ١٦٦٦) واسم قانون رسوم الزراعة (سنة ١٦٧٣) وحرمت بقانون الملاحة حمل البضائع التى تدخل بلادها أو تخرج منها على غير السفن الانجليزية ، وفرضت على كل سفينة أن تودع فى خزانة الدولة ضمانا ماليا تستصفيه الدولة فى حالة المخالفة ،واوجبت بقانون التصدير أن تكون البضائع المرسلة الى المستعمرات مشحونة من أحد الموانىء الانجليزية ، وفرضت بقانون الرسوم الزراعية ضريبة مقررة على جميع الغلال والمحاصيل التى تنقل من مستعمرة الى اخرى ، وامرت لاجل ذلك باحصاء جميع المزارع التى تنتج تلك الغلات والمحاصيل وحصر منتجاتها ومقادير الصادرات والبقايا المتخلفة منها . وقد كانت هذه القيود تسخط اناسا كثيرين من رعايا الدولة الانجليزية كما تسخط الغرباء الذين يعاملونها من أبناء الدول الاجنبية ، لان اصحاب السفن ايقنوا من اضطرار التجار

والزراع الى حمل البضائع على سفنهم دون غيرها فرفعوا الاسعار وغالوا بتقدير الاجور ، ولان احصاء المزارع قيد الزراع وحال بينهم وبين حرية الاختيار فى تقدير الاصناف والمساحات على حسب الظروف العاجلة ، واضاع فرص الربح فى غير الاسواق الانجليزية

وسلك الهولنديون مسلك الانجليز فى احتكار التجارة والزراعة لانفسهم فى مستعمراتهم ، فما استطاعوا منعه بالقوانين منعوه وشددوا فى تحقيق منعه ، وما بقى بعد ذلك من منفس للتجارة الحرة ضيقوه بالاجراءات الادارية والمحاكمات القضائية التى تنتهى بادانة المتهمين فى جميع الاحوال ، ومنها محاكمات اتهم فيها رعايا الدول الاجنبية بالتواطؤ مع ابناء البلاد الوطنيين على قلب نظام الحكومة وصدر فيها الحكم بالموت على المتهمين المعترفين بجريمتهم كما جاء فى الاحكام الصادرة عليهم

وتشبث المستعمرون بخطة الاحتكار فى كل بقعة من الارض وضعوا أيديهم عليها ولو لم يقدروا على الحاقها بدولتهم فى صورة من صور الاستعمار المصطلح عليها ، وأسلوبهم فى حكم السودان مثل من أمثلة الاحتيال على فرض الاحتكار على شكل من الاشكال حيثما تمكنوا من فرضه وملكوا السلطة القادرة على تحقيقه : فالانجليز قد دخلوا السودان باسم الحكومة المصرية وأعلنوا ذلك فرارا من مساومة الدول لاحفاظا على الحقوق المصرية . اذ كان فتح السودان باسمهم غنيمة تفتح أبواب المساومة على تبادل الغنائم وتتيح للدول المناقشة لهم ان تطالبهم بغنيمة مساوية لهذه الغنيمة فى عرف « المقايضات » السياسية ، ولكنهم لما فتحوا السودان باسم

مصر تعرضوا لمحظور آخر وهو محظور الامتيازات الاجنبية التى كانت عامة مرعية فى جميع البلاد التى كانت تدين يومئذ للسيادة العثمانية ، ومتى قبلوا تطبيق الامتيازات الاجنبية فى السودان غلت هذه الامتيازات أيديهم عن الاحتكار وجاز للأجانب جميعا كل ما يجوز للانجليز بحكم المعاهدات الدولية. فخرجوا من هذا المحظور بحيلة الاحكام العرفية التى ظلت مضروبة على السودان الى آخر يوم من أيام الانجليز فيــه ، وتأتى لهم بحجة هذه الاحكام العرفية أن يبطلوا ماشاءوا من النظم ويقرروا ما شاءوا من الاجراءات الموقوتة او الدائمـة لانهم فى حالة استثناء يباح فيها مالا يباح فى جميع الاحوال

وعلى الجملة يقــال أن الاحتكار والاســتعمار صــــنوان لا يفترقان . وينبغى أن نؤكد هذه الحقيقة كل التوكيد فى هذا المقام ، لانها تكشف القناع « اولا » عن حقيقة الدعوى التى روجها المستعمرون باسم امانة الرجل الابيض فى البــلاد الشرقية ، فانهم ذهبوا الى البلاد الشرقية متنازعين متقاطعين لا يطيق الرجل الابيض منهم ظل الرجل الابيض فى جــواره ما لم يكن شريكا له فى حصة من حصص الاحتكار

وينبغى توكيد هذه الحقيقة « ثانيا » لانها هى الحقيقة التى تفسر لنا نهاية الاستعمار فى أوائل القرن العشرين . فــكلما انقضى الاحتكار فى مكان انقضى فيه الاستعمار على أثره ، ويجوز لنــا أن نقول أن قوة الاستعمار تقاس بقوة الاحتكار ، وأنه كلما لانت قبضة الاحتكار فى بقعة من بقاع الارض لانت قبضة الاستعمار بمقدار ذلك ، فلا استعمار حيث تتساوى الفرص ويتساوى النفوذ وتتساوى الحكومة المستعمرة وغيرها من الحكومات الاجنبية فى علاقاتها بوطن من الاوطان

الباب المفتوح

وعلى غير اختيار من الدول قبلت سياسة الباب المفتوح بعد التفاهم على الاحتكار الصارم كل منها فيما ملكته من الارض أو ساومت عليه لاعتباره من مناطق نفوذها على سنة المبادلة والتقسيم ، وانما قبلت سياسة الباب المفتوح بعد التشدد فى الاحتكار لان هذه السياسة كانت بديلا من الازمات والقلاقل والحروب التى تتوالى نذرها وتعطل التجارة والصناعة جميعا ولا تنحصر أضرارها فى نقص الثمرات والارباح ، وظهرت فى « المحيط الدولى » أمم كثيرة لم يكن لها حساب فى ايام الكشف والاستطلاع والبحث عن طرق التجارة والاسواق ، فظهرت روسيا والمانيا وايطاليا والولايات المتحدة الى جانب انجلترا وفرنسا وهولنده وبلجيكا من كبار الدول وصغارها التى ورثت تركة الاستعمار وصمدت آخر الامر فى المضمار ، وليست هذه الدول الحديثة من هوان الشأن بالمكان الذى يتجاهله المستعمرون أو يحمدون العاقبة اذا تجاهلوه

وقد شعر المستعمرون بضرورة التفاهم على نظام من قبيل نظام الباب المفتوح قبل تطبيق هذا النظام على نطاق واسع فى السياسة العالمية ، فاتفقت فرنسا وانجلترا سنة ١٨٩٨ على نظام سموه بنظام « عدم التمييز » Non-discrimination فى نيجيريا وداهومى وساحل الذهب وساحل العاج ، وأعلنت بلجيكا نظام الفرص المتساوية فى مستعمرة الكونغو لتجمع من المكوس الجمركية بعض نفقات الولاية وتدفع حملات التشهير بمظالم الاستعمار البلجيكى فى المستعمرات الافريقية ، وانعقد مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ لتقرير نظام الباب المفتوح فى المغرب

الاقصى مع التفاهم على تقسيم مناطق النفوذ بين الفرنسيين والاسبان ، وتعددت فى الشرق الاقصى معاهدات الدول التى سميت بالمعاهدات الدولية أو المعاهدات القائمة على نظام الباب المفتوح ، واشتركت فيها انجلترا وفرنسا والمانياوروسيا والولايات المتحدة وغيرها من الدول الكبيرة أو الصغيرة،واصبح من النصوص المألوفة فى كل معاهدة تعقد مع الصين أن كل امتياز تمنحه الصين احدى الدول - فيما بعد - يعتبر امتيازا عاما لجميع الدول بغير حاجة الى تعميم النص باتفاق جديد . ثم جاء ميثاق عصبة الامم بعد الحرب العالمية الاولى فجعل نظام الباب المفتوح ركنا من أركان السياسة العالمية ومبدأ من المبادىء المقررة لحفظ السلام واتقاء الحروب،وقررت المادة الثانية والعشرون من الميثاق أن مسألة الوصاية على المستعمرات المحكومة مسألة دولية تنظر فيها عصبة الامم ويرجع الامر فيها الى لجنة دائمة من لجان العصبة تشرف على أعمال الدول ذوات الوصاية او الانتداب ، وتقرر بموجب الميثاق - ان حرية الشعوب من جميع الاجناس اصل من أصول الحقوق الانسانية مرهون بموعده القريب ، وان تقرير الاستقلال على درجات لا يبطل حق الاستقلال ولا يسقط دعواه ، بل هو اعتراف به لا اختلاف فيه الا أن يكون من قبيل الاختلاف على سن الوصاية فى معاملة بعض القاصرين

وليس عمل المؤرخ هنا أن يبحث عن نصيب هذه المبادىء من اخلاص الدول التى تعلنها او سوء نيتها فى اعلانها منذ اللحظة الاولى . فان تقرير المبدأ فى المعاملات الفردية أو المعاملات الدولية خطوة لا يستهان بها من الوجهة العملية الواقعية فضلا عن الوجهة النظرية او الادبية ، وقد يكون

الناس جميعا على دخلة سيئة فى أمر المبادىء الاخلاقية التى يعلنونها ويسرون غيرها بل ينقضونها بما يعملونه ويحتالون لاخفائه أو يجهرون به غير مكترثين ولا متحرجين ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نقول ان تقرير مبادىء التحريم فى الجرائم والمنكرات سواء والسكوت عنها او الجهر باباحتها واعفاء من يقترفها من العقوبة ، ومبدأ « الباب المفتوح » واحد من هذه المبادىء الهامة التى يقترن بها ولا شك تاريخ نهاية الاستعمار، ومسارعة الامم الى تقريره وتوكيده بعد الحرب العالمية الاولى يدل على حقائق كثيرة لامحل فيها للمغالطة ولا للنفاق ولا لحسن النية أو سوئها فى التنفيذ ، لإن العبرة بما تدل عليه من الوقائع المتمثلة فى شعور بنى الانسان ومن أجلها تقرر مبدأ الباب المفتوح فى الميثاق

والوقائع التى يدل عليها اثبات المبدأ فى ميثاق عصبة الامم أن العالم خرج من الحرب بأثر متفق عليه عن خطر الاحتكار على السلام ، وان الامم لا امان لها من حروب أخرى اذا بقى الاحتكار على علاته غير مستنكر وغير محدود ، ولا يكون هذا الشعور العالمى الا دليلا على مرحلة جديدة فى تاريخ الاستعمار يتبعها لا محالة عمل جديد ظاهر الاثر فى خطط الحاكمين وحقوق المحكومين

ضرائب الهجرة وضرباتها

ومما قيل عن الباب المفتوح انه سهم اصاب الاستعمار من يده . لان المستعمرين اضطروا الى فتح الباب اجابة لمطالب المستعمرين . ولكن الاستعمار قد أصيب من يده بأكثر من سهم واحد ، ومن هذه السهام ماهو إقرب مرمى وأشد

اصماء من مصــاب الاستعمار بسهم التنافس بين شركائه المتفرقين من شتى الدول والحكومات ، اذ كانت بعض هذه الدول تصاب بأيدى أبنائها وروادها المهاجرين الى الاطراف النائية بحثا عن الذهب أو بحثا عن الارض الصالحة للمقام ، ولم يسجل تاريخ الاستعمار فى خطواته الاولى ضربة اصابته فى صــميمه كالضربة التى جاءته من المستعمرات البريطانيــة والاسبانية فى بلاد العالم الجديد ، فان الثورة التى قضت على الاستعمار البريطانى فى أمريكا الشمالية انما كان قوامها أناسا من الانجليز يعاونهم مواطنون لهم من الهولنديين والجــرمان وسائر المهاجرين الى الشمال من الاوربيين ، وكذلك كانت ثورات الجنوب التى انتهت باستقلال الحكومات المختلفة فى القارة الجنوبية عن اسبانيا صاحبة السيادة عليها ، فقد كان قوامها من المهاجرين الاسبان والبرتغاليين وابنائهم المولدين ، ولو كان الاستعمار نظاما قابلا للدوام لمــا قضى عليه أبناؤه بأيديهم قبل انقضاء جيلين من تاريخ الهجــرة الى البــلاد المستعمرة ، وهكذا يأبى الاستعمار المشاركة فى المنفعــة ولو كان المشتركون فيها من جنس واحد او من أمة واحدة . فلما اختلف المستعمرون المقيمون فى اوطانهم والمستعمرون المهاجرون الى الاقطار النائية وجب أن يذهب احد الفريقين فذهب البعيد من الغنيمة وبقى القريب منها ، وثبت مرة اخرى ان الاحتكار قوام الاستعمار ، يعيش الاستعمار ماعاش الاحتكار ويموت بموته فى كل جوار

واقرب من هذا المرمى الى مقتل الاستعمار سهمه النافذ الذى أصيب به فى منبتة وبين ذويه وأوليائه . فالمهاجرون الى القارتين الامريكتين قوم منفصلون عن مقامهم الاول منقطعون

عنه فى مقام بعيد جعلوه لهم وطنا جديدا بديلا من الوطن العتيق ، ولكن المستعمرين ـ بعد قرن واحد من الزمان ـ منوا بالمعارضين لهم بين ظهرانيهم مقيمين معهم فى عقر دارهم مشاركين لهم فى ولاية الحكم أو فى الخضوع له حينا بعد حين ، ونعنى بهؤلاء جميع الطوائف التى كانت محرومة من الحقوق النيابية ثم حصلت عليها شيئا فشيئا من أواسط القرن الثانى عشر الى أواسط القرن العشرين

كانت أزمة الحكومات فى عصر الرحلات الكشفية محصورة بين ايدى المحتكرين للبقاع والضياع ومعهم بعض المحتكرين للغلات والثمرات التى تأتى من تلك البقاع أو من تلك الضياع. ثم نشأت حركة التجارة العالمية ونشأت على آثارها حركة الصناعة الكبرى فاتسعت دائرة الحكومة ودخل فى زمرة الحاكمين أناس لم يحسبوا قط من قبل الا فى عداد المحكومين الخاضعين لولاة الامر بغير مشورة وبغير صوت مسموع فى حالتى الرضى والسخط أو حالتى الموافقة والاعتراض . فلما تكاثر مع الزمن عدد المشتركين فى الحكم أصيب الاستعمار من مقتله القديم ، او اصيب ـ بعبارة اخرى ـ من جانب الاحتكار كما يصاب فى كل حين

ذلك أن الصناعة الكبرى قد نشأت وأنشأت معها اصحاب المعامل وعمالها المسخرين فى خدمتها ، وكان اصحاب المعامل وعمالها سواء فى مبدأ الامر فى طلب حصتهم من السلطة الحكومية ، ثم افترق هؤلاء وهؤلاء فأصبحت كل زيادة فى حصة العمال نقصا فى حصة أصحاب المعامل والاعمال ، وانتشر الامر على الاحتكار لازدياد حصص المطالبين بالمشاركة فيه ، ولكنه بقى زمنا فى بلاده وهو قادر على ارضاء هؤلاء

المطالبين ، كما بقى هؤلاء المطالبون زمنا وهم راضون باليسير او قانعون بما اصابوه كارهون

كان « انجلز » يقول أن العمال فى انجلترا عمال بالنسبة الى أصحاب الاموال فى بلادهم ولكنهم « برجوازيون » بالنسبة الى شعوب المستعمرات التى تملكها الدولة البريطانية ، لانهم يظفرون بالاجور العالية على حساب الايدى العاملة بالاجور القليلة من أبناء الشعوب المحكومة

وربما صح كلام « انجلز » فى جملته اذا نظرنا الى السياسة الاستعمارية التى صمد عليها العمال الانجليز بعد حصولهم على حقوق الانتخاب ووصولهم الى دسوت الوزارة ، ولكن الواقع أن اشتراك الكثيرين فى حقوق الانتخاب قد أصاب الاستعمار بالجرح القاتل الذى استطاع اخفاءه والصبر عليه فى أيام السلم الى مابعد الحرب العالمية الاولى ، ولكن الجريح الذى يحارب غير الجريح الذى يطوى جرحه فى سلام . فلم يحتمل هذا الاستعمار الجريح وطأة المجهود العنيف فى الحرب العالمية الاولى الا بشق النفس والمجازفة بالبقية الباقية من الرمق الضئيل ، فلما أعقبتها الحرب العالمية التالية بلغ الجهد مبلغه الذى لا تجدى فيه المغالطة والتسويف ، وانكشفت عقابيل الحرب عن استعمار جريح منزوف الجراح

وقد حافظ المحتكرون على غنائم الاستعمار يوم كانوا يحتكرونها وينفردون بجميع مواردها ، ثم حافظوا عليها يوم بقيت منها بقية مرموقة تساوى عناء المدافعة عنها ، ثم حافظوا على ـ الاستعمار بعد نفاذ غنائمه حقبة من الزمن لان شهوة الاستعمار فى اواخر عهده قد استحالت من الوجاهة النافعة الى الوجاهة الفخرية ذهابا مع التقاليد المأثورة والسمعة

الموروثة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على استعمارهم بعد أن لصقت به شبهة الحروب ووصمة النفاق ، وزالت منه حتى الوجاهة الفخرية بلا طائل ولا عوض ولا أمان

اسباب دينية

وهناك أسباب يصح أن تسمى بالاسباب الدينية لاتهمل في صدد الكلام على العقبات التي واجهت الاستعمار في خطواته الاولى وكان لها بعض الاثر في تعويق سيره أو اضعاف قبضته على ضحاياه ، وتتلخص هذه الاسباب الدينية في ارتباط سياسة أوربة الغربية بسياسة الكنيسة في عصر من أحرج عصورها واشدها اشتباكا بأزمات الخصومة والمقاومة ومحاولة الثبات في وجه التيارات العصرية التي كانت تجرى في غير مجراها ، ويكفى للابانة عن قوة هذه الاسباب أن نذكر أن ذلك العصر كان عصر محكمة التفتيش وعصر الانشقاق بين الهيئات الدينية والهيئات السياسية ، وكان فوق ذلك عصر النهضة الذي تضاربت فيه تيارات الفكر والمصالح الاجتماعية في كل اتجاه

وقد كانت أسبانيا والبرتغال من الدول التي ارتبطت سياستها بالكنيسة كل الارتباط ، وتليهما فرنسا في أحوال كثيرة غير الاحوال التي يتغلب فيها دعاة الثورة والانفصال ، وكانت الصبغة الدينية غالبة على سياسة الحكومات في أوربة الغربية وفي شبه جزيرة الاندلس على الخصوص لاشتباكها زمنا طويلا بالحروب المتوالية بينها وبين مسلمي الاندلس والمغرب الاقصى ، واستمرار هذا الاشتباك بعد رحلات الكشف حول القارة الافريقية حيث كان الرحالون

والـكشافون يصطدمون بالعرب خول القارة شرقا وغربا الى سواحل الهند الشرقية . وقد تقدم أن أميرا هنديا سأله « فاسكو دي‌جاما » عما كان ينشده برحلتـه الى الشرق فقال : «أبازير ومسيحيين» وتقدم أن الرحالين كانوا يسجلون حقوق الـكشف فى سجلات الـكنيسة لتخويلهم حق الفتح وحق الدعوة باسمها الى الدين . وحدث فى الاقطار الامريكية التى ارتادها الفرنسيون أن القساوسة كانوا يحرمون على مخالفى الـكنيسة دخول تلك الاقطار ويخرجونهم منهبا اذا دخلوها بغير اذن من المراجع الدينية ، ويرى بعض المؤرخين أن فشل الاستعمار الفرنسى فى العالم الجديد يعود الى هـذا الخطر الذى أبعد من ميدان التعمير والتوطين نخبة من ذوى الآراء المستقلة والامزجة القوية التى تشتد بين أصحابها نزعة التطلع الى التجديد

ومهما يكن من صواب هؤلاء المؤرخين فالامر المتفق عليـه بين المؤرخين أن اسبانيا والبرتغال ـ وتليهما فرنسا ـ كانت أقل الدول نجاحا فى تجارب الاستعمار ، وهـذه هى الدول التى بدأت تجاربها وهى مرتبطة بسياسة رومة فى أحرج أوقاتها وأثقلها بالاعباء بين مخلفات الامس ومغامرات الغـد المجهول

النهضات الوطنية

والمصاب الاخير الذى ابتلى به الاسـتعمار انما جاءه من فرائسه وضحاياه ، أو من حيث كان يحتسب المصاب الاول لو كانت حوادث هذه الدنيا تجرى على الترتيب فى حساب المترقبين والمتوقعين

وهذا المصاب على تأخيره فى الزمن لم يكن أخيرا فى قوته ولا فى خطره وبعد مرماه وسعة أثره . لان رفض الاستعمار من جانب فرائسه وضحاياه خليق أن يضارع جميع القوى الخارجية التى تحتمله أو تجاريه وتحيطه بالمساعدةوالتمكين

ولم تتأخر مقاومة الاستعمار من جانب المصابين به لانهم رفضوه بعد قبول أو انكروه بعد ولاء . فان كراهــة الحكم الاجنبى طبيعة فى النفوس لاتحتاج الى تعليم ولا الى تنبيه ، وما من انسان يحس أن أجنبيا يحكمه الا أحس مع هـــذا الاحساس البغيض بهوان فى نفســـه ونخوة تستثيره الى الغضب والمقاومة فلا يسلس قياده للحاكم الدخيل عليه . الا أن الاستعمار لم يغلب فرائسه وضحاياه بالخوف وحده فى مبدأ امره ، ولم يخضعهم بقوة الجيوش والاساطيل دون غيرها بعد الصدمة الاولى التى فوجئوا بها على حين غرة أو على غير علم منهم بمواطن ضعفهم وهزيمتهم ومواطن قوته وانتصاره . وما حدث قط فى تاريخ الصراع بين‌الشعوب أن قويا منتصرا أخضع قوما لسلطانه بمحض القوة المـادية أو رهبة السلاح دون سواها ، وانما يخضعهم ويطيل خضوعهم له أن يروعهم بشىء من الاعجاب يملأهم ثقةبامتيازه ورجحانه ويزعزع ثقتهم بأنفسهم بين يديه ، وكأنهم بذلك يعترفون له بالحق الذى يدعيه وينكرون على أنفسهم الحق فى مقـاومته وتحديه ، وهذا هو السلاح الاكبر الذى يصيب الضحيةبمثل الشلل النفسانى فلا تقدر على الحراك حتى تفيق من غشية ذلك الاعجاب

وهكذا حدث بين المستعمرين وضحاياهم بعد صـــدمة الاستعمار الاولى . فان‌هؤلاء الضحاياتمكن من‌نفوسهم شعور

مخيف برجحان المستعمرين عليهم فى العلم والنظام والقــدرة على تصريف الامور وتذليل العقبات وتــدارك الاخطار حتى خيل اليهم أن الخضوع لهم ضربة لازب وان التمرد عليهم ضرب من المحال

وكانت غاشية لا حيلة فيها بعد الصدمة الاولى ، ولـكنها لم تلبث طويلا حتى اخذت تنقشع من هنا وهناك وتتكشف عن الحقيقة كلما تكشفت للمغلوبين مواطن القوة فيهم ومواطن الضعف فى الغالبين ، ووضح بعد قليل أن الزمن مع المغلوبين وان العاقبة لهم بعــــد حين ، وزاد فى تمكين هــذه الثقة من نفوس ضحايا الاستعمار انها جاءت على مهل فترة بعد فترة ، ودرسا بعد درس ، ومحاولة بعد محاولة ونجاحا بعد نجاح ، فـكانت كالبناء الذى يرتفع على أساسه طبقة بعد طبقة ولا تعجل طبقة منه الى مكانها قبل أن تستقر دونه طبقة تسندها وتدعم جذورها

كانت فى أوربة نفسها حركات وطنية ظفرت بالاســتقلال فـكانت مثالا للقدوة ومبعثا للامل فى قلوب طلاب الحرية من الشرقيين

وانتصرت فى أبان سطوة الاستعمار دولة اليابان الشرقية على دولة من أكبر دول الغرب واضخمها اسما بين الشرقيين المصابين بالاستعمار على الخصوص ، وتلك هى دولة الروس القيصرية التى كانت تمثل العتو والطغيان على كل دولة مستقلة فى الشرق من تركيا الى ايران الى الصين الى اليابان

ونشبت الحرب العالمية الاولى فكانت كأنها المعركة فى بيت الارباب خرجت منها الاصنام المرهــوبة حطاما فوق حطام ، وجاءت هذه الاصنام فى خلالها تطلب النجدة من عبـــادها



غاندى

وتقضى على البقية الباقية من شعائر عبادتها ، فظفرت بالنجدة وضيعت معالم الربوبية، وخرج المنتصرون منها يملون الشروط على المنهزمين ويتلقون الشروط من رعاياهم المشاركين لهم فى بلائهم وانتصارهم المطالبين لهم بحصتهم ، وفاء بما كالوا لهم أيام الحرب من وعود وما أبرموه من عهود

وظل المستعمرون بعد الحرب الاولى فى حالة تتيح لهم ان يراوغوا فى انجاز وعودهم وعهودهم أو يعجلوا الوفاء بها فى كثير من التمويه والتزييف ، الى أن كانت الحرب العالمية الثانية ولما تندمل جراح الاولى ، فبلغ المطال بين الغريم والمدين غاية مداه . فلا مناص من احدى أثنتين : سداد أو افلاس

هذا كله وضحايا الاستعمار يتيقظون ويتقدمون ويضيفون دراية التعلم الى دراية الخبرة من مراس الحوادث ومعاملة الامم والاطلاع على حقائق الاحوال فى بلاد الاقوياء والضعفاء على السواء ، وانفع ماتعلموه فى هذه الآونة انهم عرفوا مبلغ قدرتهم على المقاومة والمطالبة وعرفوا انها قدرة لا يستخف بها القوى ولا تدعه على اطمئنان الى مافى يديه من غنائم الاستعمار واسلابه ، ولعلها لاتحرمه الغنيمة والسلب كل الحرمان ، بل لعلها غير مطلوب منها أن تجشمه كل ذلك الحرمان ، فانها اذا جعلت خسارته اكبر من ربحه وجعلت قلقه واضطرابه ارجح من أمنه واطمئنانه ـ كان ذلك حسبها من نجاح وحسبه من خذلان

واتبع التقدم فى المعرفة تقدم فى العمل والصناعة . فنشأت بين الامم المحكومة أعمال ناجحة يتولاها ابناؤها وصناعات متقدمة يملكها أغنياؤها ويديرها خبراؤها وصناعها ، ولعل المزاحمة هنا أيضا لم تبلغ بالصناعة الوطنية أن ترجح على

صناعة المستعمرين بعد طول العهد باتقان العمل وحسن الادارة وانتشار النفوذ اللازم للتصريف والترويج ، ولكن الصناعة الوطنية لايطلب منها أن تبلغ هذا المبلغ فى ميدان المزاحمة العالمية ، وانما يطلب منها أن تجعل المزاحمة عملا كثير الاعباء قليل الجدوى ، تزيد أعباؤه فى تكاليف الاستعمار واخطاره وتقلل من جدواه وضمان عقباه ...

ظاهرة طبيعية صغيرة تقرب الينا صورة هذه الظاهرة المتشعبة فى أطوار الانسانية وان كانت لا تماثلها فى جميع خصائصها : أن الضغط الجوى يهشم القدح الصغير اذا خلا هذا القدح من الهواء ، ولكن هذا القدح الصغير لا يحتاج الى مقدار من الهواء كالمقدار الذى يخفق فى أجواء الفضاء ليدفع عنه ضغطها الساحق ، بل يكفيه ملؤه من هواء ليحمى نفسه من السحق ، ولو كان من زجاج أو ورق هزيل

فما هو الا أن امتلأت أمم الاوطان المستعمرة بقوتها الوطنية حتى تسنى لها أن تصمد فى المقاومة وتأمن السحق والفناء فى مقاومتها ، وسرت عدوى المقاومة الى الاوطان التى تخلفت عن سائر الامم المحكومة التى تقدمت فى مضمار العلم والحضارة ، فنهضت للمطالبة بالحقوق شعوب لم تكن لتجسر على رفع الصوت لولا صدى الاصوات التى سمعتها من زميلاتها فى الاسر والضيق ، وشوهدت آثار هذه العدوى الصالحة بين الشعوب الاسيوية والشعوب الافريقية فى أوقات متقاربة ، فهبت للمطالبة بالاستقلال التام شعوب كانت تقنع بالحكومة الذاتية وترضى بشكل من اشكالها المحدودة لو لم تسبقها زميلاتها وشبيهاتها الى نصيب أوفى من نصيبها وحرية أوسع من حريتها

وسرت العدوى بين الطرف الآخر كما سرت بين هذا الطرف المغلوب : سرت الى المستعمرين فاضطرت أشدهم قسوة الى التخفيف من قسوته ، وجعلت حاكم الشعوب المتخلفة حريصا على الاقتداء بحاكم الشعوب المتقدمة فى أساليب الترضية والمحاسنة او فى أحابيل التهدئة والمراوغة ، وفعلت هذه العدوى المحتومة فعلها المشكور فى تخفيف القيود وتحسين الاحوال

هذه النهضات الوطنية كانت ولا ريب أهم العوامل التى ضعضعت قوى الاستعمار فيما مضى ولا تزال تجهز عليه فى دور النزع والاحتضار ، فلولا هذه النهضات الوطنية لما كانت سائر العوامل العالمية كافية لاخراج المستعمرين من مستعمراتهم فى هذه الفترة الوجيزة بالقياس الى أعمار الشعوب ، ومهما يكن من كثرة المصاعب حول المستعمرات فالحاكم المطمئن الى داخل مستعمرته خليق أن يصبر على المصاعب الخارجية وأن يطاولها فترة أخرى ، موكولا الى مشيئته بعد ذلك فى البقاء أو الخروج

فالنهضات الوطنية ـ وان لم تكن هى العامل الوحيد الذى قضى على الاستعمار ـ قد كانت هى العامل الوحيد الذى لا غنى عنه فى النهاية للقضاء عليه

الا أن هذه النهضات قد لقيت من الظروف العالمية أقوى المشجعات وأنفع الاعوان ، وسواء جاءت هذه الظروف العالمية مقصودة أو غير مقصودة فهى ولا ريب قد وجدت فى أوانها وحققت فوائدها بتدبير مقصود أو على الرغم من كل تدبير مقصود ...

كان من دواعى القضاء على الاستعمار ان العلاقات العالمية

قد أخذت فى الاتساع والاشتباك قبل أن يستقر الاستعمار على قرار وطيد .

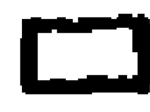
وكان اشتباك العلاقات العالمية أول أسباب النزاع بين المستعمرين الاقوياء ، فكان هذا الاشتباك ــ من ثم ــ أول مسالك « الباب المفتوح » واشدالضربات التى أصابتالاحتكار فى مقتله من ايدى الاقوياء

ولم تزل العلاقات العالمية تشتبك بين الاقطار المتباعدة بمواصلات البر والبحر والهواء ، ولم تزل مع هذا تشتبك بمعاملات التجارة والصناعة ومطالب التصدير والتوريد ، ولم تزل مع هذا وذاك تشتبك بالاخبار المسموعة والمقروءة التى تملأ الكرة الارضية فى صباحها قبل أن يهبط عليها المساء أو فى مسائها قبل أن يشرق عليها الصباح ، فاصبحت كل بقعة من بقاع الارض عصبا فى جهاز واحد من بنية واحدة تضطرب فى اقصى العالم هنا فيضطرب لها اقصاه من هناك ، واصبحت كل أمة تسكن فى بقعة من تلك البقاع شيئا محسوسا حاضر الاثر فى السياسة العالمية لايتجاهله الاقوياء ولا يخرجونه من الحساب ، بل ربما أخرجوا من حسابهم أمثالهم الاقوياء ، لانهم فرغوا من أمرهم واستعدوا لهم بعدتهم وتربصوا بهم الى حتفهم فلا حيلة فيهم ولا علاقة بينهم غير العداء السافر أو العداء المستور . اما الامم الضعيفة فلا غنى لهم عن ارضائها على وجه من الوجوه ، وليس فى وسعهم أن يحتاطوا لها أو يأمنوا اذاها فى أحرج المواقف واعنف الاوقات ، وماذا يمنع الامة الضعيفة مثلا أن تعرقل مواصلاتها أياما يتوقف عليها مجرى القتال فى أكبر الميادين ؟ وماذا يمنعها أن تعرقل سيل البترول من ينبوعه الى مصبه القريب أو

البعيد ؟ وماذا يمنعها أن تعرقل التموين باحتجاز ما عندها أو احتجاز المؤنة العابرة فى أرضها ؟

كل هذا واشباهه سهل على الامم الضعيفة فى أبان الحرج، وكله مما يخشاه الاقوياء ولا سبيل لهم الى اتقائه الا باستعمار العالم بأسره وهم لايتفقون عليه ، أو باسترضاء الضعفاء وهذا الذى اضطرتهم الحوادث اليه

بل قد اضطرتهم الحوادث كارهين فى مآزق الحرب العالمية الى امداد الامم المغلوبة بالسلاح لمقاومة أعدائهم وأعدائها من المستعمرين الآخرين . فسلم اليابانيون أسلحتهم للوطنيين فى أندونيسية حين حاقت بهم الهزيمة ، فكانت هذه الاسلحة عونا قويا لابناء البلاد فى مناضلة الهولنديين ما كانوا ليظفروا به طواعية من طغاة اليابان ولا من طغاة اوربة لولا هذا المأزق الذى لا حيلة لهم فيه ...



وعلينا أن نذكر هذه العبرة ــ عبرة العوامل المشتركة ــ عند البحث فى أطوار التاريخ العظمى التى تشمل بآثارها أمما كثيرة ولا تنحصر فى أمة واحدة

فالنهضات الوطنية ، ونهاية الاحتكار ، واشتباك العلاقات العالمية ، كلها أطوار متساوقة متقاربة فى أوقاتها وآثارها ، لا يعمل منها عامل واحد بغير مساندة من العوامل المصاحبة له فى أوانه ، ولا يتأتى أن تنفصل وتتفرق فى مواقيتها لانها بطبيعتها تنبع من مصادر كثيرة ولا تجرى فى مجرى واحد

على أن الاستعمار أنواع شتى تختلف مصائره باختلاف أنواعه واختلاف اطوار الحوادث فى كل نوع منها

واشهر أنواع الاستعمار هي الاستعمار الاقتصادي واستعمار التوطن واستعمار الموقع أو الاستحكامات العسكرية ، وقد كان للاطوار العالمية أثر فى كل نوع من هذه الانواع غير الاثر الذى تعرض له النوع الآخر ، وان كانت كلها تتجه الى الادبار وتشعر كل يوم بمشقة جديدة فى سبيل الاحتيال على البقاء بين التيارات المتعارضة

أصبح الاستعمار الاقتصادى كبير التكاليف بين المزاحمة من جهة والمقاومة من جهة اخرى ، فانهدم من اساسه بكثرة تكاليفه ، لانه لايكون استعمارا اقتصاديا اذا لم يكن يسير التكاليف موافقا لاول مبادىء الاقتصاد

أصبح هذا الاستعمار الاقتصادى خسارة صريحة أو ربحا يسهل الاستغناء عنه عند النظر الى نفقاته واعبائه ، ومنها نفقات الحراسة والمقاومة والاستعداد الدائم لمطالب الدفاع أو مطالب الهجوم ، واذا أضيف الى هذه الاعباء أن الدولة التى تستأثر بحكم المستعمرة لا تستأثر باسواقها ولا بخاماتها ولا بسياستها الخاضعة على نحو من الانحاء لدواعى السياسة العالمية — فهى فى الواقع لا تستأثر بشىء غير متاعب الحكم ونفقاته ، وما بقى للدولة الحاكمة بعد هذه المتاعب ذهبت به منافسة الصناعة الوطنية وارتفاع أجور الايدى العاملة فيها حقبة بعد حقبة ، فلا اختيار لهذه الدولة بعد الموازنة بين الصفقتين غير الجلاء والتراجع بسلام

والمخرج من استعمار التوطن اصعب من ذلك كثيرا فى جميع الاحوال وعلى جميع الفروض ، ايا كانت نتيجة الموازنة بين الصفقتين من خسارة صريحة أو من ربح متعب محفوف بالاخطار ...

فاذا كان فى البلد المحكوم مليون من المستعمرين الاجانب يملكون فيه الارض والمرافق ويزرعون فيه ويتجرون فليست المشكلة هنا مشكلة ربح أو خسارة ، ولا هى مشكلة ربح بثمن بخس أو ربح بثمن غال ، ولكنها مشكلة الجلاء الذى يقتلع المستعمرين من جذورهم أو البقاء الذى يدغمهم فى سواد الامة المحكومة على طول الزمن طائعين أو كارهين

ولكن ماهى النهاية على أية حال ؟ اذا كان جلاء المليون عسيرا فأعسر منه فناء عشرات الملايين ، وبخاصة حين يكون الزمن الى جانب هؤلاء الملايين ومعه الظروف العالمية وظروف السياسة الداخلية فى البلد المسيطر على المستعمرة ، فلا نهاية لهذا النضال غير التسليم بحقيقة الحال ، وحقيقة الحال ان الاجنبى المستعمر مغلوب على الحالين فى الحل والترحال ، كيفما كان المآل

اما استعمار الموقع ، او الاستحكامات العسكرية ، فلا فائدة فيه للدولة القوية الا اذا توافرت له شروطه الضرورية ، واهم هذه الشروط ان تشعر الامة الضعيفة باشتراكها فى الخطر الذى يدعو الى استخدام ذلك الموقع عند وقوع الحرب او قبل وقوعها فى أيام السلام ، فاذا كانت الامة الضعيفة لاتشعر بخطر يهددها فالدولة القوية التى تحتل مواقعها على الرغم منها تحارب عدوين بدلا من عدو واحد ، وليس هذا من الحيطة التى يطمئن اليها المستعمرون ، ولا سيما الحيطة فى ابان القتال

ومن الشروط الضرورية لاستعمار الموقع ان يوافق المصالح الاقتصادية لكلا الطرفين ، وان يقترن — مع تبادل المصلحة — بتبادل الرضى والاحترام ، والا يكون استخدام الموقع

افتياتا على حرية الامة التى تملـــكه وتملك الحق فى الاذن باستخدامه عند لزومه ، والا تساوى عنـــدها الطرفان : من يستولى على الموقع احتياطا قبل القتال ومن يستولى عليـــه اغتصابا بعد الفراغ من القتال

ومن الشروط الضرورية لاستعمار الموقع فىعصر الملاقات العالمية أن تكون له صبغة عالمية مشتركة ولا تكون المصلحة فيه مقصورة على دولة واحدة ، وبهذه الصفة يمتنع فيـــه التحكم والاضطرار ويجرى العمـــل فيه على سنة الوساطة والتحكيم بين الشركاء كما يجرى بين الانداد والنظـراء ، ولا تزيد فيه حقوق احد الا بمقدار ماتزيد الفروض والواجبات باتفاق معروف بين الجميع



وصفوة القول فى مصير الاستعمار ان العالم يشهد فىالعصر الحاضر نهاية الاستعمار بجميعأنواعه ، وانه منته الى الزوال لا محالة كلما ظهر للاقوياء والضعفاء أن اثمه أكبر من نفعه وأن علاقة التفاهم والاختيار اسلم للاقوياء من علاقة الارهاب والاغتصـــــاب ...

النموذج الجديد

الولايات المتحدة الامريكية هى النموذج الجديد للدولة العالمية منذ الربع الثانى للقرن العشرين

وهى أقوى دول الارض واغناها واكثرها اشتباكا بالمصالح والعلاقات فى أنحاء العالمين القديم والحديث

هذه هى الدولة التى كان الساسة فيها يتناقشون الى مابعد قيام عصبة الامم فى امكان العزلة أو امكان المضى على تطبيــــق مذهب «مونرو» بشقيه فلا يد للاوربيين فى قضايا امريكاولايد لامريكا فى قضايا الاوربيين

وينقضى جيل ـ أو دون الجيل ـ واذا بهذه العزلة ممكنة ـ ان أمكنت ـ فى كل دولة الا فى دولة الولايات المتحدة

ولا حجة اقوى من هذه الحجة على سلطان القضاء الالهى فى شئون الدول وشئون بنى الانسان على التعميم

وهذا النموذج الجديد يأتى بدور سياسىمفروض على الدولة التى تمثلهكما هومفروض علىالدول التى تناصرها أوتعارضها. فاذا قال قائل ماذا يريد هذا الســــياسى أو ماذا يعنى ذلك البرنامج ، فمن الحتم اللزام عليه أن يسأل مع هذا السؤال : وماذا يستطيع ان أراد ؟ وماذا يحدث على غير تقدير اذا حدث هذا الحادث أو ذاك على حسب التقدير

ان الولايات المتحدة عرفت أدوار الاستعمار جميعا وان صحبت أشواطا منه فى منتصف الطريق ولم تصحبها من أوائل الطريق

كانت مستعمرة للتوطن والاستغلال والهجرة ، وكانت تنازع ابناء امريكا الاصلاء وتأبى أن ينازعها الوافدون الدخلاء ، من غير المهاجرين الاولين

وشغلها الخلاص من «الاستعمار الاوربى» فى تاريخها الاول عن الدخول فى ميدان الاستعمار والمغامرة مع المستعمرين ، ثم شغلتها حروب التوحيد والتوطيد عن السياسة الخارجية فى غيرهذه القضية ، ثم شغلها بعد ذلك أن تحمى نفسها من الاغارة الجديدة فشرعت لها مذهبا يحرم علىالاوربيينأن يحتلوا أرضا من العالم الجديد أو يتدخلوا فى مشكلاته بقوة السلاح،واوشكت ان تجعل «التعامل» معه محرما على غيرها لولا أن التعـــامل الاقتصادى فى تلك الحقبة على الخصوص لم يكن قابلا للتقييد

وبادرت الدولة البريطانية الى الاعتراف بمذهب «منرو» وتأييده فى شئون القارة الامريكية ، لانها تكسب بذلك حماية البقية الباقية لها فى امريكا الشمالية وامريكا الوسطى ، وبعض أطراف الجنوب

واستراحت الولايات المتحدة الى هذا الاعتراف لانه أعفاها من العناية بحراسة المحيط الاطلسى،فتحولت بعنايتها الخارجية جميعا الى المحيط الهادىء ، أيام ان كان هذا المحيط الهادىء «بحرا هائجا» لاهدوء فيه

كانت الدول الاوربية قد تزاحمت على استعمار الصـــين واكتساب الرخص والامتيازات فى مرافقها الداخلية ، وكانت اليابان تتحفز للهجوم على القارة الاسيوية ، وروسيا من الطرف الآخر تتحفز لتعويض نصيبها من المستعمرات بعد أن حيل بينها وبين مضايق البوسفور والدردنيل ورصدت لها انجلترا

قوتها عند خليج فارس وعلى الطريق الوسطى الى الحـــدود الهندية حتى بلاد الافغان

وفى أثناء ذلك كانت الولايات المتحدة تفعل كل ما تستطيعه لتوسيع رقعتها فى القارة الامريكية ، بالتعاهد والشراء أو بالقوة اذا تعذر الاتفاق على التعاهد والشراء ، واشترت «الاسكا» فى سنة ١٨٦٧ من روسيا ، وحاربت أسبانيا سنة ١٨٩٨ من جراء الفتنـــة فى جزيرة «كوبا» فأســـفرت الحرب عن نزع جوام وبورتريكو وجزر الفلبين من الدولة الاسبانية وضمها الى أملاك الولايات المتحدة ، ثم استتبع ذلك أن تضم اليها جزر «هواى» تلبية لدعوة المتوطنين من رعاياها

فلما جاء دور الدولة الجديدة فى استعمار آسيا الشرقية لم يكن لها موضع بين أمهات الاستعمار السابقات الى الصين،وكان التنازع على الرخص والامتيازات قد أوشك غير مرة أن يجر الغرب كله الى الحرب فى الميادين الاسيوية والميادين الاوربية ، فأصبح استعمار الفتح والاحتلال بابا مغلقا فى وجه الطـــامع الجديد وبابا خطرا يخشاه الطامعون الاقدمون،وقادت الولايات المتحدة حملة « الباب المفتوح » فى تقسيم المرافق الصينية . فكل رخصة تعطاها دولة من الدول تعتبر رخصة عامة على التساوى بين الدول جميعا ، بغير حاجة الى نص مكتوب

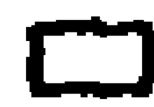
والى هنا كانت الولايات المتحدة قد اشـــتركت فى أدوار الاستعمار على أنواعها الحديثة ، من الفتح الى التوطن الى الهجرة الى صفقات البيع والمقايضة الى «الاســـتعمار الجماعى» على برنامج الباب المفتوح

لكنها تخرج الآن من الحرب العالمية الثانية بنموذج جديد

لاتقوى على منافستها فيه دولة من الدول العالمية ، فلا تزال سياسة الباب المفتوح أوفق السياسات لها فى محاولات النفوذ العالمية ، لانها اشبه بالسباق المفتوح أمام الخيل جميعا ، وعلى راسها الجواد السابق فى جميع الاشواط

فهى اليوم تحتاج الى كف الآخرين عن احتكار المستعمرات ، لانها تكسب ولا تخسر بالكف عن الاحتكار ، وليس مما يطيب لها ـ بداهة ـ أن ينعم غيرها باحتكار سوق من الاسواق وتتلقى هى النتائج التى يؤدى اليها الاحتكار والتنازع عليه ، ومن هـــذه النتائج حرب عالمية لا تملك العزلة فيها كما كانت تملكها الى عهد غير بعيد

وقد يحتاج صاحب الحانوت الى احتكار سوق من الاسواق اذا كانت له بضاعة فيها ينافسها النظراء ويقدرون على ترويجها بسعر أرخص من سعره ووسيلة أيسر من وسيلته ولكن هـــذا الاحتكار أبغض مايكون الى التاجر الذى يعرف ثروته ويعرف قدرته ويعرف ان اطلاق الاسواق جميعا يكاد أن ينتهى الى احتكارها له على اضطرار من البائع والشارى فى نهاية المطاف



ومن لغو الفضول أن يضاع الوقت فى اثبات الغرض لـــكل دولة تعمل فى سياسة العالم باسم المصالح العالمية او باســـم المصالح الانسانية أو باسم المصلحة القومية سافرة ظاهرة بغير تورية ولا تزويق . فان عمل الدولة لغرض من الاغراض حقيقة مفروغ منها لاتحتاج الى اضاعة الوقت فى الجدل بين الاثبات والانكار ، وبعد ألفى سنة من الآن قد توجد دولة كبيرة ــ ان بقى المجال للدول الكبار فى ذلك الزمن ــ فيوجد معها لا محالة

غرض تسعى اليه وتقدمه على أغراض تناقضه وتدابره ، ويقول القائلون ما شاءوا عن خدمة الانسانية أو خدمة العالم فهذا لا يمنع أن يكون للدولة أسلوب فى الخدمة يخالف أساليب غيرها وأن يكون غرضها من السطوة والثروة هو الغرض المقدم على سائر الاغراض فى زمانها ..

أما النموذج الامريكى من الدولة العالميـــة فالذى تبين من دوافعه التى يقصدها ، ومن الدوافع التى ينساق اليها ، انه يرمى فى سياسته الخارجية والداخلية الى اغراض منوعة أهمها الاغراض الثلاثة التالية :

فالغرض الاول ــ هو كسب النفوذ فى السياسة العالميــة والانتفاع فى سبيل ذلك بكل ما لديه من الوسائل الاقتصادية والادبية

والغرض الثانى ــ احباط الدعوة الشيوعية وضرب الحصار عليها للرجوع بها الى أضيق حدودها

والغرض الثالث ــ تخفيف الضغط الداخلى الذى يتجدد على الدوام من فرط التضخم المالى فى الاسواق الامريكية ، فان ارسال التبرعات والمعونات الى الخارج مصرف ضرورى للاموال المتجمعة فى بلاد الولايات المتحدة ، وكل زيادة فى هذه الاموال داخل البلاد فهى زيادة فى الغلاء وزيادة فى أزمات الاجور والعمل وفى الاخطار الاجتماعية التى يخشى أن تنفجر من وراء هـــذه الازمات ..

والذى يعنى أبناء الامم العالمية من هذه الاغراض الثلاثة هو الغرض الذى يرمى الى تغليب النفوذ الامريكى على سياســـة العالم . فان حماية النفس توجب على أمم العالم أن تحول بين

هذا النفوذ وبين الطغيان على حرياتها وحقوقها وشعائر استقلالها، وأن تحول النفوذ الامريكى الى مصلحة عالمية بدلا من تحويل المصلحة العالمية الى نفوذ غالب للدولة الامريكية

ولقد وجدت فى الكرة الارضية وسائل المقاومة لهذا النفوذ يوم وجدت له وسائل الغلبة. واستطاعت دولة واحدة أن تجمع من السلطان ما لم يجتمع لدول كثيرة ، مما يوشك أن يجعل السلطان حكرا لها فى العصر الذى ينقضى فيه حكر الاستعمار

ووسائل المقاومة فى هذا الميدان منوعة غير مطردة فى كل قضية ، ولكنها تئول فى القضايا جميعا الى هذه الوسائل الثلاث

و«أولها» الاستقلال القومى ، فانه فى هذا الزمن الحديث قوة يعترف بها الواقع قبل أن تعترف بها النصوص والمواثيق

والوسيلة الثانية هى التعاون بين الشعوب التى تصبح بالتعاون قوة عالمية تثبت كيانها أمام كل دولة عالمية يكون لها من القوة والثروة فوق ماينبغى لدولة واحدة

والوسيلة الثالثة هى الانتفاع بظروف الدول القوية فى حالتى الاتفاق والافتراق ، أو هى الانتفاع بالاوضاع العالمية الحديثة التى جعلت كل أمة صغيرة قادرة على عمل نافع أو ضار يحسب الاقوياء حسابه فى ظرف من الظروف

ويحاول بعض الساسة أن يلقى فى روع الامم أن «الحيدة» فى سياسة العصر العالمية مستحيلة ، أو ممكنة بالثمن الذى يجعلها فى حكم المستحيل

والحيدة فى رأينا مستحيلة بين الشيوعية والديمقراطية

ولكنها غير مستحيلة بين الدول والحكومات فى قضايا العالم متفرقات

فليس كل ماتعمله أمريكا ديمقراطية ، وليس كل ماتعمله

روسيا شيوعية ، وليست كل قضية من القضايا مقطع الفصل بين العقيدتين

وينبغى أن تكون الحيدة بصيرة على كل حال ، فان الحيدة العمياء كالتشيع الاعمى خبط عشواء لايفرق بين الاعداء ولا بين الاصدقاء



وننتهى الى الوضع الصحيح لكل دولة عالمية منذ منتصف هذا القرن الى أن تتبدل الاحوال على نمط جديد غير نمطها الاخير

ان المسألة كلها لتعزى اليوم الى مسألة نفوذ بوسائله ومسألة مقاومة بوسائلها التى تجدى فى كل حالة من حالاته

ومتى وضعت القضية فى موضعها هذا فليس فى الامر فلسفة مبادىء ولا برامج دعوة ولا رأى يقبله هذا ويرفضه ذاك

فأيا كانت الفلسفة أو كان البرنامج أو الرأى ، فالذى عنده النفوذ يفعل به ما هو قادر عليه ، والذى يحذر ذلك النفوذ يفعل كل ماهو قادر عليه لدفعه واتقاء ضرره

ويشاء حظ العالم أن تكون وسائل النفوذ العالمى مقرونة بوسائل المقاومة العالمية ، ولا عبرة اليوم أو غدا باختلاف العناوين فى كل قضية تخص بعض الامم أو تعم الامم جميعا ان هى الا أسماء

وبعد

وبعد فقد مرت بنا فى الصفحات الماضية صورتان فيهما ملامح واضحة ــ وان تكن موجزة ــ لكل من الاستعمار والشيوعية فى وضعهما الصحيح من تاريخ العصر الحاضر

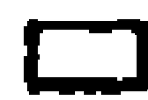
فالاستعمار حركة من حركات التاريخ الدولى بلغت نهايتها وفقدت حجة وجودها

ومن فقدان حجة وجودها أنها لاتستند الى مبدأ ولا تدعيه . فلا يوجد اليوم من أساطين الاستعمار من يقول أنه مستعمر أو يقال عنه انه مستعمر فيقبل هذه التسمية . ومن كان من المستعمرين يتشبث بدعوى القوامة من الجنس الابيض على سائر الاجناس فهو يلوذ بهذه الدعوى من مكان الى مكان ويكاد يقصرها على أرجاء من القارة الافريقية فى السنوات الاخيرة ، وتضطره وقائع العالم وأطوار الشعوب التى يعاملها الى التحفظ الكثير فى استغلال دعواه . فهو لايستطيع «أولا» أن ينكر حق شعب من الشعوب فى حكم نفسه وان راوغ فى تقدير الوقت الذى يتولى فيه حقه ، وهو لايستطيع «ثانيا» أن يستأثر بأمانة الرجل الابيض لدولة واحدة تنهض بها من عند نفسها بغير موافقة من زميلاتها فى الاستعمار ومن زميلات الامة المحكومة فى مقاومة الاستعمار ، وهو لايستطيع «ثالثا» أن يبنى دعواه كلها على أمانة الرجل الابيض موكولة الى دولة واحدة أومجموعة من الدول ، بل يحاول جهده أن يقرن هذه التعلة «الادبية» بتعلة واقعية تدور على دعوى السلام العام والحيطة المشتركة لمدافعة

الاخطار العالمية ، وهو ــ بعد هذه الضروب الكثيرة من التحفظ والروغان ــ يحاول بما فى وسعه أن ينشىء له مع الامة المحكومة علاقة غير علاقة السيد والمسود ، وقد تكون هذه العلاقة قائمة على الاشتراك فى «الكومنولث» أو فى مجموعة دولية واحدة أوفى اتحاد بين أعضاء على درجات متقاربة من المساواة

واذا كان الاستعمار قد فقد مبدأه عند أصحابه فهو من قبل ذلك لم يكن له مبدأ يستند اليه عند ضحاياه . فلم يوجد من قبلَ ــ ولن يوجد اليوم ــ انسان ينتمى الى بلد مغلوب ينادى بمبدأ الاستعمار ويتردد فى وصف العاملين على خدمته فى بلادهم بصفة الخيانة والاجرام

حركة من حركات التاريخ قد صارت الى نهايتها وأصبحت اليوم بغير قوام تستند اليه غير الواقع الذى يتراجع أمام واقع أعظم منه وأجدر بالثبات فى مجرى الحوادث. فليس للمستعمر اليوم مبدأ يسوغ به مطامعه وليس لهذا المبدأ قيمة السند المرعى عند من ينتفع به فضلا عن المنكوبين بدعواه



هذا هو وضع الاستعمار فى التاريخ الحديث

أما الشيوعية فهى استعمار وشىء آخر غير الاستعمار

ومصير الشيوعية المستعمرة كمصير الحركة كلها فى مراحلها التاريخية ، ولكنها تختلف كثيرا فى أخطارها لانها لاتأتى بأخطار الاستعمار خالصة من أخطار الدعوة التى تعم المستعمرين الشيوعيين وضحاياهم على السواء

فاذا علمنا أن الاستعمار قد فقد حجته وضيع مبدأه الذى يستند اليه ــ فالشيوعية تدعو الى مبدأ وتنادى بأنه هو المبدأ

الذى لامبدأ غيره بعد حين ، وحجتها اذا حبطت فى الحاضرأنها تعمل للمستقبل وترجو من النجاح فيه مافاتها أن تدركه فى خطواتها الاولى

والخطر من الشيوعية أنها تفقد ضحاياها القدرة على المقاومة، لانها لاتبقى لهم تلك الكرامة القومية التى تجمعت ومازالت تتجمع بين أبناء الامم المحكومة حتى اقتلعت الاستعمار من جذوره وتكاد تقتلع تلك الجذور من كل أرض نبت فيها

فالاستعمار فى الهند لم يقدر على استئصال عناصر المقاومة ولم يزل يثير سخط الهنود عليه حتى تألبت منهم أمة متفقة فى كراهته معتزة بكرامتها على سلطانه،ولكن الامة من الامم لاتبتلى بالشيوعية بضع سنوات ثم تبقى فيها بقية للكرامة الوطنية تحفظ كيانها وتعيد لها أركانها ، لانها تمحو الامة ولا تبقى منها غير قطيع من الطغام المهازيل لايشعرون بعاطفة عامة تجمعهم وتهدد سادتهم ، وما يشعرون به من «عاطفة» الحسد والقحة فانما يثيرهم على النعمة والمزية ولا يثيرهم على الطغيان والجبروت ، ويستغله السيد الغاصب المنتفع بطغيانه وجبروته على أيسر الوجوه بقليل من شقشقة اللسان وكثير من سموم الضغينة والشنآن

والكلمة الاخيرة فى هذه العجالة أننا اذا عرفنا مساوىء الشيوعية والاستعمار فلا محل عندنا للشيوعية والاستعمار ، فانهما شران لاتبقى منهما بقية ويبقى معها خير لامة شرقية ، وكل ما بين الشر والشر من فارق فهو الفارق فى الجهود التى تلزمنا للتيقظ له والحيطة منه والسعى الناجح للخلاص من فعله ومن دعواه

فهرس

صفحة



الكتاب القادم

قصة الوحدة العربية

بقلم
أنور السادات

يصدر فى ٥ ديسمبر

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج انيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما ـ ما عدا كتابى زينب ومع الله فى السماء وابتداء من كتاب « قال الرئيس » (العدد ٧١) ١٠٠ مليم ـ بخلاف مصاريف البريد المسجل ، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

١ ـ عبقرية محمد (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٢ ـ ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

٣ ـ هرون الرشيد (نفدت)
تأليف المرحوم الدكتور احمد أمين

٤ ـ أبو الشهداء (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٥ ـ جنكيز خان
سفاح الشعوب (نفدت)
تأليف ف . بان

٦ ـ قلب النسر
تأليف أوكتاف اوبرى

٧ ـ السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد ابو حديد

٨ ـ غاندى : القديس الثائر ((نفدت))
تأليف لويس فيشر

٩ ـ زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

١٠ ـ الزعيم احمد عرابى (نفدت)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ ـ بطلة كربلاء (نفدت)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

١٢ ـ اشعب أمير الطفيليين (نفدت)
تأليف توفيق الحكيم

١٣ ـ نفرتيتى ربة الجمال والتاج (نفدت)
تأليف صوفى عبد الله

١٤ ـ حديث رمضان (نفدت)
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

١٥ ـ عبقرية خالد (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

١٦ ـ الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ. س. ارمستوونج

١٧ ـ كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

١٨ ـ الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

١٩ ـ لا تخف (نفدت)
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٢٠ ـ مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية (نفدت)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٢١ ـ القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

٢٢ ـ زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

٢٣ ـ مذكرات عرابى
جزء اول (نفدت)
تأليف الزعيم احمد عرابى

٢٤ ـ مذكرات عرابى
جزء ثان (نفدت)
تأليف الزعيم احمد عرابى

٢٥ ـ عبقرية عمر (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٦ ـ آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٢٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٨ ـ عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم

٢٩ ـ أبو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

٣٠ ـ البؤساء (نفدت)
تأليف فيكتور هيجو

٣١ ـ علمتنى الحياة (نفدت)
لنخبة من علماء الشرق والغرب

٣٢ ـ فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

٣٣ ـ مدرسة المغفلين (نفدت)
تأليف توفيق الحكيم

٣٤ ـ لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

٣٥ ـ عصاميون من الشرق والغرب (نفدت)
لنخبة من كبار الكتاب

٣٦ ـ الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة ـ الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

٣٧ ـ ذو النورين عثمان بن عفان (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٣٨ ـ محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان

٣٩ ـ عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر

٤٠ ـ الحرية الحمراء
تأليف حبيب جاماتى

٤١ ـ أهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم

٤٢ ـ الله (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز

٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

٤٥ ـ نساء النبى (نفدت)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٤٦ ـ ثائرون
تأليف محمود تيمور

٤٧ ـ زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم

٤٨ ـ هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب

٤٩ ـ غادة النيل
تأليف اميل لودفيج

٥٠ ـ مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد

٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم

٥٢ ـ طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه

٥٣ ـ ألف ليلة وليلة (نفدت)
(الجزء الاول)

٥٤ ـ عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٥٥ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)

٥٦ ـ مدرسة الشيطان
تأليف توفيق الحكيم

٥٧ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)

٥٨ ـ معاوية بن ابى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد

٥٩ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)

٦٠ ـ اعرف نفسك
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٦١ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)

٦٢ ـ مع الله .. فى السماء
تأليف الدكتور احمد زكى

٦٣ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء السادس)

٦٤ ـ قصة الثورة كاملة (نفدت)
تأليف انور السادات

٦٥ ـ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد

٦٦ ـ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٦٧ ـ عبقرية الامام على
تأليف عباس محمود العقاد

٦٨ ـ شاعرة الطليعة عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى

٦٩ ــ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٧٠ ــ بطل الكفاح الشهيدمحمدفريد
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٧١ ــ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر

٧٢ ــ بناة النهضة العربية
تأليف جرجى زيدان

٧٣ ــ محمد الرسول البشر (نفدت)
تأليف توفيق الحكيم

٧٤ ــ القصر المسحور
تأليف طه حسين ــ توفيق الحكيم

٧٥ ــ قصة الثورة كاملة (نفدت)
تأليف انور السادات

٧٦ ــ أسرار الثورة المصرية
تأليف انور السادات

٧٧ ــ عصفور من الشرق
تأليف توفيق الحكيم

٧٨ ــ البؤساء
تأليف فيكتور هيجو
تعريب محمد حافظ ابراهيم

٧٩ ــ اخلاق للبيع
تأليف فتحى رضوان

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب « المبتديان » بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ومن السيد محمد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ومن جميع المكتبات الشهيرة وأكشاك الصحف ، ماعدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢
(الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3,
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

هذا الكتاب

لقد سجلنا لكتاب الهلال هذا البحث الجديد عن الشيوعية والاستعمار

وقد تحدث الأستاذ العقاد في الجزء الأول عن الشيوعية وفي الجزء الثاني عن الاستعمار ، وهو لا يعقد هذه الفصول للموازنة بين الأمرين ، ولكنه أفاض في الكشف عن الشيوعية والاستعمار وأساليبهما والسبل التي يسلكانها لتحقيق أهدافهما وما ينتظر أن يطرأ عليهما من التطور .

ولقد ألم الأستاذ العقاد بكل شيء عن الشيوعية وعن الاستعمار إلماما واسعا مستفيضا ، فلم يدع ثغرة لسائل ، فأحاط بالموضوع إحاطة الدارس المتعمق . وللأستاذ العقاد بالشيوعية والاستعمار عداء قديم ، وقد ساق في هذا الكتاب الأدلة القاطعة على سبب هذا العداء ، وعلى صحة نظرته إليهما ، ثم ينتهي في هذا البحث المستفيض أن لا شيوعية ولا استعمار لنا ، وأن علينا نحن الشرقيين أن نعمل على إقامة سياج يقينا شر الشيوعية وشر الاستعمار